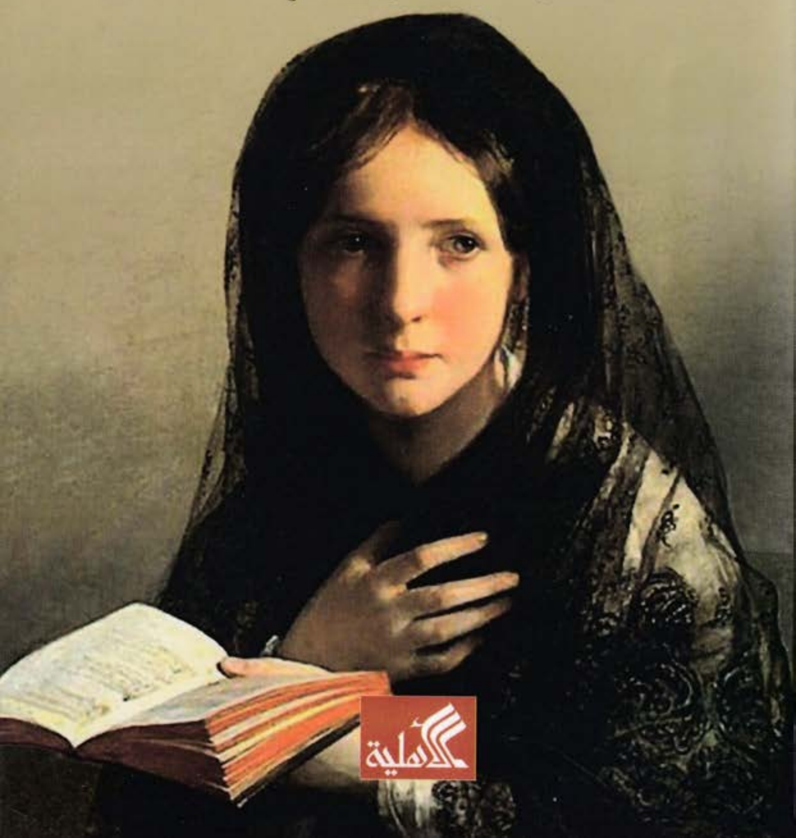
روايات CHARLES DICKENS

تشارلز ديكنز

دوريت الصغيرة

(2) الغنى

ترجمة: حسين القباني





دوريت الصغيرة

(2) الفخ



الأهليّة للنشر والتوزيع

e – mail: alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)

المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية 12

هاتف 4638688 6 00962، فاكس 4657445 6 00962

ص.ب: 7855 عمّان 11118، الأردن



دوريت الصغيرة، الجزء الثاني (الغنى) / رواية إنجليزيّة

تشارلز ديكنز / المملكة المتحدة

ترجمة: حسين القباني / مصر

مستشار التحرير: طارق هاشم / مصر

◆

الطبعة العربيّة الأولى، 2020

◆

تصميم الغلاف: زهير أبو شايب، عمّان، هاتف ***00962 7 95297109***

®

◆

الصفّ الضوئيّ: إيمان زكريّا خطّاب، عمّان، هاتف ***00962 7 95349156***

الترقيم الدولي: ISBN 978 - 6589 - 09 - 858 - 4

روايات



تشارلز ديكنز

دوريت الصغيرة

(2) الغنى

▼

ترجمة: حسين القباني




MOHAMED KHATAB


الغنى


MOHAMED KHATAB



 رفاق سفر

وفي فصل الخريف يخيم الظلام ويعسعس الليل أعلى مرتفعات جبال الألب. أما في الوديان القائمة على جانب ممر سانت برنارد السويسري وعلى ضفاف بحيرة جنيف فكان الموسم موسم القطاف. قطاف العنب ومن ثم كان الهواء محملاً بشذى العنب المجموع. وكانت سلال وقصاع وبراميل العنب قائمة أمام المداخل المعتمة لبيوت القرية، وتعترض شوارعها العتيقة الشديدة الانحدار، كما كانت تحمل طيلة اليوم في الطرقات والأزقة. وفي كل مكان كان ثمة عنب مسحوق ومحطم تحت الأقدام. وكان الطفل المحمول على ظهر أمه المثقلة العائدة بعناء إلى البيت يُسترضَى بقطف من العنب؛ وكان الأبله الجالس يتشمس تحت أطناف الدارة الخشبية على الطريق المؤدي إلى مساقط المياه، يمضغ أيضاً العنب. وكانت أنفاس الأبقار والماعز مفعمة برائحة أوراق وعروق العنب؛ وكان الأحباب في كل ملهى يأكلون ويشربون ويتحدثون عن العنب. وكان من دواعي الأسى أن مثل هذه الروح الكريمة السخية لم تضف شيئاً على تلك الخمر الجامدة القاسية التي هي قبل كل شيء من نتاج هذا العنب.

وكان الهواء دافئاً شفافاً طيلة اليوم المشرق كله؛ وكانت الأبراج المعدنية اللامعة وأسقف الكنائس البعيدة والتي نادراً ما تبدو للناظرين متألقة في الأفق؛ وكانت قمم الجبال الثلجية تبدو بوضوح شديد حتى

ليخيل للناظرين السطحيين وقد أسقطوا من حسابهم الأراضي التي تفصل بينهم وقللوا من ارتفاعها الشاهق، أن المسافة إليها لا تستغرق إلا ساعات قليلة. وكانت قمم الجبال ذات الشهرة الواسعة في تلك الوديان، والتي لم يكن يبدو أي أثر لها خلال عدة شهور متصلة، تبدو منذ الصباح واضحة قريبة في صفحة السماء الزرقاء. أما الآن، وقد انتشرت الظلمة في أسفلها، ورغم أنها بدأت تختفي كأنما هي أشباح تتسلل في الظلام وقد انحسرت عنها الأشعة الحمراء للشمس الغاربة تاركة إياها بيضاء باردة، فقد ظلت بعد واضحة المعالم في عزلتها فوق الضباب والظلال.

وكان الناظر إليها من هذه الأماكن المنعزلة، ومن ممر سانت برنارد الكبير الذي كان واحداً منها، يرى الليل يصعد على الجبال ليغمرها رويداً رويداً وكأنه الطوفان. حتى إذا بلغ أخيراً جدران دير سانت برنارد الكبير، بدا هذا البناء الذي لوحته قسوة الجو وكأنه سفينة نوح أخرى تطفو فوق الأمواج.

وعلى هذا النحو سبق الظلام بعض زوار الدير الوافدين إليه بالبغال، وبلغ جدرانه الغليظة بينما كان هؤلاء الزوار أنفسهم ما يزالون يصعدون الجبل. وكما تحولت حرارة اليوم القائظ عندما توقفوا ليشربوا من ينابيع الثلج المذاب، إلى ذلك البرد الساري في هواء الليل النقي المثلوج عند المرتفعات الشاهقة، كذلك تحولت مباهج الرحلة في أولها إلى لون من الشعور بالجدب والوحشة. وكان طريقهم الآن قد أمسى ممراً وعراً تصعد فيه البغال فرادى بمشقة وهي تنعطف من صخرة إلى أخرى وكأنما هي تصعد سلالم محطمة لخرائب هائلة. ولم يكن ثمة أشجار تُرى، ولا نباتات نامية ، وإنما بعض الطحالب القليلة البنية اللون المتجمدة في ثغرات الصخور. وكان ثمة هياكل لأذرع من الخشب المسود على الطريق تشير إلى أعلى نحو الدير، وكأنما أشباح المسافرين القدامى الذين قضى

عليهم الجليد، تطوف بمكان مأساتهم. وكانت الكهوف ذات المعلقات الجليدية، والمخابئ المشيدة للالتجاء إليها من العواصف المفاجئة، كأنها همسات تحذر من مخاطر المكان. وكانت كتل الضباب الدائم الحركة والمطارد بعويل الرياح والثلوج، وبمناظر الجبال التي كانت لا تجدي معها أية وسائل للدفاع - هذه الكتل من الضباب كانت تهوي بعنف إلى أسفل.

وكان طابور البغال، المجهدة بعناء العمل اليومي، تدور وتنثني ببطء وهي تصعد المرتفع الشديد الميل، وكان يقود البغل في المقدمة مرشد يسير على قدميه، ويرتدي سترة مستديرة وقبعة عريضة الحافة، ويحمل على كتفه هراوة جبلية أو اثنتين، ويتبادل الحديث مع مرشد آخر. ولم يكن ثمة حديث يدور بين طابور المسافرين، ذلك أن البرد القارس، والرحلة المرهقة، والإحساس الجديد الناشئ من لهث الأنفاس وكأنها من ناحية تؤخذ من صفحة ماء بارد صافٍ، ومن ناحية أخرى كأنها شهيق بكاء، كان هذا كله سبباً لأن يجعل الصمت مخيِّماً.

وأخيراً تألق خلال الضباب والثلج ضوء عند قمة السلم الصخري. ونادى المرشدون على البغال، وأرهفت البغال آذانها ورفعت رؤوسها المدلاة، وانطلقت ألسنة المسافرين من قيودها، ثم إذا هم في خضم مفاجئ من الترجُّل والصعود والصلصلة والجلجلة والحديث يصلون إلى باب الدير.

وكان ثمة بغال أخرى قد وصلت قبل ذلك بوقت غير طويل، بعضها بحمولة من الفلاحين، وبعضها بحمولة من السلع. وكلها قد وطأت الثلوج أمام الباب وجعلت منها بركة من الوحل. وكانت الأعنة والسروج والأخرجة والخيوط والأجراس والبغال والرجال والمصابيح والمشاعل والغرائر وأكياس المؤن والبراميل وأقراص الجبن وأوعية الشهد والزبد وحزم من القش، وألوان مختلفة من اللفائف، كلها كانت

متراكمة بلا نظام في هذه المنطقة الموحلة، وحول الدرجات. وفي هذه القطعة التي بلغنا فيها السحاب علواً كان كل شيء يرى من خلال السحاب حتى ليخيل للناظر أن كل شيء قد استحال إلى سحاب. فأنفاس الرجال كانت سحاباً، وأنفاس البغال كانت سحاباً، والأضواء كانت محاطة بالسحاب، والمتحدثون القريبون جداً كانوا لا يرون بسبب السحاب رغم أن أصواتهم، وكل الأصوات الأخرى، كانت تُسمَع بوضوح يثير الدهشة. وكانت البغال في طابورها الضبابي يعض أحدها الآخر، ويرفس بعضها بعضاً وهي تشد إلى الحلقات الحديدية في الجدران، وعندئذ كانت كتلة الضباب كلها تضطرب حين يغوص الرجال فيها، وحين ترتفع أصواتهم من داخلها على أصوات الحيوانات، بحيث لم يكن للواقف المتفرج أن يعرف ماذا يجري فيها. وخلال هذا كله، كان المربط الكبير للدير، الذي يحتل الطابق الأرضي بأكمله والذي كان الدخول إليه عن طريق باب هذا الدور الأرضي، والذي كانت كل هذه الفوضى تجري أمامه، كان هذا المربط يطلق كل ما لديه من سحب، وكأنما ليس في البناء الغليظ كله شيء آخر. وكأنما هو سينهار بأكمله بمجرد أن يفرغ ما فيه، تاركاً الثلوج تتساقط على المرتفع الجبلي الأجرد.

وبينما كان كل هذا الهرج والمرج يجري بين المسافرين الذين تنبعث منهم الحيوية، كان هناك أيضاً، في بيت مسوَّر بالقضبان على بُعد ست خطوات، قد اجتمع أيضاً في سكون المسافرون الذين وُجِدوا أمواتاً في الجبل. وقد لفّهم نفس السحاب، ومرّت فوقهم نفس ندف الجليد. فكانت هناك الأم التي قضت عليها العاصفة منذ عدة شتاءات ماضية، لا تزال واقفة في الركن وابنها على صدرها، والرجل الذي تجمد وذراعه مرفوعة إلى فمه خوفاً من الموت جوعاً، لا يزال يضغط عليها بشفتيه الجافتين بعد مرور أعوام وأعوام. وكان الموتى في الواقع جماعة رهيبة انضم بعضهم إلى بعض بطريقة خفية! ولا شك أنه مصير رهيب كان لتلك المرأة لم تتوقعه

«ما كنت لأتوقع أن أحاط بمثل هذا العدد الكبير من الرفاق الذين لم أرهم قط، ولن أراهم أبداً، وحيث أبقى أنا وطفلي معاً بلا فراق، على ممر سانت برنارد الكبير، لكي تأتي أجيال من الناس لا نهاية لها ليرونا دون أن يعرفوا اسماً لنا أو كلمة واحدة من تاريخنا إلا كلمة النهاية».

وكان المسافرون الأحياء قد فكروا قليلاً، أو لم يفكروا إطلاقاً في هؤلاء الموتى عندئذ. وإنما كان معظم تفكيرهم مركّزاً في الترجُّل عند باب الدير، وتدفئة أنفسهم عند نار الدير. وبعد أن تخلصوا من خضم الفوضى التي هدأت تدريجياً عند بدء إيداع البغال في المربط، هرعوا مرتجفين إلى السلَّم ومنه إلى داخل البناء. وهناك استقبلتهم رائحة متصاعدة من الأرضية.. وكانت رائحة وحوش سجينة، مثل الرائحة المنبعثة من مربط الحيوانات البرية. وكان هناك، في الداخل، أبهاء ذات أقواس متينة البنيان، وأعمدة من الصخور الضخمة، ودرجات سلالم كبيرة، وجدران سميكة محفور بها نوافذ صغيرة خفيضة، أي تحصينات ضد عواصف الجبل، وكأنها أعداء من البشر. وكانت هناك غرف نوم معتمة ذات أسقف مقبوّة، شديدة البرودة، ولكنها نظيفة، وحسنة الإعداد لاستقبال النزلاء. وأخيراً كان هناك قاعة كبيرة يجلس فيها النزلاء، ويتناولون طعام العشاء. وقد كان ثمة مائدة أُعدَّت وحُمِّلت بالطعام فعلاً، ونيران المدفأة المتوهجة تسطع بالدفء والنور.

في هذه القاعة لم يلبث المسافرون أن اجتمعوا حول المدفأة بعد أن قام اثنان من الرهبان الشبان بتعريفهم بالأماكن المخصصة لنومهم وكانوا ثلاث جماعات. وكانت أولاها: باعتبارها الأكثر عدداً والأكبر أهمية، أبطأ حركة، ومن ثم لحقت بها إحدى الجماعتين الأخريين في أثناء الطريق. وكانت هذه الجماعة الأولى مكوّنة من سيدة كهلة، وسيدين أشيبي الشعر، وآنستين معهما أخوهما، وكان يصحب هؤلاء فيما عدا المرشدين والأدلاء

أحد السعاة وخادمان وخادمتان. وقد اجتمع هؤلاء الأتباع في مكان آخر تحت نفس السقف. أما الجماعة التي لحقت بالمجموعة الأولى، وسارت في ركابها، فكانت مكونة من ثلاثة أعضاء فقط: سيدة وسيدين. أما الجماعة الثالثة التي صعدت الجبل من الوادي الواقع على الجانب الإيطالي من الممر، ووصلت أولاً، فكانت مكونة من أربعة أفراد: أستاذ ألماني مكتنز اللحم، صامت، جائع، يضع على عينيه نظارة، وكان يقوم برحلة مع ثلاثة شبان من تلاميذه، وكانوا مثله، مكتنزي اللحم صامتين جائعين، ويضعون النظرات على عيونهم.

جلست هذه الجماعات الثلاث حول النار يتبادل أفرادها النظرات في جفاء، وينتظرون طعام العشاء، على أن واحداً منهم لم يطل به الصمت وانبرى ليدير الحديث فيما بينهم. فبدأ بإلقاء الشباك حول رئيس الجماعة الكبرى، فتحدث إلى واحد من رفاقه بصوت يمكن أن يكون موجَّهاً إلى الجميع إذا شاؤوا أن يكون كذلك، قائلاً إن اليوم كان طويلاً، وإنه مشفق على السيدات، وإنه كان يخشى أن إحدى السيدات الشابات غير معتادة على هذه الرحلات وصحتها لا تساعدها عليها، لأن الإرهاق الشديد بدا عليها منذ ساعتين أو ثلاث. وذلك لأنه لاحظ من مكانه في مؤخرة الركب أنها كانت تجلس على بغلها في إعياء شديد. وأنه تشرّف بعد ذلك مرتين أو ثلاثاً بالاستفسار من أحد المرشدين عندما تراجع إلى الوراء، عن حال الآنسة. وأنه شعر بالسعادة حين علم أنها استردت حيويتها، وأن الأمر لم يكن إلا وعكة عارضة. وأنه الآن يرجو -وكان عندئذ قد اجتذب نظرات رئيس الجماعة فراح يوجه الحديث إليه مباشرة- أن يسمح له بالإعراب عن آماله أن تكون الآنسة الآن أحسن حالاً، وأنها ليست نادمة على قيامها بهذه الرحلة.

فردّ الرئيس قائلاً:

- شكراً لك يا سيدي، إن ابنتي قد استردت نشاطها وقد استمتعت بالرحلة تماماً.

فقال المسافر وهو يغمز في كلامه:

- لعلها حديثة العهد بصعود الجبال؟

فقال الرئيس:

- حديثة العهد.. ها.. بالجبال.

فاستطرد المسافر قائلاً:

- ولكنك يا سيدي معتاد عليها.

فردّ الرئيس وهو يلوح بيده:

- إنني معتاد عليها.. هه.. إلى حد معقول. ولكن ليس في السنوات الأخيرة، ليس في السنوات الأخيرة.

وأومأ المسافر برأسه لحركة يد الرئيس، ثم انتقل إلى السيدة الشابة الثانية التي لم يكن بعد قد أشار في حديثه إليها، كما لم يشر إلى بقية السيدات اللائي كان يشعر نحوهن بالاهتمام. وقال لها إنه يرجو ألا تكون قد انزعجت بما شعرت به من إجهاد في ذلك اليوم، فقالت تلك السيدة الشابة:

- انزعجت حقاً، ولكنني لم أتعب.

وهنأها المسافر على صدقها في التعبير، فإن هذا ما كان يعني أن يقول، فلا بد أن كل سيدة قد انزعجت لاضطرارها إلى التعامل مع ذلك الحيوان الذي لا يعرف التفاهم قط، أي البغل.

وقالت الآنسة التي كانت على شيء كثير من التحفظ والكبرياء.

- لقد كان علينا طبعاً أن نترك المركبات وعربات المتاع عند مارتيني. ومن ثم فإنه ليس ما يدعو للراحة استحالة إحضار الإنسان لما يريد إلى هذا المكان المنيع، واضطراره إلى ترك كل شيء مريح.

وقال المسافر:

- مكان موحش فعلاً.

وهنا قالت بصوت خفيض ناعم السيدة الكهلة التي كانت أنموذجاً لأناقة الملبس أو التي كانت كاملة في تصرفاتها وكأنها آلة متحركة:

- ولكنه، كأي مكان آخر غير مريح، لا بد أن يُرى. نعم كان لا بد أن نراه باعتباره مكاناً يكثر الحديث عنه.

فردّت الأخرى قائلة في غير اهتمام:

- أوه! إنني أؤكد لك أنه لم يكن لدي أي اعتراض على رؤيته يا حرم الجنرال.

فقال المسافر:

- هل رأيت يا سيدتي هذا المكان من قبل؟

فردّت حرم الجنرال قائلة:

- أجل، كنت هنا من قبل.

وأردفت قائلة للآنسة الأخرى:

- ودعيني أنصحك يا عزيزتي أن تظللي وجهك من وهج النار بعد تعرضه لهواء الجبل والثلوج. وأنت أيضاً يا عزيزتي.

وكانت العبارة الأخيرة موجهة إلى السيدة الصغرى التي عملت بالنصيحة فوراً بينما اكتفت الأولى بقولها:

- شكراً لك يا حرم الجنرال. إنني مستريحة تماماً هكذا وأفضِّل أن أبقى كما أنا.

وكان الأخ الذي ترك مقعده ليرفع غطاء بيانو موجود بالغرفة والذي صفّر حين رآه وأعاد الغطاء إلى مكانه، قد أخذ الآن يعود على مهل نحو المدفأة والنظارة على عينيه. وكان مرتدياً بأناقة تامة كل ملابس السفر. ولعل العالم لا يكاد يتسع لعدد من الرحلات التي تكفي لاستهلاك ملابس سفره. وقد قال مغمغماً:

- لقد تأخر هؤلاء الناس طويلاً في إحضار العشاء ترى ماذا سيقدمون لنا؟ ألدى أي أحد منكم فكرة عن هذا؟

فقال الرجل الثاني في الجماعة المكونة من ثلاثة أفراد:

- أعتقد أنه لن يكون رجلاً مشوياً!

فسأله قائلاً:

- لا أظن. ماذا تعني بهذا؟

فردّ الآخر قائلاً:

- أعني أنه ما دمت لن تُقدَّم كصنف في العشاء العام، فلعلك تتكرم ولا تشوي نفسك على المدفأة العامة.

وكان ذلك السيد الشاب واقفاً في استرخاء على سجادة المدفأة يحملق بنظارته في المجتمعين، جاعلاً ظهره إلى وهج النار ورافعاً طرف سترته بيديه من خلاف. فبدا كأنه نوع من الطيور المعدَّة للشي. هذا السيد الشاب تجهم وجهه حين سمع هذه الإجابة، وبدا عليه أنه يوشك أن يطالب بالمزيد من الإيضاح لولا أن اكتشف من اتجاه جميع الأنظار إليه، أن السيدة الجميلة الشابة التي كانت معه، لم تسمع شيئاً مما حدث بسبب سقوط رأسها على كتفه في حالة إغماء.

وقال السيد في صوت خافت:

- أعتقد أنه من الخير أن أحملها إلى غرفتها رأساً.

ثم أردف قائلاً لزميله:

- هلا ناديت على أحد الأدلاء ليأتي لنا بضوء، وليدلنا على الطريق؛ فإني لا أعتقد أنني سأعرف الطريق في هذا المكان العجيب الكثير المسالك.

وقالت أطول السيدتين الشابتين:

- أرجو أن تسمح لي بدعوة خادمتي.

وقالت الأقصر قامة، وكانت لم تتحدث حتى ذلك الحين:

- دعني أضع بعض الماء في فمها.

ولما فعلت كل منهما ما تراءى لها، لم يعد ثمة حاجة إلى عون. بل لقد كان العون في الواقع أكثر من الحاجة إليه عندما أقبلت الخادمتان ومعهما الساعي الذي كان يصحبهما خشية أن تنعقد ألسنتهما إذا حدث ووُجِّه إليهما الحديث بلغة أجنبية. ولما رأى السيد هذا، ولما عبَّر عن شكره إلى أصغر وأقصر السيدتين بكلمات قليلة، لفّ ذراعه حول كتف زوجته، ورفعها، ثم حملها خارج القاعة.

أما صاحبه، الذي تُرِك بمفرده مع النزلاء الآخرين، فقد راح يذرع الغرفة ذهاباً وجيئةً دون أن يعود مرة أخرى إلى المدفأة. وكان يشد طرف شاربه الأسود في صمت ينم عن التفكير، كأنما شعر أنه أصبح مسؤولاً عن ذلك الرد القاسي. هذا بينما كان السيد الشاب الذي تعرض لذلك الرد ينفخ غاضباً في ركن بالقاعة، أما الرئيس، فقد توجه بالحديث في غطرسة إلى السيد الذي تُرِك بمفرده:

- إن صديقك يا سيدي، ضيق الصدر.. هه.. بعض الشيء، ولعله بسبب ضيق صدره لا يدرك تماماً ماذا ينبغي أن.. هه.. لكن، لسوف ندع هذا، سوف ندع هذا.. إن صديقك يا سيدي ضيق الصدر بعض الشيء.

فردّ الآخر قائلاً:

- لعله أنه يكون كذلك يا سيدي. ولكن بما أنه كان لي شرف التعرف بذلك السيد في فندق جنيف حيث التقينا معاً ومع رفاق لطاف منذ وقت ما، وبما أنه كان لي شرف الحديث معه وصحبته في رحلات سابقة، فأنا لا أستطيع أن أسمع، ولو من شخص في مثل مظهرك ومركزك يا سيدي.. شيئاً ضده.

- ليس ثمة أي خطر يا سيدي في وراء سماعك شيئاً كهذا مني. إنني لم أقصد أن أقول شيئاً من هذا عند إشارتي إلى أن صاحبك ضيق الصدر. لقد أبديت هذه الملاحظة فقط لأنه لم يكن ثمة شك في أن ابني الذي يعتبر بحق المولد و.. هه.. بحق الثقافة.. هه.. سيداً ما كان ليتأخر عن تحقيق أية رغبة يراد بها أن تكون المدفأة في متناول الجميع. وهذا في الواقع.. هه.. وفي مثل هذه المناسبات، هه.. ما أراه حقاً.

فكان الرد:

- حسناً! هنا ينتهي الأمر. وأنا خادم ابنك المطيع وأرجو منك أن يتأكد من تقديري العميق له. والآن يا سيدي يمكنني أن أعترف، وأعترف بمطلق حريتي أن صديقي يميل أحياناً إلى التهكم!

- والسيدة هي زوجة صديقك يا سيدي!

- نعم. إن السيدة هي زوجة صديقي يا سيدي.

- إنها وسيمة جداً.

- سيدي، إنه لا نظير لها. وهما لا يزالان في عامهما الأول من الزواج، في رحلة لشهر العسل من جهة ولأغراض فنية من جهة أخرى.

- إن صاحبك فنان يا سيدي؟

وأجاب السيد بأن قبَّل أصابع يده اليمنى، ثم طوّح بالقبلة على طول ذراعه نحو السماء. وكأنما يقول إنه يعتبره من المواهب القدسية كفنان خالد. ثم أضاف قائلاً:

- ولكنه ينحدر من أسرة عريقة. وأقاربه من أعظم الناس. وهو أكثر من فنان. لأن له صلات رفيعة. ولعله، في الواقع، قد نبذ وراءه أقاربه في كبرياء، وضيق صدر، وتهكم «وأنا أقصد ترديد هاتين الكلمتين» ولكنهم أقاربه على كل حال. لقد تبين لي هذا من ومضات لمحتها في أثناء علاقتي به.

فقال السيد المتغطرس في هيئة الذي يريد أن ينهي الحديث في هذا الموضوع:

- حسناً، أرجو أن يكون ما أصاب السيدة أمراً عارضاً لا يلبث أن يزول.

- أرجو هذا يا سيدي.

- يمكنني القول إنه مجرد إرهاق.

- ليس مجرد إرهاق فقط يا سيدي، لأن بغلها تعثر هذا اليوم وسقطت من فوق السرج. لقد سقطت سقطة ضعيفة ونهضت دون مساعدة من أحد، وركبت وسبقتنا وهي تضحك. ولكنها أخذت تشكو عند المساء من كدمة في جانبها. وقد تحدثت عن هذا أكثر من مرة ونحن نتبع جماعتكم في أثناء صعود الجبل.

وبدا أن رأس الجماعة الكبيرة، الذي كان حتى الآن متلطفاً دون أن يرفع الكلفة، قد رأى خلال هذا أنه قد تنازل عن مكانته أكثر مما ينبغي. فتوقف عن الحديث، وخيّم الصمت نحو ربع ساعة حتى جيء بطعام العشاء.

ومع طعام العشاء جاء أحد الرهبان الشبان -وكان يبدو أنه لم يكن ثمة راهب عجوز- ليرأس المائدة. وكان العشاء شبيهاً بطعام العشاء في فندق سويسري هادئ. ولم يكن ينقص الطعام النبيذ الأحمر الجيد المقطر من كروم الدير النابتة في الهواء النقي. وعاد المسافر الفنان بهدوء واتخذ مجلسه على المائدة عندما جلس الباقون، دون أن يبدو عليه أي تأثر بما حدث من مناوشة بينه وبين المسافر الآخر الكامل الملابس.

وفي أثناء تناول الحساء، سأل الراهب المضيف قائلاً:

- ألا يزال لدى الدير عدد كبير من كلابه المشهورة؟

- سيدي، إن لديه ثلاثة.

- لقد رأيت ثلاثة في البهو الأسفل. لا شك أنها الثلاثة التي ذكرتها.

وكان الراهب المضيف شاباً أسمر البشرة، رشيق القوام، متألق العينين، مهذب السلوك، يرتدي ثوباً أسود بخطوط بيضاء متقاطعة فوقه كأنها حلية. ولم يكن يشبه سلالة رهبان سانت برنارد إلا كما تشبه الكلاب الثلاثة الباقية سلالة كلاب دير سانت برنارد القديمة. وقد أجاب قائلاً إن هذه بلا شك هي الكلاب الثلاثة.

وقال المسافر الفنان:

- أعتقد أني رأيت واحداً منها من قبل.

وكان ذلك محتملاً، لأنه كان كلباً واسع الشهرة، ولعل السيد قد رآه بسهولة في الوادي أو في أي مكان على ضفاف البحيرة، عندما كان «الكلب» يحمل أمراً بطلب العون للدير.

– وهذا ما يحدث في الموسم المعتاد من السنة كما أظن.

– إن السيد على حق.

– ولا يحدث هذا قط دون الكلب. إن الكلب مهم جداً.

– إن السيد مرة أخرى على حق. لقد كان الكلب مهماً. ذلك أن الناس كانوا يحبونه ولهم الحق. ولعل الآنسة لاحظت أن هذا الكلب معروف في كل مكان.

وكانت الآنسة بطيئة في الملاحظة، وكأنها لم تكن قد اعتادت بعد على اللغة الفرنسية. ولكن حرم الجنرال لاحظت هذا بدلاً منها.

وقال الشاب، الذي كان متجهماً، بلغته الإنكليزية:

– اسأليه إن كان أنقذ حياة الكثيرين!

ولم يكن المضيف بحاجة إلى من يترجم له السؤال. فأجاب بالفرنسية فوراً:

– لا. ليس هذا الكلب.

فسأل السيد نفسه قائلاً:

– لماذا؟

فردّ المضيف بهدوء قائلاً:

– معذرة! أعطه الفرصة وسوف نرى أنه يفعل بلا شك.

ثم ابتسم للشاب الذي كان متجهماً بوقار، وهو يقطع طبق اللحم البقري ويديره على الجميع، ثم أردف قائلاً:

– فأنا مثلاً مقتنع تماماً يا سيدي أنك إذا أعطيته الفرصة فسوف يسارع إلى تأدية واجبه بكل حماسة.

وضحك المسافر الفنان، أما المسافر «المتودد» -الذي كان شديد اللهفة للحصول على نصيبه الكامل من العشاء- فقد مسح بعض قطرات من النبيذ عن شاربه بقطعة خبز واشترك في المحادثة، فقال:

- إن الموسم أصبح متأخراً يا أبي بالنسبة للمسافرين السائحين.

- نعم، إننا في نهاية الموسم. أسبوعان أو ثلاثة على الأكثر ثم نُترَك في معزل في ثلوج الشتاء.

وقال المسافر «المتودد»:

- ثم بعد ذلك الكلاب النابشة والأطفال المدفونون كما يظهر في الأفلام.

فقال المضيف دون أن يفهم تماماً المقصود بهذه العبارة:

- معذرة! ما معنى الكلاب النابشة والأطفال المدفونون كما يظهر في الأفلام؟

وتدخل المسافر الفنان في الحديث بسرعة قبل أن يجيب أحد فقال ببرود للمسافر الآخر عبر المائدة:

- ألا تعرف أنه ليس غير المهربين هم الذين يأتون إلى هذا الطريق في الشتاء، وأنه لا يمكن لغيرهم أن يكون لهم عمل هنا.

- لا وحق السماء لم أكن أعرف هذا قط.

- هذه هي الحقيقة، في رأيي. وبما أنهم يعرفون تقلبات الجو هنا جيداً، فإنهم لا يتيحون للكلاب عملاً كثيراً.. وهم لهذا السبب يموتون، رغم أن هذا الدير المضياف قد أقيم لهم خاصة. وقد قيل لي إنهم عادة يتركون عائلاتهم الصغيرة في منازلهم، ولكنها فكرة رائعة!

ثم هتف المسافر الفنان فجأة وقد ارتفعت نبراته إلى درجة الحماسة:

- إنها فكرة سامية. بل هي أسمى الأفكار في العالم، إنها بحق الإله جوبيتر لتملأ عيني الإنسان بالدموع.

ثم راح بعدئذ يأكل شرائح اللحم بكل هدوء.

وكان في أعماق هذا الحديث من التناقض والسخرية ما جعله شديد الاضطراب وذلك رغم أن الطريقة التي تحدث بها كانت مهذبة، والمتحدث نفسه موضع الاحترام. ورغم أن الجانب الساخر من الحديث قد ألقي ببراعة حتى يكون من العسير أن يفهمه، فيغضب منه، كل من لا يجيد الإنكليزية إجادة تامة. ومن ثم كانت لهجة الإلقاء بسيطة جداً، وهادئة جداً. وبعد أن خيّم السكون برهة فرغ فيها من تناول اللحم، عاد يقول لصاحبه بلهجته السابقة:

- انظر إلى هذا السيد الذي يستضيفنا، إنه لم يبلغ بعد منتصف العمر، إنه رقيق في سلوكه، ويعاملنا بهذه الوداعة واللباقة الخليقة بملك. تناول عشاءك مع محافظ لندن -إذا استطعت أن تظفر بدعوة- ثم لاحظ الفارق. إن هذا الشخص العزيز، الذي له أجمل تقاطيع وجه رأيتها، وجه يصلح جداً للرسم، قد ترك بعض جوانب الحياة المتعبة، وجاء إلى هنا في مكان يرتفع عن مستوى البحر بعدد من الأقدام لا أعرفه، لا لغرض قط -باستثناء الاستمتاع كما آمل بالحياة في هذا المطعم- إلا لغرض إدارة فندق لنزول شياطين بؤساء عاطلين مثلي ومثلك، تاركاً مسألة دفع الحساب لضمائرنا! أليست هذه تضحية جميلة؟ ماذا تريد أكثر من هذا ليلمس شغاف قلوبنا! أترانا نلعن هذا المكان لأننا لا نرى طيلة ثمانية أو تسعة أشهر على مدار العام، الأشخاص المنقذين من الموت، من ذوي المظهر المثير للاهتمام، وهم يتعلقون برقاب أحكم وأعقل الكلاب الحاملة للأوعية الخشبية لا.. لا لتحل البركة على هذا المكان. إنه مكان عظيم، مكان مجيد.

وكان صدر السيد الأشيب الشعر، رئيس الجماعة الكبرى، قد ارتفع كأنما يحتج على إدماجه في زمرة الشياطين البؤساء. ومن ثم ما كاد المسافر الفنان يمسك عن الحديث حتى بدأ يتحدث هو في عظمة بالغة كأنما من واجبه أن يكون في يده القياد في معظم الأماكن، ولكنه تخلى عن هذا الواجب فترةً ما.

وعبر عن رأيه المتزن للمضيف قائلاً إنه لا شك أن حياته في فترة الشتاء تكون جدباء موحشة.

واعترف المضيف للسيد قائلاً إن الحياة فعلاً تكون مملة بعض الإملال، وإن الهدوء يكون عسيراً على النفس فترة طويلة متابعة، وإن البرد يكون قارساً، وإن الإنسان يحتاج إلى القوة والشباب ليحتمل هذا. وما دام هو، على أية حال، متمتعاً بهما وببركة السماء..

نعم. هذا شيء عظيم جداً، ولكن السيد الأشيب يقول أيضاً:

- ولكن العزلة في الداخل!

- إن هناك أياماً كثيرة، حتى في الجو الرديء، يمكن فيها المشي خارج الدير. وإن من التقاليد المعروفة أن يصنع الرهبان ممراً صغيراً ويتمشى فيه شتاءً.

فعاد السيد الأشيب يقول:

- ولكن المكان عندئذ يكون صغيراً.. هه..، ومحدوداً جداً.

- على السيد أن يذكر أن هناك لاجئين ينبغي زيارتهم، وأنه لا بد من إنشاء ممرات للوصول إليهم.

ولكن السيد ظل في إلحاحه، فقال إن المكان، من ناحية أخرى، جد.. ها.. ضيق. وأكثر من هذا فإن طابع الحياة يظل كما هو، دائماً بلا تغيير.

وهنا أخذ المضيف، بابتسامة تنم عن الضيق، يرفع كتفيه برفق ويخفضهما. وقال إن تلك هي الحقيقة، ولكن ليسمح له بالقول بأن لكل الأشياء تقريباً وجهات نظر مختلفة. فهو والسيد لا ينظر إلى هذه الحياة البائسة من وجهة نظر واحدة. إن السيد لم يتعود على العزلة.

فقال السيد الأشيب الشعر وقد بدا أنه صُدِم من قوة الحجة:

- أ.. ها.. نعم، تماماً.

وقال الراهب الشاب إن السيد، كرحالة إنكليزي محاط بكل وسائل السفر المريح، لا شك يمتلك المال والمركبات والخدم.

فقال ذلك السيد:

- تماماً، تماماً.. بلا شك.

- ولهذا فإن السيد لا يمكن بسهولة أن يضع نفسه في موضع شخص ليست له القدرة على الاختيار. إنني سأذهب إلى هنا غداً أو إلى هناك بعد غد. إنني سأتجاوز هذه الحواجز، وسأوسع هذه الحدود ولعل السيد لا يستطيع أن يدرك كيف يكيِّف العقل نفسه مع هذه الأشياء تحت ضغط الظروف.

فقال السيد:

- تلك هي الحقيقة. ولن نستطرد.. ها.. في هذا الموضوع. فإنك.. هه.. على صواب تام، لا شك في هذا. ولا داعي للمزيد من القول.

ولما كانوا قد فرغوا من العشاء، فقد سحب مقعده بعيداً وهو يتحدث، وعاد إلى مكانه السابق بجوار المدفأة. وبما أن البرد كان شديداً في الجانب الأكبر من المائدة، فقد عاد النزلاء الآخرون إلى أماكنهم الأولى بجوار المدفأة عازمين على شي أنفسهم جيداً قبل أن يأووا إلى المضاجع.

وانحنى المضيف إليهم جميعاً -حين نهضوا عن المائدة- وتمنى لهم ليلة طيبة. وانسحب. ولكن المسافر المتودد سأله قبل أن ينسحب ما إذا كان في مقدورهم أن يطلبوا بعض الخمر لتسخينها، فأجاب بالإيجاب، ولم يلبث أن أرسل إليهم هذا الطلب، كما لم يلبث ذلك المسافر الذي كان جالساً في وسط الجمع، مستمتعاً بالدفء الكامل، أن راح يقدمها للجميع.

وخلال هذه الفترة، كانت أصغر السيدتين الشابتين، تنصت في سكون وانتباه بركنها المظلم، لأن ضوء النار كان النور الرئيسي في القاعة، والمصباح كان خافتاً مدخناً، إلى ما كان يقال عن السيدة الغائبة. ونهضت وانسحبت إلى الخارج. ووقفت حائرة لا تدري إلى أين تتجه بعد أن أغلقت الباب وراءها برفق. ولكن بعد أن ترددت قليلاً بين الأروقة والممرات الكثيرة، وصلت إلى غرفة في ركن البهو الرئيسي حيث كان الخدم يتناولون عشاءهم وحصلت منهم على مصباح، وعلى اتجاه الطريق إلى غرفة تلك السيدة.

وكانت عبر السلم الكبير في الطابق العلوي. وكانت الفتحات الصغيرة ذات القضبان الحديدية متناثرة هنا وهناك على الجدران البيضاء العارية، ومن ثم خُيِّل إليها وهي تمضي أن المكان شبيه بالسجن. وكان الباب المقبو لغرفة السيدة، أو الخزانة، غير مغلق تماماً. وبعد أن نقرت عليه مرتين أو ثلاثاً، فتحته برفق ونظرت إلى الداخل.

كانت السيدة راقدة مغلقة العينين على الجانب الأدنى من الفراش، متدثرة من البرد بالأغطية والبطاطين التي وُضِعت عليها حين أفاقت من نوبة إغمائها. وكان الضوء الخابي الموضوع في فجوة عميقة بالنافذة لا يكاد يترك أثراً في الغرفة المقبوة السقف. وتقدمت الزائرة في رفق نحو الفراش، وقالت هامسة:

- هل أنت أحسن حالاً؟

وكانت السيدة قد استغرقت في النعاس، كان الصوت أخفت من أن يوقظها. أما الزائرة فقد راحت تمعن النظر إليها وهي واقفة في مكانها لا تريم.

وقالت لنفسها:

- إنها جميلة جداً. إنني لم أرَ قط مثل هذا الوجه الجميل. أوه، كم هي مختلفة عني!

وكان عجيباً أن تقول هذا. ولكن ثمة معانٍ خفية كانت تكمن في هذه الكلمات، لأنها ملأت عينيها بالدموع.

- أنا أعرف أنني لا بد على صواب. أعرف أنه تحدث عنها في تلك الليلة. من السهل أن أخطئ في أمر آخر، ولكن ليس في هذا، ليس في هذا.

وبيد رقيقة حانية أزاحت جانباً خصلة نافرة من شعر النائمة، ثم لمست اليد التي كانت خارج الغطاء.

وقالت هامسة لنفسها:

- إنني أحب النظر إليها. أحب أن أعرف الشيء الذي أثّر فيه كل هذا التأثير.

ولم تكن قد سحبت يدها بعد، حين فتحت النائمة عينيها وأجفلت.

- أرجوك لا تنزعجي. إنني فقط واحدة من المسافرين الذين يجلسون في الطابق الأدنى. وقد جئت لأطمئن عليك ولأرى هل يمكن أن أؤدي لك أية خدمة.

- أعتقد أنك قد تعطفت جداً وأرسلت خدمك لمساعدتي.

- لا، لست أنا. إنها أختي. هل أنت أحسن حالاً؟

- أحسن كثيراً. إن الإصابة كدمة بسيطة فقط وقد عولجت برعاية وكادت الآن أن تزول. لقد أصابتني بالدوار والإغماء لحظة. وكانت تؤملني من قبل، ولكنها قهرتني أخيراً على حين غرة.

- هل يمكن أن أبقى معك حتى يأتي أحد؟ أيرضيك هذا.

- أحب هذا، لأن المكان هنا موحش، ولكنني أخشى أن تشعري بالبرد الشديد.

- إنني لا أحفل بالبرد، ولست ضعيفة وإن كنت أبدو هكذا.

وأسرعت بوضع أحد المقعدين الغليظين بجوار الفراش وجلست عليه، وأسرعت الأخرى فرفعت جانباً من دثار السفر ووضعته عليها، ومن ثم بقيت ذراعها -المحتفظة به حتى لا يسقط- مستندة على كتفها.

وقالت السيدة للزائرة وهي تبتسم:

- إن لك طابع الممرضة العطوف. حتى ليبدو أنك جئت إليّ من البيت.

- إني سعيدة جداً بهذا.

- كنت أحلم بالبيت عندما استيقظت الآن. أعني بيتنا القديم، قبل الزواج.

- وقبل أن تكوني بعيدة عنه كل هذا البُعد.

- لقد سبق أن ابتعدت أكثر من هذا كثيراً، ولكن كان معي عندئذ خير ما فيه. ولهذا لم أفتقد شيئاً. لقد أحسست بالوحدة حين غلبني النوم هنا. ومن ثم دفع الحنين بمشاعري إليه.

وكان الصوت ينم عن الحنين والألم والندم، مما جعل الزائرة تمتنع عن النظر إليها في تلك اللحظة.

وبعد برهة من الصمت قالت:

- إنها مصادفة عجيبة تلك التي جمعت بيننا تحت هذا الدثار الذي وضعته عليّ. هل تعلمين أنني كنت أبحث عنك وقتاً ما.

- تبحثين عني؟

- أعتقد أن لديّ هنا رسالة صغيرة طلب مني أن أسلمها إليك أينما أجدك. هذه هي. إلا إذا كنت قد أخطأت جداً. إنها تحمل اسمك، أليس كذلك!

وتناولتها السيدة، وردّت بالإيجاب، ثم قرأتها، وراحت زائرتها ترقبها وهي تفعل هذا. وكانت الرسالة قصيرة جداً. وقد اضطرم وجهها قليلاً وهي تقبِّل زائرتها وتضغط على يدها قائلة.

- يقول كاتب الرسالة إن الصديقة العزيزة التي قدمها إليّ قد تكون سلواي في وقت ما. وإنها لسلواي حقاً منذ أن رأيتها لأول مرة.

فقالت الزائرة في تردد:

- لعلك لا تعرفين قصتي. لعله لم يخبرك قط بقصتي.

- لا.

- أوه، طبعاً، طبعاً.ولماذا يفعل. إنني لا أكاد أجد من حقي أن أقصّها عليك بنفسي الآن، لأنه طلب مني برجاء ألا أفعل وليس فيها الشيء الكثير، ولكن ربما طلبت منك ألا تذكري شيئاً عن هذه الرسالة. ولعلك رأيت أسرتي معي؟ إن بعض أفرادها -وأقول هذا لك فقط- على شيء من الكبرياء والتعصب.

فقالت الأخرى:

– لسوف أعيدها إليك. وعندئذ لن يراها زوجي بالتأكيد. إنه قد يراها مصادفة، وقد يتحدث عنها. هل تسمحين وتضعينها مرة أخرى في صدرك على سبيل اليقين.

وفعلت هذا بعناية كبيرة. وكانت يدها الصغيرة الرقيقة لا تزال على يد الأخرى حين سمعا صوت شخص ما في البهو الخارجي.

وقالت الزائرة وهي تنهض:

– لقد وعدت أن أكتب إليه بعد أن أراك، وكنت على ثقة بأني سأراكِ عاجلاً أو آجلاً، وأخبره هل أنت سعيدة هانئة أم لا. ويحسن أن أكتب إليه بأنك سعيدة هانئة.

– نعم، نعم. قولي له إنني كنت سيدة هانئة جداً، وإنني أشكره من كل قلبي، ولن أنساه أبداً.

– سوف أراك غداً. وبالتأكيد سوف نلتقي مرة أخرى قبل مضي مدة طويلة. طابت ليلتك.

– طابت ليلتك. شكراً لك... شكراً لك. طابت ليلتك يا عزيزتي.

وكانت كل منهما على عجل واضطراب وهما تتبادلان هذه التحية، وعندما أخذت الزائرة تنصرف من الغرفة. وكانت تتوقع أن ترى زوج السيدة مقترباً، ولكن الشخص الذي كان في البهو، لم يكن هو. كان المسافر الذي مسح قطرات الخمر عن شاربه بقطعة من الخبز. فلما سمع وقع الخطوات وراءه، استدار، لأنه كان متجهاً نحو الظلام.

وأبى عليه أدبه، الذي كان موفوراً، أن يترك السيدة تضيء لنفسها طريق السلَّم، أو أن تمضي بمفردها. فتناول منها المصباح، ورفعه إلى أعلى لكي يلقي أكبر كمية من الضوء على الدرجات الحجرية. وتبعها طيلة المسافة إلى قاعة الطعام. وهبطت هي محاولة في جهد أن تخفي شدة رغبتها

في الانكماش والارتجاف. وذلك لأن ظهور هذا المسافر لم يكن، على وجه خاص، مبعث رضا لها. لقد كانت جالسة في ركنها الهادئ قبل العشاء تتخيل ماذا كان يمكن أن يكون دوره في المناظر والأماكن الداخلة في نطاق تجاربها إلى أن أضرم فيها نفوراً جعله يبدو في نظرها شيئاً رهيباً.

لقد تبعها إلى الطابق الأدنى بابتسامته المهذبة، ثم عاد إلى مقعده في أحسن مكان من المدفأة. وهناك حيث كانت نار الخشب قد بدأت تخفت ووهجها يرتفع ويهبط على وجهه في الغرفة المظلمة، جلس وقدماه ممدودتان إلى النار، وراح يشرب خمره الدافئة حتى الثمالة وظله الرهيب يتراقص مقلداً لحركاته على الجدار والسقف.

وكان الجمع المرهق قد تفرَّق، وجميع الباقين قد أووا إلى مضاجعهم فيما عدا والد السيدة الشابة الذي راح في إغفاءة على مقعده بجوار المدفأة. وكان المسافر قد شق على نفسه بالصعود إلى غرفة نومه لكي يأتي بزجاجة خمره التي توضع في الجيب. هكذا قال لهم وهو يسكب محتوياتها فيما تبقى من النبيذ ويأخذ في الشرب بنهم جديد.

– هل يمكن أن أسألك يا سيدي ما إذا كنت في طريقك إلى إيطاليا.

وكان قد وجه هذا السؤال إلى السيد الأشيب الشعر الذي كان قد أفاق من نعاسه واستعد للانصراف. وقد رد هذا بالإيجاب. فعاد المسافر يقول:

– وأنا أيضاً، وأرجو أن يكون لي شرف تحيتكم في أماكن أفضل، وفي ظروف ألطف مما نحن فيها هنا من جبال موحشة.

وانحنى السيد إليه، في وقار وقال، إنه جد شاكر.

وعاد المسافر يقول وهو يجفف بأصابعه شاربه بعد أن غمسه في النبيذ والبراندي:

- إننا معشر السادة المساكين، يا سيدي، لا نسافر كالأمراء، ولكن الأدب والذوق من أغلى الأشياء علينا في هذه الحياة، في صحتك يا سيدي.

- سيدي إني أشكرك.

- وفي صحة عائلتك الممتازة - في صحة السيدتين الجميلتين، ابنتيك.

- سيدي أشكرك مرة أخرى، وأتمنى لك ليلة طيبة. يا عزيزتي هل.. هل أتباعنا في الانتظار.

- إنهم قريبون منا يا أبي.

وقال المسافر وهو ينهض ويمسك الباب مفتوحاً في أثناء عبور السيد الغرفة نحوه وذراعه في ذراع ابنته.

- اسمح لي يا سيدي. أرجو لك نوماً هنيئاً، وإلى أن أسعد برؤياك مرة أخرى. إلى الغد.

وفيما هو يقبِّل يده بأرق أسلوب وألطف ابتسامة، ازدادت السيدة الشابة اقتراباً من أبيها، ومرت به وهي تخشى أن تلمسه.

وقال المسافر المتردد وقد تقلصت لباقته وانخفض صوته حين تُرِك بمفرده:

- ها! إذا كانوا جميعاً قد ذهبوا إلى أسرَّتهم، فلا بد إذن أن أذهب. إنهم متعجلون كالأبالسة. وإن الإنسان ليجد الليل طويلاً في هذا السكون المتجمد والوحشة الباردة، حتى لو ذهب إلى الفراش بعد ساعتين من الآن.

وفيما هو يطرح رأسه إلى الوراء في أثناء تفريغ كأسه في فمه، وقعت نظراته على سجل المسافرين موضوعاً على البيانو، ومفتوحاً

والأقلام والمحابر بجانبه وكأنها سجلت أسماء النزلاء في أثناء غيبته. فلما أخذه في يده، قرأ ما يلي:

ويليام دوريت المحترم.

فريدريك دوريت المحترم.

الآنسة دوريت.

الآنسة إيمي دوريت.

حرم الجنرال.

والخدم.

من فرنسا إلى إيطاليا.

والسيد والسيدة هنري جوان، من فرنسا إلى إيطاليا.

وإلى هذه الأسماء، أضاف بخط دقيق معقد اسمه الذي ذيّله بخط طويل ليس بعيد الشبه بالأنشوطة الملقاة على بقية الأسماء كلها.

«بلاندواز. باريس. من فرنسا إلى إيطاليا».

ثم مضى في الطريق إلى خزانة النوم المخصصة له. وأنفه تهبط على شاربه، وشاربه يرتفع إلى أنفه.

حرم الجنرال



إنه لا مناص من تقديم هذه السيدة الممتازة التي كان لها من الأهمية في محيط أسرة دوريت بحيث كتبت لنفسها سطراً في سجل المسافرين.

كانت حرم الجنرال ابنة قطب ديني في كاتدرائية إحدى المدن. وكانت زعيمة الأناقة والحفلات الاجتماعية حتى اقتربت من الخامسة والأربعين من العمر. ثم حدث أن وقع ضابط صارم في سن الستين كان مديراً للمهمات العسكرية ومشهوراً بالحزم في غرام هذه السيدة الوقور التي اعتادت أن تقود مركبتها ذات الجياد الأربعة في شوارع مدينة الكاتدرائية وبين الوسط الاجتماعي فيها. ولما قبلت هذه السيدة الزواج الذي عرضه عليها، اكتفى الضابط الكبير بأن اتخذ مكانه وراء زوجته في أدب واحتشام. وظلت حرم الجنرال في انطلاقاتها حتى مات الزوج. وفي أثناء حياتهما الزوجية تعرَّفا بعدد كبير من الناس الذين التقوا بهم في الوسط الاجتماعي. ولكن التعارف كان دائماً على مستوى عالٍ، على جانب كبير من الاحترام.

وبعد أن دُفِن الضابط الكبير بكل المراسم الفاخرة اللائقة، وكانت قد ربطت مجموعة جيادها في مركبة الجنازة، وزينتها بالمسوح المخملية

والريش، وشعاره العسكري منقوش في أركان المسوح، بعد هذا بدأت حرم الجنرال تستفسر عن كمية الأرصدة المالية التي تركها الزوج الراحل في البنوك. ثم تبين عندئذ أن الجنرال قد خدع زوجته، إذ كان قد اشترى بأمواله قبل الزواج ببضع سنوات معاشاً سنوياً، ولكنه حرص على الاحتفاظ بهذا سراً بينه وبين نفسه وإن كان أيام الخطوبة دائب الإشارة إلى أن دخله من أرباح أمواله.

وهكذا وجدت حرم الجنرال أن مواردها المالية قد تقلصت إلى حد كبير، وأنها -لولا حُسْن تفكيرها- لأثارت إشكالاً حول سلامة الإعلان الأخير يوم الجنازة من أن زوجها لم يترك شيئاً يمكن أن تأخذه بعد وفاته.

وفي هذا الوضع من الأمور، خطر لها أنها قد تستطيع أن تصقل مواهب وتهذب سلوك سيدة صغيرة من بيت كريم، وإلا فإنها قد تشد جيادها في مركبة سيدة شابة وارثة أو أرملة ثرية، ثم تصبح فوراً السائقة والحارسة لمثل هذه المركبة في متاهات الوسط الاجتماعي. وقد رحب بفكرة حرم الجنرال هذه أقاربها وأقارب زوجها، حين عرضتها عليهم، بحيث بدا أنهم ربما أرادوا التخلص منها، لولا ما هو معروف عن جدارتها وبراعتها. وسرعان ما انهالت عليها، من مصادر محترمة، شهادات التزكية التي تؤكد تدينها الكبير، وثقافتها، وطهارتها، ورقّتها. إلا أن رئيس شمامسة مبجلاً ذرف الدمع وهو يسجل في شهادته كمال أخلاقها -التي وصفها له شخص موثوق به- وذلك رغم أنه لم يتشرف قط بإمتاع نظراته بحرم الجنرال طيلة حياته.

وبعد أن تسلحت هكذا -على يد الكنيسة والدولة- أحست حرم الجنرال التي عاشت في مستوى رفيع دائماً أن من حقها أن تحتفظ بهذا المستوى، وبدأت من ثم تطلب أجراً عالياً جداً على خدماتها. ومرت فترة

طويلة بعض الشيء دون أن يتقدم أحد طالباً هذه الخدمات. وأخيراً شرع في التفاوض معها رجل أرمل من المقاطعة نفسها له ابنة واحدة في الرابعة عشرة من عمرها. وقد استطاعت حرم الجنرال بدبلوماسية مبتكرة أو بوقار طبيعي -ولا بد أن يكون الأمر هذا أو ذاك- أن تفطن إلى أنها هي المطلوبة أكثر مما هي طالبة. وهكذا راح الأرمل يقنعها حتى جعلها تقبل أن تصقل مواهب ابنته وتهذِّب سلوكها.

واستغرقت حرم الجنرال في تمام هذه المهمة سبع سنوات كانت خلالها قد طافت بكل أنحاء أوروبا، وشاهدت مختلف الأشياء الثمينة التي يعتبر ضرورياً لجميع ذوي الثقافة الرفيعة أن يروها ولو بعيون الآخرين إن لم يكن بعيونهم هم. ولما تمت عملية تهذيب تلميذتها أخيراً، لم يتقرر أمر زواجها قط، وإنما تقرر أيضاً أمر زواج والدها الأرمل. وحين وجد هذا الأرمل أن حرم الجنرال لم يعد لها لزوم، فضلاً عن تكاليفها الباهظة، أصبح فجأة شديد الحماسة لمواهبها وإمكانياتها كما كان رئيس الشمامسة. وراح يذيع محاسنها التي لا تُبارى في كل مكان يرى أن الفرصة قد تتاح لنقل هذه البركة إلى عاتق شخص آخر، وهكذا أصبح اسم حرم الجنرال مناط تقدير وتشريف أكثر مما كان من قبل.

وكانت هذه التحفة النادرة معروضة للإيجار، على منصة رفيعة الشأن، عندما ذكر السيد دوريت -الذي كان قد وضع اليد على ممتلكاته- لمديري البنوك التي كان يودع فيها أمواله، إنه يريد العثور على سيدة عريقة المنبت، موفورة الثقافة، واسعة الاتصالات، معتادة على الحياة في الأوساط الراقية، لها من المؤهلات ما يجعلها صالحة فوراً لاستكمال تعليم ابنتيه، وأن تكون لهما وصيفة أو مديرة أعمال. وسرعان ما قال مديرو البنوك للسيد دوريت، كما قال زملاؤهم للأرمل سابقاً «حرم الجنرال».

ولما تتبع السيد دوريت خيط الضوء الذي عثر عليه بحُسْن الحظ، ولما أيقن أن شهادات جميع معارف حرم الجنرال من النوع الذي كان

يريده ويرجوه شقّ على نفسه بالذهاب إلى المدينة التي كان فيها الأرمل، لمقابلة حرم الجنرال. وهناك وجد أمامه سيدة تفوق مؤهلاتها كل ما كان يخطر له ببال أو يتوقع.

قال لها:

- هل يمكن أن تلتمسي لي العذر إذا أنا سألت.. هه.. عن المكافأة؟

فردّت حرم الجنرال مقاطعة لتمنعه من النطق بباقي الكلمة:

- حقاً! إن هذا موضوع أفضِّل أن أتجنب الحديث عنه إنني لم أتحدث عنه قط مع أصدقائي، وأنا لا أستطيع يا سيد دوريت، أن أتغلب على خجلي في الحديث عن موضوع دقيق كهذا. فأنا -كما أرجو أن تكون فاهماً هذا- لست مديرة بيت أو...

فقال السيد دوريت وقد اضطرم وجهه لانكشاف حقيقة مقصده:

- أوه، ويحي! لا. لا. أرجوك يا سيدتي ألا تتصوري لحظة أني أفكر في هذا.

فمالت حرم الجنرال برأسها في وقار وقالت:

- إنني لهذا السبب، لا أستطيع أن أحدد أجراً على خدمات أشعر بالسرور كله في أدائها، إذا استطعت أن أؤديها كما ينبغي، ولكنني لا أستطيع أن أؤديها لمجرد أني سأتناول أجراً عليها. وكذلك لا أستطيع أن أعرف كيف يمكن، أو أين يمكن، أن توجد حالة كحالتي هذه. إنها حالة فريدة في نوعها.

لا شك في ذلك. ولكن كيف يمكن إذن -هكذا لمح السيد دوريت طبعاً- الحديث في هذا الموضوع.

وهنا قالت حرم الجنرال:

- إنني لا أستطيع أن أمانع -رغم أن هذا لا يرضيني تماماً- أن يقوم السيد دوريت هنا بالسؤال بين أصدقائي ومعارفي، عن المبالغ التي تعوّدوا أن يودعوها في البنك باسمي مرة كل ثلاثة أشهر.

فأومأ السيد دوريت برأسه موافقاً.

وعادت حرم الجنرال تقول:

- واسمح لي أن أضيف أنني لا أستطيع فيما عدا هذا، أن أستأنف الحديث في الموضوع. وكذلك لا أستطيع أن تكون مكانتي أقل أو أدنى ممن أعمل معهم. فإذا تشرفت وتعرفت بأسرة السيد دوريت.. لقد قيل لي، كما أظن، إنهما ابنتان!

- نعم، ابنتان.

- إنني أستطيع أن أقبل العمل فقط بشرط المساواة في المكانة. أي باعتباري صديقة أو حارسة، أو راعية أو رفيقة.

ورغم إحساس السيد دوريت بأهميته، فقد شعر كأنها من دواعي العطف والكرم أن تقبل عرضه بأي شرط تريد. وقد عبر لها تقريباً عن إحساسه هذا.

وعادت حرم الجنرال تقول:

- أعتقد أنه قيل لي إنهما ابنتان!

ومرة أخرى قال السيد دوريت:

- نعم، ابنتان.

قالت حرم الجنرال:

- سيحتاج الأمر، من ثم، إلى زيادة المرتب بنسبة الثلث -أياً كانت قيمته التي ستحدد- وهو المرتب الذي اعتاد أصدقائي هنا أن يودعوه باسمي في البنك.

وبادر السيد دوريت بالذهاب إلى الأرمل والحديث معه في هذا الموضوع الدقيق، وقد علم منه أنه اعتاد أن يدفع لحساب حرم الجنرال في العام الواحد ثلاثمائة جنيه. أي أن عليه، دون أن يجهد عقله بعملية حسابية معقدة، أن يدفع لها أربعمائة. ولما كانت حرم الجنرال ذات مظهر فاخر يوحي للإنسان بأنه يستأهل كل مبلغ من المال، فقد عرض عليها رسمياً أن تتكرم وتشرفه وتسعده باعتبار نفسها فرداً من أفراد أسرته.

وكانت حرم الجنرال بذاتها، وبملابسها التي كانت شديدة العناية بها، ذات مظهر فاخر مهيب: كبيرة الجسم، ملفتة للنظر، بدينة جداً، منتصبة القامة، دائماً في مركبتها. إنها قد تؤخذ، وقد أخذت فعلاً، في رحلة إلى قمم الألب أو إلى أعماق مدينة هرقل المدفونة تحت الأرض، دون أن تضطرب ثانية واحدة في ثوبها أو يختل دبوس في شعرها عن موضعه. وإذا كان وجهها وشعرها يبدوان كأنما اكتسيا بطبقة من الدقيق وكأنها عاشت حياتها في مطحن دقيق. فقد كان هذا يرجع على الأغلب إلى أنها مخلوقة طباشيرية البشرة بطبيعتها أكثر من كونها مسفة في استعمال الذرور أو من دبيب الشيب في شعرها. وإذا لم يكن في عينيها تعبير، فلعل السبب يرجع إلى أنه ليس ثمة ما تعبران عنه. وإذا كان في وجهها قليل من الغضون، فإنما لأن عقلها لم يحاول قط أن يرسم بكثرة التفكير غضوناً كثيرة. وعلى الجملة كانت سيدة باردة العواطف، جامدة السمات، منتفخة الجسم، لم يحدث أبداً أن استقرت في الحياة جيداً.

ولم يكن لدى حرم الجنرال آراء معينة، وإنما كانت طريقتها في صقل العقل أن تمنعه من تكوين آراء معينة. كانت لديها مجموعة صغيرة

دائرية من المزالق أو القضبان الذهنية التي أطلقت عليها عدداً صغيراً من قطارات أفكار غيرها من الناس، بحيث لم يكن أحدها يلحق بالآخر قط أو يصل إلى أي مكان. وحتى عندما لا يعجبها شيء ما. كانت تتخلص منه أو تتجاهله أو تبعده عن نطاق بصرها ثم تتظاهر بأنه لا يوجد في الدنيا. وكانت هذه طريقة أخرى من طرق حرم الجنرال في صقل العقل... أن تجمع كل أكوام المشكلات في خزانات وتغلق عليها وتقول إنه ليس لها وجود. وكانت تلك أيسر الطرق، وأفضلها بها لا يدع مجالاً للمقارنة.

ولم يكن لأحد أن يذكر لحرم الجنرال شيئاً مزعجاً. فالحوادث والمآسي والإساءات ما كانت قط لتذكر أمامها. وإن على العواطف الحارة أن تذهب للنوم أمام حرم الجنرال وعلى الدماء الحارة أن تتحول إلى ماء ولبن. أما القليل الباقي في الحياة، بعد استبعاد هذا كله. فكان يتركز في هواية حرم الجنرال للصقل. ففي أثناء عملية صقلها للعقل، كانت تغمس أصغر الفرش في أكبر الأوعية وتلمع سطح أي شيء يقع في محيط اهتماماتها. وكلما كان منطقياً، ازداد اهتمام حرم الجنرال بتلميعه.

كان ثمة لمعان في صوت حرم الجنرال، ولمعان في لمسة حرم الجنرال وجو من اللمعان حول شخصية حرم الجنرال. وكان ينبغي أن تلمع أيضاً أحلام حرم الجنرال -إن كان لها أحلام- وهي راقدة مستغرقة في النوم بين ذراعي سانت برنارد الطيب، وندف الجليد تتساقط فوق سقف الدير.

*　　*　　*

على الطريق



كان ضوء الصباح الساطع يبهر العيون، وكانت الثلوج قد توقفت عن السقوط، واختفى الضباب، وبدا هواء الجبل صافياً رقيقاً حتى كان الشعور الجديد عند تنفّسه يشبه دخول الإنسان في عالم جديد. وتأكيداً لهذا الإحساس بدا كأن الأرض الصلبة لم يعد لها وجود، والجبال التي لاحت فضاءً ممتداً ساطعاً من الكتل والأكوام البيضاء، كأنها منطقة من السحب الطافية بين السماء، والأرض.

وكان ثمة نقط قاتمة في الثلوج كالعقد في خيط ضئيل، تمتد من باب الدير، وتهبط متعرجة إلى أسفل في خطوط متقطعة لم تلتحم بعد. هذه النقط كانت تبين أماكن الرهبان الذين أخذوا يعملون في مواضع متعددة لتمهيد الطريق. وكان الثلج قد بدأ فعلاً يذوب تحت الأقدام حول الباب مرة أخرى. أما البغال فقد أُخرِجت في جلبة من المربط، وشُدَّت إلى الحلقات الحديدية في الجدار، وحُمِّلت، ورُبِطت الأجراس فيها، وأُحكِمت الأحمال فوقها، وتناسقت كالنغم أصوات السائقين والركاب. وكان بعض المسافرين المبكرين قد بدؤوا فعلاً استئناف الرحلة، وكانوا جميعاً، سواء من سار منهم على المرتفع الموازي للماء القريب من الدير أو الهابط في طريق الأمس، يبدون شخوصاً صغيرة متحركة من الناس

والبغال، وقد لاحوا صغاراً بين المساحات الشاسعة حولهم. وهؤلاء وهؤلاء مضوا في الطريق على رنين الأجراس، وعلى الأنغام العذبة للحديث.

وفي قاعة طعام العشاء في الليلة الماضية، كان ثمة نار جديدة أُضرِمت فوق الرماد الخفيف للنار السابقة، وراحت تتوهج على الإفطار اللطيف المكوَّن من أرغفة الخبز والزبدة واللبن. وكانت أيضاً تتوهج على الساعي الملحق بأسرة دوريت وهو يصنع الشاي للجماعة من مئونة كان قد أحضرها معه، فضلاً عن بعض المواد التموينية البسيطة التي جيء بها خاصة لتكون تحت أمر جماعة كبيرة من المسافرين. وكان السيد جوان، وبلاندواز القادم من باريس، قد فرغا من طعام إفطارهما، وراحا يتمشيان ذهاباً وجيئةً بالقرب من البحيرة يدخنان السيجار.

وقال تيب، أو على الأصح، إدوارد دوريت المحترم، وهو يتصفح سجل نزلاء الدير بعد انصراف الساعي تاركاً إياهم للطعام:

– جوان! هه! إن جوان هو اسم جرو صغير، هذا كل ما أستطيع أن أقول! لو كان الأمر يستحق العناء، لشددته من أنفه. ولكن الأمر، لحُسن حظه، لا يستحق هذا. كيف حال زوجته يا إيمي؛ أعتقد أنك تعرفين. فأنت عادة تعرفين الأشياء التي من هذا النوع.

– إنها أحسن حالاً يا إدوارد. ولكنهم لن يرحلوا اليوم.

فقال تيب:

– أوه! ألن يرحلوا اليوم! هذا من حُسْن حظ ذلك الشخص أيضاً، وإلا فربما حدث اصطدام بيني وبينه.

– لقد رؤي أن من الخير لها أن ترقد في هدوء اليوم، وألا تجهد نفسها بمشاق رحلة العودة إلا غداً.

- أرجو هذا من كل قلبي. ولكنك تتحدثين كما لو كنت ممرضتها. إنك لم تعودي إلى «إن حرم الجنرال ليست هنا» إلى عاداتك القديمة يا إيمي. أليس كذلك؟

وألقى هذا السؤال عليها وهو يختلس نظرة ماكرة لملاحظة ما سيبدو على وجه فاني، وعلى وجه أبيه أيضاً.

وقالت دوريت الصغيرة:

- لقد ذهبت إليها فقط لأسألها هل يمكن أن أقوم لها بأية خدمة يا تيب.

فردّ ذلك السيد الشاب متجهماً:

- لا داعي لأن تناديني باسم تيب أيتها الطفلة إيمي. لأن تلك عادة قديمة، وهي من العادات التي يحسن الإقلاع عنها.

- إنني لم أكن أقصد هذا يا عزيزي إدوارد. لقد نسيت. لقد كان الاسم طبيعياً في وقت ما بحيث بدا أنه الاسم المناسب في هذه اللحظة.

وتدخلت الآنسة فاني قائلة:

- أوه، أجل. طبيعياً، وفي وقت ما، والاسم المناسب، وباقي هذا كله. إنه هراء أيتها المخلوقة الصغيرة! إنني أعرف تماماً لماذا اهتممت بأمر السيدة جوان. إنك لا تستطيعين أن تخدعيني.

- إنني لن أحاول يا فاني، فلا تغضبي.

فردّت الآنسة فاني في استنكار:

- أغضب! إنني فقط نافدة الصبر معك.. وكانت تلك هي الحقيقة.

وقال السيد دوريت رافعاً حاجبيه:

- أرجوك يا فاني، ماذا تعنين؟ أرجو أن توضحي لنا الأمر.

فأجابت الآنسة فاني قائلة:

- أوه، لا تبالِ يا أبي، فالأمر ليس خطيراً، وسوف تفهمني إيمي فهي تعرف -أو تعرف عن- السيدة جوان قبل الأمس. ولعلها لا تستطيع إلا أن تعترف بهذه الحقيقة.

فقال السيد دوريت وهو يستدير نحو ابنته الصغرى:

- هل.. هل لأختك يا طفلتي أي حق في هذا الحديث؟

وأسرعت الآنسة فاني تقول قبل أن تجيب إيمي:

- أياً كانت وداعتنا، فنحن لا نزحف إلى غرف الآخرين على قمم جبال باردة، ونجلس معرضين للصقيع مع أناس إلا إذا كنا نعرف مقدماً شيئاً عنهم. وإنه ليس من العسير أن نخمن اسم صديق السيدة جوان.

فقال الوالد:

- من هو؟

وهنا قالت الآنسة فاني بعد أن نجحت عندئذ في الوصول بمشاعرها إلى حد الإحساس بأنها تعرضت للإساءة وسوء المعاملة، كما كانت تفعل كثيراً.

- أبي، يؤسفني أن أقول إنني أعتقد أن السيدة جوان صديقة لذلك الشخص البغيض جداً، السمج جداً، الذي عمد بكل ما يتنافى مع أصول اللياقة؛ وهذا ما كان يمكننا أن نتوقعه منه بحكم تجاربنا معه، إلى إهانتنا والاستهانة بكل مشاعرنا بطريقة علنية مقصودة وفي مناسبة تم التفاهم بيننا على ألا نشير إليها.

فقال السيد دوريت وهو يمزج الشدة مع الحب الوقور:

- إيمي، يا طفلتي! أهكذا الأمر؟

فردّت الصغيرة إيمي بوداعة إن الأمر حقاً هكذا.

وصاحت الآنسة فاني:

- نعم، إنه كذلك، طبعاً! هذا ما قلت! والآن يا أبي، إنني أعلن للمرة الأخيرة...

وكانت هذه السيدة الشابة معتادة على إعلان نفس الشيء كل يوم في حياتها، بل وعدّة مرات في اليوم الواحد؛ وقد استطردت تقول:

- إنها لفضيحة! وإني أعلن للمرة الأخيرة، أنه ينبغي أن نضع لهذا حداً. ألا يكفي ما عانيناه جميعاً، وما هو معروف لنا فقط؛ فنتعرض أيضاً لأن نعير به بكل إلحاح ووضوح، من نفس الشخص الذي كان ينبغي أن يترفق بعواطفنا أكثر من غيره، هل علينا أن نتعرض لهذا التصرف غير الطبيعي في كل لحظة من أيام حياتنا؟ ألن يسمح لنا أبداً أن ننسى؟ أقولها مرة أخرى إنه لأمر مزعج جداً.

فعلّق الأخ وهو يهز رأسه:

- اسمعي يا إيمي. أنت تعلمين أنني دائماً أقف بجانبك كلما استطعت وفي معظم الأحوال. ولكني ينبغي أن أقول، مقسماً، إنني أعتبر ما حدث تصرفاً لا يتفق إطلاقاً مع عواطف الأخت نحو أخيها، وذلك بأن تقفي في صف رجل عامَل أخاك بطريقة خشنة غليظة لا يمكن لرجل أن يعامل بها رجلاً آخر. كما أنه لا بد أن يكون...

وكان تيب يضيف هذا بلهجة مقنعة قائلاً:

- لصاً دنيئاً كما تعلمين، وإلا لما تصرف قط على هذا النحو..

وقالت الآنسة فاني:

- ثم انظري.. انظري ماذا سيكون من هذا الأمر! هل يمكن أن نرجو قط أن نكون موضع احترام الخدم. لا، أبداً. فها نحن لدينا سيدتان، وخادم أبي الخاص، والخادم التشريفاتي، والساعي، وكل أنواع الأتباع والحاشية، ومع هذا، وفي وسط هذا كله، نجد واحدة منا تهرع بأكواب ماء باردة، كأحقر خادم!

ثم أردفت الآنسة فاني قائلة:

- لو أن متسولاً أصيب بلوثة في الطريق لما اندفع هكذا بأكواب الماء كما فعلت إيمي في هذه الغرفة نفسها وأمام أعيننا في الليلة الماضية.

وقال إدوارد:

- إنني لا أبالي بهذا، إذا حدث عرضاً. ولكن صاحبك كلينام هذا، كما يقول عن نفسه، شيء آخر.

فردّت الآنسة فاني قائلة:

- إنه جزء من نفس الموضوع، ومتفق في الرأي مع الباقين جميعاً. لقد أقحم نفسه علينا منذ الوهلة الأولى، ولم نكن نرغب فيه قط. وكنت من جانبي أبيّن له دائماً أنني أتمنى بكل سرور أن أتحرر من صحبته. ثم إذا هو بعد ذلك يرتكب هذا الانتهاك لعواطفنا، وهو الانتهاك الذي ما كان ليخطر بباله قط أن يرتكبه لولا البهجة التي يستمدها من فضيحتنا ثم إذا نحن مطالبون بخدمة أصدقائه! إنني لا أعجب، إذن، من سلوك السيد جوان نحونا. ماذا ينتظر غير هذا ما دام يستمتع بذكرى آلامنا الماضية، ويضحك في نفسه منها في تلك اللحظة.

وقالت دوريت الصغيرة متوسلة:

- أبي، إدوارد. لا، لا، أبداً. إن كلاً من السيد جوان أو السيدة جوان لم يسمع بأسمائنا من قبل. لقد كانا، ولا يزالان، جاهلين تماماً بماضينا.

فردّت الآنسة فاني قائلة وقد صممت على عدم الاعتراف بأي شيء يهدئ الموضوع:

- هذا أشد سوءاً، لأنه عندئذ لم يكن لك أي عذر، فلو أنهم كانوا يعرفون عنا شيئاً، لربما وجدت أن من الحكمة استمالتهم نحونا. وكانت هذه تعتبر غلطة تنم عن الضعف والرزاية. ولكنني أستطيع أن أحترم الغلطة، بينما لا أستطيع قط أن أحترم تحقيراً مقصوداً متعمداً لمن هم أقرب وأعز الناس إلينا. لا، لا أستطيع أن أحترم هذا. إنني لا أستطيع أن أفعل إلا أن ألعنه.

فقالت دوريت الصغيرة:

- إنني لم أسيء إليك قط عن قصد يا فاني، رغم أنك كنت دائماً قاسية معي.

فردّت أختها قائلة:

- إذن كان ينبغي أن تكوني أشد حذراً يا إيمي. إذا كنت تفعلين مثل هذه الأشياء بلا قصد، فيجب أن تكوني أشد حذراً. فلو حدث أني ولدت في مكان معين، وفي ظروف معينة حرمتني من معرفة كل ما ينبغي من آداب السلوك، فإني أرى أنه ينبغي أن أفكر في أني ملزمة بتدبر كل خطوة فأقول لنفسي «هل أنا، بلا قصد، سأسيء إلى أي شخص قريب عزيز!». هذا ما يتعين عليّ أن أفعله، فيما لو كنت في موضعك.

وفي الحال تدخل السيد دوريت ليضع حداً لهذه الموضوعات المؤلمة، بما له من نفوذ، ولكي يوضح مبادئهم بحكمته فقال لابنته الصغرى:

- يا عزيزتي، إنني أرجو ألا.. ها.. ألا تقولي شيئاً آخر. إن أختك فاني تعرب عن ذات نفسها بعنف، ولكن هناك مبرر قوي لهذا. إن هذا المركز العظيم لا تحتلينه بمفردك، فقط، ولكن.. ها هي أختك تحتله معك،

وها نحن نحتله جميعاً معك. وإن من المفروض على جميع الذين في مراكز سامية ولا سيما نحن لأسباب ما.. لا داعي لذكرها الآن، أن يظفروا لأنفسهم بالاحترام، وأن يبذلوا كل جهودهم في هذا السبيل، ولكي يحترمنا الأتباع يجب أن يبقوا.. ها.. على مسافة منا.. اجتماعياً.. ولهذا فإنه من المهم جداً ألا تعرّضي نفسك لانتقاداتهم بالاستغناء عن خدماتهم أو بالقيام بالخدمات لنفسك بدلاً منهم.

وصاحت الآنسة فاني:

- من يشك في هذا؟ إن هذا أساس كل شيء.

فقال الوالد في جلال:

- فاني، أرجوك أن تسمحي لي يا عزيزتي، ونأتي الآن إلى.. ها.. السيد كلينام. إن لي الحرية في القول بأنني، ها.. لا أتفق مع أختك، يا إيمي، في وجهة نظرها، أي أنني أقول بالإجمال.. هه.. بالإجمال فيما يتعلق بالسيد كلينام. إنني مطمئن إلى اعتبار هذا الشخص في ضوء.. هه.. بوجه عام، مهذب السلوك. وأنا لن أسأل ما إذا كان السيد كلينام قد أقحم، في أي وقتٍ، نفسه.. هه.. في محيطنا. إنه كان يعرف أننا.. هه.. جديرون بأن يتعرف الناس بنا، ولعل عذره أنه كان يراني في ضوء الشخصية العامة. ولكن هناك ظروفاً تتعلق.. هه.. بمعرفتي البسيطة بالسيد كلينام - وكانت بسيطة جداً- وهذه الظروف...

وهنا أصبح السيد دوريت شديد الوقار والتأثير عندما راح يردف قائلاً:

- تجعل من أصول اللياقة العالية ألا يسعى السيد كلينام إلى تجديد اتصاله بي، أو بأي فرد في أسرتي تحت هذه الظروف القائمة. فلو أن السيد كلينام من رهافة الحس ما يجعله يدرك منافاة ميل هذه المحاولة لأصول

اللياقة، فإني ملزم، كإنسان مهذب مسؤول، أن أعتمد على حسّه هذا المرهف. أما إذا لم يكن للسيد كلينام -من ناحية أخرى- هذا الإحساس المرهف، فأنا لا أستطيع للحظة واحدة، هه، أن أبقى على صلتي، هه، بصاحب مثل هذا الطبع الغليظ. وإنه ليبدو، في كلتا الحالين، أن السيد كلينام قد أصبح خارج الموضوع تماماً، وأنه لم يعد ثمة ما يربطنا به، أو يربطه بنا. ها! حرم الجنرال!

وكان دخول تلك السيدة التي ذكر اسمها، لكي تأخذ مكانها من مائدة الإفطار، سبباً لإنهاء المناقشة. وبعد ذلك بقليل أعلن الساعي أن الخادم الخاص، والخادم التشريفاتي، والخادمتين، والأولاد الأربعة، والبغال الأربعة عشر على استعداد. وهكذا غادرت الجماعة مائدة الإفطار، وخرجت من باب الدير للانضمام إلى القافلة.

ووقف السيد جوان في معزل، بسيجاره وقلم الرسم. ولكن السيد بلاندواز كان في الانتظار ليقدم تحياته إلى السيدات. وعندما رفع بشهامة قبعته الأنيقة تحية للصغيرة دوريت، خطر لها أن منظره ازداد فظاعة وهو واقف بقامته المديدة وبعباءته في الثلوج أكثر مما كان وهو واقف بجانب المدفأة في الليلة السابقة. ولكن بما أن كلًّ من أبيها وأختها تقبّل تحيته بترحاب، فقد أبت أن تعرب عن أي شعور بالنفور، حتى لا يعتبر هذا قصوراً جديداً ناتجاً عن مولدها في السجن.

وعلى أية حال، فبينما كانوا يهبطون الممر الوعر والدير لا يزال على مرمى البصر، نظرت وراءها أكثر من مرة، ولمحت السيد بلاندواز ومن ورائه دخان الدير يتصاعد من المداخن في شريط ذهبي، واقفاً دائماً على موضع بارز يمد البصر إليهم. وبعد مدة طويلة أصبح خلالها مجرد عصا سوداء في الثلج، أحست كأنها هي لا تزال قادرة على رؤية ابتسامته تلك، وأنفه المرتفع، وعينيه المتقاربتين جداً. وحتى بعد ذلك، عندما اختفى

الدير، وغلفت الممر في أسفله بعض سحب الصباح الخفيفة، فقد بدا لها أن هياكل الأذرع الرهيبة السوداء على الطريق لا تزال تشير إليه.

إن بلاندواز هذا القادم من باريس والأكثر خداعاً من الثلج، وربما، الأشد منه برداً في قلبها، والأعسر منه على الذوبان، أخذ يتلاشى من ذهنها تدريجياً وهم يصلون إلى المناطق الأقل وعورة. ومرة أخرى أصبحت الشمس دافئة، وغدت الجداول المنحدرة من بحار الجليد ومن الكهوف الثلجية منعشة عند الشرب منها، ومرة أخرى غدوا بين أشجار الصنوبر، والنهيرات الجارية بين الصخور، والمرتفعات المخضرة والوديان والدارات الخشبية، والسياجات المتعرجة، والريف السويسري. وكان الطريق يتسع أحياناً بحيث كان في مقدورها أن تركب في المقدمة جنباً إلى جنب مع أبيها، وكان حسبها النظر إليه وهو مرتد ملابسه الفاخرة ذات الفراء والطيالس، غنياً حراً، موفور الخدم والحشم، ونظراته تهيم بعيداً بين روائع المناظر الطبيعية، دون أن يجد منها حاجز تعس يلقى بظله الكئيب عليه.

وكان عمها قد أنفذ منذ أمد بعيد من هذا الظل القديم، بحيث ارتدى الملابس التي قدموها إليه، وتحمّل بعض واجبات النظافة باعتبارها تضحية يجب أن يؤديها لصالح الأسرة، وذهب إلى حيث أريد له أن يذهب بهذا الإحساس من البهجة الذي يخامر حيواناً أليفاً معيناً، والذي يعبر به عن الفائدة التي نالها من تغيير الهواء والمناظر. ولم يكن في جميع المظاهر الأخرى، فيما عدا واحدة.. يسطع إلا بالضوء المنعكس عليه من أخيه... وكانت عظمة أخيه، وثراؤه، وحريته، وأبهته تسعده دون أية إشارة إلى نفسه. وكان في صمته وانطوائه لا يجد جدوى من الحديث عندما يستطيع أن يسمع أخاه يتحدث. ولم يكن به رغبة لأن يقوم الخدم بين يديه، ومن ثم قصر الخدم أعمالهم على أخيه. وكان التغيير الوحيد الذي أجراه على سلوكه هو موقفه من ابنة أخيه الصغرى. وكان هذا

التغيير يتحول ويتطور يوماً بعد يوم إلى احترام ملحوظ قلما يظهره الشيوخ للشبان، ومع ذلك فقد كان يبدو تأثيره عليه بوجه خاص حتى ليمكن القول إنه كان ينميه دائماً في أعماق نفسه. وفي تلك المناسبات التي كانت الآنسة فاني تعلن فيها قراراتها النهائية. كان هو ينتهز أول فرصة تالية تسنح، ليرفع قبعته عن شعره الأشيب أمام دوريت الصغيرة ويساعدها في الهبوط من المركبة أو في الصعود إليها، أو يظهر لها أي نوع آخر من الاهتمام بكل احترام كبير. ومع ذلك فلم يكن هذا كله يبدو متكلفاً أو في غير موضعه، وإنما كان ينبع ببساطة من القلب، ويبدو صادقاً أصيلاً. وكذلك لم يكن يرضى قط، حتى مع رجاء أخيه له، أن يتقدمها إلى شيء، أو يأخذ الأسبقية منها في أي شيء. وكان من شدة غيرته على توفير أسباب الاحترام لها، أنه في أثناء هذه الرحلة نفسها التي يهبطون فيها ممر سانت برنارد الكبير، ثار فجأة واشتد سخطه على الخادم الذي تهاون في مسك الركاب لها، رغم وقوفه قريباً، عندما ترجلت. وبطبيعة الحال دهش الجميع حين هجم عليه ببغله العنيد، وحاصره في ركن من الممر، وهدده بالموت تحت حوافر البغل.

وكانت جماعة طيبة كريمة، ومن ثم كان جميع أصحاب الفنادق يحترمون أفرادها إلى حد التقديس. وأينما كانوا يذهبون، كانت أنباء أهميتهم تسبقهم على يدي الساعي الذي كان يمضي في المقدمة راكباً ليتأكد من أن الغرف الفاخرة المحجوزة قد أُعِدَّت. كان البشير في موكب الأسرة الذي يمضي في المقدمة، وبعده كانت تأتي مركبة السفر الكبيرة تضم في جوفها السيد دوريت، والآنسة فاني، والآنسة إيمي، وحرم الجنرال، وكان يركب خارجها بعض الأتباع أو الحاشية، في الجو الصحو. أما إدوارد دوريت فكان يجلس في مقعد السائق. ثم تتلوها مركبة صغيرة يستقلها المحترم ويليام دوريت وبجانبه مكان خالٍ يجلس فيه المحترم إدوارد دوريت إذا أمطرت السماء. ثم عربة الذخيرة بعد ذلك مع بقية

الأتباع، ومع الأمتعة الثقيلة ومع ما يمكنها أن تحمله من الأتربة والأوحال التي تهيلها عليها المركبات التي تتقدمها.

هذه المعدات كلها كانت تزيّن فناء فندق مارتيني عند عودة الأسرة من رحلتها الجبلية. وكان ثمة مركبات أخرى هنا، لأن جماعات كثيرة كانت على الطريق آتية من الأقاليم الإيطالية.

ولكن كان هناك نوع آخر من الزينة في الفندق لم يكن في حسبان السيد دوريت، ذلك أن اثنين من المسافرين الغرباء احتلا إحدى غرفه المحجوزة. وأقسم مدير الفندق، وهو واقف في الفناء والقبعة في يده، للساعي أنه مغموم، وأنه مكظوم، وأنه مصاب بكارثة، وأنه أيأس وأتعس الحيوانات، وأن له رأس خنزير أحمق عنيد. وقال إنه ما كان ينبغي أبداً أن يوافق، ولكن السيدة الرقيقة جداً استعطفته بكل حرارة ليسمح لها بالنزول في الغرفة لمدة نصف ساعة فقط يتناولان فيها الغداء، وهذا ما جعله يقبل. وانصرم نصف ساعة، وأخذ السيد والسيدة يتناولان الحلوى، ثم القهوة، ودفعا الحساب، وأمرا بإعداد الجياد، وكانا على وشك الرحيل فوراً، ولكن لسوء حظه وغضب السماء عليه لم يرحلا بعد.

ولم يكن ثمة شيء يفوق غضب واستنكار السيد دوريت وهو يستدير عند أولى درجات السلّم حين سمع هذه الاعتذارات. لقد شعر أن كرامة الأسرة قد طُعِنت بيد قاتل غادر. وكان إحساسه بكرامته ذا طبيعة مرهفة جداً. كان في مقدوره أن يلتقط أي مساس به قبل أن يفطن أي شخص آخر إلى هذه الحقيقة. لقد امتلأت حياته بالآلام بسبب عدد من الجراح الخفية، بحيث شعر أنها لا تزال تعمل على التهوين من كرامته.

قال السيد دوريت بوجه مضطرم جداً:

- أيمكن يا سيدي أن تبلغ بك.. ها.. الجرأة إلى حد وضع إحدى غرفي تحت تصرف أي شخص آخر.

آلاف المعذرة! إن من سوء حظ مدير الفندق الشديد أن يضعف أمام تلك السيدة الرقيقة جداً. وإنه ليبتهل إلى السيد ألا يغضب نفسه. وإنه ليضع نفسه بين يدي السيد طالباً الصفح. فإذا كان السيد يتفضل ويتكرم ويشغل الصالون الآخر الذي حُجِز له خاصة، لمدة خمس دقائق فقط، فإن كل شيء سيكون على ما يرام.

وقال السيد دوريت:

– لا، يا سيدي. إنني لن أشغل أي صالون. لسوف أرحل عن الفندق بلا طعام أو شراب أو النزول فيه. كيف تجرؤ على التصرف هكذا؟ من أنا حتى تفرق.. ها.. بيني وبين السادة الآخرين.

وا أسفاهُ إن مدير الفندق يشهد العالم كله بأن السيد ألطف من جميع طائفة النبلاء، وأعظم شأناً، وأعلى مقاماً، وأرفع شرفاً. وإذا كان يفرق بين السيد وبين الآخرين، فلأنه فقط أرفع مركزاً، وأعظم سماحة، وأكرم يداً، وأطيب سمعة.

فردّ السيد دوريت بعنف شديد:

– لا تقل هذا لي يا سيدي. لقد عرّضت بي، لقد أهلت الإهانات على رأسي. فكيف تجرؤ على هذا؟ فسّر موقفك.

آه، يا للسماء! إذن كيف يستطيع مدير الفندق أن يفسر موقفه بعد أن لم يعد لديه المزيد من التفسير؛ وعندما لم يبقَ لديه إلا الاعتذارات وإلا أن يضع نفسه تحت رحمة مثل هذا السيد الكريم.

وقال السيد دوريت وهو يلهث بالغضب.

– أقول لك يا سيدي إنك تفرق بيني.. ها.. وبين السادة الآخرين. وإنك وضعت امتيازات بيني وبين غيري من السادة ذوي الثراء والنفوذ.

وأنا أسألك لماذا؟ أريد أن أعرف.. ها.. بأية سلطة، وبناءً على أية سلطة. أجب يا سيدي. فسّر موقفك. قل لماذا!

ليسمح السيد لمدير الفندق أن يستشهد، بكل تواضع، بالساعي إذن. وإن السيد سوف يدرك بسماحته، أنه ليس هناك ما يدعو إلى هذا الغضب إذ ليس هناك سبب. ولسوف يعترف الساعي للسيد أنه انخدع حين ظن أن هناك سبباً آخر غير السبب الذي تشرف وقدّمه خادمه المطيع إليه، وهو أن السيدة الرقيقة جداً...

فصاح السيد دوريت قائلاً:

- سكوتاً! أمسك لسانك فأنا لا أريد أن أسمع المزيد عن هذه السيدة الرقيقة جداً. ولا أريد أن أسمع المزيد منك. انظر إلى هذه الأسرة، أسرتي... إنها أسرة أكثر رقة من أية سيدة. لقد عاملت هذه الأسرة بغير احترام. لقد أهنتها.. لسوف أخرب بيتك! ها.. أحضر الجياد، وضع الأمتعة في المركبات، لأني لن أضع قدماً في فندق هذا الرجل مرة أخرى.

ولم يتدخل أحد في هذا النزاع الذي كان يجري بهذه اللغة الفرنسية السقيمة التي كان يتحدث بها إدوارد دوريت المحترم، والتي كانت لا تكاد تفهم في محيط السيدات. إلا أن الآنسة فاني سارعت عندئذ وأيدت أباها بعنف مرير قائلة بلغتها الإنكليزية إن الأمر جد واضح في وجود شيء خاص منطوٍ تحت وقاحة هذا الرجل؛ وإنها ترى أن من الأهمية بمكان أن هذا الرجل يجب، بأية وسيلة، أن يرغم على النزول عن سلطته التي أتاحت له التفرقة بين هذه الأسرة وبين غيرها من الأسر الثرية. أما الأسباب التي جعلته يتخذ مثل هذا الإجراء، فإنها لا تعرفها. ولكن لا بد أن لديه أسباباً، ومن ثم فعليهم أن ينتزعوها منه.

وكان جميع الأولاد؛ وسائقو البغال، والمتسكعون في الفناء قد جعلوا من أنفسهم أحزاباً في هذه المداولة الغضوب، وقد اشتد تأثرهم

حين رأوا الساعي قد استنهض نفسه ليمضي بالمركبات إلى الخارج. وبمعونة نحو عشرة رجال لكل عجلة، استطاع أن يفعل هذا في خضم ضجيج مرتفع. ثم بدأ بعد ذلك وضع الأمتعة في المركبات ريثما تأتي الجياد من دار البريد.

ولكن لما كانت المركبة الصغيرة للسيدة الإنكليزية الرقيقة، مُعدَّة بالجوادين أمام باب الفندق، فقد انفلت مديره إلى أعلى ليعرض موقفه الحرج. وقد علم هذا في الفناء عن طريق عودته وهو في صحبة السيد والسيدة، وبإشارته إلى السيادة المهانة للسيد دوريت؛ وذلك بحركة لها دلالتها من يده.

وقال السيد وهو يخلي نفسه من السيدة ويتقدم نحو السيد دوريت:

- أرجو المعذرة، إنني رجل قليل الكلام، ولا أجيد التفسير. ولكن السيدة هنا شديدة الرغبة في ألا تحدث مشاجرة.. إن السيدة وهي في الواقع أمي، تريد أن تقول إنها ترجو ألا تحدث مشاجرة.

وحيا السيد دوريت، الذي ظل يلهث بسبب تلك الإهانة، السيد، ثم السيدة بطريقة حاسمة، باردة لا تخلو من التحدي.

- لا لا، ولكن اسمع أيها الصديق العجوز.

وكانت تلك هي طريقة السيد في الحديث مع إدوارد دوريت المحترم، الذي انقضّ عليه وكأنه نجدة كبرى من السماء:

- لنحاول أنت وأنا أن نسوي الأمر كله. إن السيدة ترغب جداً ألا تحدث مشاجرة.

واتخذ إدوارد دوريت المحترم هيئة الرجل الدبلوماسي، حين وجد أمامه غريباً قوياً، فقال:

– يجب أن تعترف أنك حين تحجز مجموعة من الغرف مقدماً، وأصبحت خاصة بك، سوف لا يرضيك أن تجد أشخاصاً آخرين فيها.

فقال الآخر:

– لا، إنني أعترف أن الأمر كما تقول. ومع ذلك فلنحاول أنت وأنا أن نسوّي الأمر كله وأن نتجنب الشجار. إن الخطأ لم يكن في جانب هذا الرجل قط، وإنما هو خطأ والدتي. ربما لأنها سيدة ممتازة جداً لا تعرف العبث واللغو، ومثقفة جداً أيضاً، فهي أذكى من هذا الرجل بمراحل، ومن ثم وضعته في جيبها.

فبدأ إدوارد دوريت المحترم يقول:

– إذا كان الأمر هكذا...

فقال السيد الآخر وهو يعود إلى مكانه الأول:

– أؤكد لك وأنا أقسم أن هذا هو الأمر، وبناءً عليه فلماذا الشجار!

وهنا قالت السيدة من الباب:

– إدموند، أرجو أن تكون قد فسرت، أو لا تزال تفسر، إرضاءً لهذا السيد وأسرته، أن مدير الفندق لا لوم عليه.

فردّ إدموند قائلاً:

– أؤكد لك يا أماه أنني أكاد أقتل نفسي في محاولة إرضائه.

ثم نظر بثبات إلى إدوارد دوريت المحترم بضع لحظات، ثم إذا هو ينفجر مردفاً في لهجة ثقة ومودة:

– هل أصبح كل شيء على ما يرام يا صاحبي العجوز!

فقالت السيدة وهي تتقدم بعظمة خطوة أو خطوتين نحو السيد دوريت:

- إنني لا أدري بعد إلا أن من الأفضل أن أقول بنفسي إنني أكدت لهذا الرجل الطيب أني سأتحمل كل النتائج المترتبة على شغلي لغرفة في جناح رجل غريب في أثناء غيبته. وذلك لمدة لا تزيد على ما يلزم لتناول الغداء فيها. ولم أكن أعلم أن المستأجر الشرعي سوف يعود بهذه السرعة، كما لم أكن أعلم أنه قد عاد فعلاً، وإلا لأسرعت إلى العمل على إعادة الغرفة التي أسأنا شغلها، وتقديم التفسيرات والاعتذارات وأنا أعتقد أني بقولي هذا...

وفجأة «تسمرت» السيدة برهة. ومنظارها على عينيها، وقد انعقد لسانها أمام ابنتي السيد دوريت، وفي الوقت نفسه، وقفت الآنسة فاني أمام هذا الجمع الكبير المختلط المكون من أسرتها، ومن معدات أسرتها، ومن خدم أسرتها، وأمسكت أختها بقوة تحت ذراعها لتثبتها في موقفها، وبالذراع الأخرى راحت تروح على وجهها في سمت من الكبرياء وهي تنظر باستخفاف إلى السيدة من قمة رأسها إلى قدميها.

وبعد أن استردت السيدة نفسها بسرعة -لأنها كانت السيدة ميردل ولم يكن من السهل أن تضطرب- أضافت قائلة إنها تعتقد، بعد قولها هذا، أنها اعتذرت عن جرأتها، وأعاد مدير الفندق المهذب إلى المكانة العزيزة جداً عليه، التي كانت له في نفوسهم. وهنا ردّ السيد دوريت -الذي كان يعتبر هذا كله تهجماً على محراب كرامته- رداً كريماً، وقال إن على أهله.. ها.. أن يعيدوا الجياد إلى أماكنها، وأنه سيتجاوز عما كان يظنه في أول الأمر إهانة؛ بعد أن أصبح يعتبره شرفاً. وعندئذ انحنى له الصدر «الأعظم»، ووجهت صاحبته، بمقدرة عجيبة على ضبط النفس، ابتسامة وداع جذابة إلى الأختين، باعتبارهما سيدتين ثريتين أسبغتا عليها فضلاً كبيراً، دون أن يسبق لها أن تشرفت برؤيتهما من قبل.

ولكن لم يكن الأمر كذلك مع السيد سباركلر «إدموند» ذلك أن هذا السيد وقد «تسمر» في مكانه كما فعلت السيدة أمه، لم يستطع بأي وسيلة أن يحل نفسه مرة أخرى، وإنما وقف متصلباً يحدق إلى المجموعة كلها والآنسة فاني في مقدمتها. فلما سمع أمه تقول:

- إدموند، إننا على استعداد، هل تقدم لي ذراعك؟

بدا من حركات شفتيه، أنه يجيب ببعض عبارات تتشكل من كلمات وضعت فيها مواهبه الساطعة كل ما أراد أن يقول، ولكن عضلات صوته خانته. وكان قد بلغ من تصلب جسمه أن الأمر كان يستلزم بعض المشقة لكي ينثني بما يكفي لدخوله من باب المركبة الصغيرة لو لم يتلقَّ في الوقت المناسب مساعدة من الداخل. وما إن أصبح في جوفها حتى اختفى الستار الموضوع على النافذة الصغيرة في خلف المركبة، واختلست عيناه مكانه. وظلت نظراته على هذا النحو ما دام في مقدوره أن يتبين أصغر الأشياء، بل وربما أطول من ذلك بكثير. وكان يحدق -وكأنما سيحدث شيء عجيب غريب لسمكة الحوت- أو كأنما كانت عيناه في وضع لا يتناسب مع حدقتيهما الكبيرتين.

وقد أرضى هذا اللقاء الآنسة فاني وجعلها تفكر فيه مزهوة فيما بعد. مما خفف متاعبها إلى حد كبير. ولما استأنف الموكب مسيره في اليوم التالي، أخذت مكانها منه بروح جديدة من المرح والبهجة، وأظهرت فيضاً من الغبطة والرضا مما أثار الدهشة في نفس حرم الجنرال.

وسرّ دوريت الصغيرة أنهم لم يأخذوا شيئاً عليها، وأن ترى فاني راضية هكذا. ولكن دورها في الموكب، كان دور المتأملة الهادئة وكانت وهي جالسة أمام أبيها في مركبة السفر تتذكر غرفتها السابقة في سجن مارشاليزا، ثم ترى حياتها الحاضرة كأنها حلم. إن كل ما تراه كان جديداً ورائعاً، ولكن ليس حقيقة. كان يخيل إليها أن مناظر هذه الجبال والطبيعة

الجميلة قد تذوب في أية لحظة، وأن المركبة قد تنعطف فجأة في منحنى يؤدي بها إلى بوابة سجن مارشاليزا.

عجيب ألا يكون للإنسان ما يعمله، ولكن الأعجب منه أن ينزلق الإنسان إلى ركن حيث لا يجد أحداً يفكر فيه، ولا مشروعاً يضعه ويحاول أن ينفذه، ولا اهتمامات بالآخرين يحمل عبئها. وإذا كان هذا عجيباً، فأعجب منه جداً أن ترى بين أبيها وبينها هوّة شغلها آخرون للعناية به، دون أن ينتظر أحد أن تأخذ مكانها فيها قط. وكان هذا الوضع في أول الأمر يبدو غريباً جداً. بل أغرب من الجبال نفسها بحيث لم تستطع أن تروِّض نفسها على هذا الوضع، وحاولت أن تسترد مكانتها القديمة حوله. ولكنه تحدث معها على انفراد، وقال لها إن الناس.. ها.. الذين في مستوى رفيع، يا عزيزتي، يجب أن ينتزعوا الاحترام من الأتباع، وأن عليها هي، ابنته، الآنسة إيمي دوريت الوحيدة الباقية من فرع أسرة دوريت في دوستشير، ألا تجعل أحداً يعرف أنها.. ها.. تتخذ لنفسها وضع الخادم الخاص لأبيها، لأن هذا الأمر لا يتفق مع ذلك الاحترام. ولهذا يا عزيزتي، ها.. ها.. فإنه يضع أمام نظرها التعليمات الأبوية، لكي تتذكر أنها سيدة محترمة عليها الآن أن تتصرف بالكبرياء المناسب، وتحتفظ بمركزها كسيدة، وعلى هذا فإنه يرجوها أن تتجنب القيام بكل ما قد يثير.. ها.. الملاحظات القائمة على النقد والتعريض. وأطاعت دون أن تعترض بكلمة. وهكذا انتهى الأمر إلى أنها تجلس الآن في ركنها بالمركبة الفاخرة ويداها الصغيرتان الرقيقتان مطويتان أمامها، بعيدة تماماً حتى عن آخر بقعة من مكانها القديم في الحياة التي تلكأت عليها قدماها طويلاً.

ومن هذه الزاوية كان يبدو لها كل شيء تراه غير حقيقي. ولما كانت المناظر مثيرة للدهشة، زاد تماثلها للوهم الذي يكمن في أعماق نفسها وهي تمضي في هذه الأماكن الخلوية طيلة اليوم. وكانت أخوار

سيمبلون بأعماقها المتعددة ومساقط مياهها الهادرة، والطريق الرائع، وأماكن الخطر منه حيث يمكن أن تؤدي إلى كارثة انكسار عجلة أو تعثر جواد؛ والمنحدر إلى إيطاليا، والأراضي الشاسعة لتلك البلاد الجبلية عندما تنحسر عنها سلاسل الجبال الوعرة وتخرجها من نطاق سجنها المظلم الكئيب.. كان هذا كله حلماً، ليس فيه غير حقيقة واحدة، هي ذلك السجن الحقير القديم، مارشاليزا. لا، بل حتى ذلك السجن الحقير القديم قد تزلزل من أساسه حين تصورته دون أبيها، إنها لا تكاد تعتقد أن المساجين لا يزالون هناك يتسكعون في فنائه، وأن كل غرفة من غرفه الحقيرة لا تزال مشغولة، وأن الحارس لا يزال في بوابة الجوسق يسمح بدخول الناس أو بخروجهم.. كلهم لا يزالون كما كانت تعرفهم.

بهذه الذكريات عن حياة أبيها السابقة في السجن ترفرف حولها كأنها أجنحة نغم حزين، كانت دوريت الصغيرة تفيق من حلم مسقط رأسها، لتستغرق في حلم يوم كامل. وكانت تبدأ هذا اليوم الحالم بأن تستيقظ عادة في غرفة جميلة الطلاء، متواضعة رغم فخامتها، في قصر قديم متداعٍ، حيث أوراق الكروم الحمراء البرية في الخريف تطل على زجاج نوافذها، وأشجار البرتقال تظلل شرفة كبيرة بيضاء مصدعة خارج النافذة، وجماعة من الرهبان والفلاحين في الشارع الصغير بالأسفل، والشقاء والرخاء يتصارعان على كل قصبة من الأرض في كل ما هو مأمول، بغض النظر عن الفارق الكبير بينهما، حيث يتغلب الشقاء على الرخاء بقوة القدر.. ويعقب هذا تيه من الممرات الجرداء، والأبهاء ذات الأعمدة، وموكب الأسرة قد بدأ يستعد فعلاً، في الفناء المربع السفلي، وذلك باجتماع المركبات والمتاع مع الخدم لرحلة اليوم. ثم طعام الإفطار في غرف أخرى جيدة الطلاء، عليها آثار الرطوبة، واسعة الأرجاء، ثم الرحيل، الذي كان يبدو لها مسألة شاقة بسبب وداعتها وإحساسها بأنها لم تبلغ من العظمة ما يجعلها جديرة بمكانها في هذه المواسم. ذلك لأن الساعي، وهو رجل

أجنبي لعله كان من نزلاء سجن مارشاليزا، كان يتقدم ويعلن أن كل شيء أصبح مُعَدّاً، ثم يبادر خادم أبيها الخاص فيساعده على ارتداء معطف السفر وذلك في هيئة من الأبهة، ثم خادمة فاني ثم خادمتها هي - التي كانت عبئاً على ذهنها، مما جعل الخادمة في أول الأمر تبكي لأنها قلما كانت تعرف ماذا تفعل لخدمتها- تكونان في الانتظار، ثم يستكمل تابع أخيها معداته كلها، ثم يقدم والدها ذراعه إلى حرم الجنرال، ويقدم عمّها ذراعه إليها هي. ثم يمضي الموكب هابطاً السلم يحف به مدير الفندق والخدم. ثم يكون هناك جمع من الناس يتفرجون عليهم وهم يستقلون المركبات التي كانت تنطلق بين ضجيج التحيات والاستجداءات والقفزات وفرقعة السياط وقعقعة العجلات. وهكذا يمرق الموكب بجنون في شوارع كريهة ضيقة حتى ينطلق من بوابة المدينة.

وكانت ترى في أحلام اليوم: الطرق التي تحف بها الكروم الحمراء المجدولة على الأشجار مسافة أميال كثيرة، وغابات الزيتون، والقرى البيضاء والمدن على جوانب التلال، جميلة من الخارج، ولكنها رهيبة لفرط قذارتها وفاقتها من الداخل؛ والصلبان على الطريق، والبحيرات الزرقاء العميقة بجزائر الخيال، والقوارب الطافية المرفرفة بألوان مظلاتها الزاهية وأشرعتها الجميلة الأشكال. وأكوام هائلة من البنايات التي تحولت إلى تراب، والحدائق المعلقة التي نبتت بينها الأعشاب البرية ذات السيقان التي بلغ من قوتها أنها غدت كالأسافين النافذة إلى غايتها فصدعت أقواس البناء ومزقت الجدران. والحواري المرصوفة بالأحجار حيث تجري السحالي داخلة أو خارجة من كل شق. والمتسولون من كل نوع في كل مكان: بائسون، لافتون للأنظار، جائعون، مرحون، متسولون صغار، ومتسولون كبار السن. كانت هذه المخلوقات البائسة التي يكثر ظهورها أمام محطات البريد، وأماكن الاستراحة، هي فقط التي كانت تبدو للصغيرة دوريت الحقائق الوحيدة في يومها. وكثيراً ما كانت تجلس،

بعد أن يفرغ ما لديها من المال الذي جاءت به لتوزعه عليهم، وقد طوت يديها، تنظر في تفكير إلى طفلة نحيلة وهي تقود أباها الأشيب، وكأنما يذكِّرها هذا المنظر بشيء في الأيام التي ذهبت.

ثم هناك الأماكن التي كانوا يقضون فيها الأسبوع كاملاً، في غرف رائعة؛ حيث كانوا يتناولون الأطعمة الفاخرة، يخرجون إلى أكداس من العجائب، ويسيرون بين أميال ممتدة من القصور؛ يستريحون في أركان ظليلة من كنائس كبيرة، حيث كانت المصابيح الخافتة الضوء، المصنعة من الذهب والفضة، بين الأعمدة والأقواس؛ والأشخاص الراكعون متناثرون حول محراب الاعتراف، وعلى الأفاريز؛ وحيث كان ثمة ضباب البخور ورائحته؛ حيث كانت اللوحات، والصور العجيبة، والمحاريب المزخرفة، والمرتفعات والفضاءات الواسعة، كلها ينفذ إليها الضوء في رفق من الزجاج الملون للنوافذ، والستائر السميكة على الأبواب. ومن هذه المدن كانوا، مرة أخرى، يرحلون، على طرق من الكروم والأشجار، وخلال قرى قذرة حيث لم يكن يوجد كوخ واحد بلا شق في جدرانه القذرة، ولا نافذة فيها بوصة مربعة كاملة من الزجاج أو الورق، قرى يبدو أنه لا يوجد فيها ما يدعم الحياة، ولا شيء يؤكل، ولا شيء يُصنَع، ولا شيء ينمو، ولا شيء يُرجَى، ولا شيء يعمله الإنسان إلا أن يموت.

ثم مرة أخرى، يصلون إلى مدن كاملة من القصور التي طُرِد سكانها الشرعيون وتحولت جميعها إلى ثكنات، وفيها كانت كتائب من الجنود الكسالى يطلون من النوافذ الفاخرة حيث كانت بعض ملابسهم العسكرية معلقة في الطنف الرخامية لتجف، كان هؤلاء الجنود يلوحون في الذهن كحشود من الفئران التي راحت -في سعادة- تأكل دعائم الأماكن التي تعيش فيها، ومن ثم كان لا بد أن تنهار بهم فوق رؤوس حشود أخرى من الجنود، وحشود من القساوسة وحشود من الجواسيس، وهم جميعاً السكان الكريهو الشكل الذين تُرِكوا ليتحطموا في الشوارع التي بالأسفل.

وخلال هذه المناظر، كان موكب الأسرة يمضي في طريقه إلى مدينة البندقية وهنا تفرّق أعضاؤها فترةً ما، لأنهم كانوا سيعيشون في هذه المدينة بضعة أشهر في غرف قصر -كان أكبر ست مرات من سجن مارشاليزا كله- يقع على القنال الكبير المسمى «جراند كانال».

في هذه المدينة التي كانت ذروة الأحلام، حيث الشوارع مرصوفة بالماء والسكون الشبيه بسكون الموت، المخيّم عليها ليلاً ونهاراً، لا يقطعه سوى رنين أجراس الكنائس، وخرير التيارات المائية، وصيحة الملاحين في زوارق الجندول وهم ينعطفون بها في منحنيات الشوارع الطامية. في هذه المدينة جلست دوريت الصغيرة، ضائعة تماماً بعد أن لم يعد لها ما تؤديه، تفكر وتتأمل. وكانت الأسرة قد بدأت حياة اللهو والمرح، فذهبت هنا هناك، وحولت الليل إلى نهار. أما هي فقد أشفقت من الاشتراك في مباهجها، ولم تطلب فقط إلا أن تُترَك وشأنها.

وفي بعض الأحيان كانت تستقل أحد زوارق الجندول الراسية دائماً في الانتظار، والمشدودة في القوائم الملونة أمام الباب، وذلك عندما كانت تستطيع الهرب من الخادمة الثقيلة القائمة دائماً على خدمتها والتي كانت في الواقع متحكمة فيها بقسوة. ثم تترك ملاح الزورق يطوف بها في كل أنحاء المدينة العجيبة. ويبدأ الناس من المجتمع الراقي، الراكبون في زوارق جندول أخرى يتساءلون فيما بينهم عن هذه الفتاة الصغيرة الوحيدة التي يمرون بها، وهي جالسة في زورقها، مطوية اليدين، تتأمل ما حولها في حزن وعجب. هذا بينما كانت دوريت الصغيرة تمضي في طوافها بالمدينة وهي على حالها من الهدوء والانطواء والضياع. دون أن يخطر ببالها لحظة أنها تستحق أن ينتبه أي إنسان إلى ما تفعل.

ولكن مثابتها الأثيرة كانت الشرفة الملحقة بغرفتها. والمطلة على القنال، وعلى شرفات أخرى أدناها، دون أن يكون ثمة شيء فوقها،

وكانت الشرفة من حجر ضخم سوّده مرور السنين، ومشيَّدة بخيال محلق نابع من الشرق لينضم إلى هذه المجموعة من الخيالات المحلقة. وكانت دوريت الصغيرة، صغيرة حقاً وهي تميل على الحافة الواسعة المفروشة بالوسائد، وتطل منها. ولما لم تكن تحب في المساء مكاناً آخر كهذا المكان، فقد بدأت تغدو موضع الارتقاب بسرعة، وراحت الأعين الكثيرة في زوارق الجندول المارة تحتها ترتفع إليها، وأخذ الكثيرون من الناس يقولون: ها هي ذي الفتاة الإنكليزية الصغيرة الجسم التي تبدو دائماً بمفردها.

مثل هؤلاء الناس لم يكونوا حقائق في نظر الفتاة الإنكليزية الصغيرة الجسم، مثل هؤلاء الناس جميعاً لم يكونوا معروفين لديها. فكانت ترقب الشمس الغاربة في خطوط أشعتها الطويلة الخفيفة الحمراء والقرمزية، وانعكاسها المتوهج عالياً في السماء، وكان يبلغ من توهج أشعتها على المباني، ومن قوة إضاءتها لهياكلها، أنها جعلتها تبدو كأن جدرانها المتينة قد أمست شفافة، وأن المباني أمست تضيء من الداخل. كانت ترقب هذه الروائع وهي تختفي، ثم تعود فترفع عينيها، بعد أن تنظر إلى أسفل حيث زوارق الجندول تحمل الراكبين إلى قاعات الرقص والغناء، إلى الأنجم اللامعة. ترى ألا يوجد أشخاص آخرون من معارفها، سطعت عليهم هذه الأنجم في أوقات أخرى! إنها الآن تفكر في بوابة السجن القديمة.

إنها قد تفكر في تلك البوابة القديمة، وفي نفسها وهي جالسة إليها في سكون الليل، واضعة رأس ماجي على حجرها، وفي أماكن أخرى، وفي مناظر أخرى ترتبط بهذه الأوقات المختلفة. ثم إنها لتميل على حافة الشرفة، وتطل على الماء وكأنما هذا كله يرقد تحته. فإذا بلغت هذه المرحلة، أخذت ترقب، في تأمل وتفكير، جريان الماء وكأنما ترى، في تصوراتها، أن هذا الماء سينحسر، وأنه سيكشف لها عن السجن مرة أخرى، وعن نفسها، وعن غرفتها القديمة، وعن نزلاء السجن السابقين، وعن الزائرين القدامى. أي عن كل الحقائق الخالدة التي لم تتغير سماتها قط.

رسالة من دوريت الصغيرة



عزيزي السيد كلينام:

أكتب إليك من غرفتي الخاصة بمدينة البندقية، معتقدة أنك سيسرك أن تسمع عني. ولكنني أعرف أن سرورك في السماع عني لا يصل إلى سروري في الكتابة إليك. ذلك لأن كل شيء حولك هو تماماً كما تعودت أن تراه أي أنك لم تفتقد شيئاً... إلا إذا كنتُ أنا، وهذا لا يكون إلا لمدة يسيرة فقط، وفي أحيان قليلة. بينما أصبح كل شيء حولي عجيباً، وإن ما أفتقده لكثير.

عندما كنا في سويسرا، وكأنما حدث هذا منذ سنوات رغم أنه لم ينقضِ عليه غير أسابيع قليلة، التقيت بالشابة السيدة جوان التي كانت في رحلة جبلية مثلنا. وقد أخبرتني أنها في أحسن حال وأسعده. وهي تقول لك، عن طريقي، إنها تشكرك من صميم قلبها، ولن تنساك أبداً، وكانت قد ألفتني تماماً، وقد أحببتها بمجرد أن تحدثت معها. ولكن ليس في هذا أية غرابة. وإلا هل يستطيع أحد أن يملك نفسه من حب مثل هذه المخلوقة الجميلة الجذابة! إنني لا أعجب لأي إنسان يحبها.. لا، حقاً!

ولعلك لا تشعر بالقلق على السيدة جوان.. أرجو هذا، لأنني أتذكر قولك إنك تهتم بأمرها كصديق وفي مخلص.. إذا قلت لك إنني

كنت أتمنى لو أنها تزوجت شخصاً آخر أنسب لها وأصلح.. إن السيد جوان يبدو محباً لها، وهي بطبيعة الحال شديدة الحب له. ولكن يلوح لي أنه ليس جاداً بما يكفي -ولا أعني في هذا الأمر فقط- وإنما أعني في كل شيء آخر. وإنني لا أستطيع أن أحرر تفكيري من أنني لو كنتُ السيدة جوان -أي تغيير لا بد أن يحدث، وأي اختلاف في الشكل لا بد أن يجري عليّ حتى أصبح مثلها- لأحسست بالوحدة والضياع واللهفة إلى شخص يكون رزيناً متزناً حازم الرأي. بل إنني ظننت أنها تشعر بهذه اللهفة قليلاً وهي لا تكاد تعرف هذا. ولكن أرجو ألا يخامرك القلق لهذا، لأنها في الواقع في أحسن حال وأسعده، كما أنها تبدو على جانب كبير من الجمال.

إنني أتوقع أن أراها مرة أخرى قبل مضي وقت طويل، بل كنت في الواقع أتوقع أن أراها خلال الأيام القليلة الماضية هنا. ولسوف أكون أوفى صديقة لها بقدر ما في وسعي من وفاء من أجلك، يا عزيزي السيد كلينام، وليس في مقدوري أن أقول إنك لم تفعل شيئاً كثيراً بصداقتك لي عندما لم يكن لدي آخرون -ولا يعني هذا أن لي أصدقاء الآن، لأنني لم أتخذ لنفسي أصدقاءَ جدداً- ولكنني أرى صداقتك هذه لي شيئاً كبيراً، وإني لا أستطيع قط أن أنساها.

إني أتمنى لو عرفت -ولكن يحسن ألا يراسلني أحد- كيف حال السيد والسيدة بلورنيش في المحل الذي اشتراه أبي لهما، وهل ذلك العجوز ناندي لا يزال يعيش معهما ومع صغيرين سعيداً يغني كل أغانيه هذه المرة بعد الأخرى! إنني لا أكاد أستطيع أن أمنع الدموع من الصعود إلى عيني كلما فكرت في عزيزتي المسكينة ماجي والفراغ الذي لا بد قد شعرت به، رغم كل ما يحيطها من عناية وعطف، دون أمها الصغيرة. هل يمكن أن تذهب إليها وتخبرها -وهذا سر بيني وبينك- أن حزنها لفراقنا لا يمكن أن يزيد على حزني لهذا الفراق! وهل يمكن أن تقول لهم جميعاً إنني أفكر

فيهم كل يوم، وإن قلبي لا يزال على وفائه لهم أينما ذهبت. أوه، لو أنك تعلم مبلغ هذا الوفاء، لأشفقت عليّ من بُعدي هذا، ومن كل هذا الثراء.

إني واثقة أنك سوف تبتهج حين تعلم أن أبي العزيز في أحسن صحة، وأن هذه التغييرات الكثيرة قد أفادته جداً، وأنه أصبح في الواقع شديد الاختلاف عن الشخص الذي اعتدت أن تراه. وكذلك هناك تحسين في حالة عمي، كما أظن، وذلك رغم أنه لم يشكُ أبداً مما كان، ولا يسرف في الاستمتاع بما هو كائن. وإن فاني لرشيقة جداً، وذكية وبارعة. وإنه لأمر طبيعي معها أن تكون سيدة، إذ عرفت كيف تكيّف نفسها مع وضعنا هذا الجديد السعيد ببساطة مدهشة.

ويذكرني هذا بأني لم أستطع أن أفعل المثل، ومن ثم فإني في بعض الأحيان أكاد أيأس من أن أكون مثلها يوماً. قد تبينت أني لا أستطيع التعلم رغم أن حرم الجنرال دائماً معنا. ونحن نتحدث الآن الفرنسية، ونتحدث الإيطالية، وأنها لتبذل جهدها في تهذيبنا بمختلف الوسائل. وأنا حين أقول إننا نتحدث الفرنسية والإيطالية، فإنما أعني أنهم هم الذين يتحدثون.. أما أنا فإني جد بطيئة بحيث لا أكاد أتحسن قط. وأنا بمجرد أن أبدأ في التفكير والتدبير ومحاولة التنفيذ، إذا بكل أفكاري وتدابيري ومحاولاتي تمضي إلى اتجاهاتي القديمة، وإذا أنا أعود فأفكر مرة أخرى فيما يُنفَق في اليوم، وأفكر في حالة أبي العزيز، وفي عملي، ثم إذا أنا أتذكر فجأة أنه ليس هناك ما يدعو إلى هذا، ويعود إحساس الدهشة والعجب إلى نفسي وأنا أفكر في هذه الحياة العجيبة الجديدة التي أعيشها. ولا أعتقد أن لي من الشجاعة ما يجعلني أذكر هذا لأحد غيرك.

إن الأمر واحد مع كل هذه البلاد الجديدة، والمناظر العجيبة. إنها جميلة جداً، وكلها تدهشني، ولكنني لم أستجمع بعد نفسي، ولم أتجاوب معها -إذا أمكنك أن تفهم ما أعني- لكي أستوعب كل ما قد يكون بها

من مباهج كما ينبغي أن أفعل. إن ما أعرفه قبلها، يمتزج فيها بشكل عجيب. فمثلاً كثيراً ما شعرت ونحن بين الجبال -إني لأتردد في أن أقول مثل هذا الشيء التافه حتى لك أنت- إن سجن مارشاليزا لا بد أن يكون كامناً لنا وراء هذه الصخرة الضخمة وأن غرفة السيدة كليِنام التي اشتغلت فيها كل هذه الأيام، والتي رأيتك أول مرة فيها، لا بد أن تكون وراء هذه الكتلة من الجليد. أتذكر تلك الليلة التي زرتك فيها مع ماجي في مسكنك في كوفنت جاردن، كثيراً ما تخيلت، المرة بعد الأخرى، أني أرى هذه الغرفة أمامي، تجري أميالاً بعد أميال بجانب المركبة عندما كنت أنظر من نافذتها ليلاً. لقد أُغلِقت البوابة دوننا تلك الليلة، وجلست عند قضبانها الحديدية، وتمشيت حتى الصباح، وإني كثيراً ما أنظر إلى النجوم، حتى من شرفة هذه الغرفة ثم أحس أني في الشارع مرة أخرى، وماجي معي، والبوابة مغلقة في وجوهنا. وهذا هو نفس إحساسي مع الناس الذين تركتهم في إنكلترا.

وعندما أطوف بزورق الجندول، أشعر بالدهشة حين أجد نفسي أنظر داخل زوارق الجندول الأخرى، وكأني آمل أن أرى هؤلاء الذين تركتهم في إنكلترا. ولو أني رأيتهم لغمرتني ولا شك البهجة. ولكنني لم أكن أظن أن كنت سأدهش كثيراً في أول الأمر لو رأيتهم. ذلك أني كنت في أوقات تحليق الخيال، أتصور أني قد أراهم في أي مكان، بل إني أكاد أتوقع أن أرى وجوههم العزيزة على الجسور وأرصفة الموانئ.

وثمة شيء آخر أعاني منه سوف يبدو عجيباً جداً في نظرك. ولا بد أن يبدو عجيباً جداً في نظر أي إنسان آخر إلا أنا. بل ربما كان عجيباً في نظري أنا أيضاً. ذلك أنه كثيراً ما يخامرني ذلك الشعور القديم الحزين المليء بالرثاء والشفقة عليه.. ولا داعي لأن أذكر الاسم. فبرغم ما طرأ عليه من تغيير، وبرغم النعمة التي يرفل فيها والتي أشكر الله دائماً عليها، فإن

الإحساس الحزين السابق الزاخر بالحنان، يغمرني أحياناً بقوة تجعلني أرغب في أن أطوي ذراعي حول عنقه، وأعبِّر عن مدى حبي له، وأبكي قليلاً على صدره. وأعتقد أني سأكون مغتبطة بعد ذلك، وسعيدة ومزهوة، ولكنني أعرف أني لا يجب أن أفعل هذا، وأنه يحب هذا مني، وأن فاني سوف تغضب، وأن حرم الجنرال سوف تندهش، ولهذا فإني أهدئ من نفسي. ولكني وأنا أفعل هذا أواجه ذلك الشعور بأني قد أصبحت بعيدة عنه، وأنه حتى بين كل هؤلاء الخدم والأتباع، منعزل عن الجميع وفي حاجة إليّ.

يا عزيزي السيد كليتام. لقد كتبت الشيء الكثير عن نفسي، ولكن يجب مع ذلك أن أضيف إلى هذا شيئاً قليلاً، وإلا فإن أهم ما أردت أن أكتبه في هذه الرسالة المتواضعة سوف يبقى بلا كتابة، ففي كل هذه الأفكار الحمقاء -التي أثقلت بها عليك واعترفت بها لك لعلمي أنك دون الناس جميعاً سوف تفهمني، وأنك سوف تلتمس لي الأعذار أكثر من أي شخص آخر- أقول في كل هذه الأفكار، هناك فكرة واحدة قلما تبرح، بل لا تبرح قط ذهني، وهي أنني أرجوك أن تفكر فيّ أحياناً، وفي بعض اللحظات الهادئة. وينبغي أن أقول لك في هذا الشأن إنني كنت أشعر منذ رحلت، بقلق يهمني جداً أن أتحرر منه، وهو أنني أخشى أنك ربما تفكر خلال ضوء جيد، أو من خلال شخصية أخرى. لا تفعل هذا، لأني لا أستطيع أن أحتمله. فإنك لو فعلت فسوف تجعلني أشقى مما يمكن لك أن تظن، لسوف يتحطم قلبي حين أعتقد أنك فكرت فيّ على نحو يجعلني أبدو غريبة عليك أكثر مما كنت عندما شملتني بعطفك ورعايتك. إن ما ألتمسه منك، وأبتهل من أجله إليك، هو ألا تفكر فيّ أبداً باعتباري ابنة رجل غني، وألا تراني بخيالك أبداً في ملابس أحسن، أو في عيشة أحسن مما كنتُ يوم عرفتني أول مرة. وإنك سوف تذكرني دائماً كما كنت، فتاة صغيرة رثة الملابس توليت رعايتها بكل حنان، وحميت ثوبها البالي من المطر، وتركتها تدفِّئ قدميها الباردتين على نار مدفأتك. وإنك سوف

تفكر فيّ -إن كنت ستفكر على الإطلاق- في عاطفتي الصادقة وعرفاني العميق بالجميل كما كنتَ تفعل دائماً عندما كنتُ.

طفلتك المسكينة

دوريت الصغيرة

ملاحظة: تذكر بوجه خاص ألا تشعر بالقلق من أجل السيدة جوان، إنها كما قالت بالحرف الواحد «في أحسن حال وأسعده» كما أنها تبدو على مزيد من الجمال.

* * *



خطأ في مكان ما



كان قد مضى على الأسرة شهر أو شهران في مدينة البندقية عندما حدد السيد دوريت الذي كان يقضي معظم أوقاته مع ذوي الألقاب الرفيعة، والذي لم يكن لديه إلا وقت فراغ بسيط -في نفسه- ساعة معينة في يوم معين لعقد مؤتمر خاص مع حرم الجنرال.

ولما جاء الموعد الذي حدده في ذهنه، أرسل السيد تنكلر، خادمه الخاص، إلى جناح حرم الجنرال -وكان من الممكن أن يشغل ثلث مساحة سجن مارشاليزا بأكمله- لكي يقدم تحياته إلى هذه السيدة، ولكي يقدم إليها رغبته في التشرف بمقابلتها. ولما كان الوقت عندئذ هو فترة الصباح، عندما كان كل فرد من أفراد الأسرة يتناول القهوة في غرفته قبل ساعتين تقريباً من الاجتماع على مائدة الإفطار في القاعة ذات الجدران الباهتة التي كانت من قبل رائعة، ولكن أصبحت ضحية بخار الماء والهدوء الثقيل، لما كان الوقت هكذا، فقد أمكن للخادم الخاص أن يصل إلى حرم الجنرال. لقد رآها على سجادة مربعة صغيرة، بلغت مساحتها من الصغر بالنسبة لحجم الأرضية الرخامية الحجرية أن بدت كأنها طلبت حرم الجنرال أن توضع لكي تحاول أن تقيس عليها حذاءها الجاهز فقط، أو كأنها ظفرت بقطعة من السجاد المسحور، التي اشتراها أحد الأمراء في قصص ألف

ليلة وليلة بأربعين كيساً، وأن هذه السجادة عندئذ نُقِلت، بناءً على رغبتها إلى هذا الصالون الفاخر الذي لا تناسُب بينها وبينه.

وأجابت حرم الجنرال على الرسول، وهي تضع فنجان قهوتها الفارغ جانباً، قائلة إنها على استعداد للذهاب فوراً إلى جناح السيد دوريت، وأن تجنبه مشقة الحضور إليها، وكان في شهامته قد عرض هذا. وفتح الرسول الباب على مصراعيه، وتبع حرم الجنرال إلى الحضرة الدوريتية، وكانت الرحلة لطيفة، إذ سارا عبر سلّم ودهاليز خفية من جناح حرم الجنرال، ثم انفلتا من شارع جانبي ضيق عليه جسر معتم منخفض، ومرّا بمساكن مواجهة تشبه غيابات السجون وقد تلوثت جدرانها بآلاف من البقع والخطوط، وكأنها سكانها المخبولون كانوا يذرفون دموع الصدأ في بحر الأدرياتيك أجيالاً بعد أجيال، كل هذا في الطريق إلى جناح السيد دوريت الذي كانت له نافذة إنكليزية الطراز في الواجهة، تطل على قباب كنيسة جميلة ترتفع إلى السماء الزرقاء مباشرة من صفحة الماء التي كانت تعكسها، وعلى الحرير الهادئ المكتوم للمياه في القنال الكبير وهي تداعب الأبواب في الأسفل حيث كانت زوارق الجندول بملّاحيها الذين كانوا رهن إشارته، تتأرجح على سطح الماء في غابة صغيرة من الأوتاد التي تشد إليها الزوارق.

ونهض السيد دوريت وهو في ثوبه المنزلي الفاخر وقلنسوته -ويبدو أن الشرنقة التي عاشت فترتها بين نزلاء سجن مارشاليزا، قد تحولت أخيراً إلى فراشة نادرة- لاستقبال حرم الجنرال قائلاً لخادمه الخاص:

- هات مقعد لحرم الجنرال.. مقعداً مريحاً يا رجل. ماذا تفعل، ماذا تريد، ماذا تعني؟ دعنا الآن وانصرف!

ثم أردف قائلاً لحرم الجنرال:

- سيدة جنرال، لقد تجرأت...

فقاطعته حرم الجنرال قائلة:

- لا لا مطلقاً. لقد كنت تحت أمرك.. كنت قد فرغت من تناول قهوتي.

وعاد السيد دوريت يقول بهذا الترفع الذي يشعر به الإنسان أنه فوق الخطأ:

- لقد تجرأت والتمست التكرم بطلب الحديث معك على انفراد، لأني أشعر بالقلق الشديد بخصوص.. ها.. ابنتي الصغرى. ولا شك أنك لاحظت فارقاً كبيراً في المزاج، يا سيدتي، بين الأختين.

فقالت حرم الجنرال مجيبة وهي تعقد يديها الموضوعتين في قفاز، وكانت دائماً ترتدي القفازات التي لا تبدو منكمشة أبداً.

- إن هناك فارقاً كبيراً.

فقال السيد دوريت في اهتمام يمكن مقارنته بالوقار الملكي:

- هل يمكن أن تتكرمي وتخبريني برأيك في هذا الموضوع.

فردّت حرم الجنرال قائلة:

- إن لفاني شخصية قوية مستقلة. بعكس إيمي.

بعكس إيمي! أوه يا سيدة جنرال! اسألي أحجار سجن مارشاليزا وقضبانه، أوه يا سيدة جنرال! اسألي الحائكة التي علّمتها الحياكة، واسألي مدرِّس الرقص الذي علّم فاني الرقص. أوه يا سيدة جنرال، يا سيدة جنرال اسأليني أنا، أباها، كم أنا مدين لها، واسمعي شهادتي الخاصة بحياة هذه المخلوقة الرقيقة منذ طفولتها..

ولكن هذه التوسلات لم تتجاوز ذهن السيد دوريت، وإنما نظر إلى حرم الجنرال وهي جالسة منتصبة كما تعوّدت أن تجلس في مركبتها الخاصة وراء جيادها، ثم قال في هيئة الذي يفكر:

- صدقت يا سيدتي.

وقالت حرم الجنرال:

- ولكن أرجو ألا يُفهَم من حديثي أن فاني غير قابلة للتهذيب. فإن المادة الخام موجودة، بل في الواقع لعلها أكثر قليلاً مما نحتاج إله..

فقال السيد دوريت:

- هل يمكن أن تتكرمي يا سيدتي و.. ها.. وتزيدي الأمر وضوحاً، إنني لا أفهم تماماً معنى وجود المادة الخام في ابنتي الكبرى أكثر قليلاً مما تحتاجين إليه. ما هو المقصود بهذا؟

فردّت حرم الجنرال قائلة:

- إن فاني في الوقت الحاضر تضع في رأسها أفكاراً أكثر مما ينبغي. ولكن التربية الكاملة لا تسمح بمثل هذا، ولا يمكن أبداً أن تكون قطعية توكيدية في حديثها.

فقال السيد دوريت بسرعة خشية أن يكون ناقص التربية أيضاً:

- لا شك في ذلك يا سيدتي. إنك على صواب.

وردت حرم الجنرال بجمود عواطفها وبرود تعبيرها:

- هذا ما أعتقده.

فقال السيد دوريت:

- ولكنك تعلمين يا سيدتي العزيزة، أن حظ ابنتيّ السيئ حرمهما من أمهما المأسوف عليها وهما طفلتان. ثم اضطرتا إلى العيش معي في فقر

نسبي في أثناء الفترة التي مرّت حتى اكتُشِف أمري بأني الوارث لهذه الممتلكات التي في حوزتي الآن. وذلك رغم أني كنت سيداً كريماً. ها.. متقاعداً!

فقالت حرم الجنرال:

- إنني لم أغفل هذه الاعتبارات.

فاستطرد السيد دوريت قائلاً:

- سيدتي فيما يختص بفاني، فإنني لا أشعر بالقلق وهي تحت إشراف سيدة مثلك تضرب لها دائماً المثل..

وهنا أغمضت حرم الجنرال عينيها، بينما أردف السيد دوريت قائلاً:

- لأن طبيعة فاني قادرة على التكيف. أما ابنتي الصغرى يا سيدتي فإنها تثير قلقي وتزعج أفكاري. ولا بد أن أخبرك أنها كانت لي دائماً الابنة الأثيرة.

فقالت حرم الجنرال:

- لا حيلة لك في هذا الانحياز لها.

فأومأ السيد دوريت برأسه وقال:

- ها.. لا. لا. والآن يا سيدتي فإني أشعر بالقلق وأنا ألاحظ أن إيمي لم تعد -إذا صح هذا التعبير- واحدة منا. إنها غير مهتمة بالطواف معنا. ولم تحاول الاشتراك في الوسط الاجتماعي هنا. وذوقها مختلف بوضوح عن أذواقنا..

ثم أوجز السيد دوريت بقية الحديث في جد ووقار:

- وهذا يعني، بعبارة أخرى، أن هناك شيئاً ما خطأ.. ها، مع إيمي.

فقالت حرم الجنرال بلمسة خفيفة من اللمعان:

- إننا قد نميل إلى الظن أن الأمر يتعلق بها في هذا الوضع من جدة.

فعلق السيد دوريت قائلاً بشيء من السرعة:

- معذرة يا سيدتي. إنها ابنة سيد كريم -كان في وقتٍ ما- هه.. بعيداً نسبياً عن الثراء.. نسبياً، وهي نفسها قد نشأت مع أبيها في أثناء التقاعد، مثل هذه الابنة ليس من الضروري أن تشعر إلى هذا الحد بجدة هذا الوضع.

فقالت حرم الجنرال:

- صدقت.. صدقت.

قال السيد دوريت:

- ولهذا يا سيدتي تجرأت (كان ينطق هذه الكلمة ويكررها في تأكيد كأنها يوضح لها، بكل ثبات، أو الواجب، ألا يُناقَض مرة أخرى) أقول تجرأت في طلب هذه المقابلة عسى أن أعرض الأمر عليك، وأسأل كيف يمكن أن تنصحيني.

فردّت حرم الجنرال قائلة:

- سيد دوريت. لقد تحدثت مع إيمي مرات كثيرة منذ أن أقمنا هنا، عن موضوع عام، هو كيفية تكوين السلوك. وقد أعربت لي عن دهشتها الشديدة مما رأت في البندقية. فقلت لها إنه لا يحسن أن نندهش، وأشرت إليها أن السيد يوستاس الرحالة المشهور ينصح بهذا، وقد قارن جسر الريالتو -وهذه المقارنة ليست في صالحه- بجسر وستمنستر وجسر بلاك فرايرز. ولا حاجة بي لأن أضيف، بعد الذي قلته، أن محادثاتي معها لم تُتوَّج بالنجاح. وقد شرفتني وطلبت النصيحة. إنه ليبدو لي دائماً - وأرجو المعذرة إذا ثبت أن ما سأقوله ليس له أساس- إنك يا سيد دوريت قد تعودت أن تبسط نفوذك على عقول الآخرين.

فقال السيد دوريت:

- هه.. يا سيدتي، لقد كنت رئيساً، ها، لـ.. ها.. جماعة كبيرة. لقد صدقت في قولك إنني.. ها.. تعودت على بسط النفوذ.

فقالت حرم الجنرال:

- إنني سعيدة بهذا التجاوب في آرائي. وإني لهذا أفصح عن يقين بأن عليك يا سيد دوريت أن تتحدث بنفسك مع إيمي وأن تضع أمامها ملاحظاتك ورغباتك. وبما أنها ابنتك الأثيرة. ولا شك أنها من ثمة أكثر تعلقاً بك، فسوف تخضع، على الأرجح، لنفوذك.

فقال السيد دوريت:

- لقد خطر لي هذا الاقتراح، ولكنني.. ها.. لم أكن واثقاً.. هه.. من أنه ليس في هذا اعتداء على..

فقالت حرم الجنرال بلطف:

- على اختصاصي! اطمئن يا سيد دوريت.

فقال السيد دوريت وهو يدق الجرس الصغير لخادمه الخاص:

- إذن، بعد إذنك، لسوف أرسل في استدعائها فوراً.

- هل تريد مني أن أبقى يا سيد دوريت!

- ربما، إذا لم يكن لديك ارتباطات أخرى، لا تمانعين في البقاء لحظة أو لحظتين..

- بكل سرور..

وهكذا صدرت التعليمات للسيد تنكلر، الخادم الخاص، بالبحث عن الخادمة الخاصة للآنسة إيمي ثم إخبارها بأن تذكر للآنسة إيمي أن

السيد دوريت يريد أن يراها في غرفته، وفيها كان السيد دوريت يصدر تعليماته هذه إلى السيد تنكلر، راح ينظر بشدة إليه، كما ظل يرمقه بعين مرتابة حتى انصرف من الغرفة. وكانت ريبته تدور حول خوفه من أن يكون في ذهنه شيء لا يتلاءم مع وقار الأسرة ومكانتها، أو أنه قد يكون قد سمع فكاهة من أحد الزملاء النزلاء قبل أن يلتحق بخدمته، فراح، من باب التهكم، يتذكرها في تلك اللحظة. ولو حدث أن تنكلر ابتسم عندئذ ابتسامة مهما تكن خفيفة بريئة، فإن السيد دوريت ما كان ليقنعه شيء حتى آخر لحظة من عمره أن الأمر هكذا. أما وقد حدث أن تنكلر -لحُسْن حظه- كان جاد الهيئة هادئ الوجه، فقد نجا من الخطر الخفي الذي كان يتهدده. وعندما عاد -وعين السيد دوريت عليه مرة أخرى- ليعلن بصوت جنائزي وصول الآنسة دوريت، فقد مضى منصرفاً تاركاً في ذهن السيد دوريت أثراً غامضاً بأنه شاب حسن الأخلاق نشأ مستوعباً المواعظ التي كان يتلقاها عن أمه الأرملة.

وقال السيد دوريت:

- إيمي، لقد كنت الآن موضوع حديث بيني وبين حرم الجنرال. وقد اتفقنا على أنك لا تكادين تحسين أنك بين أهلك هنا. فما معنى هذا.

ومرّت فترة صمت. قالت إيمي بعدها:

- أعتقد يا أبي أني أحتاج إلى بعض الوقت.

وعلقت حرم الجنرال قائلة:

- إن كلمة «بابا» ألطف وأفضل في الحديث. أما «أبي» فإنها سوقية بعض الشيء يا عزيزتي. وعدا هذا فإن كلمة «بابا» تضفي على الشفتين عند النطق شكلاً جميلاً. «بابا» و«بطاطس» وغيرها من الكلمات التي تبدأ بحرف الباء كلها مناسبة للشفاه. لسوف تجدينها مفيدة في تشكيل

سلوكك، إذا أنت نطقت لنفسك في أثناء وجودك بين جمع من الناس كلمات تبدأ بحرف الباء.

وقال السيد دوريت:

– أرجوك يا طفلتي، انتبهي لملاحظات السيدة جنرال.

ووعدت المسكينة دوريت أن تفعل وهي تلقي نظرة بائسة على أستاذة التلميع الجليلة.

واستطرد السيد دوريت يقول:

– تقولين يا إيمي إنك ترين أنك محتاجة إلى بعض الوقت. الوقت لأي شيء.

وبرهة صمت أخرى، قالت بعدها دوريت الصغيرة وهي تنظر في حب إلى أبيها الذي كادت أن تناديه بأية كلمة تبدأ بحرف الباء لإرضاء حرم الجنرال، ولإسعاده هو:

– لأتعود على حياتي هذه الجديدة. هذا كل ما أعنيه.

وقطب السيد دوريت جبينه، وبدا وجهه ينم عن أي شيء إلا الرضا. وقد ردّ قائلاً:

– إيمي! يلوح لي، كما يجب أن أقول، إنه كان لديك الكثير من الوقت لهذا. ها! إنك تدهشينني. إنك تكدرينني. لقد تغلبت فاني على كل هذه العقبات البسيطة.. هه.. فلماذا تعجزين أنت؟

فقالت دوريت الصغيرة:

– أرجو أن أفعل خيراً من هذا قريباً.

فردّ الوالد قائلاً:

- هذا ما أرجوه، إنني.. ها.. أرجو هذا من صميم قلبي يا إيمي. لقد أرسلت إليك عسى أن أقول لك.. هه.. لأؤكد لك القول، في حضور السيدة جنرال، التي ندين لها جميعاً بالشكر لتكرمها بالوجود بيننا في.. ها.. في هذه المناسبة، وفي غيرها...

وأسبلت حرم الجنرال جفنيها بينما استطرد هو يقول:

- إنني.. ها، هه.. لست مسروراً منك، إنك تضيعين جهد السيدة جنرال هباءً. وإنك، ها، تحرجينني جداً. وقد كنت دائماً -كما ذكرت لحرم الجنرال- ابنتي الأثيرة. وقد كنت دائماً لك.. هه.. صديقاً وصاحباً. ومقابل هذا فإني أرجو، وألحّ في الرجاء، أن تحسني من تكييف نفسك مع.. هه.. الظروف. وأن تؤدي واجباتك بما يتناسب مع مكانتك.

وكان السيد دوريت يتلعثم أكثر من المعتاد بسبب انفعاله، وبسبب شدة رغبته في أن يجعل لحديثه طابع التأكيد. وقد عاد يقول مكرراً:

- إني ألح في الرجاء أن تهتمي بالأمر، وأن تتحملي بصبر وجد عناء محاولاتك لتتصرفي بطريقة لائقة بمركزك، باعتبارك.. هه.. الآنسة إيمي دوريت وباعثة على رضاي ورضا السيدة جنرال.

ومرة أخرى أسبلت تلك السيدة جفنيها عند الإشارة إليها ثانية، ثم فتحتهما ببطء وهي تنهض وتضيف إلى الحديث هذه العبارات:

- لو أن الآنسة إيمي دوريت تعمل على توجيه انتباهها إلى التصرفات المظهرية وتقبل معاونتي المتواضعة في هذا الشأن، فلن يكون ثمة ما يدعو إلى قلق السيد دوريت. ولعلي أنتهز هذه الفرصة لأقول -على سبيل المثال- إنه لا يليق النظر إلى الخدم والدهماء بهذا الاهتمام الذي لاحظت أن صديقتي الآنسة إيمي تنظر به إليهم. لا يجب على

الإنسان أن ينظر إليهم. فالإنسان عادة لا ينظر إلى الأشياء المنفرة. وفضلاً عن هذا أن مثل هذه العادة تقف في طريق المظهر الرقيق المترفع الذي يدل على الأصل العريق، فإنها لا تكاد تبدو ملائمة لتهذيب الذهن. فالعقل المهذب حقاً يتجاهل عادة وجود أي شيء كامل اللياقة، بديع، بهيج.

وبعد أن أصدرت هذه العبارات المترفعة، انحنت برشاقة، وتراجعت بشفتيها في وضع الذي ينطق بكلمات تبدأ بحرف الباء.

وكانت دوريت الصغيرة، سواء في صمتها أو في حديثها، محتفظة بهيأتها التي تنم عن الجد الهادئ والحب العميق لأبيها. ولم يضطرب وجهها إلا في لمحة عابرة حتى الآن. أما الآن وقد تُرِكت بمفردها مع أبيها، فقد نمت أصابع يديها المطويتين برفق على شدة انفعالها، كما بدا هذا الانفعال نفسه على وجهها.

ولم يكن هذا الانفعال من أجل نفسها. لعلها قد شعرت بشيء بسيط من المهانة، ولكن اهتمامها لم يكن لنفسها. كانت أفكارها لا تزال متجهة، كما كان شأنها دائماً، نحوه. إن ذلك الشك الغامض الذي خامرها منذ أن نعمت الأسرة بالثراء، في أنها، حتى الآن، لن تستطيع أبداً أن تراه كما تعوَّد أن يكون في أيام ما قبل السجن، قد بدأ يتخذ تدريجياً شكلاً واضحاً في ذهنها. لقد أحست أن فيما قاله الآن لها، وفي موقفه الإجماعي منها، لا يزال يوجد ذلك الظل المعروف لديها، لأسوار سجن مارشاليزا. لقد اتخذ شكلاً جديداً، ولكنه ظل نفس الظل الحزين القديم. وبدأت، وهي حزينة مرغمة، تعترف لنفسها، أنها لا تتمتع بالقوة الكافية للتحرر من الخوف بأنه لا توجد في حياة الإنسان فترة يمكنها أن تقهر مثل ربع القرن هذا من الحياة وراء قضبان السجن. ولهذا فإنها لا تنحى عليه باللوم؛ لا شيء يلام عليه من أجله، ولا عاطفة تحملها له في قلبها إلا الحنان الكبير والرقّة التي لا حدّ لها.

وكان هذا هو السبب الذي من أجله حتى وهو جالس أمامها على المتكأ في الضوء الساطع ليوم إيطالي مشرق، والمدينة الرائعة خارج الغرفة، وأبهة القصر في الداخل، كانت تراه في تلك اللحظة في عتمة الظلام الكئيب الذي طالما عرفته، ظلام غرفته بسجن مارشاليزا، ومن ثم تمنت أن تتخذ مجلسها بجانبه، وأن ترفِّه عنه، وأن تعود مرة أخرى موضع ثقته الكاملة، والمتفانية في مصالحه. وإذا كان قد استشف أفكارها، فإن أفكاره لم تكن متناسقة معها. فبعد أن تململ قليلاً في مجلسه، نهض وراح يتمشى في الغرفة وهو أبعد ما يكون عن الرضا.

- هل ثمة شيء آخر تريد أن تقوله لي يا أبي العزيز؟

- لا. لا. لا شيء آخر.

- إنني آسفة لأنك لست مسروراً مني يا عزيزي. وأنا أرجو ألا تكون ساخطاً عليّ الآن. فإنني سأحاول، أكثر مما فعلت، لأكيِّف نفسي -حسب رغبتك- مع ما يحيط بي... ذلك لأني في الواقع أعرف أني حاولت هذا كثيراً رغم فشلي.

فردّ قائلاً وهو يستدير بسرعة نحوها:

- إيمي إنك.. ها، عادةً تؤلمينني!

- أؤلمك يا أبي! أنا!

فقال السيد دوريت وهو يتطلع في أنحاء سقف الغرفة دون أن يلقي نظرة واحدة قط على الوجه الصابر المتنبه المنزعج في تلك اللحظة:

- إن هناك موضوعاً.. موضوعاً مؤلماً.. سلسلة من الأحداث التي أريد.. هه.. أن.. أمحها تماماً، وهذا مفهوم من ناحية أختك التي اختلفت وتنازعت معك فعلاً في حضوري، ومفهوم من جانب أخيك،

ومفهوم من.. هه.. ها.. جانب كل شخص رقيق حساس؛ إلا أنت، ها.. يؤسفني أن أقول إلا أنت. أنت يا إيمي، ها.. فقط وأنت فقط التي.. ها.. تحبين دائماً ذكرى هذا الموضوع، وإن لم يكن بالحديث.

ووضعت يدها على ذراعه، ولم تفعل أكثر من هذا. ولقد لمسته برفق، وكأنها اليد المرتعدة تقول له بكل تعبير قوي: «فكِّر فيّ. فكر كيف جاهدت، فكّر في أعبائي الكثيرة!» ولكنها لم تنطق بمقطع واحد من هذه الكلمات.

وكانت لمسة يدها تنطوي على ملام موجَّه إليه، لم تكن تتوقع أنه سيشعر به، وإلا لسحبتها بسرعة. وكانت النتيجة أنه بدأ يبرر موقفه في غضب وانفعال وتعثر:

- لقد عشت هناك كل هذه السنوات. وكنت.. ها.. مشهوراً، معترَفاً بي كرئيس للمكان، لقد عملت على اكتساب الاحترام لكم، يا إيمي. لقد جعلت لأسرتي مكانة هناك. وإني أستحق المكافأة، إنني أطالب بالمثل إنني أقول: لنمحو هذا كله من على وجه الأرض، ولنبدأ من جديد. فهل هذا كثير؟ إنني أسأل، هل هذا كثير؟

ولم ينظر إليها مرة واحدة وهو يدمدم على هذا النحو، وإنما كان يلوح بيديه، ويوجه نداءه إلى الهواء.

- لقد تعذبت. ولعلي أعرف أكثر من أي شخص آخر كم تعذبت، ها.. أقول أكثر من أي شخص آخر. فإذا كنت قد استطعت أن أضع هذا كله جانباً وأن أمحو علامات ما احتملته، وأن أخرج للعالم سيداً كريماً لا يعيبه أو يفسده شيء، فهل ما أتوقعه منكم شيئاً كثيراً؟ وأقول مرة أخرى، هل أطلب الشيء الكثير إذا توقعت أن.. ها.. أن يحذو أبنائي حذوي، وأن يمحوا هذه التجربة الملعونة من على وجه الأرض!

وكان على رغم ما به من غضب واهتياج، يقول هذا كله بصوت حرص على أن يجعله خافتاً، خشية أن يسمع الخادم الخاص شيئاً منه.

- وبناءً عليه فهما يفعلان هذا. تفعله أختك، ويفعله أخوك. وأنت فقط، ابنتي الأثيرة، التي كنت لك طيلة حياتي صديقاً ورفيقاً منذ طفولتك، أنت فقط التي لا تفعلين هذا. أنت فقط التي تقولين إنك لا تستطيعين أن تفعلي هذا. لقد زودتك بالوسيلة الفعالة التي تساعد على هذا. لقد ألحقت في خدمتك هذه السيدة المثقفة الكريمة الأصل، السيدة جنرال، لكي تفعلي هذا. فهل ثمة ما يدعو للعجب إذا أنا شعرت بالاستياء. وهل من الضروري أن أدافع عن نفسي لكي أعرب عن استيائي! لا.

ورغم قوله هذا، فقد استمر يدافع عن نفسه دون أن يهدئ شيئاً من اهتياجه النفسي:

- لقد حرصت على أن ألجأ إلى هذه السيدة لتأكيد رأيي قبل أن أعرب عن استيائي. وقد اضطررت.. ها.. بطبيعة الحال، أن أجعل حديثي معها في نطاق محدد، وإلا جعلتها تفهم ما أريد أن أمحوه تماماً. فهل أنا أناني؟ هل أشكو من أجل نفسي؟ لا، لا، وإنما أنا أفعل هذا كله من أجلكم خاصة.. ها.. يا إيمي.

وبدا بوضوح أن هذا الاعتبار الأخير قد خطر له في تلك اللحظة، وذلك من طريقته في الاستطراد في الحديث عنه.

- قلت لك إني تألمت. وأنا أتألم فعلاً. وقد قررت.. ها.. أن أبقى كذلك، مهما يقال لي عكس ذلك. إنني متألم لأن ابنتي الرافلة في حلل السعادة، ترى أنه لا بد أن تنزوي، وأن تنطوي على نفسها، وأن تعلن عن نفسها أنها ليست كفئاً لمواجهة حظها السعيد. إنني متألم لأنها.. ها.. تحرص على إعادة ظهور ما تريد يقيناً أن نمحوه تماماً.. وتبدو كأنما.. ها.. هي شديدة الرغبة في أن تعلن للأثرياء والكبراء في الوسط الراقي أنها

ولدت.. ها.. ونشأت في المكان الذي أتجنب.. أنا نفسي.. ذكر اسمه. ولكن ليس في شعوري بالألم طابع الدوام، لا، مطلقاً. ومع ذلك فأنا أشكو من أجلكم خاصة يا إيمي. نعم. وأقول مرة أخرى، نعم. إنه من أجلكم أنتم، أريد -بفضل توجيهات السيدة جنرال- أن أجعل لكم مظهراً. من أجلكم أنتم أريد أن تكون لكم عقول مثقفة، وأن تكونوا -على حد تعبير السيدة جنرال المدهش- متجاهلين لكل شيء غير كامل اللياقة، وغير بديع أو بهيج.

وكان في المرحلة الأخيرة من حديثه، ينطق بالعبارات في تعثر واضطراب كأنه جرس منبه خرب. وكانت اليد الرقيقة لا تزال على ذراعه. وأحس بالصمت. وبعد أن تطلع إلى السقف مرة أخرى لمدة برهة وجيزة، التفت إليها وكانت رأسها مطرقة، فلم يرَ وجهها. ولكن لمستها كانت رقيقة هادئة، كما لم يكن في تعبير جسمها الكسير الجناح أي لوم، أو أي شيء غير الحب. وهنا بدأ يهمهم تماماً كما فعل في تلك الليلة، في السجن -عندما ظلت بعد ذلك جالسة بجانب سريره حتى الصباح، وراح يقول إنه حطام مسكين.. وشقي مسكين رغم كل ما حوله من ثراء. وكان كل ما قالته له وهي تضمه بقوة بين ذراعيها هذه الكلمات «هس، هس، يا عزيزي، قبِّلني» ثم لم تلبث دموعه أن جفّت، بأسرع مما حدث في الليلة الأخرى، كما أنه لم يلبث بعد ذلك أن ازداد ترفعاً في معاملته لخادمه الخاص، كأنما يعوض ما ذرف من دموع.

وكانت تلك هي المرة الوحيدة -ما عدا مرة أخرى هامة سوف تُذكَر في حينها- التي تحدث فيها -طيلة حياته الحرة الغنية- مع ابنته إيمي عن أيامه القديمة.

ولكن ساعة الإفطار كانت قد أزفت عندئذ، ومعها ظهرت الآنسة فاني من جناحها، وظهر السيد إدوارد من جناحه، وكان كلاهما، كشابين

من الأثرياء، ليسا في حالة طيبة بسبب الإفراط في السهر. فبالنسبة للآنسة فاني فإنها غدت ضحية لنوع من الجنون كانت تسميه «الذهاب إلى الوسط الراقي» وقد كان من المحتمل أن تذهب إليه أولاً خمسين مرة منذ غروب الشمس إلى شروقها، لو أتيح لها مثل هذا العدد من الفرص. أما بالنسبة للسيد إدوارد، فقد كان له، أيضاً، عدد كبير من المعارف، وكان عادة مشغولاً -معظم الوقت في دوائر المقامرة بالزهر أو بغيره من نفس النوع- خلال الجانب الأكبر من كل ليلة. ذلك لأن هذا السيد، عندما هبطت عليه الثروة، كان على استعداد للاندماج في أرقى الأوساط، ولم يكن في حاجة إلى تعلم الكثير، ويرجع الفضل في هذا إلى الأحداث الصغيرة التي جعلته في سابق أيامه يتعرف بسماسرة الجياد ولاعبي البليارد.

وكذلك ظهر السيد فريدريك دوريت على مائدة الإفطار. ولما كان ذلك السيد العجوز يقيم في أعلى طابق بالقصر، حيث كان يمكن أن يطلق النار بالغدارة دون أن يتعرض لاحتمال اكتشاف أمره من المقيمين الآخرين بالقصر، فقد تجرأت إيمي واقترحت إعادة آلته العازفة «الكلاريونيت» إليه، وهي الآلة التي كان السيد دوريت قد أمر بتحطيمها، ولكن إيمي تجرأت واحتفظت بها. ورغم بعض الاعتراضات من الآنسة فاني، ورغم قولها إنها آلة صغيرة، وإنها تنفر من سماعها، فقد تمت الموافقة على الاقتراح. ولكن تبين عندئذ أنه قد نالَ منها كفايته، فلم يعزف عليها قط، بعد أن لم تعد وسيلة للحصول على الرزق. إلا أنه اكتسب بلا وعي منه، عادة جديدة، وهي الذهاب بخطواته المتثاقلة إلى معارض الصور الفنية، وورقة التشوق دائماً مطوية في يده، وكان ذلك مدعاة لاستنكار فاني التي اقترحت أن تشتري له علبة نشوق ذهبية، حتى لا ينكشف أمر الأسرة، ولكنه رفض بإصرار أن يحمل العلبة بعد أن تم شراؤها، وفي هذه المعارض كان يقضي الساعات بعد الساعات أمام المشاهير من أهالي البندقية. ولم يكن أحد يعرف قط ماذا كانت عيناه المذهولتان تريان في

هذه الصور. ترى هل كان يهتم بها كصور فقط، أم كان يدرك، في اضطراب، علاقتها بالأمجاد الذاهبة، تماماً كما ذهبت القوة من عقله! إلا أنه كان يتفرج عليها بكل احترام وتقدير، كما كان الواضح أنه يستمد البهجة من هوايته هذه. وحدث، بعد الأيام القليلة الأولى من إقامتهم، أن ساعدته دوريت الصغيرة ذات صباح وذهبت معه. ويبدو أنه سرَّ بصحبتها أشد السرور لأنها راحت تكثر من الذهاب معه بعد ذلك. وكانت أعظم بهجة أمكن أن تبدو على هذا العجوز منذ تحطمت حياته، تنبع من هذه الرحلات، وذلك عندما كان يحمل لها مقعداً صغيراً من صورة إلى أخرى، ثم يقف وراءها رغم كل احتجاجاتها، ليقدمها في صمت إلى مشاهير أهالي البندقية.

وقد حدث في أثناء تناول الأسرة لطعام هذه الإفطار أن أشار إلى رؤية الأسرة في أحد المعارض في اليوم السابق، لسيدة وسيد سبق أن التقوا بهما في ممر سانت برنارد الكبير. وأردف قائلاً:

– ولكنني نسيت اسميهما. وأعتقد أنك تذكر يا ويليام، وكذلك أنت يا إدوارد.

فقال هذا الأخير:

– إنني أذكرهما تماماً.

وقالت الآنسة فاني معلقة وهي تطوح برأسها وترمق أختها:

– أعتقد هذا. ولكنني أرى أننا ما كنا لنتذكرهما لو لم يتعثر عمي ويتحدث عن هذا الموضوع.

وقالت حرم الجنرال:

– ما هذا التعبير العجيب يا عزيزتي. أما كان من الأفضل أن تقولي، ذكرهما بلا قصد، أو أشار إليهما مصادفة.

فردّت فاني قائلة:

- شكراً جزيلاً يا سيدة جنرال. لا، لا أظن هذا، فإنني بالإجمال أفضل عبارتي.

وكانت تلك دائماً طريقة فاني في تلقي ملاحظات حرم الجنرال. ولكنها كانت تحتفظ بها دائماً أيضاً في ذهنها، وتطبقها في فرصة أخرى.

وقالت دوريت الصغيرة:

- كنت سأذكر لقاءنا بالسيد والسيدة جوان يا فاني، حتى لو لم يذكر عمي هذا، فأنا، كما تعلمين، لم أرك إلا قليلاً جداً منذ ذلك الحين. وكنت أنوي أن أتحدث عن الموضوع في ساعة الإفطار. لأني أحب أن أقوم بزيارة السيدة جوان وأوطد معرفتي بها إذا لم يكن لدى «بابا» والسيدة جنرال اعتراض.

فقالت فاني:

- حسناً يا إيمي، إني واثقة من سعادتي إذ أجدك، أخيراً، تعربين عن رغبتك في توطيد معرفتك بأي شخص في البندقية. ولم يبقَ إلا أن نقرر هل التعرف بالسيد والسيدة جوان أمر مرغوب فيه أم لا.

- إنني تحدثت فقط عن السيدة جوان يا عزيزتي.

فقالت فاني:

- لا شك، ولكنك لا تستطيعين أن تفرقي بينهما إلا بقرار من البرلمان وسألت دوريت الصغيرة أباها في تردد وإحجام:

- أترى يا «بابا» أن هناك ما يمنع من قيامي بهذه الزيارة!

فأجاب قائلاً:

- الواقع، أنا.. ها.. ما رأي السيدة جنرال في هذا؟

وكان رأى حرم الجنرال -التي لم تتشرف بالسيدة والسيد المشار إليهما، أنها ليست في وضع يتيح لها إبداء رأي لامع عن الموضوع. إنها تستطيع فقط أن تقول -كمبدأ عام معروف في عالم التلميع- إن الشيء الكثير يتوقف على المصدر الذي قدم هذه السيدة موضع الحديث لأسرة ثبتت مكانتها الوطيدة في الوسط الاجتماعي مثل أسرة دوريت.

واكتأب وجه السيد دوريت إلى حد كبير حين سمع هذه الملاحظة، وبعد أن قال إن المصدر الذي قدم السيدة هو شخص طفيلي يدعى كلينام يتذكر أنه عرفه يوماً وإن كان لا يعرف متى أو أين على وجه التحديد، وكاد أن ينفض يديه من موضوع اسم جوان نهائياً، لولا أن إدوارد دوريت المحترم تدخل في المناقشة و«المونوكل» على عينه. وقد بدأ حديثه بقوله لاثنين من الخدم كانا يدوران بصواني الطعام على أفراد الأسرة «ها.. أنتما هناك، تفضلا بالخروج» وكانت لهجته لهما تنم عن أن من الممكن للأسرة أن تستغني عن خدماتها في الوقت الحاضر.

وبعد أن أطاع الخادمان أمر السيد، استطرد إدوارد دوريت المحترم قائلاً:

- لعل من واجب الكياسة أن أجعلكم جميعاً تعرفون أن السيد والسيدة جوان هذين -أو على الأقل السيد جوان الذي لا أحمل له شخصياً أية مودة أو تقدير، معروف لأناس لهم نفوذهم الكبير، إذا كان لهذا أية أهمية في نظركم.

فقالت حرم الجنرال:

- إن لهذا في رأيي أهمية كبيرة، فإذا كان لهما اتصال حقيقي بشخصيات لها نفوذها واعتباراتها...

فقال إدوارد دوريت المحترم.

- أما عن هذا، فإني أترك لك أن تحكمي عليه بنفسك. لعلك تعرفين اسم ميردل المشهور.

فهتفت حرم الجنرال قائلة.

- ميردل العظيم.

فقال إدوارد دوريت المحترم:

- آل ميردل. إنهم معروفون له. فإن السيدة جوان -أعني السيدة الأرملة أم صديقي المهذب- على اتصال وثيق بالسيدة ميردل. وأنا أعلم أن الزوجين في قائمة زوار آل ميردل.

وهنا قالت حرم الجنرال للسيد دوريت وهي ترفع يديها بالقفاز، وتحني رأسها كأنها تؤدي مراسم التحية والاحترام لشخصية خفية عظيمة الشأن:

- إذا كان الأمر كذلك، فليس من الممكن أن تكون هناك تزكية أعظم من هذه .

فقال السيد دوريت وقد تغيرت لهجته تماماً:

- إنني أرجو أن أسأل ابني، بدافع فقط.. ها.. من الفضول، كيف استقى هذه المعلومات التي جاءت في أوانها!

فأجاب إدوارد دوريت المحترم قائلاً:

- إنها قصة ليست طويلة يا سيدي. وسوف أذكرها لك الآن. ولأبدأ فأقول إن السيدة ميردل هي نفس السيدة التي حدثت بينك وبينها المشادة الكلامية في ذلك المكان الذي نسيت اسمه.

فتدخلت فاني في الحديث قائلة بلهجة تنم عن الفتور الشديد:

- مارتيني.

- مارتيني.

قالها أخوها موافقاً مع إيمائة خفيفة برأسه، وغمزة خفيفة بعينه مما جعل الآنسة فاني -حين أدركت مغزاها- تندهش ثم تضحك ويحمرّ وجهها.

وقال السيد دوريت:

- كيف يمكن أن يكون هذا يا إدوارد؟ لقد أخبرتني أن اسم ذلك السيد الذي تحدثت معه، ها.. سباركلر! بل لقد أطلعتني، في الواقع، على بطاقته، هه.. سباركلر.

- لا شك في هذا يا أبي، ولكن ذلك لا يعني دائماً أن اسم أمه لا بد أن يكون كاسمه. كانت السيدة ميردل زوجة سابقة لرجل أنجبت منه هذا الابن، وهي الآن في روما حيث من المحتمل أن تلتقي بها كثيراً ما دمت قد قررت أن تقضي الشتاء هناك. وقد جاء سباركلر إلى هنا منذ مدة وجيزة، وأمضيت السهرة معه أمس، وهو بالإجمال شاب لطيف جداً، وإن كان مملاً في الحديث عن موضوع واحد، وهو موضوع افتتانه بشابة معينة.

وهنا توقف إدوارد دوريت المحترم عن الحديث ورمق الآنسة فاني بعينيه ذات المونوكل عبر المائدة، ثم استطرد يقول:

- وقد حدث في الليلة الماضية أن أخذنا نتبادل الحديث عن ذكريات أسفارنا، ومن هنا استقيت المعلومات التي قدمتها من سباركلر نفسه.

وتوقف عن الحديث مرة أخرى، واستمر يرمق الآنسة فاني من وراء «المونوكل». وكان وجهه شديد الالتواء -دون أن يكون في ذلك جمال- بسبب محاولاته لتثبيت المونوكل على عينه من جهة، وبسبب ابتسامته الكبيرة الخفية من جهة أخرى.

وقال السيد دوريت:

– إزاء هذه الظروف، وأعتقد أني أعبر بهذا عن رأي.. ها.. السيدة جنرال كما أعبر به عن رأيي، وذلك حين أقول إنه لا مانع، بل.. ها.. –على العكس تماماً– في أن تحققي رغبتك يا إيمي. وأعتقد أنني.. ها.. أبارك هذه الرغبة وأعتبرها..

وهنا نمّ صوت السيد دوريت على التشجيع والصفح.

– فألاً طيباً، وإنه من الصواب تماماً أن نعرف هؤلاء الناس. إنه أمر لائق جداً. فإن لاسم ميردل.. ها.. شهرة عالمية، وإن أعمال السيد ميردل لواسعة النطاق. إنها تدر عليه كميات ضخمة من المال بحيث تعتبر أرباحه.. ها.. من الفوائد الجليلة التي تعود على البلاد. إن السيد ميردل هو رجل هذا العصر، وإن اسمه سيطلق على هذا الجيل، ومن ثم أرجو أن تكونين نيابة عني، في حُسْن العلاقة مع السيد والسيدة جوان، لأننا.. ها.. لا بد أن نتعرف بهما يوماً.

ووضع هذا الاعتراف الجليل بمكانة آل جوان، من جانب السيد دوريت، حداً للموضوع. ولم يلاحظ أحد أن العم دفع بصينيته بعيداً ونسي أن يتناول إفطاره. ولكن أحداً في العادة لم يكن يلاحظه كثيراً إلا دوريت الصغيرة. واستدعى الخدم، وفرغت الأسرة من تناول الطعام، ونهضت حرم الجنرال وغادرت المائدة، وكذلك فعلت دوريت الصغيرة. ولما بقي إدوارد وفاني يتبادلان الهمس عبر المائدة، ولما بقي السيد دوريت يتناول التين ويقرأ صحيفة فرنسية، إذا بالعم يركز انتباه ثلاثتهم عليه حين نهض عن مقعده فجأة وضرب المائدة بيده قائلاً:

– أخي، إنني أحتج على هذا.

ولو أنه أعلن هذا بلغة أخرى، ثم أبرز لهم شبحاً من مكان ما بعد ذلك فوراً، لما أمكن أن يدهشهم أكثر مما فعل. لقد سقطت الصحيفة من

يد السيد دوريت، وجلس جامداً في مكانه ويده في نصف الطريق إلى فمه بإحدى ثمار التين.

وعاد العم العجوز يقول وهو يقوي صوته المرتعد بطاقة مدهشة من الحماسة.

- أخي، إنني أحتج على هذا! إنني أحبك. وأنت تعرف إنني أحبك جداً، لم يحدث قط في كل هذه السنين أن خطرت ببالي فكرة واحدة تتعارض مع إخلاصي لك. ورغم ضعف صحتي، فإني لا أتردد في أن أضرب أي إنسان يتناولك بسوء الحديث. ولكن يا أخي، يا أخي، يا أخي، إنني أحتج على هذا.

وكان من أشد العجب أن يرى الإنسان إلى أي حد يمكن أن تبلغ الحماسة بمثل هذا الرجل المحطم لقد تألقت عيناه، وانتصب شعره الرمادي الأشيب على رأسه، وارتسمت أمارات العزم على جبينه ووجهه بعد أن غابت عنهما خمسة وعشرين عاماً وكان ثمة طاقة نشاط في يده مما جعلها ترتعد في الحركة مرة أخرى.

وهتف السيد دوريت في خفوت:

- ماذا حدث، ماذا جرى يا عزيزي فريدريك.

فقال العم العجوز وهو يستدير نحو فاني:

- كيف تجرئين، كيف تجرئين أن تفعلي هذا؟ أليست لديك ذاكرة؟ أليس لك قلب.

فصاحت فاني في خوف وقد انفجرت باكية:

- لماذا تهاجمني يا عمي بهذه الطريقة القاسية. ماذا فعلت؟

فردّ العجوز قائلاً وهو يشير إلى مكان إيمي الشاغر:

- فعلت؟ أين صديقتك المحبة الوفية! أين ملاكك الحارس المخلص، أين من هي أكثر حناناً عليك من أمك؟ كيف تجرئين على التعالي والترفع أمام هذه الصفات التي اجتمعت كلها في أختك، يا للعار أيتها الفتاة الغادرة، يا للعار!

فصاحت فاني وهي تبكي وتنتحب:

- إنني أحب إيمي كما أحب حياتي، بل أكثر مما أحب حياتي. إنني لا أستحق أن أُعامَل على هذا النحو. إنني شاكرة لفضل إيمي، ومحبة لإيمي بقدر ما في وسع أي إنسان أن يفعل، إنني أتمنى لو أني مت، فأنا لم أتعرض قط لمثل هذا الظلم القاسي، كل هذا لأني مهتمة بمكانة الأسرة.

فصاح الرجل العجوز بشيء كثير من الاحتقار والاستنكار:

- لتذهب الريح بمكانة الأسرة. أخي، إنني أحتج ضد الكبرياء، إنني أحتج ضد الجحود إنني أحتج ضد أي واحد منا هنا يعرف ما تعرفه ويرى ما نراه، ثم يتظاهر بشيء يحيل موقف إيمي شديد الحرج لحظة واحدة، أو يسبب لها الألم لحظة واحدة. ولعلنا نعرف أن مثل هذا التظاهر يكون حقيراً إذا كانت له هذه النتيجة. إنه لجدير بأن يجلب علينا غضب الله. وإني يا أخي لأحتج عليه، أمام الله.

وكأنما كانت يده، وهو يرفعها إلى ما فوق رأسه ثم يهوي بها على المائدة، يد حداد. ولكنها لم تلبث بعد لحظات من الصمت أن تراخت إلى ما كانت عليه من ضعف. ثم مضى نحو أخيه بخطواته المتثاقلة، ووضع يده على كتفه وقال بصوت أرق:

- ويليام، يا عزيزي، لقد شعرت أن من واجبي أن أقول هذا. اصفح عني لأني شعرت أن من واجبي أن أقول هذا.

ثم غادر، بقوامه المنحني، صالة القصر، تماماً كما لو كان ينصرف من غرفة في سجن مارشاليزا.

وكانت فاني خلال هذا كله تبكي وتنتحب، وتمعن في هذا. أما إدوارد، ففيما عدا فتح فمه دهشة، فإنه لم ينطق بكلمة، ولم يفعل شيئاً إلا الحملقة. وكذلك كان السيد دوريت في حالة اضطراب شديد، ولم يستطع بأي حال من الأحوال أن يتحكم في نفسه، وكانت فاني الآن هي البادئة بالحديث في بكاء:

- إنني لم أتعود إطلاقاً، إطلاقاً، إطلاقاً أن أعامَل هكذا! إنه لم يحدث قط أن شاهدت شيئاً على مثل هذا الظلم والغلظة، وعلى مثل هذا العنف والقسوة الفاضحة! ثم هناك عزيزتي العطوف الرقيقة الصغيرة إيمي. بماذا يمكن أن تشعر لو أنها علمت أنها كانت -دون علم منها- الأداة التي عرَّضتني لمثل هذه المعاملة! ولكنني لن أقول لها هذا قط! لا. لن أقول لحبيبتي الطيبة، هذا قط.

وساعد هذا السيد دوريت على أن يخرج من صمته فقال:

- إنني يا عزيزتي.. ها.. أوافق على هذا القرار. فإنه سيكون من الأفضل.. هه.. لو أنك لا تتحدثين مع إيمي في هذا الشأن. فإن هذا.. هه.. قد يحزنها.. ها.. لا شك أن هذا سوف يحزنها كثيراً. إن من الصواب وحسن اللياقة أن نفعل هذا، لسوف.. ها.. نحتفظ بهذا لأنفسنا.

فصاحت الآنسة فاني قائلة:

- ولكن قسوة عمي! أوه، إني لن أصفح أبداً عن قسوة عمي هذه المقصودة.

فقال السيد دوريت وقد استرد لهجته الطبيعية رغم بقاء وجهه على شحوبه الشديد.

- يا عزيزتي، أرجوك ألا تقولي هذا. يجب أن تذكري أن عمك ليس.. ها.. كما كان في أيامه الأولى. يجب أن تذكري أن حالة عمك تحتاج إلى.. هه.. كثير من الصبر منا.. كثير من الصبر.

فقالت فاني في رثاء:

- أنا واثقة أن من سماحة النفس فقط أن نفترض وجود شيء ما خطأ في مكان ما مع عمي، وإلا لما هاجمني أنا.. أبداً.. دون الناس جميعاً.

فردّ السيد دوريت في صوت عميق زاخر بالحنان:

- فاني، أنت تعرفين إلى أي حد تحطم عمك رغم كل ما فيه من زوايا طيبة. ولهذا أرجوك بكل ما لديَّ من حب له، وبكل الإخلاص الذي تعرفين أني أكنّه له.. ها.. أن تستنتجي ما تريدين، وأن ترحمي عواطفي الأخوية.

وانتهى المنظر بهذا. وبقي السيد إدوارد حتى النهاية لا يقول شيئاً. ولكنه ظل بادي الحيرة والارتياب. أما فاني فقد أيقظت في ذهن أختها إيمي الشيء الكثير من القلق الممزوج بالحب حين أمضت معظم ساعات اليوم في نوبات عنيفة من عناقها، وفي تقديم الأساور الثمينة إليها حيناً، وفي طلب الموت لنفسها حيناً آخر.

* * *

أمر صحيح في مكان ما



أن تكون في حالة السيد هنري جوان المعلقة، وأن تهجر باشمئزاز إحدى الطبقتين ثم تجد نفسك محتاجاً للمؤهلات الضرورية التي تتيح لك النجاح في الطبقة الأخرى، وأن تتسكع باكتئاب في أرض محايدة، هو أن تكون في موقف ضار بالعقل ليس من المحتمل أن يتحسن مع مرور الزمن. وإن أسوأ حاصل جمع يحدث في الحياة اليومية بالعالم هو ما يقوم به الحسابيون المرضى الذين يؤمنون دائماً بقاعدة الطرح في إمكانيات ونجاح الآخرين، ولا يملون الجمع في إمكانياتهم هم.

وكذلك عادة البحث عن نوع من التعويض في المباهاة بعدم الرضا وبالسخط على كل شيء، هي عادة مشحونة بعوامل الانحلال. إنها لا تلبث أن تؤدي إلى بلادة اللامبالاة، وإلى الإهمال في المواظبة والمثابرة وإن من أشد مباهجها عندئذ أن ترفع قيمة الأشياء التي لا تستحق الرفع، وتخفض الأشياء التي لا تستحق الخفض. والمعروف أنه لا يوجد لعب أسوأ من اللعب بالحقيقة، لأنها تؤدي به سريعاً إلى الانحلال.

وقد كان جوان واحداً من هؤلاء، وأكثر الناس إسرافاً في تجريد كل صورة من صور فن الرسم من كل ميزة وهو يعبر عن رأيه فيها. وكان يعلن أن لدى هذا الرجل من قوة الفن في إصبعه الصغير، مع العلم

بأنه لا شيء لديه منها أكثر مما لدى هذا الرجل الآخر، مع العلم بأن لديه الكثير في كل جسمه وعقله. فإذا كان الاعتراض على الشيء موضوع التعليق بأنه تافه، فإنه يجيب بالنيابة عن نفسه كفنان، قائلاً:

- يا صاحبي العزيز، إلى أي شيء ينتهي بنا الأمر جميعاً إلا إلى التفاهة؟ إنني شخصياً لن ينتهي بي الأمر إلى غير هذا. وإني أقدم لك هذا الاعتراف كهدية.

ومن هذا اللون أيضاً ادعاؤه بأنه فقير، وذلك رغم أن من المحتمل أن يكون قصده من هذا قوله إنه من الواجب أن يكون غنياً تماماً كما كان يعلن على الملأ سخط على آل بارناكل واستياءه منهم حتى لا ينسى أحد أنه ينتمي إليهم. وأياً كان الأمر، فإن هذين الموضوعين كانا دائماً على لسانه. وقد نجح بهما نجاحاً طيباً، بحيث لو أنه راح يمتدح نفسه شهراً كاملاً، لما استطاع أن يجعل من نفسه شخصية لها قيمتها كما استطاع أن يفعل باستهانته بأية حقوق له في اعتبارات غيره.

ومن نفس هذا الحديث الخفيف. كان الناس لا يلبثون أن يدركوا -أينما ذهب هو وزوجته- إنه تزوجها ضد إرادة أهله العظام، وإنه بذل كل ما يستطيع من جهد لكي يجعلهم يوافقون عليها. إنه لم يذكر هذا الاعتراض بعبارة صريحة قط، بل على العكس، كان يضحك ساخراً من موقف أهله، ولكن الذي كان يحدث، مع هذا، أنه يظل دائماً في موقف الرجل الممتاز رغم كل محاولاته في الاستهانة بنفسه. وقد شعرت زوجته ميني جوان، منذ أيام شهر العسل، أن الناس ينظرون إليها دائماً على أنها زوجة رجل تنازل عن أشياء كثيرة للزواج بها، ولكن شهامته في حبها قد محت هذا الفارق.

وعند سفرهما إلى البندقية، كان يصحبهما السيد بلاندواز الآتي من باريس. وفي البندقية كان السيد بلاندواز الآتي من باريس يصاحب جوان

كثيراً. وكانا عندما التقيا لأول مرة في جنيف بهذا السيد الهمام، شعر جوان بالحيرة فيما ينبغي أن يفعل، هل يركله بعيداً، أم يشجعه، وقد ظل أربعاً وعشرين ساعة دون أن يستقر على رأي، بحيث فكر في أن يحتكم إلى قطعة نقود من فئة الفرنكات الخمسة، باعتبار «الكتابة ركل، والصورة تشجيع» ثم يقبل صوت هذا الحكم. ولكن تصادف على أية حال أن أعربت زوجته عن نفورها من ذلك الجذاب بلاندواز، كما ظهر أن مشاعر غالبية نزلاء الفندق كانت ضده. وعلى هذا قرر جوان أن يشجعه.

لماذا هذا العناد ما دام لم يتخذ هذا الموقف في نوبة كرم؟ وهذا ما لم يكن. لماذا يقف جوان في جانب هذا الرجل بلاندواز الآتي من باريس وهو الأرفع منه شأناً. والقادر تماماً على أن يمزق أعماق نفسه ليعرف حقيقة أمره؟ فمن ناحية أولى، عارض أول رغبة خاصة لزوجته، لأن والدها سدد عنه ديونه، كان من المرغوب فيه أن يبادر في أول فرصة ليثبت استقلاله الذاتي، ومن ناحية أخرى كان يعارض سيادة غيره، لأنه -لظروف كثيرة- محروم منها ومن ثم أصبح رجلاً سيء الحال وقد وجد من دواعي البهجة أن يعلن أن رجلاً ودوداً له هذا السلوك المهذب مثل بلاندواز ينبغي أن يرتفع إلى أرقى المناصب في أي بلد متحضر. لقد وجد من دواعي السرور أن يجعل من بلاندواز أنموذجاً للوجاهة. وأن ينظم منه قصيدة هجاء لأولئك الذين يتغنون بمحاسنهم الذاتية. وكان يحتج على المعارضين قائلاً في جد إن انحناءة بلاندواز رائعة، وإن طريقته في الحديث لا تقاوم، وإن مرونة بلاندواز الجميلة تكون رخيصة لو قدرت بمائة ألف فرانك -هذا إذا لم تكن موهبة طبيعية لا تباع أو تشتري- وكانت مبالغة بلاندواز في تصرفاته المهذبة، وهي التصرفات التي يلاحظ عادة أنها تلازمه كما تلازم كل رجل مثله، أياً كان منبته الأصلي، ملازمة الشمس للمجموعة الشمسية، كانت هذه موضع رضاء جوان باعتبارها شيئاً فكاهياً يمكن أن يجعله مصدراً -تحت يده- للعبث والتندر

والسخرية بعدد من الناس الذين يتصرفون في قليل أو كثير على هذا النحو الذي يبالغ فيه بلاندواز. وهكذا اتصل به، وهكذا راح -بطريقة غير مباشرة- يقوي فيه هذه الاتجاهات نحو المبالغة، ويتخذ من حديثه أداة للتسلية حتى انزلق في نهاية الأمر إلى اتخاذه صديقاً ورفيقاً على نحوٍ ما. لقد فعل هذا رغم أنه كان يظن أن الرجل يتكسب من موائد المقامرة وما إليها؛ ورغم ارتيابه في أنه جبان بينما يعتبر نفسه جريئاً باسلاً؛ ورغم إدراكه التام بأنه مكروه جداً من ميني، ورغم أنه لا يهتم به في قليل أو كثير بحيث لو أنه كان السبب في أن تنظر ميني إليه هو -جوان- بنفور، لما تردد لحظة واحدة في الإلقاء به من أعلى نافذة في البندقية إلى أعمق أغوار مائية بالمدينة.

وكانت دوريت الصغيرة تتمنى لو استطاعت أن تزور بمفردها السيدة جوان. ولكن فاني، التي لم تكن قد أفاقت بعد من هجوم عمّها عليها رغم مرور أربع وعشرين ساعة عليه، عرضت في إلحاح أن تصحبها. وهكذا استقلت الأختان أحد زوارق الجندول الراسية تحت نافذة السيد دوريت. وبوجود الساعي الخاص في معيتهما، حُمِلتا في هذا المظهر الرفيع إلى مسكن السيدة جوان. والحقيقة أن مظهرهما الرفيع كان أرفع من المسكن الذي قالت عنه فاني في تذمر إنه «بعيد عن الأماكن المطروقة بشكل مزعج» إذ كان الطريق إليه يمر بعدد كبير من الشوارع المائية الضيقة المعقدة التي وصفتها الآنسة نفسها بأنها مجرد مستنقعات.

وكان البيت الواقع على جزيرة صغيرة مهجورة يبدو كأنه قد انفصل عن أي مكان آخر، ثم راح يطفو على غير هدى حتى وصل إلى مرساته الحالية مصحوباً بكرمة كانت في حاجة إلى تهذيب وتشذيب حاجة البؤساء المساكين الراقدين تحت أوراقها إلى ذلك. وكانت ملامح الصورة المحيطة به تتكون من: كنيسة تقوم حولها السقالات والدعائم لعملية

إصلاحات مفترضة طال عليها الأمد بحيث بدا كأن وسائل الإصلاح نفسها مرت عليها مائة عام، فأصبحت في حالة تهدم وتداع. وكمية من الملابس المغسولة المنشورة لتجف في الشمس. وعدد من المنازل المتناقضة الأوضاع بعضها لبعض، القائمة في مستويات عمودية غريبة الشكل، كأنها قوالب من جبن متعفن من صناعة ما قبل التاريخ قُطِّعت في أشكال خيالية، ومليئة بالسوس. ثم تيه مضطرب من النوافذ بستائرها المخرمة المسدلة بانحراف وقد تدلى من معظمها شيء قذر موحل.

وكان في الطابق الأول للمنزل مصرف -وهو تجربة مدهشة لأي سيد يشتغل بالشؤون التجارية ويجلب القوانين إلى جميع البشر من مدينة إنكليزية- وكان ثمة كاتبان كأنهما فارسان مجففان يرتديان قلنسوتين خضراوين محلاتين بزرارين ذهبيين، قد وقفا بحليتهما وراء منصة صغيرة في غرفة صغيرة، لا تحتوي على أشياء مرئية إلا خزانة نقود حديدية فارغة مفتوحة الباب، وإناء ماء، وأكاليل من الأزهار الورقية. ولكن كان في مقدور هذين الكاتبين، بحكم القانون، أن يخفيا أيديهما عن الانتظار برهة، ثم يبرزاها بأكوام صغيرة لا ينضب لها معين من قطع النقود فئة الفرنكات الخمسة. وتحت البنك كان ثمة طابق مكون من ثلاث أو أربع غرف لها نوافذ ذات قضبان حديدية، وتبدو من مظهرها كأنها سجن لصغار المجرمين، وفوق البنك كان مسكن السيدة جوان.

ورغم أن جدران المسكن كانت مرقعة وكأنها تنبثق من ملاطها خرائط للمعلومات الجغرافية، ورغم أن ما فيها من أثاث حقير كان حائل اللون عتيقاً؛ ورغم ما كان يشيع فيه بقوة من رائحة المياه الجوفية التي كأنها منبعثة عن مياه متخلفة عن الجزر والمد فوق شاطئ معشوشب، رغم هذا وذاك، فقد كان المسكن من الداخل أفضل مما كان أحد يتوقع، وفتح الباب رجل باسم كأنه قاتل تائب -وكان خادماً مؤقتاً- وسمح لها

بالدخول إلى الغرفة التي كانت السيدة جوان جالسة فيها، وذلك بعد أن أعلن أن سيدتين إنكليزيتين جميلتين جاءتا لزيارة السيدة.

ونهضت السيدة جوان في شيء من السرعة بعد أن وضعت في سلة مغلقة قطعة التطريز التي كانت تعمل فيها. وحيّتها الآنسة فاني بشيء من المبالغة قائلة تلك العبارات التي لا تدل على شيء ببراعة الرجل المجرب. وأردفت قائلة:

– إن «بابا» شديد الأسف لأنه مشغول اليوم، «وهو دائماً مشغول هنا لأن عدد معارفنا كبير إلى حد مزعج!»، ومن ثم رجائي بوجه خاص أن أقدم بطاقته للسيد جوان. ولكن يمكنني أن أؤدي المهمة التي ألح عليّ لأدائها عشر مرات على الأقل، اسمحي لي أن أرضي ضميري وأضعها على المائدة فوراً.

وهذا ما فعلته بمرونة الرجل المجرب. ثم عادت تقول:

– لقد علمنا بكل سرور أنك تعرفين آل ميردل. ونرجو أن يكون هذا سبباً آخر لتوطيد علاقتنا.

فقالت السيدة جوان:

– إن آل ميردل أصدقاء لأسرة السيد جوان. وأنا لم أتشرف بعد، شخصياً، بالتعرف على السيدة ميردل، ولكنني أعتقد أنني سأقدم إليها في روما.

فردّت فاني قائلة وهي تتظاهر بأنها تطفئ بلباقة بعض الشيء من هيأتها المترفعة.

– أحقاً! إذن أعتقد أنك ستحبينها.

– أتعرفينها جيداً جداً؟!

فقالت فاني وهي تحرك كتفيها الجميلتين:

- آه، طبعاً، إن الإنسان في لندن يعرف كل إنسان. وقد التقينا بها ونحن في الطريق إلى هنا. وإذا شئت الحقيقة، لقد عاملها أبي بخشونة لأنها شغلت إحدى الغرف التي كان أتباعنا قد حجزوها لنا. ولكن هذا، طبعاً، لم يلبث أن انتهى إلى خير، وعادت الصداقة إلى مجراها بيننا مرة أخرى.

ورغم أن الفرصة، في هذه الزيارة، لم تسنح بعد للصغيرة دوريت لكي تتحدث مع السيدة جوان، إلا أنه كان هناك تفاهم خفي بينهما وكأنه أبلغ من كل حديث. وكانت تنظر إلى السيدة جوان في اهتمام لا يهدأ له أوار. وكان رنين صوتها يثير انفعالاتها، ولم يكن ثمة شيء قريباً منها أو حولها أو يتعلق بها، يند عن ملاحظة دوريت الصغيرة. كانت أسرع في ملاحظة أي شيء هنا، منها في أية حالات أخرى، إلا حالة واحدة.

وأخيراً قالت:

- هل أنت في حالة طيبة منذ تلك الليلة؟

- جداً يا عزيزتي. وأنت؟

فقالت دوريت الصغيرة بوداعة:

- أوه، إنني دائماً في أحسن حال. نعم شكراً لك.. إنني..

ولم يكن ثمة سبب لتلعثمها وتوقفها عن الحديث إلا أن لمست السيدة جوان يديها وهي تتحدث إليها، وإلا أن تلاقت نظراتهما. إن أمارات تنم عن التفكير والخوف بدت في عيني السيدة جوان الواسعتين الرقيقتين كانت السبب في توقف دوريت الصغيرة عن الحديث فوراً.

وقالت السيدة جوان لها:

- إنك لا تعلمين إلى أي حد أنت محبوبة من زوجي، وإنني أكاد أغار منك.

ولما احمرّ وجه دوريت الصغيرة وهزّت رأسها، استطردت السيدة جوان تقول:

- لسوف يقول لك -إن كان سيقول ما قاله لي- إنها أهدأ وأسرع بديهة من أي شخص رآه في حياته.

وقالت دوريت الصغيرة:

- إنه مسرف في الثناء عليّ.

- إنني أشك في هذا. ولكنني لا أشك في أنه يجب أن أخبره بوجودك هنا. وإلا فلن يغفر لي أبداً إذا أنا تركتك -والآنسة دوريت- تنصرفان دون أن أخبره. هل تسمحين؟ أرجو أن تتجاوزي عما يبدو من اضطراب وفوضى في موسم فنان.

وكانت العبارة الأخيرة موجهة إلى فاني التي أجابت في تلطف أنها لم ترَ في حياتها ما هو ألطف وأظرف من هذا. وذهبت السيدة جوان إلى باب، ونظرت وراءه، ثم عادت تقول:

- تكرما بالدخول على هنري، إنني واثقة أنه سيسعد بذلك.

وكان أول شيء واجه دوريت الصغيرة، الأولى في الدخول، هو بلاندواز الآتي من باريس في عباءة كبيرة وقبعة جاثمة، وقد وقف على منصة أمام حامل رسم بالركن، كما سبق أن وقف في ممر سانت برنارد الكبير عندما بدا كأن أذرع لافتات التحذير كلها كانت تشير إليه. وقد أجفلت هي من شكل هذا الرجل الذي كان ينظر إليها باسماً.

وقال لها جوان وهو يتقدم إليها من عند حامله وراء الباب:

- لا تجزعي. إنه فقط بلاندواز، إنه يؤدي عمله اليوم كأنموذج، إنني أقوم بدراسة عليه، وإنه لوفر للنقود أن أستفيد في شيء ما.. لأننا نحن الرسامين الفقراء لا نملك إلا القليل.

ورفع بلاندواز الآتي من باريس قبعته الجاثمة تحية للسيدتين دون أن يغادر مكانه في الركن. وإنما قال مشيراً إلى كلب كبير بجوار جوان:

- ألف معذرة، ولكن الأستاذ هنا لا يرحم بحيث لا يمكنني أن أتحرك من مكاني خوفاً منه.

قالت السيدة جوان ببرود بينما كانت الأختان تقتربان من الحامل:

- لا تتحرك إذن، ودع السيدتين تريا على الأقل أصل الرسم، عسى أن تفهما ماذا يراد منه. فها هو ذا واقف كما نرى، بطل في انتظار الضحية. نبيل عظيم ينتظر القيام بإنقاذ وطنه، عدو عادي ينتظر أن يرد الإساءة إلى شخص ما، رسول كريم ينتظر أن يرد الجميل لشخص ما، فأي وضع من هذه الأوضاع كلها ينطبق عليه أكثر من غيره؟

فقال بلاندواز موجهاً الحديث للكلب:

- قل، يا أستاذ ميو، إنه سيد كريم مسكين ينتظر أن يقدم التحية للرشاقة والجمال.

فقال جوان وهو يلمس بفرشاته الوجه المرسوم في الجزء الذي تحرك من الوجه الحقيقي:

- أو قل يا جاتيفو سو جيتو ميو إنه قاتل يبحث عن الحقيقة. أظهر يدك هذه البيضاء يا بلاندواز. اجعلها خارج العباءة. واحتفظ بها ثابتة.

وكانت يد بلاندواز غير ثابتة. إلا أنه كان يضحك، وقد أدى هذا بطبيعة الحال إلى اهتزازها.

وقال جوان وهو يرسم خطوط اليد لمسات سريعة خاطفة غير بارعة:

- لقد كان كما تلاحظن يخوض معركة مع قاتل آخر أو مع ضحية. وها هي شواهدها. اجعلها خارج العباءة يا رجل! يا لشيطان سان ماركو، في أي شيء تفكر!

واهتز بلاندواز الآتي من باريس من فرط الضحك مرة أخرى ومن ثم اهتزت يده مرة أخرى، إلا أنه رفعها عندئذ ليفتل شاربه الذي كان له مظهر الشيء المبلل. وأخيراً عاد إلى موقفه الأول مع شيء جديد من الاختيال.

وكان وجهه متجهاً في وضع مباشر إلى المكان الذي وقفت فيه دوريت الصغيرة بجوار الحامل، مما أتاح له النظر إليها دائماً. وقد حدث أن جذبت عيناه الغريبتان عينيها مرة، بحيث لم تستطع أن تحولها عن عينيه، وهكذا راحا يتبادلان النظرات فترة طويلة. وسرت الرعدة في بدنها الآن. وأحسّ جوان بها، وظنها خائفة من الكلب الكبير القابع بجواره والذي كانت تربت هي على رأسه بيدها، والذي كان عندئذ قد أطلق زمجرة خافتة، فقال لها وهو ينظر إليها:

- إنه لن يؤذيك يا آنسة دوريت؟

فردت على الفور:

- إنني لست خائفة منه؛ ولكن هل يمكن أن ننظر إليه؟

وفي لحظة كان جوان قد ألقى «بفرشاته» جانباً وأمسك الكلب بيديه من طوقه، ثم قال:

- بلاندواز! كيف تبلغ بك الحماقة إلى حد أن تثير الكلب هكذا؟ أقسم بالسماء، وبالجانب الآخر أيضاً، أنه قادر على أن يمزقك إرباً إرباً. اهدأ يا ليون. ألا تسمع صوتي أيها المتمرد!

ولكن الكلب الكبير، رغم أنه كان يكاد يختنق من طوقه، راح يبذل كل ما يستطيع من جهد ليقاوم سيده بعد أن صمم على اجتياز الغرفة. وكان قد تحفز للوثوب في اللحظة التي أمسكه فيها سيده.

وهتف جوان وهو يصارع الكلب المتحفز على قائمتيه الخلفيتين:

- ليون.. ليون.. ارجع يا ليون، ارقد. ابتعد يا بلاندواز عن نظراته.. أي شيطان وضعته في جسم الكلب!

- إنني لم أفعل شيئاً له.

- ابتعد عن نظره وإلا فلن أستطيع السيطرة على الوحش. اخرج من الغرفة! أقسم لك بروحي أنه سيقتلك.

وبذل الكلب محاولة أخيرة وهو يرسل نباحاً وحشياً عند انصراف بلاندواز. وبعد أن هدأ، عمد سيده، الذي كان لا يقل غضباً عنه، إلى ضربه على رأسه ضربة أوقعت به، ثم وقف فوقه وراح يركله عدة مرات في قوة وعنف بكعب حذائه حتى انبثق الدم من فمه. وأخيراً قال له آمراً:

- والآن، ارقد في هذا الركن ولا تتحرك، وإلا سوف أخرج بك وأطلق النار عليك.

وأطاع ليون الأمر، ورقد يلعق فمه وصدره، وتوقف سيده برهة ليلتقط أنفاسه، وبعد أن استرد هدوء تصرفاته الطبيعي، استدار ليتحدث إلى زوجته الخائفة وزائرتيها. وكان الحدث كله على وجه الاحتمال لم يستغرق أكثر من دقيقتين:

- لا تجزعي يا ميني. أنت تعرفين أنه دائماً لطيف ومطيع. لا بد أن بلاندواز قد أثاره أو سخر منه. والكلب له أحبابه وأعداؤه. والواضح أن بلاندواز ليس من أحبابه. ولكنني واثق أنك ستعجبين به الآن بعد أن أظهر شخصيته، لأنه لم يفعل قط مثل هذا من قبل.

وكان الاضطراب قد بلغ من ميني حداً جعلها لا تستطيع أن تجيب بشيء، وكانت دوريت الصغيرة قد شغلت فعلاً في تهدئتها، وأمسكت فاني -التي صرخت مرتين أو ثلاثاً- بذراع جوان احتماء به، أما ليون، فقد شعر بالخجل الشديد لما أثاره في نفوسهم من جزع، فراح يزحف عائداً ليقبع عند قدمي سيدته.

وصاح جوان وهو يركله مرة أخرى بقدمه:

- أيها الوحش الغضوب. لسوف تندم على هذا.

وراح يكرر ضربه المرة بعد الأخرى.

وهتفت دوريت الصغيرة قائلة:

- أوه، أرجو ألا تعاقبه أكثر من هذا. لا تؤذه ألا ترى إلى أي حد هو لطيف؟

وحقق جوان رجاءها، وعفا عن الكلب، وكان يستحق التوسط من أجله، لأنه كان في الواقع مستسلماً، وحزيناً، وبائساً كما يمكن أن يكون كلب ما.

ولم يكن من السهل التحرر من تأثير هذه الصدمة وجعل جو الزيارة خالياً من التوتر. وذلك رغم التفاهات التي كانت تصدر عن فاني حتى في أحسن الظروف. وفي أثناء الأحاديث التي دارت بينهم قبل أن تنصرف الأختان، خُيِّل إلى دوريت الصغيرة أنها اكتشفت أن السيد جوان كان يعامل زوجته -حتى وهو في أشد حالات حبه لها- كما لو كانت طفلة جميلة. كان يبدو عليه أنه لا يدرك إطلاقاً شيئاً عن أعماق إحساساتها التي كانت دوريت الصغيرة تعلم أنها مستقرة تحت السطح، حتى لقد خامرها الشك في أن يكون لجوان نفسه أية أعماق في ذاته إطلاقاً. ومن ثم راحت تتساءل. هل يمكن أن يكون ميله إلى السطحية والهزل راجعاً إلى

حرمانه من هذه الصفات؟ وهل الأمر مع الناس كما هو مع السفن، أي كلما كانت المياه ضحلة كثيرة الصخور، لا تستطيع السفن أن ترسو فيها، فتهيم على سطح الماء كيفما يكون.

وصحبهما إلى نهاية السلَّم وهو يعتذر مازحاً عن بؤس الأماكن التي يضطر البؤساء أمثاله إلى الإقامة فيها. قائلاً إنه حين يخجل آل بارناكل، العظماء الكبراء -الذين هم أسرته- هذه الأماكن، سوف يقدمون له مسكناً أفضل، وعندئذ يستطيع أن يعيش حياة أفضل من هذه ويكون عند حُسْن ظنهم. وعند حافة الماء، حياهما بلاندواز الذي كان ممتقع الوجه جداً بعد مغامرته الأخيرة، ولكنه، مع هذا، حاول أن يستخف بها، إذ راح يضحك عندما جاء ذكر ليون في الحديث.

ولما تركت الأختان تحت عروش الكرمة في الممر، أخذ جوان في تراخٍ يلقي ببعض أوراقها إلى الماء، وشغل بلاندواز بإشعال سيجارته، ومن ثم لم تلبث الأختان أن ركبتا زورق الجندول للعودة بنفس الأبهة التي جاءتا بها. ولكن ما إن مضت لحظات على انسياب الزورق حتى لاحظت دوريت الصغيرة أن أختها فاني تسرف في الحركات الملفتة للنظر أكثر مما تستلزمه المناسبة، فلما تلفتت حولها من خلال النافذة ومن خلال الباب لتعرف السبب، رأت زورق جندول آخر يبدو عليه أنه يقتفي أثر زورقهما.

وكان ذلك الزورق ينساب وراءهما وحولهما بمختلف الأوضاع البارعة. فهو حيناً يسبقهما، ثم يتوقف ليدع زورقهما يمر، ثم يسير جنباً إلى جنب معه. وفي أحيان أخرى يتبعهما عن قرب. ولما أخذت فاني، تدريجياً، توضح أنها تعرض جمالها وملاحتها على شخص معين في الزورق الآخر، وهي تتظاهر بأنها لا تراه، سألتها دوريت الصغيرة أخيراً عمن يكون.

- ذلك المهذار؟

فقال دوريت الصغيرة:

- من هو؟

فردّت فاني قائلة -بلهجة تدل على أنها كان يمكن أن تقول، قبل احتجاج عمّها عليها، أيتها الصغيرة الحمقاء- بدلاً من:

- يا طفلتي العزيزة. ما أبطأ فهمك إنه الشاب سباركلر.

ثم فتحت النافذة التي بجانبها، وتراجعت في مكانها إلى الوراء وأراحت مرفقها عليه في تراخٍ، وأخذت تروّح على وجهها بمروحة إسبانية ثمينة ذهبية وسوداء. ولما انطلق الزورق الآخر إلى الأمام مع نظرة سريعة على النافذة، ضحكت فاني في دلال وقالت:

- أرأيت أحمق من هذا يا حبيبتي؟

فسألتها دوريت الصغيرة قائلة:

- أتظنين أنه ينوي متابعتنا طيلة الطريق.

فردّت فاني قائلة:

- يا طفلتي الغالية، إنني لا أستطيع أن أعرف ماذا قد يفعل شاب أحمق في حالة يأس. لكنني أعتقد أن هذا ممكن جداً. والمسافة ليست كبيرة جداً، ولا أظن أن البندقية كلها تعتبر مسافة كبيرة، في رأيي، إذا كان سيموت شوقاً إلى نظرة مني.

فقالت دوريت الصغيرة ببساطة كاملة:

- وهل هو كذلك؟

فقالت أختها:

- حسناً يا حبيبتي. إنه حقاً سؤال تحرجني الإجابة عنه. ولكنني أعتقد أنه كذلك. ويحسن بك أن تسألي إدوارد. أعتقد أنه يقول لإدوارد

إنه كذلك. وقد فهمت أنه يلفت الأنظار إليه في «الكازينو» وفي غيره من الأماكن المماثلة بحديث غرامه عني. ولكن يحسن أن تسألي إدوارد إذا أردتِ أن تعرفي.

فقالت دوريت الصغيرة بعد برهة تفكير:

- إنني أتساءل لماذا لا يزورنا؟

- لسوف ينتهي تساؤلك قريباً يا عزيزتي إيمي إذا صحّ ما بلغني. ولن أكون مدهوشة جداً إذا زارنا اليوم. إن هذا المخلوق كان -كما أظن- ينتظر فقط حتى يستجمع شجاعته.

- وهل ستقابلينه؟

فقالت فاني:

- إن الأمر يا حبيبتي، يتوقف حسب الظروف. ها هو مرة أخرى. انظري إليه. أوه أيها الأبله.

وكان للسيد سباركلر، بلا جدال، مظهر الشخص الضعيف العقل وهو يحملق إلى النافذة، ثم وهو يوقف زورقه فجأة بلا أدنى سبب، إلا السبب الحقيقي.

وقال فاني وهي تبدو في هيئة من الهدوء وعدم الاهتمام، تماماً كما لو كانت السيدة ميردل نفسها:

- ماذا كنت تعنين يا عزيزتي حين سألتني ما إذا كنت سأراه عند زيارته لنا أم لا.

فقالت دوريت الصغيرة:

- إنني أعني في الواقع ما تعنينه أنت يا عزيزتي فاني.

وضحكت فاني مرة أخرى في لهجة تجمع بين التلطف والوداعة والحدب ثم قالت وهي تضع ذراعها حول أختها بطريق تنم عن المداعبة والحب.

- أخبريني يا قطتي الصغيرة، عندما رأينا تلك المرأة في مارتيني. ماذا خطر ببالك أنها سوف تفعل؟ هل أدركت ماذا قررت أن نفعل منذ تلك اللحظة؟!

- لا يا فاني.

- إذن سوف أخبرك أنا يا إيمي. لقد قررت فيما بينها وبين نفسها أنها لن تشير أبداً إلى ذلك اللقاء الذي حدث بيننا وبينها في ظروف أخرى، وأنها لن تتظاهر قط بالتفكير في أننا نفس الفتاتين. هذه هي طريقتها للتغلب على أية مشكلة. وماذا قلت أنا لك عندما خرجنا من شارع هارلي ستريت في ذلك الحين! ألم أخبرك أنها امرأة وقحة متقلبة كأية امرأة من نوعها في العالم؟ ولكن أهم شيء يا عزيزتي، هو أنها قد تجد أشخاصاً يمكن أن يكونوا أنداداً لها.

وبحركة لها دلالتها من المروحة نحو صدرها، عبرت فاني بكل وضوح على أنها واحدة من هؤلاء الأشخاص. وقد استطردت قائلة:

- وليس هذا فقط، وإنما نقلت شعورها وقرارها هذا إلى الشاب سباركلر، فلم تدعه يأتي لزيارتي إلا بعد أن وضعت في أعجب شيء مثير للعجب، أعني رأسه «إن كان رأساً كغيره من الرؤوس» فكرة الظهور بمظهر الشاب الذي سحر بجمالي لأول مرة في فناء ذلك الفندق.

فسألت دوريت الصغيرة قائلة:

- لماذا؟

فقالت فاني بنفس اللهجة التي تنم عن أنها أرادت أن تقول «أيتها الصغيرة الحمقاء»:

– يا للسماء يا حبيبتي. كيف يمكن أن أسأل؟ ألا ترين أني ربما أصبحت زوجة مرغوباً فيها لشخص أحمق، وألا ترين أنها تريد أن تخدعنا وتتظاهر بغير ذلك، وترفع هذا العبء عن كتفيها «وهما كتفان جميلتان فعلاً كما يجب أن أقول».

ثم نظرت الآنسة فاني إلى نفسها في رضا وأردفت قائلة:

– كل هذا دون أن تعبأ بشعورنا.

– ولكننا نستطيع دائماً أن نواجهها بالحقيقة.

فردت فاني قائلة:

– نعم، ولكننا لن نفعل إذا أردت أن تعرفي. لا، لن أفعل هذا. إن الادعاء ليس من جانبنا، وإنما من جانبها هي، ولسوف تنال منه كفايتها.

وخلال نشوة فاني بإحساسها بالنصر، أخذت تحرك المروحة بيد، وتضغط على وسط أختها بالذراع الأخرى، وكأنها تريد أن تحطم السيدة ميردل.

وكررت فاني القول:

– لا. لسوف تجدني أسير في نفس طريقها. لقد بدأت، وسوف أتبعها. وسوف أستعين ببركة الحظ السعيد والأقدار على الاستمرار في تمكين علاقتي بهذه المرأة حتى أستطيع أن أمنح خادمتها. أمام عينيها. فساتين من خزانة ملابس أجمل وأغلى عشر مرات مما أعطتني يوماً من خزانة ثيابها.

ولزمت دوريت الصغيرة الصمت، مدركة أنه ليس لها أن تلقي أي سؤال يتعلق بكرامة الأسرة، كما أنها لم تكن راغبة في أن تفقد –بلا

داعٍ- حب أختها الذي استردته أخيراً على حين فجأة. إنها تستطيع أن توافق، ولكنها آثرت الصمت. وأدركت فاني تماماً ما يدور بخلدها، أدركته عن يقين بحيث لم تلبث أن سألتها عنه، فأجابت دوريت الصغيرة:

- هل تعنين أنك تنوين تشجيع السيد سباركلر يا فاني؟

فقالت أختها وهي تبتسم باحتقار:

- أشجعه يا عزيزتي، إن هذا يتوقف على ما تسميه تشجيعاً! لا، إنني لا أنوي أن أشجعه، وإنما سوف أجعل منه عبداً.

وتطلعت دوريت الصغيرة إلى وجهها في جد وارتياب. ولكن لم تكن فاني بالتي توقف عند حد. ومن ثم نشرت مروحتها الذهبية السوداء وربتت بها على أنف أختها في هيئة الفتاة المزهوة بجمالها، الواثقة من نفسها حين تداعب صديقة صغيرة مدربة لطيفة.

- لسوف أجعله يدور ويلف ويغدو عبداً لي، وإذا لم أستطع أن أجعل أمه جارية لي أيضاً، فلن يكون الذنب ذنبي.

- هل تعتقدين يا عزيزتي فاني -وأرجو ألا تستائي، فنحن سعداء هكذا معاً- أنك واثقة من نهاية هذا الطريق؟

فقالت فاني باستخفاف تام:

- لا أستطيع أن أقول إنني ألقيت حتى الآن نظرة على نهايته يا عزيزتي. فإن هذا مرهون بوقته. تلك، مقاصدي، ويبدو أنها استغرقت في نموها وقتاً طويلاً حتى غدونا أمام البيت الآن. وها هو ذا الشاب سباركلر يتساءل عند الباب عن المقيمين بالقصر، بمحض الصدفة طبعاً.

وكان الشاب في الحقيقة واقفاً في زورقه، ممسكاً ببطاقته، موجهاً السؤال إلى أحد الخدم، وقد أدى توافق هذه الظروف إلى مبادرته بعد

ذلك لتقديم نفسه للأختين في وضع كان من الممكن أن يعتبر في العصور القديمة غير محقق لأهدافه. ذلك أن ملاحي زورق الأختين، كانا قد ضايقتهما مطاردة الشاب، فعمدا إلى الاصطدام بزورق السيد سباركلر، صدمة خفيفة بارعة، أدت به إلى الوقوع في داخل زورقه رأساً على عقب مما جعله يستعرض نعلي حذائه أمام أحب شيء إلى صدره، هذا بينما كان جزءه الأعلى يتلوى بين ذراعي أحد ملاحي زورقه.

وعلى أية حال، فبينما كانت الآنسة فاني تسأل في اهتمام شديد هل أصيب السيد بضرر، نهض السيد سباركلر وهو أكثر هدوءاً مما كان يتوقع أحد، وقال في تلعثم وقد احمرّ وجهه «لا، مطلقاً» وتظاهرت فاني بأنها لا تذكر أنها رأته من قبل، فهمّت بالمضي في سبيلها بعد أن أومأت له برأسها من بعيد، لولا أنه قدم نفسه بالاسم. وحتى عندئذ تظاهرت أنها لا تكاد تذكر بسهولة هذا الاسم، فما كان منه إلا أن تحدث عن تشرفه برؤيتها في بلدة مارتيني، وعندئذ تذكرته، وتمنت أن تكون السيدة أمه في حالة طيبة.

وقال متلعثماً:

- شكراً لك. إنها في حالة أحسن من المألوف، أعني على الأقل أسوأ.

فقالت الآنسة فاني:

- في البندقية؟

فردّ السيد سباركلر قائلاً:

- في روما. وأنا هنا بمفردي، بمفردي. وقد جئت لزيارة السيد إدوارد بنفسي، أعني والسيد دوريت أيضاً، بل في الواقع لزيارة الأسرة.

واستدارت الآنسة فاني برشاقة نحو أتباعها وسألت عما إذا كان «بابا» أو أخوها موجوداً بالداخل. فلما كانت الإجابة أن الاثنين

بالداخل، مد السيد سباركلر ذراعه في تواضع إلى الآنسة فاني التي قبلته. وصعدت السلم الكبير معتمدة على ذراع السيد سباركلر الذي كان لا يزال يعتقد -دون أن يكون هناك سبب كبير للشك- في أنها فتاة جادة لا تعرف اللغو والعبث، فهو يخدع نفسه إلى حد كبير.

وبعد الوصول إلى غرفة الاستقبال المتداعية، حيث كانت ستائرها الباهتة ذات ألوان كئيبة تتكون من الأزرق المائل للخضرة، والتي حالت ألوانها هذه وشحبت حتى بدت كأنها هي ستطالب بقرابتها لنفايات الأعشاب البحرية الطافية تحت النوافذ أو متعلقة بالجدران تبكي أقاربها المسجونين بعد الوصول إلى هذه الغرفة، أرسلت الآنسة فاني المبعوثين إلى أبيها وأخيها. وفي أثناء انتظارهما، جلست على المتكأ بطريقة أجهزت على كل مقاومة للسيد سباركلر كما راحت تتحدث عن دانتي، الذي كان معروفاً لذلك السيد باعتباره شخصية غريبة الأطوار من شخصيات التاريخ، تعوَّد أن يضع أوراق الشجر حول رأسه، ويجلس على مقعد مفرد، لغرض غير مفهوم، خارج كاتدرائية فلورنسا.

ورحب السيد دوريت بالزائر في حماسة شديدة، وبكل ما يمكن من آداب السلوك. وقد سأل بصفة خاصة عن صحة السيدة والسيد ميردل. وقال السيد سباركلر، أو على الأصح، استطاع أن يصدر تعبيرات من تحريك عنقه داخل ياقة قميصه، مؤداها أن السيدة ميردل بعد أن ضاقت ذرعاً بقصرها في الريف، وبقصرها الآخر في برانيون، لم تستطع طبعاً أن تبقى طيلة الوقت في لندن التي لم يبقَ فيها، كما ترون، شخص واحد، ولما لم تكن في حالة معنوية تسمح لها بزيارة قصور الآخرين، قررت أن تزور روما حيث يمكن لسيدة مثلها ذات مظهر فاخر، ولا تعرف العبث واللغو، أن تحتل مكانها المرموق في الوسط الاجتماعي. أما عن السيد ميردل. فإن الناس لا يستغنون عنه في لندن، وفي غيرها من

المدن، وإنه من العوامل الهامة جداً في الشؤون المالية والاقتصادية بحيث يشك السيد سباركلر في أن النظام المالي للبلاد يمكنه الاستغناء عنه. وذلك رغم أن السيد سباركلر لم يخف أن العمل أحياناً يكون أكثر من طاقة السيد ميردل، وأنه من الأفضل له أن يقضي فترة ما في مكان جديد المناظر والجو. أما عن السيد سباركلر نفسه، فقد أفهم أسرة دوريت أنه سوف يمضي بسبب مهمة خاصة حيثما يمضون.

وكان القيام بهذه العملية الضخمة للمحادثة يحتاج إلى وقت، ولكنها تمت على كل حال، وبعد أن تمت أعرب السيد دوريت عن أمله في أن يتفضل السيد سباركلر ويتناول العشاء معهم قريباً. وتقبل السيد سباركلر الدعوة في ترحيب كبير جعل السيد دوريت يسأله عن كيفية قضاء يومه، على سبيل المثال؟ فلما قال إنه لن يفعل شيئاً «كانت تلك هي مهمته عادة والمؤهل الخاص به» دعي للعشاء فوراً وبلا تأجيل، كما أضيف إلى هذا ارتباطه بمصاحبة الأختين إلى الأوبرا مساءً.

وفي موعد العشاء، خرج السيد سباركلر من الماء، كما فعل ابن فينوس حين خرج وراء أمه، وصعد سلم القصر الكبير في مظهر كله الأبهة والاختيال، وإذا كانت فاني فاتنة في الصباح، فهي الآن أكثر فتنة ثلاث مرات، وكانت ترتدي بأناقة ملابس ذات ألوان بالفعل مناسبة لها، كما كانت تبدو في هيئة من اللامبالاة ضاعف من أسر السيد سباركلر وتوثيق أصفاده.

وعلى مائدة العشاء قال له مضيفه:

– سمعت يا سيد سباركلر أنك تعرف.. ها.. السيد جوان. السيد هنري جوان.

فردّ السيد سباركلر قائلاً:

- تماماً يا سيدي. إن أمي وأمه صديقتان قديمتان في الواقع.

فقال السيد دوريت لابنته دوريت الصغيرة في هيئة من العظمة كما لو كان هو اللورد ديكيموس نفسه.

- لو أني فكرت في هذا الأمر من قبل يا إيمي، لبعثت إليها برسالة دعوة إلى العشاء اليوم. وكان يمكن أن يذهب بعض أتباعنا لمصاحبتها إلى هنا، ثم العودة معها إلى البيت. وكان يمكن أن تخصص لهذه المهمة أحد زوارقنا الجندولية. إني آسف إذ نسيت هذا. أرجو أن تذكريني بها غداً.

ولم تكن دوريت الصغيرة واثقة تماماً كيف سيتقبل السيد جوان هذا النوع من الدعوة والترحيب، ولكنها وعدت أباها أنها لن تقصر في تذكره.

وتساءل السيد دوريت قائلاً:

- أتسمح! هل السيد جوان.. ها.. يرسم صور أشخاص!

فقال السيد سباركلر إنه يرسم كل شيء يعهد به إليه.

فقال السيد دوريت:

- أليس له طابع معين؟

فأجاب السيد سباركلر الذي جعله الحب متألقاً في الحديث، قائلاً إن الرجل الذي يلتزم طابعاً معيناً يجب أن يكون له زوج معين من الأحذية، فالصياد مثلاً يجب أن يكون لديه أحذية صيد، ولاعب الكريكيت، أحذية كريكيت. هذا بينما هو يعتقد أنه ليس للسيد جوان أحذية لها طابع معين!

فقال السيد دوريت:

- ولا تخصص؟!

ولما كانت هذه كلمة كبيرة على السيد سباركلر، لا سيما أن عقله كان قد أرهق بالمجهود الأخير، فقد أجاب قائلاً:

- لا، شكراً، إنني قلما أهتم بالأمر.

فقال السيد دوريت:

- حسناً. سيكون من دواعي غبطتي الشديدة أن أتيح لسيد كهذا له اتصالات.. ها.. اجتماعية تتفق مع مكانتي، فرصة تتفق مع اهتماماته، وتنمي.. ها.. عبقريته. ولهذا أرى من واجبي أن أعهد إلى السيد جوان لكي يرسم صورتي، فإذا كانت النتيجة.. ها.. مرضية للطرفين، فربما عهدت إليه فيما بعد لرسم باقي أفراد الأسرة.

وخطرت في بال السيد سباركلر عندئذ فكرة جريئة أصيلة بأن الفرصة هنا متاحة لأن يقول إن إحدى أفراد الأسرة «مع تأكيد كلمة (إحدى) بطريقة ما» لا يمكن لرسام أن يعبر عن جمالها بإنصاف. ولكن حاجته إلى الكلمات المناسبة التي يصوغ بها مثل هذه الفكرة، جعلته يتحول إلى الحديث عن السماء.

إلا أنه ازداد ندماً، لأن الآنسة فاني أعربت عن أشد ترحيبها بفكرة الصورة، وحثت أباها على المضي فيها. وقالت إنها تعتقد أن السيد جوان قد ضيع بزواجه من زوجته الحسناء فرصاً أعظم وأفضل، وإن الحب مع الحياة في كوخ ورسم الصور في سبيل الرزق لأمر جميل بهيج، وإنها من ثم ترجو أباها أن يعهد إليه بهذا العمل سواء كان في مقدوره أن يتقنه أم لا، وذلك رغم أنها، وإيمي، كانتا تعلمان أنه يستطيع إتقان رسم الشبه بعد أن رأتا في ذلك اليوم الشبه ناطقاً بين اللوحة الموضوعة على الحامل، وبين الأصل عندما أتيحت لها فرصة المقارنة. وقد أدت هذه الملاحظات إلى شغل بال السيد سباركلر -ولعل هذا كان مقصوداً منها-

ذلك لأن الآنسة فاني كانت من ناحية قد أعربت عن شدة تأثرها بعواطف الحب، إلا أنها، من ناحية أخرى، كانت في براءة لا شعورية تعرب عن إعجابها الشديد مما جعل عيني السيد سباركلر تجحظان في رأسه غيرة من منافس مجهول.

وبعد النزول إلى الماء مرة أخرى عقب العشاء، وبعد الصعود على سلالم الأوبرا يتبعهم أحد ملاحي زورق الجندول وكأنه جني البحر، حاملاً مصباحاً ضخماً قماشي الجوانب، دخلوا إلى مقصورتهم، وفي الوقت نفسه دخل السيد سباركلر في ليلة من العذاب، إذ أنه لما كانت خشبة المسرح مظلمة والمقاصير مضاءة، فإن كثيراً من الرواد أخذوا يتلكئون هنا وهناك في انتظار رفع الستار واهتمت فاني بهؤلاء المتلكئين واشتبكت معهم في الحديث وهي تتخذ أوضاعاً وأساليب فاتنة، وقد أدى موقفها هذا منهم، ومن الجالسين في المقاصير البعيدة إلى أن أمسى السيد سباركلر كارهاً للجنس البشري كله ولكنه تلقى عزاءين في نهاية الحفل: إذ أعطته مروحتها ليمسكها ريثما تصلح من وضع ردائها الخارجي، كما أنه اعتبرها نعمة كبرى أن استندت على ذراعه في أثناء هبوطهما من سلم الأوبرا. وقال السيد سباركلر لنفسه إن اليسير من هذا التشجيع يمكن أن يحفظ عليه آماله. ولا يبعد كثيراً أن يكون هذا ما خطر ببال الآنسة فاني أيضاً.

وكان جني البحر بمصباحه منتظراً عند باب المقصورة. وكان ثمة أعداد أخرى من جني البحر بمصابيح أخرى في الانتظار عند كثير من أبواب المقاصير الأخرى. وحمل جني البحر الدوريتي مصباحه في وضع خفيض ليكشف عن درجات السلم، ووضع السيد سباركلر على قلبه مزيداً من أصفاد الحب وهو يرى قدميها الناصعين تلمعان على السلم. وكان بين المتلكئين بلاندواز الآتي من باريس وقد تحدث ثم تقدم ليكون بجانب الآنسة فاني.

وكانت دوريت الصغيرة في المقدمة بجانب أخيها وحرم الجنرال، أما السيد دوريت فقد تخلَّف في البيت. إلا أنهم اجتمعوا معاً عند حافة المرساة. ومن ثم أجفلت مرة أخرى حين رأت بلاندواز بجوارها يساعد فاني على الهبوط إلى الزورق وهو يقول:

- أصيب جوان بخسارة منذ أن سعد اليوم بزيارة أختين جميلتين.

فقالت فاني وهي تبتعد عن الواله المُعنَّى سباركلر وتأخذ مكانها في الزورق:

- خسارة؟

فقال بلاندواز:

- نعم. خسارة كلبه ليون.

وكانت يد دوريت الصغيرة في يده وهو يتحدث مستطرداً:

- مات.

وتمتمت دوريت الصغيرة:

- مات، ذلك الكلب الأصيل؟

فقال بلاندواز وهو يبتسم ويهز كتفيه:

- الحقيقة يا آنستاي هي أن شخصاً ما سمّم ذلك الكلب الأصيل. وهو الآن ميت تماماً مثل زوجات «أمراء» البندقية.

* * *

بـائيـات

قررت حرم الجنرال -التي كانت دائماً على أتم استعداد لأداء واجبها على خير وجه- أن تشق على نفسها وتصقل الجانب الظاهري من صديقتها العزيزة دوريت الصغيرة، وحاولت صديقتها العزيزة الصغيرة بكل جهدها أن تتجاوب معها. ورغم كل ما بذلت من جهود شاقة في أثناء حياتها المضنية لتحقق أهدافها، فقد ضاعفت من هذه الجهود لكي تلمع على يدي حرم الجنرال. حقاً لقد كانت تشعر بالقلق والجزع وهي تتلقى عملية التلميع على يدي مثل هذه السيدة الناعمة، ولكنها أضعفت نفسها لمطالب الأسرة في وضعها الرفيع الحالي، كما سبق أن أضعفت نفسها لمطالبها في الأشياء البسيطة، ولكنها لم ترضخ لميولها الخاصة في هذا الشأن إلا كما كانت ترضخ لجوعها نفسه عندما كانت توفر طعام غدائها لكي يتعشى به والدها.

وقد يبدو من المعقول أن نرى عزاءً واحداً جعلها تحتمل هذه «المحنة العامة» وتزداد اعترافاً بالجميل أكثر من أية إنسانة أخرى ليست لها مثل هذه الروح المُحِبة الوفية، ولم تتعود على الكفاح والتضحية، بل إنه كثيراً ما يلاحَظ في واقع الحياة أن الأشخاص الذين لهم روح دوريت الصغيرة لا يلتزمون -كما يبدو- المنطق في تصرفاتهم بنصف الحذر الذي يلتزمه به الأشخاص المستفيدون منهم. وكان ذلك العزاء هو استمرار

عطف أختها عليها. ولم يكن يهمها كثيراً أن أختها كانت تعطف عليها بروح الإنسان المشفق الصابر، لأنها تعودت على هذا، ولم يكن يهمها كثيراً أن تظل في مركز ثانوي، وأن تؤدي بكل تواضع دورها هذا الثانوي مع أختها حين تنتظر حتى تجلس على المقعد المرتفع في صدر مركبتهم الحمراء، ولم تحاول يوماً أن تتخذ لنفسها مكاناً أفضل. وكانت تعرب دائماً عن إعجابها بجمال فاني وبرشاقتها، وبذكائها، ولم تسأل يوماً عن الباعث إلى قوة ارتباطها بأختها وحبّها لها، هل هو يرجع إلى قلبها هي، وكم يرجع منه إلى قلب فاني، وإنما كانت تمنح لها كل ما يتسع لها قلبها الكبير من حب الأخت لأختها.

وكانت عملية وضع «حروف الباء» في أحاديث الأسرة، بالجملة على يدي حرم الجنرال، مع انغماس فاني المستمر في الوسط الراقي، لم يكن يترك في قاع هذا المزيج إلا بقايا فترات قصيرة كانت في نظر دوريت الصغيرة، وهي تقضيها على انفراد مع فاني، ثمينة بشكل مضاعف كما كانت تزيد من شعور الراحة التي تسبغها عليها.

قالت لها فاني ذات ليلة وهما على انفراد بعد يوم مرهق للصغيرة دوريت رغم أن فاني ما كانت لتتردد في انطلاقة أخرى إلى الوسط الراقي بكل ما في الدنيا من سرور:

– إيمي، سوف أضع شيئاً في رأسك الصغيرة، وأعتقد أنك لن تخمّني ما هو!

فقالت دوريت الصغيرة:

– لا أظن أن هذا محتمل يا عزيزتي.

فقالت فاني:

– حسناً لسوف ألّمح له قليلاً.. حرم الجنرال.

وكانت دوريت الصغيرة قد أمضت معظم اليوم خاضعة لعملية الصقل والتلميع السطحي مع محاولة نطق آلاف العبارات المركبة من كلمات تبدأ بحرف الباء. ومن ثم بدا عليها في تلك اللحظة أنها تتمنى لو أن حرم الجنرال لاذت بفراشها لتنعم فيه ببضع ساعات من الهدوء والاطمئنان.

وقالت فاني:

– الآن، هل تستطيعين أن تخمني يا إيمي؟

فقالت دوريت الصغيرة وقد بدا عليها الجزع من أن يكون الأمر متعلقاً بشيء فعلته ويتعارض مع لمعان المظهر.

– لا يا عزيزتي، إلا إذا كنت قد ارتكبت شيئاً.

وبلغ من استمتاع فاني بالموقف، أن تناولت مروحتها الأثيرة – وكانت عندئذ جالسة إلى منضدة زينتها– وربتت بها على أنف أختها بضع مرات وهي تضحك طيلة الوقت. ثم قالت:

– أوه، عزيزتنا إيمي، عزيزتنا إيمي! يا لك من إوزة صغيرة وادعة يا إيمي! ولكن هذا ليس شيئاً يمكن الضحك منه، بالعكس، إنني غاضبة جداً يا عزيزتي.

فردت إيمي باسمة:

– ما دمت غير غاضبة مني، فلا أبالي.

فقالت فاني:

– ولكنني أبالي. وسوف تبالين أيضاً يا حبيبتي حين أقول، ألم تلاحظي قط أن شخصاً ما يسرف في رقّة معاملته مع حرم الجنرال؟

فقالت دوريت الصغيرة:

- إن الجميع يعاملونها برقّة، لأن...

فقاطعتها فاني قائلة:

- لأنها ترغمهم على هذا. ولكنني لا أعني هذا، بل العكس تماماً. ألم تلاحظي قط يا إيمي أن «بابا» يسرف في رقّة معاملته لحرم الجنرال؟

فغمغمت إيمي قائلة وقد ارتسمت عليها أبلغ أمارات الدهشة:

- لا.

فقالت فاني:

- لا، هذا ما خطر لي، ولكنه كذلك.. كذلك يا إيمي، وتذكري كلماتي هذه، إن حرم الجنرال ترسم خطة للإيقاع بأبي.

- أتظنين من الممكن يا عزيزتي فاني أن حرم الجنرال ترسم خطة للإيقاع بأي شخص؟!

فردّت فاني قائلة:

- هل أظن هذا ممكناً؟ إنني أعرف هذا يا حبيبتي. وأقول لك إن لها أهدافاً مع أبيك. وأكثر من هذا أقول لك إن أبي يعتبرها أعجوبة، ومثالاً للتهذيب والثقافة وآداب السلوك، وبركة على الأسرة، بحيث أصبح في حالة استعداد تام للوقوع في حبها في أية لحظة. وهذا يضعنا أمام صورة لطيفة من صور الحياة، كما أرى! تصوريني وحرم الجنرال أمّاً لي.

ولم ترد دوريت الصغيرة على عبارة «تصوريني وقد أصبحت حرم الجنرال أمّاً لي» وإنما بدا عليها القلق وسألت فاني، جادة، عن رأيها فيما سينتهي إليه الأمر، فقالت فاني معاتبة:

- ويحي يا حبيبتي؟ وكأنما لم يبقَ إلا أن تسأليني كيف أعرف الرجل حين يفتتن بي؟ لكنني طبعاً أعرف. فإن هذا يحدث كثيراً. إلا أنني

أعرفه دائماً. وعلى هذا النحو نفسه أعرف أن الأمر كذلك، وفي جميع الأحوال أعرف هذا.

- هل سمعت أبي يقول أي شيء عن هذا الأمر؟

فردّت فاني قائلة:

- يقول أي شيء؟ يا طفلتي العزيزة المحبوبة، ما حاجته الآن إلى أن يقول أي شيء.

- وهل سمعت حرم الجنرال تقول أي شيء؟!

فردّت فاني قائلة:

- ويح نفسي يا إيمي، أترينها من نوع النساء الذي يقول شيئاً. أليس من الواضح البيّن جداً أنه ليس لديها ما تفعله إلا أن تتماسك في موقفها، وأن تظل ترتدي قفازها هذا اللعين، وأن تمضي برشاقتها المعهودة. تقول شيئاً!! إنها لو كانت تمسك بالورقة الرابحة في أثناء اللعب، لما أمكن أن تقول شيئاً يا طفلتي وإنما هي تفاجئ بها الجميع.

- على الأقل قد تكونين مخطئة يا فاني، ألا يمكن هذا؟

فقالت فاني:

- أوه، نعم، ربما. ولكنني لستُ مخطئة. وعلى أية حال فإني سعيدة إذ تجدين في احتمال خطئي ملاذاً يا عزيزتي، وإني سعيدة أيضاً لأنك استطعت أن تسمعي هذا الآن بذلك الهدوء الذي سوف يساعدك على التفكير في هذا الاحتمال. وإن موقفك هذا يجعلني آمل في أنك قد تحتملين هذا الزواج. أما أنا فلن أستطيع أن أحتمله، ولن أحاول. بل إني أفضِّل عندئذ أن أتزوج الشاب سباركلر.

- أوه، إنك لن تتزوجي به يا فاني أياً كانت الظروف!

فردّت فاني في استخفاف شديد:

- أقسم لك أنني لا أكاد أتأكد حتى من هذه الحقيقة. فليس هناك من يعرف ماذا قد يحدث. لا سيما إذا كانت الفرص تتاح لي، فيما بعد، لمعاملة تلك المرأة، أمه، بنفس أسلوبها. وهذا ما لا ينبغي أن أبطئ في الاستمتاع به يا إيمي.

ولم يدر بين الأختين حديث آخر عندئذ. ولكن الذي حدث جعل لموضوعي حرم الجنرال والسيد سباركلر المقام الأول في تفكير دوريت الصغيرة، ومنذ ذلك الحين وهي تفكر فيهما كثيراً.

ولما كانت حرم الجنرال قد أحسنت منذ أمد بعيد صنع مظهرها السطحي بحيث لا يمكن أن يكشف عما يجري تحته -إذا كان تحته شيء- فإن دوريت لم تستطع أن تلاحظ شيئاً في هذا المجال. وكان السيد دوريت، بلا جدال، رقيقاً جداً في معاملتها، وشديد الإعجاب بمواهبها؛ ولكن من السهل أن تكون فاني، المندفعة دائماً.. مخطئة في هذا كله. هذا بينما كان لمسألة سباركلر وضع آخر يمكن لأي إنسان أن يرى ماذا يجري فيها، وقد رأت دوريت الصغيرة هذا وفكرت فيه كثيراً وهي بين الشك والتعجب.

وكان تفاني السيد سباركلر في حبه لفاني لا يضارعه شيء إلا نزوات وقسوة أسرته. فهي أحياناً تغدق عليه الكثير من اهتمامها بحيث يضحك من فرط الابتهاج، وفي اليوم التالي أو في الساعة التالية إذا هي تتجاهله تماماً، وتقذف به إلى هاوية الإهمال بحيث يئن ويخفي أنينه متظاهراً بسعال خفيف. ولم يحدث أبداً أن أثر إخلاصه في نفسية فاني، وذلك رغم ملازمته الدائمة لأخيها إدوارد بحيث كان هذا السيد إذا أراد أن يذهب إلى مكان خاص، يضطر مرغماً إلى الانفلات كالمتآمر، في زوارق مستخفية المعالم، وعن طريق أبواب سرية، وطرقات خفية، وكذلك رغم اهتمامه الدائم بصحة السيد دوريت بحيث كان يزوره مرة

كل يومين ليطمئن، وكأنما السيد دوريت كان يعاني من الحمى المتقطعة، وذلك رغم أنه كان دائماً يستقل زورقاً يقوده الملاحون ذهاباً وجيئةً أمام النوافذ الرئيسية للقصر. وكأنما قد راهن بمبلغ ضخم على أن يقطع الزورق به آلاف الأميال في آلاف الساعات، وذلك رغم أنه كلما ترك زورق حبيبته المرساة أمام البوابة، اندفع زورق السيد سباركلر من مكمنه ومضى يطارده وكأنما هي مهرِّبة حسناء، وهو ضابط من خفر السواحل.

ولعل السبب في أن جسمه لم يهزل من فرط الحب، يرجع إلى تعرضه الكثير للهواء الطلق ومياه البحر المالحة مما زاد من قوة بنيته الطبيعية. ولكن؛ أياً كان الأمر، فقد بدا أنه أبعد ما يكون تفكيراً في العمل على تحريك عواطف محبوبته عن طريق الهزال الجسدي، والدليل على هذا أنه كان يزداد انتفاخاً كل يوم بحيث إن مظهره الغريب الذي كان يدل على أنه أقرب إلى غلام منفوخ منه إلى شاب يافع، قد تحول إلى درجة خطيرة من انتفاخ البدانة.

ولما جاء بلاندواز لزيارة السيد جوريت؛ استقبله هذا بترحاب كبير باعتباره صديقاً للسيد جوان، ثم تحدث إليه عن فكرته في أن يعهد إلى السيد جوان ليخلده في إحدى لوحاته. وقد بلغ من ثناء بلاندواز على هذه الفكرة أن خطر للسيد دوريت أنه قد يكون من الأوفق لو عهد إلى بلاندواز بإبلاغ صديقه عن هذه الفرصة العظيمة المدَّخَرة له. وقَبِلَ بلاندواز القيام بهذه المهمة بطريقته المسرفة في اللياقة وحُسْن السلوك، وأقسم أن يفرغ منها قبل مضي ساعة أخرى من عمره. ولكنه ما إن أبلغ هذه الأنباء إلى السيد جوان حتى راح هذا يصب لعناته على السيد دوريت في عنف حتى بلغ عددها نحو اثنتي عشرة لعنة، ذلك لأنه كان ينفر أن يرعاه أحد تماماً كما كان ينفر من حاجته إليها، وقد كاد أن يتشاجر مع صديقه لأنه حمل إليه هذه الرسالة، ثم قال:

- قد يكون في تفكيري بعض العيب يا بلاندواز، ولكنني لا أدري بأي وجه من الوجوه ما هو شأنك في هذا الموضوع.

فردّ بلاندواز قائلاً:

- ويح نفسي، ولا أنا أيضاً، إلا ظني أني أقوم بخدمة لك.

فقال جوان وهو يقطب جبينه:

- أتخدمني بأن تضع في جيبي أجراً من رجل محدث النعمة، أتعني هذا؟ قل لصاحبك الآخر أن يرسل وجهه ويضعه على لافتة إحدى الحانات، وأن يستأجر للرسم خطاط اللافتة نفسها. ألا يعرف من أنا، ومن هو؟

فردّ بلاندواز، السفير، قائلاً:

- أيها الأستاذ، ومن هو بلاندواز؟

وأنهى جوان.. دون أن يبدو عليه أي اهتمام بالسؤال الأخير، موضوع الحديث عن السيد دوريت وهو يصفّر غاضباً. ولكنه، في اليوم التالي، عاد إلى الحديث عنه بلهجته هذه المستهترة قائلاً وهو يرسل ضحكة هازئة.

- حسناً يا بلاندواز، متى سنذهب إلى صاحبك هذا راعي الفنون والآداب، إننا معشر الجوالين يجب أن نقبل الأعمال حيثما نجدها، متى سنذهب لنقوم بهذا العمل.

فقال بلاندواز المستاء:

- عندما تريد وترضى. ثم ما شأني أنا بهذا. ما قيمة هذا العمل بالنسبة لي.

فقال جوان:

- أستطيع أن أذكر لك قيمته بالنسب لي. إنها الخبز والجبن. ولا بد للإنسان أن يأكل. وعلى هذا هيا يا عزيزي بلاندواز.

واستقبلهما السيد دوريت في حضور ابنتيه والسيد سباركلر الذي حدث، بمحض مصادفة عجيبة، أن كان يزور الأسرة عندئذ. وقد قال له جوان باستخفاف:

- كيف حالك يا سباركلر؟ ما دمت تعيش بفضل براعة وذكاء والدتك، فلعلك، كما أرجو تكون أحسن حالاً مني.

وعرض السيد دوريت رأيه عندئذ، فقال جوان ضاحكاً بعد أن أنصت إليه بأدب:

- سيدي، إنني حديث عهد بهذا الفن، ولست خبيراً بأسراره، وأعتقد أنه لا بد لي أن أراك في عدة أضواء مختلفة، وأقول لك بهذه المناسبة إنك موضوع مدهش، وسوف أفكر في متى أستطيع أن أتفرغ لتكريس نفسي وإعدادها بالطاقة اللازمة من الحماسة لرسم الصورة الجيدة التي أنوي أن أرسمها لك، وأحب أن أؤكد لك...

وهنا ضحك مرة أخرى قبل أن يستطرد قائلاً:

- إنني أشعر كأني خائن في معسكر أولئك الأعزاء الموهوبين الكرام النبلاء من زملائي الفنانين، وذلك لعدم مقدرتي على إجادة التهريج في هذا العمل، ولكنني لم أتعود منذ نشأتي على هذا، وقد فات الوقت الذي يمكن أن أتعلم فيه فن التهريج هذا، والوضع الآن هو أنني رسام رديء جداً، ولكنني لست أردأ من الغالبية العامة منهم، فإذا كنت تنوي أن تلقي بمائة جنيه أو نحو ذلك، فسوف أكون شاكراً جداً لو أنك ألقيت بهذا المبلغ إليّ، لأني فقير كأي فقير آخر في عائلة من العظماء،

وسوف أبذل كل جهدي لأكون جديراً بهذا المبلغ، فإذا جاء خير ما في وسعي رديئاً، فلا بأس عندئذ، لأنه ربما كان من الأفضل لك أن تحصل على صورة رديئة الصنع موقعاً عليها من فنان صغير، من أن تحصل على صورة رديئة الصنع أيضاً موقعاً عليها من فنان كبير.

واغتبط السيد دوريت بهذه اللهجة من الحديث رغم أنه لم يكن يتوقعها. ذلك لأنه أدرك منها أن هذا الرجل المنحدر من أسرة عريقة، والذي ليس مجرد رسام محترف، سوف يكون مديناً له ببعض الفضل. من ثم أعرب عن رضائه التام في وضع نفسه بين يدي السيد جوان، آملاً أنه سيتشرف، باعتبارهما اثنان من السادة، في توطيد العلاقة بينهما.. وعندئذ قال جوان:

- إنك كريم جداً لقد تخليت عن الوسط الراقي منذ أن انضممت إلى جمعية أقلام الرسم، وهي تتكون من ألطف الزملاء على وجه الأرض. ولكن يسرني أن أعود إلى الوسط الاجتماعي بين الحين والآخر، وذلك رغم ما ألقاه من استخفاف بمهنتي فيه. ولكنك لن تظن يا سيد دوريت...

وهنا ضحك جوان مرة أخرى في خفة بالغة واستطرد يقول:

- إنني مستغرق في الإخلاص لهذا الفن. لأن الأمر ليس كذلك. والواقع الذي أقسم عليه أنني لا أملك نفسي من خيانته حيثما أذهب، وإن كنت، بحق الإله جيوبيتر، أحترم وأحب هذا الفن بكل قوتي. لا سيما إذا أمكنني أن ألتزم فيه قواعد الزمان والمكان.

ها! وأكد السيد دوريت أنه لا.. ها.. يشك في هذا النوع من الصراحة. قط، فقط جوان.

- أقول مرة أخرى إنك كريم جداً. وقد سمعت يا سيد دوريت أنك ذاهب إلى روما. وأنا ذاهب أيضاً إليها، إذ أن لي فيها أصدقاء ومن

ثم دعني أرسم صورتك -التي ستظلمك- هناك، بدلاً من هنا. لأننا سنكون جميعاً متعجلين في أثناء إقامتنا هنا لرؤية كل شيء. ورغم أنه لا يوجد في البندقية كلها رسام أشد فقراً مني، إلا أنني لم أتخلص بعد من روح الهواية التي تغلب عليّ -وفي هذا إرضاء للفن كما ترى- ولهذا لا أستطيع أن أبادر بتنفيذ رغبة أي عميل لمجرد الحصول على نصف شلن.

ولم تلقَ هذه العبارات من حفاوة السيد دوريت أقل مما لقيت سابقاتها، وكانت هذه وتلك مقدمة لأول استقبال للسيد والسيدة جوان على مائدة الغداء، كما أنها وضعت السيد جوان في الموضع الملائم له بين هذه الأسرة الجديدة.

وكذلك وضعت الأسرة زوجته في مكانها الملائم، وقد فهمت الآنسة فاني، بوضوح خاص، أن جمال السيدة جوان كلّف زوجها غالياً، وأن هناك اضطراباً كبيراً بسببها في محيط أسرة بارناكل وأن الأرملة السيدة جوان -التي كاد قلبها يتحطم- ظلت تعارض هذا الزواج حتى غلبت عليها أمومتها. وكذلك فهمت حرم الجنرال أن الزواج أثار الشيء الكثير من الحزن والشقاق. أما عن السيد ميجلز الأمين فإن أحداً لم يذكره إلا أن من الطبيعي لرجل من هذا النوع أن يرحب برفع ابنته من عالم خموله وغمرته، وأن أحداً لا يستطيع أن يعتب عليه لأنه حاول بكل جهده أن يفعل هذا.

وكان اهتمام دوريت الصغيرة بالحسناء، مناط هذا الاعتقاد الذي تقبلوه جميعاً ببساطة بالغة بحيث كان من السهل أن تلاحظ كل شيء بدقة. وقد أمكنها أن ترى أن هذه الأقوال لها دورها في إلغاء ذلك الظل الذي تعيش السيدة جوان تحته، وفي الوقت نفسه كانت تدرك بغريزتها أنه ليس في هذه الأقوال ذرة من الحقيقة. إلا أنه كان لها تأثيرها في وضع العقبات في طريق الاتصال الوطيد بالسيدة جوان، لأن حرم الجنرال

«صاحبة مدرسة الباءات في أوائل الكلمات» كانت لا ترحب بالاتصال الوطيد مع السيدة جوان، وإن كانت تعاملها بغاية الأدب. ومن ثَمَّ اضطرت دوريت الصغيرة، باعتبارها طالبة رغم أنفها في هذه «المدرسة» إلى الرضوخ بكل تواضع للأوامر والتعليمات.

إلا أنه كان هناك؛ رغم هذا، شعور من العطف المتبادل قد توطد تماماً بين الاثنتين؛ وأصبح في مقدوره أن يرتفع بهما فوق كل العقبات، وأن ينشئ بينهما الصداقة رغم كل التعليمات والأوامر. وكأنما شاءت الأحداث أن تحبوه وترعاه فإذا كل منهما تتأكد من عواطفهما الجديدة المشتركة عن طريق النفور الذي لاحظته كل منهما على الأخرى من بلاندواز الآتي من باريس. وكان نفوراً يكاد يبلغ حد الاشمئزاز الممزوج بالفزع النابع من إحساس طبيعي نحو مخلوق كريه ينتمي إلى نوع الزواحف.

وكذلك كان ثمة إحساس مشترك سلبي الطابع بينهما، عدا الإحساس الآخر الإيجابي. ذلك أن بلاندواز كان يعاملهما معاً بنفس الطريقة. وكان في طريقة معاملته لهما معاً شيء ما كانتا تعرفان أنه يختلف وهو يعامل به الآخرين. وكان هذا الاختلاف دقيق الأمارات جداً بحيث لم يكن في وسع أحد آخر أن يفطن إليه، إلا أنهما كانتا تعلمان بوجوده. كان مجرد ومضة من عينيه الشريرتين أو مجرد إشارة من يده الناعمة البيضاء، أو مجرد زيادة شعرة في حركة هبوط أنفه وارتفاع شاربه في حركة وجهه الدائمة، تحمل إليهما معاً، على التساوي، نوعاً من الشعور بخيلائه الذاتية نحوهما، وكأنما يقول لهما «إن لدي قوة خفية في هذا المجال، وأنا أعرف ما أعرف».

هذا الشعور المشترك لم يبلغ من القوة درجة كبيرة، ولم يحدث في يوم ما أن أدركته كل منهما في الأخرى تمام الإدراك؛ كما بلغ وكما حدث في اليوم الذي جاء فيه لزيارة السيد دوريت وتحيته قبل الرحيل عن البندقية. كانت السيدة جوان بنفسها هناك لنفس الغرض، وكانت دوريت

الصغيرة معها فقط عندما أقبل للزيارة، أما بقية أفراد الأسرة فكانوا في الخارج. وما أن مضت خمس دقائق على الاثنتين معاً، حتى بدا من حركاته الخاصة أنه يقول لهما «كنتما تنويان التحدث عني، ها؛ انظرا، لقد جئت لأمنع هذا».

وقال بلاندواز بابتسامته:

– هل سيأتي جوان هنا؟

وأجابت السيدة جوان أنه لن يأتي. وعندئذ قال هو:

– لن يأتي؟ إذن اسمحي لخادمك المخلص، عندما تتعرفين، أن يصحبك إلى البيت.

– شكراً. إنني لستُ ذاهبة إلى البيت.

فقال بلاندواز:

– لست ذاهبة إلى البيت؟ إذن فإني حزين.

ولعله كان كذلك. ولكن حزنه لم يصل إلى حد الانصراف بعيداً، تاركاً الاثنتين لبعضهما البعض. وإنما جلس يسليهما بألطف عبارات التحية والمدح، وأجود الأحاديث. إلا أنه، طيلة الوقت، كان يحمل إلى عقليهما هذا المعنى «لا، لا، لا يا آنستاي العزيزتان. انظرا، إنني هنا لأمنع هذا».

وكان يحمل إلى عقليهما هذا المعنى بوضوح شديد، وبنوع من الإلحاح الشيطاني جعل السيدة جوان، في النهاية، تنهض لتنصرف. وعندما قدم يده إليها ليصحبها في أثناء هبوط السلم، تشبثت هي بيد دوريت الصغيرة في يدها وضغطت عليها محذرة، ثم قالت له:

– لا، شكراً. ولكن إذا تكرمت وتأكدت هل جاء ملاح زورقي، فسوف أكون جد شاكرة.

ولم يسعه عندئذ إلا أن يهبط أمامهما. وفيما هو كذلك، والقبعة في يده، همست السيدة جوان في أذن دوريت الصغيرة:

- إنه قتل الكلب.

وهمست دوريت الصغيرة:

- وهل يعرف السيد جوان هذا؟

- لا يعرف هذا أحد. لا تنظري إليّ. انظري إلى الأمام نحوه. إنه سيدير وجهه إلينا بعد لحظة. إن أحداً لا يعرف هذا، ولكنني واثقة أنه هو الذي قتله. وأنت؟!

فردّت دوريت الصغيرة قائلة:

- أنا.. أنا أعتقد هذا.

- إن هنري يحبه، ولن يسيء الظن به. لأنه كريم وصريح جداً. ولكن أنت وأنا متأكدتان بأننا نحمل له من الشعور ما هو جدير به. لقد جادل هنري قائلاً إن الكلب كان قد تسمم عندما تغير فجأة وهجم عليه. وهنري يعتقد هذا، ولكننا لا نفعل. ألاحظ أنه ينصت إلينا، ولكنه لا يستطيع أن يسمع، وداعاً يا حبيبتي، وداعاً.

نطقت هذه الكلمات الأخيرة بصوت مرتفع عندما توقف بلاندواز المتيقظ، واستدار برأسه، ونظر إليهما من قاع السلم. وكان يبدو عندئذ، رغم أنه كان في أحسن حالات الأدب، في هيئة تجعل أي رجل محسن في العالم لا يتمنى شيئاً أكثر من أن يربط حجراً كبيراً في عنقه، ثم يقذف به إلى الماء الجاري وراء البوابة المقبوة الواقف تحتها. ولكن لم يكن ثمة محسن إلى البشر واقف في تلك اللحظة، فمدّ بلاندواز يده وساعد السيدة جوان على الهبوط إلى زورقها، ووقف حتى انطلق الزورق بعيداً، ثم ركب زورقه وراح يتبعها.

وكانت دوريت الصغيرة قد فكرت أحياناً، كما تفكر الآن وهي عائدة عبر السلّم، أن ذلك الرجل قد شقّ طريقه بسهولة إلى بيت أبيها، ولكن الكثيرين من الناس، على اختلاف أنواعهم قد فعلوا الشيء نفسه، عن طريق مشاركة السيد دوريت لجنون ابنه في الانغماس في الأوساط الراقية؛ بحيث لا تكاد تبدو هذه الحالة شاذة أو استثناء. لقد استبدت بأسرة دوريت ثورة عارمة للتعرف بأكبر عدد من الناس ليختالوا عليهم بثرائهم وعظمتهم.

وبالإجمال لقد بدا للصغيرة دوريت أن هذا المجتمع الذي يعيشون فيه يشبه إلى حد كبير نوعاً راقياً من مجتمع سجن مارشاليزا. فإن أعداداً كثيرة من الناس يُكثِرون -كما يبدو- السفر إلى الخارج كما يقبل بعض الناس إلى السجن، وذلك بسبب الكسل أو الغرابة أو الفضول، أو بوجه عام، عدم القدرة على الاستمرار في الحياة بالوطن. لقد جيء بهم إلى هذه البلاد الأجنبية في حراسة الأتباع والسعاة والخدم المحليين. تماماً كما كان يؤتى بالمدينين إلى السجن. ثم إنهم يتجولون في تسكع حول الكنائس ومعارض الصور تماماً كما يتلكأ المسجونون في فناء السجن. وكانوا عادة لا يعرفون على وجه التحديد هل سيرحلون غداً أم في الأسبوع التالي، لأنهم قلما كانوا يستقرون على شيء معين. وما أشبه هذا بما يجري في فناء ذلك السجن الموحش المنعزل، حيث كان النزلاء قلما يفعلون ما يقولون إنهم سيفعلونه، أو يذهبون حيثما قالوا إنهم ذاهبون، في هذا كله كانوا يشبهون نزلاء سجن المدينين. وهم يدفعون الأجور الباهظة للإقامة في أماكن سيئة. ويتظاهرون بأنهم يحبونها وهم في الواقع يحتقرونها. تماماً كما هو الحال في سجن مارشاليزا. وهم، عند رحيلهم، يثيرون حسد الذين يتخلفون عنهم متظاهرين بأنهم لا يريدون الرحيل، وهذه أيضاً من عادات سجن مارشاليزا. وكان ثمة مجموعة من الكلمات والعبارات المعينة تدور بين أفواههم، كسياح، تماماً كما كانت هناك عبارات معينة يتداولها سجناء

مارشاليزا. وكان لهم نفس العجز عن الاستقرار في أي مكان أو التمسك بأي شيء، تماماً كما تعوّد نزلاء السجن أن يفعلوا، بل كان بينهم من يفسد بعضهم البعض كما هو الحال بين السجناء. وكانوا يرتدون ملابسهم بإهمال، ويعيشون حياة متراخية بليدة، كما يفعل سجناء مارشاليزا.

وجاءت أخيراً، مع مرور الأيام، نهاية الفترة التي أقامت الأسرة خلالها في مدينة البندقية، ومن ثم رحلت بحاشيتها إلى روما، وقد بلغوا غايتهم بعد أن مروا بمناظر إيطالية كثيرة مشابهة للتي رأوها سابقاً. إلا أنها كانت تزداد قذارة وتداعياً كلما أوغلوا. حتى وصل بهم الأمر إلى مناطق كان نفس الهواء فيها موبوءاً. وكان ثمة سكن لطيف قد استؤجر لهم على تل كورسو، وهنا أقاموا في حديقة بدا أن كل شيء فيها يحاول أن يبقى مدى الحياة فوق حطام شيء آخر.. إلا الماء. الذي يلتزم قوانينه الخالدة. فراح ينساب ويتساقط من عدد كبير من النافورات الرائعة.

وهنا بدا للصغيرة دوريت أن ثمة تغييراً قد سرى في روح مارشاليزا التي تطبع مجتمعهم. ذلك لأنها لاحظت أن لأمثال حرم الجنرال الغلبة على هذا المجتمع. كان كل شخص يسير حول ميدان سانت بيتر «القديس بطرس» والفاتيكان شديد العناية بمشاعر الآخرين، ولا يرى شيئاً إلا من زاوية نظر غيره. ولم يكن هناك أحد يقول عن هذا الشيء أو ذاك ما هو. وإنما يقول ما قاله السيد إيوسستاس أو حرم الجنرال أو شخص آخر. لقد بدا أن جميع السائحين ما هم إلا مجموعة من الناس المتطوعين للتضحية. والذين ارتبط بعضهم ببعض ليقدموا إلى السيد إيوسستاس وأتباعه لكي تنظم خلايا تفكيرهم طبقاً لمزاج ذلك الديني المقدس. وخلال البقايا المتهدمة من المعابد والقبور والقصور وقاعات البرلمان والمسارح وملاعب العصور القديمة. كانت الجموع من سكان هذا العصر يتحسسون طريقهم بحذر. معقودي الألسنة. معصوبي الأعين متحدثين دائماً بالكلمات التي

تبدأ بحرف الباء حتى تصب شفاههم في القالب المنشود. وهكذا وجدت حرم الجنرال نفسها في بيئتها الصافية المشتهاة. ولم يكن لأحد رأي معين. وإنما كان هناك تشكيل مكوّن من سطوح لامعة يجري حولها بمعدل مدهش، دون أن يكون فيه شيء من شجاعة الرأي أو حرية الحديث.

ولكن ثمة تعديل على «الباءات» لم يلبث أن أثار ملاحظة دوريت الصغيرة، بعد وصول الأسرة بوقت قصير. لقد تلقت زيارة من السيدة ميردل التي كانت تتزعم الوسط الاجتماعي في المدينة الخالدة في أثناء ذلك الشتاء. وكانت الطريقة البارعة التي أخذت فاني تتبارز بها، بالألفاظ، مع الزائرة، قد جعلت الأخت الهادئة تجفل وكأنما ترى أمامها وميض أسلحة صغيرة.

قالت السيدة ميردل:

– لشد ما يسعدني أن أستأنف هذه المعرفة التي بدأت في مارتيني بداية غير ميمونة.

فقالت فاني:

– في مارتيني! آه، طبعاً! إنني سعيدة، بالتأكيد.

وقالت السيدة ميردل:

– إنني أفهم من ابني إدموند سباركلر، أنه قد وطّد هذه المعرفة التي حدثت بطريق المصادفة. لقد عاد وهو يتغنى بإقامته في البندقية.

فردّت فاني في استخفاف:

– أحقاً؟ هل أمضى هناك فترة طويلة؟

فقالت السيدة ميردل وهي تستدير بصدرها نحو السيد دوريت:

- لعلي أحول هذا السؤال إلى السيد دوريت، لأن إدموند يرى أن الفضل يرجع إليه في جعل إقامته هانئة.

فردّت فاني قائلة:

- أوه، لا عليك من هذا. أعتقد أن «بابا» تشرف بدعوته مرتين أو ثلاثاً ولكن لا قيمة لهذا، لأن كثيراً من الناس كانوا دائماً حولنا، وكان بيتنا مفتوحاً للجميع، فإذا كان قد شرّفنا، فالأمر أبسط من أن يُذكَر.

فقال السيد دوريت:

- إلا.. ها.. إلا أنه كان من دواعي غبطتي الشديدة أن.. ها.. أن أعبر.. ها.. بكل وسيلة.. ها، مهما كانت بسيطة ولا قيمة لها.. ها.. عن تقديري العميق الذي.. ها.. يشاركني فيه بقية أفراد العالم، لشخصية عظيمة جليلة مثل شخصية السيد ميردل.

وتلقت صاحبة الصدر الأعظم هذه التحية بما يليق بها من تقدير ولباقة. أما فاني فقد قالت بلهجة الذي يلقي بالحديث عن سباركلر وراء ظهره:

- إن السيد ميردل، كما ينبغي أن تعلمي يا سيدة ميردل، هو الأنموذج الذي يتغنى به بابا.

وقال السيد دوريت:

- لقد استأت جداً يا سيدتي حين فهمت من السيد سباركلر أنه ليس.. هه.. ثمة احتمال كبير في سفر السيد ميردل إلى خارج البلاد.

فقالت السيدة ميردل:

- آه، الواقع أني أخشى أن يكون الأمر كذلك لكثرة شواغله وتعدد أعبائه. إنه لم يستطع أن يسافر إلى الخارج لمدة سنوات كثيرة. وأعتقد أنك يا آنسة دوريت اعتدت السفر إلى الخارج فترات طويلة:

فقالت فاني بصوت ممطوط وبكل ثبات:

- أوه، نعم. عدداً من السنين لا يُحصى.

فقالت السيدة ميردل:

- هذا ما علمت.

- تماماً.

وعاد السيد دوريت يقول:

- أعتقد، على كل حال، أنني ما دمت قد حرمت من.. ها.. شرف التعرف بالسيد ميردل على هذا الجانب المواجِه للبحر الأبيض المتوسط من جبال الألب، أرجو أن يتحقق لي هذا الشرف عند عودتي إلى إنكلترا. إنه شرف أتمناه بوجه خاص، وبوجه خاص سوف أقدِّره كل التقدير.

فقالت السيدة ميردل وهي تنظر من خلال نظارتها إلى فاني في إعجاب:

- وأنا واثقة أن السيد ميردل سيقدِّر هذا، نفس التقدير.

وظنت دوريت الصغيرة، التي ظلت على حالها من التفكير الهادئ لنفسها وإن لم تعد وحيدة بعد.. في أول الأمر أن هذه عبارات للمجاملة فقط. ولكن أباها راح يتغنى على مائدة الإفطار، وكانت الأسرة قد حضرت في اليوم السابق حفلة استقبال رائعة في قصر السيدة ميردل، برغبته في معرفة السيد ميردل على أمل أن يستشير هذا الرجل المدهش فيما ينبغي أن يفعل بثروته. وعندئذ بدأت ترى أن الحديث كان له معنى حقيقي، فراحت تشعر بالفضول من جانبها لرؤية ذلك النور الساطع في ذلك القصر.

* * *

الأرملة جوان تتنبه إلى أن هذا لن يجدي أبدا

بينما كانت مياه البندقية وآثار روما تتشمس من أجل متعة أسرة دوريت، وترسم خارج نطاق كل شبه لها من قريب أو من بعيد بأقلام عدد لا يحصى من السائحين، فقد ظلت شركة «دويس وكلينام» تقوم بعملها في حوش «بليدنج هارت» حيث كانت صلصلة الحديد القوية على الحديد تُسمَع هناك طوال ساعات العمل.

وكان الشريك الأصغر «كلينام» قد وصل بالشركة إلى حالة طيبة من النظام والاستقرار، وكان الشريك الأكبر، بعد أن تُرِك لمواصلة ابتكاراته النابغية، قد استطاع أن يرفع من شأن المصنع. وكان لا بد له، باعتباره رجلاً عبقرياً، أن يلغي كل العقبات يمكن أن تضعها في طريقه وطريق أمثاله من المذنبين القوى الحاكمة مدة طويلة. ولكن هذا كان دفاعاً معقولاً عن النفس من جانب تلك القوى، ما دام مبدأ «كيف تفعل هذا» يعتبر بوضوح العدو الطبيعي المميت لمبدأ «كيف تعطل هذا». وفي هذا نجد الأساس لذلك النظام الحكيم الذي تتمسك به، بالمخلب والناب، إدارة الشؤون العامة لتحذير كل عبقري إنكليزي الرعية أن عليه أن يحتمل كل النتائج المهلكة لعبقريته، وذلك بإنهاكه وعرقلته وتشجيع اللصوص «بأن تجعل علاجه عسيراً، غالي الثمن، غير مؤكد» إلى نهبه،

وفي أحسن الأحوال بمصادرة أمواله بعد فترة وجيزة من الاستمتاع على حسابه، وكأنما الاختراع جزء من الخروج على القانون. وقد لقي هذا النظام ترحيباً كبيراً من آل بارناكل، وكان هذا أيضاً أمراً معقولاً. ذلك لأن الشخص الذي في مقدوره الاختراع لا بد أن يكون جاداً متحمساً، وآل بارناكل لا يكرهون ولا يخافون شيئاً نصف ما يكرهون ويخافون الجد والحماسة. وهذا أيضاً أمر معقول جداً، لأن الدولة إذا كانت ستصاب بكمية كبيرة من الجد والحماسة، فمن المحتمل ألا يبقى بعد فترة وجيزة واحد من آل بارناكل في مركزه.

وواجه دانييل دويس هذه الحالة بكل ما فيها من محن وآلام، وراح يواصل عمله من أجل العمل نفسه. وكان كلينام -بتجاوبه القلبي المتفائل معه- خير ناصر له، عدا ما كان يؤديه له من خدمات في شؤون العمل. وازدهرت الشركة، وتوطدت الصداقة بين الشريكين.

ولكن دانييل لم يكن يستطيع أن ينسى اختراعه القديم الذي أمضى فيه سنوات كثيرة. ولم يكن يعقل أن يتوقع أحد أن ينساه. فلو كان في مقدوره أن ينساه بسهولة لما استطاع قط أن يبتكره في ذهنه، وأن يستعين بالصبر والمثابرة لإنجازه ومن ثم خطر لكلينام أن هذا الاختراع أصيل تماماً، وذلك عندما كان يرى دانييل أحياناً يتطلع في بعض الأمسيات إلى نماذجه ورسوماته وهو يغمغم لنفسه مواسياً ومتنهداً حين يعيدها إلى مكانها مرة أخرى.

ومن ثم كان كلينام يرى أنه مما لا يتفق مع مقتضيات الشركة، عدم الشعور بالعطف على مثل هذا المجهود الكبير وما ترتب عليه من خيبة الأمل.

وقد نتج عن هذا الشعور رغبة عارضة في معرفة سبب ذلك الذي رآه مصادفة عند باب إدارة الشؤون العامة. فسأل شريكه أن يشرح له الاختراع، قائلاً: «مع ملاحظة أني لستُ صانعاً يا دويس».

فقال دويس:

- لستَ صانعاً؟ لقد كان من الممكن أن تصبح صانعاً ماهراً لو أنك حاولت أن تفعل، لأنك بارع في فهم هذه الأشياء نفس براعتي.

فقال كلينام:

- ويؤسفني أن أضيف إلى هذا أني جاهل تماماً بفن الصناعة.

فردّ دويس قائلاً:

- إنني لا أفهم هذا، ولا أقبل منك أن تقول هذا. فليس هناك رجل عاقل علّمته الأيام، أو تعلّم من الأيام، يمكن أن يسمى جاهلاً تماماً بأي شيء. وأنا بطبيعتي لا أرحب بالألغاز، بل إني أفضّل فوراً، بعد شرح واضح معقول، أن أترك الحكم على عملي لأي نوع من الناس، طالما أن لهم المؤهلات التي ذكرتها.

فقال كلينام:

- إن هذا، على كل حال، يبدو كما لو كنا نتبادل المجاملات والثناء، ولكننا نعرف أن الأمر ليس كذلك، ولهذا فإني أحب أن أستفيد من شرح يكون بسيطاً واضحاً بقدر الإمكان.

فقال دانييل بطريقته الثابتة السوية.

- حسناً، لسوف أحاول أن أفعل هذا؟

وكانت له القدرة التي نجدها عادة متحدة مع مثل هذه الشخصية، على شرح ما يدور بذهنه وما يعنيه بنفس الوضوح والقوة المباشرة التي دخلت بها الأفكار في رأسه. وكانت طريقته في التوضيح والشرح منظمة، دقيقة وبسيطة بحيث لم يكن من السهل أن يسيء الإنسان فهمه. بل لقد كان هناك شيء يكاد يصل إلى الغرابة والشذوذ من الإحساس الغامض

بأن هذا الرجل ملهم وهو يحرك بإبهامه ونظراته في دقة وإحكام على خرائط المشروع ثم وهو يتوقف هنا وهناك عند نقاط معينة، ثم وهو يعود بحذر إلى نقاط أخرى لمواصلة التفسير والشرح في مجريات صغيرة، وجعل كل شيء يبدو متيناً ثابتاً عند كل مرحلة هامة قبل أن ينتقل بالسامع إلى أقرب خط آخر. وكان إنكاره لنفسه في عملية الشرح لا يقل عن هذا إثارة للانتباه. إنه لم يقل قط: إنني اكتشفت هذا التوافق، أو اخترعت هذا الترتيب، وإنما كان يبين أن الأمر كله من صنع العناية الإلهية وأنه وجده هكذا مُعَدّاً. وبالإجمال كان شديد التواضع في هذا الشأن، كما كان يجمع بين الاحترام والإعجاب بالاختراع نفسه، فضلاً عن يقينه الرزين بأنه قائم على قوانين لا تُنقَض.

ولم يسعد كلينام بهذا الشرح والتفسير في تلك الليلة فقط، وإنما في ليالٍ أخرى متوالية، وكان كلما تتبع هذه العملية، وكلما رأى رأس شريكه الأشيب منحنياً على المشروع، وعينه اللمّاحة تومض بالبهجة والحب، رغم مرور اثنتي عشرة سنة عليه كان يجد نفسه أقل قدرة على تهدئة طاقة نشاطه، بصفته الأصغر سناً، للسكوت على الأمر دون بذل محاولة أخرى وأخيراً قال:

– دويس! لقد انتهى الأمر إلى هذا. وهو إما أن نُغرِق هذا المشروع إلى أعماق صخرية لا يعلمها غير الله، وإما أن نبدأ من جديد.

فردّ دويس قائلاً:

– أجل، وهذا ما فعل به النبلاء والسادة بعد اثنتي عشرة سنة.

وقال كلينام بمرارة:

– وإنهم لأشخاص لطاف أيضاً.

وعلّق دويس قائلاً:

- هذا هو الشيء المعتاد. وأنا لن أجعل من نفسي شهيداً ما دمت واحداً من كثيرين غيري.

فقال كلينام:

- أتنفض يديك منه أو أبدأ الأمر كله من جديد؟

فقال دويس:

- هذا هو الموقف باختصار.

فصاح كلينام قائلاً وهو ينهض ويأخذ يد شريكه الخشنة من العمل:

- إذن سوف نبدأ الأمر كله من جديد.

فبدا الجزع على دويس وقال بسرعة غير معتاد عليها:

- لا، لا. الأفضل أن نترك أمره، إن هذا أفضل كثيراً، ولسوف يأتي اليوم الذي يعرف أمره فيه. وأنا أستطيع أن أضعه جانباً، ولعلك لم تنسَ يا عزيزي كلينام أنني وضعته جانباً. لقد انتهى الأمر.

فقال كلينام:

- نعم، لقد انتهى الأمر يا دويس فيما يتعلق بمجهوداتك وما كنت تلقاه من عنت. أعترف بهذا، ولكن الأمر لم ينته فيما يتعلق بشأني. إنني أصغر منك سناً. وقد وضعت قدمي مرة واحدة فقط في داخل تلك الإدارة، وأصبحت لعبة جديدة بين أيديهم. هلم، لسوف أحاول معهم. ولسوف تظل تعمل أنت ما كنت تعمله تماماً منذ أن اتصل بعضنا ببعض. أنا سوف أضيف -كما يمكنني بسهولة- إلى ما أقوم به من عمل، محاولة العمل على إنصافك رسمياً. ولن تسمع عن هذا الأمر شيئاً ما لم أظفر ببعض النجاح الذي أعلنه إليك.

وظل دانييل دويس راغباً عن الموافقة، وراح يجادل المرة بعد الأخرى، قائلاً إن من الأفضل أن نضع المشروع جانباً. ولكن كان طبيعياً أن يترك نفسه للاقتناع تدريجياً برأي كلينام حتى يوافق أخيراً، وقد وافق فعلاً. وهكذا استأنف آرثر ذلك المجهود الطويل المؤنس ليشق طريقه بين رجال إدارة الشؤون العامة.

وسرعان ما بدأت غرف الانتظار في تلك الإدارة أن تألف وجوده، وكان هو، عادةً، يقاد إليها على أيدي السعاة والحُجّاب كما لو كان نشالاً يساق إلى مركز الشرطة. وكان الاختلاف الجوهري بين الوضعين أن هدف رجال الشرطة هو الاحتفاظ بالنشال، بينما كان هدف إدارة الشؤون العامة هو التخلص من كلينام، ولكنه، على أية حال، صمم على التشبث بالإدارة الكبرى، وهكذا بدأت معه عملية ملء الاستمارات، والرد على الرسائل، وكتابة المذكرات، وتدوين التواريخ، والتوقيع، وإلغاء التوقيع، والتوقيع على إلغاء الإلغاء، والذهاب هنا وهناك، أماماً وخلفاً مع المرور بالتشعبات الجانبية، وعبور التقاطعات، والمسير في ممرات حلزونية.

وهنا تبرز إحدى ملامح إدارة الشؤون العامة التي لم يسبق تسجيلها هنا. فعندما تواجه هذه الإدارة الرائعة محنة على يد عضو برلماني ثائر يعتقد صغار آل بارناكل أن الشيطان تقمصه، فيروح يهاجم إمكانات هذه الإدارة، لا باعتبارها حالة فردية، وإنما على أنها إدارة مجنونة مكروهة تماماً، عندما يحدث هذا، ينهض صاحب السمو أو صاحب السعادة بارناكل الذي يمثلها في البرلمان ليدق ذلك العضو ويسحقه تماماً بتقرير عن كمية الأعمال «الخاصة بمنع الأعمال» التي قامت بها إدارة الشؤون العامة. ثم يمضي صاحب السمو، أو صاحب السعادة بارناكل هذا ويمسك بورقة فيها بعض الأرقام القليلة، ويرجو، بعد إذن المجلس، أن ينتبه الجميع إليها. وهنا يصيح صغار البارناكليين، تنفيذاً للأوامر، قائلين:

- أنصتوا، أنصتوا. اقرأ.

ثم يعمد صاحب السمو أو صاحب السعادة بارناكل، خذ بالك يا سيدي، إلى القراءة من الورقة التي يعرب عن رأيه بأن ما فيها قد يقنع حتى أشد العقول تحجراً «ضحك ساخر وهتاف من صغار آل بارناكل» فيقول إنه خلال هذه الفترة القصيرة، من نصف السنة المالية الأخير، قامت هذه الإدارة المفترى عليها كثيراً «هتافات» بكتابة واستلام خمسة عشر ألف رسالة «هتافات عالية» وإنها دوّنت أربعة وعشرين ألف مذكرة «هتافات أعلى مما سبق» وإنها سجلت اثنين وثلاثين ألف مفكرة «هتافات مدوية» لا، بل لقد عمد سيد عبقري متصل بهذه الإدارة، وهو نفسه من رجال الحكمة العاملين إلى التكرم بتزويده بإحصائية مدهشة عن كمية الأدوات الكتابية التي هضمتها الإدارة خلال الفترة نفسها، وكانت هذه الإحصائية جزء من تلك الوثيقة الصغيرة التي يقرأ منها، والتي ذكر نقلاً عنها تلك الحقيقة المثيرة وهي أن عدد صفحات الورق الفولسكاب التي خُصِّصت للإدارة، كان يمكن أن يرصف إفريزي شارع أكسفورد من أوله إلى آخره مع ترك نحو ربع ميل لرصف الحديقة «هتافات ضخمة وضحكات» هذا بينما كانت الأشرطة - الأشرطة الحمراء- تكفي لأن تمتد، في أنشوطات جميلة من جانب حديقة هايد بارك إلى إدارة البريد العامة. وهنا يجلس -بين الهتافات والابتهاجات الرسمية- صاحب السمو أو صاحب السعادة بارناكل، تاركاً أشلاء العضو المحترم في الميدان، ولم يكن في مقدور أحد بعد هذه الهزيمة النموذجية، أن يجرؤ على مجرد التلميح بأنه كلما أكثرت إدارة الشؤون العامة من العمل، كانت الأشياء المعمولة أقل، وأن خير ما يمكن أن تعمله للمجتمع البائس، هو ألا تعمل شيئاً.

وبسبب كثرة ما لدى آرثر كلينام من الأعمال، بعد أن أضيفت هذه المهمة إلى أعماله، وهي مهمة مات دونها قبل أيامه رجال ورجال..

كان يحيا حياة ليس فيها كثير من التنوع. وكان التنوع الوحيد لمدة أشهر كثيرة هو زياراته المنتظمة للغرفة الكئيبة التي تعيش فيها أمه، وزياراته الأقل انتظاماً للسيد ميجلز في توتيكنهام.

وكان يفتقد دوريت الصغيرة في حزن واكتئاب، ورغم أنه كان قد أعدّ نفسه لافتقادها كثيراً، إلا أنه لم يكن يعلم أنه سيفتقدها إلى هذا الحد. لقد عرف إلى أقصى حد، عن طريق التجربة فقط أي فراغ كبير تركته في حياته برحيلها، وقد شعر أيضاً أنه لا بد من أن يتخلى عن أمله في عودتها إليه، وذلك بعد أن فهم من طبيعة أسرتها ما يكفي لأن يؤكد له أنها انفصلت عنه بمسافة كبيرة من أسباب التفرقة. وكذلك شعر أن اهتمامه القديم بها، واعتمادها القديم عليه بكل ثقة واطمئنان، قد تظلل هذا وذاك بالكآبة في ذهنه. وهكذا سرعان ما استرق التغيير خطاه إلى هذه المشاعر، وسرعان ما انزلقت إلى الماضي مع غيرها من الإحساسات الرقيقة الحانية.

ولما استلم رسالتها تأثر كثيراً، ولكن شعوره لم يقل بأنها لا تزال أبعد ما تكون عنه بشيء غير المسافة المكانية. وقد زادته هذه الرسالة فهماً وإدراكاً للمكان الذي وضعته فيه أسرتها بالنسبة لها. لقد أدرك أنها تحتفظ بذكريات جميلة عنه سراً، وأن بقية أفراد الأسرة ينفرون منه ومن السجن ومن كل ما يتعلق بذلك العهد.

وخلال هذه التأملات التي كانت تتزاحم حوله في كل يوم من أيام حياته، كان يفكر فيها دائماً نفس تفكيره السابق عنها. كانت دائماً صديقته البريئة، وطفلته الرقيقة، وصغيرته العزيزة دوريت. وكان هذا التغير في الظروف متلائماً بشكل عجيب مع عادته التي بدأت في تلك الليلة التي طفت فيها الزهور بعيداً عن سطح النهر، أي عادته في اعتبار نفسه أكبر سناً منها أكثر مما هو في الواقع، كان ينظر إليها من زاوية، رغم ما فيها من رقة، طالما أثارت في قلبها آلاماً لا تطاق دون أن يدري. كان

يفكر في مصيرها المقبل، وفي الزوج الذي قد يبني بها، بتلك العاطفة التي تكاد تمتص من قلبه كل قطرة حبيبة من الأمل، وتحطمه تماماً.

كان كل شيء حوله يتجه إلى تأكيد عادته في النظر إلى نفسه كرجل كهل لم يعد في قلبه شيء من تلك العواطف التي يحملها يوماً لميني جوان، رغم أن هذا أيضاً لم يكن منذ عهد بعيد بحساب الشهور والفصول. وكانت علاقته بوالديها -والدي ميني- تشبه ما قد يكون من علاقة زوج الابنة المتوفاة. فلو أن الأخت التوأم، التي ماتت طفلة، قد عاشت لتموت في ربيع الشباب، ولو أنه كان زوجاً لها، لكانت طبيعة علاقة السيد والسيدة ميجلز تماماً كما هي الآن معه. وقد ساعد هذا الشعور على تأكيد ذلك الإحساس العميق في نفسه، وهو أنه قد فرغ ونفض يديه من هذه المرحلة من الحياة.

وكان بالتأكيد قد سمع عن ميني منهما كقولها لهما في رسائلها عن مدى سعادتها وعن مبلغ حبها لزوجها، ولكن فيما عدا ذلك الموضوع كان يرى، على وجه اليقين، تلك السحابة القديمة على وجه السيد ميجلز. والواقع أن السيد ميجلز لم يبد قط بعد الزواج مشرق الوجه كما كان من قبل. إنه لم يستطع قط أن يتغلب على ألم فراقه عن ابنته بيت. حقاً كان نفس الشخص الطيب الصريح، ولكن بدا كأنما اتخذ وجهه -لكثرة تطلعه ناحية صور ابنته التي كانت لا تكشف له إلا عن نظرة واحدة- طابعاً لا شعورياً مستمداً منها حتى أصبح له الآن، وفي جميع حالاته المعبرة، هذه النظرة التي تنم عن الشعور بالضياع.

وفي ذات يوم سبت من فصل الشتاء، عندما كان كلينام في كوخ السيد والسيدة ميجلز، أقبلت الأرملة السيدة جوان في إحدى مركبات حي هامبتو كوارت المأجورة الفاخرة التي يتظاهر الكثير من سكان ذلك الحي بأنهم يمتلكونها. وهبطت وراء ظلال مروحتها الخضراء الكبيرة لتقوم بزيارتها.

وقالت في صوت الذي يشجع أنسباءه على الحديث معه بحرِّية:

- كيف حال بابا وماما ميجلز؟ ومتى كانت آخر مرة سمعتما فيها عن صاحبي المسكين؟

وكان صاحبها المسكين هو ابنها. وكان هذا الأسلوب في الحديث عنه يجعله يبدو دائماً بطريقة مهذبة، ودون أية إساءة قط في ذلك الوضع المزعوم، أي ضحية تدبيرات آل ميجلز.

وعادت السيدة جوان تقول:

- وعزيزتنا الجميلة، ألديكم أنباء عنها.. أحدث عهداً من التي عندي؟

وكان هذا أيضاً يوحي -بلباقة- أن ابنها وقع أسير الجمال فقط، وأنه نسي، تحت تأثير جاذبيته كل مصالحه الخاصة.

واستطردت السيدة جوان تقول دون أن تشق على نفسها بالانتباه إلى ما تتلقاه من إجابات:

- إنني واثقة أنه من دواعي الغبطة التي لا توصف أن أعلم أن سعادتهما مستمرة. لقد كان صاحبي المسكين لا يكاد يستقر في وضع ما، كما كان دائم التجوال على غير هدى، ورغم شهرته بين مختلف ألوان الناس كان لا يوطد علاقته بأحد. ولهذا فإن من دواعي الغبطة البالغة أن أراه في وضعه هذا الجديد، وأعتقد يا بابا ميجلز أنهما فقيران كالجرذان.

وأجاب السيد ميجلز وهو يتململ من هذا السؤال:

- أرجو ألا يكون هذا يا سيدتي. أرجو أن يحسنا العيش في حدود دخلهما البسيط.

فقالت تلك السيدة وهي تربت على ذراعه بمروحتها الخضراء، ثم تضعها -بمهارة- بين فمها المتثائب وبين الحاضرين.

- أوه يا عزيزي ميجلز! كيف يمكنك باعتبارك رجلاً واسع التجارب ومن أشد الناس واقعية.. لأنك كما تعلم رجل واقعي، بل أكثر واقعية إلى حد كبير منا نحن الذين لا..

وكان حديثها هذا ينطبق على الهدف الأول، أي جعل السيد ميجلز أحد الدهاة المنكرين أو المتآمرين.

واستطردت تقول:

- كيف يمكنك أن تتحدث عن إمكان عيشهما بمواردهما البسيطة! يا لصاحبي المسكين! إنني لا أكاد أتصور كيف يدبر أمره بالمئات! والجميلة الحلوة أيضاً! كيف يمكن التفكير في أنها تحاول تدبّر أمر معيشتهما! لا، لا يا بابا ميجلز!

فقال السيد ميجلز في أسى:

- حسناً يا سيدتي! إنني آسف من ثم إذا اعترفت أن هنري يتجاوز حدود موارده.

- يا عزيزي الكريم! إنني لا أتحدث معك بالرسميات لأن بيننا نوعاً من القرابة -قطعاً- وإن ماما ميجلز..

وأردفت السيدة جوان قائلة في بشاشة وكأنما خطرت ببالها لأول مرة فكرة هذه القرابة الغريبة:

- نعم.. نوعاً من الغرابة! ليس بيننا في هذا العالم يا عزيزي الكريم من يستطيع أن يعيش كما يريد.

ومرة أخرى كان هذا مطابقاً للهدف الأول، إذ أظهرت -بكل لباقة تنم عن الأصل العريض- أن السيد ميجلز قد استطاع حتى الآن أن ينجح في تدبيراته المُحكمة. وقد بدا للسيدة جوان أنها أصابت الصميم، مما جعلها تزيد وتعيد في هذه العبارة قائلة:

- كل ما يريد... لا.. لا. لا يجب أن نتوقع في العالم أن ننال كل ما نريد يا بابا ميجلز.

فردّ السيد ميجلز قائلاً وقد اضطرم وجهه بعض الشيء:

- أيمكنني أن أسأل يا سيدتي من ذا يتوقع كل شيء؟

فقالت السيدة جوان:

- أوه، لا أحد، لا أحد. لقد كنت أريد أن أقول.. ولكنك منعتني من الحديث، إنك تقاطعني يا بابا، ماذا كنت أريد أن أقول؟

وراحت ترنو إلى السيد ميجلز في تأمل -بعد أن أخفضت المروحة- في أثناء تفكيرها فيما أرادت أن تقول. ولم يكن ذلك الموقف مما يهدئ قط حالة الانفعال التي كان يعانيها ذلك السيد.

وقالت السيدة جوان:

- آه، نعم، بالتأكيد. ينبغي أن تذكر أن صاحبي المسكين كان معتاداً دائماً أن يتوقع الحصول على أموال. وربما تحقق هذا، وربما لم يتحقق.

فقال السيد ميجلز:

- دعينا نقل إذن إن هذا ربما يتحقق.

فرمقته الأرملة برهة بنظرة غاضبة؛ ولكنها لم تلبث أن تخلت عنها بحركة من رأسها ومروحتها. ثم استطردت تقول بلهجتها السابقة:

- إن هذا لا يؤثر في شيء. فإن صاحبي المسكين معتاد على هذا اللون من الحياة. وقد عرفت هذا بطبيعة الحال، واستعددت للنتائج، وأنا شخصياً أتنبأ بهذه النتائج في وضوح فلا أدهش، وعلى هذا يجب ألا تدهش. بل لا تستطيع في الواقع أن تدهش، لأنك لا بد قد اتخذت أهبتك لهذا.

ونظر السيد ميجلز إلى زوجته، ثم إلى السيد كلينام، ثم عضّ على شفته وسعل. واستطردت السيدة جوان تقول:

- وها هو ذا الآن صاحبي المسكين يتلقى إخطاراً بأن عليه أن يتوقع أن يكون له ولد، وكل ما يحتاج إليه هذا الأمر من نفقات إضافية للأسرة. يا لهنري المسكين! ولكن لا يمكن معالجة الأمر الآن، لقد فات وقت معالجته الآن. ولكن لا تتحدث فقط يا بابا ميجلز عن تجاوزه لموارده الخاصة كأنما اكتشفت أمراً، لأن هذا سيكون أكثر مما ينبغي.

فقال السيد ميجلز وكأنما يتلمس منها تفسيراً:

- أكثر مما ينبغي!

فقالت السيدة جوان وهي تضعه في مكانه الأدنى بحركة معبرة من يدها.مكتبة سُر مَن قرأ

- مهلاً، مهلاً. أكثر مما ينبغي أن تحتمله أم صاحبي المسكين في مثل هذه الفترة من اليوم. لقد أوغلا في الزواج، ولا يمكن الفصل بينهما. مهلاً، مهلاً، إنني أعرف هذا. ولا حاجة بك لأن تخبرني به يا بابا ميجلز! إنني أعرفه جيداً جداً ما الذي قلته الآن فقط؟ إنه من دواعي الغبطة البالغة أن تستمر سعادتهما. وإن من المأمول أن تبذل العزيزة الحلوة كل ما في وسعها لكي تجعل صاحبي المسكين سعيداً، وأن تبقيه في حالة من الرضا. بابا وماما ميجلز.. إنه ليحسن ألا نزيد في الحديث على هذا الموضوع شيئاً. فإننا لم ننظر إليه قط من زاوية واحدة، ولن نفعل هذا أبداً. مهلاً، مهلاً! لقد أفصحت الآن عن كل شيء.

والواقع أن السيدة جوان بعد أن قالت كل ما أمكنها قوله لكي تحتفظ بمكانتها الرفيعة، ولكي تبين للسيد ميجلز أنه لا ينبغي أن يتوقع الوقوف إزاء شرف هذا الانتساب موقفاً رخيصاً، كانت تميل إلى أن

تتغاضى عما يبقى بعد ذلك. ولو أن السيد ميجلز استجاب لنظرة الرجاء من السيدة ميجلز وللحركة المعبرة من السيد كلينام، لترك السيدة جوان مستمتعة بحالتها هذه النفسية الهادئة الراضية. ولكن ابنته بيت كانت حبيبته وموضع الاعتزاز من نفسه. وإذا كان في مقدوره أن يتفانى في الدفاع عنها، أو في حبها عندما كانت ضوء الحياة المشرق في بيته، فهو الآن أقدر على هذا كله وهو يعيش على هذا الضوء والحب بعد أن غابت عن البيت.

قال:

- يا سيدتي السيدة جوان. لقد كنت رجلاً بسيطاً طيلة حياتي. فإذا كان عليّ أن أحاول -سواء كانت هذه المحاولات معي أو مع غيري أو معي ومع غيري في وقت واحد- أن أتظاهر بعراقة المحتد أو الانتماء إلى الوسط الراقي، فإني على الأرجح لا أنجح في هذه المحاولات.

فردّت الأرملة بابتسامة مصطنعة، ولكن بعد أن ازدادت حمرة خديها مما جعل ما حولها يزداد امتقاعاً:

- نعم يا بابا ميجلز.. هذا على الأرجح.

فقال السيد ميجلز وهو يبذل جهده ليسيطر على نفسه:

- ولهذا أرجو يا سيدتي الكريمة، ودون أية إساءة، ألا يجري أحد مثل هذه المحاولات معي.

فقالت السيدة جوان:

- ماما ميجلز! إن زوجك الكريم غير مفهوم.

وكان التجاؤها إلى تلك السيدة الكريمة وسيلة لاشتراكها في الحديث. ثم الاختلاف معها، ثم الانتصار عليها، ولكن السيد ميجلز تدخّل ليمنع الوصول إلى هذه النتيجة.

ومن ثم قال لزوجته:

- إنك يا عزيزتي غير خبيرة في هذه الشؤون، ومن ثم فليس من الإنصاف أن تقحمي نفسك فيها. ولهذا أرجوك أن تلزمي الصمت. والآن هيّا يا سيدة جوان، هيّا. لنحاول أن نكون معقولين... لنحاول أن نكون طيبين... لنحاول أن نكون منصفين. لا ترثي لحال هنري ولن أرثي أنا لحال بيت. ولا تتحيزي إلى جانب واحد يا سيدتي العزيزة لأن هذا لا يتفق مع المجاملة والكرم. دعينا لا نقول إننا نأمل أن بيت سوف تُسعِد هنري أو أن هنري سوف يُسعِد بيت. «ولم يكن السيد ميجلز نفسه يبدو سعيداً وهو ينطق بهذه الكلمات» ولكن دعينا نأمل أن كلاً منهما سوف يُسعِد الآخر.

فقالت السيدة ميجلز الوادعة ذات القلب الطيب:

- نعم بالتأكيد، ولنترك الأمر عند هذا الحد أيها الوالد.

فردّ السيد ميجلز قائلاً:

- لا أيتها الأم. ليس عند هذا الحد تماماً. لا أستطيع أن أتركه عند هذا الحد يقيناً. يجب أن أقول بضع كلمات إضافية. سيدة جوان، أرجو ألا أكون حساساً أكثر مما ينبغي، وأعتقد أنني لا أبدو كذلك.

فقالت السيدة جوان وهي تحرك رأسها ومروحتها الخضراء الكبيرة على سبيل التأكيد:

- إنك حقاً لا تبدو كذلك.

- شكراً يا سيدتي. هذا شيء عظيم، ولكنني على الرغم من هذا فإني أشعر قليلاً أني لا أريد أن أستخدم عبارة قاسية..

ثم أردف يسألها فوراً في صراحة وتلطف وبلهجة تنم عن رغبته في المصالحة:

- هل أقول إني أشعر قليلاً بأني جرحت!

فأجابت السيدة جوان قائلة:

- قل ما تشاء. فإن هذا لا يهمني في شيء قط.

فقال السيد ميجلز بلهفة:

- لا لا... لا تقولي هذا، لأن هذا ليس بالرد المُرْضي. لقد شعرت قليلاً بالألم عندما سمعت حديثك عن النتائج التي كانت متوقعة، وعن قولك إن الوقت قد فات وما إلى هذا.

فقالت السيدة جوان:

- أحقاً يا بابا ميجلز؟ إنني لست مدهوشة.

فقال السيد ميجلز في تعقّل:

- حسناً يا سيدتي. لقد كنت آمل أنك سوف تدهشين على الأقل. لأنه ليس من الكرم في شيء أن تؤلميني عن عمد في موضوع حساس كهذا.

فقالت السيدة جوان:

- إنني لست مسؤولة عن مشاعرك كما تعلم.

فارتسمت الدهشة والارتباك على وجه السيد ميجلز المسكين أما هي فقالت:

- لو أني مضطرة لسوء الحظ، إلى حمل قبعة معي في كل مكان هي خاصة بك وتناسبك، فلا تلمني على شكلها يا بابا ميجلز، أرجوك.

فانطلق السيد ميجلز يقول:

- يا إلهي الرحيم يا سيدتي، إن هذا تماماً كما لو أنك تقررين...

فقالت السيدة جوان التي أصبحت فجأة على جانب كبير من الثبات والتأني بينما كان ذلك السيد يزداد انفعالاً:

- مهلاً يا بابا ميجلز، يا بابا ميجلز. لعل من الأفضل -منعاً لأي ارتباك- أن أتحدث عن نفسي بدلاً من أن تشق على نفسك بالحديث عن لساني. إن هذا كما لو كنت أقرر.. هكذا بدأ الحديث. فإذا سمحت فسوف أختم هذه العبارة. إن هذا كما لو كنت أقرر.. وليس معنى هذا أني أتمسك بهذه العبارة، أو حتى أتذكرها، لأنها لم تعد ذات جدوى الآن، وإنما كل رغبتي هي أن أستفيد من الظروف الحاضرة.. أقول إني كنت دائماً منذ البداية إلى النهاية معارضة في هذا الزواج، وفي آخر مرحلة خضعت رُغْماً عني ووافقت عليه.

فصاح السيد ميجلز قائلاً:

- أيتها الأم، هل تسمعين هذا؟ آرثر.. هل تسمع هذا؟

فقالت السيدة جوان وهي تتلفت حولها وتروِّح على وجهها بالمروحة:

- إن هذه الغرفة ذات حجم مناسب، وهي جد ملائمة للحديث فيها، وأعتقد أن صوتي يمكن أن يُسمَع في كل جانب منها.

ومرّت بضع لحظات في سكون قبل أن يستطيع السيد ميجلز من الثبات في مقعده بقوة تجعله لا يثب منه عند الرد عليها. وأخيراً قال:

- سيدتي، إنني غير راغب تماماً في إعادة الحديث عن هذا الموضوع التعس ولكن يجب أن أذكرك بما كانت عليه آرائي وموقفي بشأنه.

فقالت السيدة جوان وهي تبتسم وتهز رأسها في اتهام ذكي:

- أوه، أؤكد لك يا سيدي العزيز أنني مدركة هذا كله تماماً.

فقال السيد ميجلز:

- إنني يا سيدتي لم أشعر قط بالشقاء قبل ذلك الحين، لم أعرف قط القلق والهم قبل ذلك الوقت، لقد بلغ خوفي يومذاك إلى حد... إلى حد أن السيد ميجلز لم يستطع في الواقع أن يزيدني القول، وإنما مسح على وجهه بمنديله.

وقالت السيدة جوان وهي تطل بهدوء من فوق مروحتها:

- إنني أفهم الموضوع كله، وكما تلجأ إلى السيد كلينام، فربما يحق لي أن ألجأ إليه أيضاً. وهو يعلم إذا كنت أفهم الموضوع كله أم لا.

فقال كلينام وهو ينظر إلى الجميع:

- إنني غير راغب قط في الاشتراك في هذه المناقشة، لا سيما وأني أريد أن أحتفظ بكل ما يمكن من حُسْن التفاهم وصفاء العلاقة بيني وبين السيد هنري جوان. وإن لدي في الواقع من الأسباب القوية ما يبرر هذه الرغبة. لقد أعربت لي السيدة جوان عن آراء معينة بشأن موقف صديقي السيد ميجلز في تأييده للزواج، وكان ذلك في محادثة جرت بيني وبينها قبل أن يتم، وقد حاولت ألا أخدعها. ومن ثم بيّنت لها أنني أعرف «كما عرفت فعلاً» أنه كان معارضاً له بكل قواه، نظرياً وعملياً.

فقالت السيدة جوان وهي تبسط كفيها نحو السيد ميجلز وكأنما هي الإنصاف بعينه، مبينة له أن من الأفضل له أن يعترف بعد أن لم تعد له أية حجة يستند عليها:

- أرأيت؟ أرأيت؟ حسناً جداً. والآن اسمحا لي يا بابا وماما ميجلز معاً... وأردفت بصوت أكثر ارتفاعاً:

- أن أتجرأ وأضع حداً لهذه لمناقشة العنيفة. إنني لن أضيف كلمة أخرى في هذا الشأن. وإنما سأقول فقط إنها دليل آخر على ما يعوق الإنسان بحكم التجارب. وهو أن هذا النوع من الشيء لا يجدي قط، أو كما قال صاحبي المسكين، لا يثمر قط.. أو في جملة واحدة: لا يفيد قط.

فسألها السيد ميجلز عما تعني بهذا النوع من الشيء!

ومن ثَمَّ قالت:

- أعني أنه لا جدوى من أن يحاول الناس أن يتصل بعضهم ببعض في علاقات وطيدة إذا كان الاختلاف كبيراً جداً في أصولهم؟ ولا سيما إذا كانوا قد اختلط بعضهم ببعض بهذا النوع من الزواج العرضي، ولا سيما إذا كانوا لا يستطيعون أن ينظروا إلى هذه الظروف التي خلطتهم بعضهم ببعض من وجهة نظر واحدة. إن هذا النوع من الشيء لا يجدي إطلاقاً.

وبدأ السيد ميجلز يقول:

- اسمحي لي أن أقول يا سيدتي.

إلا أنها قاطعته قائلة:

- لا، لا تقل شيئاً. ولماذا تفعل؟ إنها حقيقة مؤكدة. إن هذا النوع من الشيء لا يجدي قط. ولهذا فسوف أمضي، إذا سمحتم، في طريقي، تاركة إياكما في طريقكما. لسوف أكون في أي وقت سعيدة عند استقبال زوجة ابني الجميلة، ولسوف أحرص دائماً على أن تكون علاقاتي بها على خير حال. أما تلك العلاقات الأخرى مثل: شبه قريب أو شبه غريب أو شبه متصل أو شبه منفصل، فإنها تكون أوضاعاً قد تكون مسلية في عدم واقعيتها، ولكنها كما أؤكد لكم لا تجدي قط.

وهنا أحنت الأرملة رأسها باسمة في تحية موجَّهة إلى الغرفة أكثر مما هي موجهة إلى أي أحد ممن فيها، وهكذا استأذنت في الانصراف من بابا وماما ميجلز. وتقدم كليننام معها إلى المركبة الأرستقراطية المأجورة التي كانت في خدمة جميع الأرستقراطيين في حي هامبتون كوارت بالاس، وبعد أن استقلتها في وقار واضح، انطلقت بها.

ومنذ ذلك الحين وهذه الأرملة لا تكف عن الحديث -في فكاهة واستخفاف- مع خاصة أصدقائها ومعارفها عن كيف استحال عليها -رغم كل ما بذلت من محاولات- أن تعرف هؤلاء الناس المنتمين إلى زوجة ابنها هنري، وهم الذين بذلوا جهد المستميت لاصطياده. ولا يعرف أحد أكثر منها ما إذا كانت قد وصلت إلى هذه النتيجة مقدماً، وهي أن التخلص منهما سوف يتيح لمزاعمها فرصة أفضل، وأنه قد يعفيها من بعض المضايقات التي قد تتعرض لها بين الحين والآخر، وألا يعرضها لأية خسارة -لا سيما بعد أن أوغلت الزوجة الحلوة في الزواج مع شدة تعلقها بوالدها- هذا على الرغم من أن التاريخ سيكون له رأيه أيضاً في هذا الموضوع، ولا شك أن رأيه -بكل تأكيد- في جانب الإثبات.

* * *

ظهور واختفاء

قال السيد ميجلز في مساء اليوم التالي:

- آرثر، يا ولدي العزيز. لقد كنت أتحدث مع الأم في هذا الموضوع ولم نشعر بالارتياح في أن نبقى على ما نحن عليه.. إن نسيبتنا تلك الرفيعة الشأن؛ تلك السيدة العزيزة التي كانت هنا أمس...

فقال آرثر:

- إني أفهم...

فاستطرد السيد ميجلز يقول:

- حتى هذه الزهرة المتلطفة البشوش من زهرات المجتمع قد تسيء تمثيلنا، وإن في مقدورنا أن نحتمل الشيء الكثير من أجلها يا آرثر، ولكنني أعتقد أن من الأفضل ألا نحتمل شيئاً ما دام الأمر في نظرها سواء.

فقال آرثر:

- حسناً.. استمر.

فاستمر السيد ميجلز في حديثه قائلاً:

- أترى! إن هذا قد يسيء موقفنا في نظر زوج ابنتنا، بل إنه قد يسيء موقفنا في نظر ابنتنا، وربما يؤدي إلى الشيء الكثير من المتاعب العائلية. أترى؟ أليس كذلك.

فردّ آرثر قائلاً:

- أجل، حقاً.. إن فيما تقول الشيء الكثير من المنطق.

ثم نظر إلى السيدة ميجلز التي كانت دائماً في جانب الحكمة والتعقل، فرأى على وجهها الصادق المشرق أنها تؤيده في الموافقة على رغبات السيد ميجلز الذي قال:

- وعلى هذا قررنا، الأم وأنا، أن نتحرك بقضنا وقضيضنا ونعود إلى حياة الترحال والسفر مرة أخرى، أعني قررنا أن ننطلق ونخترق فرنسا إلى إيطاليا لنزور ابنتنا بيت.

فأجاب آرثر وقد تأثر بما رآه من لهفة الأمومة على وجه السيدة ميجلز المشرق -ولا بد أنها كانت جد شبيهة بابنتها يوماً-:

- وأنا أعتقد أنه لا يمكن أن تفعلا خيراً من هذا، وإذا سألتماني النصيحة فإني أرى أن تسافرا غداً.

فقال السيد ميجلز:

- أترى هذا حقاً؟ أيتها الأم، يجب أن نستعد فوراً.

فأجابت الأم -وهي تشكر كلينام بنظرة جد مُرْضية له- بأن هذا ما يجب فعلاً.

وقال السيد ميجلز وقد عادت إلى وجهه تلك السحابة القديمة:

- ولكن الحقيقة يا آرثر، عدا هذا كله، هي أن زوج ابنتنا عاد وغرق في الديون مرة أخرى. وأن عليّ كما أظن أن أسددها عنه، ولعل من الخير، حتى في هذا الشأن، أن أذهب إليه وأتفاهم بطريقة وديّة. ثم لا ننسى هنا قلق الأم -الذي لا مبرر له وإن كان طبيعياً أيضاً- على صحة بيت؛ وقولها إن من الواجب ألا نتركها تشعر بالوحدة في هذه الظروف

الراهنة. ولا ينكر أحد أن الشُّقّة بيننا وبينها يا آرثر بعيدة، وأن حبيبتنا المسكينة لا بد أن تشعر بالغربة في تلك الأماكن الغريبة في كل الأحوال. ولنحيطها بالرعاية التي ينبغي أن تحاط بها أية سيدة في تلك البلاد، ولكن المسافة مع هذا بعيدة جداً. ولكن بلادي وإن جارت عليّ عزيزة...

ثم أردف السيد ميجلز مضيفاً إلى المَثَل مقطعاً جديداً:

– وروما وإن كانت جميلة فهي غريبة..

فعلّق آرثر قائلاً:

– كل هذا حق تماماً. وإن لديكم من الأسباب ما يكفي لضرورة الذهاب.

– إني سعيد إذ ترى هذا. لقد جعلتني أحزم أمري. ويمكنك أيتها الأم أن تستعدي. حقاً لقد فقدنا ترجماننا الجميل -كانت بيت تجيد التحدث بثلاث لغات أجنبية يا آرثر، وقد سمعتها مرات كثيرة- وعليك أيتها الأم أن تساعديني في هذا بقدر ما تستطيعين. فإني سأكون في حاجة إلى كثير من المساعدة يا آرثر.

ثم هزّ السيد ميجلز رأسه وأردف قائلاً:

– نعم، إلى كثير من المساعدة، لأني لا أستطيع أن أنطق أي عبارة تزيد على الاسم ومدلوله.. بل إني أعجز عن النطق به إذا كان اسماً معقداً.

فردّ كلينام قائلاً:

– لقد تذكرت الآن. يمكن أن يصحبكما كافالليتو إذا شئت. إنني لا أستطيع الاستغناء عنه، ولكنكما ستعودان به طبعاً.

فقال السيد ميجلز وهو يستعرض الأمر في ذهنه:

- حسناً! إنني جد شاكر لك هذا الفضل يا ولدي. ولكنني لا أرى هذا. أرى أن الأم سوف تساعدني، إن كافالليرو -وها أنا أخطئ في نطق اسمه من البداية، وإنه ليشبه في رنينه صوت المجموعة في أغنية فكاهية- إن كافالليرو جد ضروري لك بحيث لا أحب مجرد التفكير في أخذه منك، وأكثر من هذا فليس هناك من يعرف متى قد نعود من السفر. ولا ينبغي قط أن نأخذه إلى أجل غير مسمى. إن كوخي هذا لم يعد كما كان. لقد نقص منها اثنان فقط حقاً، هما: بيت وخادمتها الخاصة المسكينة تاتيكورام. ومن ذلك فإنها تبدو خاوية الآن. ونحن إذا رحلنا عنها فلا يعلم أحد متى قد نعود إليها. لا يا آرثر.. لسوف أجد المساعدة الكافية من الأم.

وخطر لكلينام أنهما قد يحسنا التصرف بنفسيهما رغم كل شيء، ومن ثم لم يلح في قبول اقتراحه.

واستطرد السيد ميجلز قائلاً:

- إذا أمكن وجئت للإقامة هنا تغييراً للجو إذا لم يكن في هذا ما يتعبك، فإنه سرني أن أذكر -وكذلك الأم أيضاً كما أعرف- أنك ستضيء هذا المكان القديم بشيء من الحياة التي اعتادها عندما كان مليئاً، وأن هاتين الطفلتين اللتين ترى صورتهما على الجدار ستنعمان بين الحين والآخر بنظرة حانية. وإنك لتبدو ملائماً لهذا المكان، ولهما يا آرثر بحيث كان لا بد لكل واحد أن يشعر بالسعادة لو أنك كنت -ولكن تعال لنرى- كيف حال الجو للسفر الآن.

وقطع السيد ميجلز حديثه على هذا النحو، ثم تنحنح ونهض ليطل من النافذة.

واتفقت آراؤهم على أن الجو جد ملائم للسفر، وظل كلينام محتفظاً بالحديث في هذا الاتجاه الآمن حتى هدأت النفوس مرة أخرى، فحوله

برفق إلى هنري جوان وإلى سرعة بديهته، ومميزاته الطيبة عندما يعامل برفق. وكذلك أسرف في الحديث عن عاطفة هنري الأكيدة نحو زوجته. ولم يفشل كلينام في محاولة التأثير على السيد ميجلز الذي أبهجته هذه الأنباء إلى حد كبير، والذي أخذ الأم لترى أن رغبته القلبية الوحيدة العزيزة نحو زوج ابنته هي تبادل الصداقة والثقة في مودة وتناسق. وخلال ساعات قليلة، بدأت الأسرة في جمع وتكوين أثاثات الكوخ للمحافظة عليها في أثناء السفر، أو -على حد تعبير السيد ميجلز- بدأ الكوخ يضع شعره ويلفه في الورق. وخلال أيام قليلة كان الوالدان قد ارتحلا. وأودعت السيدة تيكيت كتابها المؤلف بقلم الدكتور بوكان وراء ستارة غرفة الجلوس، وأخذ آرثر في عزلته يدوس على أوراق الشجر الجافة المتساقطة في ممرات الحديقة فيكون لقدميه حفيف موحش.

ولما كان به ميل إلى تلك المنطقة، فإنه لم يكن يدع أسبوعاً يمر دون أن يزورها. وفي ببعض الأحيان كان يمضي إليها بمفرده من يوم السبت حتى يوم الاثنين، وفي أحيان أخرى كان شريكه يصحبه. وأحياناً كان يتمشى لمدة ساعة أو ساعتين حول الكوخ والحديقة ليرى أن كل شيء كما ينبغي ثم يعود إلى لندن مرة أخرى. وفي كل الأحيان، وفي كل الظروف كانت السيدة تيكيت بصف خصلات شعرها السوداء الملتوية، وكتاب الدكتور بوكان، تجلس في نافذة غرفة الجلوس في انتظار عودة الأسرة.

وفي إحدى زياراته استقبلته السيدة تيكيت بهذه الكلمات:

- إن لدي ما أقوله لك يا سيد كلينام، وسوف يدهشك جداً.

ويبدو أن ذلك الشيء المذكور كان مدهشاً حقاً بحيث تقل السيدة تيكيت من نافذتها وجاء بها إلى ممر الحديقة عندما دخلها كلينام من البوابة بعد أن فتحت له.

قال لها:

- ما هذا الشيء يا سيدة تيكيت؟

فردّت مديرة البيت الوفية قائلة، بعد أن أخذته إلى غرفة الجلوس وأغلقت الباب:

- سيدي، لو كان لي أن أرى تلك الطفلة الضالة المضللة يوماً في حياتي، فقد رأيتها بشخصها في شفق الغروب مساء أمس.

- إنك لا تعنين تاي.

فقالت السيدة تيكيت متممة الكلمة بسرعة:

- كورام. بلى. إنني أعنيها.

- أين؟

فردت السيدة تيكيت قائلة:

- سيد كلينام؟ كانت أجفاني ثقيلة بالرغبة في النوم إذ كان انتظاري قد طال أكثر من المعتاد لفنجان الشاي الذي كانت ماري جين تعده عندئذ. ولم أكن نائمة، لا ولا كما يقول بعضهم وسنانة، وإنما كنت أقرب إلى ما قد يقوله شخص على وجه التحديد إني كنت أراقب وعيناي مغمضتان.

وقال كلينام دون أن يسأل عن تفاصيل هذه الحالة العجيبة:

- تماماً. وبعد؟

فاستطردت السيدة تيكيت تقول:

- حسناً يا سيدي. وكنت أفكر في هذا الشيء وفي ذاك، تماماً كما قد تفعل أنت، أو قد يفعل أي شخص آخر.

فقال كلينام:

- تماماً.. وبعد.

فمضت السيدة تيكيت تقول:

- وأنا حين أفكر في هذا الشيء وفي ذاك، لا أكاد أكون بحاجة لأن أخبرك يا سيد كلينام، أن تفكيري يدور حول الأسرة. لأن أفكار الإنسان يا ويح نفسي.

قالتها السيدة تيكيت بلهجة جدلية فلسفية ثم أردفت:

- مهما شردت، فإنها تدور من بعيد أو من قريب حول أهم ما يشغل أذهاننا. نعم إن الأفكار تفعل هذا يا سيدي، ولا يستطيع المرء أن يمنعها.

وعلق آرثر على هذا الاكتشاف بإيماءة من رأسه.

ومضت السيدة تيكيت تقول:

- وسوف أتجرأ وأقول يا سيدي إنك تجد هذا بنفسك، وإننا جميعاً نجد الأمر هكذا. إنها ليست مراكزنا في الحياة هي التي تغيرنا يا سيد كلينام؛ إن الأفكار حرة! وكما كنت أقول، كنت أفكر في هذا الأمر وفي ذاك، وأفكر إلى حد كبير في الأسرة. ولم أكن أفكر في حالة الأسرة في الظروف الحاضرة. وإنما في الأيام الخالية أيضاً. ذلك لأن الإنسان حين يبدأ التفكير في هذا الأمر أو في ذاك، وعلى هذا النحو عندما تزداد ظلمة الجو، فإن ما أقوله، هو أن جميع الأوقات تبدو حاضرة، وأن على المرء أن يخرج من هذه الحالة ويفكر قبل أن يقرر هذا من ذاك...

وأومأ برأسه مرة أخرى وهو يخشى أن يلفظ بكلمة قد تفتح للسيدة تيكيت باباً جديداً تمارس فيه قدرتها على الحديث.

وقالت هي:

- وكانت نتيجة هذا عندما طرفت بعيني أني رأيت شخصها بالذات وهي واقفة تطل من البوابة. وأسبلت أفاني مرة أخرى دون أن أجفل،

لأنها بدت بذاتها وكيانها في نفس الهيئة التي كانت عليها يوم أن كانت متمية إلى هذا الكوخ نفس انتمائي إليه وبلغ من تأثري أني لم أفكر قط في تلك اللحظة في أنها رحلت نهائياً. ولكن عندما طرفت يا سيدي بعيني مرة أخرى ولم أرَ هناك أحداً، غمرني شعور مفاجئ بالخوف، فوثبت من مكاني.

فقال كلينام:

- هل أسرعت إلى الخارج فوراً؟

فقالت السيدة تيكيت مؤيدة:

- أسرعت إلى الخارج بكل ما في قدمي من قوة احتمال، وإذا شئت يا سيد كلينام أن تصدقني، فإني لم أرَ في كل الفضاء المضاء بالنجوم شيئاً، لا لم أرَ شيئاً من أثر تلك الفتاة.

وبعد أن تجاوز كلينام هذه الصورة عن القبة السماوية النجومية الجديدة، سأل السيدة تيكيت عما إذا كانت قد خرجت بنفسها من البوابة، فقالت:

- لقد ذهبت هنا وهناك وفوق وتحت، ولكنني لم أرَ أثراً لها.

وعندئذ سأل السيدة تيكيت عن مدى الوقت الذي تعتقد أنه مرّ بين مرحلتي التطريف بعينيها؛ فقالت السيدة تيكيت رغم حرصها على الدقة في التفاصيل، إنها تعتقد أن الوقت يتراوح بين خمس ثوان وعشر دقائق. وكان يبدو عليها بوضوح أنها تائهة الفكر تماماً، فيما يختص بهذا الجانب من الموضوع، وأنها كما وضح قد تنبهت فجأة من نومها، بحيث مالَ كلينام كثيراً إلى اعتبار ما رأت نوعاً من الحلم. ودون أن يجرح مشاعر السيدة تيكيت بهذا الرأي عن موضوعها هذا الغامض، آثر أن يخرج به من الكوخ وربما كان سيحتفظ به لنفسه فيما بعد لولا أن حدث بعد ذلك بوقت غير بعيد ما جعله يغير فكره.

كان يسير عند هبوط الليل على ضفة نهر ستراند، ووقاد المصابيح يجري أمامه، حيث كانت مصابيح الشارع، تحت لمسات مشعلة، تنبثق بالضوء في الهواء المشبع بالضباب، الواحد بعد الآخر كأنها مجموعة من زهور عباد الشمس تتفتح كلها دفعة واحدة، وفي أثناء سيره، توقف فجأة أمام عقبة على الطوار تسببت من صعود قطار مركبات فحم كان يشق طريقه بعناء من أرصفة ضفة النهر. وكان يسير في طريقه مسرعاً والأفكار تتسابق في ذهنه مما جعله -حين توقف فجأة عن المسير والتفكير- يتلفت حوله من جديد كما يفعل الناس عادة في مثل هذه الظروف.

وفي الحال -رأى أمامه- وكان ثمة عدد قليل من الناس بينه وبين ما رأى، ولكن ما رآه مع ذلك كان جد قريب بحيث لو مدّ ذراعه للمسه بيده - نقول رأى تاتيكورام مع رجل غريب له مظهر ملفت للنظر. وكان رجلاً مختال الهيئة، عالي الأنف، أسود الشارب، ولكن كان مزيف اللون تماماً مثل الأمارات المزيفة المطلة من عينيه. وكان يرتدي رداءً ثقيلاً على طريقة الشخص الأجنبي وكانت ملابسه ومظهره العام يدلان على أنه رجل على سفر، وأنه كما يبدو قد اتصل بالفتاة منذ عهد قريب. وعند إنحنائه عليها -إذ كان أطول منها كثيراً- لكي يسمع ما كانت تقوله له، اختلس نظرة من وراء كتفه في هيئة الشخص المرتاب الذي اعتاد أن يظن أن هناك من يتعقبه. وفي تلك اللحظة رأى كلينام وجهه عندما كانت عيناه تحطان على الناس الموجودين وراءه في حالة تجمع دون أن تستقرا بصفة خاصة على وجه كلينام أو على وجه أحد غيره.

وما كاد يعود برأسه مرة أخرى وهو لا يزال منحنياً ينصت إلى الفتاة عندما أزيلت العقبة من الطريق واندفع الناس يواصلون المسير. ومضى الرجل بجانب الفتاة وهو لا يزال منحنياً عليها ينصت إليها. وتبعهما كلينام وقد قرر أن يمضي في لعب دوره إلى النهاية ليرى إلى أين سيمضيان.

وما كاد يستقر على هذا التصميم -رغم أنه لم يستغرق في ذلك وقتاً طويلاً- حتى وجد نفسه يقترب منهما فجأة كما حدث عند توقفه أمام العقبة في الطريق. وانعطف الاثنان إلى شارع أدلفي، والفتاة كما يبدو تقود الرجل، وسارا قدماً كأنهما يتجهان إلى الشرفة المطلة على النهر.

وكان هناك دائماً -حتى يومنا هذا- مكان ينقطع فيه ضجيج الشارع فجأة، فإذا الأصوات الكثيرة تتلاشى تماماً يبدو الأمر كأنما يضع الإنسان قطناً في أذنيه أو يلف حول رأسه وشاحاً ثقيلاً، وكان التباين في ذلك الحين كبيراً جداً. ذلك لأنه لم يكن هناك يومذاك زوارق بخارية صغيرة في النهر، ولا مراسي مقامة، وإنما درجات خشبية زلقة، ومعابر خشبية، كما لم يكن في الضفة الأخرى سكة حديدية، ولا جسر معلق، ولا سوق سمك قريب، ولا حركة مرور على أقرب جسر حجري، ولا شيء يتحرك على النهر غير صنادل السقاة وجرارات الفحم الطافية. وكان هناك من هذه الأخيرة أرصفة طويلة عريضة سوداء راسية ومثبتة في الطي وكأنها لن تعود إلى الحركة مرة أخرى. وكانت هذه تجعل الشاطئ في الليل كئيباً موحشاً، كما كانت تحفظ ما قد يكون حركة قليلة في الماء بعيداً عند منتصف النهر. وفي أية ساعة بعد الغروب، ولا سيما في الساعة التي يذهب فيها معظم الناس إلى بيوتهم ليأكلوا، إن كان فيها شيئاً يؤكل، والتي يتسلل فيها معظم الذين ليس في بيوتهم ما يؤكل ليسرقوا أو ليتسولوا.. في هذه الساعة يكون المكان مهجوراً أو مطلاً على منظر مهجور.

كان ذلك هو الوقت الذي توقف فيه كلينام عند المنعطف مراقباً الفتاة والرجل الغريب وهما يمضيان إلى الشارع. كان وقع قدمي الرجل على حجارة الشارع ذات الصدى، مسموعاً بحيث لم يرغب كلينام أن يضيف إليه وقع قدميه هو. ولكن عندما مرّا بركن الشارع وأمسيا في ظلام المنعطف المؤدي إلى الشرفة النهرية، انطلق وراءهما في غير حذر متظاهراً بقدر ما يستطيع بأنه واحد من المارة.

ولما تجاوز المنعطف المظلم، رآهما يسيران على الشرفة النهرية نحو شخصية كانت تقترب منهما. ولو أنه رآها بذاتها في تلك الظروف من أضواء المصابيح الخافتة بالضباب وعلى تلك المسافة، لما عرفها من أول نظرة. ولكن طبيعة تلك الشخصية الأنثوية جعلته يعرف فوراً أنها الآنسة ويد.

وتوقف عند المنعطف، وراح يتلفت وراءه على طول الشارع كأنما هو على موعد مع شخص سيلتقي به هناك؛ ولكنه ظل حريصاً على مراقبة الثلاثة، وكانوا عندما التقوا معاً، رفع الرجل قبعته وانحنى تحية للآنسة ويد. وبدا على الفتاة أنها تقول كلمات قليلة كأنما تقدمه أو تذكر السبب في تأخيره، أو في تبكيره، أو ما إلى هذا، ثم تراجعت خطوة أو نحوها إلى الوراء منفردة بنفسها. وعندئذ بدأ الرجل والآنسة ويد يتمشيان جيئةً وذهاباً. وكان يبدو على الرجل مظهر الإنسان المجامل جداً، اللبق في الحديث إلى حد كبير. أما الآنسة ويد فكان يبدو عليها مظهر الترفع الشديد.

وعندما وصلا إلى المنعطف واستدارا، كانت تقول:

– إذا أنا أضررت بنفسي من أجلها يا سيدي. فهذا شأني، وعليك أن تهتم بنفسك فقط ولا تسألني عن شيء.

وأجاب الرجل وهو ينحني بالتحية مرة أخرى:

– بحق السماء يا سيدتي، إنما هذا لاحترامي الشديد بقوة شخصيتك وإعجابي بجمالك.

فقالت:

– إنني لا أريد هذا أو ذاك من أحد، ولا سيما منك أنت دون الناس جميعاً. استمر في تقريرك.

فقال بلهجة تجمع بين الخجل والشهامة:

- هل نلت الصفح.

فقالت:

- إنك مأجور. وهذا كل ما تحتاج إليه.

ولم يكن كلينام يعرف على وجه التأكيد ما إذا كانت الفتاة واقفة على بُعد لأنه لم يكن من المرغوب فيه أن تسمع شيئاً مما يجري، أم أنها كانت تعرف فعلاً كل شيء. واستدار الاثنان، واستدارت الفتاة، وأخذت ترنو إلى النهر وهي تسير ويداها معقودتان أمامها. وكان ذلك ما استطاع أن يراه منها دون أن يكشف عن وجهه. وقد حدث، لحُسْن الحظ، أن كان هناك شخص متسكع في انتظار شخص ما، وكان ذلك الشخص يطل أحياناً من فوق السياج إلى ماء النهر، وأحياناً يأتي إلى المعطف المظلم ويمد البصر إلى الشارع مهيئاً الجو لآرثر لكي يبدو أقل إثارة للارتياب.

وعندما عادت الآنسة ويد والرجل مرة أخرى، كانت تقول له:

- يجب أن تنتظر حتى الغد.

فردّ قائلاً:

- ألف معذرة. إذن ويحي فالأمر غير ملائم الليلة؟

- لا. قلت لك إنه يجب أن أحصل عليه قبل أن أقدمه لك.

وتوقفت في الطريق كأنما تضع حداً للمناقشة. وتوقف الرجل أيضاً طبعاً. وكذلك توقفت الفتاة.

وقال الرجل:

- إن الأمر غير مرضٍ قليلاً.. قليلاً. ولكن، يا للسماء، إن هذا لا يعد شيئاً إزاء خدمة كهذه. وأنا بمحض المصادفة بلا نقود الليلة. إن لي

مولاً كريماً في هذه المدينة، ولكنني لا أريد أن أسحب من بنكه شيئاً حتى يحين الوقت الذي أستطيع أن أسحب مبلغاً كبيراً.

فقالت الآنسة ويد:

– هارييت.. رتبي الأمر مع هذا السيد هنا لكي ترسلي إليه غداً بعض النقود.

وكانت تنطق كلمة «السيد» برنين ينطوي على كل معاني الاحتقار أكثر مما يدل على أي معنى للاحترام، ثم انصرفت ببطء.

وعاد الرجل ينحني برأسه مرة أخرى، وأخذت الفتاة تتحدث إليه وهما يتبعان الآنسة ويد. وغامر كلينام ونظر إلى الفتاة وهما يمران أمامه. وقد استطاع أن يلاحظ أن عيني الفتاة السوداوين الحالكتين تتركزان على الرجل في تأمل شديد، وأنها احتفظت بمسافة بينه وبينها وهما يسيران معاً إلى نهاية الشرفة.

وارتفعت دقدقة أقدام على رصيف الشارع نبّهت كلينام. وقبل أن يعرف ماذا حدث، إذا به يرى الرجل عائداً بمفرده، وتلكأ كلينام في الطريق نحو السياج. ومرّ الرجل بحركة سريعة وطرف ردائه مطروح على كتفه وهو يردد مقطعاً من أغنية فرنسية.

ولم يعد في الشرفة كلها أحد غيره عندئذ. وكان الرجل المتسكع قد تسكع بعيداً عن الأنظار. وكذلك كانت الآنسة ويد وتاتيكورام قد انصرفتا. واستبدت به الرغبة إلى حد كبير ليواصل معرفة ماذا سيتم من أمرهما، وليظفر ببعض المعلومات التي يمكن أن يقدمها إلى صديقه الطيب السيد ميجلز. ومن ثم مضى إلى نهاية طرف الشرفة وهو يتلفت حوله في حذر. وكان محقاً في تصوره أنهما سيعمدان أولاً على أي حال إلى السير في اتجاه مخالف لاتجاه الشخص الذي كان يرافقهما مؤخراً ولكنه

سرعان ما رآهما في مكان قريب من شارع جانبي لأنه لم يكن شارعاً عاماً، وكانتا كما بدا قد أرادتا أن تنتظرا بعض الوقت حتى ينصرف الرجل تماماً عن طريقهما. وسارتا في تمهل وذراع الواحدة في ذراع الأخرى على جانب الشارع ثم عادتا على الجانب الآخر المقابل. حتى إذا رجعتا إلى منعطف الشارع الأول، غيرتا سرعة الخطو لتتلاءم مع سرعة خطو الناس الذين كانوا يسيرون نحو هدف معين أو لقطع مسافة معينة أمامهم، ثم سارتا على هذا النحو قدماً، وكلينام وراءهما غير غافل عنهما.

وعبروا شارع ستران، ومروا في شارع كوفنت جاردن، تحت نوافذ مسكن كلينام القديم الذي جاءت إليه العزيزة دوريت الصغيرة تلك الليلة، ثم انجرفوا نحو الشمال الشرقي حتى اجتازوا تلك البناية الضخمة التي استمدت منها تاتيكورام اسمها ثم انعطفوا إلى شارع «جراي أنرود». وهنا كان كلينام كأنما هو في بيته، أو في رحاب فلورا، هذا فضلاً عن البطريرك وبانكس. ومن ثم ظل مراقباً لهما بسهولة. وكان قد بدأ يتساءل عما قد تكون وجهتهما التالية عندما انطوى هذا التساؤل في تساؤل أكبر حين رآهما تتوقفان عند الباب البطريركي. وبعد طرقة مزدوجة من مطرقة الباب النحاسية اللامعة، أعقبها بصيص ضوء في الطريق من الباب المفتوح، ثم وقفة قصيرة للسؤال والإجابة، ثم إغلاق الباب، ثم إذا هما تختفيان داخله.

وبعد أن تلفت إلى ما يحيط به من معالم حتى يتأكد من أنه ليس في حلم عجيب، وبعد أن تمشى برهة وجيزة أمام الباب، طرق على الباب. ولم تلبث أن فتحته نفس الخادمة المعهودة، ومضت به فوراً وبنشاطها المعهود إلى غرفة جلوس فلورا.

ولم يكن مع فلورا أحد غير عمة السيد «ف» التي كانت تسبح في جو عاطر من الشاي والخبز المحمر وهي قابعة في مقعد مريح بجوار

المصطلى، على مقربة من مرفقها نضد صغير، وعلى حجرها منديل أبيض مبسوط فوقه قطعتان من الخبز المحمر كانتا عندئذ في انتظار الالتهام، ووضعت عمّة السيد «ف» فنجان شايها الكبير وهي تنحني على إبريق الشاي الصاعد منه البخار، وتتأمل في البخار الصاعد مستنشقة إياه كأنها هي ساحرة صينية شريرة تقوم بمراسم سحرية خبيثة، ثم هتفت قائلة:

- اللعنة عليه إذا لم يكن قد عاد مرة أخرى.

وكان من الممكن أن يبدو من هذه العبارة المذكورة أعلاه، أن هذه القريبة العنيدة للمرحوم السيد «ف»، قد قاست الزمن بحساب حواسها المرهفة لا بحساب الساعة، ورأت أن السيد كلينام كان قد انصرف عن البيت منذ فترة وجيزة، هذا بينما كان في الواقع قد غاب عنه ربع عام قبل أن يعود ويبدو أمامها مرة أخرى.

وصاحت فلورا وهي تنهض لتستقبله بالترحاب:

- يا إلهي يا آرثر! أعني يا دويس وكلينام أية مفاجأة مدهشة هذه لأنه رغم أننا لسنا بعيدين عن مؤسسة الآلات والعمل فقد كان يمكن بالتأكيد في بعض الأحيان إن لم يكن في أحيان أخرى حوالي منتصف النهار عندما يكون من الممتع تناول كأس من شراب الشيري وشطيرة متواضع من أي نوع من اللحوم الباردة الموجودة في الكرار ولا شك أن مذاقها، ونحن أصدقاء، سيكون أحسن من مذاق أية شطيرة أخرى تشتريها من أي مكان أو حيثما كان حيث لا بد أن تدفع فيها ربحاً وإلا لما افتتح أصحابها محلاً، ومع ذلك فإننا لم نكن نتوقع أن نراك أيضاً لأن السيد «ف» كان يقول إذا كانت الرؤيا هي الإيمان فإن عدم الرؤيا هي الإيمان أيضاً وإنك عندما لا ترى فربما نؤمن تماماً بأنك منسي، ولا يعني هذا أنني كنت أتوقع يا آرثر دويس كلينام أنك تتذكرني ولماذا أتوقع هذا

وقد ذهبت تلك الأيام ولكن هات هنا فنجان شاي آخر فوراً واطلب منها أن تأتي بكمية جديدة من الخبز المحمر واجلس من فضلك بجانب المدفأة.

وكان آرثر في أشد حالات اللهفة لأن يشرح لها سبب زيارته، ولكنه صدّ عن هذا برهة من الوقت رغماً عنه أمام هذا السيل من الكلمات التي فهم أنها عتاب، وأمام ابتهاجها العميق التي أعربت عنه لرؤيتها له.

وعادت فلورا تقول وهي تقرِّب مقعدها من مقعده.

- والآن أرجوك أن تخبرني عن كل شيء تعرفه عن تلك المخلوقة الصغيرة العزيزة الهادئة وعن كل ما جرى من تغيرات في حظها وقد أصبحت الآن ولا شك من ذوات المركبات والجياد التي لا عدد لها والتي تبدو فاخرة مثيرة عليها شعار الأسرة طبعاً ورسوم الحيوانات الوحشية على قوائمها الخلفية حيث تبدو كأنها نسخ منها بأفواهها المفتوحة من الأذن إلى الأذن يا إلهي الرحيم، وعن صحتها التي لها الاعتبار الأول لأن أية ثروة دونها لا قيمة لها كما كان المرحوم السيد «ف» دائماً يقول عندما كانت تهاجمه نوبات الألم فيقول إن الحياة بستة بنسات في اليوم دون مرض النقرس خير من كل ثروة، ولا يعني هذا أنه كان في مقدوره الحياة بأي شيء كهذا ولعله كان آخر رجل يستطيع هذا أو تلك المخلوقة الصغيرة الغالية رغم أن هذا التعبير أبعد ما يكون مناسباً لها ولكنها كانت دائماً رقيقة وصغيرة وضئيلة باركها الله.

وهنا كانت عمة السيد «ف» قد أكلت قطعة الخبز المحمر إلى أن بقيت كسرة، فقدمتها بوقار إلى فلورا التي أكلتها نيابة عنها كأنما الأمر شيء عادي مألوف. ثم بللت عمة السيد «ف» أصابعها العشرة بشفتيها في تتابع بطيء، ثم مسحتها بنفس الترتيب في المنديل الأبيض، ثم تناولت القطعة الأخرى من الخبز المحمر، وأعملت فيها أسنانها. وفيما هي تقوم

بهذه العملية، أخذت تنظر إلى كلينام في تقطيب شديد اضطره إلى أن يبادلها النظرات رغماً عن ميوله الشخصية.

قال عندما شغلت عنه مرة أخرى تلك السيدة المفزعة:

- إنها في إيطاليا مع جميع أفراد أسرتها؛ يا فلورا.

فقالت فلورا:

- أحقاً هي في إيطاليا؟ مع الكروم وأشجار التين النامية في كل مكان والعقود والقلائد المصنوعة من اللابا أيضاً تلك البلاد الشاعرية بجبالها الملتهبة الجميلة فوق كل تصور، رغم أنه إذا كان صبيان الأرغن يمكنهم أن ينجوا من جوارها دون التهابات الحريق فلا يمكن لأحد أن يعجب لما هم عليه من صبا وهم يحضرون معهم الجرذان البيضاء بدافع من الإنسانية، أهي حقاً هناك في تلك الأرض المباركة دون أن يكون حولها شيء غير الزرقة والجلادين والقديسين المحتضرين رغم أن السيد «ف» نفسه لم يكن مؤمناً؛ لأن اعتراضه كان يقوم على أنه فيما يختص بالأرواح فإن الصور لا يمكن أن تكون هناك حقيقية لعدم وجود وسيط بين كميات الأقمشة القطنية الثمينة التي جيء بها على غير ما ينبغي وكلها منكمشة وبين لا شي، وهو بالتأكيد ما لا يبدو محتملاً وإن كان ذلك على الأرجح نتيجة الفوارق الكبيرة بين الأغنياء والفقراء، هي التي ربما تكون السبب في هذا.

وحاول آرثر أن يقول كلمة واحدة ولكنها اندفعت مرة أخرى تقول:

- والبندقية المباركة أيضاً أعتقد أنك كنت هناك وهي مباركة لبعض الناس، وغير مباركة حسب اختلاف أهوائهم، والمكرونة إذا كانوا يأكلونها حقاً كالحواة ولا أدري لماذا لا يقطعونها قطعاً صغيرة وأنك كنت تعرف يا آرثر.. يا عزيزي دويس وكلينام على الأقل لست عزيزاً وبكل

تأكيد لست دويساً لأني لم أتشرف بعد، ولكن معذرة أرجوك.. كنت تعرف كما أعتقد مانتوا وعلاقتها بما هو صناعة مانتوية لأني لم أستطع قط أن أفهم.

- أعتقد أنه لا علاقة بين الاثنين يا فلورا...

كان آرثر قد بدأ هذا الحديث عندما أسرعت فلورا تقاطعه مرة أخرى قائلة:

- قسماً بشرفك ليس هناك قط أية علاقة أعرفها ولكن الأمر معي كأني أهرب بفكرة وأحتفظ بها لأني لا أملك غيرها، ويا للأسف فقد كان هناك وقت يا عزيزي آرثر ولكن بالتأكيد لست عزيزاً ولست آرثراً، ولكنك تفهمني حين أقول إن فكرة ما لامعة تصبغ أفقاً، ما اسمه؟ إلى آخره إلى آخره، ولكن السحاب يتراكم حوله الآن وقد انتهى كل شيء.

وكانت رغبة آرثر المتزايدة للحديث عن شيء آخر جد مختلف قد غدت عندئذ مرتسمة بوضوح على وجهه، بحيث توقفت فلورا عن الحديث وقد أطلت من عينيها نظرة رقيقة ثم سألت عما يريد أن يقول. فقال:

- إن لدي أشد رغبة يا فلورا لأن أتحدث مع شخص ما موجود الآن في هذا المنزل.. مع السيد كاسبي بلا شك. شخص ما رأيته يدخل هنا. وكان قد ضُلِّل بطريقة مؤسفة فهجر بيت صديق لي.

فقالت فلورا وهي تنهض:

- إن أبي يرى عدداً كبيراً من الناس المختلفي الأطوار بحيث ما كنت لأجرؤ على الذهاب والسؤال عمن تريد لولاك يا آرثر لأنني من أجلك مستعدة للغوص في البحر بجهاز الغوص فكيف لا أهبط إلى غرفة الطعام ثم أعود فوراً إذا سمحت وإذا لم تبالِ كثيراً بعمة السيد «ف» في أثناء غيبتي.

وبهذه الكلمات المصحوبة بنظرة فراق، انصرفت فلورا تاركة كلينام تحت رقابة تلك السيدة الرهيبة المفزعة.

وكان أول تغيير ظهر في تصرفات عمة السيد «ف» بعد أن فرغت من قطعة الخبز المحمر هو صوت شهيق أنفي طويل مرتفع. ولما رأى أن من المستحيل عليه أن يتحدى بنفسه المعنى الذي ينطوي عليه هذا الصوت من دلائل خطيرة، فقد راح ينظر في توسل إلى تلك السيدة الفاخرة العنيدة التي صدر عنها ذلك الصوت، آملاً أن يكتسب مودتها بهذا الاستسلام الوادع.

وقالت عمة السيد «ف» وهي تنتفض من فرط الغضب.

- لا تلقِ بنظراتك إليّ هكذا.. خذ هذه.

وكانت «هذه» هي الكسرة المتبقية من قطعة الخبز المحمر. وتقبل كليتام هذه النفحة بنظرة عرفان وشكر، وأمسكها بيده في إحساس عميق من الارتباك الذي لم يخفف منه صوت عمة السيد «ف» الذي ارتفعت به إلى صيحة بالغة القوة وهي تهتف قائلة:

- إن لهذا الشاب معدة متكبرة، إنه أشد كبرياء من أن يأكلها.

ثم راحت، بعد أن نهضت من مقعدها، تهز قبضتها القوية على مقربة من أنفه حتى كادت أن تلمسها. ولولا وصول فلورا في الوقت المناسب لتجده في هذا الموقف العصيب، لكان من المحتمل أن تحدث نتائج أخرى.

وأعادت فلورا السيدة إلى مقعدها دون أن يبدو عليها أقل أمارات للدهشة أو الارتباك، بل على العكس راحت تهنئ السيدة العجوز بطريقة كلها الرضا على «حيويتها في تلك الليلة».

وقالت قريبة السيد «ف» بعد أن أُعيدت إلى مقعدها:

- إن له معدة متكبرة. أعطيه وجبة من التبن.

فردت فلورا قائلة:

- أوه، لا أظن أنه سيحب هذا يا عمتي.

فقالت عمة السيد «ف» وهي تحملق من وراء فلورا إلى عدوِّها:

- قلت لك أعطيه وجبة من التبن. إنه الشيء الوحيد للمعدة المتكبرة. دعيه يأكل كل قشة منه. اللعنة عليه، أعطيه وجبة من التبن.

واستطاعت فلورا، وهي تتظاهر بمعاونته على تناول هذه الوجبة المنعشة أن تخرج به إلى السلّم. وحتى عندئذ ظلت عمة السيد «ف» تؤكد بكل مرارة أنه «شاب» وأن له «معدة متكبرة» وتلح المرة بعد الأخرى على وجوب تناوله هذا الطعام الممتاز المصنوع من أجله الذي وصفته به بكل إخلاص.

وهمست فلورا قائلة:

- إن هذا السلّم متعب جداً كثير المنعطفات، فهل لديك مانع في أن تضع ذراعك حولي تحت الوشاح؟

وهبط كلينام السلم في الوضع المطلوب وهو يشعر أنه يهوي بطريقة على جانب كبير من الغرابة. ولم يتحرر من حمولته اللطيفة إلا عند باب قاعة الطعام. بل لقد وجد في الواقع أن التخلص منها حتى هناك لم يكن سهلاً بأي حال وهي متشبثة بعناقه هامسة:

- آرثر، أرجوك بحق السماء ألا تذكر شيئاً من هذا لأبي!

وصحبت آرثر إلى الغرفة حيث كان البطريرك جالساً بمفرده وحذاؤه المدبب على سياج المدفأة يدير إبهاميه وكأنما لم يكن قد انتقل من

مكانه لحظة. وكانت صورته، وهو في العاشرة من عمره، تطل عليه من إطارها المعلق فوقه بهدوء لا يقل عن هدوئه. وكان كلا الرأسين الناعمين يتألقان بنفس الأريحية والأبهة.

- سيد كلينام، إنني سعيد برؤيتك. وأرجو أن تكون بخير يا سيدي.. أرجو أن تكون بخير. أرجوك أن تجلس. أرجوك أن تجلس.

فقال كلينام وهو يفعل هذا أو يتلفت حوله بوجه ينم عن الاستياء الواضح:

- كنت أرجو يا سيدي ألا أجدك وحيداً.

فقال البطريرك بعذوبة:

- آه، حقاً؟ آه، حقاً؟

فصاحت فلورا:

- لقد قلت لك هذا كما تعلم يا أبي.

فردّ البطريرك:

- آه.. بالتأكيد، نعم، تماماً، آه.. بالتأكيد.

فقال كلينام بقلق:

- هل انصرفت الآنسة ويد؟

فردّ السيد كاسبي قائلاً:

- الآنسة؟ أتسميها ويد؟ إنه مناسب جداً.

فقال آرثر بسرعة:

- وماذا تسميها أنت؟

فقال السيد كاسبي:

- ويد. أوه، ويد دائماً.

وبعد أن تطلع إلى الرجل ذي الهيئة الكريمة وإلى شعره الأبيض الحريري برهة كان السيد كاسبي خلالها يدير إبهاميه ويبتسم لنيران المدفأة وكأنما هو يريدها، بدافع من الإحسان، أن تحرقه لكي يمكنه أن يغفر لها، قال آرثر:

- أرجو المعذرة يا سيد كاسبي...

فقال البطريرك:

- لا داعي.. لا داعي.. لا داعي.

- ولكن كان مع الآنسة ويد فتاة.. فتاة شبّت في بيت أصدقاء لي، ونحن نرى أن تأثيرها عليها ليس طيباً، وإنه ليسرني أن تتاح لي الفرصة لكي أؤكد لهذه الفتاة أنها لم تفقد بعد اهتمام أولئك الذين كانت تعيش في رعايتهم.

فردّ البطريرك قائلاً:

- حقاً، حقاً!

- فهل يمكن من ثَمَّ أن تتكرم وتذكر لي عنوان الآنسة ويد؟

فقال البطريرك:

- ويحي، ويحي، ويحي! لسوء الحظ، فلو أنك فقط أرسلت إليّ في أثناء وجودهما هنا! لقد لاحظت تلك الفتاة الشابة يا سيد كلينام. لاحظت أنها فتاة شابة حلوة متوردة اللون يا سيد كلينام بشعر أسود وعينين حالكتي السواد. هذا إذا لم أكن مخطئاً، إذا لم أكن مخطئاً.

فأيّد آرثر هذا وقال مرة أخرى بتعبير جديد:

– لو أنك تكرمت وذكرت لي العنوان..

فعاد البطريرك يقول بصوت نادم لطيف:

– ويحي، ويحي، ويحي! يا للأسف، يا للأسف! ليس لدي عنوانها يا سيدي، إن الآنسة ويد تعيش أكثر حياتها في الخارج يا سيد كلينام، إنها تفعل هذا منذ سنوات. وإنها –إذا جاز لي أن أقول هذا عن بشر مثلي وسيدة– متقلبة ولا تستقر على وضع بأي حال يا سيد كلينام. وإني قد لا أراها مرة أخرى لمدة طويلة، طويلة، ومن المحتمل ألا أراها قط مرة أخرى. فيا للأسف، يا للأسف!

وهنا رأى كلينام أن لا أمل له قط في الحصول على أية مساعدة من البطريرك، إلا أنه مع هذا قال:

– سيد كاسبي، هل يمكنك إرضاءً لأصدقائي الذين ذكرتهم، وتحت أية ظروف سرية ترى من واجبك اعتبارها أن تقدم لي أية معلومات تتعلق بالآنسة ويد؟ لقد رأيتها في الخارج، ورأيتها هنا، ولكنني لا أعرف عنها شيئاً. فهل يمكنك أن تذكر لي أية معلومات عنها من أي نوع.

فردّ السيد كاسبي قائلاً وهو يهز رأسه الكبير بكل أريحية:

– لا.. لا إطلاقاً، ويحي، ويحي، ويحي، ما أشد أسفي حقاً لأنها لم تمكث فترة أطول، ولكنك تأخرت! وباعتباري وكيل أعمال موثوق به، فقد أعطيت هذه السيدة مبالغ من المال بين الحين والآخر، ولكن ما قيمة أن تعرف هذا يا سيدي؟

فقال كلينام:

– لا شيء إطلاقاً في الحقيقة.

فوافق البطريرك على هذا بوجه مشرق وهو يبتسم بأريحيته إلى نيران المدفأة.

- في الحقيقة لا شيء إطلاقاً يا سيدي. لقد ذكرت الرد الصحيح يا سيد كلينام. لا شيء إطلاقاً في الحقيقة يا سيدي.

وكانت إدارته لإبهاميه الواحد بعد الآخر وهو جالس في مكانه دليلاً أكيداً رأى كلينام من مضمونه الطريقة التي يمكن للسيد كاسبي أن يدير بها أي موضوع يطول الحديث فيه، دون أن يجدد فيه شيئاً قط أو يسمح بالاستطراد فيه إلى أدنى تقدم، مما جعله يؤمن تماماً أن أي مجهود يبذله معه في هذا الشأن سيكون عبثاً. إنه قد يستغرق أي وقت ليفكر في هذا، لأن السيد كاسبي المعتاد دائماً على تحقيق ما يريد عن طريق ترك كل شيء لمظاهر ثباته ورزانته وبياض شعره، كان يعرف أن قوته تكمن في الصمت. وهكذا ظل السيد كاسبي جالساً، يدير إبهاميه، ويجعل رأسه المصقول وجبينه يبدوان أكثر أريحية في المظهر مع كل دورة.

وبمثول هذا المنظر أمامه، كان آرثر قد نهض لينصرف حين سمع من مكان ما بالداخل حيث اعتاد أن يقيم بانكس عندما لا يكون هنا أو هناك، صوت نفخه ونخره وهو في الطريق إليهما. وخطر لآرثر أن الصوت كان قد بدأ من بعيد، وكأنما أراد بانكس أن يؤكد لأي شخص ربما خامره الشك في الأمر، أنه آتٍ من مكان بعيد لم يكن يسترق منه السمع.

وتصافح هو والسيد بانكس الذي أحضر معه خطاباً أو اثنين إلى مخدومه ليوقعهما، وكان السيد بانكس، وهو يصافح آرثر، قد حكّ حاجبه فقط بسبابة يده اليسرى، ولم ينخر إلا مرة واحدة. ولكن كلينام الذي كان قد فهمه الآن أكثر من قبل، أدرك أنه فرغ تقريباً من أعماله في ذلك المساء، وأنه يريد أن يقول له كلمة في الخارج. ومن ثم فعندما حيا السيد كاسبي

للانصراف -وكانت هذه العملية أشد تعقيداً- مع فلورا، خرج يسير متمهلاً في مكان قريب من خط سير بانكس.

ولم ينتظر غير فترة وجيزة حتى أقبل بانكس الذي صافحه مرة أخرى وبنخرة أخرى معبرة وهو يرفع قبعته ليطلق العنان لشعره ليقف منتصباً، ورأى آرثر أنه فهم رغبته في أن يتحدث معه على اعتبار أنه قد عرف تماماً ما حدث. ومن ثم قال له بلا مقدمات:

- أظن أنهما انصرفتا فعلاً يا بانكس؟

فأجاب بانكس قائلاً:

- أجل.

- هل يعرف أين يمكن أن نعثر على هذه السيدة؟

- لا أدري تماماً، ولكنني أظن هذا.

إن السيد بانكس لا يعرف؟ لا، لا يعرف السيد بانكس؟ ألا يعرف السيد بانكس أي شيء عنها؟

وردّ ذلك المحترم قائلاً:

- أظن أنني أعرف عنها بقدر ما تعرف هي عن نفسها. إنها ابنة شخص ما.. أي شخص.. ولا شخص. ضعها في غرفة هنا في لندن مع ستة أشخاص كل منهم يصلح أن يكون أباً لها أو أماً، وعندئذ قد يكون أبواها بينهم حقاً دون أن تدري. إنهما قد يكونان في أي بيت تراه، أو في أي فناء كنيسة تمر به، أو أي شخصين تلتقي بهما في الطريق، إنها قد تتعرف بهما مصادفة في أي وقت دون أن تدري قط. إنها لا تعرف شيئاً عنهما. وهي لا تعرف شيئاً عن أي قريب لها أياً كان، إنها لم تعرف قط، ولن تعرف أبداً.

- ربما كان في مقدور السيد كاسبي أن يساعدها في هذا الأمر؟

فقال بانكس:

- ربما. وإني أظن هذا وإن كنت لا أدري. لقد كان لديه منذ مدة طويلة مبلغ من المال، ليس كبيراً جداً كما علمت، عهد به إليه ليقدم منه لها كلما اشتدت الحاجة بها. وكانت في بعض الأحيان تأبى -كبرياءً- أن تقبل شيئاً منه لمدة طويلة، وفي أحيان أخرى كانت تبلغ من الفاقة ما يرغمها على قبوله. إنها تتلوى تحت وطأة هذا اللون من الحياة. وما أظن أني سأرى قط امرأة أكثر منها تأججاً بالغضب والاهتياج والاستهتار وحب الانتقام. لقد جاءت الليلة من أجل المال، وقالت إنها تريده لسبب غريب.

فقال كلينام مفكراً:

- أظن أنني أعرف بالصدفة هذا السبب، أعني أعرف في أي جيب سوف يدخل هذا المال.

فقال بانكس:

- أحقاً؟ إنه لا شك اتفاق، وإني أنصح الطرف الآخر بالعمل به. فأنا لا أستطيع أن آمن جانب تلك المرأة -بجمالها وشبابها- إذا أسأت إليها. لا، حتى ولو مقابل ضعف ثروة مخدومي إلا إذا...

وأردف بانكس ليختتم الحديث:

- إلا إذا كنت أعاني من مرض مزمن وأريد التخلص من الحياة.

وراح آرثر بسرعة يستعيد في ذاكرته ملاحظاته عنها، ثم وجد في النهاية أنه يتفق تماماً في الرأي مع وجهة نظر بانكس.

واستطرد بانكس يقول:

والعجيب في الموضوع أنها لم تحاول قط أن تمسك بخناق مخدومي باعتباره الشخص الوحيد الذي تعرف أنه يعرف قصتها. وبهذه المناسبة يمكنني القول، بيني وبينك، إني أحياناً أشعر بالرغبة في أن أفعل به هذا.

فجفل آرثر وقال:

- ويحك يا بانكس! لا تقل هذا.

فقال بانكس وهو يمد أصابع يده ذات الأظافر المتآكلة القذرة إلى ذراع آرثر:

- أفهمت؟ إني لا أعني قطع رقبته. ولكن قسماً بكل عزيز إذا تمادى في غيِّه فسوف أحلق له شعره.

وبعد أن كشف بانكس عن نفسه في هذا الضوء الجديد من التهديد الرهيب، انطلق في سبيله بوجه ينم عن الرصانة بعد أن نخر بأنفه بضع مرات.

* * *

أحلام السيدة فلنتونش تتكاثر

كانت غرف الانتظار الظليلة في إدارة الشؤون العامة، حيث كان آرثر يقضي أوقات طويلة في صحبة عدد من الجناة[1] المختلفين الذي كانوا في انتظار الحكم لطحنهم أحياء تحت عجلة الإدارة، مجالاً لإتاحة الوقت الكافي له في غضون ثلاثة أيام أو أربعة متوالية للقضاء على موضوع لمحته الأخيرة للآنسة ويد وتاتيكورام. إنه لم يستطع أن يفعل في هذا الشأن كثيراً أو قليلاً، ومن ثم اضطر أن يدع الأمر على هذا الوضع غير المرضي.

وكان خلال هذه الفترة لم يذهب إلى بيت أمه الكئيب. ولكن جاءت عندئذ إحدى الأمسيات التي اعتاد أن يزورها فيها، فغادر مسكنه وشريكه في نحو التاسعة مساءً، وسار ببطء في اتجاه ذلك البيت الكئيب الذي عاش فيه صباه.

كان ذلك البيت يثير في خياله دائماً الشعور بأنه بغيض، ومليء بالأسرار، ومقبض. وكان هذا الشعور يجعله يحس نحو جميع البيوت المجاورة له بنفس هذا الإحساس المظلم المقبض. وفيما هو يمضي في تلك الليلة الموحشة، كان يخيل إليه أن الشوارع الخافتة الضوء التي يخترقها

(1) يقصد أصحاب المصالح - المترجم.

ليست إلا مثابات لأسرار مزعجة. مكاتب المحاسبة المهجورة بأسرارها من دفاتر الحسابات والأوراق المودعة في الخزانات والخزائن، والمصارف المالية بأسرارها من الغرف الحصينة والأقبية، والمفاتيح الموضوعة في جيوب سرية جداً والتي يعرف أماكنها السرية عدد قليل جداً من الناس. وأسرار كل أنواع الطغاة الساحقين في عملية الحياة الكبرى، بينهم ولا شك الناهبون والمزيفون والغادرون من مختلف الأنواع، وهم الذين قد ينكشف أمرهم للعيان في أي يوم. وكان في مقدوره أن يتصور هذا كله، في خفاياه، وهو يحمل الهواء بالشر. وطفقت الظلال تتكاثف وتتكاثف وهو يقترب من غايته مفكراً في أسرار غياهب الكنائس الموحشة التي كان الناس قد حشدوا فيها، وأودعوا الأغلال الحديدية، قد اجتمعت أيضاً دون أن تكف بعد عن الأذى، ثم بعد ذلك في أسرار النهر وهو يدفع تياراته الدافئة بين ضفتين من براري الأسرار الجهمة، ممتداً في تكاثفه وغزارته أميالاً كثيرة ومتجاوزاً الهواء الطلق في الريف الطلق الذي تنطلق في سماء الرياح وترفرف فيه أجنحة الطيور.

وكانت الظلال لا تزال تتكاثف وهو يقترب من البيت، وراحت الغرفة الكئيبة التي عاش فيها والده يوماً تتبدى له وتفزع خياله ذلك الوجه المبتهل الذي رآه بنفسه وهو يختفي معه عندما لم يكن هناك مراقب آخر بجوار السرير. كان هواؤها المكتوم سراً، كانت الكآبة والجهامة والغبار في أنحاء المسكن كله أسراراً. وفي أعماق هذا كله كانت أمه تقيم بوجهها الجامد وإرادتها الحديدية قابضة بحزم على أسرار حياتها وحياة أبيه، معرضة بعناد نفسها لمواجهة آخر سر ضخم من أسرار الحياة.

وكان قد انعطف إلى الشارع الضيق المنحدر الذي يقع فيه باب الفناء أو الحوش عندما انحرفت أقدام أخرى وراءه مباشرة، وكان القادم قريباً منه جداً بحيث وجد نفسه يرتطم بالسياج، ذلك أنه فيما كان ذهنه مشغولاً بهذه الأفكار، وقع الاصطدام فجأة دون أن يتمكن من تجنبه أو

يتأهب له، وهكذا أتيحت الفرصة للرجل الآخر لأن يسبقه بالقول في صوت مهتاج:

- معذرة، ليست غلطتي.

ثم انطلق في سبيله قبل أن تمر لحظة يستطيع فيها آرثر أن يتبين على وجه التحديد ما جرى.

ولما انقضت هذه اللحظة كالبرق، تبين أن ذلك الرجل السائر أمامه هو نفس الرجل الذي كان يشغل فكره في غضون الأيام القليلة السابقة. إن لم يكن مجرد تشابه عارض أثاره في ذهنه كثرة التفكير في الرجل، وإنما كان الرجل نفسه... الرجل الذي تعقبه كلينام وهو سائر مع الفتاة، والذي سمعه يتحدث مع الآنسة ويد.

وكان الشارع شديد الانحدار ومتعرجاً أيضاً، وقد انطلق فيه الرجل -الذي لم يكن سكران وإن بدا عليه كأنه منتشٍ بخمر قوية- في سرعة جعلت كلينام يفقده وهو يرنو إليه. ودون أن يتعمد على وجه التحديد متابعته، وإنما اندفع بحافز غريزي ليبقى جرم الرجل في نطاق نظره فترة أطول، سارع كلينام من خطوه ليجتاز المنعطف الذي اختفى الرجل وراءه عن الأنظار. ولكنه حين استدار فيه، لم يجد له أثراً.

وراح وهو واقف الآن بالقرب من بوابة بيت أمه، يمد البصر على طول الشارع. إلا أنه كان خالياً. ولم يكن فيه شيء مظلم بارز يكفي لحجب الرجل، كما أنه لم يكن ثمة منعطف قريب يمكن أن يكون قد اختفى فيه، لا ولا أي صوت مسموع لباب فُتِح ثم أُغلِق. ومع ذلك فقد انتهى رأيه إلى أن الرجل كان ولا بد، في يده مفتاح، وأنه لا بد فتح به باب بيت من البيوت الكثيرة في الشارع، ودخل فيه.

واستدار داخلاً إلى فناء البيت وهو يتعمق التفكير في هذه المصادفة العجيبة واللمحة الغريبة. وفيما هو يتطلع، بحكم العادة، إلى الضوء الخافت

المنساب من نوافذ غرفة أمه، وقعت عيناه على جرم الرجل الذي كان قد فقده منذ لحظة، واقفاً عند السياج الحديدي المحيط بالفناء يتطلع إلى تلك النوافذ وهو يضحك لنفسه. وكانت بعض القطط الضالة التي اعتادت أن تجوس خلال هذه المنطقة ليلاً، والتي فزعت منه، قد بدا أنها توقفت حين توقف، وأخذت تحملق فيه من فوق الأسوار والطنفات وغيرها من الأماكن الآمنة بعيون لا تختلف كثيراً عن عينيه. وكان قد توقف لحظة فقط ليمتع نفسه على هذا النحو، لأنه لم يلبث أن ألقى بطرف عن كتفه وهو يمضي صاعداً الدرجات المتعرجة المتآكلة ويدق على الباب دقة عالية.

ولم تكن دهشة كلينام بالغة بحيث يعجز عن مواجهة الموقف في تصميم لا تردد فيه، وإنما مضى إلى الباب أيضاً، وكذلك صعد درجات السلم، وتطلع صاحبه إليه في زهو وراح يغني لنفسه:

إن من يمر على هذا الطريق في ساحة متأخرة.
ومعه القيثارة!
إن من يمر على هذا الطريق في ساعة متأخرة.
دائماً طروباً..

وبعد ذلك راح يدق على الباب مرة أخرى:

وقال آرثر:

– يبدو أنك متعجل يا سيدي!

فردّ الغريب قائلاً:

– أجل يا سيدي، ويح نفسي يا سيدي! إنني متعجل بطبيعتي!

وجعل صوت السيدة فلنتونش وهي تتحسس سلسلة الباب من الداخل في حذر قبل أن تفتحه، الرجلين ينظران نحو هذا الاتجاه.

وفتحت آفري الباب قليلاً جداً، والشمعة موقدة في يدها، وسألت: من ذا الذي دقّ على الباب هكذا وفي مثل هذه الساعة من الليل؟!

ولما رأت آرثر أولاً، قالت في دهشة:

- أوه، آرثر! إنك لست آرثر بالتأكيد. لا...

ثم صاحت قائلة حين رأت الرجل الآخر:

- ليحفظنا الله! إنه مرة أخرى!

فهتف الرجل الغريب قائلاً:

- هذا صحيح: إنه هو مرة أخرى يا عزيزتي السيدة فلنتونش. افتحي الباب ودعيني آخذ صديقي العزيز أرميا في أحضاني. افتحي الباب ودعيني أُسرِع إلى معانقة عزيزي فلنتونش.

فقالت آفري:

- إنه ليس هنا.

فصاح الغريب قائلاً:

- ابحثي عنه. ابحثي عن عزيزي فلنتونش! قولي له إنه صديقه القديم بلاندواز الذي جاء عقب وصوله إلى إنكلترا. قولي له إنه ابنه الصغير الذي حضر، ابنه المدلل، محبوبه! افتحي الباب أيتها الجميلة السيدة فلنتونش ودعيني في الوقت المناسب أصعد لأقدم تحياتي -تحيات بلاندواز- إلى سيدتي. ألا تزال سيدتي تعيش؟ حسناً. افتحي الباب.

ولشد ما ازدادت دهشة آرثر حين رأى آفري تمد عينيها المحملقتين إليه هو، كأنها تحذره من أن هذا السيد ليس بالرجل الذي يجوز أن يتدخل في شؤونه، ثم أزاحت سلسلة الباب، وفتحته ودخل الغريب إلى الصالة دون أية رسميات تاركاً آرثر يتبعه.

وصاح الغريب وهو يقرقع بحذائه على الأرضية الحجرية.

- أسرعي إذن. نفذي ما أريد إذن! هات لي عزيزي فلتونش. أعلني قدومي لسيدتي.

وهنا قال آرثر بصوت مرتفع حازم وهو يتأمله في استنكار من رأسه إلى قدمه.

- أرجوك أن تخبريني يا آفري، من يكون هذا السيد؟

فقال الغريب مردداً القول بصوته:

- أرجوك أن تخبريني يا آفري، من.. ها ها ها.. يكون هذا السيد؟

وعندئذ ارتفع صوت السيدة كلينام من غرفتها بالطابق الأعلى تقول:

- آفري.. دعي الاثنين يصعدان، آرثر، تعال إليّ فوراً.

فهتف بلاندواز وهو يرفع قبعته ويضم قدميه بعد اتساع ما بينهما ويقوم بانحناءة احترام رائعة:

- آرثر؟ ابن سيدتي؟ إنني تحت أمر ابن سيدتي تماماً!

فأرسل آرثر إليه نظرة لا تقل استنكاراً عن الأولى، ثم استدار على عقبيه دون أن يرد عليه التحية، وصعد إلى الدور العلوي. وتبعه الغريب إليه. وتناولت آفري المفتاح من ظاهر الباب، ثم انفلتت خارج لتبحث عن زوجها.

لو أن شخصاً ما غريباً كان على علم بنظر السيد بلاندواز السابق في تلك الغرفة، للاحظ فرقاً في استقبال السيدة كلينام له هذه المرة. ولكن وجهها لم يكن بالوجه الذي يكشف عن هذا، وتصرفاتها كانت مكبوتة، وصوتها كان كذلك تحت سيطرتها وإنما كان الفارق في الاستقبال مركّزاً

في ثبات نظراتها على وجهه منذ لحظة دخوله الغرفة، وانحنائها إلى الأمام مرتين أو ثلاثاً، من فوق مقعدها الذي كانت جالسة منتصبة عليه ويداها جامدتان على مسنديه، وذلك عندما كان يصيح بالتحية والحديث، وكأنما كانت تؤكد له أن صوته سيُسمع من أي مكان يكون فيه. ولم يغفل آرثر عن ملاحظة هذا كله رغم أنه لم يكن في مقدوره أن يعرف الفرق بين ما حدث في هذه المناسبة، وما حدث في المناسبة السابقة.

وقال بلاندواز:

– سيدتي، أرجو أن تشرفيني وتقدميني إلى السيد ابنك. إنه يلوح لي يا سيدتي أن السيد ابنك يبدو متذمراً مني. إنه غير مهذب.

فتدخل آرثر في الحديث بحدة قائلاً:

– سيدي، أياً ما تكون، وكيفما جئت هنا، فلو أني كنت رب هذا البيت لألقيت بك خارجه فوراً.

فقالت أمه دون أن تنظر إليه:

– ولكنك لست رب البيت، لسوء حظ موقفك هذا الذي لا مبرر له، فأنت لست رباً لهذا البيت يا آرثر.

– إنني لا أدعي هذا يا أماه، وإذا كنت أعترض على أسلوب هذا الشخص في تصرفاته هنا، وأنا أعترض بشدة بحيث لو كانت لي السلطة هنا لما احتملت بقاءه لحظة، فإنما أعترض من أجلك.

فردت قائلة:

– في حالة ما يكون الاعتراض ضرورياً ففي مقدوري أن أعترض لنفسي، وطبعاً لا بد أفعل.

وكان الشخص، موضوع خلافهما، قد جلس وراح يضحك عالياً، ويضرب ساقيه بيديه.

وقالت السيدة كلينام وهي مركزة نظراتها على بلاندواز رغم توجيهها بالحديث إلى آرثر:

- ليس من حقك أن تتعصب في الحديث ضد أي سيد -لا سيما إذا كان هذا السيد أجنبياً عن البلاد- لأنه لا يتفق مع مستوياتك الأخلاقية أو لأنه لا يتكيف في سلوكه مع قواعدك. فإن المحتمل أن هذا السيد قد يعترض عليك لنفس السبب.

فقال آرثر:

- أرجو هذا.

فاستطردت السيدة كلينام تقول:

- لقد أحضر هذا السيد، في مناسبة سابقة، خطاب توصية لنا من عملاء على جانب كبير من التقدير واحترام المسؤولية. وأنا لا أعرف تماماً الغرض من حضور هذا السيد إلينا في الوقت الحاضر. إنني لا أعرف هذا الغرض إطلاقاً، ولا يمكن أن يفترض أحد أن تكون لدي أي فكرة عن طبيعة هذا الغرض.

وازدادت جهامة وجهها الطبيعية وهي تؤكد هذه الكلمات ببطء وتركيز قائلة:

- ولكن عندما يشرع السيد في شرح غرضه، كما سأرجوه أن يتكرم ويفعل هذا لي ولفلنتونش، عندما يعود فلنتونش، فسوف يثبت بلا شك أنه متعلق على نحو ما بأعمالنا العادية التي سيكون من سرورنا ومن واجبنا أن نقوم به. ولا يمكن أن يكون الأمر شيئاً آخر.

فقال رجل الأعمال:

- سوف نرى يا سيدتي.

فوافقت السيدة قائلة:

- نعم سنرى. إن السيد على معرفة بفلنتونش، وعندما كان السيد هنا في لندن قبل ذلك، أذكر أني سمعت أنه كان مع فلنتونش على علاقة أخوية طيبة. إنني لست في الوضع الذي يتيح لي معرفة الكثير مما يجري خارج هذه الغرفة، وإن وسوسة الأشياء الدنيوية الصغيرة خارجها لا تهمني كثيراً. إلا أني أذكر أني سمعت هذا.

فضحك الرجل مرة أخرى، وراح يصفر لحن الأغنية التي كان يرددها عند الباب بعد أن قال:

- تماماً يا سيدتي، هذا صحيح.

فقالت الأم:

- ولهذا يا آرثر، فإن السيد قد جاء باعتباره أحد المعارف وليس كغريب، وإنه لما يدعو إلى الأسف الشديد أن تقف منه هذا الموقف الذي ليس له ما يبرره. إنني آسفة لهذا. وأقول ذلك للسيد. وأنت لن تقول هذا كما أعرف. ومن ثم فإني أقوله عن نفسي وعن السيد فلنتونش ما دامت مهمة هذا السيد تقع معنا.

وهنا سمع مفتاح الباب في الدور الأسفل وهو يولج في القفل، ثم صوت الباب وهو يُفتَح ويُغلَق. ولم يلبث السيد فلنتونش أن ظهر بعد برهة. وعند دخوله نهض الزائر عن مقعده ضاحكاً بصوت مرتفع ثم ضمّه إلى صدره في عناق حار.

وقال:

- كيف حالك يا صديقي الحميم. كيف حال الدنيا معك يا عزيزي فلنتونش. كلون الورد؟ هذا أحسن، هذا أحسن! آه.. ولكنك تبدو جذاباً، آه.. ولكنك تبدو شاباً ناضراً كأزهار الربيع! آه.. يا ولدي الصغير الطيب، يا ولدي الباسل، يا ولدي الباسل.

وفيما كان يهيل هذا المديح على السيد فلنتونش، كان يديره وهو يضع يديه على كتفيه حتى أصبحت ترنحات هذا السيد الذي غدا تحت هذه الظروف أكثر جفافاً والتواءً مما كان من قبل مثل ترنحات «النحلة» عندما توشك على الانتهاء.

وعاد الرجل يقول:

- لقد هجس في خاطري، في المرة السابقة، أنه ينبغي أن تكون علاقتنا أكثر توطداً وائتلافاً. ألم يهجس لك خاطرك بهذا يا فلنتونش؛ ألم يخامرك هذا الهاجس بعد؟

فردّ السيد فلنتونش قائلاً:

- لا، لا يا سيدي، ولا غرابة في هذا. ألا يحسن أن تجلس؟ أظن أنك كنت تطلب المزيد من هذه الخمر!

فصاح الزائر قائلاً:

- آه أيها المهرج الصغير! أيها الخنزير الصغير، ها، ها، ها...

ثم دفع بالسيد فلنتونش بعيداً كأنما فرغ من دعابته معه، ثم عاد وجلس.

وانعقد لسان آرثر لفرط ما شعر به من عجب ودهشة واستنكار وعار وهو يرى هذا كله. أما السيد فلنتونش الذي كان قد دار إلى الوراء دورتين أو ثلاثاً بسبب الدفعة الأخيرة، فقد استرد توازنه ووقف بوجهه

الذي لم تتغير قط أمارات جموده إلا فيما يتعلق بلهث أنفاسه، وراح يرمق آرثر بحدة. إن مظهر السيد فلنتونش الخارجي لم يتغير مقدار ذرة قط من حيث الجمود والتحفظ عما اعتاد أن يكون في الأوقات العادية. وكان التغير الوحيد الملحوظ فيه هو أن عقدة ربطة عنقه التي كانت تبدو عادة تحت أذنه، شقت طريقها إلى ما وراء رأسه حيث صنعت ما يشبه أنشوطة الزينة التي لا تختلف كثيراً عن عقصة شعر مستعار مما أضفى عليه مظهر التشريفة.

وكما أن السيدة كلينام لم تحول قط عينيها عن بلاندواز -وقد كان لها عليه بعض التأثير كما هو شأن النظرة الثابتة على نوع دنيء من الكلاب- كذلك لم تتحول نظرات أرميا عن آرثر. وكأنما كان ثمة اتفاق ضمني بينهما على توزيع الاختصاصات. ومن ثم فقد وقف أرميا -في فترة السكون التالية- يحك ذقنه ويحملق في وجه آرثر وكأنما يحاول أن يستخرج أفكاره من رأسه بأداة.

وبعد قليل، نهض الزائر وكأنما شعر بثقل الصمت عليه، ووضع ظهره في شيء من الضيق إلى نيران المدفأة المقدسة التي ظلت مشتعلة عدداً كبيراً من السنين. وهنا قالت السيدة كلينام وهي تحرك يدها لأول مرة، تحركها ببطء شديد في حركة تنم عن الأمر بالانصراف:

- أرجوك أن تتركنا لأعمالنا يا آرثر.

- أماه، إنني أفعل هذا بغير رضا.

فردّت قائلة:

- دعك من هذا أو من غيره. أرجوك أن تتركنا. ويمكنك أن تعود في أي وقت حينما قد يتراءى لك أن من الواجب أن تدفن نفسك هنا نصف ساعة. طابت ليلتك.

ومدت أصابعها المشوهة لكي يتمكن من لمسها بشفتيه حسب التقليد المعتاد، ثم وقف منحنياً على كرسيها المتحرك ليلمس وجهها بشفتيه. وبدا

له عندئذ أن خدها متوتر البشرة أكثر من المعتاد، وأنه أشد برودة. وفيما هو يتتبع اتجاه نظراتها -وهو ينهض ثانية- نحو صديق السيد فلتونش الحميم، السيد بلاندواز، طرقع السيد بلاندواز إصبعه وإبهامه طرقعة عالية تنم عن الاحتقار.

وقال كلينام:

- إنني أترك صاحبك العميل هذا في غرفة يا سيد فلتونش مع شيء كبير من الدهشة، ومع شيء كبير من عدم الرضا.

وطرقع الشخص المشار إليه في الحديث إصبعيه مرة أخرى.

- طابت ليلتك يا أماه.

- طالبت ليلتك.

وهنا قال بلاندواز وهو واقف أمام المدفأة وقد وسع ما بين ساقيه، وكان الواضح أنه أراد بالحديث أن يعطل انصراف كلينام الذي تلكأ بجوار الباب:

- كان لي ذات مرة صديق يا رفيقي الطيب فلتونش. كان لي ذات مرة صديق سمع الشيء الكثير عن الجانب المظلم من هذه المدينة وأساليبها بحيث لم يكن يستطيع أن يطمئن على نفسه في المسير ليلاً بمفرده مع اثنين يهمهما أن يرياه تحت الثرى.. ويح نفسي! لا ولا حتى في بيت محترم كهذا ما لم يكن أقوى منهما جسمانياً، ياه، فيا لك من جبان يا فلتونش! آه.

- إنه جرو يا سيدي.

- تماماً! جرو. ولكنه ما كان ليفعل هذا يا فلتونش إلا إذا كان قد علم أنهما يريدان إخراسه دون استعمال القوة. إنه ما كان ليشرب من كوب ماء -تحت هذه الظروف- حتى لو كان في بيت محترم كهذا، إلا إذا رأى أحدهما يشرب منه أولاً، ويبتلع ما شرب أيضاً.

واكتفى كلينام -وهو مشمئز من أن يرد عليه، بل كان في الواقع لا يستطيع الرد لأنه شعر بالاختناق- بأن ألقى عليه نظرة عابرة وهو ينصرف. وحياه الزائر بفرقعة أخرى على سبيل الوداع، كما هبط أنفه على شاربه، وارتفع شاربه إلى أنفه في ابتسامة شريرة كريهة.

وهمس كلينام لآفري وهي تفتح له الباب الخارجي في ظلام الصالة وحيث راح يتحسس طريقه في ضوء نجوم السماء:

- أخبريني بحق السماء يا آفري! ماذا يجري هناك؟

وكان منظرها ذاته مثيراً للفزع وهي واقفة في الظلام وذيل مريلتها مطروح على رأسها ومتحدثة من داخله بصوت خافت مكتوم:

- لا تسألني عن شيء يا آرثر. إنني أعيش في حلم منذ مدة طويلة اذهب لشأنك.

وغادر البيت، وأغلقت الباب وراءه، وتطلع بنظراته إلى نوافذ غرفة أمه، فبدا له أن الضوء الخافت المحجوب بالستائر الصفراء، يستجيب لحديث آفري ويهمهم قائلاً:

- لا تسألني عن شيء. اذهب لشأنك.

* * *



رسالة من دوريت الصغيرة



عزيزي السيد كلينام:

كما ذكرت لك في خطابي الأخير أنه ليس من الخير لأحد أن يكتب إليّ، وكما أن إرسالي خطاباً آخر صغيراً إليك يمكن من ثم ألا يثقل عليك بأكثر مما تثقل عليك قراءته -وربما لا تجد فسحة من الوقت حتى لهذا، وإن كنت أرجو أن تجدها يوماً ما- فإني أنوي الآن أن أكرس ساعة للكتابة إليك مرة أخرى، وفي هذه المرة من روما.

لقد غادرنا البندقية قبل أن يغادرها السيد والسيدة جوان. ولكنهما لم يستغرقا في السفر وقتاً طويلاً كما حدث لنا، لأنهما لم يسافرا في نفس الطريق، وهكذا عندما وصلنا إلى روما وجدناهما قد استقرا في مسكن في منطقة تدعى «فياجريجوريانا» وأستطيع القول إنك تعرفها.

وأنا الآن سوف أخبرك بكل شيء عنهما، لأني أعرف أن هذا أهم ما تريد أن تعرف. إن مسكنهما ليس بالمريح جداً. ولكن لعلي ظننته أقل شأناً -حين رأيته أول مرة- مما لو كنت تفعل أنت، لأنك زرت الكثير من البلدان، وشاهدت الكثير من العادات. إلا أنه بطبيعة الحال أفضل كثيراً جداً جداً -ملايين المرات- من أي مسكن عشت فيه حتى العهد الأخير وإنه ليخيل إليّ أني لم أنظر إليه بعينيّ، وإنما بعينيها هي. لأنه من السهل

جداً أن يتبين الإنسان أنها نشأت في بيت مظلل بالسعادة والحنان حتى لو لم تكن قد قالت لي هذا بكل ما لديها من حب له.

حسناً... إنه في الواقع مسكن عار تقريباً فوق سلم مظلم عادي، ويتكون كله تقريباً من غرفة كبيرة كئيبة يرسم فيها السيد جوان لوحاته. والنوافذ تطل على جدران صماء في كل ناحية، وجدران الغرفة مكسوة برسومات صبيانية بالطباشير والفحم خططها الذين أقاموا في الغرفة من قبل.. أوه، منذ سنين كما أظن. وفيها ستارة أقرب إلى لون الغبار منها إلى اللون الأحمر، وهي تقسم الغرفة إلى قسمين، والقسم الواقع وراءها يكون غرفة جلوس خاصة. وعندما رأيتها أول مرة هناك، كانت بمفردها، وكانت قطعة التطريز قد سقطت من يدها، فراحت تتطلع إلى السماء المتألقة من أعلى النوافذ، وأرجو ألا يخامرك القلق حين أذكر لك أنها لم تكن طروباً، ولا مشرقة، ولا بشوشاً، ولا سعيدة، ولا ناضرة تماماً كما كنت أتمنى أن تكون.

وبسبب قيام السيد جوان برسم صورة لأبي -وهي صورة ما كنت لأقتنع تماماً بما فيها من شبه لو لم أره وهو يعمل فيها- أتيحت لي من الفرص لزيارتها أكثر مما كان يمكن أن يحدث لولا هذه الفرصة السعيدة، إنها تشعر بالوحشة كثيراً. نعم.. تشعر بالوحشة كثيراً جداً.

هل أحدثك عن المرة الثانية التي رأيتها فيها، لقد ذهبت ذات يوم عندما استلزم أن أخرج بمفردي، في الساعة الرابعة أو الخامسة بعد الظهر، كانت عندئذ تتناول عشاءها المبكر بمفردها. وكان عشاؤها هذا المنفر والذي جاءها من مكان ما، موضوعاً فوق موقد فحم مضرم النار، ولم يكن معها أحد، أو تنتظر أن يكون معها أحد، كما رأيت بنفسي، غير الرجل العجوز الذي أحضر الطعام، وكان يسرد عليها قصة ممطوطة - عن اللصوص خارج أسوار المدينة الذين قبض عليهم متلبسين بسرقة

تمثال حجري لقديس- ليسليها كما قال لي حينما انصرفت «لأن لديه ابنة أيضاً وإن لم تكن على مثل هذا الجمال».

وينبغي الآن أن أتحدث عن السيد جوان قبل أن أذكر القليل الذي سوف أقوله عنها، لا بد أنه معجب بجمالها، ولا بد أنه مزهو به لأن كل إنسان يمتدحه، ولا بد أنه مغرم بها، وأنا لا أشك في هذا، ولكن على طريقته الخاصة، وأنت تعرف طريقته، فإذا كانت تبدو في نظرك -كما تبدو في نظري- تنطوي على الاستخفاف والتذمر، فأنا لست مخطئة في الظن في أنها قد تكون أنسب لها، فإذا لم تكن تبدو لك هكذا، فأنا واثقة تماماً بأني جد مخطئة في هذه الحالة، ذلك لأن ابنتك المسكينة التي لم تتغير تثق بفطنتك وطيبتك أكثر مما تستطيع أن تذكر لك، فإذا كان عليها أن تحاول، ولكن لا تجزع، فإني لن أحاول.

إن السيد جوان -كما أظن إذا كنت تظن هذا أيضاً- يقبل على مهنته قليلاً بسبب هذه الروح من عدم الاستقرار والتذكر التي تستبد به، إنه لا يقوم بعمل ما في جَلَد وصبر؛ وإنما هو يتناول الأشياء، على السواء، ويلقي بها، أو يعمل فيها أو يتركها بلا عمل دون أن يحفل بها، ولما سمعته وهو يتحدث إلى أبي في أثناء جلساته للرسم، كنت أجلس وأنا أتساءل هل يمكن ألا يكون له إيمان بأي شخص آخر، لأنه لا إيمان له بنفسه.. أهذا هو الأمر، إنني أتساءل عما يمكن أن تقول عندما تعرف هذا! إنني أعرف كيف ستبدو، وأكاد أستطيع أن أسمع صوتك الذي ستحدثني به كما فعلت على جسر أيرن بريدج.

إن السيد جوان يختلط كثيراً بما يعتبر هنا مجتمعاً راقياً -وإن كان لا يبدو عليه أنه يستمتع أو يحب أفراده عندما يكون بينهم- وهي أحياناً تصحبه، ولكنها في الأيام الأخيرة لم تخرج إلا قليلاً جداً، وأعتقد أن أفراد هذا المجتمع يتحدثون عنها بأسلوب معين، وكأنما يرون أنها ظفرت

شخصياً بنجاح كبير في زواجها بالسيد جوان، وذلك رغم أن هؤلاء الناس أنفسهم، في الوقت ذاته، لا يمكن أن يفكروا في الزواج به، أو اتخاذه لبناتهم، وهو عدا هذا يقصد المناطق الريفية ليفكر في رسومات تخطيطية، وهو في جميع الأماكن التي يكثر فيه الزوار، يتعرف بعدد كبير من الناس، ويغدو مشهوراً بينهم، وفضلاً عن كل هذا، فإن له صديقاً كثير الاتصال به سواء في المسكن أو بعيداً عن المسكن، وذلك رغم أنه يعامل هذا الصديق بكل برود، وبطريقة تدل على أنه لا يطمئن إليه، وإني واثقة تماماً -لأنها قالت لي هذا- أنها لا تميل إلى هذا الصديق، وهو يثير نفوري الشديد أيضاً، بحيث إن ابتعاده عنا في الوقت الحاضر يجعلني أشعر بالراحة الذهنية البالغة، فكيف تشعر هي إذن؟

ولكن ما أريد أن تعرفه على وجه خاص، هو هذا، وإن كنت لا أدري لماذا أنا مصممة على أن أذكره لك حتى وأنا أخشى أن يثير قلقك دون مناسبة. إنها مخلصة ووفية، وتعرف تماماً أن كل حبها وواجبها موهوبان له إلى الأبد بحيث يمكنك أن تتأكد أنها سوف تحبه، وتعجب به، وتمتدحه وتخفي كل أخطائه حتى المات. وأنا أعتقد أنها تخفي الآن أخطاءه، وسوف تخفيها، حتى عن نفسها. إنها وهبته قلباً لا يمكن أن يسترد ومهما قد يبذل من محاولات، فإنه لن يستطيع أن يوهن حرارة عاطفته. وأنت تعرف صدق هذا، كما تعرف كل شيء أكثر جداً مني، ولكنني لا أملك من أن أذكر لك طبيعتها التي تبدو بها، وما أظن أنك ستنظر إليها أحسن من نظرتك الحالية نحوها.

إني حتى الآن لم أذكرها باسمها في هذا الخطاب. ولكن الصداقة الآن وطيدة بيننا بحيث إني أناديها باسمها المجرد عندما نكون منفردتين معاً، كما تتحدث إليّ باسمي المجرد، وأنا لا أعني باسم «إيمي» حدثتها بقصتي القصيرة، وذكرت لها أنك تسميني دائماً «دوريت الصغيرة».

وقلت لها إن هذا الاسم، أعز علي جداً من أي اسم آخر، من ثم راحت هي أيضاً تنادي باسم «دوريت الصغيرة».

ولعلك لم تعرف بعد من أبيها أو أمها أي لعلك لم تعرف أنها الآن أم لطفل ذكر. لقد وضعته فقط منذ يومين، وبعد أسبوع واحد من وصول السيد والسيدة ميجلز. إن هذا الوليد ملأ قلبيهما بالسعادة الغامرة. وعلى كل حال، ينبغي أن أقول لك، بما أني سأقول لك شيئاً، إن علاقتهما متوترة جداً بالسيد جوان، وإنهما يشعران بأن سلوك الساخر معهما ينطوي على شيء من السخرية من حبهما لابنتهما. وأمس فقط كنت هناك حيث رأيت السيد ميجلز متغير الوجه، وقد نهض وانصرف كأنما يخشى أن يعرب عن هذا إلا إذا منع نفسه عن طريق الانصراف. إلا أنني واثقة تماماً أنهما مجاملان، بشوشان، معقولان بحيث كان يمكن أن يتلطف معهما. وإنها لقسوة منه حين لا يهتم بأمرهما بعض الشيء.

لقد توقفت عند آخر نقطة لأستعيد قراءة هذا. وقد بدا لي الأمر – لأول وهلة– كما لو أني قد آليت على نفسي أن أفهم وأفسر الشيء الكثير مما جعلني أميل بعض الشيء إلى عدم إرساله. ولكن عندما فكرت في الأمر قليلاً، ازددت أملاً في أنك ستعرف أني أرقب هذا كله من أجلك فقط، وأني لم ألاحظ فقط ما يبدو لي أني لاحظته إلا لأن قوة ملاحظتي ازدادت بسبب اهتمامك بهذا الأمر. ويمكنك، في الواقع، أن تتأكد بأن هذه هي الحقيقة.

والآن قد فرغت من موضوع الخطاب ولم يبقَ إلا القليل الذي سأقوله.

إننا جميعاً بخير، وإن فاني تتحسن كل يوم. وإنك لا تكاد تصدق إلى أي حد هي عطوفة عليّ، ومدى ما تحتمله من صبر في معاملتي. إن لها حبيباً تبعها من سويسرا، ثم من البندقية، وقد أسر إلي أنه ينوي أن يتبعها

إلى كل مكان. وقد ارتبكت كثيراً من حديثه معي، ولكنه فعل. ولم أعرف ماذا أقول له، ولكنني قلت له أخيراً إنني أرى من الخير له ألا يفعل. لأن فاني -وهذا ما لم أقله له- أبرع وأحدّ مزاجاً من أن تصلح للزواج به، إلا أنه مع هذا قال إنه سيتزوجها على أية حال. وليس لي بطبيعة الحال حبيب.

إذا حدث ووصلت في خطابي الطويل إلى هذه المرحلة، فلعلك سوف تقول إن دوريت الصغيرة لن تكف -بالتأكيد- دون أن تقول شيئاً عن رحلاتها، وإن الوقت، بالتأكيد، قد حان لتقول هذا، قد حان لتقول هذا. وأعتقد أن هذا ما ينبغي حقاً، ولكنني لا أدري ماذا أقول لك. فمنذ أن تركنا البندقية ونحن في أماكن كثيرة عجيبة رائعة. منها جنوا وفلورنسا، وقد شاهدنا الكثير من المناظر، بحيث إنني أشعر بالدوار كلما فكرت في كثرة عددها. ولكنك تستطيع أن تحدثني عنها بأكثر مما يمكن أن أقول لك، فلماذا أرهقك بالإحصائيات والتفاصيل؟

عزيزي السيد كلينام، كما أنه كان لي من الجرأة ما جعلني أحدثك عن المصاعب العادية التي كان يعانيها تفكيري في أثناء السفر من قبل، فلن أكون الآن جبانة. فإن من بين أفكاري الكثيرة هذه الفكرة: فبقدر قِدَم هذه المدن، فإن قِدَمها نفسه لا يكاد يثير العجب، لأنها -كما يتراءى لي- قد ظلت في أماكنها طوال تلك الأيام التي لم أكن أعرف حتى عن وجودها شيئاً -إلا مدينتين أو ثلاثاً- عندما كنت لا أكاد أعرف شيئاً خارج الأسوار القديمة. إن فيها شيئاً يثير الاكتئاب، ولا أدري لماذا. فعندما ذهبنا لنرى برج بيزا المائل المشهور، كان ذلك في يوم صحو مشرق، وقد بدا هو، والبنايات القريبة منه، جد قديمة، بينما بدت الأرض والسماء جد شابة، والظل الممتد منه على الأرض رقيق خجول! ولم أستطع في أول الأمر أن أعرف كم كان جميلاً أو عجيباً، وإنما رحت أفكر: كم عدد المرات عندما كان ظل جدار السجن يسقط على غرفتنا، وعندما

كانت الأقدام المتعبة تروح وتغدو في الفناء، أوه، كم عدد المرات التي ظل فيها المكان كما هو اليوم هادئاً جميلاً... لقد طغت على عواطفي، وأفعم قلبي بالمشاعر حتى طفرت الدموع من عيني رغم أني بذلت كل ما يمكن لمنعها. ومنذ ذلك الحين وهذا الشعور يراودني كثيراً.

ترى هل تعرف أنني، منذ تبدلت أحوالنا، أحلم، كما يبدو لي، أكثر مما كنت أحلم من قبل، بأن أبقى صغيرة جداً دائماً! إنك قد تقول إنني لست كبيرة السن جداً. لا، ليس هذا ما أعني. لقد كنت دائماً أحلم بنفسي كطفلة تتعلم أشغال الإبرة. كثيراً ما كنت أحلم بنفسي وقد عدت إلى هناك، رائية الوجه التي كنت أعرفها قليلاً في الفناء، والتي كنت أظن أنني قد نسيتها تماماً. ولكنني كنت في الوقت نفسه أحلم قليلاً أو كثيراً بأني سافرت إلى الخارج -إلى هنا، في سويسرا، أو فرنسا، أو إيطاليا- أو في أي مكان من الأماكن التي ارتدناها باعتباري دائماً تلك الطفلة الصغيرة. إنني أحلم بالذهاب إلى حرم الجنرال وأنا أرتدي الثوب المرقع الذي أذكر أني ارتديته أول مرة. وكثيراً ما حلمت المرة بعد المرة بأن أتخذ مكاني على مائدة العشاء في البندقية عندما كان لدينا عدد كبير من المدعوين وأنا أرتدي ملابس الحداد التي ارتديتها على أمي المسكينة وأنا في الثامنة من عمري، والتي ظللت أرتديها بعد ذلك مدة طويلة حتى أصبحت بالية لا مكان فيها للتصليح. لشد ما كان حزني وأنا أفكر في استنكار المدعوين حين يرونني في هذا الوضع رغم ثراء والدي، وفي مبلغ ما أثيره من استياء وشعور بالعار في نفس أبي وفاني وإدوارد لأني ببساطة كنت سأكشف ما يريدون أن يبقى سراً. ولكنني لم أخرج من نطاق طفولتي بسبب التفكير في هذا. وفي نفس اللحظة كنت أحلم أنني جلست إلى المائدة بقلب موجع أحسب نفقات العشاء وأشغل تفكيري بكيفية العمل على تغطيتها، ولكنني لم أحلم قط بتبدل أحوالنا على هذا النحو. ولم أحلم قط

بعودتك معي في ذلك الصباح الخالد لإعلان هذا الأمر إلى الأسرة. بل إنني لم أحلم بك يوماً.

عزيزي السيد كلينام: إنه من المحتمل أني أفكر فيك -وفي غيرك- كثيراً في أثناء النهار بحيث لا يبقى لي أفكار أخرى تدور حولك في أثناء الليل. لأنه لا بد لي أن أعترف لك بأني شديدة الشوق إلى وطني بحيث يبلغ بي الأمر أني من فرط لهفتي عليه وشوقي إليه، أكاد أذوب دون أن يشعر بي أحد. إنني لا أستطيع أن أحتمل الابتعاد عنه أكثر من هذا. ولكن قلبي ينتشي قليلاً حين نتجه نحوه ونقترب منه ولو أميالاً قليلة مع علمي بأننا لن نلبث أن نبتعد عنه مرة أخرى. إلى هذا الحد أحب المكان الذي شهدت فيه أيام الفاقة. وأيام حنانك، إلى هذا الحد أحبه، أوه، إلى هذا الحد...

الله يعلم متى سوف ترى ابنتك المسكينة إنكلترا مرة أخرى. وإننا جميعاً مغرمون بالحياة هنا -فيما عداي- بحيث إننا لا نفكر فيما ينبغي أن نفعله للعودة. إن أبي العزيز يفكر في زيارة يقوم بها للندن في وقت متأخر من فصل الربيع. ليؤدي بعض الأعمال الخاصة بالممتلكات، ولكنني بلا أمل في أنه سيصحبني معه.

لقد حاولت أن أتحسن بعض الشيء تحت إشراف حرم الجنرال وأرجو ألا أكون ثقيلة الظل كما كنت من قبل، لقد بدأت أتعلم وأفهم -بسهولة تقريباً- اللغات الصعبة التي حدثتك عنها.

إنني لم أتذكر عندما كتبت إليك في المرة الأخيرة أنك تعرف هاتين اللغتين، ولكنني تذكرت هذا فيما بعد، وقد ساعدني ذلك على دراستهما. وليباركك الله يا عزيزي السيد كلينام، ولا تنس:

الوفية المعترفة بجميلك دائماً

دوريت الصغيرة

ملاحظة: تذكر بوجه خاص أن ميني جوان تستحق أن تحمل لها أحسن الذكريات. إنك لا تستطيع أن تفكر فيها بأكثر مما تعرفه عنها من رقة وكرم. لقد نسيت السيد بانكس في المرة السابقة. أرجوك إذا رأيته، أن تبلغه تحيات واحترامات دوريت الصغيرة. لقد كان كريماً جداً معها.

وفيه ينعقد مؤتمر وطني كبير



كان اسم ميردل الشهير يزداد، كل يوم، شهرة في أنحاء البلاد، ولم يكن ثمة من يعرف أن ميردل صاحب هذه الشهرة الواسعة قد صنع أي خير لأي أحد كان، حياً أو ميتاً أو لأي مخلوق على وجه الأرض. ولم يكن ثمة أحد يعرف عنه أية مقدرة أو أية أقوال حكيمة من أي نوع أرسلت لأي مخلوق أضعف شعاع من الضوء في أي طريق للواجب أو للإهمال، للألم أو للبهجة، للكدح أو للراحة للحقيقة أو للخيال بين حشود الطرق في المتاهات التي تطؤها أقدام أبناء آدم، ولم يكن لدى أي أحد أبسط سبب للافتراض بأن الطينة التي صنع منها هذا الشخص المقدس، تختلف عن أية طينة عادية تعمل فيها تلك الومضة الخافتة التي تحتفظ عليها صورتها البشرية وتمنعها من الانهيار حطاماً. لقد عرف الناس جميعاً -أو يظنون أنهم عرفوا- أنه أثرى ثراءً ضخماً، وأنهم لهذا السبب فقط، يلقون بأنفسهم أمامه ساجدين، أكثر ذلة، وأكثر انحطاطاً من أسوأ همجي يزحف من داخل جحره في الأرض ليقدم، عن طريق عبادة جذع أو حيوان زاحف، غذاء روحه المظلمة.

بلى... إن الكهنة الكبار لهذه العبادة يضعون هذا الرجل أمامهم باعتباره رمزاً يحجب حقارتهم. أما الجماهير فإنهم يعبدون عن إيمان -وإن كانوا دائماً يدركون السبب بوضوح- ولكن السدنة عند المذبح لا يغفلون

عن وضع الرجل أمام أبصارهم. إنهم يجلسون في احتفالاته ويجلس هو في احتفالاتهم. وكان ثمة طيف في ركابه دائماً فيقول لهؤلاء الكهنة الكبار:

«أهذه هي العلامات التي تؤمنون بها وتحبون أن تكرموها: هذا الرأس، وهاتان العينان، وهذا الأسلوب في الحديث. وهذا المنهج والسلوك في حديث الرجل؟ إنكم روافع إدارة الشؤون العامة، وحكام الناس. وعندما يقع بعضكم في قبضة الموت، فإنه يبدو أن أمنا الأرض لن تستطيع أن تعوض حكاماً غيرهم. هل تكمن مؤهلاتكم في عمق معرفتكم بالرجال، مما يجعلكم تقبلون وتكرمون وتنفخون هذا الرجل؟ أم أن مؤهلاتكم هي الأمانة الرفيعة إذا كنتم قادرين على صدق الحكم على الأمارات التي لا أكف أبداً عن إطلاعكم عليها كلما ظهر هذا الرجل بينكم؟».

إن هذين السؤالين، الكريهين جداً، يدوران في أنحاء المدينة مع السيد ميردل وهناك اتفاق ضمني على وجوب كتمهما.

وفي أثناء غياب السيدة ميردل بالخارج، يبقى السيد ميردل البيت الكبير مفتوحاً لوفود الزوار، وكان القليل منهم قد استولوا عليه بطريقة حية. ومن ثم اعتاد ثلاث أو أربع من سيدات المجتمع الراقي أن يقلن الواحدة للأخرى:

- تعالِ نتناول العشاء في بيت العزيز ميردل يوم الثلاثاء القادم، فمن ندعوه؟

وعندئذ يتلقى عزيزنا ميردل التعليمات، ثم يجلس بثقل بين المدعوين إلى المائدة، ثم يتجول متعثراً بعد ذلك في قاعات الاستقبال لا يميزه شيء في علاقته بالوليمة أكثر من أنه عقبة في جوّها.

ولم يكن كبير السقاة، أو الروح المنتقمة في حياة هذا الرجل، ليخفف شيئاً من حدته. كان يرعى أمر هذه الولائم، في أثناء غياب

الصدر الأعم كما كان يرعاها في أثناء وجوده، وكانت نظراته في عيني السيد ميردل كأنها أفعوان أسطوري. كان رجلاً متعنتاً، لا يمكن أن يتجاوز عن أي خطأ في تقديم الطعام أو الشراب، لا يمكن أن يسمح بإقامة وليمة إلا إذا بلغت الدرجة القصوى من الإعداد وكان يعد المائدة حسب مزاجه الرفيع، فإذا اختار المدعون أن يتناولوا شيئاً مما قُدِّم إليهم، فلا ثمة اعتراض له؛ إلا أن ذلك الطعام المقدَّم كان الهدف منه إبراز مكانته هو، وكان يبدو -وهو واقف بجوار الخزانة الجانبية- كأنما يعلن:

«لقد قبلت مهمة رعاية هذا الذي أمامي الآن، على ألا أقبل شيئاً أقل من هذا».

فإذا افتقد إشراف الصدر الأعظم، فهو يرى أن غيابها بالنسبة لمهمته شيء حرم منه بسبب ظروف لا حيلة له فيها. تماماً كما لو أنه افتقد آنية رئيسية على المائدة أو آلة تبريد خمر من نوع ممتاز كانت قد أُرسِلت لصاحب البيت.

وكان السيد ميردل يرسل الدعوات عندما يقيم الولائم لآل بارناكل. وكان اللورد ديكيموس يحضرها، وكذلك السيد تايت بارناكل، والشاب اللطيف بارناكل والهتافة البرلمانيون من آل بارناكل الذين يقصدون الأقاليم عند انقضاض الدورة البرلمانية ليسبِّحوا بحمد كبيرهم. وكان المفهوم في مثل هذه الحفلة أنها حدث عظيم. إذ يعرف الجميع أن السيد ميردل سيقف بجانب آل بارناكل. وتكون بعض المفاوضات الخفيفة قد دارت بينه وبين النبيل ديكيموس، يقرر السيد ميردل بعدها أن يلقي بكل نفوذه الكبير وبكل ثرائه الضخم في كفة آل بارناكل. ويشك الخبثاء في عملية سمسرة. ربما لأنه مما لا جدال فيه لو أمكن إسناد عمل إلى حليف العدو الأبدي للإنسانية، فإن آل بارناكل لا بد أن ينتفعوا منه لصالح البلد... نعم... لصالح البلد.

لقد كتبت السيدة ميردل إلى زوجها هذا الفاخر الذي كانت تعتبره عندئذ لا أقل من جميع التجار البريطانيين منذ أيام هوتنجتون مجتمعين في شخص واحد مطلي بالذهب بسُمْك ثلاثة أقدام، كتبت إلى زوجها هذا عدة خطابات من روما في تتابع سريع تحثه بكل إلحاح بأن الفرصة النهائية قد حانت لرعاية إدموند سباركلر. لقد أخبرته السيدة ميردل بأن حالة إدموند سباركلر عاجلة، وأن فائدته المحققة ربما تأتى من رعايته فوراً. وكانت عبارات السيدة ميردل عن ذلك الموضوع العاجل تمتاز بأسلوب معين، وهو أسلوب الإلحاح، وكان للأسلوب صيغة فعلية واحدة، هي صيغة الحاضر. وكانت كلمات السيدة ميردل التي عبرت بها عن رغبتها مؤثرة بما فيها من تزاوج واشتقاقات بحيث شاع الاهتياج في دماء السيد ميردل البطيئة وفي أساور كمّي قميصه البارزة.

في هذه الحالة من الاهتياج، راح السيد ميردل وهو يدور بعينيه في مراوغة على قدمي رئيس السقاة دون أن يستطيع رفعهما ليدرك ما يجري في ذهن ذلك المخلوق من أفكار حمقاء، يوحي إليه برغبته في إقامة وليمة خاصة وليمة ليست كبيرة ولكنها خاصة جداً، وأوضح رئيس السقاة بدوره أنه ليس لديه مانع في رعاية هذه الوليمة الفاخرة بكل ما في وسعه أن يفعل. وها هو اليوم الذي تقررت فيه قد حل.

وقف السيد ميردل في إحدى غرف الاستقبال وظهره إلى نيران المدفأة، ينتظر وصول الضيوف المهمين. وكان قلما يتجرأ ويقف وظهره إلى نيران المدفأة إلا إذا كان بمفرده تماماً. وأما في وجود رئيس السقاة فما كان ليستطيع أن يفعل هذا. ولو أن خادمه هذا الطاغية دخل الغرفة عندئذ، لوضع السيد ميردل معصميه في جنبيه بتلك الطريقة البوليسية المعتاد عليها، وراح يذرع سجادة المدفأة جيئةً وذهاباً أو يسير متسللاً بين روائع أثاثات قصره. وكانت الظلال الدقيقة التي تبدو كأنها تنبثق من

الخفاء عندما تندلع النار، ثم ترتد إليه حين يخفت اللهيب عوامل كافية للشهادة بأنه في حالة إمتاع نفسي. بل إنها أكثر من كافية إذا أمكن إدراك أن نظراته القلقة نحوها قد تعني أي شيء.

وكانت يد السيد ميردل اليمنى ممتلئة بصحيفة مسائية، وكانت الصحيفة المسائية ممتلئة بالسيد ميردل. كان مشروعه المدهش، وثراؤه المدهش ومصرفه المالي المدهش الطعام الدسم الذي اقتاتت عليه الصحيفة المسائية في تلك الليلة. لقد كان المصرف المالي المدهش الذي كان هو المفكر الوحيد في مشروعه ومؤسسه الوحيد، ومديره، آخر عجائب السيد ميردل الكثيرة. وقد بلغ من تواضع السيد ميردل في الوقت نفسه وهو بين هذه الأمجاد الرائعة أنه بدا أقرب ما يكون إلى صاحب بيت يعاني من ضائقة دَيْن منه إلى ملك من ملوك التجارة وهو يذرع سجادة مدفأته بينما كان مدعووه العظماء في طريقهم إلى تلبية دعوته للعشاء.

انظروا إلى المدعوين وهم يفدون إلى القصر: كان الشاب الجذاب بارناكل أول الوافدين. ولكن قطب المحاماة لحق به على السلم. وكان قطب المحاماة المسلح كالمعتاد بنظارته ذات العدسات الغليظة، وانحناءته البسيطة الوقور، قد اشتدت بهجته عند رؤيته للجذاب الشاب بارناكل. وكان قطب المحاماة يعتقد أنهم لا بد سيجلسون في «البانكو»[1] -كما نسميه نحن المحامين- حيث يكمن التداول على انفراد.

وقال الشاب الطروب بارناكل الذي كان يدعى فرديناند.

- أحقاً! وكيف كان ذلك؟

فابتسم قطب المحاماة قائلاً:

(1) El Banco

– عجباً! إذا كنت لا تعلم، فكيف أعلم أنا. إنك أحد العالمين ببواطن الأسرار، وما أنا إلا واحد من العامة العاديين.

وكان في مقدور قطب المحاماة أن يكون لطيفاً أو ثقيلاً حسب الشخص الذي يواجهه. أما مع فرديناند بارناكل فقد كان في رقة الضوء وكذلك كان قطب المحاماة متواضعاً دائماً ولبقاً بطريقته الخاصة. إن قطب المحاماة كان رجلاً متعدد الجانب، ولكن كان ثمة جانب معين أوضح من جميع الجوانب الأخرى. ذلك الجانب هو نظرته إلى كل شخص على أنه أحد المحلفين. ومن ثم فإن عليه أن يطوي هذا المحلف تحت جناحه.

وقال قطب المحاماة:

صديقنا هذا المضيف العظيم.. صديقنا النجم المتألق في عالم التجارة، هل سيدخل ميدان السياسة.

فردّ ذلك الشاب الجذاب بارناكل:

– سيدخل! إنه عضو برلماني منذ مدة كما تعلم.

فقال قطب المحاماة وهو يرسل ضحكته الطروب الخفيفة التي يخصصها للخاصة من المحلفين، وهي تختلف عن ضحكته الطروب الخفيفة التي يخصصها للعامة الطروبين من المحلفين:

– أجل حقاً. كان في البرلمان منذ مدة، ولكنه نجمنا كان منذ ذلك الحين نجماً متردداً متقلباً.. همف!

إن الشخص العادي كان يمكن أن ينخدع بـ «همف» هذه فيجيب بكلمة «نعم». ولكن فرديناند نظر بفطنة إلى قطب المحاماة وهما يصعدان السلم دون أن يجيب بشيء إطلاقاً.

وقال قطب المحاماة وهو يهز رأسه، لأنه لم يكن بالذي يعامل على هذا النحو:

- أجل أجل.. ولهذا فإني أتحدث عن جلوسنا في «البانكو» لنتناقش في خلوة باعتبار أنها مناسبة خطيرة وهامة، أو كما يقول الكابتن ماكيات «لقد اجتمع القضاة. فيا له من عرض رهيب» وإننا معشر المحامين على جانب كبير من التحرر الفكري -كما ترى- بحيث نتمثل بأقوال الكابتن، رغم قسوة الكابتن علينا. ومع هذا فإني أعتقد أن في مقدوري إقامة الدليل من اعتراف الكابتن في أقواله..

وحرك قطب المحاماة رأسه بحركة دائرة هازلة، ذلك لأنه كان حين ينطلق في حديثه القانوني يتخذ دائماً هيئة الإنسان الذي يبدو أرق وألطف شخص في الدنيا؛ وقد أردف قائلاً:

- لقد اعترف الكابتن في أقواله بأن القانون -في العموم- يتجه على الأقل لأن يكون عادلاً. لأن ما يقوله الكابتن -إذا صحت روايتي عنه، وإذا لم تصح-.

ثم لمس وهو يرسل ضحكته الطروب الخفيفة بنظارته السميكة كتف صاحبه وأردف قائلاً:

- فسوف يقومني صديقي المثقف:

«ما دامت القوانين قد صيغ لكل منزلة».
«لكبح الرذيلة في الغير وفي نفسي».
«فلماذا لا يكون لنا رفاق أحسن حالاً».
«عند شجرة الياسمين...».

وجاءت بها هذه الكلمات إلى غرفة الاستقبال حيث كان السيد ميردل واقفاً أمام نيران المدفأة. وقد بلغ من دهشة هذا السيد وهو يرى قطب المحاماة مقبلاً وهذه الكلمات على شفتيه أن اضطر قطب المحاماة إلى تفسير موقفه قائلاً إنه يتمثل بأقوال جاي، ثم أردف قائلاً:

- وهو ليس بالتأكيد أحد الثقاة في قاعة وستمنستر. ولكنه مع هذا ليس رجلاً مجهولاً لشخص واسع العلم والخبرة بتجارب الحياة مثل السيد ميردل.

وبدا على السيد ميردل كأنما سيقول شيئاً، ولكنه لم يلبث أن بدا كأنما عَدِل عن هذا. وقد أتاحت هذه الفترة الفرصة ليعلن الخدم وصول الأسقف.

وأقبل الأسقف في وداعة، ولكن في خطوات قوية سريعة، كأنما يريد أن يرتدي حذاء السير الطويل ليطوف بالعالم ويرى أن كل شخص في وضعه المُرْضي. ولم يكن لدى الأسقف أية فكرة عن دلالة المناسبة. وكانت تلك أهم الخصائص الواضحة في سلوكه. كان منتعشاً، ناضراً، طروباً لطيفاً، بشوشاً، ولكن على هيئة عجيبة من البراءة والطهر.

وانساب قطب المحاماة ليقدم أرق استفساراته فيما يختص بصحة حرم الأسقف وقد ظهر أن الحظ السيئ شاء أن تصاب حرم الأسقف بنزلة برد في أثناء شهودها لحفلة توثيق ديني، ولكنها فيما عدا ذلك بخير. وكذلك كان ابن الأسقف بخير. وعرف أنه يقيم مع زوجته الشابة وأسرته الصغيرة في «مصحة الأرواح» التي يشرف عليها.

وأقبل بعد ذلك ممثلو هتافة آل بارناكل، وبعدهم جاء طبيب السيد ميردل الخاص، وقد استطاع قطب المحاماة -الذي كان يختلس النظر من وراء نظارته السميكة إلى كل وافد عند الباب، أياً كان الشخص الذي يتحدث إليه أو أياً كان موضوع الحديث، استطاع أن يندمج فيهم جميعاً ببعض رسائله البارعة دون أن يبدو متطفلاً عليهم، وأن يلمس كل سيد منهم في الموضع الأثير لديه. فهو مع بعض الهتافة راح يضحك عن ذلك العضو البرلماني النعسان الذي مضى إلى قاعة أخذ الأصوات في تلك الليلة وصوت في الجانب الخطأ، ومع غيرهم كان يبدو بتلك الروح التي

لا يمكن إلا أن تدل على حب المشاركة في الخدمة العامة والاقتصاد العام. ومع الطبيب كانت لديه بعض الأقوال عن الصحة العامة، وكان لديه أيضاً ما يريد أن يسأله عنه فيما يتعلق بطبيب آخر واسع العلم كامل السلوك، وإن كانت هذه الخصائص كما يعتقد شائعة في جميع أساتذة فن العلاج «انحناءة وقور»، ذلك الطبيب كان قد حدث أن وقف في منصة الشهود في اليوم السابق على يوم أمس، وقد استطاع قطب المحاماة في أثناء استجوابه أن يستدرجه إلى القول بأنه واحد من أولئك المفسرين لقانون العلاج الجديد الذي يبدو لقطب المحاماة.. إه؟ هذا هو رأي قطب المحاماة. وقد كان قطب المحاماة يرى، ويأمل أن يخبره الطبيب الكبير بهذا. ودون أن يفترض أنه قرر أين يقع الاختلاف بين الأطباء، فإن قطب المحاماة يعتقد -وهو ينظر إلى الموضوع باعتباره مسألة منطقية لا مجرد قانون واجب النفاذ- أن هذا النظام الجديد كان -أو ربما يكون أمام شخصية واسعة الخبرة- أداة نصب. آه. إنه وقد تسلح بمثل هذا التشجيع يستطيع أن يكرر القول بأنه أداة نصب! وإن قطب المحاماة ليشعر عندئذ بالراحة الذهنية.

وكانت لدى السيد تايت بارناكل -مثل صاحب الدكتور جونسون المشهور- فكرة واحدة في رأسه. وهي فكرة خاطئة. وكان قد ظهر عندئذ. هذا السيد الخطير الجالس في وضع مغاير مع السيد ميردل وفي هيئة استغراق فكري على المتكأ الأصغر وأمام نيران المدفأة دون أن يتبادل أحدهما الحديث مع الآخر. ومن ثم كان الاثنان يشبهان إلى حد ما البقرتين المرسومتين بريشة كيب في اللوحة المعلقة فوقهما.

ولكن اللورد ديكيموس قد وصل الآن. وكان رئيس السقاة الذي ظل حتى ذلك الوقت ملتزماً حداً من حدود أعماله العادية، وهو حد التطلع فقط إلى الضيوف في أثناء توافدهم -وكان تطلعه إليهم أقرب إلى

التحدي منه إلى الترحاب- كان قد خرج عن نطاق هذا الحد وصعد مع اللورد ديكيموس وأعلن وصوله، ولما كان اللورد ديكيموس شخصية مهيبة، فإن عضواً صغيراً خجولاً من أعضاء مجلس العموم، الذي كان الصيد قبل الأخير في شراك آل بارناكل، والذي دعا إلى هذه الحفلة تكريماً لوقوعه في هذا الشرك، قد أغمض عينيه عند دخول فخامته إلى القاعة.

وكان اللورد ديكيموس، على أية حال، سعيداً برؤية ذلك العضو، وكان سعيداً برؤية السيد ميردل، وبرؤية الأسقف، وبرؤية قطب المحاماة، وبرؤية الطبيب، وبرؤية تايت بارناكل، وبرؤية فريق الهتافة، وبرؤية سكرتيره الخاص فرديناند. ورغم كون اللورد ديكيموس من أعظم شخصيات العالم فإنه لم يكن خبيراً بآداب السلوك، ومن ثم أخذ فرديناند على عاتقه أن يجعله يلاحظ كل الزملاء الذين قد يكونون موجودين، ويقول إنه سعيد برؤيتهم. وبعد أن فرغ من فيض هذه العملية بنشاط وتنازل، اتخذ فخامته وضعاً في لوحة كيبب، وجعل نفسه بقرة ثالثة في المجموعة.

ورأى قطب المحاماة -الذي شعر أنه طوى تحت جناحه جميع المحلفين- أن عليه الآن أن يطوي كبيرهم، وسرعان ما انساب إليه ونظارته السميكة في يده. وبدأ قطب المحاماة الحديث عن الجد، باعتباره موضوعاً بعيداً عن التحفظات الرسمية في اعتبارات كبير[1] المحلفين. وقال قطب المحاماة إنه قيل له -كما يقال دائماً لكل شخص وإن كان لن يعرف أحد قط من هو القائل وما هو السبب- إنه لن يكون ثمة فواكه دراقية[2] في هذا العام. ولم يكن اللورد ديكيموس قد سمع شيئاً مسيئاً عن أشجار خوخه. ولكنه يعتقد -إذا صدق أتباعه- أنه لن يظفر بتفاح من مزارعه هذا العام. لا تفاح؟ إن قطب المحاماة ليستغرق في الدهشة

---

(1) يقصد اللورد ديكيموس.

(2) مثل التفاح والكمثرى والخوخ.

والاهتمام. إنه ما كان ليهتم إطلاقاً لو خلى سطح الأرض من بذرة تفاح، ولكن اهتمامه بمشكلة تفاح الأسقف كان يبدو بوضوح مؤلم على وجهه. والآن، ما سبب هذا في رأي اللورد ديكيموس -لأننا نحن المحامين نتعب ونحب جمع المعلومات التي قد تفيد يوماً- وقال اللورد ديكيموس إنه لا يستطيع أن يقدم نظرية تبرر السبب، وكان من الممكن أن تسكت هذه الإجابة شخصاً آخر، ولكن قطب المحاماة استمر في حديثه بنفس الحيوية قائلاً:

- ولنتناول الآن موضوع الكمثرى!

لقد ظل اللورد ديكيموس يذكر، بعد مدة طويلة من تعيين قطب المحاماة نائباً عاماً -وكانت تلك ضربة معلم كما قيل له- الحديث عن شجرة الكمثرى، التي نمت في أول الأمر بحديقة بالقرب من منزل زوجته في مدينة إيتون، وعلى شجرة الكمثرى هذه ظلت فكاهة العمر تتفتح إلى الأبد. كانت فكاهة تقوم على المطابقة والجناس. وبدا للورد ديكيموس أن هذه الفكاهة لا يمكن أن يكون لها مثيل في أصالتها وروعتها إلا إذا اقترنت بمعرفة دقيقة بأشجار الكمثرى. ولهذا لم يكن في الفكاهة في أول الأمر أية فكرة عن شجرة كهذه، يا سيدي، ثم إذا هي تعثر عليها في الشتاء، وتحملها خلال الفصول المتغيرة، وتراها وهي تتبرعم، وتراها وهي تزدهر، وتراها وهي تثمر، وتراها حين تنضج الثمرة، وعلى الجملة أخذت الفكاهة تتناول الشجرة بهذا الأسلوب الدقيق الرقيق قبل أن تخرج من نافذة غرفة النوم لسرقة الثمار؟ مما جعل بعض المستمعين البطيئي الفهم يحمدون الله على أن هذه الشجرة غرست وأينعت قبل زمن اللورد ديكيموس. وكان اهتمام قطب المحاماة بالكمثرى وتقلباتها قد غرق تماماً في موجة الإنصات والتشويق التي غمرت الجميع منذ اللحظة التي بدأت فيها اللورد ديكيموس قوله «إن

حديثك عن الكمثرى يعيد إلى ذاكرتي شجرة كمثرى» حتى النهاية الفاخرة «وهكذا مررنا بمختلف مراحل الحياة، ابتداءً من كمثرى إيتون إلى الزوجيات البرلمانية». وقد أدى هذا بقطب المحاماة إلى مصاحبة اللورد ديكيموس في الهبوط إلى الطابق الأول، بل والجلوس بجانبه إلى مائدة العشاء لكي يسمع الفكاهة كلها. وكان قطب المحاماة عندئذ قد شعر أنه طوى كبير المحلفين تحت ذراعه، وأنه من ثم قد يستطيع تناول طعامه بشهية طيبة.

وكان عشاءً مثيراً للشهية حقاً، حتى لو لم يكن لآكله شهية إطلاقاً. كان مكوناً من أندر ألوان الطعام التي أجيد طهوها، وأجيد تقديمها، مع أفضل الفاكهة وأفخر المشروبات. فضلاً عن عجائب الصنعة في الأدوات الذهبية والفضية، والأواني الخزفية والبلورية، وعن الأشياء التي لا تحصى مما يمنع حواس الذوق، والشم والبصر، والتي كانت دالة في تركيبه. أوه؛ ما أعجب هذا الرجل ميردل؟ ما أعظمه، وما أوسع نفوذه، ما أكثر البركة التي حلّت عليه، وفي كلمة واحدة ما أغناه!!

وتناول من الطعام نصيبه العادي البسيط الذي لا يساوي أكثر من ثمانية عشر بنساً، وبعسر الهضم المعتاد. ولم يكن لديه ما يتحدث به إلا القليل كما هو شأن الرجال المدهشين. ومن حُسْن الحظ أن اللورد ديكيموس كان واحداً من العظماء الذين لا يكثرون خلق المناسبات للحديث، لأن في مقدورهم أن يجدوا الوقت الكافي للتأمل في عظمتهم الشخصية. وقد أتاح هذا العضو البرلماني -الشاب الخجول- الفرصة ليفتح عينيه بما يكفي لرؤية طعامه. ولكنه كان لا يلبث أن يغمضهما مرة أخرى عندما يتحدث اللورد ديكيموس.

وكان الشاب الجذاب بارناكل وقطب المحاماة هما المتحدثان في الحفلة. وكان من الممكن أن يبدو الأسقف جذاباً أيضاً لولا أن براءته

كانت تقف في طريقه. ومن ثم سرعان ما ترك وشأنه. وكان كلما شعر أن ثم تلميحات عن شؤون دنيوية في مجال الحديث، انطوى على نفسه فوراً، لأن الشؤون الدنيوية كانت فوق طاقته، وكان لا يستطيع أن يفهم عنها الشيء الكثير.

وقد لوحظ هذا عندما تحدث قطب المحاماة عرضاً قائلاً إنه سعيد إذ سمع أن دنيا السياسة لن تلبث أن تستفيد من انضمام شخص عام حكيم إليها، شخص كله الحكمة، وليس من النوع المتبجح أو المتظاهر -وإنما يمتاز بالحكمة والواقعية- مثل صديقنا السيد سباركلر.

وضحك فرديناند بارناكل وقال، أو نعم، إنه يعتقد هذا؟ وإن التصويت من أجله سيرضي الجميع.

وإن قطب المحاماة ليشعر بالأسف إذ يفتقد السيد سباركلر اليوم، يا سيد ميردل.

فردّ ذلك السيد وهو يخرج ببطء من تأملاته التي كان يحاول خلالها أن يدخل ملعقة في كُم سترته:

- إنه في الخارج مع السيدة ميردل. وليس من الضروري أن يكون في الدائرة.

فقال قطب المحاماة وهو يمنحني في وقار:

- إن اسم ميردل الساحر ولا شك يكفي لكل شيء.

فقال السيد ميردل وهو يضع الملعقة جانباً ويحاول -في تعثر- أن يخفي يديه في أساور كمّيه:

- آه، نعم، أعتقد هذا. أعتقد أن الناس الذين تهمني أمورهم هناك لن يثيروا أية مصاعب.

فقال قطب المحاماة:

- أناس نموذجيون.

فقال السيد ميردل:

- يسرني أنك راضٍ عنهم.

فاستطرد قطب المحاماة يقول وقد سطعت ومضة من عينيه وهو يستدير قليلاً نحو جاره الفاخر:

- والآن، ما موقف الناس في المنطقتين الأخريين! إننا نحن المحامين دائماً فضوليون، دائماً متسائلون، دائماً نلتقط الأشتات من المعرفة من هنا وهناك لعقولنا المفكرة طالما أن أية معلومات قد تفيد في هذا الوقت أو ذاك. أقول ماذا عن موقف الناس في هاتين المنطقتين الآن؟ هل هم متجاوبون مع ذلك النفوذ الضخم الواسع الذي تنطوي عليه هذه المهمة الخطيرة، هل ستمتزج هذه الجداول الصغيرة بهدوء وبساطة، وبحكم القوانين الطبيعية، وفي جمال أيضاً في تيار المجرى النهري الجليل الذي يتدفق في طريقه الرائع مفعماً بالخصب على الأراضي المحيطة به. هل تم تقدير اتجاههم على الوجه الأكمل، وعرفت مقدماً نواياهم بوضوح؟

ونظر السيد ميردل وهو مضطرب بعض الشيء من بلاغة قطب المحاماة نحو أقرب فلاحة في تردد برهة ثم قال بنفس التردد:

- إنهم مدركون تماماً يا سيدي واجبهم نحو المجتمع. ولهذا السبب فإنهم لن يخذلوا أي شخص أرسل به إليهم.

فقال قطب المحاماة:

- يطربني أن أعرف هذا. يطربني أن أعرف هذا.

وكانت المناطق الثلاث المذكورة، هي ثلاثة جحور دفيئة في هذه الجزيرة البريطانية، يقيم فيها ثلاث جماعات من ذوي الأصوات الانتخابية، الجهلة السكارى، المدفعون، الأقذار، المتخلفون الذين انطووا في جيب السيد ميردل. وضحك فرديناند بارناكل بطريقته اللطيفة وقال بمرح إنهم مجموعة طيبة من الناس. أما الأسقف الذي كان مستغرقاً في مسالك السكينة والسلام، فقد ظل على حاله من الاستغراق والشرود الذهني.

وقال اللورد ديكيموس وهو يلقي بنظراته على أنحاء المائدة:

- أرجوكم... ما هي هذه القصة التي سمعتها عن سيد عاش مدة طويلة في سجن المدينين، ثم ثبت أنه من أسرة واسعة الثراء، وأنه ورث عنها مبالغ ضخمة. لقد سمعت أقوالاً مختلفة في هذا الشأن. فهل تعرف عنها شيئاً يا فرديناند؟

فقال فرديناند:

- إن كل ما أعرفه في هذا الشأن هو أنه سبب للإدارة التي أتشرف بالعمل فيها..

ألقى الشاب الجذاب بارناكل هذه العبارة بلهجة الذي يقول: إننا كلنا نعرف هذا الأسلوب من الحديث، ولكن يجب أن نبقي عليه وعلى حيويته، ثم استطرد يقول:

- متاعب لا نهاية لها، كما وضعنا في مآزق لا تُحصَى.

فقال اللورد ديكيموس:

- مآزق!

ثم توقف برهة في جلال وراح يفكر في هذه الكلمة التي جعلت عضو البرلمان الشاب الخجول يغمض عينيه بشدة. وكرر اللورد الكلمة بقوله:

- مآزق!

وعلّق السيد تايت بارناكل على هذا في لهجة من الاستنكار الهادئ:

- كان ما حدث شيئاً مثيراً لأشد الارتباك حقاً.

فقال اللورد ديكيموس:

- ماذا، ماذا كانت طبيعة هذا الأمر، ما هو نوع هذه المآزق يا فرديناند؟

فردَّ ذلك السيد قائلاً:

- أوه، إنها قصة جيدة، باعتبارها قصة. إنها، من نوعها، كأحسن ما تكون القصص. إن هذا السيد دوريت -إنْ اسمه دوريت- قد تحمَّل أمامنا عبء مسؤولية قبل أن تخرج الحورية من البنك وتهبه ثروته بزمن طويل، وذلك عندما وقَّع على وثيقة لتنفيذ عقد معين لم يُنفَّذ على الإطلاق.

كان شريكاً في بيت تجاري يورد للجنود أو للبحارة أو لغيرهم، وعلى نطاق واسع، كحوليات أو أزرار أو خمور أو طلاء أحذية، أو شعير أو أصواف أو لحم خنزير، أو كبش وعراوي، أو حدائد، أو مولاس «عسل أسود»، أو أحذية أو غير هذا وذاك. وأفلس البيت التجاري، وكانت إدارتنا بين الدائنين، فوضعنا المدينين حيث ينبغي أن يوضعوا بالطرق القانونية بعد اتخاذ الإجراءات اللازمة وما إلى لذلك. ولما ظهرت الحورية للسيد دوريت وأراد أن يدفع لنا الدَّيْن؛ إذا نحن نستغرق في عمليات مرهقة من الحسابات والمراجعة، والتوقيعات ومراجعة التوقيعات بحيث انصرمت ستة أشهر قبل أن نعرف كيف نأخذ الدَّيْن وكيف نقدم الإيصالات عنه...

ثم أردف الشاب الوسيم بارناكل وهو يضحك من قلبه:

– لقد كان ذلك نصراً من انتصاراتنا في خدمة المجتمع. وإنك ما كنت ترى مثل هذا العدد الضخم من الاستمارات في حياتك، لقد قال لي المدعي العام ذات يوم «عجباً لو أني أردت أن تعطيني هذه الإدارة ألفين من الجنيهات، أو ثلاثة، بدلاً من أن تأخذها، لما تجشمت في هذا السبيل كل هذه المتاعب» فقلت له: «صدقت يا صاحبي، ولسوف تعرف في المستقبل أن لدينا هنا ما نعمله».

واختتم الشاب اللطيف بارناكل حديثه بضحكة قلبية مرة أخرى، وقد كان في الواقع شاباً لطيفاً وادعاً حقاً، وكانت تصرفاته تجذب الناس إليه.

ولكن وجهة نظر السيد تايت بارناكل في هذا الموضوع لم تكن على هذا النحو من البشاشة. لقد ساءه جداً أن يسبب السيد دوريت المتاعب للإدارة برغبته في تسديد الدَّيْن، واعتبر ذلك شيئاً سمحاً لا ينبغي أن يحدث بعد كل هذه السنوات. ولكن السيد تايت بارناكل كان رجلاً من ذوي السترات المزررة وعلى هذا كان رجلاً له وزنه. فإن جميع ذوي السترات المزررة لهم وزنهم. وإن جميع ذوي السترات المزررة من الموثوق بهم وسواء أعجبت الإنسانية أو لم تعجب بأولئك المتحفظين الذين لا يمارسون عملية فك الأزرار، وسواء آمن الناس أو لم يؤمنوا بأن الحكمة تتركز وتزداد عند تزوير السترات، وتتبخر عند فكّها، فإن من المؤكد أن الرجل الذي يقام له وزن وأهمية هو الرجل ذو السترة المزررة. وما كان السيد تايت بارناكل ليخرج من بيته بأي ثمن ما لم تكن سترته مزررة دائماً إلى ربطة عنقه البيضاء.

وقال اللورد ديكيموس:

– هل يمكن أن أسأل إذا كان للسيد –دوريت أو لدوريت– أية أسرة؟

ولما لم يجب أحد، قال السيد ميردل:

- إن له ابنتين يا سيدي اللورد.

فقال اللورد ديكيموس:

- أوه، هل أنت على معرفة به.

فقال السيد ميردل:

- إن السيدة ميردل تعرف الأسرة، وكذلك السيد سباركلر. وأعتقد أن إحدى الابنتين قد فتنت إدموند سباركلر. إنه حساس وأظنه سهل الانقياد.

وهنا أمسك السيد ميردل عن الحديث وأطرق ينظر إلى مفرش المائدة كشأنه دائماً عندما يجد نفسه موضع النظرات أو الإنصات.

ولشد ما كانت بهجة قطب المحاماة حين وجد أن أسرة ميردل وهذه الأسرة قد توطدت بينهما العلاقة. لقد اعترف بصوت خافت، عبر المائدة، إلى الأسقف بأن هذا نوع من التمثيل التوضيحي لذلك القانون الطبيعي القائل بأن الطيور تقع على أشكالها. لقد اعتبر هذه القوة من جاذبية الثروة إلى الثروة كشيء عجيب مثير طريف.. شيء له علاقة ما بالجاذبية والثقل النوعي. ووافق على هذا الأسقف الذي عاد إلى الأرض مرة أخرى عندما جرى الحديث عن هذا الموضوع. وقال إن من المهم جداً للمجتمع الراقي أن يندمج الإنسان الذي يعيش في هذه الحياة المرهقة التي زود فيها رغماً عنه بالقدرة على الخير، وعلى الشر في المجتمع.. في قوة أكثر قانونية، وأكثر نمواً في عظمتها، لها نفوذها، -كما هو الحال مع صديقنا الذي نجلس على مائدته الآن- الذي تمارسه بكل انسجام مع خير مصالح المجتمع. وعلى هذا، فبدلاً من وجود شعلتين مضرمتين متنافستين، إحداهما أكبر، والأخرى أصغر، كل منهما تضطرم بضوء حائل مضطرب، يكون لدينا شعلتان متحدتان ناعمتا الضوء، يندمج ضوءهما الرقيق مع ما تشيعانه من دفء

في طول البلاد وعرضها. وبدا أن الأسقف ميّال إلى هذا الأسلوب في شرح الموضوع، فاستطرد فيه، بينما كان قطب المحاماة -الذي قرر ألا يهمل أحد المحلفين- يتظاهر بالتفاني في الإنصات إليه والتقاط الدرر من حكمته.

واستمر الطعام والشراب وملحقاتهما ثلاث ساعات، كان الشاب الخجول عضو البرلمان يبرد في ظل اللورد ديكيموس بأسرع مما يسخن بالطعام والشراب، ومن ثم عانى فترة باردة مرهقة. ولاح أن اللورد ديكيموس الذي كان يبدو كبرج طويل في منطقة مبسوطة، يلقي بظله عبر غطاء المائدة، فيحجب الضوء عن العضو البرلماني المحترم، ويبرد عظام العضو البرلماني المحترم، ويثير في نفسه إحساساً مرهقاً بالعزلة. ولما طلب من ذلك المسكين أن يتناول الشراب، زاد من إحساسه بالعزلة، شعور بالبرودة، وعندما قال له «في صحتك يا سيدي» جعله يشعر أن كل ما حوله جدب وخواء.

وأخيراً بدأ اللورد ديكيموس وفي يده فنجان القهوة، يرفرف بين اللوحات المصورة، ويثير في جميع الأذهان التفكير في جميع الاحتمالات التي تؤدي إلى توقفه عن الرفرفة حتى يتيح للطيور الأقل شأناً أن ترفرف إلى الطابق العلوي. وهذا ما لا يمكن أن يتم إلا إذا حثّ خطواته السامية نحو هذا الاتجاه. وبعد وقت ما، وبعد أن بسط جناحيه مرات كثيرة بلا جدوى؛ راح يحلق إلى غرف الاستقبال.

وهنا برزت مشكلة كانت دائماً تبرز عندما تكون الاستعدادات قد تمت لجمع اثنين في وليمة ليتبادلا الرأي معاً. فقد كان كل شخص -فيما عدا الأسقف الذي لم تكن لديه أية شكوك في هذا الأمر- يعرف تماماً أن هذه الوليمة قد أقيمت لغرض معين، وهو أن يجتمع اللورد ديكيموس والسيد ميردل لتبادل الحديث على انفراد لمدة خمس دقائق. وقد حانت الآن الفرصة التي بذلت الجهود في إعدادها، وبدا منذ تلك اللحظة أنه لا

توجد عبقرية بشرية يمكنها أن تجمع بين هذين القطبين في غرفة واحدة. ذلك أن كلاً من السيد ميردل وضيفه العظيم قد أصرا على التجول في جهة مضادة. لقد ذهبت محاولة فرديناند عبثاً حين أراد أن يأتي باللورد ديكيموس لكي يشاهد الجياد البرونزية القريبة من السيد ميردل. لأن السيد ميردل راغَ وشرد بعيداً. وكذلك ذهبت محاولته عبثاً حين أراد أن يأتي بالسيد ميردل إلى اللورد ديكيموس ليتحدث عن تاريخ الزهريات النادرة المصنوعة من الخزف. لأن اللورد راغَ وشرد بعيداً في أثناء محاولته إحضار السيد ميردل إلى جواره.

وقال فرديناند لقطب المحاماة عندما فشلت محاولاته نحو عشرين مرة:

– أرأيت قط شيئاً كهذا؟

فقال قطب المحاماة:

– أحياناً.

فقال فرديناند:

– ما لم أحضر أحدهما في ركن معين متفق عليه، وتحضر أنت الآخر، فلن ننتهي إلى شيء إطلاقاً.

فقال قطب المحاماة:

– حسناً جداً. لسوف أحضر ميردل إذا شئت. أما اللورد فلا.

فضحك فرديناند رغم شعوره بالاستياء وقال:

– اللعنة عليهما معاً.

ثم نظر في ساعته وأردف قائلاً:

– إنني أريد الانصراف. فلماذا بحق الشيطان لا يريدان الالتقاء! إنما يعرفان ماذا يريدان وماذا ينويان أن يفعلا.. انظر إليهما.

وكان كل منهما لا يزال هائماً في اتجاه مضاد للآخر، ولا يزال متظاهراً بأنه لا يفكر في الآخر، رغم أن ذلك التظاهر كان واضحاً وكأنما رسمت أفكارهما بالطباشير على ظهريهما. ثم شوهد السقف، الذي كان قد صنع ثالوثاً مع قطب المحاماة وفرديناند، ولكن براءته كانت قد حجبته عن الموقف وغسلته بالزيت العاطر، وهو يقترب من اللورد ديكيموس وينساب معه في الحديث.

وقال فرديناند:

– أعتقد أنني لا بد أن أستعين بطبيب ميردل لاقتناصه والظفر به. وعندئذ يجب أن أظفر بقريبي هذا العظيم وأروِّضه إذا استطعت أو أجرجره إذا لم أستطع، إلى الحديث مع ميردل.

قال قطب المحاماة وهو يبتسم بمكر:

– ما دمت قد شرّفتني بطلب مساعدتي المتواضعة، فسوف أضعها تحت أمرك بكل سرور. لا أعتقد أن هذا يمكن أن يتم بمجهود رجل واحد ولكن، إذا قمت بحصر اللورد في غرفة الاستقبال تلك البعيدة التي هو جد مشغول بها الآن، فسوف أتولى إحضار العزيز إلى فخامته دون أدنى احتمال في انفلاته مني.

فقال فرديناند:

– اتفقنا.

وقال قطب المحاماة:

– اتفقنا.

وكان منظر قطب المحاماة عجيباً يستحق الفرجة، والتأمل، عندما راح يحرك في اختيال نظارته السميكة من شريطها، وعندما وجد نفسه، وهو ينحني في اختيال أيضاً إلى عالم من المحلفين، عند كتف السيد ميردل بالمصادفة البحتة، فانتهز هذه الفرصة وأشار إلى موضوع بسيط قال إنه يريد أن يستنير فيه بما لديه من خبرة عملية. وهنا تناول ذراع السيد ميردل وسار به في رفق بعيداً. وراح يحدثه عن رجل مالي يمكن أن نسميه أ.ب. أقرض مبلغاً كبيراً يمكن أن نقول إنه خمسة عشر ألف جنيه إلى عميلة أو زبونة لديه يمكن أن نسميها ب.ك -وهنا ازدادت قبضة قطب المحاماة على ذراع السيد ميردل في أثناء اقترابهما من اللورد ديكيموس- ولضمان تسديد المبلغ المدينة به ب.ك والتي يمكن أن نقول إنها سيدة أرملة، وضعت بين يدي الممول أ.ب. مستندات ملكية مزرعة خالية من الديون يمكن أن نسميها بلنكيتر دودلز، والموضوع الآن هو هذا. كان لابن العميلة ب.ك، ولنسمه إكس. داي، حق قانوني محدد للحصول على كميات معينة من أخشاب غابة بلنكيتر دودلز ولكن هذا أمر في الواقع سيء جداً! إذ لا يجوز إطلاقاً تعطيل مضيفنا السيد ميردل في وجود اللورد ديكيموس بمثل هذه المشكلات القانونية الجافة. إن هذا شيء لا يليق حقاً، ويمكن تأجيله إلى وقت آخر! إن قطب المحاماة متأسف حقاً ومن ثم لن ينطق بكلمة أخرى. هل يسمح الأسقف بأن يحدثه قليلاً؟ وكان عندئذ قد وضع السيد ميردل على المتكأ بجانب اللورد ديكيموس، وأصبح عليهما أن يتحدثا الآن وإلا ضاعت الفرصة إلى الأبد.

والآن مضى بقية المدعوين وهم في حالات الانفعال والاهتمام الشديد، فيما عدا الأسقف الذي لم يكن لديه أية فكرة عن شيء ما يجري، وتحلقوا حول نيران مدفأة في غرفة استقبال أخرى، وتظاهروا بتبادل الحديث -في بساطة- عن عدد لا يحصى من الموضوعات الخفيفة، بينما كانت أفكار ونظرات كل واحد منهم تتجه خلسة نحو الاثنين المنعزلين.

وكان أعضاء الهتافة متوتري الأعصاب جداً، ربما لأنهم كانوا يعانون من خوف انتزاع بعض السلطات من أيديهم. وكان الأسقف وحده هو الذي يتحدث بانتظام واستمرار. كان يتحدث مع الطبيب الكبير عن ارتخاء الحبال الصوتية الذي يعانيه كثيراً عدد كبير من القساوسة الشبان، وعن الوسائل التي تخفف من هذه الإصابات المؤثرة على سير الأحوال في الكنائس وكان من رأي الطبيب -بوجه عام- أن أحسن وسيلة لتجنب هذه الإصابة هو معرفة كيفية القراءة قبل أن يتخذ الإنسان القراءة مهنة له. وقال الأسقف، في شك، هل حقاً يرى هذا؟ وقال الطبيب إنه، بالتأكيد يرى هذا.

وخلال هذا كان فرديناند الشخص الوحيد الذي راح ينوش خارج الحلقة، وظل في حالة وسطى بين المتحلقين والاثنين المتحدثين كأنما ثمة عملية جراحية كان اللورد ديكيموس يجريها على السيد ميردل، أو كان السيد ميردل يجريها على اللورد ديكيموس. والواقع أن اللورد ديكيموس استدعاه خلال ربع ساعة، فذهب إليه، واتخذ مكانه من المؤتمر لمدة خمس دقائق أخرى ثم إذا شهقة نصف مكتومة تند عن جماعة الهتافة، ذلك لأن اللورد ديكيموس نهض لينصرف. ومرة أخرى -بفضل توجيهات فرديناند ليجعل نفسه محبوباً من الجميع- راح يصافح بكل بشاشة ولباقة جميع الموجودين، بل لقد قال لقطب المحاماة:

- أرجو ألا تكون قد شعرت بالسأم من حديثي عن الكمثرى.

فردّ قطب المحاماة قائلاً:

- كمثرى إيتون أم كمثرى البرلمان؟

وذلك لكي يبين له أنه فهم الفكاهة، ويوحي له بأنه لن ينساها ما دام على قيد الحياة.

وبعد ذلك انصرف السيد تايت بارناكل بكل هيله وهيلمانه وأزراره وتبعه فرديناند ليذهب إلى الأوبرا. وتلكأ بعض الباقين قليلاً، ملوِّثين المناضد الفاخرة بدوائر لزجة ناتجة من وضعهم الكؤوس ذات الشراب الذهبي عليها. وكانوا يحاولون جاهدين أن يسمعوا السيد ميردل يقول شيئاً. ولكن السيد ميردل، كالمعتاد، راح ينساب ببطء وتلكؤ في غرفة الاستقبال دون أن يقول شيئاً.

وبعد يوم أو يومين أعلن في جميع أنحاء المدينة أن إدموند سباركلر المحترم، ابن حرم السيد ميردل العالمي الشهرة قد أصبح واحداً من السادة في إدارة الشؤون العامة. وقد تم الإعلان بكل ضجة وضجيج إلى جميع الأتباع المخلصين بأن هذا التعيين الفاخر يجب الترحيب به باعتباره تكريماً سامياً مسبغ من الكريم السامي اللورد ديكيموس على مصالح الدوائر التجارية التي يجب أن تراعى دائماً في الدولة التجارية. وهكذا أخذت الأوراق المالية وسندات البنوك بعد هذا التكريم الحكومي تزدهر وترتفع. وأخذ المدهوشون يتوافدون على شارع هارلي ستريت، بميدان كاثنديش، فقط ليتفرجوا على البيت الذي تعيش فيه هذه الأعجوبة الذهبية.

ولما رأى هؤلاء المدهوشون رئيس السقاة وهو يطل من باب الصالة في إحدى لحظات تواضعه، قالوا يا له من ثري ضخم، وتساءلوا عن قيمة ما لديه من أموال في بنكه العجيب. ولكن لو أنهم عرفوا إله[1] النقمة هذا المحترم على حقيقته، لما تساءلوا عن قيمة المال، ولعرفوا المبلغ على وجه التحديد.

(1) يقصد رئيس السقاة.

انتشار الوباء



إن وقف عدوى أخلاقية لا يقل صعوبة عن وقف العدوى الوبائية، ذلك أن مثل هذا المرض الأخلاقي ينتشر بنفس السرعة والضراوة التي ينتشر بها الطاعون. ذلك لأن هذا الوباء، وقد أطل برأسه لن يرحم قريباً أو بعيداً، وإنما ينشب أظفاره في أحسن الناس صحة، ثم ينمو في أجسام أقل ما تكون صلاحية له. وقد ثبتت هذه الحقائق بالتجربة تماماً ثبوت قدرتنا نحن البشر على تنفس الهواء. وإنه ليكون من أعظم ألوان الرحمة التي تسبغ على البشر لو أن في الإمكان اكتشاف أمر هذه الأوبئة وهي في حالة ضعفها أو خبئها ثم وضعها في معازل محكمة -فضلاً عن سحقها تماماً- قبل أن تستشري سمومها.

وكما أن النار الهائلة تملأ الجو على مسافات بعيدة بزئيرها، فكذلك الشعلة المقدسة التي احترمها آل بارناكل العِظام قد جعلت الهواء يرن ويزداد رنيناً باسم ميردل. لقد وُضِع على كل لسان، وحُمِل إلى كل أذن. إنه لم يحدث من قبل، وما حدث قط، ولن يحدث أبداً أن وُجِد رجل مثل السيد ميردل. ولم يكن أحد يعرف -كما سبق القول- ماذا فعل، ولكن كل إنسان يعرف أنه أعظم رجل ظهر على وجه الأرض.

وفي حوش بليدنج هارت لم يكن هناك فرد يمتلك نصف بنس دون أن يقل اهتمامه في هذا الأنموذج للرجال عن أي شخص في بورصة

الأوراق المالية. فالسيدة بلورنيش التي استقرت الآن في متجر صغير للبقالة وغيرها بمحل صغير في الطرف الأدنى من الحوش على رأس السلم حيث يعاونها أبوها العجوز الضئيل والفتاة ماجي، هذه السيدة بلورنيش كانت تعقد حلقات الحديث عنه مع الزبائن على منصة البيع. وكان السيد بلورنيش الذي ساهم بنصيب بسيط في شركة بسيطة لعمليات البناء في مكان قريب يقول وهو يحمل المالج[1] فوق السقالات أو على مشارف أسقف البيوت، إن الناس يخبرون بأن السيد ميردل هو الشخص الوحيد -انتبه- سيهيئ لنا جميعاً الأوضاع المناسبة فيما يتعلق بكل ما نرجوه، وأن يعود بنا جميعاً في حالة من الأمن المرجوّة -انتبه- من الرخاء. والسيد بابتست، الساكن الوحيد مع السيد والسيدة بلورنيش، قد اشتهر همساً، بأنه يستثمر مدخراته التي جمعها من الحياة ببساطة وتواضع، في إحدى مشروعات السيد ميردل. وكانت نسوة حوش بليدنج هارت عندما يأتي من أجل أوقية شاي وأضعاف هذا الوزن من الحديث يخبرن السيدة بلورنيش عن كيف، يا مدام، أنهن سمعن من ابنة العم ماري آن، التي تعمل في شركة نقل أن ملابس زوجة السيد ميردل تكفي لملء ثلاث سيارات من البضائع، وعن كيف أنها سيدة جميلة، يا مدام، كأجمل من عاش على وجه الأرض، وأن لها صدراً كالمرمر نفسه، وعن كيف أن لها -كما قيل لهن يا مدام- ابناً من زوج سابق قد التحق بالحكومة؛ وأنه لو صحّ كل ما يقال عنه، كان قائداً، وأنه قاد الجيوش المرة بعد الأخرى إلى النصر المؤزر. وعن كيف تواترت الأقوال بأن كلمات السيد ميردل كانت تدور حول أنه إذا كان يرى من فائدته أن يشتري الحكومة كلها لاشتراها بلا أرباح، ولكنه لا يقبل هذا بخسارة، وعن كيف أنه لم يكن من المتوقع، يا مدام، أن يخسر في هذه الصفقة، إن طرقاته

(1) المسطرين «في البناء».

كما يمكن أن يقال ودون زيف، مفروضة بالذهب وأنه من المؤسف جداً أن شيئاً ما لطيفاً لم يحدث ليجعله يتم هذه الصفقة، وذلك لأن مثله، ومثله فقط، يعرف إلى أي حد ارتفعت أسعار الخبز واللحم، وأن مثله، ومثله فقط، يعرف كيف يهبط بهذه الأسعار.

وقد بلغت حمى الإعجاب بالسيد ميردل في حوش بليدنج هارت حدّاً جعل المحمومين لا يتهربون من أيام تحصيل الإيجارات على يدي السيد بانكس. وقد اتخذ المرض شكلاً معيناً، في تلك المناسبات، جعل المصاب به يجد أعمق العذر والعزاء عند الإشارة إلى الاسم الساحر.

كان السيد بانكس يقول للمستأجر المدين:

- والآن، هيا ادفع، هيا.

فيرد المستأجر المدين قائلاً:

- ليس لدي شيء يا سيد بانكس. وإني أصدقك القول يا سيدي حين أخبرك أنني لا أكاد أملك نصف شلن أسعد به نفسي.

فيردّ السيد بانكس قائلاً:

- إن هذا لا يجدي. وأنت لا تتوقع أن في هذا أي جدوى. أليس كذلك؟

وهنا يعترف المستأجر المدين، في حالة معنوية هابطة، بأنه «لا، يا سيدي» لا يتوق شيئاً من هذا.

وعندئذ يستطرد السيد بانكس قائلاً:

- إن صاحب المُلك لا يستطيع أن يقبل هذا، كما تعلم. إنه لم يرسلني لهذا. ادفع ما عليك، هيا.

فتكون إجابة المستأجر المدين هكذا:

- آه، سيد بانكس! لو كنت ذلك الرجل الغني الذي يتردد اسمه على كل لسان، لو كان اسمي ميردل، يا سيدي، لدفعت كل ما عليّ، ولسررت لهذا أيضاً.

وكان الحوار الخاص بموضوع الإيجار يقع عادة أمام أبواب البيوت أو في مداخلها. وفي حضور عدد كبير من المهتمين جداً بالأمر في حوش بليدنج هارت. وكانوا يستقبلون دائماً هذه الإشارة من الحديث عن السيد ميردل بغمغمة خافتة كأنها هي دليل مقنع، وكان المستأجرون المتخفون، أياً كان شعورهم بالضيق والاستياء يتبهجون بعض الشيء من إشارتهم إليه.

وكان المستأجر المدين يستطرد عندئذ وهو يهز رأسه:

- لو كنت يا سيدي السيد ميردل، لما كان ثمة ما يدعوك للشكوى مني عندئذ. لا، صدقني! كنت أدفع لك عندئذ يا سيد بانكس قبل أن تطالبني بذلك.

وهنا تسمع مرة أخرى غمغمة الموافقة التي توحي بأنه من المستحيل أن يكون هناك ما هو أحسن من هذا القول، وأن هذا خير وسيلة يمكن دفع المال بها.

ويضطر السيد بانكس إلى القول وهو يحفظ الحالة:

- حسناً، لسوف يوقع عليكم الحجز وتُطرَدون من المساكن. هذا ما سوف يحدث لكم. إذ لا جدوى من الحديث معي عن السيد ميردل. فليس بينكم من هو السيد ميردل، مثلي تماماً.

فيرد المستأجر المدين قائلاً:

- لا يا سيدي؛ ولكنني كنت أرجو فقط لو أنك كنت.

ويستجيب المتجمعون إلى هذا بسرعة قائلين في حماسة:

- كنا فقط نرجو لو أنك كنت أيها السيد.

ويستطرد المستأجر المدين قائلاً بروح معنوية مرتفعة:

- إنك عندئذ تكون أرحم بنا لو كنت السيد ميردل يا سيدي، وعندئذ يكون الخير عاماً على الجميع، الخير لنا، والخير لك. إنك عندئذ ما كنت لتزعج أحداً منا يا سيدي. إنك ما كنت لتزعجنا، أو تزعج نفسك يا سيدي. إنك كنت تغدو أهدأ بالاً يا سيدي، وتتيح للغير أن يكونوا أهدأ بالاً. لو أنك كنت السيد ميردل.

كان السيد بانكس -الذي اعتاد أن يُخجِل تواضعه هذا المديح الشخصي- لا يتمادى قط في هجماته. وإنما كان يعمد فقط إلى قرض أظافره، ثم الانصراف. وهو ينفخ إلى أقرب مستأجر آخر مدين، وعندئذ يتحلق المجتمعون من سكان حوش بليدنج هارت حول المستأجر المدين المتروك. وسرعان ما تتطاير الشائعات المبالَغ فيها -والتي يجدون فيها أعظم راحة نفسية- عن مقدار ما لدى السيد ميردل من أموال نقدية.

وفي يوم من أيام تحصيل الإيجارات، وبعد هزيمة من هذه الهزائم الكثيرة، وعندما كان السيد بانكس قد فرغ من عملية التحصيل، قصد -ودفتر الحسابات تحت ذراعه- إلى ركن السيد بلورنيش. ولم يكن هدف السيد بانكس من هذه الزيارة عملياً، وإنما كان اجتماعياً. لقد عانى في يومه ذاك الشيء الكثير، ومن ثم أحس بالرغبة في شيء من الانتعاش. وكان في ذلك الحين على علاقات ودية مع أسرة بلورنيش، إذ كان يقوم بزيارتهم عادةً في مثل هذه المناسبات، ويقوم بدوره في استعادة الذكريات عن الآنسة دوريت.

وكانت غرفة الاستقبال الملحقة بمتجر السيدة بلورنيش قد زُخرِفت على هواها، إذ طلبت أن يُرسَم على الجدار المواجه لمدخل المتجر صورة

خيالية كثيراً ما أسعدت رؤيتها قلب السيدة بلورنيش إلى حد لا يوصف. كانت تلك الصورة الشاعرية لغرفة الاستقبال تتكون من الجزء الخارجي لكوخ مظلل السقف بالأعشاب. وقد حرص الفنان «بطريقته التأثيرية التي لا تبارى في رسم الأبعاد بطريقة خاطئة» على رسم الباب والنافذة بوضوح، وكذلك كانت زهور عباد الشمس والخطمية[1] مرسومة وهي تزدهر بروعة وجمال على هذا المسكن الريفي البسيط، بينما تتصاعد كميات كثيفة من مدخنته فتوحي بلون الحياة الطروب التي بداخله، ولعلها توحي، أيضاً، أنها -أي المدخنة- لم تُنظَّف منذ مدة. وكان ثمة كلب وَفِيّ مرسوم وهو يهجم على ساقي أحد الأصدقاء الزائرين، من العتبة، وبرج حمام مكسو بسحابة من الحمام، يقوم من وراء سياج الحديقة. وعلى الباب -عندما يكون مغلقاً- تبدو لافتة نحاسية، مشابهة للافتة المتجر، مكتوب عليها هذه العبارة «كوخ السعادة - ت.م بلورنيش» ويرمز هذان الحرفان إلى شركة الحياة بين الرجل وزوجته. وما كان ثمة أشعار أو فنون للرسم يمكن أن تستهوي خيال السيدة بلورنيش كما تستهويها الحياة الزوجية داخل هذا الكوخ الفاتن. لم يكن يهمها كثيراً اعتياد السيد بلورنيش على الاستناد إلى المنظر ليدخن تبغه بعد عودته من العمل، وعندما كانت قبعته تحجب برج الحمام وكل الحمام، وعندما كان ظهره يبتلع المسكن كله، وعندما كانت يداه وهما في جيبه يقلبان الحديقة رأساً على عقب ويتركان ما حولها ريفاً أجرد. وإن الكوخ في نظر السيدة بلورنيش يظل كوخاً رائعاً وخدعة مدهشة. ولم يكن يهمها كثيراً أن ترتفع عين السيد بلورنيش بضع بوصات فوق مستوى سقف غرفة النوم المكسو بالأعشاب من أعلى. إن عودتها من المتجر بعد أن تغلقه، وسماعها لأبيها وهو يغني داخل ذلك الكوخ لشيء سماوي في نظر السيدة بلورنيش، إنه العصر الذهبي يبعث.

(1) الخبيزة الإفرنجية.

ولو أن هذه الحقبة المشهورة من الزمن بُعِثت حقاً، أو كان لها وجود على الإطلاق، فربما كان من المشكوك فيه أنها أنجبت عدداً كبيراً من بنات حواء أسعد قلباً من هذه المرأة المسكينة.

ولما علمت بوجود زائر عند باب المتجر عن طريق صلصلة الجرس، أسرعت السيد بلورنيش خارج كوخ السعادة لترى من قد يكون. فلما رأته قالت:

– خطر لي أنه أنت يا سيد بانكس، لأن هذا موعد زيارتك العادية، أليس كذلك؟ ها هو ذا أبي، كما ترى، قد جاء ليخدم العملاء عند سماعه صلصلة الجرس، وكأنه عامل شاب نشيط. ألا تراه يبدو في حالة طيبة! إن أبي أكثر سروراً برؤيتك مما لو كنت زبوناً، لأنه يحب «دردشة» الحديث جداً. وإذا تحول الحديث إلى الآنسة دوريت، فإنه يزداد له حباً. إنك لا يمكن أن تجد أبي أعذب صوتاً منه في هذه المناسبة.

وكان صوت السيدة بلورنيش يتهدج بالسرور والزهو وهي تردف قائلة:

– لقد غنى لنا أمس أغنية لستيفن ببراعة جعلت بلورنيش ينهض ويلقي عليه هذا الحديث عبر المائدة «جون إدوارد ناندي» هكذا قال بلورنيش لأبي «إنني لم أسمعك رائعاً في ليلة ما كما سمعتك هذه الليلة»، أليس هذا شيئاً مبهجاً يا سيد بانكس، حقاً!!

وردّ السيد بانكس –الذي كان قد أشار للرجل العجوز بطريقة ودية بالإيجاب– ثم سأل عرضاً ما إذا كان ذلك الشاب الطروب –صاحب كلمة آلترو– قد عاد! فردّت السيدة بلورنيش قائلة إنه لم يعد بعد وإن كان قد ذهب إلى حي الوست إند لبعض الأعمال، وإنه قال سوف يأتي حتماً في موعد الشاي. وعندئذ أُدخِل السيد بانكس إلى الكوخ

السعيد في ترحاب، حيث التقى بالصغير بلورنيش الابن فور عودته من المدرسة. ولما امتحن ذلك الطالب الصغير، برفق، فيها درسه من مواد في أثناء يومه، تبين له أن التلاميذ الأكثر تقدماً في الدراسة قد وصلوا إلى حرف «الميم» فكتبوا عنها «ميردل، ملايين..».

وهنا سأل بانكس قائلاً:

- وعلى ذكر الملايين يا سيد بلورنيش، كيف الحال معك؟

فردّت السيدة بلورنيش قائلة:

- على خير حال في الواقع. يا أبي العزيز. أتسمح بالذهاب إلى وجهة المحل وتنظيفها وترتيبها بعض الشيء قبل تناول الشاي، إن ذوقك جميل حقاً.

ومضى جون إدوارد ناندي بخطوات قصيرة سريعة، وهو جد مغتبط، لتحقيق رجاء ابنته. وهكذا تركت السيدة بلورنيش على انفراد مع السيد بانكس لتتبادل معه الحديث الخاص، لأنها كانت دائماً في فزع شديد من الإشارة إلى الشؤون المالية أمام أبيها العجوز خشية أن تثير بعض الحقائق التي قد تدفعه للهرب إلى الملجأ مرة أخرى.

وهكذا عادت السيدة بلورنيش تقول بصوت أكثر خفوتاً:

- حقاً إن العمل على خير حال، وأصبح لدينا عملاء كثيرون، ولكن المشكلة الوحيدة التي تقف في طريقه يا سيدي هي الديون التي لنا على غيرنا «الالتزامات».

وكانت هذه المشكلة -التي يشعر بها إلى حد كبير معظم المشتغلين بالمعاملات التجارية مع سكان حوش بليدنج هارت- عقبة كأداء ضخمة في تجارة السيدة بلورنيش. وعندما أعدّ لها السيد دوريت هذا

المتجر أعرب سكان حوش بليدنج هارت عن تأثرهم، وقرروا معاونتها، مكرِّمين بذلك الطبيعة الإنسانية. ولإدراكهم بما لها من حق في عواطفهم الكريمة نحوها باعتبارها واحدة من مجتمعهم، آلوا على أنفسهم، بكل بحماسة، أن يتعاملوا، مهما يكن الأمر، وألا يسبغوا حمايتهم ورعايتهم على أحد غيرها. بل لقد تجاوزوا -تحت تأثير هذه المشاعر النبيلة- حدود طاقتهم وراحوا يشترون بعض ألوان الترف البسيطة في نطاق البقالة والزبدة التي لم يعتادوا عليها، قائلين لبعضهم البعض إنهم إذا كانوا يبسطون أيديهم قليلاً، أفليس هذا لصالح جار وصديق، فإذا لم يبسط الإنسان يده لمثل هذا، فلأي شيء يبسطها! وعلى هذا النحو نشطت المعاملات التجارية، وسرعان ما نفدت السلع المختزنة. وبإيجاز، لو أن سكان حوش بليدنج هارت كانوا يدفعون، لانتهى الأمر إلى نجاح كامل. ولكن بما أنهم اتخذوا موقف الشراء بالنسيئة، فإن الأرباح الحقيقية لم تبدأ بعد في الوضوح بالدفاتر.

وكان السيد بانكس قد اتخذ من نفسه حالة مالية مجسمة بأن جعل شعر رأسه ينتصب وهو يفكر في هذه الحالة من المحاسبات، عندما عاد العجوز السيد ناندي ودخل الكوخ في شيء من التوجس، وراح يرجوهما أن يأتيا إلى الخارج وينظرا إلى التصرف الغريب للسيد بابتست الذي بدا أنه التقى بشيء أثار فزعه. ومضى الثلاثة إلى المتجر، وراحوا ينظرون من وراء واجهته الزجاجية؛ وما لبثوا أن رأوا السيد بابتست وهو شاحب مهتاج يقوم بهذه التصرفات الغريبة التالية: أولاً: لوحظ أنه مختبئ عند قمة السلم المؤدي إلى الحوش، وكان في مخبأه يختلس النظر إلى الشارع من جهتيه، ورأسه مطلة بحذر بالقرب من جانب المتجر؛ وبعد تطلع ملهوف في جوانب الشارع، غادر مخبأه وسار مسرعاً فيه وكأنما ينوي أن ينصرف تماماً؛ ثم إذا به يستدير فجأة ويعود سائراً بنفس السرعة وبنفس القصد في الاتجاه المضاد. وقبل أن يتجاوز في الاتجاه الجديد المسافة التي قطعها في

الاتجاه الأول، إذا به يعبر الشارع ويختفي. ولم يعرف الهدف من هذه المناورة إلا عندما دخل المتجر بحركة سريعة مفاجئة من ناحية السلالم مرة أخرى.. لقد عرف عندئذ أنه قام بدورة واسعة مبهمة نحو الطرف الآخر من الحوش -الذي يقع فيه مصنع دويس وكلينام- ثم اخترق الحوش واندفع إلى المتجر. وكان عندئذ قد غدا مبهور الأنفاس، كما كان متوقعاً، وبدأ قلبه يخفق بأسرع من جرس المتجر الصغير وهو يصلصل وراءه في أثناء إغلاقه السريع للباب.

وقال السيد بانكس:

- هاللو أيها الصاحب العزيز. آلترو، يا ولدي العجوز، ماذا جرى؟

كان السيد بابتست، أو السيد كافالليتو، يفهم الإنكليزية عندئذ كالسيد بانكس نفسه، كما كان يستطيع الحديث بها جيداً أيضاً. ومع ذلك فقد تقدمت السيدة بلورنيش بذلك الغرور المحتمل لتقوم بدورها للترجمة بينهما وكأنما هي نفسها إيطالية المنبت: فقالت:

- إنه يسألك، ماذا جرى؟

فردّ السيد بابتست وهو يؤكد وجوب السرية والتخفي بحركة خلفية من سبابته اليمنى:

- هيا إلى الكوخ السعيد يا بادرونا. هيّا إلى هناك.

وكانت السيدة بلورنيش فاخرة بلقب «بادرونا» الذي كانت تراه لا يدل على أنها ربة بيت، بقدر ما يدل على لقب «سيدة» باللغة الإيطالية. وسرعان ما استجابت لرجاء السيد بابتست، فدخلوا جميعاً إلى الكوخ.

وقالت السيدة بلورنيش وهي تترجم عن السيد بانكس بأسلوب جديد ينم عن خصب خيالها المعتاد.

- إنه يرجو ألا تخاف من شيء، ماذا حدث.. تكلم مع البادرونا، فردّ بابتسامة قائلاً:

- لقد رأيت شخصاً ما. شخصاً كنت أتجنب لقاءه.

فقالت السيدة بلورنيش:

- شخصاً ما! لقاءه!

- رجل شرير... أكثر الناس شراً. وكنت أتمنى ألا أراه قط.

فسألته السيدة بلورنيش:

- وكيف عرفت أنه شرير!

- هذا لا يهم يا بادرونا، فإنني أعرفه تمام المعرفة.

فسألته السيدة بلورنيش:

- وهل رآك؟

- لا. أرجو ألا يكون. لا أعتقد هذا.

وهنا راحت السيدة بلورنيش تقول مترجمة لأبيها وللسيد بانكس في تواضع رقيق:

- يقول إنه التقى برجل شرير، ولكنه يرجو ألا يكون الرجل الشرير رآه، لماذا..

وحولت السيدة بلورنيش السؤال إلى اللغة الإيطالية المكسرة:

- لماذا كنت ترجو ألا يراك الرجل الشرير.

فردّ الأجنبي الضئيل الجسم الذي كانت تتولى حمايته مشكورة:

– يا عزيزتي بادرونا، لا تسأليني، أرجوك، وأقول مرة أخرى إن هذا لا يهم. إنني أخشى هذا الرجل، ولا أريد أن أراه، ولا أريد أن أعرفه مرة أخرى أبداً!... كفى هذا أيتها الجميلة. ولندع الأمر عند هذا الحد.

وكان الموضوع بغيضاً لديه، ومؤثراً أسوأ تأثير على حيويته العادية بحيث رأت السيدة بلورنيش ألا تزيد الضغط عليه، لا سيما وقد كان موعد الشاي قد أصبح وشيكاً. ولكن امتناعها عن إلقاء الأسئلة لم يكن يدل على أنها غدت أقل دهشة وفضولاً. لا ولا السيد بانكس الذي كانت أنفاسه التعبيرية تعمل بقوة منذ دخول الرجل الضئيل كأنها قاطرة بخارية تجر حمولة ثقيلة تصعد بها طريقاً شديد الانحدار. وكانت ماجي التي غدت الآن أحسن حالاً من ناحية الملابس رغم تمسكها بتلك القبعة الرهيبة.. واقفة في موضع خلفي منذ اللحظة الأولى بفمها الفاغر وعينيها المحملقتين، ولم يكن موضوع الحديث في تلك اللحظة ليخفف بطبيعة الحال من اتساع هذه الملامح المفتوحة باستمرار. وعلى كل حال، لم يقل أحد شيئاً بعد ذلك، رغم أن كل شيء كان يدل على اتجاه أفكار الجميع نحو ذلك الموضوع! ولم يستثن من هذا الموقف، بأي حال، الصغيران بلورنيش اللذان كانا يتناولان نصيبهما من طعام العشاء وكأنهما يجدان في أكلهما للخبز والزبدة أمراً لا غناء فيه ما دام أسوأ الناس سوف يأتي بعد قليل ويلتهمهما. وبدأ السيد بابتست -تدريجياً- يثرثر قليلاً دون أن يتحرك، قط من المكان الذي جلس فيه وراء الباب، وبجانب النافذة، رغم أنه لم يكن مكانه المعتاد. وكان كلما سمع صلصلة الجرس يجفل ويختلس النظر إلى الخارج خفية وطرف الستارة الصغيرة في يديه، وبقيتها أمام وجهه، مما يدل على أنه لم يكن مطمئناً تماماً إلى أن الرجل الذي يخشاه لم يقتف أثره بعناد كلب المطاردة الرهيب رغم كل محاولاته للإفلات منه.

وكان دخول اثنين أو ثلاثة من العملاء، والسيد بلورنيش، على فترات مختلفة قد جعل السيد بابتست بسبب تصرفاته هذه، موضع انتباه

الجميع إليه دائماً. وفرغ الجميع من الشاي، وأوى الطفلان إلى فراشهما، وبدأت السيدة بلورنيش في أداء واجبها نحو أبيها وتطلب منه أن يسمعهم شيئاً من أغنيات كلو عندما رن الجرس مرة أخرى وأقبل السيد كلينام.

كان كلينام قد انشغل بدفاتره ورسائله حتى ساعة متأخرة، لأن غرف الانتظار في إدارة الشؤون العامة كانت تفتك بوقته بشكل مزعج. وعدا هذا، وفوق، هذا، كان يشعر بالقلق والانقباض بسبب ما حدث أخيراً في غرفة أمه. ومن ثم كان يبدو مرهقاً منعزلاً. وكان يشعر بهذا أيضاً، ولكنه، مع هذا، قرر أن يعود إلى بيته من مكتبه عن طريق هذا الطرف من الحوش ليخبر آل بلورنيش أنه تلقى رسالة من دوريت الصغيرة.

وأثار هذا النبأ موجة من الاهتمام في الكوخ مما أبعد الانتباه العام عن السيد بابتست. وبدا كأن ماجي -التي شقت طريقها إلى المقدمة فوراً- تريد أن تستوعب أخبار أمها الصغيرة بأذنيها وأنفها وفمها وعينيها لولا أن هاتين كانتا مليئتين بالدموع. ولشد ما كانت بهجتها -بوجه خاص- حين أكد لها كلينام أن هناك في روما مستشفيات على جانب كبير من النظام. وحلق السيد بانكس إلى آفاق جديدة لأن اسمه ذُكِر -بوجه خاص- في الرسالة. وأحس كلينام أنه كوفئ على تعبه حين رأى أن كل شخص قد اهتم بالرسالة وابتهج.

وقالت السيدة بلورنيش:

- ولكنك متعب يا سيدي.. دعني أصنع لك قدحاً من الشاي، إذا أمكن وتنازل لأخذ شيء كهذا في الكوخ. وإني أقدم، بكل تأكيد، شكرنا العميق أيضاً لأنك ما زلت تذكرنا بمثل هذا العطف.

ورأى السيد بلورنيش أن من الواجب عليه باعتباره رب البيت، أن يضيف إلى هذا تحياته الشخصية، فراح يقدمها بطريقته التي يراها دائماً

مثلاً أعلى في الجمع بين الخطابة والإخلاص. ومن ثم قال موجهاً الحديث إلى والد زوجته العجوز:

- جون إدوارد ناندي. سيدي؛ إنك لا ترى كثيراً مثل هذه التصرفات المخلصة الخالية من أية بادرة للكبرياء. فإذا رأيتها من ثم فاحتفل بها واعترف بأصالتها، لأنك إن لم تفعل واحتجت إليها يوماً فلم تجدها، فسوف تكون المسؤول عن هذا.

وعلى هذا أجاب السيد ناندي:

- إنني أتفق معك بكل قلبي في رأيك هذا يا توماس، وما دام رأيك هو رأيي، فلا حاجة بنا -من ثم- إلى أقوال أخرى، لأن رأيي غير مختلف عن رأيك، دائماً يقول له نعم يا توماس، نعم، إنه الرأي الذي ينبغي يا توماس أن نجتمع عليه مع الجميع، وعندما لا يكون ثمة اختلاف في الرأي، فإن الرأي عندئذ لا يكون إلا واحداً يا توماس، لا يكون قط إلا واحداً.

وأعرب آرثر -بطريقة أقل من هذه الرسميات- أنه مغتبط بهذا التقدير الرفيع الذي أسبغوه عليه بسبب هذه الخدمة البسيطة التي قام بها ثم قال إنه فيما يختص بالشاي، فقد كان يسره أن يتقبل هذا الكرم لولا أنه لم يتناول بعد عشاءه وأنه سيمضي إلى مسكنه فوراً لينتعش بعد يوم حافل بالعمل. وفيما كان السيد بانكس يعبئ أنفاسه التجارية بشيء من الجلبة استعداداً للانصراف، فقد اختتم كلينام حديثه بسؤال ذلك السيد ما إذا كان يحب السير معه؟ وقال السيد بانكس إنه لا يرغب في أحسن من هذه الصحبة، وهكذا غادر الاثنان الكوخ.

وقال آرثر عندما وصلا إلى الشارع:

– إذا جئت معي إلى البيت يا بانكس، فسوف أشركك معي في تناول العشاء. ولو أنك فعلت لاعتبرت هذا عطفاً منك، لأني أشعر بالتعب والضيق هذه الليلة.

فقال بانكس:

– اطلب مني أن أقوم بخدمة أكبر من هذه عندما تريد أن يقوم بها أحد، وسوف أقوم بها.

وكانت عوامل التفاهم الضمني والوفاق المتبادل بين هذه الشخصية الغريبة الأطوار وكلينام تتحسن باستمرار منذ أن قفز بانكس على ظهر السيد راج في فناء سجن مارشاليزا. وعندما انطلقت المركبة في ذلك اليوم الخالد الذي رحلت فيه الأسرة، أخذ هذان الاثنان يشيعانها بنظراتهما معاً، ثم سارا معاً ببطء منصرفين. وحين جاء الخطاب الأول من دوريت الصغيرة لم يكن هناك من هو أكثر اهتماماً بإنبائها من السيد بانكس. وكان الخطاب التالي الموضوع في تلك اللحظة داخل جيب صدرية كلينام قد اختص بانكس بذكر اسمه. ورغم أنه لم يحدث قط أن أثقل بانكس بصحبته على كلينام أو ضايقه بها، ورغم أنه لم يعرب بأقل الكلمات عن شعوره الخاص نحوه. فقد كان كلينام يؤمن منذ أمد بعيد إيماناً متزايداً بأن بانكس، بوسائله الغريبة، قد أصبح متعلقاً به. كانت هذه الخيوط المنسوجة كلها قد جعلت بانكس مستعداً للارتباط بكلينام في هذه الليلة.

واستطرد كلينام يشرح موقفه وهو يمضي معه في الطريق:

– إنني الآن وحيد تماماً. لأن شريكي غائب. مشغول بمهمة في مكان بعيد بأحد فروع شركتنا؛ ومن ثم يمكنك أن تكون على حريتك تماماً.

فقال بانكس:

- شكراً لله. إنك لم تلحظ بوجه خاص صاحبنا آلترو منذ لحظات، أليس كذلك؟

- لا، لماذا؟

فقال بانكس:

- إنه شاب بشوش. وأنا أحبه. وقد حدث ما أزعجه اليوم. فهل لديك أية فكرة عما يمكن أن يسبب له الإزعاج!

- إنك تدهشني! لا، مطلقاً.

وقدّم السيد بانكس الأسباب التي يبرر بها استفساره، وبدا أن آرثر لم يكن مستعداً لها، ومن ثم لم يستطع أن يقدم شيئاً لتفسيرها، وقال بانكس:

- ربما يمكنك أن تسأله؛ باعتباره أجنبياً عن البلاد؟

فردّ كلينام قائلاً:

- أسأله عن أي شيء؟

- عما يدور بذهنه ويزعجه.

فقال كلينام:

- ينبغي أن أرى بنفسي أولاً أن ثمة شيئاً يدور بذهنه ويزعجه. لقد وجدته في كل شيء مجتهداً؛ ومعترفاً بالفضل «للشيء القليل» وجديراً بالثقة، بحيث قد يبدو الأمر كأنما أشك فيه. وليس هذا من الإنصاف في شيء.

فقال بانكس:

- صدقت. ولكنني أقول! إنك لا ينبغي أن تكون مخدوماً لأحد أياً كان، يا سيد كلينام. لأنك أرق من هذا.

فردّ كلينام ضاحكاً:

- فيما يختص بهذا، فإنني لا أملك نصيباً كبيراً في شؤون كافالليتو. إنه يتكسب من نقش الخشب، وهو يحتفظ بمفاتيح المصنع، ويحرسه كل ثاني ليلة، ويقوم بعمل أمين مخزن له بوجه عام. ولكننا لا نستفيد كثيراً من مهنته التي يجيدها إلى حد النبوغ وإن كنا نقدم له الأجر المناسب. لا، إنني مستشاره أكثر من مخدومه. وإنه لأقرب إلى الصواب أن تسميني ناصحه الأمين وصاحب البنك الذي يودع فيه مدخراته. والحديث عن هذا الأمر الأخير يجعلني أتساءل يا بانكس، أليس من العجيب أن المضاربات التي تملأ رؤوس الناس جميعاً، تملأ رأس كافالليتو أيضاً!

فردّ بانكس وهو ينخر:

- مضاربات؟ أية مضاربات؟

- مضاربات ميردل!

فقال بانكس:

- أوه، استثمارات، نعم، نعم، إنني لم أكن أعرف أنك تتحدث عن الاستثمارات.

وكانت لهجته السريعة في الإجابة قد جعلت كلينام ينظر إليه في شك مما إذا كان يعني أكثر مما يقول. ولكن آرثر لم يتماد في بحث هذا الأمر، على كل حال، عندما لاحظ أن هذه اللهجة السريعة كانت مصحوبة بسرعة في الخطوة، وتجاوب في سرعة الأنفاس اللاهثة. ثم سرعان ما وصلا إلى البيت.

وتشحمت مفاتيح آلة السيد بانكس التجارية بشكل فعال بعد أن تناول مع كلينام عشاءً مكوناً من الحساء وفطائر محشوة بالحمام قُدِّم إليهما

على مائدة صغيرة مستديرة بجوار المدفأة، وزود بزجاجة من النبيذ الجيد ومن ثم أحس هذا السيد بتمام الرضا حين تناول كلينام تبغه الشرقي، وقدّم منه إلى بانكس، وراح كل منهما يُدِّخن باستمتاع.

وظلا يدخنان في صمت برهة كان السيد بانكس خلالها أشبه شيء بسفينة كل العوامل الجوية والبحرية في صالحها، من رياح مواتية، ومياه هادئة، ومدّ في الوقت المناسب، وكان أول من قطع حبل الصمت بقوله:

– نعم. الاستثمارات هي الكلمة المناسبة.

فقال آرثر وهو يرسل إليه نظرة الشك السابقة:

– آه!

وقال بانكس:

– إنني عائد إليها كما يرى.

فردّ كلينام وهو متعجب:

– أجل، أرى أنك عائد إليها.

وقال بانكس وهو يدخن:

– أليس من العجيب أن يجري التفكير في هذه الاستثمارات برأس آلترو! هه؟ أليس هذا ما كنت تعنيه؟

– نعم، هذا ما قلته.

– آه، ولكن تصور جميع سكان الحوش وهم يفكرون في هذا! وهم يقابلونني جميعاً هنا وهناك بهذا التفكير في يوم تحصيلي الإيجارات. وسواء دفعوا ما عليهم أو لم يدفعوا.. إنه ميردل.. ودائماً ميردل.

فقال آرثر:

- عجيب أن ينتشر هذا الافتنان على هذا النطاق الواسع.

- أليس كذلك!

ثم أضاف قائلاً بعد أن راح يدخن لحظة أو نحوها، وكان صوته أكثر جفافاً مما كان قبل لحظات:

- لأن هؤلاء الناس كما ترى لا يفهمون شيئاً عن حقيقة الأمر.

فقال كلينام:

- لا شيء إطلاقاً!

فصاح بانكس:

- لا شيء إطلاقاً.. إنهم لا يعرفون شيئاً عن الأرقام، ولا شيء عن المسائل المالية، ولم يقوموا قط بعمليات حسابية.. لم يتموا قط عملية حسابية واحدة يا سيدي.

- لو أنهم كانوا...

كان كلينام قد بدأ هذه العبارة عندما أصدر السيد بانكس -دون أن تتغير ملامحه- صوتاً فاق كل مجهوداته المعتادة في عالم الأصوات الصدرية أو الحلقية، ومن ثم توقف عن إتمام العبارة.

وكرّر بانكس الكلمات متسائلاً:

- لو أنهم كانوا... ؟

فقال آرثر وهو متردد فيما ينبغي أن يسمي ذلك الصوت الذي قاطعه:

- ظننتك قلت شيئاً؟

فقال بانكس:

- لا، مطلقاً. ليس الآن. ربما بعد لحظة. لو أنهم كانوا...

فقال كلينام وهو يعاني بعض الحيرة فيما ينبغي أن ينظر إلى صاحبه:

- لو أنهم كانوا يعرفون شيئاً من هذا، لأمكنهم أن يحسنوا الفهم كما أظن.

فسأل السيد بانكس، بسرعة، وبما يدل على نحو ما على أنه كان منذ بداية الحديث مشحوناً بهذه الطاقة التي يفرغها الآن:

- كتب هذا يا سيد كلينام؟ إنهم على صواب كما تعرف، وإنهم لا يقصدون ما يقولون، ولكنهم على صواب.

- على صواب في مشاركة كافالليتو الرأي في المضاربة مع ميردل.

فقال بانكس:

- تماماً يا سيدي. لقد أتممت التفكير في هذا. قمت بالعمليات الحسابية ووصلت إلى النتائج. إنها مضمونة ومؤكدة.

ولشعور السيد بانكس بالراحة بسبب وصوله إلى هذه المرحلة راح يجذب من تبغه الشرقي أنفاساً بقدر ما تتسع له رئتاه، ثم أخذ ينظر بحكمة واتزان إلى كلينام الذي كان يجذب أنفاس التبغ ويطلقها أيضاً.

وفي تلك اللحظات بدأت تظهر على السيد بانكس أعراض هذا الوباء الخطير المشحون فيه. وكانت تلك هي وسيلة انتقال هذا المرض. كانت تلك هي الطريقة الخفية التي ينتشر بها.

وسأل كلينام بلهجة تأكيدية:

- هل تعني أيها الطيب بانكس أنك على استعداد لوضع الجنيهات الألف التي لديك في -مثلاً- هذا النوع من الاستثمار!

فقال بانكس:

- بالتأكيد يا سيدي. وهذا ما حدث فعلاً.

وثم جذب السيد بانكس نفساً آخر طويلاً، ثم أطلق نفساً آخر طويلاً، ثم أرسل نظرة حكمة أخرى طويلة إلى كليْنام. ثم قال:

- أقول لك يا كليْنام إنني فعلت هذا. إنه رجل واسع الموارد، ضخم الثراء عظيم النفوذ في الحكومة. وإن مشروعاته أحسن المشروعات المعروفة، وهي مضمونة، ومؤكدة.

فردّ كليْنام وهو ينظر إليه أولاً في حزن، ثم إلى النار في حزن أيضاً:

- حسناً! إنك تدهشني.

فقال بانكس:

- هراء! لا تقل هذا يا سيدي. إن هذا ما ينبغي أن تفعله أنت، فلماذا لا تفعل كما فعلت!

ولم يكن السيد بانكس يعرف ممن انتقلت إليه هذه العدوى أكثر مما لو كان أصيب بالحمى دون وعي منه.

لقد ولد الداء أولاً -كمعظم الأمراض الجسمية- في خبث الناس، ثم ينتشر بجهلهم ثم إذا هذه الأوبئة، بعد فترة، تصل إلى مرضى لا هم جهلة ولا هم أشرار. وقد يكون السيد بانكس، وقد لا يكون، أصيب بهذا الداء من واحد من هذه الطبقة. ولكنه ظهر في هذه الحالة أمام السيد كليْنام، وكانت العدوى التي يقذف بها من ثَمَّ أشد تأثيراً:

وقال كليْنام مكرراً القول:

- وأنت قد استثمرت حقاً الجنيهات الألف التي تملكها هكذا يا بانكس؟

فقال بانكس بجرأة وبنفخة من دخان التبغ:

- بكل تأكيد يا سيدي، وكم تمنيت لو أنها عشرة آلاف.

وكان ثمة أمران يثقلان على ذهن كلينام في تلك الليلة: أولاً أمل شريكه المعطل منذ مدة طويلة، وثانياً ما رآه وما سمعه في غرفة أمه. وفي أثناء شعوره بالراحة لوجوده مع السيد بانكس، وفي إحساسه بأنه يستطيع الثقة به، عرج بالحديث إلى كليهما، ثم عاد كلاهما به، بقوة ودفع مفاجئ، إلى ما كان عليه في بدء الأمر.

وقد حدث هذا كله بأبسط طريقة. فبعد تركه لموضوع الاستثمار عقب فترة من الصمت كان خلالها ينظر من بين سحائب دخانه إلى النار، أخبر بانكس عن كيف ولماذا انشغل بالإدارة الأهلية العظيمة، ثم اختتم حديثه بكل المشاعر الصادقة التي أثارها موضوع الحديث:

- كانت حالة قاسية، ولا تزال حالة قاسية على دويس.

فوافق بانكس قائلاً:

- قاسية حقاً. ولكنك نجحت معه يا سيد كلينام.

- ماذا تعني؟

- نجحت في الجانب المالي من العمل؟

- نعم، بقدر ما أستطيع.

فقال بانكس:

- بل بأحسن يا سيدي. لقد عوضته عن كدحه وخيبة آماله. لقد أتحت له الوقت الكافي للعمل. إنه ما كان ليفيد نفسه كصانع فتى لو ظل مرهقاً مشغول الفكر. إنه معتمد عليك يا سيدي.

فردّ كلينام بقلق:

- إنني أبذل جهدي يا بانكس. أما فيما يختص بتقدير ووزن هذه المغامرات الجديدة التي لا خبرة لي بها، فإني أشك في صلاحيتي لها، لأني أسير نحو الكبر.

فصاح بانكس:

- تسير نحو الكبر؟ ها، ها.

وكان ثمة شيء من الأصالة المؤكدة في ضحكة بانكس التي عبر بها عن دهشته، وكانت سلسلة النخرات والنفخات التي مزج بها عجبه، وكان استنكاره الواضح لهذه الفكرة، قد جعله هذا كله يبدو جاداً فوق كل شيء.

وصاح مرة أخرى:

- يسير نحو الكبر! اسمعوا، اسمعوا، اسمعوا؟ الكبر! أتسمعون؟

وكان الإنكار المؤكد الذي بدا في نخرات السيد بانكس، فضلاً عن هذه الأمارات التي أعرب بها عن دهشته من تفكير كلينام في شيء كهذا لحظة واحدة، جعلت آرثر يبتعد عن هذه الفكرة تماماً. بل لقد خشي في الواقع، أن يحدث شيء ما لبانكس بسبب الصراع العنيف الذي كان يجري بين أنفاسه اللاهثة المنطلقة، وأنفاس الدخان المتدفقة إلى الداخل بقوة. وقد ألقى به تخليه عن هذا الموضوع الثاني، إلى الموضوع الثالث، فقال حين وجد الفرصة المناسبة:

- شاب أو كبير، أو متوسط العمر يا بانكس، فأنا أعاني حالة من القلق وعدم الاستقرار. حالة تجعلني أشك في هل أي شيء يبدو الآن ملكاً لي، ملك لي حقاً؟ هل أخبرك بسبب هذه الحالة؛ هل يمكن أن أضع ثقتي الكبيرة فيك؟

فقال بانكس:

- يمكنك يا سيدي إذا رأيت أني جدير بها.

- إني أرى هذا.

- يمكنك إذن.

قالها بانكس بسرعة وجِدَّة، وأكدها بأن مد فجأة يده القذرة بطريقة معبرة مقنعة. وصافح آرثر اليد بحرارة.

ثم راح يسرد مخاوفه القديمة بطريقة مخففة، وبقدر ما يستطيع من المطابقة التي تجعل حديثه مفهوماً، وذلك دون أن يشير قط إلى أمه باسمها، وإنما كان يتحدث عنها بغموض على زعم أنها إحدى قريباته. وهكذا أسرَّ إلى بانكس بالخطوط العريضة للشكوك التي تصطرع في صدره، وبالمقابلة التي شاهدها في غرفتها، وبلغ من اهتمام بانكس بالإنصات إليه أنه أهمل متعة تدخين التبغ الشرقي، فوضعه على سياج المدفأة بين القضبان؛ وشغل يديه في أثناء عملية السرد كلها بفرد وبسط حلقات وليّات شعره في جميع أنحاء رأسه، بحيث بدا عند نهاية الحديث مثل صاحبنا الأمير هاملت وهو يتحدث مع روح أبيه.

وأخيراً هتف قائلاً وهو يلمس ركبة كلينام فجأة:

- عد بي إلى الاستثمار يا سيدي. فليس لي ما أقوله عن رغبتك في إفقار نفسك لكي تصلح خطأً لم ترتكبه قط. هذا شأنك. وعلى الرجل أن يكون صادقاً مع نفسه. ولكنني أقول هذا. إذا كنت تخشى من احتياجك إلى المال الذي ينقذك من الفضيحة والعار، فابذل جهدك للاستزادة منه.

وهز آرثر رأسه، ولكنه في الوقت نفسه، راح ينظر إليه متأملاً.

وعاد بانكس يناشده وهو يركز كل طاقته الإقناعية في نصيحته:

- كن ثرياً بقدر ما تستطيع يا سيدي. كن ثرياً بقدر ما يمكنك من أمانة وشرف. فهذا واجبك، لا من أجلك، ولكن من أجل غيرك أيضاً، تطلع

إلى المستقبل. إن المسكين دويس -هو الذي يسير حقاً نحو الكبر- يعتمد عليك، وأقاربك يعتمدون عليك، وأنت لا تعرف مَن أيضاً يعتمد عليك.

فقال كلينام:

- حسناً، حسناً، حسناً. يكفي هذا الليلة.

فردّ بانكس قائلاً:

- كلمة أخرى يا سيد كلينام قبل أن نكتفي بهذا القدر الليلة. لماذا تترك كل الأرباح للأوغاد الأفاقين والمدَّعين؟ لماذا تترك كل الفوائد التي يمكنك الحصول عليها لرجل كمخدومي وأمثاله. ومع ذلك فأنت دائماً تفعل هذا. وأنا حين أقول أنت، فإنما أعني جميع الناس الذين من طرازك. وأنت تعرف أنك هكذا. عجباً! إنني أرى هذا يحدث في كل يوم من حياتي. بل إني لا أرى شيئاً آخر، فإن عملي في الحياة هو أن أرى هذا.

وأردف بانكس قائلاً بحماسة:

- ولهذا أقول، هيا امضِ واربح.

فقال آرثر:

- ولكن كيف لو أنني مضيت وخسرت!

فردّ بانكس قائلاً:

- لا يمكن أن يحدث هذا. لقد بحثت الموضوع تماماً. اسمه في كل مكان، موارد عظيمة، رأس مال ضخم، مركز كبير، اتصالات وطيدة -بالحكومة- نفوذ واسع. لا يمكن أن يحدث هذا.

وراح السيد بانكس بعد هذا الحديث الواضح، يهدأ تدريجياً، فسمح لشعره أن يتراخى قدر ما يمكن أن يتراخى مع الإقناع الشديد، واسترد متبغه من سياج المدفأة، وملأه من جديد، وراح يدخنه. ولم

يتحادثا بعد ذلك إلا قليلاً، ولكنهما كانا في وجودهما معاً يفكران في موضوعات مشتركة ولم يفترقا إلا عند منتصف الليل. وعند انصراف السيد بانكس، وفي أثناء مصافحته، عاد وتحدث عن الموضوع بنفس اللهجة الإقناعية قبل أن يتخذ طريقه نحو الباب. ومن ثم تأكد كلينام بوضوح أنه قد يستطيع أن يعتمد على بانكس، إذا حدث واحتاج إلى مساعدته، سواء في الموضوعات التي تحدثا عنها في تلك الليلة، أو في أي موضوع آخر يكون له علاقة به على أي نحو كان.

وفي فترات من اليوم التالي، بل وفي أثناء تركيز انتباهه على أشياء أخرى، كان كلينام يفكر في استثمار بانكس للجنيهات الألف التي يمتلكها، وفي «بحثه للموضوع» وفكر في مدى حكمة بانكس في هذا الشأن، وفي عدم ظهوره عادة في مظهر الرجل الحكيم. وفكّر في الإدارة الأهلية العظيمة وفي بهجته حين يرى دويس أحسن حالاً. وفكّر في ذلك المكان المظلم المخيف الذي عرفه «بيتنا» في أيام صباه. وفي الظلال التي تتجمع حتى جعلته أكثر ظلاماً وإفزاعاً مما كان من قبل. ولاحظ من جديد أنه أينما سار رأى أو سمع أو لمس اسم ميردل المشهور. ووجد أن من العسير عليه حتى البقاء على مكتبه ساعتين دون أن يتسلل هذا الاسم إلى أية حاسة من حواسه البدنية عن هذا الطريق أو ذاك. وبدأ يرى أن من العجيب أيضاً أن يجد هذا الاسم في كل مكان، وأن كل إنسان فيما عداه، لا يشك فيه. وذلك رغم أنه، في الواقع، يذكر أنه حين عرف هذا الاسم، لم يرتب فيه، وإنما حرص فقط على أن يبتعد عنه.

وكانت مثل هذه الظواهر -عندما يبلغ مرض كهذا مرحلة الطوفان- هي عادة أعراض الداء.



* *

قبول النصيحة

عندما أصبح معروفاً لدى البريطانيين القائمين على ضفة نهر التيبر الأصفر «بروما» أن مواطنهم الذكي قد صار واحداً من السادة في إدارتهم للشؤون العامة، تلقوا هذا النبأ على اعتبار أنه لا يعنيهم أكثر مما يعنيهم -أي نبأ آخر عن حادث أو جريمة- يُنشَر في الصحف الإنكليزية. لقد ضحك بعضهم، وقال بعضهم على سبيل الاعتذار إنها وظيفة من النوع الذي له مرتَّب وليس له عمل، وإن أي أحمق يستطيع أن يكتب اسمه يمكن أن يصلح لها، وبعضهم -وهؤلاء هم أقطاب السياسة الأكثر جداً- قالوا إن ديكيموس قد أحسن بتقوية نفسه، وإن الهدف الدستوري الوحيد من جميع المراكز التي في متناول ديكيموس هو تقوية نفسه. ولكن بعض البريطانيين القليلين من ذوي المزاج الحاد لم يوافقوا على هذا الرأي، وكان اعتراضهم من ثم نظرياً بحتاً. أما من وجهة النظر الواقعية، فقد أهملوا الموضوع تماماً باعتباره مسألة تخص بعض البريطانيين الآخرين غير المعروفين في مكان ما أو في غير مكان. وعلى هذا النحو، في الوطن نفسه، أصر عدد كبير من البريطانيين لمدة لا تقل عن أربع وعشرين ساعة أنه ينبغي على أولئك البريطانيين المجهولين المتخفين أن يقاوموا هذا الأمر، وأنهم إذا رضخوا له، فهم يستحقون ما يجري عليهم. ولكن من أية طبقة يتكون هؤلاء البريطانيون المتخاذلون، وأين أخفى هؤلاء البؤساء أنفسهم، ولماذا

أخفوا أنفسهم، وكيف حدث دائماً أنهم يهملون مصالحهم بينما يعجب كثير غيرهم من البريطانيين من إهمالهم هذا لمصالحهم. هذا كله لم يكن واضحاً لأحد سواء على ضفة نهر التيبر في روما أو نهر التايمز في لندن.

ونشرت السيدة ميردل النبأ -وهي تتلقى التهاني عليه- بهذا الاستخفاف الرفيع الذي يبرز قيمته كما يُبرِز الترصيع الجوهرة. كانت تقول: نعم، لقد قَبِل إدموند المنصب. وكان السيد ميردل قد أراد له أن يقبله، فقَبِله. وإنها ترجو أن يميل إدموند إليه؛ ولكنها في الواقع لا تدري. إن هذا المنصب سيضطره للبقاء في المدينة مدة طويلة، وهو عادة يفضل الحياة في الريف. ومع ذلك فإنه منصب لا غبار عليه، لأنه منصب كبير. وليس هناك شك في أن الفضل يرجع إلى السيد ميردل، وهو ليس بالمنصب الذي لا يليق بإدموند إذا رغب فيه. وإنه لمن الأفضل له أن يجد ما يعمله، وإنه لمن الأفضل له أن يجد المجال لهذا العمل. وسوف يبقى بعد ذلك أن تعرف ما إذا كان هذا المنصب أحب إلى إدموند من الجيش أم لا.

وهكذا كان شأن الصدر الأعظم: مدرَّب تماماً على فن التظاهر بعدم الاهتمام بالأشياء الكبيرة. بينما هو في الواقع يستمتع بذلك في أثناء عملية التظاهر، وخلال هذا كان هنري جوان، الذي نفض ديكيموس يديه منه، يدور على معارفه فيما بين «بوابة الشعب» ومدينة ألبانو، وهو يكاد يقسم -وإن لم يكن واثقاً تماماً- والدموع في عينيه أن سباركلر ألطف الناس مزاجاً، وأطيبهم قلباً، وأنه بالإجمال أحب جحش رعى العشب في حقل المجتمع، وإن مناسبة واحدة هي التي كان يمكن أن تسعده -أي جوان- أكثر من مناسبة حصول «جحشه المحبوب» على هذا المنصب. وهي حصوله هو -جوان- عليه. وقال إن هذا هو العمل المناسب تماماً لسباركلر. لأنه ليس هناك ما يعمله، ومن ثم فإنه يعرف كيف يقوم به برشاقة، وإن لهذا المنصب مُرتَّباً كبيراً، وهو يعرف كيف يأخذه بجمال. إنه

منصب جميل رائع ممتاز، وإنه ليكاد يغفر لواهبه -على حساب نفسه- وإنما لفرط بهجته لأن الحمار الذي يكن له كل هذا الحب، قد استقر أخيراً في أحسن حال. لا، بل إن موقفه الكريم لم ينته عند هذا الحد. لقد أخذ على عاتقه، في كل المناسبات الاجتماعية أن يبرز السيد سباركلر، ويجعله متألقاً أمام الجميع. ورغم أن هذا الصنيع الجميل كان ينتهي دائماً بأن يجعل ذلك السيد الشاب من نفسه منظراً مثيراً للرثاء والإشفاق، فإن هذا التصرف الودود لم يكن موضع الشك.

إلا إذا حدث في الواقع وأثارت هذه التصرفات الودودة، مناط عواطف السيد سباركلر؛ ذلك أن الآنسة فاني كانت عندئذ تعاني ذلك الموقف العصيب، وهو أنها أصبحت معروفة للجميع على هذا الاعتبار، أي أنها مناط الحب من سباركلر، وأنها لم تطرده من قلبها رغم نزواتها المتقلبة معه. ومن هنا كان موقفها من ذلك السيد الشاب معروفاً، بحيث لم يكن يرضيها قط أن يكون مضحكاً أكثر مما ينبغي؛ ومن هنا كانت -وهي التي لا ينقصها الذكاء- تسرع في بعض الأحيان إلى نجدته ضد جوان، فتقوم له بخدمة جليلة. ولكنها كانت -وهي تفعل هذا- مترددة في هل تتخلص منه أو على الأرجح تزيده تشجيعاً، كانت هذه الحالة تملأ نفسها بالهواجس وتجعلها تزداد تردداً يوماً بعد يوم، وتزداد عذاباً من شكوكها بأن السيدة ميردل سعيدة بسبب محنتها هذه. ولم يكن من العجيب، وهذه الثورة تعصف بذهنها -أن تعود الآنسة فاني إلى بيتها ذات ليلة وهي في حالة شديدة من الاهتياج بعد أن شهدت حفلة موسيقية راقصة في مقر السيد ميردل- مما جعل أختها تحاول أن تهدئ بالحنان ثائرتها، ولكنها دفعت بها بعيداً عن منضدة الزينة التي كانت جالسة إليها في غضب تحاول أن تبكي، ثم أعلنت بصدر لاهث أنها تمقت كل إنسان وتتمنى لو أنها ماتت.

- يا عزيزتي فاني! ماذا حدث! أخبريني.

فقالت فان:

- ماذا حدث أيتها الحشرة الصغيرة! لو لم تكوني أكثر عمى من العميان، لما عمدت إلى سؤالي. أتجرؤين على الزعم بأن لك عينين في رأسك ثم تسألينني ماذا حدث.

- أيتعلق الأمر بالسيد سباركلر يا عزيزتي.

فقالت فاني باحتقار لا حد له، وكأنما هو آخر شيء في المجموعة الشمسية يمكن أن يخطر ببالها:

- السيد سباركلر. لا يا آنسة بات، ليس هو.

وسرعان ما شعرت بعد ذلك بالندم على شتمها لأختها، فراحت تقول باكية إنها تعرف أنها تجعل نفسها مكروهة، ولكن الناس جميعاً يدفعونها إلى ذلك.

- لا أعتقد أنك بخير الليلة يا فاني.

سرعان ما شعرت بعد ذلك بالندم على شتمها لأختها، فراحت تقول باكية إنها تعرف أنها تجعل نفسها مكروهة، ولكن الناس جميعاً يدفعونها إلى ذلك.

- لا أعتقد أنك بخير الليلة يا فاني.

قالت تلك السيدة الشابة وقد انقلبت غاضبة مرة أخرى:

- كلام فارغ، إنني بخير مثلك تماماً، وربما يمكنني القول إنني أحسن منك حالاً، ومع ذلك فلا أزهو بهذا.

وآثرت الصغيرة المسكينة دوريت أن تلتزم الصمت بعد أن رأت أنها لا تجد الكلمات المناسبة لتهدئة أختها دون أن تتعرض لتقريعها.

واستاءت فاني من صمتها في أول الأمر أيضاً؛ قائلة في احتجاج لمرآتها إنها تعتقد أن أختها هذه -دون الأخوات المتعبات جميعاً- أكثرهن غباءً، وإنها تعرف أنها في بعض الأحيان تكون في مزاج متعكر، وإنها تعرف أنها تجعل من نفسها شخصية مكروهة وإنها حين تجعل من نفسها شخصية مكروهة، فإن خير ما ينبغي لها أن يقال هذا لها. ولكن بما أنها مصابة بأخت غبية، فإن هذا لا يقال لها إطلاقاً؛ والنتيجة المترتبة على هذا أنها تستدرج وتدفع تماماً إلى أن تجعل من نفسها شخصية مكروهة، وعدا هذا -قالت ذلك بغضب لمرآتها- فإنها لا تريد أن يغفر لها. فليس هذا من اللائق في شيء أن تضطر دائماً إلى طلب الصفح من أختها الصغرى. وإن هذا هو الهدف من الأمر كله، وهو أن تحرج دائماً لكي تطلب الصفح سواء رضيت أم لم ترضَ. وأخيراً انفجرت في بكاء عنيف، حتى إذا جاءت أختها وجلست بجانبها للترويح عنها، قالت لا:

- إيمي.. إنك ملاك.

ثم أردفت قائلة بعد أن هدأت نفسها رقة أختها:

- ولكنني سأخبرك بالأمر يا حبيبتي. إن المسألة وصلت الآن إلى هذا: إن الأمور لا يمكن أن تستمر كما هي مستمرة الآن، وهو لا بد من وضع حد لها بطريقة أو بأخرى.

ولما كان هذا الحديث غامضاً بعض الشيء، فقد اضطرت دوريت الصغيرة لأن تقول:

- هيّا نتحدث عنه.

فقالت فاني موافقة وهي تكفكف دموعها:

- تماماً يا عزيزتي. هيّا نتحدث عنه. إنني معقولة الآن مرة أخرى وسوف تنصحينني. هل تنصحينني يا طفلتي الحلوة!

وحتى إيمي ابتسمت لهذه الفكرة، ولكنها قالت:

- سأفعل يا فاني بقدر ما أستطيع.

فردت فاني قائلة وهي تقبّلها:

- شكراً يا حبيبتي. إنك ملاذي.

وبعد أن عانقت فاني ملاذها بحرارة، تناولت زجاجة عطر من عطور الزينة من فوق المنضدة وطلبت من خادمتها أن تأتي لها بمنديل رقيق، ثم صرفت خادمتها تلك الليلة، وتركت نفسها للنصيحة وهي ترطب بالعطر عينيها وجبينها لتلطيفها.

ولم تلبث أن بدأت حديثها قائلة:

- يا حبيبتي، إن طبائعنا واختلاف وجهات نظرنا تبلغ من التناقض «قبّليني مرة أخرى يا حبيبتي» ما يجعلني، من المحتمل جداً، أن أدهشك بما سأقوله لك. وإن ما سأقوله لك، يا عزيزتي، هو أنه رغم ثرائنا، فإننا من الناحية الاجتماعية أقل مما ينبغي. إنك لا تفهمين تماماً ما أعني يا إيمي!

فقالت إيمي بوداعة:

- إنني لا أشك في أنني سأفهم بعد كلمات قليلة أخرى.

- حسناً. إن ما أعنيه يا عزيزتي هو أننا محدثون في الوسط الاجتماعي الراقي.

فقاطعتها دوريت الصغيرة بدافع من حرارة إعجابها:

- إنني واثقة يا فاني أنه لا حاجة بأحد لأن يعرف هذا عنك.

فقالت فاني:

- حسناً، يا طفلتي العزيزة، ربما لا. وإن كان قولك هذا يا عزيزتي الغالية ينطوي على بالغ الشفقة والرقّة.

وهنا رطبت جبين أختها بالمنديل ثم أطلقت فيه أنفها قليلاً، ثم استطردت:

- ولكنك، كما هو معروف، أغلى أخت صغرى في الدنيا. ولنستأنف الحديث يا طفلتي. إن أبي مهذب إلى حد كبير، ومثقف إلى حد كبير، ولكنه في بعض المظاهر البسيطة، يختلف قليلاً عن بقية السادة الذين من طبقة ثرائه، وذلك، من ناحية، بسبب ما عاناه هذا العزيز المسكين، ومن ناحية أخرى، كما أظن، لأنه يتوهم دائماً أن الناس يفكرون في هذا الماضي في أثناء حديثه معهم. أما عمي، يا حبيبتي، فشكله غير لائق تماماً. وذلك رغم أنه مخلوق عزيز جداً أحبه وأعطف عليه، ولكنه من الوجهة الاجتماعية مزعج. وإدوارد مسرف جداً، ومِتْلاف. وأنا لا أقول إن في هذا ما يتناقض مع الوسط الراقي ذاته، بل على العكس، أعني أنه لا يقوم بهذا كما ينبغي، وأنه، إذا جاز لي أن أقول هذا، لا ينال عن طريق هذا الإسراف ما ينبغي من شهرة وتقدير.

فقالت دوريت الصغيرة وقد ندت عنها آهة اجتمعت فيها كل عناصر تاريخ الأسرة:

- يا لإدوارد المسكين.

فردت فاني في شيء من الحدة:

- أجل، ويا لك أنت وأنا من مسكينتين أيضاً. حقاً! ثم إننا يا عزيزتي بلا أم، وإنما لنا حرم الجنرال ومرة أخرى أقول لك يا حبيبتي، إن حرم الجنرال، إن جاز لي أن أطبق عليها مثلاً معروفاً، قطة بقفاز لا تتردد في اقتناص الفئران. هذه المرأة، كما أعتقد تماماً سوف تغدو يوماً زوجة أب لنا.

- إنني لا أكاد أظن...

فقاطعتها فاني قائلة:

- انتظري، لا تجادليني في هذا الأمر يا إيمي، لأني أدرى منك..

ولما شعرت أنها عادت إلى الحدة مرة أخرى، رطبت جبين أختها بالمنديل، مرة أخرى، ثم أطلقت فيه أنفها قليلاً مرة أخرى، ثم استطردت قائلة:

- لنستأنف الحديث مرة ثانية يا عزيزتي. لقد أصبحت الآن أواجه هذا السؤال «إنني متكبرة وجريئة كما تعلمين تماماً يا إيمي، بل وإلى حد كبير كما يمكن أن أقول» هل أضع في ذهني أن أتولى أنا أمر الأسرة.

فسألتها أختها بقلق:

- وكيف؟

فقالت فاني دون أن تجيب عن السؤال:

- إنني لن أخضع لأن تعامِلني حرم الجنرال باعتبارها زوجة أب، كما أني لن أخضع، مهما يكن الأمر، لأن أكون موضع تدليل أو تعذيب من السيدة ميردل.

ووضعت دوريت الصغيرة يداً على اليد الممسكة بزجاجة الماء والمعطر وأمارات القلق لا تزال على وجهها. أما فاني فقد راحت تستطرد في ضيق وهي تعاقب نفسها باللطمات التي كانت ترطب فيها جبينها في شيء من العنف:

- لا يستطيع أحد أن ينكر أنه استطاع بوسيلة ما -والوسيلة لا أهمية لها- أن يظفر بمركز محترم جداً. ولا يمكن لأحد أن ينكر أن لهذا المركز نفوذاً كبيراً. أما فيما يختص بكونه ذكياً، أو غير ذكي، فأنا أشك كثيراً في أن الزوج الذكي هو المناسب لي. إنني لا أستطيع أن أخضع لزوج ذكي، ولن أستطيع أن أرضيه كما ينبغي.

فهتفت دوريت الصغيرة وقد خامرها نوع من الفزع حين أدركت ماذا تعني أختها:

- أوه، يا عزيزتي فاني، إذا أحببت شخصاً ما، فإن كل هذه المشاعر سوف تتغير، إذا أحببت شخصاً ما، فإنك لن تبقي كما أنت، وإنما سوف تفقدين وتنسين نفسك في إخلاصك له. إذا أحببته يا فاني.

وهنا توقفت يد فاني التي كانت ترطب بها جبينها، وراحت تحملق النظر إلى أختها، ثم هتفت قائلة:

- أوه أحقاً؟ أحقاً ليباركني الله، ما أكثر الذين يعرفون الشيء الكثير عن بعض الشؤون. يقولون إن لكل إنسان موضوعه المتخصص فيه، وقد اكتشفت موضوعك كما يبدو لي بالتأكيد يا إيمي.. أوه، أيتها الصغيرة العزيزة، كنت أمزح معك فقط...

ثم استطردت بعد أن رطبت جبين أختها:

- ولكن لا تكوني قطة صغيرة حمقاء، ولا تفكري بنزق وخيال في هذه المستحيلات التي تدل على الغرور. اسمعي، لسوف أعود إلى نفسي...

- دعيني أقل لك أولاً يا عزيزتي فاني إني أفضل أن نعود إلى العمل من أجل الرزق البسيط مرة أخرى على أن أراك ثرية وزوجة للسيد سباركلر.

فردّت فاني قائلة:

- أدعك تقولين! عجباً! إنني طبعاً سأدعك تقولين أي شيء. ليس ثمة أية قيود عليك كما أرجو. إننا هنا معاً لنبحث الموضوع. أما عن زواجي بالسيد سباركلر فليست لدي أية نية في أن أفعل هذا الليلة أو في صباح الغد يا عزيزتي.

- ولكن، ماذا بعد ذلك؟

فردت فاني في استخفاف:

- لا شيء في الوقت الحاضر على الأقل.

ثم غيرت استخفافها فجأة إلى قلق شديد وأردفت قائلة:

- إنك تتحدثين عن الرجال الأذكياء أيتها المخلوقة الصغيرة؛ إن من البساطة واليسر أن يتحدث الإنسان عن الرجال الأذكياء، ولكن أين هم! إنني لا أرى أحداً منهم قريباً مني.

- يا عزيزتي فاني، إن مثل هذا الوقت القصير...

فقاطعتها فاني قائلة:

- وقت قصير أو وقت طويل، إني ضائقة الصدر بموقفنا هذا، إنني لا أحب موقفنا هذا، ولن يغريني بتغيير رأيي هذا شيء بسيط. إن فتيات أخريات نشأن في بيئة مختلفة وفي ظروف مختلفة تماماً قد يعجبن لما أقول أو ما قد أفعل، دعيهن يفعلن. إنهن منقادات إلى هذا بحياتهن وطبائعهن، وأنا منقادة بحياتي وطباعي.

- فاني، يا عزيزتي فاني، أنت تعرفين أن لديك مؤهلات تجعلك زوجة لشخص ممتاز جداً أكثر من السيد سباركلر.

فردّت فاني مقلدة طريقتها في الحديث:

- إيمي، يا عزيزتي إيمي، أنا أعرف أنني أريد مكانة أعلى وأبرز يمكنني بها أن أكون في حالة تزيدني قوة ضد تلك المرأة الوقحة.

- ألهذا السبب، ومعذرة يا فاني، ألهذا السبب تريدين الزواج بابنها؟

فقالت فاني بابتسامة انتصار:

- من يدري، ربما! إنه قد يكون هناك وسائل أخرى أقل من هذه لبلوغ تلك الغاية يا عزيزتي. إن هذه الوقاحة المجسمة قد تظن الآن أنها ستظفر بنجاح ضخم حين تبعد ابنها عني وتهزمني. ولكن لعلها لا تدري كيف يمكن أن أرد عليها حين أتزوج ابنها. إنني مستعدة لمواجهتها في أي ميدان والانتصار عليها. إني على استعداد لأن أجعل هذا غاية حياتي.

ووضعت فاني زجاجة الماء المعطر عندما وصلت إلى هذا الحد، ثم راحت تسير في جوانب الغرفة ثم تتوقف، وتقف دائماً عندما تتحدث:

- شيء واحد يمكنني أن فعله بكل تأكيد يا عزيزتي.. يمكنني أن أجعلها تبدو أكبر سناً، وهذا ما سأفعله.

وتبع هذا جولة أخرى في الغرفة قبل أن تعود إلى الحديث قائلة:

- لسوف أتحدث عنها باعتبارها امرأة عجوزاً، لسوف أتظاهر بأنني أعرف كل شيء عن عمرها، وإن كنت لا أعرف، فسوف أعرف هذا من ابنها ولسوف أجعلها تسمعني وأنا أقول يا إيمي! بكل مودة.. بكل خضوع ومودة لشد ما تبدو جميلة، رغم عمرها. ويمكنني أن أجعلها تبدو أكبر سناً بأن أبدو بجانبها أنضر وأصغر كثيراً. إنني قد لا أكون جميلة مثلها، فأنا لست الحكم العدل في أمر كهذا كما أظن. ولكنني أعرف أن لي من الجمال ما يجعلني شوكة في جنبها. ولسوف أكون كذلك.

- يا أختي العزيزة؟ أتحكمين على نفسك بحياة بائسة من أجل هذا؟!

- إنها لن تكون حياة بائسة يا إيمي. بل ستكون الحياة التي تناسبني، سواء بسبب ميولي أو بسبب ظروفي، فهذا لا يهم. إنني أكثر صلاحية لمثل هذه الحياة مني إلى أي لون آخر من الحياة تقريباً.

وكان ثمة نبرات تنم عن الكبت في هذه الكلمات. ولكن فاني عادت إلى التمشي في الغرفة بعد ضحكة قصيرة مترفعة، حتى إذ مرت بمرآة كبيرة الحجم، عادت إلى وقفة ثانية:

- القوام، القوم، القوام يا إيمي. إن لهذه المرأة قواماً جميلاً، وإني لأعطيها حقها، ولا أنكره عليها. ولكن هل هو جميل إلى حد أن يصبح بعيد المنال على الغير، أقسم أنني لست متأكدة من هذا. أتيحي لأية سيدة شابة الفرصة لأن ترتدي مثلما ترتدي من الملابس بعد الزواج، وسوف نرى ماذا يحدث يا عزيزي!

وأعادها في هذه الفكرة شيء مثير على الرضا والارتياح، إلى مقعدها وهي ألطف مزاجاً. وناولت يدي أختها في يديها، وراحت تصفق الأيدي الأربعة فوق رأسها وهي تنظر في وجه أختها ضاحكة.

- وإن الراقصة يا إيمي، الراقصة التي نسيتها تماماً.. الراقصة التي لا تحمل لي أي شبه، والتي لا أذكِّرها أنا بها أبداً.. أوه؟ لا يا عزيزتي! سوف ترقص في حياتها، وسترقص في طريقها، وعلى نغمات سوف تزعج غرورها بعض الشيء بعض الشيء يا عزيزتي، بعض الشيء.

وعندما رأت في عيني إيمي نظرة رجاء وقلق، أعادت الأيدي الأربعة إلى أسفل، ووضعت واحدة على شفتي أختها وهي تقول بصوت أكثر حزماً:

- والآن، لا تجادليني يا طفلتي، لأنه لا فائدة من هذا. إنني أفهم في هذه الأمور أكثر منك جداً. إنني لم أقرر هذا بعد، ولكن من المحتمل أن أفعل. ولقد تحدثنا عن هذا الموضوع براحتنا، ويمكننا أن نمضي إلى الفراش. طابت ليلتك يا أحسن وأعز فأرة صغيرة.

وبمثل هذه الكلمات تركت فاني ملاذها. وبعد أن نالت من النصح الشيء الكثير، انصرفت عنه إلى حين.

ومنذ ذلك الحين وإيمي تلاحظ معاملة السيد سباركلر على يدي أسرته، وهي تنظر إلى الأمر بأهمية أكثر مما كانت له من قبل. وكانت تأتي فترات تبدو فيها فاني غير قادرة على احتمال ضعفه العقلي؛ فإذا استبد بها ضيق الصدر، كان يبدو عليها أنها توشك على قطع كل علاقة معه. وكانت هناك فترات تبدو فيها العلاقة بينهما أحسن حالاً. وذلك عندما يسليها ويطرفها، وعندما يجعل شعورها بالامتياز والتفوق يوازن الجانب المضاد فيه. ولو لم يكن السيد سباركلر أخلص وأوفى المحبين المتفانين، لما احتمل هذا الإذلال، ولطار من مسرح محنته. ولجعل بينه وبين ساحرته مسافة لا تقل بحال عن المسافة بين روما ولندن. ولكن لم يكن له من إرادة ذاتية أكثر مما لقارب مشدود إلى سفينة بخارية، وهكذا كان ينقاد لحبيبته الظالمة في الهدوء وفي العاصفة بقوة دفع متساوية.

وكانت السيدة ميردل، خلال هذا كله، لا تتحدث إلا القليل مع فاني، ولكن الحديث عنها كان أكثر. لقد كانت مضطرة، كما هو شأنها، لأن تنظر إليها من وراء نظارتها المفردة، وأن تسمح في أثناء الحديث العادي، بأن تنتزع عنها عبارات الإعجاب بجمالها بحكم الظروف القاهرة. ولكن طابع التحدي الذي كانت فاني تتخذه حين تسمع هذه التسبيحات بجمالها -كما يحدث عادةً- لم يكن ينم عن الشعور بالخضوع لصاحبة الصدر الأعظم. إلا أن أعظم انتقام كان الصدر يوقعه على فاني هو قوله «جمال مدلل، ولكن مع مثل هذا الوجه، وهذا القوام، فلا عجب».

ولعل أن كان قد انصرم شهر أو ستة أسابيع بعد ليلة النصيحة عندما بدأت دوريت الصغيرة تظن أنها تلمح شيئاً جديداً من التفاهم بين السيد سباركلر وفاني. وكان السيد سباركلر -وكأنما يحرص على تنفيذ معاهدة- قلما يتحدث قبل أن يلتفت أولاً إلى فاني للاستئذان؛ وكانت تلك السيدة الشابة أذكى من أن ترد عليه النظرة بمثلها. ولكن إذا كانت

قد أذنت للسيد سباركلر بالحديث، فإنها تلتزم الصمت، وإلا فإنها تتحدث هي. وعدا هذا فقد وضح أنه كلما حاول هنري جوان أن يمارس مهمته الخبيثة في استدراج الشاب إلى المواقف المحرجة، فإن الشاب لا يُستدرَج. وليس هذا فحسب، بل إن فاني لا تلبث أن تقول -دون أن يبدو عليها أنها تتعمد هذا قط- عبارة لاذعة تجعل جوان ينسحب بسرعة وكأنما وضع يده في خلية نحل.

وكان ثمة مناسبة أخرى زادت مخاوف دوريت الصغيرة تأكيداً إلى حد كبير، وذلك رغم أن هذه المناسبة لم تكن كبيرة الدلالة في ذاتها. كان سلوك السيد سباركلر نحوها هي قد تغير، وأصبح أخوياً. ففي بعض الأحيان، عندما تكون هي في النطاق الخارجي لإحدى الحفلات، سواء في قصر السيدة ميردل أو في غيره، كانت تجد ذراع السيد سباركلر العطوف يتسلل ويلتف حول خصرها. ولم يحاول هو قط أن يقدم أي إيضاح لاهتمامه هذا بها. ولكنه كان يبتسم فقط في هيئة من الارتباك، والرضا، والطيبة والشعور بالملكية، وكان هذا كله، بالنسبة لشاب مثله بطيء الفهم له دلالته المزعجة.

وفي ذات يوم كانت دوريت الصغيرة في المسكن تفكر في فاني بقلب كليم. وكانت لها غرفة في أحد طرفي جناح الاستقبال، ذات نافذة غير منظمة لها قاعدة عريضة تطل على الشارع، وتشرع على كل مظاهر الحياة الجميلة، المتباينة، لشارع الكورسو من الجانبين. وفي تلك الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر، بالتوقيت الإنكليزي، كان المنظر الذي تطل عليه النافذة بهيجاً طريفاً. وقد اعتادت دوريت الصغيرة أن تجلس وتتأمل المكان هنا تماماً كما اعتادت أن تزجي الوقت في شرفة غرفتها بالبندقية. وفيما هي جالسة هكذا ذات يوم، شعرت بلمسة خفيفة على كتفها، ثم إذا فاني تقول:

- حسناً يا عزيزتي إيمي.

ثم جلست بجانبها. وكان مجلسهما جزءاً من قاعدة النافذة، وكانتا إذا حدث ومرّ في الطريق شيء مثل موكب أو احتفال، تعلقان ستارة خفيفة فاتحة اللون خارج النافذة وتركعان أو تجلسان على القاعدة وتطلان على الموكب من فوق الستارة. ولكن لم يكن ثمة موكب في ذلك اليوم، وقد دُهِشت دوريت الصغيرة لوجود فاني في البيت في مثل هذه الساعة، لأنها اعتادت أن تقوم في مثل هذا الوقت بنزهة على صهوة جواد.

وقالت فاني:

- حسناً يا إيمي، فيم تفكرين أيتها الصغيرة؟

- إنني أفكر فيك يا فاني.

- أوه! يا لها من مصادفة! أعلن أن هنا شخصاً آخر. لعلك كنت تفكرين في هذا الشخص الآخر أيضاً! أهكذا الأمر يا إيمي؟

وكانت إيمي تفكر في ذلك الشخص الآخر أيضاً، لأنه كان السيد سباركلر. ولكنها لم تقل هذا على كل حال وهي تقدم إليه يدها. وأقبل السيد سباركلر وجلس على الجانب الآخر منها، وأحست بالذراع الأخرى تمتد إليها لتحميها، ولتحمي فاني أيضاً كما يبدو.

وقالت فاني وهي تتنهد:

- حسناً يا أختي الصغيرة. أعتقد أنك تعرفين ما معنى هذا.

وقال السيد سباركلر متلعثماً:

- إنها تبلغ من الذكاء ما تبلغ من الجمال، وهي لا تعرف شيئاً اسمه الكلام الفارغ، وقد اتخذت الترتيبات..

فقالت فاني:

- لا حاجة بي للشرح يا إدموند.

فقال سباركلر:

- لا يا حبيبتي.

واستطردت فاني قائلة لأختها:

- وبإيجاز يا حبيبتي، وعلى العموم فإننا مخطوبان. ولا بد أن نخبر أبي سواء الليلة أو غداً حسب الظروف. وعندئذ ينتهي كل شيء، ولن يكون ثمة ما يقال بعد ذلك إلا القليل.

فقال السيد سباركلر باحترام:

- يا عزيزتي فاني، إنني أحب أن أوجه كلمة إلى إيمي.

فقالت السيدة الصغيرة:

- حسناً. حسناً! قلها بحق السماء.

فقال السيد سباركلر:

- إنني مقتنع تماماً يا عزيزتي إيمي أنه إذا كان هناك فتاة تلي أختك في الجمال وسمو الخصال، ولا تعرف شيئاً اسمه الكلام الفارغ...

فقاطعته فاني قائلة:

- إننا نعرف كل هذا يا إدموند، فلا عليك منه. وأرجوك أن تستمر في حديث آخر غير هذا الكلام.

فقال السيد سباركلر:

- أجل، يا حبيبتي. وأنا أؤكد لك يا إيمي أنه لا يمكن لشيء أن يسعدني بعد سعادتي كأن يقع عليّ شرف اختيار فتاة رائعة مدهشة لا تعرف ذرة...

فقاطعته فاني وهي تربت على الأرض في رفق بقدمها الجميلة:

- أرجوك يا إدموند، أرجوك...!

فقال السيد سباركلر:

- إنك على صواب تام يا حبيبتي. وأنا أعرف أن هذه عادتي. وإن ما أريد أن أعلنه هو أنه لا يمكن لشيء أن يسعد نفسي بعد سعادتي بالزواج من أروع الفتيات، أكثر من سعادتي بتنمية علاقة المودة مع إيمي.

ثم أردف السيد سباركلر قائلاً في شهامة:

- إنني شخصياً قد لا أكون متمتعاً بسرعة البديهة واللماحية، وأنا واثق بأنكما إذا أجريتما استفتاء في المجتمع الراقي فسوف يؤدي هذه الحقيقة. أما في موضوع إيمي، فإنني على أحسن حال.

وهنا قبَّلها السيد سباركلر على سبيل التأكيد، ثم استطرد قائلاً وهو يزداد -بالمقارنة مع بلاغته السابقة- غموضاً:

- لسوف يكون ثمة سكين وشوكة ومسكن خاص دائماً تحت أمر إيمي. وأنا واثق أن حكومتي ستفخر دائماً بالاحتفاء بشخصية أكنّ لها كل هذا التقدير...

ثم أردف قائلاً:

- أما فيما يتعلق بأمي. وهي سيدة ممتازة رائعة لا تعرف...

فصاحت فاني قائلة كما سبق أن فعلت:

- إدموند، إدموند!

فقال السيد سباركلر متوسلاً:

- بكل خضوع يا روحي، أنا أعرف أن هذه عادتي. وإني لأشكرك كثيراً أيتها الفتاة المحبوبة لاهتمامك بتقديم هذه العادة. ولكن أمي باعتراف الجميع سيدة ممتازة، ولا تعرف شيئاً من الكلام الفارغ...

فردت فاني قائلة:

- قد يكون هذا، وقد لا يكون. ولكنني أرجوك ألا تذكر هذه العبارة مرة أخرى.

فقال السيد سباركلر:

- لن أفعل يا حبيبتي.

فسألته فاني قائلة:

- إذن فلن يكون لديك، في الواقع، ما تقوله بعد ذلك يا إدموند، أليس كذلك!

فأجاب السيد سباركلر قائلاً:

- لا، لا مطلقاً يا فتاتي المحبوبة. بل إنني أعتذر لكثرة ما قلت...

ولاحظ السيد سباركلر. بنوع من الإلهام، أن السؤال ينطوي على رغبة منها لانصرافه. ومن ثم سحب ذراعه الأخرى، وقال بلباقة، إنه يرى، بكل خضوع، أن يستأذن في الانصراف. ولكنه لم ينصرف قبل أن يتلقى تهنئة إيمي التي قدمتها بقدر ما تستطيع من امتلاك زمام نفسها المضطربة المحزونة.

ولما انصرف، قالت: «فاني، فاني» ثم استدارت إلى أختها في النافذة النيرة، وألقت بنفسها على صدرها وبدأت تبكي. وضحكت فاني في أول الأمر، ولكنها سرعان ما ألصقت وجهها بوجه أختها وبكت أيضاً - قليلاً-. وكانت تلك آخر مرة أظهرت فيها فاني أن هناك، في أعماق نفسها، مشاعر خفية مكبوتة، مقهورة، تتعلق بهذا الموضوع. ذلك أنه منذ ذلك الحين كانت الطريق الذي اختارته ممتداً أمامها. فراحت تسير عليه بخطواتها المتغطرسة النابعة من إرادتها الذاتية.

لا سبب وجيه أو مانع يحول دون زواجهما



عندما علم السيد دوريت من ابنته الكبرى أنها قبلت أهازيج الرغبة في الزواج التي ترنم بها السيد سباركلر الذي وعدته بقبول هذا العرض، استقبل هذا الخبر فوراً في وقار بالغ وبكل مظاهر الكبرياء الأبوي. وكان وقاره يتناسب مع ما هو منتظر من اتساع المجال الصالح لزيادة تعارفه بشخصيات المجتمع. أما كبرياؤه الأبوي فقد نما باهتمام الآنسة فاني بوجوده كوالد عظيم. وقد جعلها تفهم أن مطامحها النبيلة تجد صدى متجاوباً في قلبه، ومن ثم أسبغ عليها بركته باعتبارها ابنة كلها الطاعة والسلوك الطيب والتفاني في العمل لرفع شأن الأسرة عالياً.

ولما سمحت فاني للسيد سباركلر بمقابلة أبيها، قال هذا له إنه لا يخفى أن هذا الرباط الذي يشرفه به السيد سباركلر بتجاوب إلى حد كبير مع مشاعره في كونه من جهة متفقاً مع عواطفه الكريمة نحو ابنته فاني، وفي بدئه من جهة أخرى لرباطة عائلية جديدة ذات طبيعة مرضية مع السيد ميردل أعظم شخصية في عصره، وكذلك أشار بمثل هذه العبارات الكريمة عن السيدة ميردل باعتبارها شخصية قيادية في المجتمع الراقي، تجمع بين الرقة والكياسة والجمال. وشعر أن من واجبه أن يذكر -وهو

واثق أن سيداً رقيق الإحساسات مثل السيد سباركلر سوف يدرك مقصده بكل رقة، أنه لا يستطيع أن يعتبر الأمر منتهياً تماماً إلا إذا تشرف بمراسلة السيد ميردل بشأنه، والتأكد بأنه يتفق تماماً مع وجهات نظر سيد عظيم كهذا باعتبار أن ابنته «ابنة السيد دوريت» سوف تعامل على أساس أن مركزها في الحياة وقيمتها وما ينتظرها في المستقبل تحتم عليه الرغبة في أنها ينبغي أن تنال ما يمكن -في يقينه- أن تسمح به مثل هذه الظروف -دون أن يبدو انتهازياً- لكي تأخذ مكانها أمام الناس جميعاً في المجتمع الراقي. وهو إذ يقول هذا، باعتباره سيداً بسيط المكانة، وباعتباره والداً عليه واجباته الأبوية، لا يريد أن يتخلى عن اللياقة ويخفي أن عرض الزواج سيبقى في نطاق الأمل وفي حالة القبول، وأنه يشكر السيد سباركلر على هذا الفضل الذي طوق به عنقه وعنق الأسرة. ثم اختتم حديثه ببعض الملاحظات الإضافية العامة بشأن.. ها.. شخصية الرجل المعتمد على نفسه. وشخصية.. هه.. والد قد يكون من المحتمل أنه شديد الإعجاب بابنته والحب لها. وبالإجمال تلقى عرض الزواج من السيد سباركلر بنفس الروح التي كان يتلقى بها، في الأيام الخوالي، إكرامية تبلغ ثلاثة أو أربعة أنصاف ريال.

ورد السيد سباركلر -الذي ذهل بهذا السيل من العبارات المنهال على رأسه البريء- على هذا الحديث بإيجاز لم يخل من اللباقة- وكان في مضمونه لا يقل ولا يزيد على كونه رأى منذ أمد بعيد أن الآنسة فاني من النوع الذي لا يعرف الكلام الفارغ، وأنه لا يشك في أن كل شيء سيكون على ما يرام مع السيد ميردل. وعند هذه النقطة أغلقته حبيبته كما لو كان صندوقاً بغطاء زنبركي القفل، وصرفته عن أبيها.

وعندما ذهب السيد دوريت بعد ذلك بمدة وجيزة ليقدم تحياته إلى صاحبة الصدر الأعظم، استقبلته هذه بتقدير كبير قائلة إنها سمعت

بالأمر من ابنها إدموند. وقالت إنه دهشت في أول الأمر. لأنها لم تكن تظن أن إدموند من الشبان الراغبين في الزواج. وكذلك المجتمع الراقي كان يعتنق هذا الرأي نفسه. ومع ذلك فقد رأت طبعاً، باعتبارها امرأة -ونحن النساء نرى مثل هذه الأمور بغرائزنا يا سيد دوريت- أن إدموند قد افتتن إلى حد كبير بالآنسة فاني. ثم أردفت قائلة بصراحة إن السيد دوريت مسؤول عن إحضاره مثل هذه الفتاة الجميلة إلى الخارج لتدير رؤوس مواطنيها الشبان.

فقال السيد دوريت عندئذ:

- هل أتشرف فأفهم من هذا يا سيدتي أنك غير موافقة على اتجاه عواطف السيد سباركلر؟

فردت السيدة قائلة:

- أؤكد لك يا سيد دوريت أنني شخصياً سعيدة جداً.

وكانت هذه الإجابة مرضية جداً للسيد دوريت. وقد كررتها قائلة:

- إنني شخصياً، سعيدة جداً.

ولكن تكرارها العرضي لكلمة «شخصياً» جعلت السيد دوريت يعرب عن أمله في أن الموضوع لن يحرم من موافقة السيد ميردل.

فقالت السيدة ميردل:

- إنني لا أستطيع أن آخذ على عاتق الرد بالإيجاب نيابة عن السيد ميردل. فإن السادة لا سيما السادة الذين يسميهم المجتمع الراقي رأسماليين، لهم آراؤهم الخاصة في هذه الشؤون. ولكنني أرى -وهو مجرد رأي فقط يا سيد دوريت- أن السيد ميردل، بوجه عام...

وهنا استعرضت السيدة ميردل نفسها أمام المرآة قبل أن يتم لعبارة بقولها:

- سيكون سعيداً جداً.

وعند ذكر السادة الذين يسميهم المجتمع رأسماليين. سعل السيد دوريت وكأنما كان ثمة شك داخلي يعتمل في نفسه. ولما لاحظت السيدة ميردل هذه الحقيقة، استطردت قائلة:

- وذلك رغم أنني يا سيد دوريت، لست بحاجة لأن أذكر هذه الملاحظة. لولا مجرد الصراحة في أن أقول ما ينبغي قوله لشخص أقدره أعظم تقدير وأرجو أن يكون لي شرف الارتباط به في علاقات أحسن. لأن الإنسان لا يسعه إلا أن يرى ثمة احتمالاً كبيراً في تقديرك لمثل هذه الأمور من وجهة نظر السيد ميردل. وكل الفرق في الواضح هو أن الظروف قد جعلت من حسن حظ. أو من سوء حظ السيد ميردل أن يشتبك في عمليات تجارية، وأن هذه العمليات أياً كانت ضخامتها، قد تضيق أفقه بعض الشيء. إنني طفلة تماماً فيما يتعلق بالمسائل التجارية والعملية، ولكنني أخشى يا سيد دوريت أن يكون الأمر كما ذكرت.

هذا الحديث البارع المتأرجح بين السيد دوريت والسيدة ميردل الذي كان كل منهما يرفع به الآخر عالياً. ثم يهوي به إلى أسفل. والذي لم يكن له فائدة لأحدهما، كان تأثيره كالعقار الملطف لسعال السيد دوريت. وقد أشار بكل أدب إلى أنه لا بد أن يلتمس السماح له بالاحتجاج ضد الافتراض، حتى من جانب السيدة ميردل اللبقة المهذبة -وقد أحنت رأسها لهذا المديح- أن أعمالاً ضخمة كالتي يقوم بها السيد ميردل، فضلاً عن كونها بعيدة عن متناول أيدي الرجال الآخرين تكون سبباً لأي شيء أكثر من أنها توسع وتزيد من العقلية العبقرية التي قامت بها.

فردت السيدة ميردل وهي تضع على شفتيها أحسن ابتساماتها:

- إنك الكرم نفسه. ولنأمل هذا. ولكنني أعترف بأنني أكاد أكون بدائية في أفكاري عن الشؤون العملية.

وهنا ألقى السيد دوريت عبارة مديح أخرى، مؤداها أن الشؤون العملية، مثل الوقت الذي يصبح غالياً للقيام بها. قد جعلت للعبيد، وأنه ليس للسيدة ميردل التي تسيطر على جميع القلوب كما يحلو لها، أن يكون لها أي شيء بها. وضحكت السيدة ميردل، وجعلت السيد دوريت يدرك أن في مقدور الصدر الأعظم أن يحمرّ خجلاً. وكان هذا من بين محاسنه.

وقالت تشرح الموضوع عندئذ:

- لقد قلت هذا كله لأبين فقط أن السيد ميردل شديد الاهتمام دائماً بأمر إدموند، وكثيراً ما أعرب عن رغبته الشديدة في تأمين مستقبل. إن مركز إدموند العام معروف لك كما أظن. أما مركزه الخاص فهو توقف تماماً على السيد ميردل. وأؤكد لك بحكم عجزي الأحمق عن فهم الشؤون العملية أني لا أعرف أكثر من هذا.

ومرة أخرى أعرب السيد دوريت -بطريقته الخاصة- عن رأيه في أن الشؤون العملية أقل شأناً من أن تحيط بها أولئك الفاتنات الساحرات. ثم أشار بعد ذلك إلى عزمه -كإنسان مهذب وكوالد- على الكتابة إلى السيد ميردل وشجعته السيدة ميردل على هذا من أعماق قلبها -أو بكل فنها- وكلاهما واحد، وأرسلت هي، من جانبها خطاباً تمهيدياً في اليوم التالي إلى الأعجوبة الثامنة من عجائب العالم.

كان السيد دوريت في مراسلاته البريدية، كما هو شأنه في محاوراته وأحاديثه عن المسألة الهامة التي تدور حولها، يحيط الأمر بألوان من التنميق والتزويق، كما يفعل أساتذة الخط في تنميقهم للنماذج الخطية وكراسات الشفرة، حيث تتحول عناوين المبادئ الأولية في الحساب إلى بجعات ونسور، وغيرها من الابتكارات الخطية، وحيث تخرج الحروف الكبيرة من معانيها الذهنية إلى تهاويل بالقلم والمداد وعلى أية حال، لقد استطاع أن يجعل الغرض من رسالته واضحاً إلى حد أتاح للسيد ميردل التظاهر الرقيق

بأنه فهمه عن هذا الطريق. وأجاب السيد ميردل عليه في الوقت المناسب، وردّ السيد دوريت على السيد ميردل، وأجاب السيد ميردل على السيد دوريت، وسرعان ما أعلن أن القوى المتراسلة وصلت إلى تفاهم مُرْضٍ.

والآن، وليس قبل ذلك، انطلقت الآنسة فاني للظهور فوق مسرح الأحداث وهي معدة إعداداً تاماً للقيام بدورها الجديد. والآن لا قبل ذلك، كسفت السيدة سباركلر بضوئها، وتألقت عليه وعلى عشرين مثله. إنها الآن لم تعد تشعر بالحاجة إلى ذلك الموضع المحدد والشخصية المرموقة التي طالما سببت لها الكثير من القلق، ذلك أن هذه السفينة الجميلة قد بدأت تشق طريقها بثبات في خط سير محدد، وتطفو بثقل وتوازن يضاعفان من إمكانياتها في الإبحار.

وقال السيد دوريت:

– ما دامت الخطوات التمهيدية قد تمت بطريقة مرضية، فإني أعتقد أنه ينبغي الآن يا عزيزتي أن أعلن.. هه.. الأمر بصفة رسمية لحرم الجنرال..

فردّت فاني وقد قطعت عليه الحديث عند ذكر هذا الاسم:

– أبي، إنني لا أرى أي شأن لحرم الجنرال في هذا الأمر.

فقال السيد دوريت:

– يا عزيزتي، إن هذا يعتبر تصرفاً ينطوي على اللياقة مع سيدة.. هه.. كريمة الأصل والأخلاق...

فقالت فاني:

– لقد سئمت يا أبي سماع الحديث عن كرم أصلها وأخلاقها، بل إنني سئمتها هي نفسها:

فقال السيد دوريت في دهشة تنطوي على العتاب:

- سئمت من.. هه.. حرم الجنرال؟

فقالت فاني:

- بل وأشعر بالاشمئزاز منها يا أبي، وأنا في الواقع لا أدري ما شأنها بأمر زواجي. دعها مستغرقة في مشروعاتها الزوجية الخاصة.. إن كان لها شيء منها.

فردّ السيد دوريت في أسى وبطء ثقيل يختلف بقوة عن حيوية ابنته:

- فاني، أرجوك أن تشرحي.. هه.. ما تعنين!

فقالت فاني:

- أعني يا أبي أنه إذا حدث وكان لحرم الجنرال مشروعات زوجية خاصة بها، فيمكنني القول إنها ستشغل كل وقت فراغها. وإذا لم يكن لها، فهذا أحسن وأحسن، ولكنني مع هذا لا أريد أن أتشرف وأعلن لها عن شيء.

فقال السيد دوريت:

- اسمحي لي أن أسألك لماذا لا يا فاني؟

فردّت فاني قائلة:

- لأنها تستطيع أن تعرف نبأ الخطوبة بنفسها يا أبي. ويمكنني القول إنها شديدة الملاحظة جداً. وأعتقد أنني أعرف عنها هذا. فلندعها تكتشف الأمر بنفسها. فإذا لم تعرفه بنفسها، فسوف تعرفه حين أتزوج. وأرجو يا أبي ألا تعتبر هذا نقصاً في عاطفتي لك حين أقول إنني أرى أن الوقت لا يزال متسعاً لإعلان النبأ لحرم الجنرال.

فردّ السيد دوريت قائلاً:

- فاني. إنني مدهوش؟ إنني مستاء من.. هه.. هذا الشعور العدائي الأحمق الطائش نحو.. هه.. حرم الجنرال؟

فقالت فاني بحرارة:

- أرجوك يا أبي ألا تسميه شعوراً عدائياً، لأنني أؤكد لك أنني لا أعتبر حرم الجنرال جديرة بعداوتي.

وعند هذا نهض السيد دوريت من مقعده وهو يرمقها بنظرة عتاب حادة، ثم استمر واقفاً بوقاره أمام ابنته. أما هي فقد راحت تنظر إليه حيناً، وتشيح بنظراتها عنه حيناً وهي تدير الإسورة على يدها ثم قالت:

- حسناً جداً يا أبي. إذ كان هذا لا يرضيك، فأنا آسفة حقاً. ولكنني مضطرة إلى هذا. فأنا لست طفلة، ولست مثل إيمي، ولا بد لي أن أتحدث.

فشهق السيد دوريت قائلاً بعد صمت جليل:

- فاني، إذا رجوتك أن تبقي هنا ريثما أعلن رسمياً لحرم الجنرال باعتبارها سيدة أنموذجية وعضواً موثوقاً به في محيط الأسرة.. هه.. هه.. التغير الذي سيجري في نطاقنا.. وأنا.. هه.. هه.. لا أرجوك فقط، بل، ها.. وأصر عليه.

فقالت فاني بدلالة لها معناها:

- أوه، أبي، إذا كنت تولي الأمر كل هذا الاهتمام، فلا يسعني بحكم الواجب إلا أن أستجيب. ولعلي كما أرجو، أستجمع تفكيري عن الموضوع، لأنني في الواقع. وتحت هذه الظروف لا أستطيع إلا أن أفعل هذا.

ثم جلست فاني في خضوع بالغ، وكان في مبالغته أقرب شيء إلى التحدي. وترفع والدها عن الرد عليها، أو لعله لم يدرِ بماذا يرد، ثم استدع إليه السيد تنكلر قائلاً:

- حرم الجنرال.

ولما لم يكن السيد تنكلر معتاداً على تلقي مثل هذه الأوامر القصيرة الحاسمة فيما يختص بالمثقفة الحسناء، فقد تريث. وانفجر السيد دوريت فيه قائلاً وهو يرى في هذا التريث كل مارشاليزي ودلالاته:

- كيف تجرؤ يا سيدي، ماذا تعني؟

فقال السيد تنكلر في توسل:

- معذرة يا سيدي، إنني أردت فقط أن أعرف...

فصاح السيد دوريت وهو مضطرم الوجه إلى حد كبير:

- إنك أردت ألا تعرف شيئاً يا سيدي. لا تقل لي غير هذا! ها، إنك لم ترد أن تعرف شيئاً. إنك متهم بالسخرية يا سيدي.

فبدأ السيد تنكلر الحديث قائلاً:

- أؤكد لك يا سيدي.

فقال السيد دوريت:

- لا تؤكد لي شيئاً! إني لا أريد أن أتأكد من خادم. إنك متهم بالسخرية. لسوف تخرج من هنا.. هه.. جميع طاقم الخدم سوف يخرج. ماذا تنتظر الآن!

- أنتظر أوامرك يا سيدي.

فقال السيد دوريت:

- هكذا كذب. لقد تلقيت أوامري.. هه.. تحياتي إلى حرم الجنرال. وأرجو أن تتكرم بالحضور إليّ، إذا سمحت ظروفها. لبضع دقائق. هذه هي أوامري.

ولعل السيد تنكلر وهو يقوم بهذه المهمة قد تحدث عن حالة الغضب الرهيب التي يعانيها السيد دوريت. وأياً كان الأمر، فسرعان ما سمع حفيف ثوب حرم الجنرال خارج الغرفة وهي مقبلة، أو هي كما يمكن القول، متواثبة، في عجلة غير عادية. إلا أنها تماسكت عند الباب، وانسابت إلى الغرفة بكل هدوئها المعتاد.

وقال السيد دوريت:

- تفضلي بالجلوس يا حرم الجنرال.

وجلست حرم الجنرال، بعد أن انحنت بتحية رقيقة، على المقعد الذي قدمه إليها السيد دوريت.

واستطرد ذلك السيد قائلاً:

- سيدتي بما أنك قد أخذت على عاتقك.. هه.. مهمة تثقيف ابنتي، وبما أنني مقتنع بأنه لا شيء يتعلق بهما إلا ويهمك..

فقالت حرم الجنرال بكل ما لديها من هدوء:

- بكل تأكيد..

- ولهذا أريد أن أعلن إليك يا سيدتي.. أن ابنتي الموجودة هنا الآن..

وأمالت حرم الجنرال رأسها قليلاً نحو فاني التي أحنت رأسها قليلاً جداً نحو حرم الجنرال، ثم انتصبت في مجلسها كما كانت.

- إن ابنتي فاني.. هه.. مخطوبة للزواج بالسيد سباركلر الذي تعرفينه. ومن ثم فسوف تستريحين يا سيدتي من نصف عبئك الثقيل.. ها.. عبئك الثقيل.

كرر السيد دوريت العبارة وهو يرسل نظرته الغاضبة إلى فاني، ثم أردف قائلاً:

- ولكن هذا، كما أرجو، لن يقلل بأي حال من الأحوال أو بطريق مباشر أو غير مباشر، مكانتك التي تتكرمين باحتلالها في محيط الأسرة في الوقت الحاضر.

فقالت حرم الجنرال ويداها المكسوتان بالقفاز موضوعتان إحداهما على الأخرى في وضع أنموذجي:

- إن السيد دوريت دائماً مجامل، ودائماً مقدر لخدماتي الودية.

وسعلت الآنسة فاني وكأنها تريد أن تقول «إنك على حق..».

واستطردت حرم الجنرال تقول:

- إن الآنسة فاني ولا شك قد أحسنت التصرف بقدر ما سمحت الظروف. وأرجو أن تسمح لي لأقدم أخلص التهاني إليها. وعندما تتحرر من شباك العاطفة..

وهنا أغمضت حرم الجنرال عينيها وكأنها لا تستطيع أن ترى أحداً وهي تنطق بهذه الكلمة.

- وعندما تنالين موافقة الأقارب الأدنين، وعندما تشدين أزر البناء الشامخ للأسرة، فإن هذه عادة تكون من الأحداث المباركة. وأعتقد أن الآنسة فاني سوف تسمح لي بتقديم التهاني إليها.

وتوقفت حرم الجنرال هنا. ثم راحت تردد في نفسها لتجميل منظر وجهها مجموعة من الكلمات التي تبدأ بحرف «الباء».

وأخيراً عادت تقول بصوت مترنم:

- إن السيد دوريت هو صاحب الفضل دائماً. ومن أجل اهتمامه. وأقول أيضاً من أجل أنه آثرني بهذه الثقة في إخباري بهذا الأمر في هذا

الوقت المبكر، أرجو أن أقدم ما ينبغي له من شكر، وإني من ثم أقدم شكري وتهنئتي، على السؤال، للمستر دوريت وللآنسة فاني.

فقالت الآنسة فاني:

- إنني أتقبل تهانيك بكل ارتياح.. بأعظم ارتياح وأنا واثقة أنه من دواعي ارتياحي أيضاً التي أزالت عن نفسي القلق أنني لا أجد لحرم الجنرال أي اعتراض على هذا الأمر.

ثم أردفت قائلة:

- وإنني لا أكاد أعرف ماذا كنت أفعل لو أنك قدمت أي اعتراض يا سيدة جنرال!

وغيرت حرم الجنرال وضع يديها المكسوتين بالقفاز، فجعلت التي فوق تحت، وبالعكس، ثم ابتسمت وهي تضم شفتيها وكأنما تنطق في نفسها كلمات تبدأ بحرف «الباء»، وعادت فاني تقول وهي ترد على هذه الابتسامة بأخرى ليس فيها أي أثر لهذه الحروف.

- وإن الاحتفاظ بموافقتك يا سيدة جنرال سيكون أهم هدف في حياتي الزوجية. أما الحرمان منها. فسيكون بطبيعة الحال، الشقاء نفسه. وأنا واثقة أنك بعطفك الكبير لن تعترضي، وأرجو ألا يعترض أبي أيضاً، على تصحيحي لخطأ بسيط بدر منك على كل حال. وإن أحسن الناس معرضون للخطأ. حتى أنت يا سيدة جنرال قد وقعت في خطأ بسيط. إن هذا الاهتمام، وهذا الإيثار التي أكدت الحديث عنهما يا سيدة جنرال فيم يختص بهذه الثقة في نقل الخبر إليك، هما دون شك موضع كل ثناء وإرضاء. ولكنهم لم يصدرا عني مطلقاً. وإن استشارتي لك في هذا الموضوع لهو امتياز عظيم يضفي علي بحيث أشعر أنني لا ينبغي أن أدعيه لنفسي بينما هو في الواقع ليس كذلك. إنه كله يرجع إلى أبي. إنني شاكرة

لك أعمق الشكر جميل رعايتك وحسن تشجيعك، ولكن أبي هو الذي أراد هذا. إن عليّ أن أشكرك يا سيدة جنرال لأنك أزحت عن صدري عبئاً ثقيلاً بموافقتك هذه الكريمة على خطبتي. ولكن ليس هناك، في الواقع، ما يدعوك لأن تشكريني. إنني أرجو أن أنال رضاك دائماً عن سلوكي بعد أن أغادر البيت، وإن أختي قد تبقى أيضاً موضعاً لرعايتك الكريمة يا سيدة جنرال.

وبعد هذا الحديث الذي ألقته فاني بكل أدب، غادرت الغرفة برشاقة وبشر لكي تندفع صاعدة السلّم بوجه مضطرم بمجرد أن أصبحت بعيدة عن مرمى السمع، ثم انقضت على أختها وهي تسميها الفأرة الصغيرة، وراحت تهزها وتطالبها بفتح عينيها، وانطلقت تسرد عليها ما حدث في الطابق الأسفل وتسألها الرأي فيما سيظنه أبوهما الآن.

أما السيدة ميردل، فقد وقفت فاني منها موقف الثبات والثقة بالنفس، ولكن دون أن تدخل معها بعد في مرحلة من العداء الصريح. وفي بعض الأحيان كانت تقع بينهما مناوشات خفيفة، عندما يحدث مثلاً أن تظن فاني أن السيدة ميردل تربت على ظهرها استخفافاً أو عندما تبدو هذه السيدة في أحسن وأنضر حال. ولكنها، أي السيدة ميردل، كانت سرعان ما تضع حداً لهذه المناوشات بأن تفرق بين وسائدها الحريرية بكل استخفاف رقيق، ثم تشغل نفسها بشيء آخر. أما المجتمع -وكان هذا المخلوق الخفي موجوداً أيضاً فوق التلال السبعة لمدينة روما- فقد وجد الآنسة فاني تحسنت جداً بعد خطبتها. لقد أصبحت أقرب اتصالاً بالناس، وأكثر تحرراً وجاذبية، وأقل تزمتاً، وقد بلغ الأمر أنها أصبحت الآن قادرة على تكريم عدد كبير من الأتباع والمعجبين مما أثار الاستنكار الشديد للسيدات اللاتي لهن بنات في سن الزواج، واللاتي بدا كأنهن عزلن عن المجتمع لإساءتهن إلى الآنسة فاني، ومن ثم رفعن في وجهها علم الثورة.

ولم تكتفِ الآنسة فاني -وهي مستمتعة بهذا الجو من الإعجاب الذي أثارته- بالمضي فيه شامخة الأنف كما يحلو لها، وإنما راحت بشموخ وخيلاء تقود السيد سباركلر فيه أيضاً، وكأنما تقول لهم:

- إذا كنت أرى من اللائق لي أن أمضي بينكم في موكب النصر وفي ركابي هذا الأسر الضعيف، بدلاً من آخر قوي، فهذا شأني، يكفي أني أردت هذا.

وكان السيد سباركلر، من جانبه، لا يعترض على شيء، وإنما كان يمضي حيثما يراد له أن يمضي، وأن يفعل ما يطلب منه، ويشعر أن ارتفاع مكانة خطيبته، هو ارتفاع لمكانته أيضاً من أيسر سبيل، ومن ثم كان شاكر الفضل حقاً لإفساح المجتمع مكاناً له.

ولما أخلى الشتاء مكانه للربيع في أثناء جريان هذه الأحداث، أصبح من الضروري للسيد سباركلر أن يعود إلى إنكلترا ليقوم بدوره المرسوم في إدارة وتوجيه شؤونها الفكرية والتجارية والروحية، والإدراكية. إن أرض شكسبير وميلتون وبيكون ونيوتن وواط، أرض هذا الحشد الماضي والحاضر من الفلاسفة النظريين، والفلاسفة الطبيعيين، وسادة الطبيعة والفن في أوضاعهم الحشدية. أرسلت إلى السيد سباركلر لكي يأتي ويرعاها وإلا حل بها الخراب. وأعلن السيد سباركلر -وهو عاجز عن مقاومة صيحة العذاب الصادرة من أعماق روح وطنه- أنه لا بد أن يذهب.

وأعقب ذلك، هذه المشكلة الملحة بشأن أين ومتى وكيف يتم زواج السيد سباركلر بأول فتاة في العالم لا تعرف الكلام الفارغ! وقد أعلنت الآنسة فاني بنفسها الحل لأختها بعد قليل من السرية والغموض، فقالت لها حين عثرت عليها ذات يوم:

- سأقول لك الآن يا طفلتي شيئاً. لقد استقر عليه الرأي هذه اللحظة. وبطبيعة الحال هرعت إليك في اللحظة التي استقر فيها الرأي عليه.

- أهو أمر زواجك يا فاني؟

فقالت فاني:

- يا طفلتي الغالية، لا تسبقيني. ودعيني أسرّ إليك بما في نفسي، أيتها الصغيرة المتعجلة، بطريقتي الخاصة. أما عن استنتاجك، فإني إذا أجبت عنه مباشرة، فيجب أن أقول، لا. لأن أمر زواجي ليس في الواقع موضوعنا، دائماً موضوعنا الأساسي هو إدموند.

وبدا على دوريت الصغيرة، ولعل أن يكون لها العذر أنها في حيرة من فهم هذا التعبير، وعادت فاني تقول:

- إنني لا أعاني أية مشكلة. ولست في عجلة من أمري، ولست مطلوبة لتولي أي منصب عام أو أدلي بصوتي في أي مكان. ولكن هذا كله من نصيب إدموند، وإن إدموند ليشعر بالأسى العميق لمجرد التفكير في عودته إلى إنكلترا بمفرده، وأنا في الواقع، لا أميل إلى تركه وشأنه، لأن من المحتمل، بل من المتوقع بوجه عام أن يرتكب حماقة، بل من المؤكد أنه سيفعل.

وبعد أن اختتمت هذا الموجز العادل عن الثقة التي يمكن أن تأتمن عليها زوج المستقبل، خلعت قبعتها في هيئة رجل الأعمال، وراحت تجرجرها من أربطتها على الأرضية وهي تستطرد قائلة:

- إن المشكلة تخص -من ثم- إدموند إلى حد كبير، أكثر مما تخصني. وعلى كل حال، لا حاجة بنا إلى المزيد من الحديث عنها. هذه مسألة واضحة بذاتها كما نرى. حسناً يا عزيزتي إيمي! إن المشكلة الآن هي، هل يذهب بمفرده؟ أو لا يذهب بمفرده؟ ويتفرع من هذه المشكلة، سؤال آخر: هل يتم هنا زواجنا وفي وقت قصير، أم يتم في وطننا وبعد أشهر من الآن..؟

- أرى أنني سأفقدك يا فاني.

فصاحت فاني قائلة وهي في مزيج متساو من الاحتمال ونفاد الصبر:

- يا لك من مخلوقة صغيرة متعجلة دائماً. أرجوك يا عزيزتي أن تسمعيني إلى النهاية. إن تلك المرأة..

وكانت تشير طبعاً إلى السيدة ميردل:

- ستبقى هنا حتى بعد عيد الفصح. ومن ثم ففي حالة ما إذا تزوجت هنا وذهبت إلى إنكلترا مع إدموند. فستكون لي ميزة السبق. وهذا شيء له قيمته. وعدا ذلك يا إيمي، فإذا ابتعدت هذه المرأة عن طريقنا، فأنا لا أجد سبباً للاعتراض على اقتراح أبي والسيد ميردل في وجوب السكنى مع سباركلر في ذلك القصر -الذي تعرفينه- والذي ذهبت إليه يوماً مع راقصة، يا عزيزتي، حتى يتم اختيار منزلنا الخاص وإعداده. وعدا هذا أيضاً يا إيمي، فإن أبي الذي عقد العزم على العودة إلى لندن نفسه في هذا الربيع، فربما انضم إلينا في فلورنسا -إذا تم زواجنا هنا وذهبنا إلى فلورنسا- ومن هناك قد نرحل نحن الثلاثة إلى إنكلترا. إن السيد ميردل قد التمس من أبي أن يقيم معه في نفس القصر الذي ذكرته لك، وأعتقد أنه سيفعل. إلا أنه حر في تصرفاته. ومن ثم لا أستطيع أن أتحدث عن هذه النقطة -التي ليست ذات بال- حديثاً إيجابياً.

وكان الحديث عن الفرق بين حرية الوالد في تصرفاته، وبين حرمان السيد سباركلر من شيء كهذا، فقد ألفته فاني بلهجتها المنطوي على التأكيد واليقين. ولكن هذا لا يعني أن أختها لاحظت ذلك، لأنها كانت موزعة بين الشعور بالأسى للفرقة المنتظرة، وبين الرغبة المتأنية في أنها قد تدخل في نطاق مشروعات العودة لزيارة لندن، وأخيراً قال:

- أهذه هي الترتيبات يا فاني!

فرددت فاني الكلمة ثم قالت:

- ترتيبات! إنك في الحقيقة يا طفلتي متعبة. إنك تعلمين أنني شديدة الحرص على نفسي من النطق بكلمات تؤدي إلى هذا المعنى. إن ما قلته هو أن مشكلات معينة تقوم أمامنا. وهذه هي المشكلات.

والتقت نظرات دوريت الصغيرة المتأملة بنظرات فاني في رقّة وحنان. وعادت فاني تقول وهي توازن قبعتها من أربطتها في ضجر شديد:

- والآن لا جدوى من الحملقة يا طفلتي العزيزة، إن أية بومة صغيرة تستطيع أن تحملق. لقد جئت إليك من أجل النصيحة يا إيمي. فبماذا تنصحينني؟

فسألتها دوريت الصغيرة في ترفق بعد برهة من التردد:

- أترين يا فاني أنك إذا أرجأت الزواج بضعة أشهر فربما كان ذلك أحسن إذا سارت الأمور كما ينبغي.

فردّت فاني بحدة بالغة:

- لا أيتها السلحفاء المائية الصغيرة. إنني لا أرى أي شيء من هذا القبيل.

وهنا ألقت قبعتها عنها تماماً، ووثبت جالسة على أحد المقاعد، ولكنها حين عادت إلى حبها لأختها مباشرة بعد ذلك، وثبت مرة أخرى بعيدة عنه، ثم ركعت على الأرض لتأخذ المقعد وأختها وكل شيء بين ذراعيها وهي تقول:

- لا تظني أنني متهورة أو قاسية يا حبيبتي لأنني في الواقع لست كذلك. ولكنك غريبة الأطوار جداً يا عزيزتي! إنك تجعلين الإنسان يفقد عقله وهو يحاول أن يكون لطيفاً إلى أقصى حد. ألم أقل لك يا أعز طفلة إن إدموند لا يؤتمن على نفسه، وألا تعلمين أنه لا يستطيع أن يأمن على نفسه بمفرده!

- نعم، نعم يا فاني. لقد قلت هذا، أعرف.

فردّت فاني قائلة:

- وأنت تعرفين هذا، أليس كذلك؟ حسناً يا طفلتي الغالية! إذا كان لا يؤتمن على نفسه، فالنتيجة هي، كما أعتقد، أن أذهب معه.

فقالت دوريت الصغيرة:

- إن الأمر يبدو... كذلك يا حبيبتي.

فصاحت فاني في لهجة استسلام:

- حسناً جداً! إذن أعتقد أنه لا بد من عمل هذا. لقد جئت إليك يا جميلتي عندما شعرت بالشك وبضرورة اتخاذ قرار. وقد قررت الآن. وليكن هذا.

وبعد أن أخضعت نفسها، على هذا النحو لنصيحة أختها ولقوة الظروف، أصبحت فاني هادئة طيبة، كما تفعل الفتاة التي تضع كل ميولها عند قدمي أعز صديقة لها، ثم تشعر بوهج راحة الضمير لأنها قامت بهذه التضحية. وقالت لأختها:

- إنك بعد كل شيء يا إيمي أحسن المخلوقات الصغيرة. ولديك حُسْن إدراك، ولست أدري ماذا سأفعل دونك.

وبهذه الكلمات زادت من عناقها لها ومن حنانها في هذا العناق.

- ولا يعني هذا أنني أفكر بأي حال في الحياة دونك يا إيمي، لأنني آمل ألا نفترق أبداً. والآن يا حبيبتي، سوف أقدم إليك كلمة نصيحة، فعندما تُترَكين هنا بمفردك مع حرم الجنرال..

فقالت دوريت الصغيرة بهدوء:

- هل سأُترَك هنا بمفردي مع حرم الجنرال؟

- أوه، طبعاً يا عزيزتي، حتى يعود والدك! إلا إذا اعتبرت إدوارد أنيساً لك. وهو في الواقع ليس كذلك، حتى عندما يكون هنا، فما بالك عندما يكون غائباً في نابولي أو في صقلية؟ كنت أريد أن أقول -ولكن يا لك من فضولية صغيرة تقطعين على الإنسان تفكيره- عندما تُترَكين بمفردك مع حرم الجنرال يا إيمي، لا تدعيها تنزلق إلى أي نوع من التفاهم اللبق معك على أنها تأمل في الزواج من أبيك أو أن أباك يأمل في الزواج بها. إنها ستفعل هذا إن استطاعت. إنني أعرف أساليبها الماكرة في تحسس طريقها بتلك الأيدي المكسورة بالقفازات. ولكن لا تتفاهمي معها على أي نحو. وإذا حدث وأخبرك والدك بعد عودته؛ أنه يفكر في أن يجعل حرم الجنرال أماً لك، ولكن يكون هذا أقل احتمالاً بعد رحيلي، فنصيحتي لك هي أن تقولي له فوراً «أبي، إنني أرجو الاعتراض بكل شدة. لقد حذرتني فاني من هذا وهي معترضة عليه أيضاً. وأنا أيضاً أعترض» وأنا لا أعني القول إن أي اعتراض منك سيكون له أدنى تأثير، أو أظن أنك ستقولين هذا بأي حزم. ولكن الأمر ينطوي على مبدأ يتعلق بالأسرة. وأنا أتوسل إليك ألا تخضعي لأن تكون حرم الجنرال زوجة أب لك دون أن تؤكدي أنك ستثيرين المتاعب لكل شخص حولك بقدر ما تستطيعين.. إنني لا أتوقع أنك ستفعلين هذا فعلاً، فالواقع أنني أعرف أنك لن تفعلي ما لوالدك شأن بالموضوع.. ولكنني أريد أن أثير فيك الشعور بالواجب. أما عن مساعدة مني، أو عن أية معارضة يمكن أن أقوم بها في أمر هذا الزواج، فتأكدي يا عزيزتي أنك لن تُترَكي بمفردك. وأية قوة يمكن أن أستمدها من مكانتي كفتاة متزوجة ليست عاطلة تماماً من الجاذبية، سوف أستخدمها، بقدر ما تسمح به هذه المكانة، لمقاومة هذه المرأة. ويمكنك أن تتأكدي أنني قد أتمادى وأحمل على رأسها وعلى

شعرها المستعار.. لأني واثقة أنه ليس شعراً حقيقياً، رغم قبحه، ورغم أنه لا يحتمل كما يبدو أن يتكلف أي إنسان عاقل مهمة شرائه.

وتلقت دوريت الصغيرة هذه النصيحة دون أن تجرؤ على معارضتها، ولكن دون أيضاً أن تتيح لفاني أي سبب لتعتقد أنها تنوي أن تعمل بها. وبعد أن وضعت فاني خطوط حياتها، ونظمت شؤونها الدنيوية، بدأت بتلك الحماسة التي تتميز بها في الاستعداد للتغيير الخطير الذي سيطرأ عليها.

وكان هذا الاستعداد يتكون من إرسالها خادمتها إلى باريس في حماية أحد الأتباع، لشراء ثوب زفاف عروس، لا يليق في قصتنا هذه أن نطلق عليه اسماً إنكليزياً، كما نمتنع في الوقت نفسه عن إطلاق اسم فرنسي عليه، وذلك لأن الاسم المكتوب عليه لا يتفق مع اللغة المهذبة وتم شراء ذلك الثوب الفاخر الجميل على أيدي المندوبين، وراح يشق طريقه -في أسابيع قليلة- خلال الدولة الواقعة في الوسط، الممتلئة بحراس الجمارك، المحصنة بجيش كبير من المتسولين في الملابس الرسمية، الذين كانوا يرددون بإلحاح عبارات التسول فوقه، وكأنما كان كل محارب بينهم بيلزاريوس القديم. وقد بلغ من كثرة كتائبهم وفِرَقهم أنه لولا استعداد التابع بكمية ضخمة من النقود الفضية للتخفيف من عوزهم، لأصاب البلى الثوب الفاخر قبل وصوله إلى روما لكثرة تقليبهم له. وخلال كل هذه المخاطر أمكن على كل حال الإتيان به، خطوة خطوة، حتى وصل إلى غايته في حال طيبة.

وهناك عرض أمام جماعات مختارة من المتفرجات النساء اللاتي أثار في صدورهم الرقيقة مشاعر الغيرة والحقد. وفي الوقت نفسه كانت الاستعدادات تجري بنشاط تأهباً لليوم الذي سوف تعرض فيه على الجماهير العامة بعض كنوز يوم الزواج. فأرسلت بطاقات الدعوة لطعام الإفطار في صباح ذلك اليوم إلى نصف الإنكليز الموجودين في مدينة

روميليوس «روما» واستعد النصف الآخر بالأسلحة اللازمة ليكونوا نقاداً متطوعين في مختلف المواقف الخارجية للاحتفال. وأقبل السيد الرفيع الفاخر أرجاردو دوريت يخوض متاعب الطريق المليء بالأوحال والشوائب -من الجزيرة التي يعيش فيها بقايا النبلاء النابليونيين- ليشرف الحفلة. وأخذ أفخم فندق بكل أقطابه في فنون الطهو يستعد للوليمة. وكادت مركبات وجياد السيد دوريت أن تكسو ضفة نهر تورلينيا بأكمله. أما القنصل الإنكليزي فإنه لم يشهد طيلة حياته القنصلية حفلة زواج كهذه.

وجاء اليوم، وبدا كأن نساء روما يضربن كفاً بكف دهشة لما وصل إليه «همج الجزيرة الإنكليزية» من بذخ وثراء. أو كأنما تماثيل الأباطرة العسكريين الأشرار ذوي الرؤوس السفاكة الذين لم يستطع المثالون أن يخففوا من أمارات الشر الفظيع البادية عليهم، بدا كأنهم سيقفزون من فوق قواعدهم ليهربوا مع العروس. وكذلك بدا أن النافورة القديمة التي توقف انسيابها، والتي كان المصارعون القدامى يغسلون فيها أيديهم، كأنما تدفقت فيها الحياة مرة أخرى لتكريم الحفلة. أو كأنما معبد فيستا يوشك أن ينتفض من تحت أنقاضه من جديد ليقدم خدماته للحفلة، لعله كاد يفعل هذا. ولكنه لم يفعل، مثله في هذا مثل الأشياء الحسية؛ بل مثل السادة والسيدات المصنوعين من الخيال أحياناً. قد يبدو أنهم الشيء الكثير، ولكنهم في الواقع لا يفعلون شيئاً. بدأ الاحتفال بأبهة عظيمة؛ فالرهبان في أرديتهم السوداء وأرديتهم البيضاء، وأرديتهم الريفية الحمراء، وقفوا يتفرجون على المركبات. وأخذ القرويون الجوالون في أثوابهم المصنوعة من جلود الأغنام يتسولون ويزمرون تحت نوافذ القصر، واجتمع المتطوعون للسخرية من الإنكليز. وانصرم اليوم إلى أن حل المساء، وانتهى الاحتفال. ودقت أجراس آلاف الكنائس دون أية إشارة إليه. وأنكر القديس بطرس أن له أية علاقة به.

وخلال هذه الفترة كانت العروس تقترب من نهاية اليوم الأول لرحلتها إلى فلورنسا. وكان من غرائب حفلات الزواج أن الجميع لا يكادون يرون غير العروس، وفي هذه الحفلة لم يلحظ أحد العريس؛ ولم يلحظ أحد وصيفة الشرف الأولى، وقليلون رأوا دوريت الصغيرة التي كانت وصيفة الشرف الأولى. بسبب انبهار أنظارهم بمنظر العروس، حتى مع افتراض أن الكثيرين أرادوا البحث عنها. وهكذا استقلت العروس المركبة الفاخرة مع عريسها، وبعد أن درجت ببطء وانسياب بضع دقائق فوق الطريق المرصوف، أخذت تنطلق في طريق «حمأة اليأس» ومنه خلال طريق آخر طويل يمتد بين الخرائب والآثار. ويقال إن مركبات عرس أخرى قد سارت في نفس هذا الطريق قبل، ومنذئذ.

وإذا كانت دوريت الصغيرة تشعر في تلك الليلة ببعض الوحشة والانقباض فما كان ثمة شيء ينفض عنها هذا الشعور إلا إذا أمكنها أن تجلس للعمل بجانب أبيها، كما كان شأنها في الماضي ثم تساعده في تناول عشائه، ثم في أوبته إلى الفراش. ولكن لم يكن ثمة مجال للتفكير في هذا الآن، وهما جالسان في ملابسهما الرائعة مع حرم الجنرال في القاعة الفاخرة، أما عن العشاء، فلو أن السيد دوريت أراد العشاء، فإن هناك طاهياً إيطالياً، وصانع فطائر سويسرياً، على كل منهما أن يضع على رأسه قلنسوة عالية مثل قلنسوة البابا، وأن يكون له إلمام بأسرار علم الكيمياء في الأواني النحاسية في المعمل بالطابق الأسفل، قبل أن يقدما إليه العشاء.

وكان في تلك الليلة موجز الحديث متزمت المعاملة. ولو أنه كان يحبها ببساطة، لشعرت دوريت الصغيرة بالمزيد من الرضا. ولكنها كانت تقبله كما هو -ومتى لم تقبله كما هو- ومن ثم حاولت أن ترضيه وترضى به بقدر ما تستطيع. وأخيراً آوت حرم الجنرال إلى فراشها. وكانت عملية ذهابها إلى الفراش لقضاء الليل تصحب عادة بأبرد المراسم، وكأنها كانت

تشعر أن من الضروري للخيال البشري أن يتجمد ويتحول إلى حجر حتى تمنعه من تعقبها. وبعد أن فرغت من مراسمها التمهيدية الباردة التي كانت تشبه إلى حد ما نوعاً من التدريبات العسكرية الخفيفة، انسحبت إلى مخدعها. وعندئذ لفَّت دوريت الصغيرة ذراعها حول عنق أبيها لتقدم إليه تحية المساء.

وقال السيد دوريت وهو يتناولها من يدها:

– إيمي، يا عزيزتي؛ إن هذه نهاية يوم ترك في نفسي.. هه.. أثراً عميقاً وسروراً بالغاً.

– ولكنك أيضاً متعب قليلاً يا عزيزي.

فقال السيد دوريت:

– لا، لا. إنني لا أشعر بالتعب حين يحدث من مناسبة.. هه.. مليئة بالغبطة في أنقى أنواعها.

وسرّت دوريت الصغيرة حين رأته في هذه الحالة الطيبة ومن ثم ابتسمت من أعماق قلبها. أما هو فقد استطرد يقول:

– يا عزيزتي.. هذه مناسبة زاخرة.. هه.. بالأمثلة الطيبة. بالأمثلة الطيبة لك أنت.. هه.. يا طفلتي الغالية المحبوبة.

وبلغ من غبطة دوريت الصغيرة بهذه الكلمات أنها لم تدرِ ماذا تقول، وذلك رغم أنه توقف عن الحديث كأنما يتوقع منها أن تقول شيئاً.

واستأنف الحديث قائلاً:

– إيمي. إن أختك العزيزة، حبيبتنا فاني، قد تزوجت زواجاً الغرض الأساس منه.. هه.. توسيع نطاق اتصالاتنا.. هه.. ولتوطيد

علاقاتنا.. هه.. الاجتماعية. ومن ثم أعتقد، يا حبيبتي، أن الوقت قد لا يكون بعيداً جداً عندما نوفق إلى شريك للحياة مناسب.

فقالت في لهجة شخص انزعج فجأة:

- أوه، لا، دعني أبقَ معك، إنني أرجو وأتوسل عسى أن تبقيني معك. إنني لا أريد شيئاً أكثر من أن أبقى معك وأرعاك.

فقال السيد دريت:

- لا يا إيمي.. يا إيمي، هذا ضعف وغباء.. ضعف وغباء، إن عليك أعباء ملقاة على عاتقك.. هه.. بحكم مركزك. وعليك أن تنمي هذا المركز.. هه.. وأن تكوني جديرة به. أما عن رعايتك لي، فإني أستطيع.. ها.. أن أرعى نفسي. أو...

ثم أردف قائلاً بعد برهة صمت:

- إذا احتجت إلى رعاية، فيمكنني.. هه.. ببركة العناية الإلهية أن أجد من يعنى بي، لأنني.. ها.. هه.. لا أستطيع يا طفلتي العزيزة، أن أفكر في استغلالك و.. والتضحية بك.

أوه، أي وقت هذا من اليوم، الذي يبدأ فيه هذه الترنيمة من إنكار الذات، والذي يرددها فيها بلهجة الشخص الذي يستمد الثقة من هذا الإنكار للذات، والذي فيه يمكن تصديق هذا، إن أمكن تصديق شيء كهذا!

وعاد هو يقول:

- لا تقولي شيئاً يا إيمي، فأنا بالتأكيد لا أستطيع أن أفعل هذا. بل ولا يجب.. هه.. أن أفعل هذا. إن ضميري.. هه.. لن يسمح بهذا. ومن ثم أنتهز هذه الفرصة -يا حبيبتي- التي أتاحتها هذه المناسبة البهيجة

المؤثرة، لأقول.. هه.. جاداً إن كل رغبتي وأملي المنشود الآن هو أن أراك.. هه.. متزوجة زواجاً مناسباً.. وأكرر القول «مناسباً».

- أوه، لا يا عزيزي! أرجوك!

وقال السيد دوريت:

- إيمي، إنني مقتنع تماماً بأننا إذا عرضنا الأمر على شخصية على جانب ممتاز من المعرفة الاجتماعية، وعلى جانب ممتاز من رقة الشعور.. ولنقل مثلاً.. هه.. السيدة جنرال، فلن يكون هناك اختلاف في الرأي.. هه.. عن طبيعة حبي وعواطفي الحانية نحوك، ولكنني وأنا أعرف من تجاربي أنك ابنة مطيعة محبة، أرى، وأنا مقتنع تماماً أنه لا داعي للمزيد من الحديث عن هذا الأمر، فليس لدي.. هه.. في الوقت الحاضر زوج لك يا عزيزتي. بل ولا أعرف واحداً يصلح الآن. وإنما أريد فقط أن يفهم أحدنا الآخر.. هه.. طابت ليلتك يا عزيزتي، ويا ابنتي الوحيدة الباقية. طابت ليلتك، وليباركك الله.

لو أن دوريت الصغيرة راودتها في تلك الليلة الفكرة في أن أباها يستطيع أن يتخلى عنها ببساطة الآن -في ثرائه- بعد أن وقر في ذهنه أن يحل محلها زوجة ثانية، فإنها لم تلبث أن طردت هذه الفكرة من ذهنها، لقد طردت هذه الفكرة بدافع من إخلاصها الذي لا يزال يملأ قلبها، كما كان شأنها في أحلك الأوقات عندما كانت ترعاه بمفردها. ولم تبق في عواطفها من الأفكار الأشد قسوة في أثناء فترة قلقها الباكية، إلا أنه الآن أصبح يرى كل شيء من خلال ثرائه، ومن خلاله اهتمامه الدائم لأن يستمروا أثرياء، وأن يزدادوا ثراءً.

واستمروا في حياتهم الفاخرة، مع حرم الجنرال، ثلاثة أسابيع أخرى، حلّ بعدها السيد دوريت إلى فلورنسا لينضم إلى فاني وزوجها،

وكان يسعد دوريت الصغيرة لو أنها صحبته إلى هذه المدينة وبدافع من الحب فقط، ثم تعود بمفردها وهي مستغرقة التفكير في إنكلترا العزيزة، ولكن رغم أن التابع ذهب مع العروس، فقد بقي الخادم الخاص تحت الطلب، وما كان الدور ليأتي عليها إطلاقاً طالما أن هناك ما لا يمكن به استئجار الخدم والتابعين.

وبدأت حرم الجنرال تأخذ الحياة ببساطة -أي بالبساطة التي يمكنها أن تأخذ بها أي شيء- حين أصبح القصر الذي استأجرته في روما مقصوراً على إقامتها فقط مع دوريت الصغيرة، وكانت هذه كثيراً ما تخرج في المركبة المأجورة التي تُرِكت لها، ثم تهبط منها بمفردها، وتتجول بعض الوقت بين آثار روما القديمة، وكانت آثار وخرائب الملعب الروماني الفسيح القديم، والمعابد القديمة، والأقواس التذكارية القديمة، والشوارع القديمة التي داستها الأقدام طويلاً، والمقابر القديمة فضلاً عن حقائقها التاريخية، كانت في نظرها خرائب سجن مارشاليزا القديم، خرائب حياتها الخاصة القديمة، خرائب الوجه والأشكال للناس الذين عرفتهم سابقاً، خرائب حبهم وآمالهم واهتماماتهم وأفراحهم. كان ثمة عالمان من الخرائب الباقية من الحياة والآلام يتمثلان معاً، أمام هذه الفتاة الوحيدة التي كانت تجلس أحياناً على البقايا المحطمة، وفي الأماكن المنعزلة تحت صفحة السماء الزرقاء وإلى هنا. وتدخل حرم الجنرال في الصورة، فتمتص كل ما فيها من ألوان أسبغتها عليها الطبيعة والفن، وتضع بدلاً منها حيثما تجد مجموعة من الكلمات التي تبدأ بحرف «الباء» والتي تختارها من كتاب السيد أيوستاس المدرسي؛ وتظل هكذا تلتمس هذا السيد أيوستاس ورفاقه في كل مكان، دون أن ترى شيئاً آخر وذلك بعد أن تستخرج بأظافرها العظام الأثرية الدقيقة، وتدخرها بأكملها في مكان بعيد عن ارتياد البشر، وكأنها غول يرتدي القفازات.

في الطريق

عند وصول الزوجين الحديثي العهد بالزواج إلى شارع هارلي ستريت، ميدان كافنديش سكوير، بلندن، استقبلهما رئيس السقاة. ولم يكن هذا الرجل العظيم شديد الاهتمام بهما، ولكنه احتملهما. فالناس لا بد أن يستمروا في الزواج، أو يوهَبوا للزواج، وإلا فلن يجد رؤساء السقاة أعمالاً. كما أن الضرائب تفرض على الشعوب، فكذلك يفرض السقاة على الأسر. وليس من شك في أن رئيس السقاة قد فكّر في أن السياق الطبيعي يستلزم الاحتفاظ بالطبقة الثرية من أجله.

ومن ثم تنازل ونظر إلى المركبة من باب الصالة دون أن يتجهم لها وقال بأسلوب جميل جداً لأحد مرؤوسيه:

- توماس، ساعد في نقل المتاع.

بل إنه تمادى وصحب العروس إلى غرفة السيد ميردل في الطابق العلوي، ولكن ينبغي أن نعتبر هذا تكريماً للجنس اللطيف -الذي هو أحد المعجبين به، باعتباره أسيراً لجمال دوقة معروفة- وليس خضوعاً منه للأسرة.

وكان السيد ميردل يسير متسللاً على سجادة المدفأة في انتظار القيام بتحية واستقبال السيدة سباركلر. وبدا كأن يده تنكمش داخل كُم سترته وهو يتقدم ليفعل هذا. ومن ثم فإنه أعطاها، وهو يصافحها، جانباً

كبيراً من إسورة قميصه بحيث جعلها تشعر أنها تصافح إحدى الشخصيات المشهورة في أعمال جاي فوكس. وعدا هذا فإنه حين وضع شفتيه على شفتيها، قبض على نفسه من معصميه، ودفع نفسه بين المتكآت والمقاعد والموائد، وكأنه هو نفسه شرطي قابض على نفسه ويقول: «والآن، دعك من هذا! هيا! لقد أوقعت بك، كما تعلم، وعليك أن تمضي معي بهدوء».

وبعد أن استقرت السيدة سباركلر في الغرف الفاخرة المخصصة لها والمكونة من أفخر الرياش، والحرير، والمخمل، وأرق المنسوجات، شعرت حتى الآن أن انتصارها عظيم، وأنها قد سارت في الطريق خطوة، خطوة. وكانت قبل زواجها بيوم قد منحت خادمة السيدة ميردل الخاصة، وفي حضور السيدة ميردل نفسها، هدية بسيطة تافهة -سوار وقبعة وثوبان وكانت هذه الأشياء كلها جديدة- كما كانت تساوي في القيمة أربعة أمثال قيمة الهدية التي سبق أن قدّمتها السيدة ميردل لفاني ذات يوم. إنها الآن مقيمة في نفس غرف السيدة ميردل، التي أضيفت إليها لمسات جديدة من العناية والاهتمام لتكون أكثر جدارة بإقامتها فيها. وكانت ترى بعين خيالها -وهي متكئة هناك، ومحاطة بكل ما يمكن أن يشتريه أو يبتكره الثراء من ترف- الصدر الجميل الذي كان يخفق في تناسق مع نشوة أفكارها، وهو يتنافس مع الصدر الذي ظل مشهوراً حتى الآن، ثم يكسفه، ثم يحل محله. أهي سعيدة! لا بد أن تكون فاني سعيدة، إنها لم تعد تتمنى لنفسها الموت الآن.

ولم يوافق التابع على أن ينزل السيد دوريت في منزل صديق له، وفضَّل أن يمضي به إلى فندق في شارع بروك بحي جروفنر سكرير. وأمر السيد ميردل أن تُعَد مركبته في بكور الصباح لكي يمكنه زيارة السيد دوريت بعد طعام الإفطار مباشرة.

وبدت المركبة متألقة، والجياد أصيلة ضامرة، والأعنة لامعة، والسائسون في أبهى وأزهى الملابس. وبالإجمال كان الركب ينم عن الأبهة

والثراء، يدل على أنه جدير بميردل. وقد نظر إليه الأشخاص المبكرون وهو يدرج على الشوارع، ثم قالوا في روع وهم يحبسون أنفاسهم:

- ها هو ذا يمضي!

وظل يمضي حتى توقف عند شارع بروك ستريت، ثم من العلبة الفاخرة خرجت الجوهرة التي لم تكن باهرة في ذاتها، وإنها العكس!

وحدثت جلبة في إدارة الفندق، ميردل! إن مدير الفندق، رغم أنه ذو روح مترفعة صلفة، ورغم أنه جاء في مركبة يجرها جوادان أصيلان؛ هذا المدير أسرع مع السيد ميردل إلى الطابق العلوي. أما الكتبة والخدم فكانوا يهرعون من الممرات الخلفية ليلوحوا واقفين -عرضاً في تجمعات عند مداخل الغرف والمنعطفات لكي يلقوا نظرة على السيد ميردل. ميردل إنه الشمس، إنه القمر، إنه النجوم، إنه الرجل العظيم، الرجل الغني الذي استطاع على نحو ما أن ينقح الإنجيل، ومن ثم فقد ضمن مكانته في مملكة السماء. إنه الرجل الذي يستطيع أن يجعل أي رجل يختاره ليتناول معه طعام العشاء، والذي صنع المال! وعندما صعد السلّم، أخذ الذين في الطابق السفلي أماكنهم على الدرجات الخفيضة لكي يسقط ظله عليهم عند هبوطه -وهكذا كان المرضى يُؤتَى بهم ويضرعون في طريق الرسول- الذي لم يكن يعرف الطبقة الراقية، والذي لم يجمع ثروة ما.

وكان السيد دوريت في ثوبه المنزلي، ومعه صحيفته، جالساً إلى طعام الإفطار وأعلن الساعي التابع بصوت مهتاج حضور «السيد ميردل» وخفق قلب السيد دوريت المضني وهو يقفز واقفاً ويقول:

- سيد ميردل، هذا.. ها.. في الحقيقة شرف. اسمح لي أن أعرب عن .. هه.. شعوري، شعوري الكبير الذي أثاره هذا.. ها.. التكريم المُرضي جداً. إنني مدرك تماماً يا سيدي، للأعباء الكثيرة التي تشغل وقتك. و.. و.. ها.. قيمتها الهائلة...

ولم يستطع السيد دوريت أن ينطق بكلمة «الهائلة» باللهجة التي كان يرجوها، ولكنه استطرد قائلاً:

- مما يجعلني أرى أن اقتطاعك لهذه الفترة من وقتك الثمين لزيارتي في هذه الساعة المبكرة تكريماً يستحق كل تقدير من جانبي.

وكان السيد دوريت في الواقع يرتعد وهو يتحدث إلى الرجل العظيم.

وغمغم السيد ميردل بصوته الخافت الخفي المتردد بضع أصوات لا يفهم لها معنى أياً كان، وأخيراً قال:

- إنني سعيد برؤيتك يا سيدي.

فقال السيد دوريت:

- إنك كريم جداً، كريم حقاً.

وكان الزائر عندئذ قد اتخذ مجلسه، وراح يمسح بيده العظيمة على جبينه المرهق، مما جعل السيد دوريت يردف قائلاً:

- إنك، كما أرجو بخير يا سيد ميردل؟

فقال السيد ميردل:

- إنني بخير كالمعتاد، نعم كالمعتاد كل يوم.

- لا بد أن شواغلك ضخمة جداً.

فقال السيد ميردل وهو يتلفت في أنحاء الغرفة:

- إلى حد معقول. ولكن.. لا يا عزيزي! إنني لست في حالة تدعو إلى القلق.

فقال السيد دوريت في تلميح:

- ربما عسر هضم بسيط.

فقال السيد ميردل:

- محتمل جداً، ولكنني.. أوه، على ما ينبغي.

وكان ثمة آثار سوداء على شفتيه في مكان التقائهما، وكأنما انفجر فيهما فتيل صغير من البارود. ولو كان مزاجه الطبيعي أكثر حدة، لبدا في ذلك الصباح كرجل مريض بالحمى. وقد أثار هذا، مع مسحه بيده على جبينه في بطء، السيد دوريت إلى أن يسأله باهتمام عن أحواله الصحية. ثم أردف قائلاً:

- لقد تركت السيدة ميردل، كما تتوقع أن تسمع.. موضع.. ها.. اهتمام الجميع بلا استثناء، وموضع إعجاب جميع المعجبين والشخصية الأولى الجذابة الفاتنة في المجتمع الراقي بروما. وقد كانت عندما رحلت في أحسن حال.

فقال السيد ميردل:

- إن السيدة ميردل تعتبر بوجه عام سيدة جذابة جداً، وهي كذلك بلا شك. فإني مدرك لهذه الحقيقة.

فردّ السيد دوريت قائلاً:

- وهل يمكن أن يكون الأمر غير هذا؟

وأدار السيد دوريت لسانه في شدقيه، وبدا له أنه لسان جاف عنيد.. ثم رطّب شفتيه، ومرّ بيده على جبينه مرة أخرى، ثم نظر حوله ثانية في جوانب الغرفة، ولا سيما تحت المقاعد. وأخيراً قال وهو يركز نظراته على وجه السيد دوريت لأول مرة، ثم لم يلبث أن هبط بها قدراً إلى أسفل صدرية السيد دوريت:

- ولكن إذا تحدثنا عن الجاذبية، فينبغي أن تكون ابنتك موضوع الحديث. إنها جميلة جداً، جميلة في الوجه، وجميلة في القوام إلى حد غير عادي. وفي الواقع دهشت جداً لرؤيتي مثل هذه الفتنة حين جاءت مع زوجها في الليلة الماضية.

وبلغ من ابتهاج السيد دوريت وشكره أنه قال.. ها.. إنه لا يستطيع إلا أن يذكر للسيد ميردل، بالكلام، ما سبق أن ذكره في رسالته، وهو أنه يجد كل السعادة والشرف في هذا الارتباط بين الأسرتين. ثم بسط يده مصافحاً. ونظر السيد ميردل إليه برهة، ثم أخذها في يده لحظة وكأنما يده هذه مرهم أصفر أو شريحة سمك، ثم أعادها إلى السيد دوريت، قائلاً:

- لقد رأيت أن آتي لزيارتك أولاً لأقدم خدماتي، ولعلي أستطيع أن أقوم لك بأي شيء، ولأقول لك إنني أرجو أن تشرفني، على الأقل، وتتناول الغداء معي اليوم وكل يوم لا تكون فيه مرتبطاً بما هو أهم، في أثناء إقامتك بالمدينة.

وانتشى السيد دوريت بهذه الرعاية، وعاد السيد ميردل يقول:

- هل ستبقى هنا طويلاً؟

فقال السيد دوريت:

- إنني في الوقت الحاضر لا أنوي أن أطيل إقامتي.. هه.. أكثر من أسبوعين.

فرد السيد ميردل قائلاً:

- هذه إقامة قصيرة جداً بعد هذه الغيبة الطويلة في الخارج.

فقال السيد دوريت:

- هه، نعم. ولكن الحقيقة هي.. ها.. يا عزيزي السيد ميردل، إني أجد الحياة الأجنبية ملائمة لصحتي ومزاجي، بحيث إنني لا أجد لي..

هه.. في لندن غير هدفين في هذه الزيارة. أولاً هذا التشريف والتكريم والسعادة العظيمة التي.. ها.. أحظى بها الآن، وثانياً الترتيبات .. هه.. -أو كما ينبغي أن أقول- أحسن الأوضاع التي.. هه.. ها.. أستثمر فيها أموالي.

فقال السيد ميردل بعد أن أدار لسانه في شدقيه مرة أخرى:

- حسناً يا سيدي، إذا كنت أستطيع أن أقدم إليك أية خدمة في هذا الشأن، فيمكنك أن تأمرني.

وكان حديث السيد دوريت متسماً بالتردد أكثر من المعتاد وهو يتناول هذا الموضوع الحرج، لأنه لم يكن مطمئناً تماماً إلى الموقف الذي قد يقفه منه مثل هذا القطب العظيم. كانت تخامره الشكوك في أن الإشارة إلى الثراء الشخصي أو رأس المال الفردي قد تلوح عملاً بائساً تافهاً بالنسبة لشخصية تتعامل في الشؤون المالية على نطاق ضخم. ومن ثم كان شعوره بالراحة عظيماً حين عرض السيد ميردل مساعدته عليه بهذه اللباقة، فراح ينتهز هذه الفرصة ويغمره بالشكر والثناء وأخيراً قال:

- إنني لم أكن أجرؤ يوماً أن أؤكد لك، على الأمل.. هه.. في الحصول على هذه الفائدة الضخمة، مثل تشريفك لي بالنصيحة المباشرة والمساعدة. وذلك رغم أنني طبعاً، وفي أية ظروف، ينبغي أن أسير، مثل.. هه.. بقية العالم المتحضر في ركاب السيد ميردل.

فقال السيد ميردل وقد بدا عليه -للعجب- الاهتمام بزخرفة سجادة الأرضية:

- إننا كما تعلم، وكما يمكن القول، أقارب. ولذا يمكنك أن تعتبرني في خدمتك.

فصاح السيد دوريت قائلاً:

- ها، هذا جميل جداً في الواقع.. ها.. أجمل ما يكون.

وقال السيد ميردل:

- إنه لن يكون من السهل في الوقت الحاضر لمن يمكن أن أسميه مجرد شخص غريب أن يدخل في نطاق الأشياء الطيبة.. وأنا أتحدث طبعاً عن الأشياء الطيبة الخاصة بي.

فصاح السيد دوريت بصوت ينم على أنه لا توجد أشياء طيبة أخرى.

- طبعاً، طبعاً.

- إلا إذا دفع غالياً، أو كما اعتدنا أن نقول، إلا إذا دفع رقماً ضخماً..

وضحك السيد دوريت في جزل وانتشاء نفسي، ها، ها، ها.. رقماً ضخماً. عظيم.. ها.. تعبير مدهش بكل تأكيد.

وقال السيد ميردل:

- وعلى كل حال، فإنني بوجه عام، أحتفظ بين يدي بسلطة تتيح لي حق الاختيار -أو كما يفضّل بعض الناس أن يسميه: حق التفضيل- كنوع من التقدير لما أبذله من رعاية وجهد.

فقال السيد دوريت مقترحاً:

- وكاعتراف بأنك تمثل الروح العامة، والنبوغ.

وبدا السيد ميردل، وهو يغص بريقه، ويقوم بحركة جافة، كأنما يلقي بهذه الصفات بعيداً كشيء تافه، ثم أضاف قائلاً:

- أو كنوع من التعويض. ولسوف أرى، إذا سمحت، كيف أستطيع أن أستغل نفوذي هذا المحدود -لأن حسد الناس جعله محدوداً- لفائدتك.

فردّ السيد دوريت قائلاً:

- إنك كريم جداً.. إنك كريم جداً.

وقال السيد ميردل:

- ولا بد أن تقول مثل هذه المعاملات طبعاً على أشد قواعد الاستقامة والثقة. إذ ينبغي أن تقوم الثقة المطلقة بين رجل ورجل. لا بد أن تكون بينهما ثقة لا تتزعزع، ولا يمكن أن تتزعزع، وإلا فلا يمكن القيام بالعمل بنجاح.

واستقبل السيد دوريت هذه العبارات الكريمة بالترحاب، بينما أردف السيد ميردل قائلاً:

- ولهذا فأنا لا أستطيع أن أزكيك إلا إلى حد معين.

فقال السيد دوريت:

- إنني فاهم.. إلى حد معين.

فقال السيد ميردل:

- نعم، إلى حد معين، ولكنه بالتأكيد فوق المتوسط. أما نصيحتي، فهي على كل حال شيء آخر، فإنها على تواضعها..

- بل على عظمتها...

لأن السيد دوريت لم يكن يطيق أي بخس لقيمتها، حتى من السيد ميردل نفسه.

- تحت أمر أي إنسان لا تربطني وإياه إلا روابط الشرف الذي لا تشوبه أية شائبة.

ثم أردف قائلاً وهو شديد الاهتمام في تلك اللحظة بعربة قمامة كانت تمر تحت النافذة:

- وهي ستكون تحت أمرك في أي وقت تراه ملائماً.

عبارات تحية وتقدير جديدة من السيد دوريت، وتمريرات جديدة من يد السيد ميردل على جبينه، ثم هدوء وصمت. وتأملات من السيد ميردل، لأزرار صدرية السيد دوريت.

وقال السيد ميردل وهو ينهض فجأة واقفاً كأنما كان ينتظر في فترة استراحة ريثما يزول الحذر عن ساقيه.

- بما أن وقتي ثمين بعض الشيء، فلا بد لي أن أمضي إلى المدينة. هل تحب أن أصحبك إلى أي مكان يا سيدي؟ سأكون سعيداً أن أصحبك إلى أي مكان أو أن تصل بك مركبتي إلى حيث تريد؟ إنها تحت أمرك.

وقال السيد دوريت إنه يظن أن لديه بعض الأعمال مع مدير البنك الذي يتعامل معه، وهذا البنك في المدينة. وقال السيد ميردل إن هذا من حُسْن الحظ، وإنه مستعد أن يمضي به إلى المدينة. ولكن السيد دوريت يخشى؛ بالتأكيد، أن يعطل السيد ميردل، ريثما يرتدي سترته؛ نعم لا شك في ذلك. ولكن السيد ميردل مُصِرّ على تقديم هذه الخدمة. وهكذا انسحب السيد دوريت إلى غرفته، وترك نفسه تحت تصرف خادمه الخاص، وبعد خمس دقائق عاد متأنقاً في ملابس الخروج.

وهناك قال له السيد ميردل:

- اسمح لي يا سيدي أن أتناول ذراعك.

ثم راح السيد دوريت، وهو معتمد على ذراع السيد ميردل. يهبط السلّم متفرجاً على المتعبدين فوق الدرجات، شاعراً بأن نفحات من نور السيد ميردل تتألق فيه. ثم المركبة والذهاب إلى المدينة، والناس المتطلعون إليهما، والقبعات المتطايرة فوق الرؤوس الشيباء، والانحناءات والاحترامات العامة لهذا المخلوق العجيب، الذي لم يشهد أحد مثيلاً لما يلقاه من

إعجاب واحترام، لا بحق السماء العليا لا. إن الأمر جدير بالتفكير فيما يجري على هذه الوتيرة عندما يجتمع جميع أنصار الطوائف في كنيسة وستمنستر وكاتدرائية سانت بول، في أي يوم أحد من العام. لقد كان حلماً عجيباً في رأي السيد دوريت وهو يرى نفسه راكباً في هذه المركبة من النصر، منطلقاً في عظمة وأبّهة، إلى مقصده الفاخر؛ إلى الشارع الذهبي، شارع لومبارد.

وهناك أصرّ السيد ميردل على الهبوط ومواصلة المسير مشياً، وترك مركبته المتواضعة تحت أمر السيد دوريت. وازداد الحلم روعة في نظر السيد دوريت عندما غادر البنك بمفرده والناس ينظرون إليه وهم يحسبونه السيد ميردل، وعندما سمع بأذنيه، العبارات التي قيلت عنه والمركبة تنطلق به «يا له من رجل مدهش، صديق السيد ميردل هذا..».

وعند الغداء في ذلك اليوم، ورغم أن الاستعدادات لم تقم بصفة خاصة للاحتفال بهذه المناسبة، فإن عدداً كبيراً من كبار المدعوين الذين لم يصنعوا من طين هذه الأرض، وإنما من مادة لم يعرفها أحد بعد، أقبلوا ليضفوا بركاتهم السنية على زواج ابنة السيد دوريت. وقد بدأت ابنة السيد دوريت في ذلك اليوم، وبحماسة شديدة، منافستها ضد تلك المرأة التي لم تكن موجودة وقد بدأت بداية طيبة جعلت السيد دوريت يستعد لأن يقسم -إذا احتاج الأمر- بأن ابنته السيدة سباركلر، قد عاشت طيلة حياتها في عالم الأبهة والترف، وأنها لم تسمع قط مثل هذه الكلمة الغليظة في اللغة الإنكليزية مثل كلمة «مارشاليزا».

وفي اليوم التالي، والذي تلاه، وكل يوم، توالت حفلات العشاء، وراحت بطاقات الدعوة تنهال على السيد دوريت كالثلج المسرحي. وكان قطب المحاماة، وقطب الدين، وقطب الخزانة، وهتافة آل بارناكل، وكل إنسان يريد أن يتعرف، أو يوطد معرفته، بالسيد دوريت باعتباره

صديقاً ونسيباً للسيد ميردل. وكان السيد دوريت عندما يذهب إلى مكتب من أكداس مكاتب السيد ميردل في المدينة كلما اتجهت به أعماله نحو الشرق -وهو كثيراً ما يذهب لأن هذه الأعمال كانت تزدهر بشكل مدهش- كان اسم دوريت جواز مرور إلى حضرة السيد ميردل العظيم. وهكذا كان الحلم يزداد روعة ساعة بعد ساعة كلما ازداد إدراك السيد دوريت بأن هذا النسب قد دفع به إلى الأمام حقاً.

وكان ثمة شيء واحد -عدا التفكير في الثراء- يجثم على ذهن السيد دوريت، وإن كان في ذات الوقت خفيفاً بعض الشيء. ذلك هو رئيس السقاة. ذلك أن هذه الشخصية المزعجة كانت تنظر إليه، في نطاق نظراتها إلى المدعوين للعشاء بطريقة لا تعلو على الشبهات في نظر السيد دوريت. كان ينظر إليه في أثناء عبوره الصالة ليصعد إلى الطابق العلوي للعشاء، بنظرة ثابتة براقة لم تكن ترضي السيد دوريت. وعند جلوسه إلى المائدة، كان السيد دوريت يراه من خلال كأس شرابه يتطلع إليه بتلك النظرة الخفية الباردة. لقد خامره الشك في أن رئيس السقاة لا بد قد عرف فيه أحد نزلاء سجن المدينين أو أنه لا بد قد رآه في ذلك السجن بل وربما قدم إليه أيضاً. ومن ثم كان ينظر بإمعان إلى رئيس السقاة بقدر ما يمكن لأحد أن ينظر إلى مثل هذا الرجل، ومع ذلك لم يستطع أن يتذكر أنه قد رأى ذلك الرجل قط في أي مكان آخر. وعلى مر الوقت كان يميل إلى الاعتقاد بأن ذلك المخلوق العظيم لا يحترم أحداً، ولا يعرف معنى العواطف. ولكنه لم يسترح إلى هذا. لأنه، مهما فكر أو اعتقد، فقد ظل رئيس السقاة هذا يتطلع إليه باستخفاف حتى عندما كانت إحدى عينيه على أطباق المائدة، والعين الأخرى على أدواتها المتألقة، وهكذا لم يكن يدعه خارج نطاق نظراته قط. وكان يرى أنه لا يستطيع أن يجرؤ أن يلمح إليه بأن هذه المطاردة النظرية غير مرضية، أو أن يسأله ماذا يعني بهذا التصرف. ذلك أن حدة معاملته لمخدوميه وزوارهم كانت رهيبة، ومن ثم لم يكن يسمح لأحد قط أن يتحرر في سلوكه معه.

مفقود



قبل يومين من انتهاء زيارة السيد دوريت للندن، وفيما كان على وشك ارتداء ملابسه من أجل نظرة تفتيشية أخرى من رئيس السقاة -الذي كان ضحاياه دائماً يعنون بملابسهم الفاخرة خوفاً منه- إذا بأحد خدام الفندق يأتي إليه حاملاً بطاقة. وتناولها السيد دوريت وقرأ فيها ما يلي:

«السيدة فنشنج».

وبقي الخادم منتظراً في صمت واحترام.

واستدار السيد دوريت إليه في استنكار شديد قائلاً:

- أيها الرجل، أيها الرجل.. وضّح موقفك من تقديم هذا الاسم العجيب إليّ! إنني لا أعرف صاحبته على الإطلاق. فنشنج، أيها السيد!

ولعل السيد دوريت كان يريد أن ينتقم من رئيس السقاة في شخص الخادم، وقد استمر يقول:

- ها! ماذا تعني بكلمة فنشنج!

وبدا أن الرجل، كان يعني من هذه الكلمة ما تدل عليه فعلاً، ومن ثم تراجع أمام نظرات السيد دوريت القاسية وهو يجيب قائلاً:

- سيدة يا سيدي.

فقال السيد دوريت:

- إنني لا أعرف سيدة كهذه يا سيدي. استرد هذه البطاقة وانصرف. إنني لا أعرف اسم فنشنج في أي من الجنسين.

- أسألك المعذرة يا سيدي، لقد قالت السيدة إنها تدرك أنك قد لا تتعرف عليها. ولكنها رجتني أن أقول، يا سيدي، إنه سبق لها أن تشرفت بمعرفة الآنسة دوريت، وقد قالت السيدة يا سيدي إنها تعني الآنسة دوريت الصغيرة.

وزوى السيد دوريت ما بين حاجبيه؛ ثم ردّ قائلاً بعد برهة صمت:

- قل للسيدة فنشنج...

وكان يضغط في نطقه بهذا الاسم كأنما ذلك الرجل البريء هو المسؤول الوحيد عنه، وأردف قائلاً:

- إنها تستطيع أن تأتي.

وكان قد فكر -في تلك اللحظة من الصمت- أنه ما لم يسمح لها بالحضور إليه، فربما تركت رسالة، أو ربما قالت شيئاً يكون له علاقة غير مرضية بظروف الأسرة السابقة. ومن هنا كانت الموافقة، ومن هنا ظهرت فلورا بقيادة ذلك الرجل.

وقال السيد دوريت وهو واقف ممسك بالبطاقة في هيئة تنم على أنه ليس سعيداً جداً بوجودها في يده:

- لم يسبق لي الشرف يا سيدي بمعرفتك أو معرفة اسمك يا سيدتي. قدِّم لها مقعداً يا سيدي.

وأجفل الرجل المسؤول، ثم أطاع الأمر، ثم انصرف متسللاً على أطراف أصابعه. أما فلورا فقد بدأت -وهي تضع عنها نقابها في حالة من

الخجل- تقدم نفسها. وفي الوقت نفسه انتشر في جو الغرفة مزيج فريد من العطور كأنما وضع بعض البراندي خطأ في قارورة رائحة عطرية، أو أن بعض الروائح العطرية وضعت خطأ في زجاجة براندي.

- أقدم للسيد دوريت ألف اعتذار والواقع أن هذه الأعذار ستكون أقل كثيراً جداً مما ينبغي بسبب إقحام نفسي عليك بهذا الشكل الذي لا بد أن يبدو جريئاً جداً من سيدة وبمفردها أيضاً، ولكني رأيت أنه من الأفضل بوجه عام أياً كانت الصعوبة بل وأياً كان الأمر غير لائق رغم أن عمّة السيدة «ف» كانت مستعدة لمصاحبتي ولكنني خشيت أن تصدم بشخصيتها القوية وروحها العنيفة إنساناً له كل هذه الخبرة بالحياة ولا شك لا سيما بعدما طرأ عليها من هذه التغييرات ذلك لأن السيد «ف» كان دائماً يقول إنه رغم أنه تعلم تعليماً جيداً في مكان قريب من بلاكهيث بمصاريف عالية تبلغ قيمتها ثمانين جنيهاً وهو مبلغ ضخم بالنسبة لوالديه وقد استمر يدفع حتى بعد أن خرج منها وكانت هذه دناءة طبعاً ولكن المهم أنه تعلم في أول سنة له كمندوب تجاري جوال بعمولة ضخمة على مبيعات سلعة لم يسمع عنها أحد فما بالك بشرائها وكانت قد سبقت عصر الخمر بزمن طويل أكثر مما تعلم في ست سنوات كاملة في ذلك المعهد الذي كان يديره رجل أعزب وإن كنت لا أدري لماذا يكون الرجل الأعزب أبرع من الرجل المتزوج ولن أدري أبداً سبباً لهذا ولكن أرجوك المعذرة إن هذا خارج الموضوع.

ووقف السيد دوري متسمراً على السجادة كأنه تمثال من الذهول.

وعادت فلورا تقول:

- ويجب أن أعترف بصراحة أنني عاطلة عما يمكن أن أفخر به ولكنني وقد عرفت تلك المخلوقة الصغيرة العزيزة وهي تحت ظروف أخرى مغايرة قد ينطوي حديثي كما يبدو على جرأة ولكنها جرأة غير

مقصودة، يعلم الله لا سيما وأنه ليس من الفضل الكبير أني كنت أعطيها نصف ريال في اليوم على مثل هذه البراعة في أشغال الإبرة ولكن الأمر من جهة أخرى لم يكن منطوياً على أي ظلم، بل لعله كان أبعد شيء عن هذا لأن العامل جدير بأجره كما أعرف على وجه اليقين وكل ما أرجوه أن يناله دائماً وأن ينال مزيداً من الطعام المغذي والقليل من الروماتيزم في الظهر والسيقان، يا للمسكين.

وقال السيد دوريت وهو يسترد أنفاسه بمجهود كبير في أثناء توقف أرملة المرحوم السيد فنشنج عن الحديث لتسترد هي أيضاً أنفاسها.

- سيدتي!

وتوقف برهة وقد احمرّ وجهه أشد الاحمرار قبل أن يستطرد قائلاً:

- سيدتي. إذا كنت أفهم منك أنك تشيرين.. ها.. إلى أي شيء من سوابق.. هه.. ابنة لي يتعلق.. هه ها.. بعمل يومي بأجر فاسمحي لي يا سيدتي.. هه.. أن أقول إن هذه الحقيقة.. هه.. على فرض أنها حقيقة، لم تكن في نطاق معلوماتي.. هه.. وما كنت لأسمح بذلك، ها، أبداً، أبداً!

فردّت فلورا قائلة:

- لا داعي للمضي في هذا الموضوع وما كنت لأشير إليه بأي حال لولا الظن بأن الرسالة الوحيدة المحبوبة التي يمكن أن أقدم بها نفسي، ولكن فيها يختص بالحقيقة نفسها فليس في ذلك أي شك من أي نوع، يمكنك أن تطمئن من هذه الناحية لأن الثوب الذي أرتديه الآن يمكن أن يثبتها وهو مصنوع ببراعة وإن كان لا أحد ينكر أنه كان يبدو أجمل لو وضع على قوام أجمل لأن قوامي بَدين جداً، وإن كنت لا أعرف كيف أزيل بعض بدانته، أرجوك المعذرة فأنا أخرِّف مرة أخرى.

وتراجع السيد دوريت إلى مقعده بطريقة جامدة، ثم جلس وهو يتلقى من فلورا نظرة ناعمة أرسلتها إليه وهي تداعب مطرفها.

وعادت تقول:

- لقد تهالكت المخلوقة العزيزة الصغيرة وشحب وجهها وبردت أطرافها وهي في بيتي أو على الأصح في بيت أبي وإن كانت ملكيته ليست خالصة وإنما هو مرهون لمدة طويلة على صفقة فلفل في الصباح عندما حضر آرثر -عادة سخيفة تعودتها منذ الشباب وسيد كلينام أنسب كثيراً جداً في هذه الظروف الحاضرة لا سيما عند مخاطبة رجل غريب وهذا الرجل الغريب هو سيد في مركز مرتفع- وحمل إليها هذه الأنباء السعيدة التي عرفها من شخص يدعى بانكس وشجعتني.

وعند ذكر هذين الاسمين، قطب السيد دوريت جبينه، وحملق، ثم قطب جبينه مرة أخرى، ثم تردد وأصابعه على شفتيه كما سبق أن تردد منذ مدة طويلة، وقال:

- تكرمي يا سيدتي واطلبي ما تشائين.

فقالت فلورا:

- سيد دوريت إنه كرم منك جداً أن تتيح لي هذا الإذن وإنه لمن الطبيعي جداً أن يبدو لي أنك كريم جداً لأنه على الرغم من أنك أكثر مهابة فإن الشبه موجود وهو على كل حال شبه. والغرض من إقحام نفسي عليك هو غرض ذاتي وإن كنت قد فعلت هذا دون استشارة أي مخلوق لا سيما على وجه التأكيد استشارة آرثر.. أرجوك المعذرة استشارة دويس وكلينام فإنني لا أعرف أن أقول سيد كلينام بمفرده لأن وضع ذلك الشخص في حلقة ذهبية لذلك العهد الوردي عندما كان كل شيء كأطياف الخيال الخالية من كل هم وقلق يساوي في نظري فدية ملك وإن كنت لا أعرف على الإطلاق كم تبلغ هذه الفدية وإنما أستعمل هذه العبارة للتعبير عن كل ما أمتلك في الحياة وأكثر.

وقال السيد دوريت مكرراً دون أن يهتم كثيراً بحماستها في نطق هذه الكلمات الأخيرة:

- اذكري مطلبك يا سيدتي.

فقالت فلورا:

- إنه ليس من المحتمل أن أعرفه على وجه التحديد ولكنه من المحتمل وهو فعلاً محتمل عندما كان لي شرف القراءة في الصحف أنك قد وصلت من إيطاليا وأنك عائد إليها فقررت أن أحاول لأنك ربما التقيت به أو سمعت عنه شيئاً فإذا كان الأمر كذلك فأية نفحات من البركة والارتياح تحل بنا جميعاً.

فقال السيد دوريت وأفكاره في حالة ارتباك شديد:

- اسمحي لي أن أسألك يا سيدتي إلى من.. ها.. إلى من...؟

وكرر العبارة في صوت مرتفع بدافع من اليأس:

- إلى من تشيرين الآن؟

فقالت فلورا:

- إلى الإيطالي الأجنبي الذي اختفى في هذه المدينة كما لا شك قرأت في الصحف تماماً كما فعلت أنا. ولست أشير إلى المصادر الخاصة عن طريق المدعو بانكس الذي يفهم الإنسان منه أو يسمع عن أية أشياء شريرة رهيبة يتهامسها بعض الأشرار ليحكموا بها على الأرجح على غيرهم بأنفسهم ولا يعجز أحد أن يدرك مدى قلق واستياء آرثر -أقصد دويس وكلينام- لأني عاجزة عن التغلب على هذه العادة...

وحدث لحسن الحظ من أجل توضيح أية نتيجة غير مفهومة، أن السيد دوريت لم يسمع أو يقرأ شيئاً عن هذا الموضوع. وقد دفع هذا

السيدة فلنشنج -بعد اعتذارات كثيرة لما عانته من صعوبات عملية في العثور على جيبها بين خطوط ثوبها- إلى أنها في النهاية أبرزت نشرة بوليسية يدوية تقول إن سيداً أجنبياً يدعى بلاندواز وصل أخيراً من البندقية، قد اختفى بلا سبب معقول في ليلة ما بمكان ما بلندن، أنه قد عُرِف عنه أنه دخل بيتاً ما في ساعة ما، وأنه استُقبِل من سكان هذا البيت وأنه غادره في حوالي كذا من الدقائق قبل منتصف الليل، وأنه لم يُرَ بعد ذلك قط. هذا ما قرأه السيد دوريت مع التفاصيل الدقيقة عن الزمان والمكان، ومع وصف تفصيلي كامل لذلك السيد الأجنبي الذي اختفى بهذه الطريقة الغامضة.

وقال السيد دوريت:

- بلاندواز.. البندقية! وهذا الوصف! إنني أعرف هذا السيد. لقد كان يتردد على بيتي. إنه على معرفة وطيدة بسيد من عائلة كريمة -ولكنها في ظروف مختلفة- وأنا من المهتمين بهذا السيد.

فقالت فلورا:

- إذن فإني أضاعف من توسلي المتواضع الملحّ في أنك عند عودتك إلى إيطاليا سوف تتكرم وتبحث عن هذا السيد الأجنبي في أثناء الطريق وفي جميع المنعطفات وأن تسأل عنه في جميع الفنادق وفي جميع حدائق البرتقال والكروم ومناطق البراكين وغيرها من الأماكن لأنه لا بد أن يكون في مكان ما ولا أدري لماذا لا يأتي ويقول إنه هناك فيرفع سيف الاتهام عن الجميع.

فقال السيد دوريت وهو يعود إلى النشرة البوليسية ثانية:

- أرجوك يا سيدتي! من هو كلينام وشركاؤه؟ ها! إنني أرى هذا الاسم مذكوراً هنا باعتبار أن له علاقة بسكنى البيت الذي شوهد السيد بلاندواز وهو يدخله. فمن هو كلينام هذا وشركاؤه؟ أهو ذلك الشخص

الذي استقيت منه سابقاً بعض.. هه.. الأنباء البسيطة، والذي أشرت إليه كما أعتقد في حديثك الآن؟ أهو.. ها.. ذلك الشخص؟

فقالت فلورا:

- لا لا، إنه شخص يختلف عنه في الواقع كل الاختلاف. إنه شخص بلا ساقين وإنما بمقعد متحرك بدلاً منهما، إنها سيدة لا مثيل لها في الجهامة رغم أنها أمه.

فقال السيد دوريت مدهوشاً:

- هل كلينام وشركاؤه.. هه.. سيدة أم؟

فقالت فلورا:

- ورجل عجوز.

ولاحَ السيد دوريت كأنه لا بد أن يفقد عقله لهذا السبب. وبطبيعة الحال لم تعمل فلورا على رد هذا العقل إليه باندفاعها في وصف تحليلي سريع لربطة عنق السيد فلنتونش، وفي وصفه هو، دون أن ترسم أي خط فاصل بين هذه الشخصية وبين السيدة كلينام، مجملة وصفه كأنما هو لولب صدئ يرتدي حذاء بجرموق وكان خلطها في الوصف بين الرجل والمرأة، وعجز الساقين، والمقعد المتحرك، واللولب الصدئ، والجهامة، والجرموق شيئاً أذهل السيد دوريت تماماً وجعله في حالة يُرثى لها.

وأخيراً قالت فلورا التي تأثرت بحالته رغم أنها لم تشعر قط أنها السبب فيها:

- ولكني لن أعطلك لحظة واحدة أخرى إذا تكرمت وتعهدت لي -كسيد شريف- أنك في أثناء عودتك إلى إيطاليا وفي أثناء إقامتك فيها أيضاً سوف تبحث عن السيد بلاندواز في كل مكان فإذا وجدته أو سمعت عنه تجعله يعود فوراً يرفع ظل الاتهام عن الجميع.

وكان السيد دوريت، خلال هذا، قد أفاق من دهشته بحيث استطاع أن يقول بطريقة متهاسكة على قدر الإمكان إنه سيعتبر هذا واجباً عليه. وابتهجت فلورا بنجاحها ونهضت لتنصرف قائلة:

- مع جزيل الشكر، وإن عنواني على بطاقتي وذلك في حالة ما إذا احتاج الأمر إلى مراسلتي شخصياً، وإنني لن أرسل تحياتي وحبي إلى المخلوقة العزيزة الصغيرة خشية ألا تقبل، والواقع أنه لم تعد هناك مخلوقة صغيرة عزيزة في هذا الانقلاب فلماذا أفعل هذا ولكني وعمة السيد «ف» نتمنى لها كل خير ولا تزعم أن لنا أي فضل عليها ويمكنك أن تتأكد من هذا ولكن الأمر بالعكس تماماً وذلك لما فعلته من أجلنا وهو أكثر كثيراً مما كان في مقدورنا أن نفعله لها فما بالك إذا قلت إنها كانت تقوم بعملها كأحسن ما يمكن وأنا خير من يشهد بهذا لأني كنت أقول منذ أفقت من صدمة وفاة السيد «ف» إنني سوف أتعلم العزف على الأرغن الذي أحبه جداً ولكن يخجلني القول إنني لا أعرف حتى الآن نغمة واحدة. طاب مساؤك.

ولما وجد السيد دوريت -الذي صاحبها إلى باب الغرفة- وقتاً كافياً ليستجمع شتات أفكاره، رأى أن المقابلة قد تناولت بعض مخلفات الماضي التي لا تتفق مع مائدة العشاء في قصر ميردل. ومن ثم كتب وأرسل مذكرة موجزة يعتذر فيها عن الحضور في ذلك اليوم، وطلب من إدارة الفندق أن تعد له طعام العشاء في جناحه الخاص. وكان لديه سبب آخر لهذا التصرف. ذلك أن فترة إقامته في لندن كانت وشيكة الانتهاء كما كانت مليئة بالارتباطات والمواعيد، وكذلك كانت ترتيباته للعودة قد تمت. لهذا كله رأى أنه يجدر بمكانته أن يقوم ببعض التحريات المباشرة عن اختفاء السيد بلاندواز، لكي يستطيع أن يحمل عند عودته نتائج تحرياته إلى السيد هنري جوان. ومن ثم قرر أن يستغل فراغه في هذه الليلة ويذهب إلى كلينام وشركائه بعد أن سهل عليه معرفة المكان عن

طريق النشرة البوليسية وهناك يستطيع أن يرى ذلك المكان وأن يلقي سؤالاً أو اثنين بنفسه.

وبعد أن تناول طعاماً بسيطاً بقدر ما سمح له الساعي التابع وإدارة الفندق، وبعد أن نام فترة وجيزة بجوار المدفأة ليسترد هدوءه بعد مقابلة السيدة فنشنج له، مضى بمفرده في عربة مأجورة مكشوفة. وكان أجراس كاتدرائية سانت بول تعلن التاسعة وهو يمر في ظلال بناية المحامين التي كانت تبدو عارية موحشة في ذلك الزمن المنحل.

وفيها هو يقترب من غايته عن طريق الشوارع الجانبية والمسالك المائية، بدا له ذلك الجانب من لندن في تلك الساعة أقبح كثيراً مما كان يخطر بباله. لقد انصرمت سنوات طويلة منذ أن رآه. ولم يكن قد عرف قط الشيء الكثير عنه، ومن ثم بدا في نظره مغلفاً بالغموض والكآبة. وقد بلغ من قوة تأثير هذا المكان على خياله أنه عندما توقف السائق بالمركبة بعد أن سأل عن الطريق أكثر من مرة وقال إنه يعتقد أن هذه هي البوابة المطلوبة، ظل داخل المركبة متردداً، وبابها مفتوح في يده يخامره شيء من الخوف من منظر البيت الموحش.

والواقع أن البيت كان يبدو كئيباً موحشاً كما هو شأنه دائماً. وكان ثمة نشرتان بوليسيتان ملصقتان على عمودي البوابة الجانبيين، وكلما ارتعش ضوء مصباح المركبة في سكون الليل. بدا كأنما ثمة ظلال تطوف بها. وكانت تشبه ظلال أصابع تتبع خطوط العبّارات. وكان الواضح أن ثمة رقابة قد تقررت في ذلك المكان. لأن السيد دوريت رأى في أثناء تردده رجلاً يبرز من جانب الطريق، وآخر يمر من ركن مظلم في الجانب الآخر. وقد نظر كلاهما إليه في أثناء مرورهما، ثم ظل كلاهما واقفاً يراقب.

ولما لم يكن إلا منزل واحد وراء البوابة، فقد زال كل مجال للتردد، ومن ثم صعد السيد دوريت الدرجات إلى باب ذلك البيت وطرق

ولاحظ وجود ضوءين خافتين في نوافذ الطابق الأول. وردد الباب صدى أجوف رهيباً كأنما البيت خالٍ. ولكنه لم يكن، لأن السيد دوريت لم يلبث أن رأى ضوءاً، ثم سمع وقع خطوات بعد ذلك مباشرة، وأقبل كلاهما، الضوء والخطوات، إلى الباب، ثم صلصلة سلسلة حديدية، ثم ظهرت بالباب امرأة تخفي رأسها ووجهها بمريلتها، وقالت:

- من الطارق؟

وأجاب السيد دوريت وهو مدهوش جداً لهذا المنظر قائلاً إنه آتٍ من إيطاليا وإنه يريد أن يلقي سؤالاً بشأن شخص مفقود يعرفه.

فصاحت المرأة بصوت مرتفع مشروخ:

- ها، أرميا.

وعندئذ ظهر رجل عجوز أعجف خطر ببال السيد دوريت أنه يعرفه من جرموق حذائه باعتباره اللولب الصدئ. وبدا على المرأة أنها تخاف ذلك العجوز الأعجف، لأنها أزالت المريلة عن رأسها ووجهها عند اقترابه وكشفت عن وجه شاحب مفزع. وصاح العجوز قائلاً:

- افتحي الباب أيتها الحمقاء ودعي السيد يدخل.

وبعد أن ألقى السيد دوريت من خلف كتفه نظرة سريعة إلى المركبة والسائق، دخل إلى الصالة المعتمة حيث قال له السيد فلتونش:

- والآن يا سيدي، تستطيع أن تلقي هنا أي سؤال تراه مناسباً ليس هنا أية أسرار يا سيدي.

وقبل أن يرد السيد دوريت بشيء، إذا بصوت نسائي قوي يُسمَع من الطابق العلوي يقول:

- من هذا؟

فأجاب أرميا قائلاً:

- مَن هذا! مزيد من التحريات. سيد من إيطاليا.

- ائتِ به هنا.

وغمغم السيد فلنتونش بكلمات كأنها أراد أن يقول إن هذا أمر لا داعي له، إلا أنه استدار نحو السيد دوريت وقال:

- إنها السيدة كلينام. إنها تفعل ما يحلو لها. لسوف أقودك إليها.

ثم تقدم السيد دوريت إلى سلَّم أغبر، وكان طبيعياً أن يلتفت ذلك السيد وراءه في أثناء سيره، حيث رأى امرأة تتبعهما ومريلتها ملقاة مرة أخرى على رأسها ووجهها في ذلك الوضع المزعج السابق.

وكانت دفاتر السيدة كلينام مفتوحة أمامها. فلما لمحت الزائر بنظرة مركّزة، قالت فجأة:

- أوه، إنك من إيطاليا يا سيدي، أليس كذلك، حسناً!

وارتبك السيد دوريت ولم يجد رداً مناسباً أكثر من قوله:

- ها.. حسناً.

- أين ذلك الرجل المفقود؟ هل جئت لتقدم إلينا بعض المعلومات عن مكانه! أرجو ذلك.

- بل على العكس تماماً.. هه.. لقد جئت لأحصل على بعض المعلومات.

- من سوء حظنا أنه لا توجد معلومات هنا. فلنتونش، أطلع السيد على النشرة البوليسية. أعطه عدداً منها ليأخذها معه.. قدِّم إليه الضوء ليقرأها.

وفعل السيد فلتونش ما طُلِب منه. وقرأ السيد دوريت النشرة كلها كأنها لم يسبق له أن رآها، وقد سرّه أن أتيحت له هذه الفرصة لكي يستجمع شتات أفكاره التي بددها بعض الشيء طبيعة جو المنزل والمقيمين فيه. وفيما كانت عيناه على النشرة، شعر أن نظرات السيد فلتونش والسيدة كلينام مركّزة عليه. وقد وجد -حين رفع عينيه- أن إحساسه لم يكن وهمياً.

وقالت السيدة كلينام:

- إنك الآن تعرف بقدر ما نعرف يا سيدي. هل السيد بلاندواز صديق لك؟

فأجاب السيد دوريت قائلاً:

- لا.. هه.. مجرد معرفة.

- لعلك تحمل رسالة له؟!

- أنا .. ها.. لا بالتأكيد.

وتحولت النظرة الفاحصة تدريجياً إلى أرضية الغرفة بعد أن أخذت معها وجه السيد فلتونش، ولما رأى السيد دوريت -في قلق- أنه صار المسؤول بدلاً من السائل، أعدّ نفسه لتغيير هذا الوضع غير المنتظر للأمور، فقال:

- إنني.. هه.. سيد من ذوي الأملاك، أقيم في الوقت الحاضر بإيطاليا مع أسرتي وخدمي و.. هه.. وحاشيتي الكبيرة نوعاً ما. وفي أثناء إقامتي لمدة قصيرة بلندن لأعمال تتعلق.. هه.. بممتلكاتي، وعند سماعي عن هذا الاختفاء العجيب، رغبت في أن أعرف ظروف هذا الاختفاء من أقرب مصدر، لأن هناك.. هه.. في إيطاليا سيداً إنكليزياً سوف أراه بلا

شك عند عودتي. وكان هذا السيد على علاقة وطيدة واتصال يومي بالسيد بلاندواز. إنه السيد هنري جوان. ولعلك تعرفين هذا الاسم.

- لم أسمع به قط.

قالتها السيدة كلينام، ورددها بعدها السيد فلنتونش.

وعاد السيد دوريت يقول:

- ولرغبتي لكي أجعل القصة واضحة ومترابطة له، هل يمكن.. هه.. أن ألقي ثلاثة أسئلة؟

- ثلاثين إذا شئت.

- هل تعرفين السيد بلاندواز منذ مدة طويلة؟

- ليس منذ أكثر من عام. ويمكن للسيد فلنتونش هنا أن يعود إلى الدفاتر ويخبرك متى وعن طريق من في باريس قُدِّم إلينا.

ثم أردفت السيدة كلينام قائلة:

- فإذا كان هذا مُرْضِياً لك فإنه غير مُرْضٍ لنا.

- هل كنت ترينه كثيراً؟

- لا. مرتان فقط. مرة قبل، و..

وأتم السيد فلنتونش العبارة قائلاً:

- وتلك المرة.

- وتلك المرة.

فقال السيد دوريت وهو يشعر بإحساس متزايد -بعد أن استرد الشعور بأهميته- بأنه يقوم بمهمة سامية من أجل الأمن العام:

- أرجوك يا سيدتي، هل تسمحين لي أن أسأل -من أجل إرضاء ذلك السيد الذي.. هه.. أهتم به، أو.. هه.. أرعاه، أو دعيني أقل.. هه.. أعرفه. أعرفه، هل كان السيد بلاندواز هنا في مهمة ما في الليلة المشار إليها بالنشرة البوليسية.

فقالت السيدة كلينام:

- كان هنا فيما سمّاه عملاً.

- هل طبيعة هذا العمل، ومعذرة، تسمح بذكرها لي.

- لا.

وكان الواضح أنه من المستحيل تجاوز حاجز هذه الإجابة. وقالت السيدة كلينام:

- لقد سمعت هذا السؤال من قبل. والإجابة عنه بالنفي. إننا لا نحب أن نعلن عن معاملاتنا، مهما تكن غير ذات قيمة، في جميع أنحاء المدينة. وإننا نقول الآن.. لا.

فقال السيد دوريت:

- إنني أعني، ألم يأخذ معه مالاً، مثلاً؟

- إنه لم يأخذ معه مالاً يخصنا يا سيدي، ولم نعطه مالاً هنا.

فعلق السيد دوريت قائلاً وهو ينتقل ببصره من السيدة كلينام، إلى السيد فلنتونش، ومن السيد فلنتونش إلى السيدة كلينام:

- أعتقد أنك لا تعرفين سبباً خاصاً في نظرك يبرر هذا الاختفاء!

فردت السيدة كلينام قائلة:

- لماذا تظن هذا؟

ولم يستطع السيد دوريت بعد أن ارتبك من لهجة هذا السؤال الجافة الباردة، أن يقدم أي سبب لظنه هذا.

وأردفت السيدة قائلة بعد فترة من الصمت المحرج من جانب السيد دوريت:

- إن رأيي في هذا الموضوع يا سيدي هو أنني لا أشك في أنه مسافر في مكان ما أو مختبئ في أي مكان.

- أتعرفين لماذا.. هه.. هو مضطر للاختفاء في أي مكان؟

- لا.

وكانت نفس كلمة «لا» السابقة، وقد وضعت حاجزاً آخر. وعادت السيدة كلينام تقول بصراحة لتذكُّره:

- لقد سألتني إذا كنت أعرف سبباً خاصاً بي يبرر اختفاء السيد بلاندواز إن هذا لا يعني أنني أبرره لك. إنني لا أدّعي أنني أبرره لك يا سيدي. وإنما الذي أفهمه أنه ليس من شأني أن أبرر لك شيئاً كما أنه ليس من شأنك أن تسألني عن ذلك.

وأجاب السيد دوريت بإيماءة اعتذار من رأسه. وفيما هو يتراجع إلى الوراء استعداداً لأن يقول إنه لم يعد لديه المزيد من الأسئلة، لم يسعه إلا أن يلاحظ كيف أنها كانت جالسة في اكتئاب شديد وهي مركِّزة نظراتها على الأرض، وقد بدا عليها ما ينم على أنها تنتظر في إصرار؛ ولاحظ أيضاً كيف أن نفس هذه الأمارات كانت تنعكس على السيد فلنتونش الواقف على مسافة يسيرة من مقعدها وعيناه أيضاً على الأرض ويده اليمنى تحك ذقنه برفق.

وفي تلك اللحظة ألقت أفري -وهي طبعاً المرأة ذات المريلة- الشمعة من يدها وصاحت قائلة:

– ها هو ذا! يا إلهي الرحيم! ها هو ذا مرة أخرى. اسمع الآن يا أرميا!

ولو أنه كان ثمة صوت على الإطلاق، لكان ذلك الصوت الخافت الذي لا بد قد اعتادت أن تسمعه بحكم عادتها المستحكمة في تسمّع الأصوات. ولكن السيد دوريت أعتقد أنه قد سمع شيئاً ما، مثل سقوط أوراق شجر جافة. وبدا أن فزع المرأة –لمدة وجيزة– قد أثر على الثلاثة، فأرهفوا جميعاً الأسماع.

وكان السيد فلنتونش أول من تحرك، فقال لها وهو يقترب منها وقد جمع قبضتي يده، وارتعد مرفقاه لهفة إلى هزها بعنف.

– أفري، يا امرأتي. لقد عدت إلى ألاعيبك السابقة. وفي المرة التالية ستسيرين يا امرأتي في أثناء نومك وتعودين مرة أخرى إلى كل بهلواناتك السخيفة. يجب أن تُعرَضي على طبيب. وبعد أن أصحب هذا السيد إلى الباب الخارجي، سوف أعطيك جرعة منومة كبيرة يا امرأتي جرعة مهدئة كبيرة ومريحة.

ولم يبد على الإطلاق أن الجرعة ستكون مهدئة في نظر السيد فلنتونش ولكن أرميا تناول –دون إشارة أخرى إلى عقاره الشافي– شمعة ثانية من على مائدة السيدة كلينام وقال:

– والآن يا سيدي، سوف أنير لك الطريق إلى أسفل.

وأعرب السيد دوريت عن شكره، ثم غادر المنزل. وأغلق السيد فلنتونش الباب وأحكم رتاجه بالسلسلة من الداخل دون أن يضيع لحظة. ومرة أخرى رأى السيد دوريت الرجلين يمران أمامه. أحدهما من ناحية، والآخر من ناحية ثانية، ثم استقل المركبة التي تركها في الانتظار وانصرف.

وقبل أن يمضي بعيداً، أوقف السائق المركبة ليقول له إنه ذكر اسمه ورقم رخصته وعنوان إقامته للرجلين عندما أخذا يستجوبانه معاً. كما أنه ذكر لهما العنوان الذي أخذ منه السيد دوريت، والساعة التي استُدعي فيها من موقفه العام، والطريق الذي سلكه في الحضور. لم يخفف هذا كله من حرارة التفكير في مغامرة هذه الليلة في أثناء انشغال ذهن السيد دوريت بها وهو جالس مرة أخرى بجانب المدفأة أو حين مضى إلى الفراش. لقد ظل يطوف بمشاعره طيلة الليل حول ذلك البيت. ورأى الرجلين المنتظرين في إصرار، وسمع المرأة ذات المريلة فوق رأسها وهي تصيح بسبب سماعها لصوت، ووجد جثة بلاندواز المفقود مدفونة في قبر حيناً، أو مخبوءة حيناً آخر داخل جدار من الآجر.

* * *

قلعة في الهواء



ما أكثر أعباء الثراء ورفعة المكانة. وكانت غبطة السيد دوريت لتذكره بأنه لم يجد ضرورة لأن يذكر اسمه لكلينام وشركائه، أو يشير إلى أن له أية معرفة بذلك الشخص الدخيل الذي يحمل هذا الاسم، قد تحولت إلى قلق، وهي -أي الغبطة- لا تزال في نضارتها بسبب الجدل الذي نشب في أعماق نفسه عما إذا كان ينبغي أن يمر في أثناء عودته على سجن مارشاليزا ويلقي نظرة على بوابته. وكان قد قرر ألا يفعل هذا، ومن ثم أدهش سائق المركبة بحدته في الرد عليه حين اقترح السائق أن يعودا عن طريق جسر «لندن بريدج» ثم يعبرا النهر على جسر «واترلو بريدج» وهو الطريق الذي يجعل سجن مارشاليزا على مرمى البصر. ولكن، على الرغم من هذا كله، فقد أثارت المسألة صراعاً في صدره، وأحس لسبب غريب، أو لغير سبب، بشعور مبهم من الضيق والانقباض. حتى في أثناء وجوده على مائدة عشاء السيد ميردل في اليوم التالي، كان في حالة شديدة من الانقباض لهذا السبب، بحيث راح بين الحين والآخر يقلبها في ذهنه المرة بعد الأخرى بطريقة لا تتلاءم إطلاقاً مع كبار الموجودين حوله. وكان يشعر بالمزيد من الارتباك كلما فكر فيما قد يظن به رئيس السقاة إذا استطاع أن ينفذ بعينيه النفاذتين هاتين إلى مجرى تأملاته.

وكانت وليمة الوداع ذات طابع فاخر، مما جعلها ختاماً رائعاً لزيارته للندن. وكانت فاني بجاذبيتها وشبابها وجمالها، مع ثباتها وقدرتها على ضبط النفس قد بدت كأنها هي متزوجة منذ عشرين عاماً. ومن ثم شعر والدها أنه يستطيع أن يتركها وهو مطمئن إلى قدرتها على السير قدماً في طريق الرفعة، تمنى -مع حبه واحترامه لفضائل صغيرته المحبوبة- لو كان لديه ابنة أخرى مثل فاني.

قال لها عند الفراق:

- يا عزيزتي، إن أسرتنا تنتظر منك أن تؤكدي هيبتها، وترعي مكانتها وأنا أعرف أنك لن تخذلينا أبداً.

فقالت فاني:

- لا يا أبي. أعتقد أنك تستطيع الاعتماد عليّ في هذا. أعظم حبي للعزيزة إيمي. وسوف أكتب إليها قريباً جداً.

فقال السيد دوريت بلهجة لها دلالتها:

- ألا تريدين أن أحمل أية رسالة إلى.. ها.. إلى أي شخص آخر؟

فقالت فاني وقد مَثُلَ أمامها فوراً طيف حرم الجنرال:

- لا يا أبي، وشكراً. إنك عطوف جداً يا أبي. ولكني أرجو أن تعذرني. فليس لدي رسالة أخرى. وشكراً لك يا أبي العزيز، أعتقد أنه من اللائق لك أن تحملها.

وكانت تحية الوداع في غرفة استقبال خارجية حيث لم يكن بها غيرها إلا السيد سباركلر الذي وقف تحت أمر زوجته، منتظراً في خضوع اللحظة المناسبة لمصالحة والدها. ولما سمح له بذلك، أقبل السيد ميردل متسللاً بهدوء وقد اختفت يداه داخل إساورتي قميصه حتى بدا كأنه توأم

«الآنسة بيفين» وأصر على أن يصحب السيد دوريت إلى الباب الخارجي. ولما لم تُجْدِ كل احتجاجات السيد دوريت، فقد استمتع بشرف مصاحبة مثل هذه الشخصية العظيمة -كما قال السيد دوريت له وهو يصافحه على السلّم إلى باب الصالة الخارجي- والواقع أن السيد ميردل كان قد غمره بالاهتمام والخدمات في أثناء زيارته هذه التي لا تُنسى. وهكذا افترقوا، فركب السيد دوريت المركبة بصدر خافق دون أن يشعر بأي أسى إطلاقاً وذلك لكي يرى تابعه الساعي، الذي جاء ليودعه عند أسفل السلالم الخارجية، عظمة رحيله.

وكان الشعور بالعظمة المذكورة أعلاه لا يزال يغمر السيد دوريت عند هبوطه أمام فندقه. وبعد أن هبط بمساعدة تابعه الساعي وستة من خدم الفندق، سار في عظمة ووقار عبر الصالة عندما رأى على حين غرة منظراً جعله يتسمر في مكانه معقود اللسان. لقد رأى الشاب جون شيفري في أحسن ملابسه، وقبعته العالية تحت ذراعه، وعصاه الصغيرة ذات المقبض العاجي تثير في رفق بعض الارتباك في تصرفاته، وحزمة من السيجار في يده.

وقال بواب الفندق:

- والآن أيها الشاب، هذا هو السيد، إن هذا الشاب أصرّ على انتظارك يا سيدي قائلاً إنك سوف تبتهج برؤيته.

فحملق السيد دوريت في الشاب، واختنقت أنفاسه قليلاً، ثم قال بأرقّ الأصوات:

- آه، الشاب جون! إنك الشاب جون كما أظن، أليس كذلك؟

فردّ الشاب جون قائلاً:

- أجل يا سيدي.

فقال السيد دوريت:

- لقد.. هه.. ظننت أنك الشاب جون!

ثم استدار إلى أحد أتباعه وأردف قائلاً وهو يستأنف سيره:

- يمكن للشاب أن يصعد. أجل.. يمكنه أن يصعد. دع الشاب جون يتبعني. لسوف أتحدث معه فوق.

وتبعه الشاب جون وهو يبتسم في غبطة بالغة. ووصل الجميع إلى جناح السيد دوريت، وأضيئت الشموع، وانسحب الأتباع.

وقال السيد دوريت وهو يستدير نحو الشاب ويمسك بخناقه بعد أن أمسيا منفردين تماماً:

- والآن يا سيدي، ماذا تعني بهذا التصرف!

وكانت أمارات الدهشة والفزع التي ارتسمت على وجه المسكين جون -لأنه كان ينتظر أن يعانقه- من القوة والوضوح بحيث اضطر السيد دوريت إلى رفع يده والاكتفاء بالنظر إليه شزراً. ثم قال:

- كيف تجرؤ على أن تفعل هذا. كيف حدَّثتك نفسك بالحضور إلى هنا. كيف تجرؤ على إهانتي.

فصاح الشاب جن قائلاً:

- أنا أهينك يا سيدي؟ أوه!

فردّ السيد دوريت قائلاً:

- أجل يا سيدي. تهينني. إن مجيئك إلى هنا إهانة، ووقاحة، وطيش. ليس هنا من يريدك. من أرسلك؟ ماذا بحق الشيطان تفعل.. هه.. هنا؟

فقال الشاب جون بوجه شاحب مذهول لم يرَ السيد دوريت له مثيلاً في حياته، حتى في أيام سجنه:

- ظننت يا سيدي.. ظننت أنك ربما تتكرم وتقبل حزمة..

فصاح السيد دوريت في غضب ثائر:

- اللعنة على حزمتك إنني.. هه. لا أدخن.

- بكل تواضع أرجوك المعذرة، لقد كنت معتاداً على التدخين.

فصاح السيد دوريت وهو يكاد يفقد عقله:

- قل هذا مرة أخرى وأنا أضربك بسيخ المدفأة..

ولما تراجع جون شيفري إلى الباب، صاح السيد دوريت به:

- قف يا سيدي ! قف. اجلس. اللعنة عليك. اجلس.

وتهالك جون شيفري جالساً على أقرب مقعد من الباب، وأخذ السيد دوريت يروح ويجيء في الغرفة. أولاً بسرعة، ثم أخيراً ببطء. وقد ذهب مرة إلى النافذة واعتمد بجبينه على زجاجها، وفجأة استدار وقال:

- ولأي غرض جئت أيضاً يا سيدي!

- لا لغرض آخر قط يا سيدي. أوه، ويحي. جئت فقط لأقول يا سيدي، إنني أرجو أن تكون بخير، ولأسأل فقط كيف حال الآنسة إيمي.

فردّ السيد دوريت قائلاً:

- وما شأنك بهذا؟

- لا شيء يا سيدي بطبيعة الحال. إنني واثق تماماً أني لا أفكر قط في تضييق المسافة بيننا. أنا أعرف أنها جرأة مني يا سيدي، ولكن لم يخطر ببالي قط أنك ستمتعض هكذا.

ثم أردف الشاب جون قائلاً بانفعال:

- أقسم لك بشرفي أنني لو كنت أعرف هذا لمنعتني كبريائي، رغم رقّة حالي، من الحضور. أؤكد لك.

وأحس السيد دوريت بالخجل. وعاد إلى النافذة، واعتمد بجبينه على زجاجها فترة من الوقت. ولما استدار كان المنديل في يده وكان يمسح به عينيه وقد بدا مرهقاً عليلاً.

- إنني آسف لتسرعي معك أيها الشاب جون. ولكن.. هه.. بعض الذكريات تكون عادة غير سعيدة. وما كان ينبغي لك.. هه.. أن تأتي.

فردّ جون شيفري قائلاً:

- إنني أشعر بهذا الآن يا سيدي، ولكنني لم أشعر به من قبل. والله يعلم أني لم أقصد الإساءة إليك يا سيدي.

فقال السيد دوريت:

- لا، لا؛ إنني.. هه.. واثق من هذا. هات يدك أيها الشاب جون، هات يدك.

وقدم الشاب جون يده، ولكن السيد دوريت كان قد طرد الحرارة منها، ومن ثم لم يكن ثمة شيء يستطيع أن يزيل أمارات الشحوب والذهول من وجهه الشاب عندئذ.

وقال السيد دوريت وهو يصافحه ببطء:

- والآن. اجلس مرة أخرى أيها الشاب جون.

- شكراً لك يا سيدي. ولكنني أفضل الوقوف.

وجلس السيد دوريت بدلاً منه. وبعد أن طمر رأسه في يديه متألماً برهة وجيزة، استدار نحو الزائر وقال وهو يجاهد ليبدو هادئاً:

- وكيف حال والدك، أيها الشاب جون؟ أو كيف.. هه.. حال الجميع أيها الشاب جون.

- شكراً لك يا سيدي، إنهم جميعاً بخير يا سيدي. ليس هناك ما يشكون منه إطلاقاً يا سيدي.

فقال السيد دوريت وهو يلقي بنظرة على حزمة السيارات التي أثارت سخطه:

- هه، إنك لا تزال تقوم بعملك القديم كما أرى، يا جون!

- أقوم به من ناحية يا سيدي.

ثم أردف قائلاً بعد تردد:

- ومن ناحية أخرى أقوم بعمل أبي أيضاً.

فقال السيد دوريت:

- أوه، حقاً! هل تقوم الآن.. هه.. بحراسة.. ها

- أجل يا سيدي. إن الأعمال كثيرة في الوقت الحاضر. ولست أدري كيف حدث هذا، ولكن الأعمال كثيرة.

- في مثل هذا الوقت من السنة يا جون؟

- بل في معظم أوقات السنة يا سيدي. إنني لا أكاد أعرف الوقت الذي تخف فيه وطأة العمل. وأتمنى لك ليلة طيبة يا سيدي.

- انتظر برهة يا جون.. هه.. انتظر برهة، اترك حزمة السيجار.. هه.. يا جون وأنا أرجو .. ها..

فوضع جون حزمة السيجار بيد مرتعدة على المائدة وقال:

- بكل تأكيد يا سيدي.

- انتظر برهة أيها الشاب جون، انتظر برهة، إنه لمن دواعي غبطتي أن.. هه.. أن أرسل إكرامية بسيطة.. ها.. مع مندوب أمين مثلك، لكي تُوزَّع.. هه.. حسب احتياج كل منهم. هل تعارض في أخذها يا جون!

- لا مطلقاً يا سيدي، فأنا واثق أن هناك عدداً كبيراً سوف يبتهجون بهذا.

- شكراً لك يا جون. لسوف أكتب.. ها.. المبلغ يا جون.

وكانت يده ترتعد مما جعله مستغرقاً فترة طويلة في الكتابة، وأخيراً فرغ من كتابة ما يريد بخط ركيك جداً. وكان شيكاً بمبلغ مائة جنيه. وبعد أن طواه، وضعه في يد جون، وضغط بيده عليها قائلاً:

- أرجو أن تتجاوز.. هه.. عما حدث يا جون.

- لا تتحدث عن ذلك يا سيد بأي حال. إنني واثق تماماً أني لا أحمل ضغينة بأي شكل.

ولكن لم يكن ثمة شيء، في أثناء وجود جون هناك، يمكن أن يعيد إلى وجهه لونه وأماراته الطبيعية، أو يرد سلوكه العادي.

وقال السيد دوريت وهو يضغط على يد الشاب للمرة الأخيرة قبل أن يتركها:

- وأرجو يا جون أن نكون متفقين.. هه.. على أننا تحدثنا حديثاً خاصاً وأنك ستمتنع، عند انصرافك، من أن تقول أي شيء. لأي شخص، يوحي بأني.. هه.. كنت يوماً...

فردّ جون شيفري قائلاً:

- أوه، أؤكد لك يا سيدي أنني بكرامتي وشرفي -رغم تواضع حالتي- أرفض أن أفعل هذا.

وكان السيد دوريت أرفع وأشرف من أن يسترق السمع وراء الباب، ليتأكد بأن جون قد انصرف حقاً من فوره دون أن يتلكأ للحديث مع أي شخص ولم يكن ثمة شك في أنه مضى رأساً إلى الباب، وانطلق إلى الشارع بخطوات سريعة. وبعد أن بقي السيد دوريت بمفرده نحو ساعة، استدعى بالجرس تابعه الساعي الذي وجده جالساً في مقعده على سجادة المدفأة وظهره إليه، ووجهه نحو المدفأة، وقال له السيد دوريت وهو يلوح بيده في استخفاف:

- يمكنك أن تأخذ هذه الحزمة من السيجار لتدخنها في أثناء الطريق إذا شئت.. ها.. لقد أحضرها كهدية صغيرة.. هه.. ابن أحد سكان منازلي القدامى.

ورأت شمس اليوم التالي ركب السيد دوريت على طريق دوفر حيث كان كل راكب جواد أحمر السترة دليلاً على وجود مخبأ للصوص وقطّاع الطريق في مكان قريب مخصص لعمليات نهب المسافرين بلا رحمة. ولما كانت عمليات النهب والسلب هي الشغل الشاغل للجنس البشري القائم بين لندن ودوفر، فقد هوجم السيد دوريت في دارتفورد، وارتُهِن في جرافنرند؛ وسُلِب في روشستر، وجُرِّد تماماً في ستنج بورن، ونُهِب في كافنربري. ولما كان من مهمة تابعه الساعي، على أية حال، أن ينقذه من أيدي قُطّاع الطرق، فقد اشتراه في كل مرحلة من هذه المراحل، وهكذا انصرف ذوو السترات الحمراء فرحين طروبين عبر الأراضي المشرقة بالربيع، وراحوا يبتعدون وهم يرتفعون وينخفضون على جيادهم في انتظام بين السيد دوريت في مركبته الأثيرة وبين التلال البيضاء القائمة عند الطرق البرية المتربة الأخرى.

ورأته شمس اليوم التالي عند ميناء كاليه الفرنسي. ولما وجد أن قنال المانش قد غدا بينه وبين جون شيفري؛ بدأ يحس بالأمن، وبأن الهواء الأجنبي ألطف على الصدر من هواء إنكلترا.

ومرة أخرى على الطرق الفرنسية المتربة إلى باريس. وراح السيد دوريت، بعد أن استرد إحساسه بالدعة والأمن، يستغرق، وهو في ركنه من المركبة الفاخرة، في أحلام اليقظة وبناء قلعة في الهواء في أثناء السفر. وكان الواضح أن قلعة كبيرة بدت في متناول يده. فكان طيلة اليوم يشيد الأبراج، ويهدم الأبراج، ويضيف جناحاً هنا، ويقيم شرفة دفاع هناك، ويشرف على متانة الجدران، ويقوي مواطن المقاومة، ويزود الداخل بلمسات زخرفية، مشيداً بالإجمال قلعة فاخرة. وكانت الأمارات المرتسمة على وجهه تدل بوضوح على ما يشغل تفكيره بحيث كان في مقدور كل متسول عاجز -مفتوح العينين- عند مراكز المرور يستطيع، وهو يقدم علبته الصفيح الصغيرة المطبقة طالباً الإحسان باسم السماء، أو باسم العذراء، أو باسم جميع القديسين، أن يعرف ماذا يجري في ذهنه تماماً كما لو عرف ذلك بنفسه مواطنهم لا يرون حتى لو جعل من ذلك المسافر الإنكليزي موضوع بحث خاص عن علم الفراسة.

وبعد أن وصل السيد دوريت إلى باريس واستراح فيها ثلاثة أيام كان خلالها يتمشى كثيراً بمفرده في شوارعها ويتطلع إلى واجهات متاجرها، لا سيما إلى واجهات متاجر الجواهر، دخل ذات يوم إلى أشهر جوهري وقال إنه يريد أن يشتري هدية صغيرة لسيدة.

وكان قد قال هذا لسيدة جذابة صغيرة الجسم، سيدة طروب صغيرة، مرتدية ملابسها بذوق رفيع، كانت قد جاءت إليه من وراء طلة من المخمل الأخضر لتقوم على خدمته، وذلك بعد أن أودعت بعض دفاتر صغيرة أنيقة لا يكاد الإنسان يظن أنها خاصة بتسجيل أية سلع تجارية غير القبلات، في مكتب صغير أنيق لامع كأنه في ذاته قطعة من الحلوى.

ولنضرب مثلاً إذن، فهذه السيدة الصغيرة سألته قائلة أي نوع من الهدايا يريد السيد! هدية حب!

وابتسم السيد دوريت وقال، «إه.. حسناً! ربما...» فماذا تراه يعرف؟ إن الأمر دائماً محتمل، فالجنس اللطيف دائماً جذاب، فهل تسمح وتطلعه على شيء!

«بكل سرور»، قالت السيدة.. إن من دواعي نشوتها وابتهاجها أن تريه الكثير. «ولكن معذرة. لنبدأ أولاً بالقول إن على السيد أن يتكرم ويعلم أن هناك هدايا حب، وهدايا زواج. فمثلاً هذه الأقراط الفاتنة، وهذه القلادة التي لا مثيل لروعتها، إنها مما يسمى هدايا الحب. وهذه الدبابيس لزينة الصدر، وهذه الخواتم التي تبلغ من الجمال حد الروعة والبهاء إنها مما يسمى، بعد إذن السيد، هدايا زواج».

ربما كان من حسن الترتيب، هكذا لمح السيد دوريت، وهو يبتسم، أن يشتري كلا النوعين، فيقدم هدية الحب أولاً، ويختم الأمر بهدية الزواج؟

«آه، يا للسماء!» قالتها السيدة الصغيرة وهي تضع أطراف أصابع يديها الصغيرتين بعضها إلى بعض.. «إن هذا يعتبر كرماً حقاً، يعتبر شهامة من نوع فريد! وليس من شك في أن السيدة التي سوف تبهر بهذه الهدايا لن تستطيع مقاومة قبولها».

إن السيد دوريت غير واثق من هذا. ولكن السيدة الصغيرة الطروب جد واثقة. وهكذا اشترى السيد دوريت هدية من كل نوع ودفع مبلغاً ضخماً. وكان وهو عائد إلى الفندق بعد ذلك، يرفع رأسه عالياً. ألم يرفع بكل وضوح الآن ذرى قلعته إلى مدى أكثر ارتفاعاً من برجي كاتدرائية نوتردام المربعين.

وانطلق السيد دوريت في الطريق إلى مرسيليا وهو يشيد في قلعته بكل قواه، مع احتفاظه بالشكل لنظراته فقط. لقد راح يبني ويبني، ويزداد انشغالاً ساعة بعد أخرى من الصباح إلى المساء، مستغرقاً في النوم، تاركاً

كتلاً ضخمة من مواد البناء تتأرجح في الهواء، فإذا استيقظ مرة أخرى، استأنف العمل ليضعها في أماكنها وخلال هذا الوقت، كان التابع الساعي في مقعده الخاص لا يكف عن تدخين أحسن ما لدى جون شيفري من سيجار، مخلِّفاً وراءه خيطاً صغيراً رفيعاً من الدخان الرقيق، ولعله كان يبني أيضاً قلعة أو اثنتين من أموال السيد دوريت المتخلفة عنه.

ولم يكن ثمة مدينة حصينة مرّا بها في أثناء سفرهما في قوة هذه القلعة، ولم يكن ثمة ذروة لكاتدرائية أعلى منها ارتفاعاً. ولم يكن كل من نهر السوان أو الرون لينساب بأسرع من انسياب هذه القلعة الفريدة من نوعها في الهواء، لا ولا كان البحر الأبيض المتوسط أكثر عمقاً من أساسها، لا ولا كانت المناظر الطبيعية البعيدة على طريق الكورنيش، ولا الأكمات، ولا خليج جنوا الناضر بأكثر جمالاً. وهبط السيد دوريت وقلعته التي لا مثيل لها بين المنازل البيضاء القذرة. وبين الأوغاد الأشد قذارة لقرية سيفيتا فتشيا، ومنها أخذ يدرج على الطريق إلى روما بأسرع ما يمكن بين الحمأ الذي تناثر على طول الطريق.

* * *

اقتحام القلعة

كان قد مضى على مغيب الشمس أربع ساعات، وكان الوقت قد أمسى متأخراً أكثر مما يحب المسافرون أن يجدوا أنفسهم خارج أسوار روما عندما كانت مركبة السيد دوريت، وهي لا تزال في آخر مرحلة مرهقة من السفر، تدرج على طريق كامبانيا الموحش. وكان الرعاة الهمج، والفلاحون ذوو السمات الوحشية الذين يكثرون على الطريق في أثناء النهار، قد أووا إلى بيوتهم مع مغيب الشمس، تاركين البرية صماء. وعند بعض منحنيات الطريق، كان ثمة أضواء شاحبة لنيران متوهجة عند الأفق البعيد، كأنها زفرات من الأرض المنثورة بالخرائب، تدل على أن المدينة لا تزال بعيدة. ولكن هذا العزاء البسيط كان قليلاً وقصير العمر. ذلك أن المركبة لم تلبث أن غاصت مرة أخرى في خضم بحر الليل الأسود، ولم يعد ثمة شيء يُرى؛ لمدة طويلة، إلا أمواجه المتكاثفة، والسماء القاتمة.

ولم يستطع السيد دوريت، رغم أن لديه قلعته التي تشغل تفكيره، أن يشعر بالاطمئنان في ذلك المكان الموحش. لقد كان عند كل انحناءة للمركبة وعند كل صيحة لقاطع طريق، أكثر قلقاً وتوجساً مما كان منذ غادر لندن وكان الخادم الخاص على المقعد الأمامي يرتعد كما يبدو، وكان التابع الساعي في مقعده الخاص غير مطمئن الفكر إطلاقاً. وكان السيد دوريت كلما أنزل الحاجز الزجاجي وتطلع إليه، رآه يدخن سيجار

الشاب شيفري، هذه حقيقة، ولكنه كان مع ذلك لا يكف عن الوقوف والتطلع فيما حوله كرجل تخامره الشكوك، فأراد أن يكون على حذر، فإذا أعاد السيد دوريت رفع الحاجز الزجاجي أخذ يفكر في أنه كان من الخير له، إزاء قطّاع الطرق هؤلاء ذوي السِّحَن القاتلة، لو أنه أمضى ليلته في سيفيتا فيتشيا، ثم استأنف السفر في الصباح. ولكنه مع هذا كله لم يكن يكف عن العمل في قلعته بين الحين والآخر.

ثم إذا أجزاء من أسوار خربة، وفجوة نافذة فاغرة في جدار مترنح، ومنازل مهجورة، وآبار نازقة، وخزانات ماء محطمة، وأطياف لأشجار السرو، ورقع من كروم متشابكة، وتحول الطريق إلى حارة طويلة متعرجة وعرة، حيث يبدو كل شيء منهاراً تماماً، ابتداءً من المباني الخربة إلى الطريق الوعر، كان هذا كله يدل على أنهم يقتربون من روما. ولما انعطفت المركبة فجأة عند منحنى وتوقفت، خُيِّل إلى السيد دوريت متوجساً أن ساعة قطع الطريق قد أزفت لكي يُلقى به إلى حفرة وسلبه، ولكن لم يلبث أن أدرك، حين أنزل الحاجز الزجاجي وتطلّع إلى الخارج، أنه لم يُهاجَم بشيء أسوأ من موكب جنازة كان يمضي بترانيمه الآلية ويتكون من شخوص غامضة مرتدية ملابس قذرة، ومن مشاعل خابية، ومن مباخر متأرجحة، ومن صليب ضخم محمول أمام كاهن. وكان الكاهن يبدو في ضوء المشعل قبيح الشكل، قصير القامة؛ بارز الجبين، ولما التقت عيناه بعيني السيد دوريت وهو يطل من المركبة عاري الرأس، تحركت شفتاه وهو يترنم وكأنما يهدد ذلك المسافر الخطير، وكذلك حركة يده التي رفعها ليرد بها على تحية المسافر بدت كأنها تؤكد ذلك التهديد هكذا خُيِّل إلى السيد دوريت بتأثير إرهاقه في تشييد قلعته وفي طول سفره، وذلك في أثناء مرور الكاهن أمامه وتجاوز له مع الموكب المتعثر في الطريق، الحامل معه جثمان الميت. وعلى الطريق الآخر المختلف، مضى موكب السيد دوريت أيضاً، ثم سرعان ما كانت المركبة المحملة بأنواع

الترف من عاصمتي أوروبا الكبيرتين، تدق مع موكب الجنازة أبواب روما، وكأنهما عملاقان همجيان متضادان.

ولم يكن أحد من أهل السيد دوريت يتوقع وصوله في تلك الليلة. كانوا يتوقعون فعلاً حضوره، ولكنهم ظنوا أنه سوف يأتي في الصباح، إذ كانوا يعتقدون أن الوقت أمسى متأخراً أكثر مما يجب لبقائه على الطريق في تلك النواحي؛ وهكذا لم يظهر أحد لاستقباله غير البواب عندما توقفت المركبة أمام باب مسكنه. وسأل هل الآنسة دوريت خارج المسكن، فقيل له بل إنها فيه. «حسناً!» قالها السيد دوريت للخدم المتجمعين. ليبقوا كما هم، ليساعدوا على حمل الأمتعة من المركبة، ولسوف يبحث هو بنفسه عن الآنسة دوريت.

ومن ثم مضى صاعداً السلم الفاخر ببطء وتعب، وبحث في مختلف الغرف التي كانت خالية حتى رأى ضوءاً في غرفة انتظار صغيرة. كانت غرفة صغيرة تحيط بها الستائر كأنها خيمة في نطاق غرفتين. وكانت تبدو دافئة مشرقة اللون وهو ويقترب منها عن طريق الدهليز المظلم الواقع بين الغرفتين.

وكان ثمة ستارة عند المدخل تقوم مقام الباب، فلما توقف عندها ونظر من ورائها دون أن يراه أحد. أحس بقلبه يخفق. ولم تكن خفقة غيرة بالتأكيد؟ ولماذا يغار؟ لم يكن هناك غير ابنته وأخيه. وكان هذا جالساً في مقعده بجوار المدفأة مستمتعاً بدفء نيران المساء؛ وكانت هي جالسة إلى منضدة صغيرة تعمل في قطعة تطريز. فإذا استثنينا الاختلاف الكبير في مظهر الحياة الصامتة بالصورة، فقد كان وضع الشخصيات يشبه إلى حد كبير الوضع القديم، باعتبار أن أخاه، وهو كبير الشبه به، يقوم مقامه في تلك اللحظة داخل الصورة. فكم من ليلة جلس هو هكذا بجوار المدفأة، في مكان بعيد؟ وكم من ليلة جلست هي متفانية في خدمته. ولكن ليس

هناك بالتأكيد ما يدعوه لأن يغار من أيام الفاقة البائسة القديمة. إذن فلماذا هذا الخفقان في القلب!

- أتعرف يا عمي أني أعتقد أنك تعود إلى شبابك مرة أخرى؟

وهز عمها رأسه، وقال:

- ومنذ متى يا عزيزتي منذ متى؟

فردّت دوريت الصغيرة وهي تعمل بإبرتها:

- أعتقد أنك تصغر منذ أسابيع خلت. فلشد ما تبدو مستبشراً، وحاضر الذهن، ومهتماً بكل شيء.

- كل هذا بفضلك يا طفلتي العزيزة.

- بفضلي أنا يا عمي!

- أجل، أجل. لقد أحسنت إليّ إحساناً كبيراً. لشد ما تهتمين بي، وتحنين عليّ، وتترفقين في إخفاء اهتمامك بأمري عني بحيث.. حسناً، حسناً! إن كل هذا مدخر يا حبيبتي، مدخر.

فقالت دوريت الصغيرة بِبِشْر:

- ليس في هذا كله إلا ما يوحيه خيالك الناضر يا عمي.

فغمغم الرجل العجوز قائلاً:

- حسناً! حسناً! حسناً! حمداً لله!

وتريثت برهة في عملها لتنظر إليه، وحددت نظرتها الألم السابق في صدر أبيها. وقد كان صدره المسكين الواهي، المليء بالمتناقضات والهواجس، والتردد وهذه الارتباكات الصغيرة الخجول من هذه الحياة المجهول، مغلفاً بضباب يطرده إلا صباح ليس له ليل.

وقال الرجل العجوز:

– إنني أشعر بالمزيد من الراحة معك كما ترين يا حمامتي منذ انفردنا معاً. وأقول انفردنا معاً لأنني لا أحسب لحرم الجنرال حساباً بيننا. إنني لا أقيم لها وزناً. وليس لها شأن بي. ولكنني أعرف أن فاني كانت ضائقة الصدر بي، وأنا لا أعجب لهذا، ولا أشكو منه، لأني مدرك أنني عقبة في الطريق رغم أني أحاول بقدر الإمكان أن أبتعد عنه وأخليه. أنا أعرف أنني لا أصلح للاختلاط بالوسط الراقي الذي نعيش فيه. إن أخي ويليام..

وكان صوت العجوز ينم عن الإعجاب وهو ينطق باسم أخيه ثم وهو يردف قائلاً:

– يصلح للاختلاط بالملوك. ولكن ليس الأمر كذلك مع عمك يا عزيزتي. إن فريدريك دوريت لا يشرِّف وليام دوريت. وهو يعرف هذا تماماً! عجباً! ها هو ذا والدك يا إيمي، عزيزي ويليام! مرحباً بعودتك يا أخي الحبيب، إنني سعيد برؤيتك.

وكان قد لمحه –عندما أدار رأسه في أثناء الحديث– واقفاً في المدخل.

ولفت دوريت الصغيرة –وهي تصيح ابتهاجاً– ذراعيها حول عنق أبيها وراحت تقبِّله المرة بعد الأخرى. وكان والدها على شيء من الضيق والتوتر العصبي، ومن ثم قال:

– إنني سعيد إذ وجدتك أخيراً يا إيمي. ها، حقاً إني سعيد إذ.. هه.. وجدت أحداً يستقبلني أخيراً. ويبدو أن أحداً.. هه.. لم يكن ينتظر وصولي بحيث أقسم أنني.. هه.. بدأت أظن أنه قد يكون من الواجب أن أعتذر.. هه.. عن جرأتي في العودة إليكم.

فقال أخوه:

- لقد بلغ من تأخر الوقت يا عزيزي ويليام أننا يئسنا من عودتك الليلة.

فردّ السيد دوريت بلهجة أخوية تنطوي على عنف:

- إنني أقوى منك يا فريدريك، وأستطيع كما أرجو أن أسافر دون.. هه.. عائق في أية ساعة أريد.

فقال الآخر وقد خامره الشك في أنه ارتكب إساءة ما:

- بالتأكيد، بالتأكيد، بالتأكيد يا ويليام.

فاستطرد السيد دوريت يقول لابنته وهي تساعده على خلع ردائه:

- شكراً لك يا إيمي، إنني أستطيع أن أفعل هذا بلا مساعدة، إنني.. هه.. لا داعي لأن أزعجك يا إيمي. هل أستطيع أن أتناول شريحة خبز وبعض الشراب. هل يسبب هذا لك إزعاجاً شديداً؟

- يا أبي العزيز، لسوف أقدم لك العشاء في لحظات.

فقال السيد دوريت في عتاب وبرود:

- شكراً لك يا حبيبتي! إنني أخشى، ها.. أن أكون سبباً في إقلاقكم.. هه.. هل السيدة جنرال بخير؟

- كانت السيدة جنرال تشكو من صداع ومن التعب؛ ومن ثم أوت إلى فراشها يا عزيزي حين يئسنا من عودتك الليلة..

ولعل السيد دوريت رأى أن حرم الجنرال قد أحسنت صنعاً حين غمرها الاستياء لعدم وصوله، وأياً كان الأمر، فقد لانت عضلات وجهه وقال في لهجة تنم عن الرضا الواضح:

- يؤسفني جداً أن أسمع أن السيدة جنرال ليست بخير.

وخلال هذا الحوار القصير، كانت ابنته تلاحظه بإمعان وبأكثر من اهتمامها العادي. وكأنما كان يبدو أنه تغير في المظهر والهيئة بعض الشيء في نظرها. ولاحظ هو هذا في غير رضا، لأنه عاد يقول ببروده السابق بعد أن نزع عن نفسه رداء السفر وأقبل على المدفأة:

- إيمي، ماذا ترين؟ ماذا تجدين في شخصي مما يسبب لك.. هه.. هذا التركيز في النظر إليّ.. هه.. بمثل هذه الطريقة؟

- إنني لم أكن أعرف هذا يا أبي، أرجو المعذرة. إن رؤيتك مرة أخرى تسعد عينيّ. هذا كل ما في الأمر.

فقال السيد دوريت في لهجة تأكيد للاتهام:

- لا تقولي إن هذا كل ما في الأمر، لأنه.. ها.. ليس كل ما في الأمر. هل تظنين أنني.. هه.. لا أبدو بخير؟

- خطر لي أنك تبدو مرهقاً بعض الشيء يا حبيبي.

فقال السيد دوريت:

- إذن فأنت مخطئة.. ها.. إنني لست مرهقاً.. ها.. إنني أكثر انتعاشاً جداً مما كنت يوم سافرت.

وبدا أنه ميال إلى الغضب بحيث قررت ألا تقول شيئاً لتبرير رأيها، ومن ثم بقيت هادئة بجانبه تحتضن ذراعه. وفيما هو واقف هكذا، وأخوه على الجانب الآخر منه، إذا به يستغرق في نوم عميق، لمدة برهة، أفاق بعدها مجفلاً. ثم قال وهو يستدير نحو أخيه:

- فريدريك، إنني أنصحك بالذهاب إلى فراشك فوراً.

- لا يا ويليام، لسوف أنتظر حتى تفرغ من عشائك.

فردّ السيد دوريت قائلاً:

– فريدريك، أرجوك أن تذهب إلى الفراش، إنني أرجو رجاءً خاصاً أن تذهب إلى فراشك. كان ينبغي أن تكون في فراشك منذ مدة طويلة إنك ضعيف البنية جداً.

فقال الرجل العجوز الذي لم يكن يرغب إلا في إرضائه:

– ها! حسناً حسناً! أستطيع القول إنني كذلك.

فردّ السيد دوريت في ترفّع مذهل بالنسبة لقوى أخيه الخائرة:

– يا عزيزي فريدريك، لا يمكن أن يكون ثمة شك في هذا، إنه ليؤلمني جداً أن أراك هكذا ضعيفاً.. ها.. إن هذا ليحزنني.. هه.. إنني لا أراك تبدو بخير إطلاقاً. إنك لا تصلح لهذا اللون من الحياة، يجب أن تكون أكثر حرصاً على نفسك يجب أن تكون حريصاً جداً.

فسأله فريدريك قائلاً:

– هل أمضي إلى الفراش؟

فقال السيد دوريت:

– يا عزيزي فردريك، هل أنا أعترض سبيلك؟ طابت ليلتك يا أخي! أرجو أن تكون أحسن حالاً غداً، فأنا لستُ راضياً قط بما يبدو عليك. طابت ليلتك يا صاحبي العزيز.

وبعد أن صرف أخاه على هذا النحو الرقيق، استغرق مرة أخرى في النوم قبل أن يغادر أخوه العجوز الغرفة. وقد كانت من الممكن أن يتعثر ويسقط على نيران المدفأة لولا أن أمسكت به ابنته.

قال لها بعد أن أفاق هكذا:

– إن عمك يهذي كثيراً جداً يا إيمي. إنه.. هه.. أقل فهماً وإفصاحاً وحديثه أكثر اضطراباً.. هه.. ما كان من قبل. هل أصيب بمرض ما منذ سافرت.

- لا يا أبي.

- أترين تغيراً، هه، كبيراً فيه يا إيمي؟

- لم ألاحظ قط هذا يا عزيزي.

فقال السيد دوريت:

- محطم جداً، محطم جداً.. أخي الحبيب المسكين الفاقد القوى فريدريك. وحتى لو أخذنا في الاعتبار ما كان عليه من قبل، فقد كان محطماً بشكل.. هه.. يؤسَف له.

وشغل بعشائه الذي جيء به إليه حيث وضع فوق المنضدة الصغيرة الذي شاهدها تعمل عليها. وجلست بجانبه كما كانت تفعل في الأيام التي ذهبت. وكان ذلك لأول مرة منذ أن ذهبت، وكانا بمفردهما. وأخذت هي تساعده في تقطيع شرائح اللحم، وفي صب الشراب له، كما اعتادت أن تفعل في أيام السجن. لقد حدث هذا كله الآن، لأول مرة، منذ أن هبطت الثروة على الأسرة وكانت تخشى أن تطيل النظر إليه بعد أن ساءه هذا. إلا أنها لاحظت أمرين في أثناء تناوله الطعام، وذلك عندما التفت إليها مرتين ثم التفت حوله، وكأنما أثّر ذلك الوضع في نفسه بقوة بحيث احتاج إلى أن يتأكد بحاسة النظر بأنهما ليسا في غرفة السجن القديمة. وفي كلتا المرتين كان يضع يده على رأسه كأنما يفتقد قلنسوته السوداء وذلك رغم أنه تبرع بها في سجن مارشاليزا، وأنها لم تتحرر من سجنها حتى هذه الساعة، وإنها لا تزال ترفرف في أفنيته على رأس خليفته في ارتدائها بالسجن.

وأصاب من العشاء شيئاً قليلاً جداً، ولكنه استغرق في تناوله فترة طويلة أشار خلالها كثيراً إلى انحدار صحة أخيه. ورغم أنه كان يعرب عن شدة إشفاقه عليه، إلا أنه كان يشعر ببعض المرارة منه. قال إن فريدريك

المسكين قد صار معتوهاً.. نعم ليس هناك كلمة أخرى تعبر عن هذه الحقيقة.. معتوهاً! يا للمسكين! إنه لمن دواعي الحزن أن يفكر الإنسان فيا تتحمله إيمي ولا شك من التزامها بمصاحبته دائماً، وهو يهذي، ويتلعثم.. ذلك المخلوق العزيز، يهذي ويتلعثم، لولا ما تلتمسه من راحة وترفيه بوجود السيدة جنرال معها. وإنه لآسف جداً، هكذا قال مرة أخرى بلهجته الراضية السابقة، لأن تلك السيدة الممتازة ليست بخير.

إن دوريت الصغيرة، بقوة حبها، لتذكر أبسط شيء قاله أو فعله في تلك الليلة، وذلك رغم أنه لم يكن ثمة سبب معين يبرر ذلك. كانت دائماً تذكر أنه حينما كان يتلفت حوله وهو متأثر بحياته السابقة، حاول أن يبعد ذلك الشعور عن ذهنها، وربما عن ذهنه أيضاً بالاستطراد في الحديث فوراً عن الثراء العظيم والوسط الفاخر اللذين كانا يحفان به في أثناء غيبته، والمكانة الرفيعة التي وصل إليها هو وأسرته. وكذلك لم تعجز عن تذكر أنه كان هناك تياران خفيان ينطلقان جنباً إلى جنب في كل حديثه ويشيعان في تصرفاته. الأول يبين لها إلى أي مدى أصبح قادراً على المضي في الحياة دونها وكيف أصبح في غير حاجة للاعتماد عليها، والثاني يدل في شيء من الغموض والتململ الذي يكاد يبلغ حد الشكاية منها، وكأنما كان من الممكن أن تهمل أمره في أثناء غيبته.

وكان طبيعياً وهو يحدثها عن الوضع الفاخر الذي يعيش فيه السيد ميردل، وعن مظاهر الاحترام العام التي تحف به، أن ينتهي به هذا الحديث إلى ذكر السيدة ميردل. وقد بلغ من طبيعة هذا الأمر أنه على الرغم من ملاحظاته كان ينقصها الترتيب المنطقي، فقد انتقل إلى الحديث عنها فوراً، وسأل عن حالها.

– إنها في أحسن حال؛ وسوف ترحل في الأسبوع التالي.

فسأل السيد دوريت قائلاً:

- إلى الوطن؟

- بعد بضعة أسابيع على الطريق.

فقال السيد دوريت:

- لسوف يكون رحيلها عن هنا خسارة كبيرة، وهه.. و.. وكسباً كبيراً في الوطن. لفاني.. هه.. للوسط الراقي كله.

وفكرت دوريت الصغيرة في الصراع الذي سوف تخوض فاني غماره، ثم أومأت برأسها في رفق، ثم قالت:

- لسوف تقيم السيدة ميردل حفلة توديع ضخمة هنا، يا عزيزي، وقبلها ستقيم وليمة عشاء. وقد أعربت عن قلقها خشية ألا تأتي في الوقت المناسب للحفلة. إنها دعتني، أنت وأنا، لوليمة العشاء.

- إنها.. هه.. كريمة جداً. في أي يوم؟

- بعد غد.

- حسناً، اذهبي في الصباح وقولي إنني.. هه.. عدت، وسيكون لي الشرف.

- هل تسمح لي بالصعود معك إلى غرفتك يا عزيزي؟

فقال وهو يتلفت حوله بغضب لأنه كان يتحرك في طريق الانصراف وكأنما نسي أن يودعها:

- لا. لا داعي لهذا يا إيمي، إنني في غير حاجة إلى مساعدة، إنني والدك، ولست عمك العاجز.

ثم امتلك زمام نفسه فجأة كأنما اندفع في هذه الإجابة فجأة، ثم قال:

- إنك لم تقبّليني يا إيمي، طابت ليلتك يا عزيزتي، يجب أن أعمل على الزواج.. ها.. يجب أن أعمل على زواجك الآن.

وبهذه الكلمات انصرف، أكثر بطئاً وأكثر تعباً، وراح يصعد إلى جناحه، وما إن وصل إليه، حتى صرف خادمه الخاص. وكان اهتمامه عندئذ قد تركز في البحث عن مشترياته الباريسية وفتح صناديقها وتأملها بعناية ثم إيداعها في خزانة محكمة الإغلاق. وبعد ذلك استغرق مدة طويلة، حيناً في سبات، وحيناً في بناء القلعة، ومن ثم كانت لمسات من ضوء الصباح تبدو في ناحية الشرق عند حافة براري كامبانيا عندما نهض متسللاً إلى فراشه.

وأرسلت حرم الجنرال تحياتها في الوقت المناسب وفي اليوم التالي، وأعربت عن أمنيتها في أن يكون قد نال كفايته من الراحة بعد رحلته المرهقة. وأرسل بدوره تحياته ورجا أن تخبر السيدة جنرال أنه استراح جيداً في الواقع، وأنه في حالة طيبة جداً. ومع ذلك فإنه لم يغادر جناحه إلا في ساعة متأخرة بعد الظهر، ورغم أنه كان قد اهتم بارتداء ملابسه بكل أبهة وفخامة ليمضي في نزهة بالمركبة مع حرم الجنرال وابنته، فإن مظهره لم يكن يتفق كثيراً مع وصفه لنفسه.

ولما لم تكن الأسرة تتوقع زائرين في ذلك اليوم، فقد تناول أعضاؤها الأربعة طعام العشاء المبكر بمفردهم، وحرص السيد دوريت على إجلاس حرم الجنرال، بكل احترام وتقدير، على يمينه، ولم يسع دوريت الصغيرة إلا أن تلاحظ، وهي تتبعها مع عمها، أنه كان معنياً جداً بمظهره العام، وأن سلوكه نحو حرم الجنرال كان ذا طابع خاص. ولكن السطح المصقول المتكامل التكوين لتلك السيدة المهذبة كان يجعل من العسير معرفة ذرة عما وراء نظراتها الرقيقة غير المعبرة، ولكن بدا للصغيرة دوريت أنها لمحت ومضة من الانتصار في ركن عينها الباردة.

ومهما يمكن أن يقال في هذه الصفحات عن الدقة والنظام اللذين امتازت بهما وليمة طعام الأسرة، فإن السيد دوريت استغرق في النوم بضع مرات قبل أن تنتهي. وكانت نوبات إغفائه مفاجئة كما حدث في الليلة السابقة، كما كانت أيضاً عميقة وقصيرة الأمد. ولما استبدت به أولى هذه الإغفاءات، نظرت حرم الجنرال إليه في دهشة، ولكنها بعد أن تكررت هذه الأعراض، أخذت في كل مرة تتمتم في ذات نفسها بمجموعة الكلمات التي تبدأ بحرف «الباء» في بطء شديد. وكان يبدو أنها تفرغ من عملية هذا «التسبيح» في نفس الوقت الذي يتنبه فيه السيد دوريت من غفوته.

ومرة أخرى استبد به الشعور بالميل إلى الرثاء لحالة أخيه فريدريك -وإن كان ما يراه من أخيه لا وجود له إلا في مخيلته- ومن ثم فإنه -بعد الطعام، حين انسحب فريدريك- راح يعتذر عنه المسكين لحرم الجنرال على انفراد قائلاً:

- إنه أحب وأعز الإخوة. ولكنه.. هه.. تحطم تماماً فيها لسوء الحظ بسرعة.

فقالت حرم الجنرال:

- إن السيد فريدريك يا سيدي معتاد على أن يبدو في حالة هبوط وشرود ذهني. ولكن دعنا نأمل ألا يكون الأمر أسوأ من هذا.

ولكن السيد دوريت كان -على أية حال- مصرّاً على ألا يتركه وشأنه، فقال:

- ينهار بسرعة يا سيدتي. حطام. أنقاض. يتحلل أمام أعيننا.. هه.. فريدريك الطيب.

فقالت حرم الجنرال بعد أن ندت عنها تنهيدة باردة من أجل فريدريك:

- أرجو أن تكون قد تركت السيد سباركلر في سعادة وخير!

فردّ السيد دوريت قائلاً:

- تركتها محاطة بكل ما.. هه.. ينعش العقل والنفس ويرضى الذوق. إنها سعيدة، يا سيدتي العزيزة، ها.. بالزواج.

وأحست حرم الجنرال بالغبطة البالغة، ولكنها تظاهرت بطرد العبارة الأخيرة عنها بيدها المكسوة بالقفاز كأنها لا تعرف إلى أين قد يؤدي معناها.

واستطرد السيد دوريت قائلاً:

- إن فاني.. إن لفاني يا سيدة جنرال مميزات رفيعة. ها.. طموح و.. هه.. هه، وشعور قوي.. هه.. بمكانتها، وإصرار على التمسك بهذه.. هه.. المكانة، ورقّة، وجمال، وعراقة أصل.

فقالت حرم الجنرال بمزيد من الجمود:

- لا شك في ذلك.

وقال السيد دوريت:

- ومع كل هذه المميزات مجتمعة يا سيدتي، فإن فاني.. هه.. أبانت عن نقيصة جعلتني، هه.. قلقاً، و.. ويجب أن أضيف، هه.. غاضباً. ولكن هذا كما يمكن أن أعتبره الآن، قد انتهى، حتى بالنسبة لها، وبطبيعة الحال، بالنسبة.. هه.. للآخرين.

فقالت حرم الجنرال ويداها تنمان عن شيء من الانفعال:

- إلى أي شيء يا سيد دوريت يمكن أن تشير! إنني في الواقع لا...

فقاطعها السيد دوريت قائلاً:

- لا تقولي هذا يا سيدتي العزيزة.

ونطق صوت حرم الجنرال، وهو يتلاشى، ببقية العبارة:

- إنني لا أتصور.

وبعدها أغفى السيد دوريت إغفاءة لمدة دقيقة تقريباً وثب بعدها في انتباه عصبي، فقال:

- إنني أشير يا سيدة جنرال إلى تلك.. هه.. الروح القوية للمعارضة، أو ما يمكن أن.. هه.. أن أقول. الغيرة في فاني، وهي التي تثور أحياناً ضد.. هه.. شعور.. هه.. التقدير، هه.. الذي أحمله، لخدمات هذه.. هه.. السيدة التي أتشرف بالحديث معها الآن.

فردّت حرم الجنرال قائلة:

- إن السيد دوريت يطوقني دائماً بالفضل، وبالتقدير. وإذا كنت قد توهمت في بعض الأحيان أن الآنسة دوريت مستاءة حقاً من التقدير الذي يشعر به السيد دوريت نحو خدماتي، فإني قد وجدت في هذا التقدير الرفيع كل عزاء وتعويض.

فقال السيد دوريت:

- التقدير لخدماتك يا سيدتي؟

فرددت حرم الجنرال بلهجة رقيقة قوية التأثير:

- لخدماتي.

فقال السيد دوريت:

- لخدماتك فقط يا سيدتي العزيزة؟

فردت حرم الجنرال بلهجتها السابقة ذات التأثير القوي:

- أظن لخدماتي فقط.

ثم أردفت قائلة بحركة استفهامية من يدها ذات القفاز:

- وإلا فلأي شيء آخر أستطيع أن أرجع.

فردّ السيد دوريت:

- لنفسك.. هه.. يا سيد جنرال.. ها.. هه.. لنفسك ولميزاتك.

فقال حزم الجنرال:

- أرجو المعذرة يا سيد دوريت إذا قلت إن هذا ليس بالوقت، أو المكان الذي يمكن الاستطراد فيه في هذه المحادثة. وسوف يلتمس لي السيد دوريت العذر إذا ذكّرته أن الآنسة دوريت في الغرفة المجاورة، وهي تبدو الآن أمامي وأنا أنطق باسمها. وأرجو أن يغفر لي السيد دوريت إذا قلت إنني شديدة الانفعال. وإنني أجد في بعض الأحيان أن ذلك الضعف الذي ظننت أني قهرته، يرتد إليّ بقوة مضاعفة. هل يسمح لي السيد دوريت بالانسحاب إلى غرفتي.

فقال السيد دوريت:

- هه.. ربما يمكننا استئناف هذه المحادثة اللطيفة في وقت آخر، إلا إذا كانت -وهذا ما لا أرجوه- هه.. غير لطيفة بالنسبة لك يا سيدة جنرال!

فقالت حرم الجنرال وهي تغضي بعينيها عند نهوضها بانحناء:

- إن على السيد دوريت أن يطمئن إلى طاعتي واحترامي.

وانصرفت حرم الجنرال في هيئتها تلك الفاخرة، ولكن مع شيء من الارتعاد الذي قد لا يكون منتظراً من سيدة ممتازة مثلها. أما السيد

دوريت الذي أدار نصيبه من الحوار بشيء من الأبهة والتنازل الكريم، تماماً كما قد يرى بعض الناس وهم يتصرفون في الكنائس ويقومون بدورهم في أثناء الصلاة، فقد بدا راضياً عن نفسه تاماً بوجه عام، وعن السيدة جنرال بوجه خاص. وعند عودة هذه السيدة لتناول الشاي، كانت قد وضعت على وجهها بعض «البودرة» وشيئاً من «الكريم»، وفي حالة من الانتعاش النفسي الذي كان بارزاً في تصرفاتها الرقيقة الحانية مع الآنسة دوريت ولكن بما يليق مع طبيعتها الصلفة الجامدة. وفي نهاية المساء، عندما نهضت لتأوي إلى فراشها، تناول السيد دوريت يدها، وكأنما كان يمضي بها إلى ساحة الشعب لترقص معه رقصة خفيفة في ضوء القمر. ثم سار بها في وقار تام إلى باب غرفتها، حيث رفع معصميها إلى شفتيه. وبعد أن افترق عنها بما يمكن أن يسمى قبلة معظمة ذات نكهة عاطرة، أسبغ بركته، في رفق، على ابنته. وهكذا بعد أن لمح أن في الجو شيئاً ما عاد مرة أخرى إلى فراشه.

وبقي محتجباً في غرفته في صباح اليوم التالي، ولكنه في ساعة مبكرة من بعد الظهر، أرسل أزكى تحياته إلى حرم الجنرال، عن طريق خادمه الخاص السيد تنكلر، ورجا منها أن تصحب ابنته الآنسة دوريت إلى النزهة دونه. وارتدت ابنته ملابسها استعداداً لحفلة السيدة ميردل قبل أن يهبط. ولما هبط، كان شديد العناية بهندامه، ولكنه بدا عجوزاً منكمشاً إلى حد كبير. ولما بدا عليه، على أية حالة، أنه مُصِرّ على أن يثور بالغضب إذا سألته عن صحته، فقد تجرأت فقط على تقبيل خده، ثم المضي معه إلى حفلة السيدة ميردل بقلب خافق.

وكانت المسافة التي سيقطعانها قصيرة، ولكن عاد مرة أخرى إلى بناء قلعته قبل أن تقطعها المركبة. واستقبلته السيدة ميردل بحفاوة بالغة، وكان الصدر الأعظم في أروع حال، وفي أحسن حالات التفاهم مع نفسه. وكانت الوليمة فاخرة جداً، والمدعوون من الصفوة المختارة.

وكانوا على الأغلب إنكليزاً فيما عدا تطعيمها بالكونت الفرنسي المعهود، وبالماركيزة الإيطالية المعتادة. ذلك أنه من المعتاد دائماً أن توجد بعض المعالم للزينة في أماكن معينة مع اختلافات بسيطة في المظهر. وكانت المائدة طويلة، وفترة الطعام طويلة، واحتجب والد دوريت الصغيرة عن ناظرها بسبب جلوس رجل بجانبها، طويل السوالف، أسودهما، يرتدي ربطة عنق بيضاء طويلة. وظل الأمر هكذا حتى وضع أحد الخدم قصاصة ورق في يدها هامساً بالرجاء من السيدة ميردل بأن تقرأها فوراً. وكانت السيدة ميردل قد كتبت في الورقة بالقلم الرصاص «أرجو الحضور للحديث مع السيد دوريت، فإني أخشى أن يكون على غير ما ينبغي».

وفيما كانت تهرع إليه، دون أن يلحظها أحد، إذا هو ينهض عن مقعده، وينحني على المائدة، ثم هتف يدعوها وهو يحسبها لا تزال في مكانها:

– إيمي، إيمي، يا طفلتي.

وكان تصرفه هذا عجيباً، فضلاً عن ظهوره المفاجئ، وصوته الملهوف، بحيث خيم الصمت العميق على الجميع.

وقال مكرراً:

– إيمي، يا عزيزتي، هل تسمحين بالذهاب لرؤية ما إذا كان بوب عند البوابة؟

وأسرعت إلى جانبه، ولمسته، ولكنه ظل يحسبها جالسة في مقعدها، فراح يدعوها وهو لا يزال منحنياً على المائدة:

– إيمي، إيمي، إنني أشعر أنني على غير ما ينبغي. ها. ها، لا أعرف ماذا دهاني. إنني أريد بصفة خاصة أن أرى بوب. ها، إنه، دون الحراس جميعاً، أقربهم مودة لي، ولك أيضاً. انظري هل بوب عند البوابة، والتمس منه أن يأتي إليّ.

وخيّم الذهول على جميع المدعوين، وكان كل منهم قد نهض واقفاً.

وقالت دوريت الصغيرة:

- يا أبي العزيز، إنني لست هناك، إني هنا، بجانبك.

- آه! أأنت هنا يا إيمي، حسناً. هه، حسناً. ها، أستدعي بوب. إذا كان قد فرغ من نوبته. وإذا لم يكن قائماً على البوابة. فاطلبي من السيدة بانجام أن تذهب وتستدعيه.

وكانت تحاول أن تمضي به برفق، ولكنه كان يقاوم ويرفض المضي معها قائلاً مشاكساً:

- أقول لك يا طفلتي إنني لا أستطيع أن أصعد السلم الضيق دون مساعدة بوب: ها، أرسلي إلى بوب. هه، أرسلي إلى بوب.. إنه أحسن الحراس، أرسلي إلى بوب.

والتفت حوله في ارتباك، حتى إذا شعر بالوجوه المحيطة به. قال لهم:

- أيها السيدات والسادة، إن الواجب يحتم عليّ.. ها.. أن أرحب بكم في مارشاليزا. مرحباً بكم في مارشاليزا! إن المكان.. ها.. محدود، محدود وقد يكون الفناء أكثر اتساعاً، ولكنكم قد تجدونه يزداد اتساعاً بعد فترة من الوقت. الوقت، أيها السيدات والسادة، إن الهواء، إذا اعتبرنا كل شي، جيد جداً. إنه يهب فوق تلال.. هه.. سوري، يهب فوق تلال سوري. هذه هي الاستراحة.. هه.. تدار بالتبرعات القليلة التي كان يجمعها نزلاء السجن، وذلك مقابل.. هه.. الماء الساخن ومطبخ عام.. وهه.. وبعض الفوائد المنزلية البسيطة. إن أولئك المقيمين في.. ها.. مارشاليزا، كان يسرّهم أن يدعوني أباً لهم. وقد اعتدت أن أتلقى التكريم من الغرباء، باعتباري.. هه.. والد سجن مارشاليزا، وبالتأكيد إذا كان طول الإقامة

يتيح لي الحق في مثل هذا اللقب الكريم، فإني قد أتقبل مثل هذا الفضل. طفلتي، سيداتي وسادتي، إن ابنتي قد وُلدت هناك.

ولم تكن دوريت الصغيرة خجلى من ذلك، أو منه، وإنما كانت شاحبة الوجه، خائفة. بل لم يكن ثمة ما يهمها إلا التخفيف عنه، والابتعاد به لفائدته الخاصة. وكانت واقفة بينه وبين الوجوه المدهوشة، رافعة وجهها إلى صدره وهي مستديرة نحوه. وكان يمسكها بقوة بيده اليسرى، وبين الحين والآخر، كان صوتها الخافت يُسمَع وهي تبتهل إليه لكي يمضي معها.

وعاد يكرر القول وهو يذرف الدموع:

- ولدت هنا، ونشأت هنا، أيها السيدات والسادة، ابنتي. ابنة لوالد تعس الحظ، ولكنه كان دائماً.. هه.. سيداً مهذباً. فقيراً، بلا شك، ولكنه.. هه.. أبيّ النفس.. دائماً أبيّ. قد أصبح من المعتاد.. هه.. في حالات كثيرة أن المعجبين.. هه.. بشخصيتي، المعجبين بشخصيتي فقط، كان يسرهم أن يعربوا عن رغبتهم في الاعتراف بمكانتي شبه الرسمية، هنا، عن طريق تقديم.. ها.. بعض إتاوات صغيرة كانت تتخذ عادة شكل الإكراميات.. هه.. الإكراميات المالية. وكان في تقبلي لهذا الاعتراف الحر بمحاولاتي المتواضعة.. هه.. للاحتفاظ بالكرامة هنا، الكرامة، أرجو أن يكون مفهوماً لديكم أنني لم أكن أعتبر نفسي في وضع مهين. ها.. لم أكن متسولاً، لا، إنني أرفض هذا اللقب! وفي الوقت نفسه، كان أبعد شيء أفكر فيه. هو أن.. هه.. أسيء إلى المشاعر الطيبة التي كان أصدقائي هناك يحملونها لي. أقل إساءة، بعدم الاعتراف بأن هذه المِنَح غير مقبولة إلى أقصى حد. بل العكس، كانت مقبولة كل القبول. إنني باسم ابنتي، إن لم يكن باسمي، أقدم هذه الاعترافات بكل قوتي. محتفظاً في الوقت نفسه بها.. هه.. أسميه الكرامة الشخصية. سيداتي وسادتي لتحل عليكم جميعاً بركة الله.

وعند ذلك كان الضيق الشديد الذي شعرت به صاحبة الصدر الأعظم قد جعل الجانب الأكبر من المدعوين يغادر المكان إلى غرف أخرى.

ولم يلبث القلائل الذي تلكئوا حتى ذلك الوقت أن تبعوا الآخرين. وهكذا تُرِكت دوريت الصغيرة وأباها لنفسيهما وللخدم. هل سيذهب معها الآن أعز وأغلى إنسان أليس كذلك؟ فردّ على ابتهالاتها الحارة أنه لن يستطيع قط أن يصعد ذلك السلم الضيق دون بوب. أين بوب، ألا يستدعي أحد بوب. واستطاعت دوريت الصغيرة أن تخرج بأبيها وتشق طريقاً لهما بين جموع المدعوين الطروبين الذين كانوا يتدافعون لقضاء السهرة، ثم وضعته في مركبة كانت قد أفرغت شحنتها الآدمية فوراً، ومضت به إلى البيت.

وبدا السلّم الفاخر العريض لقصره في روما كأنه في نظره الواهي، نفس السلّم الضيق لسجنه في لندن، ومن ثم لم يشأ أن يلمسه أحد إلا ابنته وإلا أخوه. وقد استطاعا أن يصعدا به إلى غرفته دون مساعدة من أحد، وأن يضعاه في فراشه، ومنذ تلك اللحظة وروحه الأسيرة العاجزة لا تذكر إلا المكان الذي تحطمت فيه أجنحتها، بعد أن قضت على الحلم الذي عاشت تتلمسه منذ ذلك الحين ولم تعد تعرف شيئاً خارج مارشاليزا. وعندما كان يسمع وقع خطوات في الشارع، كان يحسبها تلك الخطوات المتعبة في الأفنية وإذا حانت ساعة إغلاق البوابة، كان يعتقد أن جميع الغرباء قد أمسوا بعيدين عنه طيلة الليل، فإذا حان وقت فتح البوابة، شعر باللهفة إلى رؤية بوب، مما جعلهم ينسجون قصة عن كيف أن بوب، الذي كان حارساً لطيفاً، وقد مات منذ سنوات -أصيب بنزلة برد- وأن المرجو أن يحضر في التو، أو في اليوم التالي، أو الذي يليه على الأكثر.

وتدهور إلى حالة من الضعف الشديد بحيث أصبح عاجزاً عن رفع يده ولكنه ظل يحمي أخاه بحكم الاعتياد الطويل. كان يقول له في شيء من البشاشة نحو خمسين مرة في اليوم كلما رآه واقفاً بجوار الفراش:

- يا عزيزي فريدريك، اجلس. إنك ضعيف الجسم حقاً.

وحاولوا علاج أمره بحرم الجنرال، ولكنه لم يبدِ أية معرفة بها على الإطلاق. بل لقد خامر ذهنه بعض الشك الممض في أنها تريد أن تحتل مكانة السيدة بانجام، وأنها مدمنة على شرب الخمر. وقد اتهمها بذلك في قسوة لا حد لها، وطلب بإلحاح من ابنته أن تمضي إلى مدير السجن وترجوه أن يطردها. ومن ثم حرصت الأسرة على عدم تقديمها إليه مرة أخرى قط بعد هذا الفشل الأول.

وفيما عدا هذا فقد سأل ذات مرة عن ابنه قائلاً: «هل خرج تيب» وبدا أنه لم يعد يفكر في أن ابنته فاني وابنه تيب غائبان عنه؛ ولكن ابنته إيمي التي صنعت الكثير من أجله ولم تلقَ إلا القليل، فإنها لم تغب عن ذكره إطلاقاً. ولم يكن هذا يعني أنه كان يرحمها أو يخشى عليها أن تذوي لفرط رعايتها له وتعبها في العناية به، إنه لم يكن مهتماً بذلك أكثر من اهتمامه بها من قبل. لا. لقد كان يحبها بطريقته القديمة. إنهما الآن في السجن مرة أخرى، وإنها تعني بأمره، وهو دائماً في حاجة إليها، ولا يستطيع أن يتحرك دونها، بل إنه كان يخبرها، أحياناً، أنه راضٍ عن كل هذا الذي عاناه من أجلها. أما هي، فكانت تنحني على فراشه، وتلصق وجنتها بوجنته، ولا تتردد في أن تضحي بحياتها في سبيل شفائه.

وفيما كان ينهار على هذا النحو الذي لا ألم فيه لمدة يومين أو ثلاثة، لاحظت أنه يشعر بالقلق من دقدقة ساعته. وكانت ساعة ذهبية ضخمة صاخبة الدقدقة وكأنما ليس في الدنيا شيء إلا هي والزمن! وعنيت إيمي بوقف حركتها، ولكنه ظل مضطرباً، وأظهر أن هذا ليس ما أراد. وأخيراً جمع نفسه بحيث استطاع أن يقول إنه يريد مالاً عن طريق بيع ساعته. ولشد ما كانت بهجته حين تظاهرت أنها أخذت الساعة لبيعها، وحين زودته بعد ذلك بمطالبه البسيطة من الخمر والحلوى التي كان محروماً منها من قبل.

وسرعان ما أوضح أن هذا هو ما يريد؛ لأنه خلال يوم أو يومين، سلم أزرار قميصه الذهبية، وخواتمه للبيع. وكان لديه ثقة عجيبة في ائتمان إيمي على هذه المهام، وبدا أنه يعتبر هذا الأمر خير ما يمكن القيام به لتزويد نفسه بما يريد. وبعد أن تصرف على هذا النحو بكل ما حوله من حلي صغيرة، بدأ يهتم بأمر ملابسه. ولعل من المحتمل أنه ظل على قيد الحياة بضعة أيام لشعوره بالرضا وهو يرسل ملابسه، القطعة بعد الأخرى، إلى مكتب الرهونات الوهمي.

وعلى هذا النحو ظلت دوريت الصغيرة عشرة أيام وهي منحنية على وسادته واضعة خدها على خده. وكان الإرهاق يبلغ بها أحياناً حداً يجعلها تستغرق معه في النوم بضع لحظات، ثم إذا هي تصحو، ثم تتذكر بدمع غزير سريع صامت ما الذي لمس خدها، ثم ترى على الوجه الحبيب الراقد على الوسادة ظلاً عميقاً يتسلل إليه.. أعمق من ظل جدار مارشاليزا.

وشيئاً فشيئاً أخذت جميع خطوط مشروع القلعة الكبيرة تتلاشى الواحد بعد الآخر. وشيئاً فشيئاً بدأ الوجه المحكم التعبير حيناً، والليّن حيناً، والمرسومة عليه هذه الخطوط، يلوح هادئاً أصم. وشيئاً فشيئاً أخذت الآثار المنعكسة عليه من قضبان السجن ومن الشوائك الحديدية المتعرجة في أعلى الأسوار تتلاشى. وشيئاً فشيئاً تحول الوجه إلى وجه شبيه بوجهها ولكن أصغر جداً كثيراً مما سبق لها أن رأت تحت شعره الأشيب؛ وأخيراً انتهى به الأمر إلى الراحة.

وبدا العم في أول الأمر ذاهلاً إلى حد الخبل، إذ راح يقول:

- أوه، أخي، ويليام، ويليام! أتذهب قبلي! أتذهب بمفردك! أتذهب أنت، وأنا أبقى؟ أنت الأكثر رفعة وامتيازاً ونبلاً، وأنا المخلوق البائس التافه الذي لا يصلح لشيء والذي لا يفتقده أحد!

وقد أفادها موقف عمها هذا، فترة من الوقت، إذ راحت تهدئ من حاله قائلة:

- عمي، يا عمي العزيز، ارحم نفسك، وارحمني.

ولكن الرجل العجوز لم يغلق أذنه حتى الكلمة الأخيرة، ذلك أنه راح يتمالك نفسه حتى يرحمها. إنه لم يكن يهتم بذاته، وإنما راح بكل ما تبقى من قوة في قلبه الذي عاش في غيبوبة كل هذه المدة ثم أفاق لكي يتحطم، يكرمها ويباركها.

وقبل أن يغادروا الغرفة صاح وهو يمسك يدها بيديه المعروقتين:

- يا رب! إنك ترى هذه الابنة لأخي العزيز المتوفى. إن كل ما رأيته أنا بعيني المذنبتين الخابيتين، قد رأيته أنت بكل وضوح وإشراق. لا تجعل الأذى يصيب شعرة في رأسها أمامك. احفظها يا رب حتى آخر ساعة من عمرها. وأنا أعلم أنك سوف تُحسِن جزاءها بعد ذلك.

وبقيا في الغرفة المعتمة المجاورة إلى نحو منتصف الليل، في هدوء وحزن. وفي بعض الأحيان كان يفرغ شيئاً من أحزانه بمثل هذه الانطلاقات التعبيرية السابقة، ولكن قواه الواهنة، فيما عدا هذا، كانت لا تلبث أن تعجز أمام هذه التوترات، إلا أنه لم يكن يكف عن تذكر كلماتها في لوم نفسه ويهدأ. وكانت الكلمات الوحيدة التي راح يعرب بها عن أساه، هي هتافه بين الحين والآخر بأن أخاه قد ذهب، وحده؛ وأنهما كانا معاً منذ بدء حياتهما؛ وأنهما انحدرا معاً إلى هاوية الشقاء، وأنهما عاشا معاً سنوات الفاقة الطويلة، وأنهما بقيا معاً حتى هذا اليوم، وأن أخاه قد ذهب وحده... وحده!

وافترقا في حزن وألم. وأبت هي أن تتركه في أي مكان إلا في غرفته، وهنا أرقدته في فراشه بملابسه، وسحبت الغطاء عليه بيديها، ثم

تهالكت في فراشها، واستغرقت في نوم عميق، نوم الإرهاق والراحة، إلا أنها مع ذلك لم تتحرر من الشعور بالمصاب. نامي أيتها الصغيرة الطيبة دوريت.. نامي طيلة الليل!

وكانت ليلة مقمرة، ولكن القمر بزغ متأخراً، لأنه فات وقت اكتماله بأيام كثيرة. فلما ارتفع عالياً في مداره الساجي، راح ضوءه يتسلل من الستائر المنمنمة نصف المسدلة إلى الغرفة الهادئة التي انتهت فيها حياة مليئة بالعثرات والتقلبات. وكان ثمة شخصان هادئان داخل الغرفة. شخصان متساويان في الهدوء والسكينة، متساويان في الخروج مسافة لا حد لها عن الكرة الأرضية الغائرة وما تحتويه، وذلك رغم أنها ستكون لهما المثوى القريب.

كان أحدهما ساجياً على الفراش، وكان الآخر راكعاً على الأرض منحنياً في تخاذل على حافة الفراش، والذراعان مستريحتان في سلام على الغطاء، والوجه منحنٍ بحيث لمست الشفتان اليد التي لفظت عليها آخر أنفاسها وهكذا كان الأخوان أمام خالقهما.. بعيداً بعيداً عن ظلال أحكام هذا العالم، عالياً عالياً فوق غيومه وضبابه.

* * *

تقديم للفصل التالي



كان المسافرون يهبطون من سفينة البريد على رصيف ميناء كاليه. وكان ميناء كاليه مكاناً خفيضاً مثيراً لانقباض النفس، حيث كان المد فيها يتدافع نحو علامة الحد الأدنى لانخفاض الماء. ولم يكن ثمة لمزيد من الماء عند الحاجز البحري، أكثر مما يكفي لأن تطفو فيه سفينة البريد. وكان الحاجز نفسه مع ضحالة مياه البحر المتكسرة حوله يبدو كوحش بحري كسول برز إلى السطح دون أن يكون له -وهو نائم- شكل محدد المعالم. وكان الفنار الحقير الأبيض اللون كله يطوف بسطح البحر، كأنه شبح صرح كان فيما مضى مستدير الشكل ظاهر اللون، فراح يذرف دموع الأسى بعد لطمات الموج التي انهالت عليه مؤخراً وكانت الصفوف الطويلة من الدعائم السوداء، اللزجة الرطبة، المتآكلة بفعل الجو ذات الأكاليل الجنائزية المتشابكة عليها بفعل آخر جزر، قد تشبه إلى حد ما منظراً كريهاً لمقبرة بحرية. وكان كل شيء تضربه العواصف، وتدفعه الأمواج يبدو حقيراً صغيراً تحت السماء الواسعة الدكناء، وفي زئير الرياح والبحر، وأمام الخطوط المتموجة للشاطئ، يندفع بعنف نحو الميناء، بحيث كان من العجب أن يبقى ميناء اسمها كاليه على الإطلاق، وأن بواباتها الخفيضة، وسورها الخفيض، وأسقفها الخفيضة، وحفراتها الخفيضة، وتلالها الرملية الخفيضة، وحصونها الخفيضة وشوارعها المسطحة، لم

تتداعَ منذ أمد بعيد أمام حصار البحر وتقويضه لها مثل القلاع التي يقيمها الأطفال على رمال الشاطئ.

وبعد أن انزلق المسافرون بين الأكوام والألواح اللزجة. وبعد أن تعثروا على السلالم، وارتطموا بالكثير من العقبات الملحية، دخلوا إلى المكان المخصص -غير المريح- للغرباء، على رصيف الميناء، حيث كان جميع الصعاليك الفرنسيين وطريدي العدالة الإنكليز -وهم نصف سكان الميناء- مخصصين لمنعهم من الخروج عن نطاق الدهشة والذهول. وبعد أن فتشوا بدقة من جميع الإنكليز، وبعد أن تقلبوا على مختلف الوجوه، كأسلاب، على أيدي جميع الفرنسيين مسافة ثلاثة أرباع ميل خاضوا خلالها غمار معارك يدوية قاسية، أصبحوا أخيراً أحراراً في دخول الشوارع، والتفرق إلى الجهات المختلفة والمطاردة في أعقابهم حامية.

وكان كلينام، الذي عانى أكثر من غيره من هذه المتاعب، بين هذه الزمرة الصابرة. وبعد أن أنقذ معظم مواطنيه العُزَّل من أشد المواقف حرجاً، سار في طريقه وحيداً، أو بقدر ما يمكن من الوحدة. مع سيد من مواطنيه في بذلة مزيتة، وقبعة من نفس النوع، كان ملحاً في مطاردته على مسافة خمسين ياردة تقريباً. ويهتف عليه باستمرار قائلاً:

- هيا، اسمع، أيها السيد، لدي فندق طيب.

وحتى ذلك الشخص المضياف قد تُرِكَ وراءه على أية حال في النهاية، واستمر كلينام في طريقه بلا إزعاج. وكان ثمة هدوء يخيم على جو المدينة بعد ضجيج المانش والميناء، فكان ثقل ظلها -بهذه المقارنة- مستحباً والتقى بمجموعات جديدة من مواطنيه الذين بدا عليهم كأنهم فجروا أنفسهم، كنوع معين من الزهور البغيضة، فأصبحوا الآن مجرد أعواد. وكذلك كان يبدو عليهم جميعاً هيئة الأشخاص الذين عاشوا يدورون ويدورون في نطاق محدود، يوماً وراء يوم، مما جعله يذكر بقوة سجن

مارشاليزا. ولكنه مضى، دون أن يعيرهم أي اهتمام أكثر من هذا التفكير العابر، يبحث عن شارع معين ورقم بيت معين كان يحتفظ بهما في ذاكرته.

وغمم لنفسه قائلاً وهو يتوقف أمام بيت كئيب ينطبق عليه العنوان:

- هكذا قال بانكس، وأعتقد أن معلوماته صحيحة، واكتشافه، بين أوراق السيد كاسبي المهملة. لا جدال فيه. ولكن، لولا هذا، لكان من العسير علي أن أظن أن هذا هو البيت.

كان بيتاً من نوع موحش، له جدار مسور موحش على الطريق، وبوابة موحشة على جانب منه، يتدلى منها مقبض جرس أرسل رنتين موحشتين، ومطرقة باب أصدرت طرقتين موحشتين مكتومتين سطحيتين، وبدا كأنها لا يوجد لها عمق كافٍ لتنفذا منه حتى من الباب المصدع. وعلى أية حال فقد صرّ الباب واستدار مفتوحاً على محور من نوع موحش، وأغلقه وراءه وهو يدخل إلى فناء موحش، ثم سرعان ما وصل إلى فناء آخر خلفي عن طريق سور آخر موحش. وهناك رأى محاولة لإنبات شجيرات متسلقة. ولكنها ماتت. ولإقامة نافورة صغيرة في منخفض، ولكنها جافة، ولتزيينها بتمثال صغير لم يعد له أثر.

وكان مدخل البيت على اليسار، وكان مزوداً، كما هو شأن البوابة الخارجية، بلافتتين مطبوعتين بالفرنسية والإنكليزية، تعلنان عن مساكن مفروشة للإيجار تحت الطلب فوراً. وفي المدخل المظلم وقفت امرأة قروية قوية بشوش، كلها جوارب، وجلابيب نصفية. وقلنسوة بيضاء، وأقراط، تقول وهي تكشف عن أسنان نظيفة:

- أجل يا سيدي، من؟

فأجاب كليتام بالفرنسية قائلاً: السيدة الإنكليزية، يريد أن يرى السيدة الإنكليزية. فردت المرأة القروية بالفرنسية:

- أدخل إذن واصعد إذا سمحت.

وفعل كلا الأمرين. وتبعها عبر سلالم مظلمة عارية إلى غرفة خلفية بالطابق الأول. ومنها كان ثمة منظر مقبض للفناء الذي كان موحشاً، وللشجيرات التي كانت ميتة، وللنافورة التي كانت جافة، ولقاعدة التمثال الذي لم يعد له وجود.

وقال كلينام:

- إنني السيد بلاندواز؟

- بكل سرور.

وانسحبت المرأة تاركة إياه يتلفت في جوانب الغرفة. وكانت غرفة من الطراز الذي يوجد عادة في مثل هذا البيت. رطيبة كئيبة معتمة. وأرضية مطلية بالشمع، زلقة، ليست كبيرة ليمكن ممارسة رياضة الانزلاق فيها، ولا هي مناسبة لأي غرض آخر من أغراض الإقامة. نوافذ ذات أستار حمراء وبيضاء، وحصيرة صغيرة، ومائدة صغيرة مستديرة ذات أشتات من القوائم تحتها مقاعد قبيحة الشكل ذات قاعدات من السمار. ومقعدان وثيران ضخمان من القطيفة الحمراء لا يوفران الراحة لضخامتهما، ومكتب، وزجاجة مصباح محطمة ومجمعة لكي تبدو قطعة واحدة، وزهريتان طويلتان فيهما أزهار صناعية رديئة الصنع، بينهما تمثال لمحارب إغريقي عاري الرأس، يقدم ساعة قرباناً لآلهة العبقرية الفرنسية.

وبعد فترة ما انفتح باب يتوسط غرفتين، وتقدمت منه سيدة سرعان ما أعربت عن دهشتها البالغة لرؤية كلينام، ثم دارت نظراتها في جوانب الغرفة كأنما تبحث عن شخص آخر.

- معذرة يا آنسة ويد. إني بمفردي.

- إنه ليس اسمك الذي جاء بي إلى هنا.

- لا. إنني أعرف هذا. ومعذرة، فقد علمتني التجارب فعلاً أن اسمي لا يصلح لإغرائك بمقابلتي، وقد تجرأت وذكرت اسم شخص أبحث عنه.

فردّت قائلة وهي تشير له بالجلوس على مقعد، ولكن في برود شديد جعله يُؤثِر البقاء واقفاً:

- أرجوك. ما هو الاسم الذي قدمته؟

- ذكرت اسم بلاندواز.

- بلاندواز!!

- اسم تعرفين صاحبه.

فقالت بجبين مقطب:

- عجيب أنك مصرّ على هذا الاهتمام غير المرغوب بشؤوني وشؤون معارفي، بذاتي وبأعمالي يا سيد كلينام. وأنا لا أدري ماذا تعني بهذا؟

- معذرة هل تعرفين ذلك الاسم؟

- ما شأنك أنت بهذا الاسم، وما شأني أنا بهذا الاسم؟ وما شأنك أنت إن كنت أعرف أو لا أعرف هذا الاسم. لقد عرفت أسماء كثيرة، ونسيت أسماء كثيرة. وربما كان هذا الاسم بين التي عرفتها، أو التي نسيتها، أو ربما لم أسمع به إطلاقاً. إنني لا أعرف أي سبب يدعو لأن أضع نفسي تحت استجواب أحد. أو أن يستجوبني أحد في هذا الشأن.

فقال كلينام:

- إذا سمحت لي، فسوف أذكر لك السبب الذي من أجله ألحّ في بحث هذا الأمر. وأنا أعترف أني ألحّ فيه، ينبغي أن ألتمس منك الصفح، بكل قلبي، لقيامي بهذا. أما السبب فهو خاص بي، ولا شأن لك به إطلاقاً.

فردّت قائلة بعد أن كررت دعوتها السابقة له بالجلوس، ولكن في صوت أقل برودا، مما جعله يستجيب لها بعد أن جلست هي:

- حسناً يا سيدي. إنني على الأقل سعيدة إذ أعلم أن هذا كله ليس له علاقة بجارية أخرى لبعض أصدقائك، محرومة من حق تقرير مصيرها، وأعني بها تلك التي أخفيتها عن الجميع. لسوف أسمع السبب إذا سمحت.

فقال كلينام:

- أولاً يجب أن نتعرف على شخصية الرجل الذي نتحدث عنه. ولنقل إنه الرجل الذي التقيت به في لندن منذ مدة. هل تذكرين مقابلتك له بالقرب من النهر. عند منطقة أديلفي؟

فردّت قائلة وهي تحملق في وجهه باستياء صارم:

- إنك تحشر نفسك بلا أي مبرر في شؤوني. كيف عرفت هذا؟

- أرجوك ألا تسيئي الظن بي. الأمر كان مجرد مصادفة.

- أية مصادفة؟

- إنها المصادفة التي جعلتني أراك في الشارع وأشهد اللقاء.

- أتتحدث عن نفسك أم عن شخص آخر؟

- عن نفسي. فقد رأيت ذلك بنفسي.

فقاطعته قائلة:

- يمكنك طبعاً أن تقول ما يحلو لك، ولكن افتراضاتك يا سيد كلينام لا تنطبق عليّ مع أي شخص.

فاستكمل كلينام حديثه مغيراً وضع بعض الكلمات حتى لا يجعلها مرفوضة:

- على الأقل بحكم اتصالك الشخصي به، يمكنك أن تخبريني بشيء عن حياته السابقة وأعماله، وعاداته، ومقره الدائم، يمكنك أن تقدمي لي خيطاً بسيطاً أستطيع به أن أبحث عنه بأحسن وسيلة ممكنة، فإما أن أعثر عليه وإما أعرف ماذا جرى له. هذه هي الخدمة التي أطلبها. وأنا أطلبها في حالة من القلق الذهني الذي أرجو أن تقدري ظروفه، فإذا كان لديك ما يبرر أن تشترطي عليّ أية شروط، فسوف أحترم رغبتك دون أن أسألك السبب.

فعلقت قائلة بعد برهة بدت منها -لشدة استيائه- وقد انشغلت بتأملاتها الخاصة حول الموضوع أكثر من انشغالها بالتماسه.

- لقد تصادف أن رأيتني في الشارع مع رجل. إذن فأنت تعرف هذا الرجل من قبل.

- لا، ليس من قبل، وإنما بعد ذلك. إنني لم أره من قبل ألبتة، وإنما رأيته بعد ذلك في نفس الليلة التي اختفى فيها، في بيت أمي إن شئت الحقيقة. وتركته هنا، وسوف تقرئين في هذه الورقة كل ما هو معروف عنه.

ثم قدّم إليها إحدى النشرات البوليسية المطبوعة، فقرأتها بثبات واهتمام. وأخيراً قالت وهي تعيده إليّ:

- هذا أكثر ما أعرف عنه.

وبدت على وجه كلينام معالم الاستياء الشديد، وربما مع شيء من الريبة، لأنها لم تلبث أن أضافت بنفس الصوت الخالي من التعاطف:

- إنك لا تصدقني، ومع ذلك فهذه هي الحقيقة، أما عن الاتصالات الشخصية فيبدو أنه كان هناك اتصالات شخصية بينه وبين والدتك ومع ذلك فأنت تصدق قولها بأنها لا تعرف شيئاً عنه.

وكانت هذه الكلمات تنطوي على تلميحات واضحة من الشك، لا سيما في الابتسامة التي صحبتها مما جعل الدماء تفور إلى وجه كلينام.

وعادت تقول في سرور قاسٍ وهي تكرر الطعنة:

- هيا يا سيدي. في مقدوري أن أكون صريحة معك كما تحب. سوف أعترف بأنني إذا كنت أحافظ على مكانتي -وهو ما ليس لي- أو إذا كان لدي اسم أريد الاحتفاظ بنقائه -وهو ما ليس لي أيضاً لأنني لا أهتم إطلاقاً إن كان طيباً أو غير طيب- فإنني أعتبر نفسي في وضع مهين جداً إذا كان لي أي شأن برجل كهذا. ومع ذلك فإنه لم يمر قط ببابي، ولم يبقَ إلى منتصف الليل في غرفتي يبادلني الحديث.

وهكذا انتقمت لحنقه السابق بهذا النحو من قلب الموضوع عليه، ولم تكن هي من النوع الذي يمكن أن يرحم أو يعرف وخز الضمير.

وعادت تقول:

- إنني لا أجد مانعاً في أن أقول لك إنه صعلوك أفاق حقير رأيته أول مرة يعيش مشرداً في إيطاليا -حيث كنتُ منذ أمد غير بعيد-، وإنني استأجرته هناك كأداة مناسبة لتنفيذ مهمة حدث أني كنت أريد تنفيذها. وبالإجمال فقد رأيت أن الأمر يستحق، لسروري، ولإرضاء عاطفة قوية في نفسي، أن أستأجر جاسوساً لا يتورع عن القيام بشيء من أجل المال. وقد دفعت لهذا المخلوق أجره، ويمكنني القول إنني إذا عقدت معه صفقة وإذا أمكنني أن أدفع له الأجر المطلوب، وإذا استطاع هو أن يقوم بالمهمة في الظلام ودون أية مخاطرة، فإنه لا يرتدد في قتل أي مخلوق بنفس البساطة التي يتناول بها الأجر، هذا على الأقل رأيي عنه. وأنا أرى أنه لا يختلف كثيراً عن رأيك. ولكن رأي والدتك عنه، فأستطيع أن أفترض - كما تفعل أنت في افتراض هذا أو ذاك- أنه يختلف كثيراً.

فقام كلينام:

- دعيني أذكرك أن أمي اضطرت للاتصال به في بادئ الأمر لأعمال تجارية مؤسفة.

فردّت الآنسة ويد قائلة:

- ويبدو أنها أعمال تجارية مؤسفة لتلك التي جعلتها تتصل به أخيراً، كما يبدو أنها كانت ساعات عملية ظلت إلى وقت متأخر في تلك المناسبة.

فقال آرثر متفضاً تحت هذه الطعنات الباردة التي ظل يشعر بها في ألم منذ بدأت توجهها إليه:

- هل توحين بأن هناك شيئاً ما..

فردّت عليه بثبات قائلة:

- سيد كلينام، تذكر أنني لا أتحدث بالتلميح عن الرجل. إنه كما أقول مرة أخرى بلا موارية، أفاق حقير مرتزق. وأعتقد أن مثل هذا المخلوق يمضي إلى حيث يخصب المرعى، فلو لم يكن ثمة مرعى خصيب له عندي، لما رأيته ورأيتني معاً.

واضطر كلينام إلى الصمت بعد أن انعقد لسانه لإصرارها على إبقاء ذلك الجانب المظلم في مواجهته دائماً. وهو الجانب الذي كان يشعر أن فيه ظلاماً قاتماً.

وأضافت هي قائلة:

- لقد تحدثت عنه كما لو أنه لا يزال على قيد الحياة. ولكن من المحتمل أن يكون قد أزيح من الطريق لسبب ما. لأي سبب لا يهمني في شيء. إنني لم أعد في حاجة إليه.

ونهض كليتام ببطء وهو يتنهد بعمق ويأس، ولكنها لم تنهض أيضاً، وإنما قالت بعد أن وجهت إليه نظرة شك صارمة، وبعد أن زمّت شفتيها بغضب:

– لقد كان الصديق المختار لصاحبك العزيز السيد جوان، أليس كذلك؟ لماذا لا تطلب من صاحبك العزيز هذا أن يساعدك؟

وكاد آرثر أن ينكر أن للسيد جوان صديقاً عزيزاً، ولكنه تمالك نفس وتذكر مقاوماته وعهوده القديمة ثم قال:

– وأكثر من هذا فإنه لم يرَ بلاندواز منذ أن رحل بلاندواز إلى إنكلترا، ومن ثم فإن السيد جوان لا يعرف شيئاً إضافياً عنه. لقد تعرف به مصادفة خارج البلاد.

فردّت قائلة:

– تعرف به مصادفة خارج البلاد! أجل، إن على صديقك أن يتلهى بكل صديق يتعرَّف به، ما دامت له مثل تلك الزوجة، إنني أكره زوجته يا سيدي.

وكان الغضب الذي نطقت به هذه العبارة، والذي ازداد وضوحاً بسبب الكبت الذي تعانيه، قد أثار انتباه كليتام وجعله يقف على حذر. وكان ذلك الغضب يتطاير من عينيها السوداوين وهي تتأمله، ويبدو في ارتعاد جانبي أنفها. ويلهب أنفاسها التي تتردد من صدرها. ولكن وجهها، فيما عدا هذا، كان متخذاً هيئة الهدوء المنطوي على الازدراء؛ وكانت هيأتها العامة كما هي، تنم عن السكينة والترفع الرقيق وكأنما هي في حالة من عدم الاهتمام الكامل.

وعلّق هو قائلاً:

- كل ما أستطيع أن أقوله يا آنسة ويد هو أنه لا يمكن أن يكون هناك ما يدعو إلى إثارة مثل هذا الشعور في نفسك.. وهو الشعور الذي لا تجدين من يشاركك فيه.

فردّت قائلة:

- يمكنك أن تسأل صديقك العزيز إذا شئت لتعرف رأيه في هذا الأمر.

فقال آرثر رغم ما تعهد به لنفسه:

- إن علاقتي بصديقي لا تكاد تصل إلى حد التدخل في شؤونه الخاصة بحيث يمكن الحديث معه في مثل هذه الأمور يا آنسة ويد.

فردّت قائلة:

- إنني أكرهه، أشد مما أكره زوجته، لأنني انخدعت ذات مرة وكدت أخدع نفسي إلى حد الظن بأني أحبه، لقد رأيتني يا سيدي فقط في مناسبات عادية بحيث يمكنني القول إنك تحسبني فتاة عادية لا تمتاز إلا بشيء من قوة الإرادة على الأغلبية. وإذا كنت لا تعرف عني أكثر من هذا، فإنك لا تعرف ماذا أعني بكلمة الكراهية. إنك لا تستطيع أن تعرف هذا دون أن تعرف إلى أي حد عنيت بدراسة نفسي ودراسة الناس حولي، ولهذا كنتُ أميل أحياناً لأن أذكر لك كيف كانت حياتي -لا لكي أصلح من رأيك فيّ، فإنني لا أقيم لهذا وزناً- وإنما لكي يمكنك أن تفهم -عندما تفكر في صديقك العزيز وزوجته- ماذا أعني بكلمة الكراهية. هل أعطيك شيئاً كتبته وأعددته ليكن تحت آمرك أم أمسك يدي.

فرجاها آرثر أن تعطيه ذلك الشيء. ومضت هي إلى المكتب، فتحت درجاً داخلياً وتناولت منه مجموعة من أوراق مطوية، ودون أي

اهتمام بأمره. بل كانت وهي تحدثه كأنما تتحدث إلى نفسها في المرآة إرضاءً لعنادها الذاتي، بهذا كله قالت وهي تقدم الأوراق إليه:

- الآن يمكنك أن تعرف ماذا أعني بكلمة الكراهية! وهذا يكفي، سواء رأيتني يا سيدي أقيم بصفة مؤقتة في مسكن رخيص بمنزل مهجور في لندن أو في مسكن مفروش بكاليه، فإنك ستجد هارييت معي، ولعلك تحب أن تراها قبل أن تنصرف. هارييت.. تعالي.

ونادت عليها مرة أخرى. وفي هذه المرة ظهرت هارييت التي كانت ذات يوم تاتيكورام، فقالت لها الآنسة ويد:

- هذا هو السيد كلينام، إنه لم يأتِ من أجلك، لقد نفض يديه منك.

ثم أردفت قائلة لآرثر:

- أعتقد أنك فعلت هذا خلال هذه الفترة؟

فقال كلينام موافقاً:

- نعم، لأنني لا أملك السلطة أو النفوذ.

- إنه لم يأتِ للبحث عنك. أترين! وإنما لا يزال يبحث عن شخص ما. ذلك الرجل بلاندواز.

فلمّح آرثر قائلاً:

- الذي رأيتك معه على ضفة قناة الاستراند في لندن.

- إذا كنت تعرفين أي شيء عنه يا هارييت -أكثر من أنه جاء من البندقية- وهذا ما نعرفه جميعاً، فأرجوك أن تخبري السيد كلينام بكل حرية.

فقالت الفتاة:

- إنني لا أعرف شيئاً أكثر من هذا عنه.

فسألت الآنسة ويد كلينام قائلة:

- هل أنت مقتنع؟

ولم يكن لديه ما يبرر تكذيبها. وكان سلوك الفتاة طبيعياً إلى حد يوحي بالاقتناع. حتى لو كانت لديه شكوك سابقة، ومن ثم أجاب قائلاً:

- يجب أن أقوم بالتحريات في مكان آخر.

ولم يكن ينوي الانصراف عقب هذه العبارة فوراً. ولكن الفتاة هاربيت ظنت أنه سيفعل لأنه نهض قبل دخولها، فنظرت إليه بسرعة وقالت:

- هل هم بخير يا سيدي؟

- من؟

وتوقفت عن النطق بما يمكن أن يكون «هم جميعاً» ولكنها نظرت إلى الآنسة ويد وقالت:

- السيد والسيدة ميجلز.

- كانا بخير عندما رأيتهما آخر مرة، وهما ليستا بالبيت الآن. ودعيني أسالك بهذه المناسبة هل حقاً شاهدك أحد هناك؟

فردّت الفتاة قائلة وهي تغض عينيها في سخط:

- أين؟! أين قال أي إنسان إنه رآني؟

- رآك وأنت تنظرين إلى الحديقة من خلال بوابة الكوخ.

فقالت الآنسة ويد:

- لا. إنها لم تكن قط قريبة من ذلك المكان.

فقالت الفتاة للآنسة ويد:

- إنك مخطئة إذن. لقد ذهبت إلى هناك في آخر مرة كنا فيها بلندن. ذهبت ذات يوم بعد الظهر عندما تركتني بمفردي. وقد تطلعت إلى الداخل من البوابة.

فردّت الآنسة ويد باحتقار تام:

- أيتها الفتاة الشقية الروح، هل كل صحبتنا، وكل أحاديثنا، وكل شكاياتك القديمة لا تساوي عندك إلا هذا القليل؟

فقالت الفتاة:

- ليس ثمة ضرر في النظر من خلال البوابة برهة. لقد رأيت من حالة النوافذ أن الأسرة ليست بالمنزل.

- لماذا ذهبت إلى هناك؟

- لأني أردت أن أرى الكوخ، لأني شعرت أنه لا بد لي أن أنظر إليه مرة أخرى.

وفيما كان كل من الوجهين الوسيمين ينظر إلى الآخر. أحسّ كلينام كيف أن كلاً من هاتين الطبيعتين لا بد وأن تعمل على تمزيق الأخرى.

وقالت الآنسة ويد وهي تخفف من حدة نظراتها وتحوّلها عنه:

- أوه، إذا كنت قد رغبت في رؤية المكان الذي عشت فيه هذه الحياة التي أنقذتك منها، لأنك أدركت كيف كانت حقيقته. فهذا شيء آخر. ولكن هل هذا هو ولاؤك لي؟ هل هذا هو وفاؤك لي؟ هل هذا هو الهدف المشترك بيني وبينك؟ إنك لا تستحقين الثقة التي وضعتها فيك. إنك لا تستحقين الفضل الذي أسبغته عليك. إنك لست أفضل من كلب صغير، وكان يحسن أن تعودي إلى الذين كانوا يعاملونك بما هو أسوأ من الجلْد.

فقالت الفتاة:

- إذا كنت تتحدثين عنهم هكذا أمام أي شخص، فإنك تدفعينني إلى الدفاع عنهم.

فردّت الآنسة ويد قائلة:

- إذن عودي إليهم. عودي إليهم.

فردّت هارييت بدورها:

- إنك تعرفين جيداً أنني لن أعود إليهم، إنك تعرفين جيداً أنني نفضت يدي منهم، وأنني لا أستطيع أن أعود إليهم، ولن أعود بأي حال من الأحوال، ومن ثم دعيهم وشأنهم يا آنسة ويد.

فردّت الآنسة ويد قائلة:

- إنك تفضلين وفرة الطعام لديهم، على القليل هنا، إنك تسبّحين بحمدهم وتنتقصي مني. ماذا كنتُ أنتظر غير هذا؟ كان ينبغي أن أعرف ذلك.

فقالت الفتاة وقد احمرّ وجهها بشدة:

- لا، ليس الأمر كما تقولين، وأنت لا تعنين ما تقولين، وأنا أعرف ما تعنين. إنك تؤنبينني -سراً- لأنني لا أجد من ألجأ إليه غيرك، ولأني لا أجد من ألجأ إليه غيرك تظنين أن من حقك أن تجعليني أفعل ما تريدين أو لا أفعل، وأحتمل كل إساءة توجهينها إليّ، إنك مثلهم تماماً في السوء. ولكنني لن أُروَّض أبداً، ولن أستسلم، وسوف أقول مرة أخرى إني ذهبت لأنظر إلى الكوخ، لأني كثيراً ما شعرت بالرغبة في رؤيته مرة أخرى. وسوف أسأل مرة أخرى عنهم، لأني أحببتهم يوماً، وفي بعض الأحيان أذكر أنهم كانوا شفيقين بي.

وهنا قال كلينام إنه واثق تماماً أنهم سيستقبلونها بكل عطف إذا رغبت يوماً في العودة إليهم.

فقالت الفتاة بحرارة:

- أبداً، لن أفعل هذا أبداً. وليس هناك من يعرف هذا أكثر من الآنسة ويد، وذلك رغم تأنيبها لي لأنها جعلتني عالة عليها، وأنا أعرف أني هكذا. وأعرف أنها تبتهج كثيراً كلما ذكَّرتني بهذه الحقيقة.

فقالت الآنسة ويد بنفس الغضب، والترفع، والمرارة:

- ادعاء جميل، ولكنه أتفه من أن يحجب الحقيقة عن عيني. إن فاقتي لا يمكن أن تُقارَن بثرائهم. يحسن أن تعودي إليهم، يحسن أن تعودي إليهم لننتهي من هذا الأمر.

ونظر كلينام إليهما وهو واقف على مسافة يسيرة منهما في تلك الغرفة الكئيبة وكل منهما تضرم في كبرياء، نيران الغضب في صدرهما، وكل منهما، في إصرار عنيد، تعذِّب نفسها، وتعذِّب الأخرى، وأخيراً نطق بكلمة أو كلمتين للانصراف، ولكن الآنسة لم ترد عليه إلا بإيماءة خفيفة جداً. أما هاربيت، التي اتخذت وضع الإنسان العالة الذليل الأجير- ولكن لا يخلو من روح التحدي مع ذلك- فقد تظاهرت بأنها أتفه شأناً من أن تهتم بأحد أو يهتم بها أحد.

وهبط من السلالم المظلمة الملتوية إلى الفناء وقد ازداد إحساساً بالسياج الحجري الذي كان موحشاً، وبالشجيرات التي كانت ميتة، وبالنافورة التي كانت جافة، وبالتمثال الذي لم يعد له وجود. وراح يكثر التفكير فيما رأى وفيما سمع في ذلك البيت، وكذلك في فشل كل ما بذله من جهود في اقتفاء أثر هذه الشخصية المريبة التي اختفت. وبهذا التفكير عاد إلى إنكلترا ثم إلى لندن عن طريق سفينة البريد التي حملته إلى كاليه. وفي أثناء الطريق، فضّ الأوراق المطوية، وقرأ فيها ما هو مذكور في الفصل التالي.

قصة تعذيب نفس

شاء سوء حظي ألا أكون حمقاء. فمنذ باكورة حياتي وأنا أفطن إلى ما يحسب الذين حولي أنهم يخفونه عني، فلو كان في إمكاني أن أعتاد على أن يخدعني غيري، بدلاً من أن أفطن إلى الحقيقة، لأمكن لي أن أحيا في سلام كما يحيا معظم الحمقى.

لقد أمضيت طفولتي مع جدتي لأمي، أي مع سيدة تمثل هذه القرابة لي، وتتخذ هذه الصفة لنفسها. إنها لم تكن لها أية حقوق بحكم هذه الصفة، ولكنني وقد كنت عندئذ على شيء من الحماقة لم أشك في أمرها. كان لها بعض أطفال من أسرتها في منزلها، وبعض أطفال لأناس آخرين. وكانوا –وأنا معهم– عشرة. وقد عشنا معاً جميعاً، وتعلمنا معاً..

ولا بد أنني كنت في الثانية عشرة من عمري عندما بدأت أرى إلى أي حد كان أولئك الفتيات مصممات على وضعي تحت حمايتهن. وقيل لي إنني كنت يتيمة ولم يكن ثمة يتامى بينهن غيري. وقد لاحظت –وكانت تلك أولى مساوئ الذكاء– أنهن يعاملنني في رثاء مهين، وفي شعور بالترفع والامتياز. وأنا لا أذكر هذا كاكتشاف عرفته بتهور، وإنما بعد أن خبرتهن كثيراً. كنت لا أكاد أستطيع أن أجعلهن يتعاركن معي. فإذا نجحت في العراك مع إحداهن، كان من المؤكد أن يأتين إليّ بعد ساعة أو

ساعتين لمصالحتي. وقد اختبرتهن بعد ذلك المرة بعد الأخرى، فلم أجدهن قط ينتظرن حتى أبدأ أنا المصالحة. كن دائماً يغفرن لي بكبريائهن وترفعهن تماماً كأنهن صور مصغرة للناس الكبار.

وكانت إحداهن صديقة خاصة لي. وقد أحببت تلك الحشرة الحمقاء بعاطفة قوية لم تكن جديرة بها؛ بحيث أشعر كلما تذكرتها بالخجل رغم أني كنت يومذاك طفلة. كان لها ما يسمى بالطبع الهادئ اللطيف، الطبع المأنوس الودود. كان في مقدورها أن توزع! وكانت توزع فعلاً، نظراتها وبسماتها اللطيفة على كل واحدة بيننا. وأعتقد أنه لم يكن ثمة أحد هناك -إلا أنا- يعرف أنها لم تكن تفعل هذا إلا لغرض إهانتي وتجريحي.

ومع ذلك فقد بلغ حبي لتلك الفتاة التافهة أن أصبحت حياتي عاصفة بسبب هذا الحب لها. كنت دائماً أتعرض للمواعظ، وللإهانة بسبب ما يسمى «مضايقتي لها» أو بمعنى آخر لاتهامي لها دائماً بالخيانة، ولإثارتها إلى حد البكاء بقولي لها إنني أقرأ حقيقة ما يدور بنفسها. وعلى أية حال كنت أحبها بإخلاص، وقد ذهبت معها ذات مرة إلى بيتها لقضاء إحدى العطلات.

وكانت في البيت أسوأ منها في المدرسة. كان لها حشد من أبناء العمومة والمعارف، وقد رقصنا في بيتها، وذهبنا للرقص في بيوت الآخرين، ولكنها كانت في بيتها، وفي خارجه، تعذبني بالغيرة إلى حد لا يطاق. كان هدفها أن تكون محبوبة من الجميع، وهكذا كانت تفقدني الصواب من فرط الغيرة. كانت تهدف لأن تكون لطيفة وودودة مع الجميع بلا استثناء ومن ثم تثير جنون غيرتي منهم جميعاً. فإذا انفردنا معاً في غرفة النوم ليلاً، رحت ألومها بكل ما أعرفه عن دناءتها، وعندئذ تنخرط في بكاء حار وتقول إنني قاسية، وهنا أضمها بين ذراعي حتى الصباح: حيث يظل حبي لها كما هو دائماً، وحيث كنت أشعر أنني أفضّل -بدلاً من عذابي

هذا- أن أبقيها بين ذراعي هكذا وأغوص بها إلى قاع نهر حيث تظل بين ذراعي بعد أن نموت معاً.

وجاءت النهاية أخيراً، واسترحت. كان في محيط الأسرة عمة لم تكن تحبني، وإني أشك فيها إذا كان في الأسرة كلها أحد يحبني كثيراً. ولكنني لم أرغب يوماً في أن يحبوني، لأني كنت متفانية تماماً في حبي لتلك الفتاة. وكانت العمة سيدة شابة ذات نظرة جادة في مراقبتها لي. وكانت جريئة وصريحة في نظرات العطف التي توجهها إليّ، وبعد إحدى الليالي التي ذكرتها. نزلت إلى مشتل النباتات بالحديقة قبل الإفطار. وكانت شارلوت «اسم تلك الصديقة الصغيرة الخائنة» قد سبقتني إليه وقد سمعت تلك العمّة وهي تتحدث معها عني وأنا أدخل، فتوقفت في مكاني بين الأغصان وأرهفت السمع.

قالت العمة -وأنا أكرر هنا نص كلماتها-:

- شارلوت، إن الآنسة ويد تضايقك إلى حد إزهاق الروح، ولا ينبغي أن يستمر الحال هكذا.

فبماذا أجابت عندئذ؟ هل أجابت: «بل أنا التي أضايقها إلى هذا الحد. أنا التي أجعلها على أحر من الجمر وأجعل من نفسي جلادتها، ومع ذلك فإنها تقول لي كل ليلة إنها تحبني بكل إخلاص رغم أنها تعرف ما أرتكبه في حقها!»؟

لا. إن تجربتي الأولى الخالدة كانت صادقة مع ما كنت أعرفه عنها مع كل تجاربي؛ لقد بدأت تبكي وتنتحب لتضمن عطف العمة عليها، ثم قالت:

- يا عمتي العزيزة، إن لها مزاجاً حاداً. وقد حاول كثير من الفتيات الأخريات في المدرسة -معي- أن يصلحنها بكل ما نستطيع. وإننا نحاول هذا بكل قوانا.

وعندئذ ضمّتها العمّة إلى صدرها، وكأنما نطقت بكلمات نبيلة، بدلاً من هذه الكلمات الحقيرة الغادرة، ثم استطردت بناءً على هذا الادعاء الحقير قائلة:

- ولكن هناك حداً معقولاً لكل شيء يا حبيبتي العزيزة، وأنا أرى أن هذه الفتاة الشقية البائسة تسبب لك دائماً من الأحزان التي لا جدوى منها أكثر مما تبرره حتى هذه الجهود النبيلة لإصلاح أمرها.

وخرجت الفتاة الشقية البائسة من مخبئها -كما تتوقع أن تقرأ- وقالت:

- أعيديني إلى البيت.

ولم أقل كلمة أخرى لهما، أو لأي منهما، وإنما قلت فقط:

- أعيديني إلى البيت وإلا سوف أذهب إليه بمفردي، ليلاً ونهاراً!

ولما عدت إلى البيت، قلت لجدتي المزعومة، ما لم أستكمل دراستي في مكان آخر قبل أن تعود هذه الفتاة، أو أية فتاة أخرى بالمدرسة، فسوف أحترق بإلقاء نفسي في النار على أن أحتمل النظر إلى وجوههن الغادرة.

ثم اختلطت بفتيات بعد ذلك. ولكنني لم أجدهن أحسن حالاً. كلمات جميلة ومزاعم جميلة. كنت أنفذ إلى ما تحت ادعاءاتهن، ورثائهن لي، وأعرف أنهن لسن أحسن حالاً. وقبل أن أرحل عنهن، علمت أنني بلا جدة، وبلا أي أقارب معروفين. وحملت ضوء هذه الحقيقة إلى ماضي، وإلى مستقبلي، فأوضح لي هذا الضوء كثيراً من المواقف الجديدة التي كان الناس يزهون فيها على حينما يتظاهرون بحُسْن معاملتي أو يقدمون لي خدمة ما.

وكان ثمة رجل من رجال الأعمال يحتفظ لي بممتلكات بسيطة. وتقرر أن أعمل مربية، واشتغلت مربية، وعملت في بيت نبيل فقير حيث كان ثمة ابنتان -طفلتان صغيرتان- ولكن الوالدين كانا يريدان أن تنموا

-إذا أمكن- تحت إشراف مربية واحدة. وكانت الأم شابة وجميلة، ومنذ اللحظة الأولى تظاهر بمعاملتي برقّة بالغة، واحتفظت بسخطي لنفسي ولكني كنت أعرف تماماً أن تلك هي طريقتها في اختزان إدراكها التام بأنها سيدتي، وأن في مقدورها أن تتصرف بطريقة مختلفة مع خدمها إذا شاءت.

وقلت إنني لم أعلن سخطي، وهذا ما فعلته. ولكنني بينت لها، بعدم العمل على إرضائها، أنني أفهمها. فكانت إذا ألحت عليّ لأشرب خمراً، شربت ماء. فإذا حدث وكان على المائدة أطايب من الطعام، كانت دائماً ترسل إليّ منه، ولكنني دائماً كنت أرفضه وأتناول الطعام المرغوب عنه. وكان هذا الصد الدائم لرعايتها لي، رداً قاسياً طالما جعلني أشعر بأني غير عالة على أحد.

وأحببت الطفلتين، وكانتا وادعتين، ولكنهما، على الجملة، كانتا على استعداد للتعلق بي. وكان بالمنزل، على أية حال، مربية أخرى، وكانت امرأة متوردة الوجه تحاول دائماً أن تتظاهر بالبِشْر والمرح، وكانت قد تولت العناية بهما منذ الطفولة، واكتسبت حبهما قبل أن أراهما. وكان من الممكن أن أستسلم لمصيري لولا هذه المرأة. فقد كان من الممكن أن تخدع حيلها الخبيثة لمنافستي دائماً أمام الطفلتين، أية واحدة أخرى في مكاني. ولكنني كنت أنفذ إلى الحقيقة منذ اللحظة الأولى. وكانت بتظاهرها في ترتيب غرفتي، وانتظار أوامري، والاهتمام بخزانة ملابسي -وكانت تقوم بهذا كله بعناية حقاً- إنما تهدف إلى البقاء دائماً أمامي. وكانت أخبث محاولاتها الماكرة هذه، هي تظاهرها بالسعي إلى جعل الطفلتين تحبانني. كانت تأتي بهما إليّ وتغريهم في مداعبتي قائلة:

«هيّا إلى الآنسة ويد الطيبة، هيا إلى العزيزة الآنسة ويد، هيا إلى الجميلة الآنسة ويد. إنها تحبكما جداً، إن الآنسة ويد سيدة بارعة قرأت أكواماً من الكتب ويمكنها أن تسرد عليكما قصصاً أحسن وأجمل كثيراً مما أعرف. هيّا لتسمعا الآنسة ويد».

فكيف كان في مقدوري أن أشغل انتباههما وقلبي يحترق من هذه الأهداف الحقيرة؟ كيف أثير عجبهما وأنا أرى وجهيهما البريئتين يتحولان عني، وأذرعهما تلتف حول عنقها بدلاً مني، وعندئذ كانت ترفع وجهها إليّ، وتزيح خصلات شعرها عنه وتقول:

- لسوف تألفانك سريعاً يا آنسة ويد. إنهما وادعتان كريمتان يا سيدتي لا تحزني لهذا السبب إطلاقاً يا سيدتي.

وهكذا كانت تزهو عليّ.

وكان هناك شيء آخر قامت به تلك المرأة. ففي بعض الأحيان، عندما تكون قد اطمأنت إلى أنها ألقت بي تماماً، بهذه الأساليب، في حالة من الهم والقلق، تعمد إلى استرعاء نظر الطفلتين إلى هذا الوضع، لكي تبين الفرق بينها وبيني، فتقول:

- سكوتاً! إن الآنسة ويد ليست على ما يرام. لا تُحدِثا صوتاً يا عزيزتي لأنها تشعر بصداع. هيّا خففا عنها. هيّا اسألاها عن صحتها. هيّا اطلبا منها أن تستريح. أرجو ألا يكون ثمة ما يشغل بالك يا سيدتي، لا تقلقي يا سيدتي. ولا تحزني.

وأصبح الحال غير محتمل. فانتهزت فرصة حضور سيدتي إليّ وأنا بمفردي حيث كنت في ذروة شعوري بالضيق، وقلت لها إنني لا بد أن أرحل؛ لأني لا أستطيع احتمال وجود تلك المرأة دوز.

- إن المسكينة دوز تحبك جداً يا آنسة ويد؛ وعلى استعداد لأن تبذل من أجلك أي شيء.

وكنت أعرف سلفاً أنها ستقول هذا. ومن ثم استعددت له تماماً؛ وقلت إنه لا ينبغي عليّ أن أناقض رأي سيدتي، ولهذا يجب أن أرحل.

فردت قائلة وقد اتخذت فوراً لهجة الاستعلاء التي طالما أخفتها تحت ستار رقيق:

- أرجو يا آنسة ويد ألا يكون قد بدر منا قول أو عمل منذ عشنا معاً يبرر استعمالك لهذه الكلمة البغيضة «سيدتي» لا بد أن في الأمر تهاوناً خطيراً من جانبي. أرجوك أن تخبريني به.

فقلت لها إنني لا أشكو، سواء من سيدتي، أو لسيدتي، وإنما يجب أن أرحل.

وترددت برهة، ثم جلست بجانبي، ووضعت يدها على يدي، كأنما هذا الشرف سيحجب عن ذهني أية ذكريات، ثم قالت:

- أخشى يا آنسة ويد أن تكوني بائسة لأسباب ليس لي عليها سلطان.

فابتسمت وفكرت في التجربة التي أثارت ذكراها هذه الكلمة، وقلت:

- إن لي مزاجاً حاداً كما أظن.

- إنني لم أقل هذا.

- إن هذا أبسط شيء لتبرير كل شيء.

- ربما، ولكنني لم أقل هذا. إن ما أريد أن أحدثك به، شيء مختلف تماماً. لقد تبادلنا، زوجي وأنا، بعض الملاحظات عن الموضوع حين رأينا، بكل أسى، أنك لست متجاوبة معنا.

فقلت:

- متجاوبة! أوه! إنكما من عظماء الناس يا سيدتي.

- إنني آسفة لاستعمالي كلمة ربما تنطوي على معنى -ومن الواضح أنها تنطوي فعلاً- يختلف تماماً عما أقصد -ويبدو أنها لم تكن تتوقع ردي

الذي أخجلها- وإنما أعني أنك لست سعيدة معنا. إنه موضوع يصعب الخوض فيه، ولكن باعتباري شابة تتحدث إلى شابة أخرى، فربما -باختصار- يمكننا أن ندرك أنك قد تتركين بعض الظروف التي أنت أدرى بها من غيرك، تحز في نفسك. فإذا كان الأمر كذلك، فدعيني أرجوك ألا تدعيها سبباً لأحزانك. فإن زوجي نفسه، كما هو معروف للجميع، كانت له أخت عزيزة جداً لم تكن بحكم القانون أختاً له، ولكنها كانت محبوبة ومحترمة من الجميع.

وأدركت فوراً أنهم استخدموني إجلالاً لذكرى تلك المرأة المتوفاة، أياً كان أمرها، ولكي يفخروا بذلك على حسابي، ويستفيدوا مني. لقد رأيت في نظرات تلك المرأة المريبة إدراكاً لهذه الحقيقة، وتشجيعاً للمساس بي كما فعلت. ورأيت في انكماش الطفلتين عني معنىً غامضاً بأني لستُ كغيري من الناس، وقد تركت ذلك البيت في تلك الليلة.

وبعد تجربة أو تجربتين من هذا النوع تماماً، ولا داعي لذكرهما هنا. عملت مع أسرة أخرى لم يكن لديها غير تلميذة واحدة: فتاة في الخامسة عشرة كانت الابنة الوحيدة. وكان الوالدان هذه المرة كهلين من ذوي المكانة والثراء. وكان ثمة ابن خالة ربياه. كثيراً ما يزور الأسرة، مع الزائرين، قد بدأ يحوطني باهتمامه. وأصررت على صدّه، لأني كنت قد صممت عند التحاقي بالعلم مع هذه الأسرة ألا أجعل أحداً يرثي لي، أو يتعالى عليّ. ولكنه كتب لي رسالة، وأدت الرسالة إلى خطبة للزواج.

كان يصغرني بعام وكان أصغر مني منظراً حتى لو رفعنا هذا العام من الحساب. وكان يقوم بإجازة من عمله في الهند حيث كان له منصب من المنتظر أن يرتفع بسرعة إلى منصب كبير جداً. وكان الاتفاق قد تم على أن نتزوج خلال ستة أشهر ثم نمضي إلى الهند. كما تم الاتفاق على أن أظل أعمل في البيت، وأن أتزوج من البيت، ولم يعترض أحد على شيء في هذه الترتيبات.

ولا أستطيع أن أغفل القول إنه كان شديد الإعجاب بي، ولو أني استطعت لأغفلت ذكر هذه الحقيقة. وليس للغرور شأن بهذا، لأن إعجابه كان يزعجني. لم يكن يحاول قط أن يخفيه. ومن ثم جعلني أشعر بين هؤلاء الأغنياء كأنه اشتراني لجمالي، وأنه يستعرض سلعته ليبرر موقفه. وكنت أرى أنهم معجبون بي في ذوات نفوسهم، ولكن الفضول كان يستبد بهم ليعرفوا حقيقة قيمتي. وصممت على ألا يجعلهم يعرفون شيئاً. وتمددت جامدة صامتة أمامهم، وفضلتُ لو أن أي واحد منهم يقتلني على أن يستدرجني ليعرب عن رضائه عني.

وقال لي إنني لا أنصف نفسي، وقلت له بل إني أنصفها، ولأني أنصفها فعلاً قررت أن أتمادى حتى النهاية، وألا أنحني لأحد منهم استدراراً لرضائه عني، وركبه الهم، بل وصُدِم، حين أضفت إلى ذلك أنه لا ينبغي أن يستعرض حبه أمامهم، ولكنه قال إنه سيضحي حتى بالنبضات الصادقة لحبه من أجلي.

وتحت هذا الادعاء بدأ يرد عليّ، فكان يمضي الساعات المتوالية وهو يتجنبني، متحدثاً إلى أي شخص دوني. لقد جلست ذات مساء بمفردي دون أن يحس بي أحد نصف الوقت وهو يتحدث مع ابنة خالته الفتاة، تلميذتي، وكنت قد رأيت خلال هذه الفترة كلها، وفي نظرات الناس أنهم يرون هذين الاثنين أقرب إلى بعضهما البعض –مركزاً– مني. وقد جلست أستعرض أفكارهم حتى أحسست أن منظره الأصغر مني يجعلني أبدو مضحكة، ومن ثم ثرت على نفسي بقسوة لوقوعي في حبه.

ذلك لأني أحببته فعلاً ذات مرة. ورغم أنه لم يكن جديراً بهذا، ولم يكن يفكر كثيراً في تلك العذابات التي كنت أعانيها، عذابات كان ينبغي أن تجعله عبداً لي مدى الحياة فقد أحببته. واحتملت امتداح ابنة خالته له في مواجهتي، وتظاهرها بالظن بأن هذا يسرني، مع إدراكها بأن هذا كان

يحز في صدري. احتملت هذا كله من أجله. وفيما أنا جالسة أمامه، أستعيد في ذاكرتي كل تفاهاتي وأخطائي، وأفكر فيما إذا كان ينبغي أن أرحل عن البيت فوراً ولا أراه أبداً كنتُ ما زلت أحبه.

وكانت خالته، وهي سيدتي كما أرجو أن تتذكر، تضيف عن عمد وقصد الشيء الكثير من المضايقات وألوان السخط. كان يسرها أن تسهب في الحديث عن نهج الحياة الذي سنتخذه في الهند. وعن المسكن الذي سنعيش فيه، وعن الضيوف الذين ينبغي أن ندعوهم عندما يبلغ المنصب المنشود. وكانت كبريائي تثور ضد هذه الطريقة الفاضحة في الإشارة إلى المقارنة بين حياتي الزوجية بالنسبة إلى حياتي تلك الراهنة الأقل شأناً وتحرراً. وكنت أكبت استيائي، ولكنني بيّنت لها أنني لست غافلة عن مقصدها، وقد رددت عليها، بطريقة غير مباشرة، باصطناع التواضع والخضوع. فكنت أقول لها عما تسميه شرفاً كبيراً لي، إنني أخشى ألا أستطيع التجاوب مع هذا التغيير الضخم، إذ كيف يمكن لمجرد مربية أو معلمة، مربية أو معلمة لابنتها، أن تبلغ هذا المركز الرفيع! وكان حديثي هذا يثير قلقها، وقلقهم جميعاً، إذ كانوا يعلمون أنني أفهمها حق الفهم.

وفي ذلك الوقت بالذات كانت متاعبي قد بلغت الذروة. فبينما أنا في غاية الاستياء من حبيبي بسبب جموده وعدم اهتمامه بما ألقاه من أجله من ألوان الحزن والكبت والعذاب، إذا بصديقك العزيز السيد جوان يظهر في البيت. لقد كان على صلة وطيدة بالأسرة. إلا أنه كان غائباً خارج البلاد. وقد فهم من نظرة واحدة الموقف كله، وفهمني أيضاً.

وكان أول إنسان رأيته في حياتي يفهمني. فما هي إلا ثلاث زيارات منه للأسرة حتى عرفت أنه غدا يدرك كل حركة تفكير في ذهني وقد أدركت هذا بوضوح رغم طريقته الباردة التي كان يعامل بها الأسرة، ويعاملني، ويعامل الموقف كله. وكذلك في إعجابه المنطوي على

الاستخفاف بمستقبل زوجي، وفي حماسته لخطبتنا ومستقبلنا، وفي تهانيه وأمانيه لما ينتظرنا من ثراء، وفي حديثه المقارن عن فاقته - كل هذا باستخفاف، وفكاهة، وتندر وتهكم. لقد كان يزيد إحساسي بالسخط وبالاحتقار لكل شيء بإلحاحه في عرض كل شيء يحيط بي، بعد أن يضفي عليه ضوءاً جديداً بغيضاً وهو يتظاهر بأنه يعرضه في أحسن وضع لإثارة إعجابي وإعجابه. كان كالموت المتنكر في ملابس البشر بالقصص الهولندية المسلسلة. فكان أي شيء أو شخص يتناوله بذراعه، سواء كان شاباً أو عجوزاً، جميلاً أو قبيحاً، وسواء رقص معه أو غنّى له أو لاعبه، أو شاركه في الصلاة والدعاء، يجعله منفراً كريهاً.

ومن ثم سوف تدرك أن صاحبك عندما يمتدحني، كان في الواقع يعزيني، وحين يخفف من سخطي كان يكشف عن كل جرح مؤلم في نفسي، وعندما يتحدث عن «خطيبي المخلص» بقوله إنه «شاب لا مثيل له في العالم في قوة حبه وفي رقة قلبه» كان يلمس هواجسي السابقة حتى جعلني أضحوكة أمام الجميع. ولعلك تقول إن هذه التصرفات لم تكن تنطوي على خدمات جليلة لي. ولكنها كانت مقبولة في نظري، لأني وجدتها الصدى لما يتردد في ذهني، وتأكيداً لمعلوماتي الخاصة. وسرعان ما أصبحت أفضل صحبة صديقك العزيز على صحبة أي شخص آخر.

ولما تبينت -وهذا ما حدث بسرعة- أن هذا الوضع يثير الغيرة في قلب حبيبي، ازددت حباً لمصاحبته. ألم أتعرض أنا لعذاب الغيرة، وحملت العبء كله على كاهلي! حسناً ليذق هو من نفس الكأس. وقد سرني أنه سيذوق هذا. لقد سرني أنه سيتعذب بقسوة، وتمنيت أن يفعل. وأكثر من هذا، كان كالحمل الوادع بالنسبة إلى السيد جوان الذي كان يعرف كيف يتحدث معي على قدم المساواة، وكيف يحلل نفوس الناس البؤساء المحيطين بي.

واستمر الحال هكذا حتى قررت سيدتي بنفسها أن تحدثني في الموضوع. فقالت إن هذا الحديث لا يكاد يستحق الإشارة إليه، لأنها تعرف أنني لا أقصد شيئاً، ولكنها اقترحت، من تلقاء نفسها، إذ كانت ترى من الضروريِ أن تقدم هذا الاقتراح: إنه بما كان من المستحسن لو أنني أقلل من صحبتي للسيد جوان.

وسألتها كيف يمكنها أن تعرف حقيقة ما أقصد؟ فأجابت أنها تعرف دائماً أنني لا يمكن أن أقصد الشر. فشكرتها وقلت لها إنني أفضل دائماً أن أحتفظ بمقاصدي لنفسي، وإن من المحتمل أن يشعر الخدم الآخرون عندها بالعرفان لمثل هذا المديح لأخلاقهم، ولكنني لا أريد شيئاً من ذلك.

وتبع هذا حديث آخر أغراني بأن سألها كيف أمكنها أن تعرف أن من الضروري لها أن تقدم هذا الاقتراح لي، لكي أعمل به؟ هل تفترض هذا بسبب منبتي، أو بسبب عملي عندها؟ إن أحداً لم يشترني جسماً وروحاً. ويبدو أنها تظن أن ابن أختها العظيم قد ذهب إلى سوق الجواري واشترى له زوجة.

وكان من المنتظر أن يصل الأمر، عاجلاً أو آجلاً، إلى النهاية التي وصل إليها. ولكنها أوصلته إلى هذه النهاية فوراً. لقد قالت لي، في حنان مصطنع، إنني بائسة الطبع. ولم أستطع، وأنا أسمع هذه الصفة المهينة تتكرر أمامي، أن أتمالك نفسي أكثر مما فعلت، فرحتُ أصارحها بكل ما عرفت عنها، وما رأيت فيها، وكل ما عانيته من آلام نفسية منذ أن تشرّفت وصرت خطيبة لابن أختها. وقلت لها إن السيد جوان كان العزاء الوحيد في فترة إذلالي هذه، وإنني احتملت هذا الوضع أكثر مما أستطيع، وإنني تأخرتُ جداً في التحرر منه، ولكنني لن أرى أحداً منهم بعد ذلك. وفعلاً لم أرهم منذ ذلك الحين قط.

وتبعني صديقك العزيز إلى الغرفة التي انسحبت إليها، وقد تناول موضوع قطع علاقتي بالأسرة، بطريقته الماجنة، وذلك رغم إعرابه عن أسفه أيضاً من أجل هؤلاء الناس الممتازين، إذ كانوا على نهجهم الخاص أحسن من عرف في حياته، وقال إن الواجب على الإنسان أن يتجاوز عن مثل هذه الهنات. ثم راح يبين لي بحرارة، وبصدق لم أكن أتوقعه منه، أنه لا يصلح قط أن تقبله زوجاً فتاة لها مثل مواهبي، ومثل شخصيتي القوية، ولكن.. حسناً.. حسناً.

وقال صديقك العزيز ما معناه أنه كان يروِّح عني، ويروِّح عن نفسه بقدر ما يلائم مزاجه، ثم ذكرني أن كلانا من ذوي الخبرة بالحياة، وأننا معاً نفهم حقيقة النفس البشرية، وأننا معاً نعرف أنه لا يوجد شيء اسمه الحب الخيالي، وأن كلاً منا مستعد أن يمضي في طريق مختلف لتحقيق أهدافه كما يفعل العقلاء، وأن كلاً منا يعلم سلفاً أنه أينما التقى مرة أخرى بالآخر، فسوف يلتقي به كأحسن صديق في الوجود. وهكذا قال ولم أناقضه في هذه الأقوال.

ولم تمضِ مدة طويلة قبل أن أعرف أنه كان في الوقت نفسه يلقي شباك غرامه على زوجته الحالية، وأن والديها كانا قد رحلا بها إلى خارج البلاد هرباً منه، وقد كرهتها عندئذ، بقدر ما أكرهها الآن. ولم أتمن بطبيعة الحال شيئاً أحسن من ألا يتم زواجه بها. ولكنني كنت أشعر بفضول قاسٍ لكي ألقي نظرة عليها، ولقد بلغت حدة هذا الفضول أني اعتبرت رؤيتي لها من ألوان الترفيه القليلة الباقية لي. وسافرت إلى الخارج مدة قصيرة، وفي أثناء سفري التقيت بها، وبك. ولم يكن صديقك العزيز، كما أظن، قد تعرف بك عندئذ، ولم يكن قد أعرب لك بعد عن أمارات صداقته التي أسبغها عليك فيما بعد.

ومع تلك الأسرة رأيت فتاة كانت في مختلف الظروف المحيطة بوضعها شديدة الشبه بي. كما شعرت بالاهتمام والسرور وأنا أرى بوادر

ثورتها على تلك الرعاية الرخيصة والأنانية، اللتين يسمونها عطفاً وحماية وإحساناً وغير ذلك من الأسماء الجميلة.. وكانت هذه الثورة التي ذكرتها شبيهة بما جُبِلت عليه طبيعتي. وكذلك سمعت كثيراً ما يقال عنها من أنها «ذات مزاج حاد». فلما أدركت تماماً المعنى الكامن وراء هذه العبارة، ولما كنتُ في حاجة إلى رفيقة تتفق معي في الطبع، فكرت في محاولة إطلاق هذه الفتاة من قيودها، ومن إحساسها بمعنى العدالة، ولا حاجة بي لأن أقول إنني نجحت.

ومنذ ذلك الحين ونحن معاً، نعيش على دخلي البسيط.

* * *

من ذا يمر بهذا الطريق في هذا الوقت المتأخر؟



كان آرثر كلينام قد قام بسفريته هذه غير الموفقة إلى كاليه وهو في خضم أعماله المتكاثرة. وكان ثمة هيئة ذات «قوى همجية» -في نظر إدارة الشؤون العامة- لها ممتلكات ثمينة على خريطة الكرة الأرضية، قد استخدمت واحداً أو اثنين من المهندسين المعروفين بسرعة الابتكار والحزم في التنفيذ.

وكان المشرفون عليها رجالاً عمليين يعرفون كيف يمكنهم أن يعدوا الرجال والوسائل التي تستلزمها عبقرياتهم، من أحسن المواد التي تكون في متناول أيديهم. كما أنهم كانوا يمتازون بالجرأة، وبالذكاء، في تكييف هذه المواد طبقاً لأهدافهم، بنفس الجرأة والذكاء اللذين يدركون بهما هذه الأهداف، ولكون هذه الهيئة ذات قوى همجية، فلم يكن لديها أي استعداد لأن تودع هدفاً وطنياً ضخماً داخل إدارة الشؤون العامة، كما تخفي الخمر القوية من الضوء داخل أقبية، حتى تزول حرارتها وقوتها، وحتى يغدو العُمّال الذين قطفوا عناقيد الكروم وعصروها، تراباً في القبور. وراحت هذه الهيئة، بجهل رائع، تعمل بالمبدأ المقرر المعروف «كيف تفعل هذا»، دون أن تبدي قط أقل احترام، أو تعير أي اهتمام، لذلك المبدأ السياسي العظيم «كيف لا تفعل هذا». والواقع أنه كان لهذه

الهيئة قوة همجية بارعة في القضاء، بطريقة خفية، على نفوذ كل شخص يحاول أن يطبق عليها ذلك المبدأ السياسي العظيم.

وعلى هذا النحو، تم البحث والعثور على الأشخاص المطلوبين، وكان ذلك، في ذاته، أشد الإجراءات همجية ومخالفة للنظام، وكان الأشخاص الذين يتم العثور عليهم، يعاملون بكل ثقة وتكريم، مما يدل أيضاً على جهل مطبق بالأمور السياسية، وكانوا يدعون فوراً للقيام بما يراد منهم القيام به. وعلى الجملة، كانوا يعتبرون رجالاً ينوون القيام بمهمتهم، بالاشتراك مع رجال عقدوا النية على أن تتم هذه المهمة.

وكان دانييل دويس واحداً من هؤلاء المختارين. ولم يكن ثمة ما ينبئ عندئذ ما إذا كان سيغيب شهوراً أو سنوات. وكانت الاستعدادات لرحيله، وترتيبات إخطاره بكل التفاصيل والنتائج لعملهما المشترك؛ قد استلزمت بذل الجهد في فترة محددة وقصيرة من الوقت، مما شغل كلينام ليلاً ونهاراً. وقد استطاع أن ينفلت إلى كالي في أول عطلة ممكنة، وأن ينفلت عائداً بنفس السرعة ليعقد مع صديقه دويس جلسة الوداع.

وأطلعه آرثر، بكل عناية واهتمام، على أحوال أرباحهما وخسائرهما، وعن أعبائهما وما ينتظر للعمل في المستقبل. واستطلع دانييل هذا كله بصبره المعهود؛ وأعرب عن إعجابه الشديد بكل شيء. كان يراجع الحسابات وكأنها قطعة فنية مبتكرة أروع كثيراً مما اخترع من آلات وقد راح فيما بعد يتطلع إلى دفاترها وهو يوازن قبعته من الحافة فوق رأسه وكان مستغرق في تأمل آلة جديدة اخترعها.

– إن هذا كله جميل يا كلينام في ترتيبه وإعداده. لا شيء أوضح منه ولا شيء أفضل.

- يسرني أنه حاز قبولك يا دويس. أما فيما يتعلق باستثمار رأس المال في أثناء غيبتك، وفي تحويل الجانب الأكبر لما قد تحتاج إليه طبيعة العمل بين الحين والآخر.

فقاطعه شريكه قائلاً:

- أما فيما يتعلق بهذا، وبكل شيء من هذا النوع. فأنت مكلف به. لسوف تستمر في العمل على هذا النحو؛ من أجلنا معاً؛ كما كنت تفعل، وكذا تخفف عن نفسي عبئاً طالما أثقل عليّ.

فردّ كلينام قائلاً:

- هكذا أنت، كما قلت لك كثيراً، تقلل بلا مبرر من مواهبك العملية.

فقال دويس باسماً:

- ربما؛ وربما لا. وأياً كان الأمر فإن لي رسالة درستها أكثر من مثل هذه الشؤون؛ وإنني أكثر ملاءمة لتحقيقها. وإن لي الثقة التامة في شريكي، وإني مطمئن إلى أنه سيقوم بواجبه على خير وجه.

ثم استطرد يقول وهو يضع إبهامه اللدن الذي يمتاز به الصانع الفني على قلابة سترة شريكه:

- وإذا كنت متحاملاً ضد كل ما يتعلق بالمال أو بالأرقام المالية، فإن هذا لا يتفق مع النجاح في هذا الميدان. ولا أظن أن لي ميداناً آخر. ويمكنني القول إنني أتخذ هذا الموقف لأني فقط لم أركز تفكيري في هذا الموضوع.

فقال كلينام:

- ولكن لا ينبغي أن تسمي هذا تحاملاً يا عزيزي دويس. إنه أعقل موقف ممكن.

فردّ دويس وقد التمعت عيناه الرماديتان بالعطف والتفاؤل:

- يسرني أنك ترى هذا.

فقال كلينام:

- لقد حدث، الآن؛ وقبل أن تأتي بنصف ساعة، أني كنت أقول نفس الشيء لبانكس الذي جاء لزيارتي، لقد اتفقنا معاً على أن التقاعد عن استثمار المال بطريقة مضمونة يعتبر من أشد الأخطار، كما أنه من أكثر الحماقات العادية التي تكاد تبلغ حد الرذائل.

فقال دويس مزحلقاً القبعة إلى مؤخرة رأسه بعد أن أومأ في ثقة:

- بانكس! أجل، أجل، إنه شخص حذر.

فردّ آرثر قائلاً:

- إنه حقاً شخص حذر جداً، بل أنموذج للحذر.

وكان الاثنان، إذا حكمنا بظاهر حديثهما، يستمدان كما يبدو إحساساً كبيراً بالرضا، أكبر مما يتفق مع الفطنة، من شخصية السيد بانكس الحذرة.

وقال دانييل وهو ينظر إلى ساعته:

- والآن، بما أن الوقت لا ينتظر أحداً يا شريكي الأمين، وبما أني مستعد للرحيل بقضي وقضيضي الموضوعين عند البوابة تحت، دعني أقل كلمة أخيرة. إنني أريد منك أن تحقق لي رجاء.

فقال كلينام بسرعة لأن وجه شريكه كان سريعاً في التعبير عن رجائه:

- أي رجاء تريد، فيما عدا التخلي عن اختراعك.

فقال دويس:

– هذا هو الرجاء، وقد عرفت أنت ما هو.

– إذن فأنا أرفض، وأرفض بشدة. أما وقد بدأت. فلا بد لي أن أحصل على مبرر واضح، على تقرير رسمي، على رد حقيقي من هؤلاء الناس.

فردّ دويس وهو يهز رأسه:

– إنك لن تحصل على شيء من هذا، صدقني، لن تحصل على ذلك أبداً.

فقال كلينام:

– سوف أحاول على الأقل. إن المحاولة لن تضرني على كل حال.

فردّ دويس وهو يضع يده في إغراء على كتفه:

– إنني لست متأكداً من هذا. لقد نالني الضرر من مثل هذه المحاولات يا صديقي. لقد شيختني، وأرهقتني، وأسخطتني، وأثارت استيائي. لا خير في أن يشعر الإنسان بأن معين صبره قد نفد، وأنه تعرض لسوء المعاملة. بل إنه ليخيل لي فعلاً أن ما تعرضت له من الانتظار، والتعطل، والمراوغة، بلا جدوى، قد جعلك أقل مرونة مما كنت من قبل.

فقال كلينام:

– إن المتاعب الخاصة هي السبب في هذا كله الآن، وليست المعاملة الحكومية. لا، لم أتضرر بعد.

– إذن فلن تحقق رجائي هذا؟

فقال كلينام:

– لا بالتأكيد. لسوف يخجلني أن أخضع للطرد هكذا سريعاً من ميداني الذي استطاع رجل مثلك أكبر سناً وأكثر حساسية وأشد اهتماماً أن يحتمل متاعبه مدة طويلة.

ولما لم يكن ثمة سبيل إلى زحزحته عن رأيه، أعاد دانييل دويس مصافحته، وألقى نظرة وداع على غرفة مكتب المحاسبة، ثم هبط السلم معه. وكان على دويس أن يمضي إلى ساوثمبتون لينضم إلى عدد صغير من زملائه المسافرين. وكان ثمة مركبة عند بوابة المصنع، حسنة الفرش والإعداد، مستعدة لحمله إلى هناك. ووقف العُمّال عند البوابة لتوديعه، وهم جد فخورين به. وقد قال له أحدهم:

– أرجو لك حظاً سعيداً يا سيد دويس. وأينما تذهب فسوف يجدون فيك رجلاً بين الرجال، رجلاً يعرف كيف يستخدم أدواته، وأدواته تعرف أنه رجل يجمع بين العزيمة والمقدرة، فإذا لم يكن ثمة رجل كهذا، فأين يكون!

واستقبل العُمّال هذه الخطبة القصيرة من خطيب جهم متطوع كان واقفاً خلف الجميع، ولم يكن أحد يظن أن له مواهب خطابية إطلاقاً، بالهتاف ثلاثاً. وقد صار الخطيب بعد ذلك دائماً شخصية مرموقة. وخلال الهتافات الثلاثة، صاح السيد دويس بهم مودعاً «وداعاً أيها الرجال!» ولم تلبث المركبة أن اختفت عن الأنظار، وكأنما ذبذبات الهواء قد أطاحت بها خارج حوش «بليدنج هارت».

وكان السيد بابتست، كشخص بسيط معترِف بالجميل، في مركز موثوق به، بين العُمّال، قد قام بدوره في الهتاف بقدر ما يستطيع رجل أجنبي. والواقع أنه لا يوجد على ظهر الأرض رجال يحسنون الهتاف مثل الإنكليز الذين يثير بعضهم دماء وأرواح البعض عندما يهتفون بحماسة، بحيث تبدو الحرارة كأنها إندفاق تاريخهم كله، وبكل ما فيه من أعلام ترفرف في وقت واحد، ابتداءً من ألفريد السكسوني إلى ما بعده. وقد ذهل السيد بابتست بقوة الهتاف وعنفه، وفيما هو يسترد أنفاسه في شيء من الفزع، إذا كليننام يشير إليه لكي يتبعه إلى أعلى، حيث أعاد أوراق ودفاتر الحسابات إلى مكانها.

وخلال فترة الهدوء التي أعقبت الرحيل -في تلك الفترة الموحشة التي تعقب كل فراق، والتي ترمز لذلك الفراق الأبدي الذي يظلل الجنس البشري- في هذه الفترة، وقف آرثر إلى مكتبه ينظر في شرود ذهني إلى شعاع من أشعة الشمس. ولكن تفكيره هذا الشارد، لم يلبث أن تحول إلى الموضوع الذي يشغل باله أكثر من غيره، ثم بدأ للمرة المائة، يفكر في كل صغيرة وكبيرة تركت أثرها في ذهنه في تلك الليلة الغامضة التي رأى فيها ذلك الرجل بمنزل والدته. إنه مرة أخرى يصطدم به في الحارة المتعرجة، وإنه مرة أخرى يعقبه ثم يفقد أثره، وإنه مرة أخرى يعثر عليه في الفناء متطلعاً إلى المنزل، وإنه مرة أخرى تبع الرجل ووقف بجانبه عند الباب الخارجي.

«من ذا يسير في الطريق في هذا الوقت المتأخر؛

يا رفيق ماجولين

من ذا يسير في هذا الطريق في هذا الوقت المتأخر

دائماً طروباً...».

ولم تكن تلك أول مرة، من مرات كثيرة، يتذكر فيها هذه الأنشودة من أناشيد الطفولة، وهي الأنشودة التي كان الرجل يترنم بها في أثناء وقوفها جنباً إلى جنب. ولكن بلغ من عدم شعوره أنه يرددها بصوت مسموع أن أجفل وهو يسمع المقطع التالي لها:

«دون جميع فرسان الملك جميعاً، هو الزهرة اليانعة

يا رفيق ماجولين

دون جميع فرسان الملك هو الزهرة اليانعة

دائماً طروب!».

وكان كافالليتو قد ردد هذا المقطع وهو يحسبه توقف لأنه لا يتذكره.

- آه، إنك تعرف الأنشودة يا كافالليتو.

- أجل، بحق السماء، يا سيدي. إنهم يعرفونها جميعاً في فرنسا؛ وقد سمعتها مرات كثيرة تردد على شفاه الأطفال الصغار. وكانت آخر مرة سمعتها فيها...

وكان السيد بابتست -أو كافالليتو- سابقاً؛ يعود إلى طريقته الغريبة في تركيب العبارات كلما اقترب بحديثه من موطنه. وقد استطرد:

- من صوت عذب جميل، عذب جميل بريء جداً، آلترو.

فرد آرثر قائلاً:

- إن آخر مرة سمعت فيها هذه الأنشودة، كانت من صوت يختلف جداً عن الجمال، ويختلف جداً عن البراءة.

وكان يقول هذا كأنما يحدِّث به نفسه أكثر مما يحدث صاحبه، ثم أضاف قائلاً لنفسه مكرراً الكلمات التي نطق بها الرجل بعد ذلك:

- ويح نفسي، إنها طبيعتي أن أكون نافذ الصبر.

وهنا صاح كافالليتو في ذهول وقد انحسرت جميع الدماء عن وجهه:

- آه؟

- ماذا بك؟

- سيدي! أتعرف متى سمعت هذه الأغنية آخر مرة؟

وبحركاته السريعة المعروفة عن مواطنيه، راح يصنع بيديه خطوط أفق مرتفع مقوس، ويقرِّب ما بين عينيه، وينكش شعره، وينفخ شفته العليا ليرمز إلى وجود شارب كثيف، ويلقي بطرف العباءة على كتفه؛

وكان وهو يفعل هذا بتلك السرعة الغريبة لشخص لم يرَ في حياته فلاحاً إيطالياً، راح يرسم على شفتيه تلك الابتسامة الرهيبة. وكان هذا التغيير قد طرأ عليه بسرعة البرق كما وقف في الوقت نفسه، شاحب الوجه مدهوشاً أمام الإنسان الذي يرعاه.

وقال كلينام:

- بحق القدر والعجب ماذا تعني؟ هل تعرف رجلاً باسم بلاندواز.

فردّ السيد بابتست قائلاً وهو يهز رأسه:

- لا.

- لقد كنت تصف بهذه الحركات رجلاً، عندما سمعت هذه الأنشودة. أليس كذلك؟

فأومأ السيد بابتست خمسين مرة وقال:

- أجل.

- ألا يسمى بلاندواز؟

فقال السيد بابتست:

- لا. آلترو، آلترو، آلترو.

وكان يحاول أن ينكر هذا الاسم بكل ما يسعه من تأكيد بحركات سبابته اليمنى.

وصاح كلينام وهو يبسط على سطح مكتبه النشرة البوليسية اليدوية:

- انتظر! أهذا هو الرجل؟ هل تفهم ما أقرؤه بصوت مسموع؟

- أجل، تماماً!

- ولكن انظر إلى الكلمات أيضاً، تعال وانظر إليها وأنا أقرؤها.

واقترب السيد بابتست وراح يتبع بنظراته السريعة الكلمات، فرأى وسمع كل ما ورد بالنشرة في صبر شديد، ثم إذا هو يقبض على النشرة بيده كأنما قد أمسك بمخلوق لعين، ثم هتف وهو ينظر بلهفة إلى كلينام:

- إنه الرجل، انظر إليه.

فقال كلينام بانفعال شديد:

- إن هذه اللحظة بالنسبة إليّ أعظم كثيراً مما يخطر ببالك. أخبرني أين عرفت هذا الرجل.

فأطلق السيد بابتست النشرة من يده ببطء وتخاذل شديد، ثم تراجع إلى الوراء خطوة أو خطوتين، وبدا كأنه ينفض يديه من غبار، ثم رد قائلاً في لهجة الذي يتحدث رغماً منه:

- في مراسيل.. مارسيليا.

- وماذا تعرف عنه؟

- كان سجيناً. و.. آلترو.. نعم أعتقد هذا.. كان..

ثم اقترب السيد بابتست بهدوء وأردف هامساً:

- قاتلاً.

وتراجع كلينام إلى الوراء وكأنما أصابته الكلمة بضربة شديدة. ولشد ما بدت وهو يفكر في اتصال أمه بهذا الرجل. وركع كافالليتو على ركبة واحدة وراح يبتهل إليه، بإسراف شديد من الحركات والإيماءات، أن يسمع السبب الذي من أجله اتصل بذلك الرجل.

تحدث بصدق تام عن كيف دخل السجن مع هذا الرجل بسبب تجارة بسيطة غير مشروعة، وكيف أُطلِق سراحه من السجن، وكيف أنه هرب بعيداً عن علاقاته السابقة. وكيف أنه -في حانة تدعى «بريك أوف

داي» على نهر السوان بمدينة شالون- قد أوقِظ من فراشه ليلاً بيد ذلك القاتل نفسه، وكان عندئذ متحلاً اسم لانبير، وذلك رغم أن اسمه كان من قبل ريجود، ثم كيف اقترح ذلك القاتل أن يربط الاثنان نفسيهما ومستقبلهما معاً، وكيف أنه كان يفزع من ذلك الرجل وينفر منه بحيث فرّ منه مع شروق الشمس، وكيف كان يعيش منذ ذلك الحين في فزع من رؤية ذلك القاتل مرة أخرى واشتباه أحد في أنه شريك له. ولما سرد هذا مع التأكيد المعروف في لغته عند نطق كلمة «القاتل» مما جعلها ترن أشد رهبة في سمع كلينام، إذا به يقفز فجأة واقفاً على قدميه، ثم ينقض على النشرة البوليسية مرة أخرى. وبعنف شديد يمكن أن يبدو جنوناً لرجل من أهل الشمال. وصاح:

- انظر إلى ذلك القاتل! ها هو ذا.

وكان في انفعالاته العنيفة قد نسي في أول الأمر أنه رأى منذ عهد قريب ذلك القاتل في لندن. فلما تذكر هذا وذكره لكلينام أثار في نفسه الأمل في أن تكون هذه الرؤية قد تمت في يوم بعد ليلة زيارة الرجل لمنزل أمه. وكان كافالليتو واثقاً من اليوم والمكان بحيث لم يترك أي مجال للشك في أن هذه الرؤية قد تمت في وقت سابق على هذه الزيارة.

وقال آرثر بلهجة جادة جداً:

- اسمع. إن هذا الرجل، كما قرأنا هنا، قد اختفى تماماً.

فقال كافالليتو وهو يرفع عينيه في ضراعة:

- لشد ما أنا راضٍ عن هذا. حمداً لله ألف مرة، واللعنة على ذلك القاتل.

فردّ كلينام قائلاً:

- لا. ليس الأمر كما تظن. فما لم أعرف المزيد عن هذا الرجل، فلن أستطيع أن أعرف لحظة هدوء قط.

- كفى يا سيدي الكريم. إن هذا أمر آخر، ومليون معذرة.

فقال كلينام وهو يديره برفق من ذراعه حتى أصبح كل منهما ينظر في عيني الآخر:

- اسمع يا كافالليتو. إنك مقابل الخدمات البسيطة التي قدمتها لك تعتبر أشد الناس عرفاناً بالجميل.

فصاح الآخر قائلاً:

- إنني أقسم على هذا.

- أنا أعرف هذا، فإذا أمكنك أن تعرف مكان هذا الرجل، أو تكتشف ماذا حدث له، أو تعرف أية معلومات عنه، فإنك ستقدم إليّ خدمة أعظم من أية خدمة يمكن أن يقدمه إليّ أحد في العالم، وسوف تجعلني -بحق- مديناً لك مثل ما أنت مدين لي.

فصاح الرجل الضئيل وهو يقبّل يد آرثر في نشوة انفعاله:

- إنني لا أعرف أين أبحث عنه، ولا أعرف من أين أبدأ، ولا أعرف إلى أين أذهب، ولكن تشجع، كفى! فإن هذا لا يهم! إنني ذاهب للبحث عنه منذ هذه اللحظة!

- حذار أن تلفظ بكلمة لأحد غيري يا كافالليتو.

- آلترو.

صاح بها كافالليتو، وانصرف بسرعة بالغة.

* * *

وعد مشروط لأحلام آفري



حينما تُرِك كلينام بمفرده، بعد انصراف السيد بابتست، أو على الأصح، جيوفاني بابتستا كافالليتو، الذي ظلت حركاته ونظراته المعبرة باقية بوضوح في ذهن كلينام، بدأ يوماً كله بالإرهاق والتعب. لقد حاول عبثاً أن يركز انتباهه، بتحويل ذهنه إلى الشؤون العملية أو إلى تسلسل فكري. ولكن أفكاره أبت إلا أن ترسو على هذا الموضوع المزعج دون أن تتزحزح عنه إلى أي موضوع آخر. وكما أن المجرم المقيد إلى قارب ثابت في مياه نهر عميقة صافية، حُكِم عليه، مهما تكن كميات الماء الهائلة التي تمر به، أن يرى دائماً جثة زميله في الإنسانية الذي أغرقه راقدة في القاع، لا تريم، ولا تتغير إلا بما تحدثه فيها الدوامات، فتبدو عريضة حيناً أو طويلة حيناً، متضخمة آناً أو متقلصة آناً آخر، فكذلك الحال مع آرثر، إذ كان لا يرى تحت التيارات البطيئة لأفكاره الشفافة وأخيلته التي كانت تتلاحق، إلا شبح موضوع واحد. لا يريم في الظلام، ولا يستطيع رغم كل محاولاته أن يتحرر منه أو يهرب بعيداً عنه.

وكان اليقين الذي امتلأت به نفسه أخيراً بأن بلاندواز، أياً كان اسمه الحقيقي، من أسوأ الشخصيات، قد زاد من شعوره بالقلق. ورغم أن أمر اختفائه سوف يعرف سرّه في الغد، إلا أنه سيبقى على الدوام، وبلا تغيير الحقيقة القائلة بأنه كان ثمة صلات بين أمه وبين مثل هذا الرجل.

وأنه كان لهذه الصلات طابع السرية، وأنها كانت خاضعة له، وخائفة منه، إلا أن كليتام كان يرجو أن تبقى هذه الحقائق الأخيرة غير معروفة لأحد غيره؛ ولكنه، وقد عرفها، كيف يستطيع أن يفصلها عن هواجسه القديمة، وكيف يؤمن أن هذه الصلات لا تنطوي على شر!!

ومما زاد إحساسه بالعجز، إصرارها على عدم التحدث معه في هذا الموضوع. وإدراكه لما في طبيعتها من صلابة وعناد. وخيل إليه أنه يعيش في كابوس مزعج وهو يعتقد أن ذلك العار، وتلك الفضيحة تهددانها وتهددان ذكرى والده. ومع ذلك يجد نفسه عاجزاً، كأنما أُغلِق عليه جدار حديدي أصم عن المبادرة إلى عونها. إن الهدف الذي جاء به إلى وطنه، والذي ظل نصب عينيه منذ ذلك الحين، تحطم على يدي أمه بسبب إصرارها العنيف. وذلك في نفس الوقت الذي كان يشعر فيه، دون أي وقت آخر، بقوة هذا الهدف. إن كل ما بذله في هذا السبيل من نصيحة وطاقة ونشاط ومال ونفوذ، وكل ما لديه من موارد أياً كانت، ذهب على غير جدوى. ولو أنها كانت مزودة بتلك القوى الأسطورية التي تحوِّل كل من تنظر إليهم إلى صخور، لما أمكنها أن تعجزه تماماً أكثر مما فعلت، هكذا خُيِّل إليه وهو في غمرة أفكاره الحزينة، عندما حولت وجهها الصارم نحو وجهه داخل غرفته الكئيبة.

ولكن ضوءاً ما اكتشفه في ذلك اليوم، وتألق هذا الضوء على تلك العبارات، أثار حميته لكي يتخذ موقفاً أشد حزماً وقوة، ومن ثم قرر، وهو مسلح بقوة هذه العزيمة، ومدفوع بالخوف من الخطر المحدق، أن يلجأ مستميتاً إلى آفري إذا أبت عليه أمه طريقاً آخر. فلو أنه استطاع أن يجعل آفري تستجيب له، وأن تبذل ما في وسعها لتحطيم هذا النطاق الخفي المحيط بالمنزل، فإنه قد يتمكن من التحرر من هذه الآلام الذهنية العتيقة التي كانت تشل تفكيره ساعة بعد أخرى. كانت هذه نتيجة

إحساسه الشديد بالقلق في ذلك اليوم. وكان هذا هو القرار الذي اتخذه في نهاية ذلك اليوم.

ولكنه واجه، عند وصوله إلى البيت، أول خيبة أمل حين رأى الباب مفتوحاً والسيد فلنتونش جالساً على السلم يدخن تبغه. ولكن لو كانت الظروف مواتية له لفتحت السيدة آفري له الباب -كالمعتاد- حين طرق عليه، ولكن بما أن الظروف لم تكن مواتية -على غير العادة- فقد وجد الباب مفتوحاً والسيد فلنتونش جالساً على السلم يدخن تبغه.

قال له آرثر:



- طاب مساؤك.

فقال السيد فلنتونش:

- طاب مساؤك.

وانساب الدخان متعرجاً من فم السيد فلنتونش، وكأنها قد دار داخل كل جسمه المنحني، ثم عاد ليصعد من حلقه الملتوي، قبل أن ينطلق ويمتزج بالدخان المتصاعد من المداخن الملتوية، ومع الضباب الصاعد من النهر المتعرج.

وقال آرثر:

- ألديك أية أنباء؟

فقال أرميا:

- ليست لدينا أية أنباء.

فقال آرثر موضحاً:

- أعني الرجل الأجنبي.

وردّ أرميا:

- وأنا أعني الرجل الأجنبي.

وكان يبدو شديد الجهامة وهو واقف بانحناء وميل، وعقدة ربطة عنقه تحت أذنه، بحيث خطر ببال كليناﻡ هذا السؤال، ولم تكن تلك أول مرة يخطر هذا بباله، هل يمكن أن يكون فلنتونش، لغرض خاص، قد تخص من بلاندواز؟ هل يمكن أن تكون أسراره، وأسباب أمنه، هي المعرضة للخطر؟ لقد كان ضئيل الجرم، منحنياً، وربما لا يتمتع بقوة بدنية كبيرة، إلا أنه كان صلباً كشجرة الزرنب[1] القديمة وخشناً كغراب القاق[2]. مثل هذا الرجل إذا تسلل وراء رجل أصغر سناً منه بكثير، وأشد قوة، وقد عقد العزم على القضاء عليه بلا رحمة، فمن المرجح أن يفعل هذا؛ لا سيما في مكان موحش كهذا، وفي ساعة متأخرة كهذه.

وفيما كان مستغرقاً في هذه الأفكار الجهمة، وهي الأفكار التي طفت فوق الفكرة الأساسية التي تستقر دائماً في ذهنه، أخذ السيد فلنتونش يرسل نظراته فوق البوابة متطلعاً إلى البيت المقابل، بعنقه الملتوي، وإحدى عينيه مغمضة، وعلى وجهه أمارات عنيفة وهو واقف يدخن، وكأنما كان يريد أن يقضم مبسم التبغ أكثر مما يستمتع بالتدخين، ومع ذلك كان مستمتعاً به على طريقته الخاصة.

وقال السيد فلنتونش بجفاء وهو ينحني لينفض رماد تبغه:

- أعتقد يا آرثر أنه ينبغي أن تعرف حقيقة شكلي عندما تأتي للزيارة في المرة التالية.

---

(1) Yew - Tree

(2) Jackdaw «غراب الزرع».

وبإحساس عميق بالارتباك، اعتذر آرثر إليه إن كان قد حملق فيه بطريقة غير مهذبة، ثم قال:

- إن كثرة تفكيري في هذا الأمر تجعلني أنسى نفسي.

فردّ السيد فلنتونش بكل تؤدة:

- هاه! ومع ذلك فأنا لا أدري لماذا يزعجك هذا الأمر يا آرثر!

- ألا تدري؟

- لا.

قالها السيد فلنتونش بصوت باتر حاسم، وكأنما هو من فصيلة ذوات المخلب والناب فراح من ثم يحاول قضم يد آرثر الذي قال:

- ألا يهمني أن أرى هذه النشرات البوليسية في كل مكان؟ ألا يهمني أن أرى اسم أمي وعنوانها يترددان على الألسنة لعلاقتهما بمثل هذا الأمر.

فقال السيد فلنتونش وهو يهرش خده المتحجر؟

- إنني لا أرى في هذا كله ما يزعجك إلى هذا الحد. ولكنني سأقول لك ماذا أرى الآن...

ثم تطلع إلى نوافذ البيت وأردف قائلاً:

- إنني أرى ضوء القنديل ونيران المدفأة في غرفة والدتك.

- وما علاقة هذا بالأمر؟

فقال السيد فلنتونش وهو يلتوي ليحملق في وجهه:

- عجباً يا سيدي! إنني أقرأ على هذا الضوء أنه إذا كان من الحكمة -كما يقول المثل السائر- أن تدع الكلاب الراقدة، في رقدتها، فربما

كان من الحكمة أيضاً أن تدع الكلاب المفقودة؛ في مكانها. لندعها في مكانها فإنها عادة لن تلبث أن تظهر بأسرع مما تظن.

واستدار السيد فلتونش بسرعة، بعد أن أدلى بهذه الملاحظة، ودخل إلى الصالة المعتمة، ووقف كلينام في مكانه، يتعقبه بنظراته وهو يختفي في الغرفة الصغيرة الجانبية ليشعل عود ثقاب من صندوق الأعواد، واستطاع أن يشعل واحداً منها بعد ثلاث أو أربع محاولات، وأن يضيء مصباحاً خابياً متعلقاً بالجدار. وخلال هذا، كان كلينام يستعرض الاحتمالات -التي بدا كأنما ثمة يد خفية تبرزها له، وليس هو الذي يديرها في ذهنه- في أن السيد فلنتونش قد ارتكب ذلك الجرم بوسائله وطرقه الخفية، وأنه أزال كل آثار فعلته عن طريق كل هذه الممرات المظلمة والظلال الجاثمة حولها.

وقال ذلك النكد أرميا:

- والآن يا سيدي، هل تحب أن تصعد إلى الدور العلوي؟

- أعتقد أن أمي بمفردها!

فقال السيد فلتونش:

- لا، ليست بمفردها. إن السيد كاسبي وابنته معها. لقد جاءا وأنا أدخن، ومن ثم بقيت في مكاني حتى أفرغ من التدخين.

وكانت هذه خيبة الأمل الثانية. ولكن آرثر لم يعلق عليها، وإنما مضى إلى غرفة أمه حيث وجد السيد كاسبي وابنته فلورا يشربان الشاي ويتناولان فطائر الأنشوجة مع الخبز المحمر الساخن والزبدة. ولم تكن بقايا هذا الطعام الخفيف قد أزيلت بعد سواء من فوق المائدة أو من على وجه آفري الملسوع، التي كانت تبدو، وشوكة التحمير لا تزال في يدها، كنوع من الشخصيات المجازية، إلا أنه كان لها ميزة كبيرة عن سائر هذه الشخصيات بما يبدو عليها أنها تحتفظ في ذات نفسها بهدف معين.

وكانت فلورا قد وضعت قبعتها وبسطت مطرفها على الفراش بعناية تدل على نيتها للبقاء فترة غير قصيرة. وكذلك كان السيد كاسبي يبدو مشرقاً بجوار المسخنة وقد تألقت عجراته[1] السمحة وكأنما الخبز المحمر والزبدة الساخن قد سال داخل جمجمته البطريركية، وبوجه شديد الاحمرار وكأنما فطائر الأنشودة الحمراء قد كست وجهه البطريركي. ولما رأى كلينام هذا، وهو يتبادل معهما التحية المعتادة، قرر أن يتحدث مع أمه بلا تأجيل.

وكان المعتاد منذ أمد بعيد، بحكم بقائها دائماً في الغرفة حتى مع الذين يريدون محادثتها على انفراد، أن تدفع بمقعدها المتحرك إلى مكتبها، حيث كانت تجلس وظهرها عادة نحو بقية الغرفة، ويجلس المتحدث معها على مقعد في الركن، موضوع دائماً في هذا المكان لهذا الغرض. ولكن لما كانت قد مضت مدة طويلة تحدث فيها الابن مع أمه مرات كثيرة دون وجود شخص ثالث في الغرفة، فقد كان طبيعياً بالنسبة لزوار السيدة كلينام أن يطلب من الضيوف الإذن -مع كلمة اعتذار- لكي يسمح لها بالحديث مع ابنها على انفراد، في شأن من شؤون العمل. فإذا وافقت مبدئياً، دفعت بالمقعد إلى الموضع المذكور.

فلما قدم آرثر -من ثم- هذا الاعتذار، ونالَ الإذن، مضى بأمه إلى مكتبها، وجلس على المقعد المخصص. وراحت السيدة فنشنج -فلورا- تتحدث بصوت أسرع وأعلى، كأنما تلح بطريقة رقيقة أنها لن تستطيع أن تسمع شيئاً، بينما أخذ السيد كاسبي يمسح على خصلات شعره البيضاء الطويلة في خمول وهدوء.

---

(1) الأجزاء البارزة المستديرة في وجهه.

- لقد سمعت يا أماه اليوم شيئاً أعتقد أنك لا تعرفينه، وأرى أنه ينبغي أن تعرفيه، وهو يتعلق بماضي ذلك الرجل الذي رأيته هنا.

- إنني لا أعرف شيئاً عن ماضي ذلك الرجل الذي رأيته هنا يا آرثر.

وكانت تتحدث بصوت مرتفع، بينما أخفضَ هو صوته، ولكنها رفضت هذا التلميح المنطوي على الرغبة في جعل الحديث سراً بينهما، كما اعتادت أن ترفض كل شيء، ومضت في حديثها بنفس لهجتها العادية المرتفعة وبنفس صوتها العادي الحازم.

- إنني لم أتلقَّ هذه المعلومات عن طريق التحريات، وإنما عرفتها مباشرة.

فسألته، كما فعلت تماماً من قبل، ما إذا كان قد جاء ليخبرها بهذه المعلومات.

فقال:

- خطر لي أن من حقك أن تعرفيها.

- وما هي؟

- كان سجيناً في سجن فرنسي.

فقالت بكل هدوء:

- أعتقد أن هذا أمر محتمل جداً.

- ولكنه كان في سجن المجرمين يا أماه، متهماً بالقتل.

وأجفلت عند سماعها هذه الكلمة، وارتسم الرعب الطبيعي على وجهها، ومع ذلك كان صوتها عالياً وهي تسأل قائلة:

- من قال لك هذا؟

- رجل كان زميلاً له في السجن.

- أعتقد أن ماضي هذا الرجل كان غير معروف لديك قبل أن يخبرك بذلك.

- نعم، لم أكن أعرفه.

- وذلك رغم أنك كنت تعرف هذا الرجل نفسه.

- أجل.

- هذا نفس ما حدث معي ومع السيد فلنتونش عن طريق هذا الرجل، وذلك رغم أن الحالتين غير متشابهتين تماماً، فلعل مرشدك قد تعرف عليك بوساطة خطاب من عميل لك كان يودع عنده بعض المال؟ فما رأيك؟

ولم يجد آرثر بداً من أن يقول إن مرشده لم يتعرف عليه عن طريق أي عميل كهذا، بل إنه لم يتقدم إليه بأية خطابات توصية أو تزكية. وعندئذ تحولت نظرات انتباه السيدة كلينام المتجهمة إلى نظرات من الانتصار القاسية، ثم ردت بعنف:

- كن على حذر في حكمك على غيرك إذن. أقول لك يا آرثر، لصالحك، أن تحذر في حكمك على غيرك.

وكانت تأكيداتها تبدو في عينيها تماماً كما كانت ترن في كلماتها، واستمرت تحدق النظر إليه. ومن ثم شعر أنه إذا كان قد خامره أي أمل عند دخوله البيت في أنها سوف تتجاوب معه، فقد شعر أن ذلك الأمل ذاب من قلبه تماماً أمام نظراتها.

- أماه، أليس في مقدوري أن أفعل شيئاً لمساعدتك؟

- لا شيء.

- ألا تضعين في شخصي أية ثقة؟ ألا تعهدين إليّ بأي شيء؟ ألا توضحين لي شيئاً؟ ألا تبادلين معي الرأي؟ ألا تسمحين لي بالمزيد من التقارب؟

- كيف تطلب هذا مني، وقد فصلت نفسك عن شؤوني؟ إن ما حدث ليس من تصرفي وإنما من تصرفك أنت. كيف تستطيع أن توجه هذا السؤال إليّ بمثل هذا الإلحاح وأنت تعرف أنك تركتني بين يدي فلنتونش، وقد احتل هو مكانتك.

ولما نظر كلينام إلى أرميا، رأى من وضع حذائه ذي الجرموق، أنه كان ينصت إليهما بانتباه شديد، وذلك رغم أنه كان معتمداً في وقفته على جدار الغرفة، يهرش فكه، ويتظاهر بالإنصات إلى فلورا وهي تندفع بطريقتها المهوشة في الحديث متناولة حشداً من الموضوعات التي امتزجت فيها أسماك المقريل وعمة السيد «ف» بالجعال[1] الأوروبية بتجارة الخمور.

وقالت السيدة كلينام مكررة ببطء ما قاله ابنها:

- سجين في سجن فرنسي بتهمة القتل. أهذا كل ما تعرفه عن ذلك الرجل.

- نعم، كله.

- وهل كان زميله في السجن شريكاً له في جريمة القتل أيضاً؟ ولكنه، طبعاً، أحسن الحديث عن نفسه أكثر مما فعل عن صاحبه؛ وذلك شيء بديهي، ولا شك أن هذا سيتيح للموجودين هنا موضوعاً جديداً يحدثون عنه. كاسبي، إن آرثر يقول لي...

---

(1) جمع جعل أوروبي Cockehafers.

فقاطعها بسرعة لأنه لم يظن لحظة أنها سوف تعلن على الملأ ما قاله لها:

- مهلاً يا أماه. مهلاً.. مهلاً.

فسألته في ضيق قائلة:

- ماذا بعد؟ ألديك المزيد؟

- إنني أرجوك المعذرة يا سيد كاسبي، وأنت يا سيدة فنشنج، لحظة واحدة أخرى مع والدتي...

وكان قد وضع يده على مقعدها، ولولا هذا لاستدارت به بعد أن تدفعه بلمسة من قدمها على الأرض، وكانا لا يزالان وجهاً لوجه، فراحت تنظر إليه وهو يستعرض في ذهنه الاحتمالات المترتبة على بعض نتائج لم يكن يقصدها، ولم يكن في مقدوره أن يتنبأ بها، إذا حدث وأصبح ما قاله له كافالليتو معروفاً للجميع، ومن ثَمَّ قرر بسرعة أنه من الأفضل عدم إذاعة هذا الأمر، وذلك على رغم الاحتمال بأنه كان مدفوعاً إلى هذا بسبب واضح، وهو ظنه السابق بأن والدته، بديهياً، سوف تحتفظ بهذه الحقائق لنفسها ولشريكها.

وعادت والدته تقول بضيق:

- ماذا بعد؟ ماذا حدث؟

- إنني لم أكن أعني يا أماه أن تذيعي ما قلته لك. يحسن ألا تفعلي هذا.

- هل تشترط هذا معي؟

- أجل.

فقالت أمه وهي ترفع يدها:

- لاحظ إذن أنك أنت الذي تجعل الأمر سراً، ولست أنا، إنك أنت يا آرثر الذي تثير هنا ألوان الشكوك والارتياب ثم تروح ترجو

الإيضاح والإجابة؟ إنك أنت يا آرثر الذي تأتي بالأسرار هنا. ما شأني أنا بذلك الرجل حيث كان، وحيث ذهب؟ ماذا يمكن أن تكون علاقة هذا كله بي؟ ليعرف العالم كله هذا، إذا أراد أن يعرف، فإن هذا لا يهمني في شيء. والآن دعني أنصرف.

وخضع لنظرتها الآمرة، المزهوة في الوقت نفسه، وعاد بها إلى مكانها الأول الذي أخذها منه، وفيما كان يفعل هذا، رأى نفس هذه النظرة المزهوة على وجه السيد فلنتونش، وهي نظرة لم تنبع، ولا شك، من حديث فلورا معه. وكان انقلاب معلوماته وكل محاولاته وتصميماته قد زادت -أكثر مما فعل عناد أمه وإصرارها- يقينه بأن كل جهد يُبذَل معها لا جدوى منه. ومن ثم لم يبقَ أمامه إلا الالتجاء إلى صاحبته آفري.

ولكن بدا له أن مجرد الوصول إلى المرحلة التمهيدية، غير المضمونة، لهذا الالتجاء، سوف يكون فوق طاقة البشر. ذلك لأنه قد بلغ من خضوعها لنفوذ هذين الاثنين البارعين، ومن وضعها الدائم تحت رقابة أحدهما، سواء كان هذا أم تلك، ومن خوفها في التجول بأنحاء المنزل بمفردها، أن أية فرصة للتحدث معها على انفراد تبدو مستحيلة، وفوق هذا كله، كانت السيدة آفري على نحوٍ ما -ولم يكن من العسير معرفة هذا من طريقة حديث سيدها وزوجها العنيفة معها- قد آمنت تماماً بأن خير ما ينبغي أن تفعل هو ألا تقول شيئاً أياً كانت الظروف، ومن ثم بقيت خلال هذه الفترة كلها جالسة في الركن، مسلحة ضد كل من يقترب منها بشوكة التحمير، وهكذا كانت تطوح بعيداً بنفس هذه الشوكة بكل كلمة توجَّه إليها من فلورا، أو من تلك القارورة البطريركية الخضراء، المسماة السيد كاسبي. وكأنها في هذا الوضع امرأة فاقدة السمع.

وبعد محاولات كثيرة فاشلة للفت نظر آفري إليه وهي ترفع عن المائدة أدوات الشاي وتغسلها، خطرت ببال كلينام حيلة رأى أن يستغل فلورا في تدبيرها، فقال لها هامساً:

– هل يمكن أن تقولي إنك تريدين التجول في أنحاء المنزل؟!

ولما كانت المسكينة فلورا تعيش في حالة انتظار ملتهب للوقت الذي قد يعيد فيه كلينام عهد الصبا ويعود إلى حبها بجنون، فقد تلقت همساته بأعظم ابتهاج، وليس ذلك فقط لأنه أسمعها هذه الهمسات بطريقة خفية، وإنما باعتبارها تمهيداً للقاء خاص رقيق يعلن فيه عن حرارة عواطفه. ومن ثم بدأت فوراً في العمل على تنفيذ رغبته.

قالت وهي تتلفت حولها:

– آه، يا لهذه الغرفة القديمة الكئيبة، لشد ما أتأثر يا سيدة كلينام إذ أراها كما كانت دائماً، فيما عدا أنها ازداد أكثر تغلفاً بالضباب والعتمة، وهذا ما لا بد منه بفعل الزمن وما لا بد أن نتوقعه ونروِّض أنفسنا عليه سواء رضينا به أم لا، وهو ما أنا واثقة تماماً أني أفعله، وإذا لم تكن مغلفة بالضباب فهي تبدو أشد جهامة وهو نفس الشيء أو أسوأ، إن الإنسان حين يتذكر تلك الأيام التي كان أبي قد اعتاد أن يصحبني فيها إلى هنا وكنتُ مجرد فتاة مفعمة بالخجل، ومن ثم كنت ألتصق بالمقعد وقدماي متشبثتان بحاجزه الدائري الأسفل، وعيناي مركزتان على آرثر –معذرةً سيد كلينام– وكان غلاماً يرتدي أبشع الأثواب الموشية والسترات وذلك قبل أن يظهر السيد «ف» كضباب متجمع في أفق حياتي ليقدم إليّ عواطفه مثل الطيف المشهور في مكان ما بألمانيا والذي يبدأ اسمه بالحرف «باء» أقول لو أن الإنسان يتذكر هذا لتعلم درساً أخلاقياً مؤداه أن جميع الطرق في الحياة شبيهة بالطرق الموجودة في شمال إنكلترا حيث يحصلون على الفحم ويصنعون الحديد وغيره ممزوجاً بالرماد.

وبعد أن أرسلت آهة عميقة تعبر بها عن أساها لعدم استقرار الحياة البشرية، أسرعت فلورا لتحقيق غرضها، فاستطردت قائلة:

- ولم يكن هذا في كل حين، فإن أشد الأعداء كان يستطيع القول إنه بيت يشيع فيه المرح، لأنه لم يكن معدّاً قط إلا ليكون شديد المهابة في النفس، وإن الذكريات الطيبة تذكرني بمناسبة حدثت قبل أن تنضج القدرة على الحكم، وذلك عندما أخذني آرثر -اللعنة على هذه العادة- أعني السيد كلينام، إلى مطبخ مهجور كان أصلح ما يكون لصب القوالب واقترح أن يخفيني فيه مدى الحياة على أن يطعمني مما يستطيع أن يستقطعه ويخفيه من وجبات طعامه عندما يكون في البيت في أثناء العطلات المدرسية، وعلى الخبز الجاف، عند الضرورة، وكثيراً ما حدث هذا في تلك الفترة الهانئة، فهل يليق، أو لعلي أطلب أكثر مما ينبغي، أن أرجو السماح لي بإحياء تلك الذكريات والتجول في أنحاء المنزل.

واستجابت السيدة كلينام، في رقّة اضطرارية، قائلة إن مجرد زيارة السيدة فنشنج لها دليل على طيبة قلبها، لأن هذه الزيارة ولا شك -قبل حضور آرثر فجأة وعلى غير انتظار- كانت دليلاً خالصاً على طيبة القلب الخالية من كل أنانية أو رغبة ذاتية، ثم أردفت بعد هذا قائلة إن البيت مفتوح أمامها، فنهضت فلورا ونظرت إلى آرثر لكي يصحبها. فقال بصوت مرتفع:

- بكل تأكيد.. ويمكنني القول إن آفري ستضيء لنا الطريق.

وفيما كانت آفري تعتذر قائلة:

- لا تطلب مني شيئاً يا آرثر!

قاطعها زوجها السيد فلنتونش قائلاً:

- لماذا لا يا آفري؟ ماذا دهاك أيتها المرأة؟ لماذا لا أيتها المتمردة؟

وبعد أن وُبِّخت على هذا النحو، خرجت مرغمة من ركنها، وسلّمت شوكة التحمير ليد زوجها، وتناولت من الأخرى القنديل الذي قدمه لها قائلاً:

– امضي أمامهما أيتها الحمقاء. هل ستمضيان إلى فوق أم إلى تحت يا سيدة فنشنج؟

فأجابت فلورا قائلة:

– إلى تحت.

فقال أرميا:

– إذن تقدميهما. إلى تحت يا آفري. وأحسني السلوك، وإلا اندفعت هابطاً على الدرابزين وحططت فوقك.

وتقدمت آفري بعثة الاكتشاف، وسار أرميا في المؤخرة. ذلك أنه لم يكن في نيته أن يترك البعثة لنفسها. ولما التفت كلينام وراءه، ورآه يتبعهم على مسافة ثلاثة درجات بكل هدوء وثبات، هتف قائلاً في صوت خافت لفلورا:

– ألا من سبيل للتخلص منه؟

فطمأنته فلورا قائلة بسرعة:

– لماذا لا وإن كان هذا لا يليق تماماً يا آرثر وهو شيء لم يكن يخطر ببالي أمام رجل أصغر سناً أو غريب عنا. ومع ذلك فأنا لا يهمني أمره إذا كنت أنت شديد الرغبة في ذلك بشرط أن تتكرم ولا تضغط عليّ بشدة.

ولم يجرؤ آرثر أن يقول لها إن الأمر ليس مطلقاً كما تظن، ومن ثم مدّ ذراعه ولفه حول خصرها ليعاونها على الهبوط.

وقالت له:

– ويحي، إنك مطيع جداً، حقاً، وهذا دليل أكيد على أنك إنسان كريم شريف، ولكنني مع هذا واثقة في الوقت نفسه أنك إذا ضغطت عليّ قليلاً، فلن أعتبر هذا أمراً غير لائق.

وعلى هذا النحو المزعج، الذي كان أبعد شيء عما في ذهن كلينام، هبط الاثنان إلى الطابق السفلي. وكانت فلورا خلال هذا تزداد ثقلاً عليه كلما ازدادت الظلمة في بعض الأماكن، وتخف عندما يخف الظلام!

وبعد العودة من نواحي المطبخ المزعج، وكانت نواحي أشد ما تكون وحشة وكآبة، تقدمتهم السيدة آفري بالقنديل إلى غرفة والد آرثر القديمة. ومنها إلى غرفة الطعام، وكانت -أي آفري- تمضي دائماً في المقدمة كالشبح الذي لا يمكن اللحاق به، كما كانت لا تلتفت وراءها، ولا تجيب على آرثر وهو يهمس لها:

- آفري، أريد أن أتحدث معك.

وفي غرفة الطعام، استبدت بفلورا رغبة عاطفية للدخول في الخزانة الضخمة التي طالما اختبأ فيها آرثر في طفولته، وكان هدفها المرجح من هذه الرغبة أن تزداد ثقلاً على ذراعه لازدياد الظلام داخل الخزانة. ولما كان آرثر قد راح يستسلم لليأس بسرعة، فقد فتحها، وعندئذ سمع الجميع طرقاً على الباب الخارجي للمنزل.

وكتمت السيدة آفري صحية خوف، وألقت بطرف مريلتها فوق رأسها مما جعل السيد فلنتونش يقول لها:

- ما هذا؟ إنك في حاجة إلى جرعة مهدئة أخرى. لسوف تأخذينها يا امرأتي، ولسوف تكون جرعة كبيرة. أوه، لسوف أعطيك نشوقاً للعطس، سوف أعطيك أمرّ دواء.

وهنا قال آرثر:

- وإلى أن يتم هذا، ألن يفتح أحد الباب؟

- إلى أن يتم هذا سوف أمضي لفتح الباب يا سيدي.

قال الرجل العجوز هذا بعنف ليوضح تماماً أنه لا يسعه في هذا الموقف الحرج إلا أن يمضي وإن كان يفضل لو أنه لا يمضي. وقال:

- امكثوا هنا جميعاً، وأنت يا آفري، يا امرأتي، تحركي خطوة أو الفظي بحماقتك كلمة، وسوف أضاعف جرعتك إلى ثلاثة أمثالها.

وما كاد أن ينصرف حتى تخلص آرثر من فلورا بشيء من الصعوبة، وذلك بسبب سوء فهم هذه السيدة لأغراضه؛ ومحاولاتها من ثم لكي يزيد عناقه لها بدلاً من التخلص منها.

- آفري. حدثيني الآن!

فصاحت وهي تتراجع عنه:

- لا تلمسني يا آرثر! لا تقترب مني. لسوف يراك. سيراك أرميا. حذار.

فقال آرثر وهو يتبع القول بالعمل:

- إنه لن يراني إذا أطفأت القنديل.

فهتفت آفري قائلة:

- لسوف يسمعك.

فقال آرثر وهو يتبع القول بالعمل مرة أخرى:

- ولن يستطيع أن يسمعني إذا أنا أخذتك إلى هذه الخزانة المظلمة وتحدثت معك فيها. لماذا تخفين وجهك هكذا؟

- لأني خائفة من رؤية شيء ما.

- لا يمكن أن تخافي من رؤية شيء في مثل هذا الظلام يا آفري.

- بل أخاف. أخاف أكثر مما لو كان الضوء موجوداً.

- وما سبب خوفك؟

- لأن البيت مليء بالغموض والأسرار.. لأنه مليء بالهمسات والمحادثات.. لأنه مليء بالأصوات. لا يوجد قط بيت مليء بالأصوات كهذا. ولسوف أموت خوفاً منها إذا لم يسبق أرميا ويخنقني كما أتوقع أن يفعل.

- إنني لم أسمع قط أصواتاً هنا تستحق التنويه بها.

فقالت آفري:

- ولكنك سوف تفعل، مع ذلك، إذا عشت في هذا البيت، واضطررت لأن تجوس خلاله مثلي. وعندئذ ستشعر أنها جديرة بالتنويه عنها بحيث تحس أنك ستنفجر لأنك عاجز عن الحديث عنها. ها هو ذا أرميا لسوف يقتلني.

- يا عزيزتي آفري، أؤكد لك جاداً أني أستطيع رؤية الضوء في باب المنزل الخارجي، ويمكنك أن تريه أيضاً إذا كشفت وجهك ونظرت.

فقالت آفري:

- إنني لا أستطيع. إنني لا أستطيع قط يا آرثر؟ إنني دائماً أحجب الرؤيا عن عيني عندما لا يكون أرميا معي، وحتى عندما يكون معي أحياناً.

فقال آرثر:

- إنه لا يستطيع أن يغلق الباب دون أن أراه. إنك في أمان معي وكأنما هو على مسافة خمسين ميلاً عنك.

وصاحت آفري:

- لشد ما أتمنى هذا.

- آفري. أريد أن أعرف ماذا يجري هنا؟ أريد أن تلقي بعض الضوء على الأسرار الكامنة في هذا البيت..

فقاطعته آفري قائلة:

- سأخبرك يا آرثر. إن الأصوات هي الأسرار.. إنها تتسلل في أنحاء البيت بالحفيف والارتعادات، وأسمع خطوها فوقي وتحتي.

- ولكنها ليست كل الأسرار.

فقالت آفري:

- إنني لا أعلم. ولا تسألني أكثر من هذا، فإن حبيبتك القديمة ليست بعيدة عنا، وهي ثرثارة كبيرة.

وكانت حبيبته القديمة في الواقع جد قريبة منه، بحيث كانت معتمدة عليه في هيئة عاطفية، وبميل يمكن تقديره مادياً بخمس وأربعين درجة، وقد تدخلت في الحديث عندئذ لكي تؤكد لآفري بلهجة فيها من الحماسة أكثر مما فيها من التأكيد أن ما تسمعه لن يبلغ آذان أحد، وأنها ستحتفظ به سراً.

- ولو من أجل آرثر.. معذرة، فقد أَلِفْتُ هذا الاسم أكثر من دويس وكلينام.

- إنني أبتهل إليك يا آفري، إليك أنت التي أعتبرك من بين الذكريات الطيبة القليلة التي أعتز بها، ومن أجل والدتي، ومن أجل زوجك، ومن أجلك أنت، من أجلنا جميعاً. إنني واثق أن في مقدورك، إذا شئت، أن تخبريني بشيء يتعلق بذلك الرجل الذي جاء إلى هنا.

فردّت آفري قائلة:

- سوف أخبرك يا آرثر. ولكن أرميا في طريقه إلينا.

- لا. إنه ليس آتٍ حقاً. إن الباب مفتوح، وهو واقف في الخارج يتحدث.

فقالت آفري بعد أن أرهفت السمع:

- سأخبرك إذن. إن المرة الأولى التي جاء فيها إلى هنا، سمع بنفسه هذه الأصوات، وقال لي: «ما هذا؟» فقلت له وأنا أتشبث به «إنني لا أدري..» ولكنني ظللت أسمعها وأسمعها وأنا أتحدث بينما وقف هو يحملق فيّ ويرتعد بشدة. نعم، كان يرتعد.

- هل تردد على هذا البيت كثيراً؟

- لا. لم يأتِ إلا في تلك المرة الأولى، وفي المرة الأخيرة.

- وماذا رأيت منه في الليلة الأخيرة، بعد أن انصرفتُ أنا؟

- لقد انفرد به هذان البارعان فقط، وكان أرميا قد جاء نحوي وهو يترقص في مشيته بعد أن صحبتك إلى الباب الخارجي -وكان دائماً يُقبِل نحوي مترقصاً عندما ينوي أن يؤذيني- ثم قال لي: «اسمعي يا آفري، إنني سأمسك بك أيتها المرأة من الخلف وأقضي عليك». ثم أمسك مؤخرة عنقي واعتصرها بقوة جعلتني أفتح فمي، ثم دفع بي إلى السرير وهو لا يزال يضغط على مؤخرة عنقي، وكان هذا ما يسميه القضاء عليّ. أوه. إنه رجل شرير!

- ألم تسمعي أو تشاهدي شيئاً بعد ذلك؟

- ألم أقل لك يا آرثر إنني دُفِعت إلى السرير! ها هو ذا آت.

- أؤكد لك أنه لا يزال عند الباب. وتلك الهمسات والهمهمات يا آفري التي تحدثت عنها، ما هي؟

- ومن أين لي أن أعرف؟ لا تسألني عنها شيئاً. ابتعد عني!

- ولكن اسمعي يا عزيزتي آفري. إنني إذا لم أنفذ إلى أعماق هذه الأمور الخفية، رغماً عن زوجك، ورغماً عن والدتي، فإن الخراب سيحل بسببها.

فكررت آفري القول:

- لا تسألني عنها شيئاً. إنني أعيش منذ ذلك الحين في حلم. اذهب، اذهب!

فردّ آرثر قائلاً:

- لقد قلت هذا من قبل. لقد نطقت بنفس هذه العبارة في تلك الليلة عند الباب حينما سألتك عما يجري هنا. فماذا تعنين بقولك إنك تعيشين في حلم؟

- إنني لن أخبرك بشيء، اذهب! لا ينبغي أن أخبرك بشيء حتى لو كنت بمفردك، فما بالك وحبيبتك القديمة معك هنا؟

وكان من العبث أن يستمر آرثر في التوسل أو أن تحتج فلورا على السواء. ذلك أن آفري -التي كانت ترتعد وتقاوم طيلة الوقت- أدارت أذناً صماء إلى كل مناشدة، وراحت تبذل جهدها للخروج من الخزانة وهي تقول:

- لسوف أفضل الاستنجاد بأرميا على أن أقول كلمة واحدة أخرى! لسوف أناجيه إذا لم تكف يا آرثر عن الحديث معي. وسأقول لك الآن كلمتي الأخيرة قبل أن أناديه.. إذا استطعت أن تكون لك اليد العليا على هذين الاثنين البارعين -وهذا ما كان ينبغي أن تفعل كما قلت لك عند عودتك في أول الأمر؛ لأنك لم تعش هنا سنوات طويلة وتشعر بالخوف على حياتك مثلي-، عندما تصبح لك اليد العليا عليهما أمامي، فيمكنك عندئذ أن تقول لي: آفري، حدثيني عن أحلامك. ولعلي حينئذ أخبرك بها.

ومنع إغلاق الباب الخارجي آرثر عن الإجابة. ولم يلبث الجميع أن تسللوا إلى الأماكن التي تركهم فيها أرميا، فلما أقبل هذا، تقدم كلينام

إليه وأخبره أن القنديل انطفأ منه رغماً عنه؛ وعندما أعاد السيد فلنتونش إشعاله من المصباح الموجود في الصالة، اتخذ موقف التحفظ الشديد فيما يتعلق بالشخص الذي كان يبادله الحديث بالباب. ولعله أراد أن يخفف من إحساسه الشديد بالحنق الذي أثاره الزائر في نفسه، والذي قد يكون شأنه ما يكون، فإذا هو يجد الوسيلة في رؤيته لزوجته وهي تضع مريلتها على رأسها، فهجم عليها، وأمسك بأنفها المحجوب بإبهامه والسبابة. وبدا أنه يفرغ كل ما في جسمه اللولبي من قوة في تلك القبضة.

أما فلورا، التي أمست ثقيلة بصفة دائمة، فإنها لم تعفِ آرثر من التجوال معها في أنحاء المنزل حتى وصلا إلى غرفة نومه القديمة في العلية. ورغم أن أفكاره كانت مشغولة بشيء آخر غير عملية التجوال، فلم يسعه إلا أن يلاحظ، بوجه خاص، في ذلك الوقت، كما أتيح له أن يتذكر فيما بعد، أن هواء البيت كله كان مكتوماً تماماً، وأنهم كانوا يتركون آثاراً لأقدامهم على طبقة الغبار في الطابق العلوي، وأن بابَ إحدى الغرف قاومهم في الفتح مما جعل آفري تصيح بأن ثمة شخصاً ما يختبئ داخلها، وقد ظلت على إيمانها هذا رغم أنهم لم يجدوا أحداً بالغرفة بعد أن فتشوها ولما عادوا أخيراً إلى غرفة الأم، وجدوها تحجب وجهها بيدها الملفوفة في الأربطة، وتتحدث بصوت خافت إلى البطريرك الواقف أمام المدفأة. وكانت عيناه الزرقاوان، ورأسه اللامع، وخصلات شعره الناعمة، كلها متجهة نحوهم وهم داخلون، وكلها تجاوبت مع العبارة التي قالها لهم، في حبه الأبدي لبني جنسه.

– إذن فقد كنتم تشاهدون أرجاء البيت، تشاهدون أرجاء البيت.. أرجاء البيت، تشاهدون أرجاء البيت!

ولم تكن العبارة في ذاتها تحفة في السماحة أو الحكمة، إلا أنه جعل منها أنموذجاً لها معاً، بحيث لا يسع الإنسان إلا أن يحتفظ بنسخة منها!

مساء يوم طويل



كان ذلك الرجل الشهير والجوهرة الوطنية العظيمة، السيد ميردل، منطلقاً في طريقه المضيء. وبدأ الناس يدركون على نطاق واسع أن إنساناً كهذا قدم أجل الخدمات للمجتمع، عن طريق اكتناز كل هذه الثروة منه، لا يمكن أن يحتمل البقاء كشخص عادي. وجرت الأحاديث الخاصة عن منحه لقب «بارون» ولم يخل الأمر بين الحين والآخر من الإشارة إلى لقب «لورد». وقالت الشائعات إن السيد ميردل أشاح بوجهه الذهبي عن لقب «بارون»، وأنه أسر إلى اللورد ديكيموس أن لقب بارون غير كافٍ له، وأنه قال: «لا. إما اللوردية، وإما أن أبقى مجرد السيد ميردل». وقد قيل إن هذا جعل اللورد ديكيموس يغوص إلى ما يقرب من ذقنه السامية في خضم من الشكوك والحيرة بقدر ما يمكن لشخص عظيم مثله أن يغوص. ذلك أن آل بارناكل، باعتبارهم مجموعة خاصة من الخلائق، كانوا يرون أن مثل هذا اللقب قاصر عليهم، وأنه عندما يناله رجل عسكري أو قائد بحري، أو محام، فإنهم يتنازلون ويدخلونه في محيطهم ويبادرون بإغلاق الباب عليه. ولم يكن التقليد الموروث -كما تقول الشائعات- هو القوة الفعالة فيما يعانيه اللورد ديكيموس الحائر، وإنما لأنه كان يعلم أيضاً أن عدداً كبيراً من أسماء آل بارناكل كان مسجلاً في قوائم الألقاب المنتظرة، وكل هذه الأسماء كانت

تتعارض مع السيد ميردل العظيم! وكانت الشائعات، بالحق وبالباطل، تعمل بنشاط كبير به فمثلاً بينما كان اللورد ديكيموس يعمل، أو مفروض أنه يعمل، على تذليل العقبات أمام السيد ميردل مع السلطات المسؤولة، لم ينسَ في الوقت نفسه أن ينوه، في خطبه العظيمة التي كان يلقيها بين الحين والآخر، بأن السيد ميردل هو رمز ثراء إنكلترا. ومرونتها، ونفوذها ورأس مالها، ورخائها وكل أنواع البركات الأخرى.

وكان منجل الموت الخالد يمضي في حصده للأرواح بذلك الهدوء العجيب، حتى إنه مضت ثلاثة أشهر سريعة متلاحقة منذ أن أودع الأخوان الإنكليزيان «دوريت» في إحدى مقابر الغرباء بروما. وكان السيد والسيدة سباركلر قد انتقلا إلى بيت خاص بهما: قصر صغير من طراز بيوت آل بارناكل، يعتبر أنموذجاً في عدم الترتيب والنظام، وفي الانتشار الدائم في جوِّه لروائح حساء ما قبل اليوم السابق وجياد المركبة، ولكنه كان مع هذا ثميناً جداً لوجوده تماماً في مركز المعمورة. في هذا القصر المحسود -وكان موضع حسد عدد كبير من الناس حقاً- قررت السيد سباركلر أن تعمل فوراً على تقويض مكانة الصدر الأعظم، ولكن الصراع الواضح بينهما أرجئ إلى حين عندما حمل الساعي التابع أنباء الوفاة. وتلقت السيدة سباركلر، التي لم تكن بلا عاطفة، هذه الأنباء بنوبة عنيفة من الحزن استمرت اثنتي عشرة ساعة، وبعدها نهضت لترى ماذا ينبغي أن تفعل بشأن ملابس الحداد، ولتتخذ كل احتياط يمكنها اتخاذه حتى لا تكن أقل أناقة وأبهة من السيدة ميردل. وخيمت ظلال الكآبة على أكثر من عائلة معروفة -طبقاً لمصدر من أكثر المصادر تهذيباً- وعاد الساعي التابع إلى روما.

وفي ذات يوم كان السيد والسيدة سباركلر قد فرغا من تناول العشاء المبكر وظلال الاكتئاب تخيم عليهما، والسيدة سباركلر متراخية على أريكة

بإحدى غرف الاستقبال. وكان الوقت مساء يوم أحد من أيام الصيف الحارة. وكان القصر القائم في مركز المعمورة يلوح دائماً كأنه محتقن وكأنما هو يعاني من نزلة برد مزمنة، وكان في هذا المساء بالذات يلوح أكثر ما يكون احتقاناً. وكانت أجراس الكنائس قد بذلت أسوأ ما لديها عن طريق الصلصلة بين الأصداء المنفرة في الشوارع، وتوقفت الأضواء الباهتة المنسابة من نوافذ الكنائس في ظلال الغسق وتحولت إلى ظلام دامس. وكانت السيدة سباركلر تشعر وهي راقدة على الأريكة. ترنو من خلال نافذة مفتوحة في الجانب المواجه لشارع ضيق وعبر صناديق للورد وأزهار الخزامى، بالسأم من هذا المنظر. وكذلك شعرت السيدة سباركلر بنفس السأم وهي ترنو إلى نافذة أخرى كانت ترى من خلالها زوجها وهو واقف في إحدى الشرفات. وحتى عندما نظرت السيدة سباركلر إلى نفسها وهي بملابس الحداد، شعرت بالسأم من هذا المنظر، وإن كان سأمها بطبيعة الحال هذه المرة لا يصل إلى سأمها في المرتين السابقتين.

وقالت السيدة سباركلر وهي تغير وضعها في تململ:

– إنني أحس كأني راقدة في بئر. ويحي يا إدموند. إذا كان لديك شيء تقوله، فلماذا لا تقوله؟

وكان يمكن للسيد سباركلر أن يرد ببساطة:

– يا حياتي، ليس لدي ما أقوله.

ولكن بما أن هذا الرد لم يخطر بباله، فقد غادر الشرفة بدلاً من ذلك، واقتنع بالوقوف بجانب أريكة زوجته، فقالت هذه في تململ متزايد:

– يا الله الرحيم يا إدموند؟ إنك تلصق زهرة الخزامى بأنفك تماماً. أرجوك ألا تفعل.

وكان السيد سباركلر بشروده الذهني -أو ربما بما هو أكثر مما يعرف عن الشرود الذهني عادة- قد راح يشم عود الزهرة التي في يده حتى كادت التهمة التي رمته بها أن تصح. وابتسم قائلاً وهو يقذف بها من النافذة:

- معذرة يا عزيزتي.

وقالت السيدة سباركلر وهي ترفع عينيها إليه بعد لحظة أخرى:

- إنك يا إدموند تصدع رأسي ببقائك في هذا الوضع. إنك تبدو في هذا الضوء كبيراً بشكل مزعج، أرجوك أن تجلس.

فقال السيد سباركلر وهو يتناول مقعداً في نفس الموضع:

- بكل تأكيد يا عزيزتي.

وتثاءبت فاني في ضيق وقالت:

- لو لم أكن أعرف أن أطول يوم قد انصرم لشعرت بالتأكيد أن هذا هو أطول يوم. إنني لم أعان في حياتي مثل هذا اليوم.

- أهذه مروحتك يا حبيبتي؟

سألها السيد سباركلر هذا السؤال وهو يلتقط مروحة ويقدمها إليها.

وردت زوجته في إعياء متزايد:

- أرجوك يا إدموند ألا توجه إليّ أسئلة سخيفة. إذا لم تكن مروحتي، فمروحة من يمكن أن تكون.

فقال السيد سباركلر:

- أجل. لقد خطر لي أنها مروحتك.

فردّت فاني قائلة:

- إذن ما كان ينبغي لك أن تسأل.

وبعد برهة، استدارت على الأريكة وقالت:

- ويحي، ويحي.. لم يحدث أن رأيت يوماً طويلاً كهذا.

وبعد برهة وجيزة أخرى، نهضت وراحت تتمشى ببطء في جوانب الغرفة، ثم عادت لتسمع السيد سباركلر يقول لها وقد ألهم هذه الحقيقة:

- يا عزيزتي، إنك تعانين من القلق.

فكررت السيدة سباركلر العبارة قائلة:

- أعاني القلق؟ أوه، حذار أن تقول هذا.

فقال السيد سباركلر مصرّاً:

- يا فتاتي الحبيبة، جربي الخل المعطر، لقد رأيت أمي كثيراً وهي تجربه وكان يبدو أنه ينعشها إلى حد كبير. وهي، كما أعتقد أنك تعرفين، سيدة ممتازة رائعة لا تعرف شيئاً اسمه...

فهتفت فاني قائلة وهي تنهض مرة أخرى.

- يا لرحمة الله. إن هذا لا يطاق. إن هذا أشد الأيام المزعجة التي حلّت بالعالم، إني واثقة من هذا.

وراح السيد سباركلر يتتبعها بنظراته في وداعة وهي تتمشى في الغرفة وقد بدا عليه شيء من الخوف. فلما قذفت ببعض الأشياء البسيطة في جوانب الغرفة، وأطلت إلى الشارع المظلم من جميع النوافذ الثلاث، عادت إلى الأريكة وألقت بنفسها بين الوسائد.

- اسمع يا إدموند. اقترب مني. اقترب حتى أستطيع أن ألمسك بالمروحة لكي أؤكد عليك ما سوف أقوله لك. حسناً، هذا يكفي. إنك تبدو كبيراً جداً؟

واعتذر السيد سباركلر عن كبر حجمه قائلاً إنه لا يد له فيه ثم أخبرها أن «أصحابنا» دون أن يذكر على وجه التحديد من يكون هؤلاء «الأصحاب» تعودوا أن يطلقوا عليه اسم «رجل الجبل الصغير». وهنا قالت فاني متذمرة:

- كان ينبغي أن تقول لي هذا من قبل.

فردّ السيد سباركلر وهو أقرب ما يكون إلى الرضا.

- إنني لم أكن أعرف أن هذا يهمك وإلا لاهتممت بأن أذكره لك.

فقالت فاني:

- انتظر.. لا تتحدث. إنني أريد أن أنفرد بالحديث. اسمع يا إدموند يجب أن نحرص على ألا نكون في مكان واحد بمفردنا بعد اليوم. يجب أن أتخذ جميع الاحتياطات حتى لا أهبط قط إلى هذه الحالة من الانقباض المزعج التي أعانيها اليوم.

فردّ السيد سباركلر قائلاً:

- يا عزيزتي، إنك بما هو معروف عنك من أنك سيدة ممتازة لا تعرف شيئاً! ... فصاحت فاني قائلة:

- يا إلهي الرحيم!

وبلغ من ارتباط السيد سباركلر بسبب هذه العبارة الاستفزازية الحارة المصحوبة بالقفز من الأريكة والحط فوقها مرة أخرى، أن استغرق دقيقة أو دقيقتين في صمت قبل أن يتمكن من العودة إلى الحديث موضحاً ليقول:

- إنني أعني يا عزيزتي أن كل إنسان يعرف أنك مؤهلة للسطوع في المجتمع الراقي.

فردّت فاني بتململ شديد:

- مؤهلة للسطوع في المجتمع الراقي! نعم، حقاً! ثم ماذا بعد ذلك؟ إنني ما كدت أفيق -من ناحية تبادل الزيارات- من صدمة وفاة أبي العزيز المسكين وعمي العزيز المسكين وإن كنت لا أخفي أن وفاة عمي تعتبر حادثاً سعيداً للتخلص منه، لأنك إذا لم تكن جديراً بالظهور أمام الناس، فمن الأفضل كثيراً أن تموت..

فقاطعها السيد سباركلر قائلاً في انكسار:

- أرجو يا حبيبتي ألا أكون المقصود بهذا..

- إدموند، إدموند إنك لتجعل صبر القديس ينفد. ألست أتحدث الآن بطريق غير مباشر عن عمي المسكين!

فقال السيد سباركلر:

- ولكنك كنت تنظرين إليّ مباشرة وأنت تتحدثين، يا عزيزتي، بحيث شعرت ببعض الاضطراب. شكراً لك يا حبيبتي.

وقالت فاني وهي تطوح بمروحتها في استسلام:

- لقد أفقدتني الآن كل رغبة في الحديث، ويحسن أن أمضي إلى الفراش.

فقال السيد سباركلر بحرارة:

- لا، لا تفعلي هذا الآن. الوقت لا يزال متسعاً.

وتراخت فاني في مكانها فترة طويلة، وظلت راقدة على ظهرها، وعيناها مغمضتان، وحاجباها مرفوعان في تعبير ينم عن اليأس وكأنها نفضت يديها تماماً من كل شؤون الحياة الدنيا؛ وأخيراً ودون أقل تمهيد، فتحت عينيها مرة أخرى، واستطردت تقول بلهجة حادة قصيرة الأنفاس:

- ماذا حدث عندئذ، إنني أسأل، ماذا حدث، لقد وجدت نفسي في الفترة التي كان يمكن أن أسطع بقوة في المجتمع الراقي، وكان من المؤكد أن أسطع فعلاً لأسباب خاصة، أقول وجدت نفسي في حالة تمنعني إلى حد ما من السطوع في المجتمع. إنه لأمر مؤلم حقاً!

فقال السيد سباركلر:

- يا عزيزتي، إنني لا أظن أن هذه الحالة تلزمك بالبقاء في البيت.

فردّت فاني باستنكار شديد:

- إدموند، أيها المخلوق العجيب! أتعتقد أن سيدة مثلي في أوج الشباب، وليست عاطلة إطلاقاً من أسباب الفتنة والجاذبية، تستطيع أن تدخل -في فترة حداد كهذه- في ميدان المنافسة مع سيدة أخرى أقل منها في كل شيء. إن كنت تظن شيئاً كهذا، فلن يكون لحماقتك حد.

فقال السيد سباركلر معترفاً بأنه ظن أن «الأمر يمكن التغلب عليه».

فردت فاني في احتقار لا حد له:

- التغلب عليه؟

فقال السيد سباركلر بخضوع:

- إلى حين.

وقال السيد سباركلر بحرارة شديدة، دون أن تشرف عبارته الأخيرة بأي اهتمام.. إن الأمر حقاً مؤلم جداً، وإنه، يقيناً، يجعل الإنسان يتمنى الموت. وبعد أن تحررت إلى حد ما، من الشعور بأنها تعرضت لسوء المعاملة، قالت:

- وعلى كل حال، لا يسع الإنسان إلا أن يخضع لهذه الظروف رغم كل ما يبدو فيها من قسوة وضغط على الأعصاب.

فقال السيد سباركلر:

- لا سيما إذا كان الأمر متوقعاً.

فردّت زوجته قائلة:

- إدموند. إذا لم يكن لديك ما تفعله أكثر من محاولة إهانة السيدة التي شرفتك بقبول زواجها منك، وذلك عندما تجد نفسها في حالة من الضيق والحزن فأعتقد أنه يحسن بك أن تأوي إلى فراشك.

وتأثر السيد سباركلر إلى حد كبير بهذا الاتهام فقدم اعتذاراته بكل ما يمكن من رقة وإخلاص، وقبلت السيدة سباركلر اعتذاره ولكنها رجته أن يمضي إلى الطرف الآخر من الأريكة حيث يجلس تحت ستارة النافذة ليهدئ من نفسه، ثم قالت وهي تمد مروحتها وتلمسه بها وهو على مسافة ذراع منها:

- اسمع يا إدموند. إن ما كنت أريد أن أقوله لك عندما أخذت كالمعتاد تقاطعني بعباراتك المرهقة للأعصاب، هو أنني سأحترس من البقاء معاً على انفراد بعد ذلك، وأنه إذا كانت الظروف تمنعني من الخروج كما أريد، فينبغي أن أتخذ الترتيبات لدعوة بعض الأصدقاء أو غيرهم ليكونوا معنا، لأنني في الواقع لا أستطيع ولن أستطيع أن أحتمل يوماً كهذا اليوم.

وكان موقف السيد سباركلر من هذا الرأي، في إيجاز، أنه جاد لا لغو فيه. ثم أضاف قائلاً:

- وعداً هذا، فمن المحتمل كما تعلمين أن تكون أختك معك في أسرع..

فهتفت فاني وهي تتنهد بحنان:

- عزيزتي إيمي! نعم. حبيبتي المخلوقة الصغيرة. هذا وإن لم يكن لإيمي مجال هنا.

وكان السيد سباركلر على وشك أن يستفسر عن السبب، ولكنه لمح ما في هذا من خطر، فقال مؤيداً:

- نعم. نعم يا عزيزتي، إنه ليس لها مجال هنا بمفردها.

- أجل يا إدموند. ذلك لأن مميزات هذه الطفلة العزيزة الهادئة الطباع لا تحتاج فقط إلى ما يقابلها.. إلى ما ينبض بالحركة والحياة ليُظْهِرها على حقيقتها ويجعل الإنسان يحبها كما هي، وإنما تحتاج إلى ما يثير حيويتها بكل وسيلة ممكنة.

فقال السيد سباركلر:

- نعم تماماً إلى ما يثير حيويتها.

- أرجوك يا إدموند؟ إن عادتك في مقاطعتي دون أن يكون لديك أقل شيء تقوله، يشتت أفكاري، يجب أن تقلع عن هذه العادة. ونعود للحديث عن إيمي، لقد كانت الصغيرة المسكينة شديدة التعلق بأبي المسكين، وليس من شك في أنها بكته إلى حد كبير، وحزنت على وفاته أشد الحزن. وقد فعلت أنا هذا وشعرت بذلك إلى أقصى حد. ولكن لا شك أن حزن حبيبتي إيمي كان أشد لوجودها بجانبه طيلة الوقت، ولبقائها معه حتى آخر لحظة من حياته، وهذا ما لم يتح لسوء الحظ لي.

وهنا توقفت فاني فتبكي ثم تقول:

- يا لأبي العزيز المحبوب! لشد ما كان سيداً أصيلاً، ولشد ما كان الفارق بينه وبين عمي المسكين!

وبعد برهة استطردت تقول:

– إن علينا أن نثير حيوية صغيرتنا المحبوبة من تأثير هذه الفترة العصيبة؛ وكذلك من تأثير رعايتها الطويلة لإدوارد في أثناء فترة مرضه، وهي رعاية لم تنته بعد بل ربما تستمر مدة أخرى أطول، كما أنها في الوقت نفسه ستثير الارتباك في حياتنا جميعاً، وذلك بتأخير النظر في شؤون أبي التي تركها وراءه ومن حسن الحظ، على كل حال، فإن جميع الأوراق الخاصة بالمتعاملين معه مختومة ومحفوظة كما تركها عند زيارته الميمونة للندن، ومن ثم فإن شؤون أبي، وهي مرتبة هكذا، يمكن أن تنتظر حتى يسترد أخي إدوارد صحته في جزيرة صقلية ثم يعود لينظر في أمرها أو لينفذ ما جاء فيها أو ليقوم بما ينبغي أن يقوم به أياً كان.

فقال السيد سباركلر وقد تذرع بالشجاعة:

– إنه لن يجد ممرضة أفضل لترد عليه صحته.

فقالت زوجته في تراخٍ وهي تدير أجفانها قليلاً نحوه، وكانت بوجه عام تتحدث إليه كأنه قطعة من أثاث غرفة الاستقبال:

– أستطيع، للعجب، أن أتفق معك في هذا، وأن أردد كلماتك. إنه لن يجد ممرضة أحسن لترد عليه صحته. إن الطفلة العزيزة قد تثير الضيق أحياناً في صدر إنسان ذكي، ولكنها، كممرضة، فهي الكمال نفسه، يا أعز الأخوات.

وحفز نجاح السيد سباركلر إلى أن يتهور ويقول إن إدوارد في الواقع قد طالت «لطشته» يا فتاتي العزيزة.

فردّت السيدة سباركلر قائلة:

– إذا كنت تعني يا إدموند بهذه الكلمة الدارجة أنه منحرف الصحة، فهذا صحيح. وإلا، فأنا لا أستطيع أن أرد على هذه اللغة السوقية التي تحدث بها أخت إدوارد. وليس من شك، إن كان هذا ما تعنيه، في أنه

أصيب بحمى الملاريا في مكان ما، سواء في أثناء سفره ليلاً ونهاراً إلى روما حيث وصل، للأسف، متأخراً فلم يستطع رؤية أبي قبل وفاته، أو بسبب أية ظروف أخرى مزعجة. ويمكن القول أيضاً أن استهتاره الشديد في حياته أضعف، في الواقع، قوة احتماله.

وقال السيد سباركلر إنه يعتقد أن هذه الحالة تشبه إلى حد كبير حالة بعض أصحابه في جزائر الهند الغربية المصابين بالحمى الصفراء. وأغلقت السيدة سباركلر عينيها مرة أخرى، وأبت أن تبدي أي اهتمام بأصحابنا في جزائر الهند الغربية المصابين بالحمى الصفراء.

وأخيراً قالت حين عادت وفتحت أجفانها:

- ومن ثم فإن إيمي في حاجة إلى ما يثير حيويتها بعد الذي عانته طوال أسابيع كثيرة من إرهاق وقلق. وأخيراً سوف تحتاج إلى من يحررها من ميول سوقية أعرف تماماً أنها كامنة في أعماق قلبها. ولا تسألني ما هي هذه الميول، لأني لن أجيب عليك حتماً.

فقال السيد سباركلر:

- إنني لن أسألك.

فاستطردت السيدة سباركلر قائلة:

- ومن ثم فالأمر يحتاج إلى عملية تحسين كثيرة لطفلتي العزيزة. ولهذا لا أستطيع أن آتي بها لتكون بجانبي في وقت قريب. حبيبتي هذه الصغيرة اللطيفة! أما فيما يختص بالنظر في شؤون أبي، فإن موقفي منها لا ينطوي على كثير من الأنانية. لقد كان أبي كريماً جداً معي حين تزوجت، ولست أتوقع إلا شيئاً قليلاً، أو لا شيء من التركة. فإذا لم يكن قد ترك وصية واجبة التنفيذ تاركاً فيها نصيباً لحرم الجنرال، فإني راضية تماماً. آه يا أبي العزيز، يا أبي العزيز!

وبكت مرة أخرى، ولكن اسم حرم الجنرال كان خير مهدئ لها، ومن ثم بادرت إلى مسح دموعها وقالت:

– وإنه لأمر مشجع جداً، رغم مرض إدوارد، جعلني شاكرة له، ومطمئنة تماماً إلى إن إدراكه لم يتأثر بالمرض، ولم تضعف روحه المعنوية، رغم كل ما ترتب على وفاة أبي في ذلك الوقت، بحيث دفع لحرم الجنرال حسابها فوراً وأبعدها عن البيت. لقد حييته من أجل هذا. وإني على استعداد لأن أغفر له الشيء الكثير لقيامه بهذا العمل الحاسم السريع. وهذا تماماً ما كنت أفعله بنفسي.

كانت السيدة سباركلر في أشد حالات الرضا عندما سمعت طرقة مزدوجة على باب المنزل. وكانت طرقة عجيبة جداً. فهي خفيضة كأنما المقصود ألا تُحدِث صوتاً يلفت الانتباه، وطويلة كأنما الطارق مشغول الذهن فنسي أن يرفع يده في الوقت المناسب.

وقال السيد سباركلر:

– هاللو... من هذا؟

فقالت السيدة سباركلر:

– لن يكون الطارق إيمي أو إدوارد بلا إخطار أو مركبة. انظر من يكون.

وكانت الغرفة معتمة، ولكن الشارع أكثر ضوءاً بسبب ما فيه من مصابيح وأطل السيد سباركلر برأسه من فوق الشرفة، بحيث توازن رأسه الكبير الضخم مع بقية جسمه مما جعل الطارق المجهول مهدداً بسقوطه فوق وطحن عظامه.

وقال أخيراً:

- إنه شخص واحد، ولكني لا أعرف من يكون ومع ذلك انتظري.

وبهذه المراجعة في الرأي، عاد مرة أخرى إلى الشرفة وألقى نظرة ثانية. وفتح الباب الخارجي وهو يعود إلى الغرفة ويعلن أنه «السيد ميردل» ولم يكن مخطئاً، لأن السيد ميردل لم يلبث أن أعلن حضوره فوراً.

وقالت السيدة سباركلر بعد أن اعتذرت عن ظلام الغرفة:

- أحضروا القناديل.

وقال السيد ميردل:

- إن الضوء هنا كافٍ لي.

ولما جيء بالقناديل، ظهر السيد ميردل واقفاً وراء الباب من الداخل يلعق شفتيه، ويقول:

- لقد خطر لي أن أقوم بزيارتكم. وأنا في الواقع مشغول جداً في الوقت الحاضر. ولكن بما أني كنت أتمشى، رأيت أن أقوم بزيارتكم.

ولما كان مرتدياً ملابس الدعوة للعشاء، سألته فاني عن المكان الذي تعشى فيه، فقال:

- حسناً. الواقع أنني لم أتعش في مكان ما بوجه خاص.

فقالت فاني:

- ولكنك تعشيت طبعاً.

فقال السيد ميردل:

- لا، لم أتعشَّ على وجه التحديد.

وكان قد مرّ بيده على جبينه الشاحب، وراح يفكر، كأنما لم يكن واثقاً مما قال. ولما عرض عليه أن يتناول شيئاً من الطعام قال:

- لا، شكراً، إنني لا أشعر بالرغبة في هذا. كان المفروض أن أكون قد تعشيت منذ فترة طويلة مع السيدة ميردل، ولكن لما شعرت بعدم الرغبة في الأكل، تركت الآنسة ميردل تذهب بمفردها عندما أوشكت أن أستقل معها المركبة، ثم فكرت في أن أتمشى بدلاً من ذلك.

أيحب شيئاً من الشاي أو القهوة؟ فقال:

- لا، شكراً لكم. لقد مررت بالنادي وشربت زجاجة خمر.

وخلال هذه المرحلة من الزيارة، تناول السيد ميردل المقعد الذي قدمه إليه إدموند سباركلر، والذي كان خلال هذا يدفعه أمامه ببطء، مثل رجل بليد يحاول تجربة قبقاب انزلاق لأول مرة ولكنه متردد. ووضع السيد ميردل قبعته على مقعد آخر بجانبه، ثم قال وهو ينظر في داخلها كأنها تبلغ من العمق عشرين قدماً:

- نعم، خطر ببالي أن أقوم بزيارتكم.

فقالت فاني:

- إن هذا يشرفنا، لأنك لست معتاداً أن تزور أحداً.

وردّ السيد ميردل الذي كان عندئذ قد راح يلقي القبض بنفسه على نفسه بإدخال يديه في كميّ سترته:

- أجل.. أجل. إنني رجل غير معتاد على زيارة أحد.

فقالت فاني:

- إن لديك من الأعمال أكثر مما يتيح لك زيارات غيرك. وما دامت أعمالك كثيرة هكذا، فإن فقدان الشهية أمر خطير بالنسبة لك. وينبغي أن ننظر في هذا الأمر. نعم لا يجب أن تشعر بالمرض.

فردّ السيد ميردل قائلاً بعد أن فكّر في الأمر ملياً:

– أوه! إنني في أحسن حال. إنني بخير كشأني دائماً. إنني بخير تماماً. إنني بخير كما أحب أن أكون.

إن صاحب أكبر عقل في عصره كان صادقاً مع طبيعته في كل حين، أي أن عقله الكبير لم يكن لديه ما يقوله عن نفسه إلا القليل جداً، كما أن هذا القليل كان يقوله بصعوبة بالغة. ومن ثم فقد عاد إلى صمته مرة أخرى، بينما تساءلت السيدة سباركلر في نفسها عن المدة التي سيقضيها في هذه الزيارة.

– كنت أتحدث عن أبي المسكين عندما حضرت.

فقال السيد ميردل:

– آه، مصادفة بحتة.

ولم يكن هذا رأي فاني، ولكنها شعرت أن عليها الاستمرار في الحديث، فاستطردت تقول:

– كنت أقول إن مرض أخي قد سبب التأخير في فحص وترتيب شؤون أبي وممتلكاته.

فقال السيد ميردل:

– أجل، أجل، لقد حدث تأخير.

فقالت فاني:

– ولكن ليس لهذا أهمية كبيرة.

فوافقها السيد ميردل قائلاً بعد أن فحص بعينيه طنف الغرفة الداخلي، أو الأجزاء الواقعة في نطاق نظراته منه.

–لا، ليس لهذا أهمية كبيرة.

وقالت فاني:

- إن الشيء الوحيد الذي يهمني هو ألا تنال حرم الجنرال شيئاً.

فقال السيد ميردل:

- إنها لن تنال شيئاً.

وابتهجت فاني إذ سمعته يعرب عن هذا الرأي. وبعد أن ألقى السيد ميردل نظرة أخرى في أعماق قبعته كأنما خطر له أنه رأى فيها شيئاً، أخذ يحك شعره ثم يضيف ببطء إلى عبارته الأخيرة هذه الكلمات المؤكدة:

- آه، لا يا عزيزتي، لا، ليست هي، هذا غير محتمل.

ولما بدا أن ذلك الموضوع قد استنفد، وكذلك السيد ميردل، سألته فاني ما إذا كان سيمضي ليصحب السيدة ميردل ويستقل معها المركبة إلى البيت فأجابها قائلاً:

- لا. لسوف أعود من أقصر طريق، وسأترك السيدة ميردل لـ...

وهنا راح يتطلع إلى كفيه كأنما يقرأ طالعة ثم استكمل حديثه قائلاً:

- لتتولى أمر نفسها، ويمكن القول إنها قادرة على هذا.

فقالت فاني:

- من المحتمل.

وأعقب هذا صمت طويل كانت السيدة سباركلر خلاله قد عادت للرقاد على الأريكة، وإغماض عينيها، ورفع حاجبيها بنفس الوضع السابق الذي ينم عن نفض يديها من شؤون الدنيا.

وقال السيد ميردل:

- ولكنني، على كل حال، أخشى أن أكون معطلاً لك ولنفسي، لقد خطر لي أن أقوم بزيارة لك، كما تعلمين.

فقالت فاني:

- هذا يشرفني بكل تأكيد.

وأضاف السيد ميردل وهو ينهض:

- ولهذا فإني سأنصرف. أيمكن أن تعيريني مبراة.

ولاحظت فاني وهي باسمة، أنه مطلب غريب، وأردفت قائلة إنه كيف وهي التي لم تكتب في حياتها خطاباً يمكنها أن تعير شيئاً كهذا لرجل مثله كثير الأعمال، ثم قالت متسائلة:

- أليس كذلك؟

فأيدها السيد ميردل ثم قال:

- ولكنني أريد واحدة، وأنا أعرف أنك تلقيت هدايا زواج كثيرة منها تذكارات بسيطة من بينها المقصات والملاقط، ولسوف أعيدها إليك غداً.

وقالت السيدة سباركلر:

- إدموند. افتح الصندوق المصدف -وأرجو وأبتهل أن تكون مترفقاً لأنك دائماً متعثر- الموضوع على منضدتي الصغيرة هناك وهات منه المبراة ذات المقبض الصدف.

فقال السيد ميردل:

- شكراً لك. ولكن لو أن لديك واحدة ذات مقبض أقتم لوناً.. إنني أفضل واحدة لها مقبض قاتم اللون.

- ذات مقبض قرني؟

فقال السيد ميردل:

- شكراً. نعم. أعتقد أنني أفضل واحدة بمقبض قرني.

وعلى هذا صدرت التعليمات إلى إدموند لكي يفتح الصندوق القرني ويعطي للسيد ميردل مبراة ذات مقبض قرني. وبينما هو يفعل هذا، قالت زوجته لأعجوبة العصر والأوان في رقة:

- لسوف أسامحك إذا لوثتها بالمداد.

فقال السيد ميردل:

- سوف أتعهد ألا ألوثها بالمداد.

وعندئذ مد الزائر العظيم كُمْ سترته واحتوى في يده يد السيدة سباركلر بالمعصم والسوار وكل شيء. لقد أمكنها أن تصل إلى المدى الذي انكمشت إليه يده. ولكنها كانت بعيدة جداً عن إحساس السيدة سباركلر باللمس وكأنها كان واحداً من محاربي شلسيا المتازين أو واحداً من أصحاب المعاشات في جرينويتش[1].

ولما تأكدت تماماً -وهو ينصرف من الغرفة- أن أطول يوم شهدته في حياتها قد انتهى أخيراً، وأنه لم يحدث لأية سيدة ليست عاطلة تماماً من أسباب الفتنة والجاذبية، أن امتلأت سأماً من أناس حمقى ثقلاء الظل، مضت فاني إلى الشرفة التماساً للهواء. وكانت دموع السخط تملأ عينيها، وقد جعلتها هذه الدموع ترى السيد ميردل الشهير وهو يمضي في الطريق يعدو كأنها يرقص الفالس، ويدور، وكأنها قد تقمصه عدد كبير من الأبالسة.

(1) المقصود هم مشوهو الحرب.

كبير السقاة يعتزل العمل

كانت حفلة العشاء في بيت الطبيب الكبير. وكان هناك قطب المحاماة بكل حيويته، وكان هناك أيضاً فرديناند بارناكل في أحسن حالاته الجذابة. وكان الطبيب بطبيعته أكثر الناس نفاذاً إلى خفايا الحياة، وأكثرهم تردداً على أشد أماكنها ظلاماً، حتى من الأسقف نفسه. وقد كان في لندن سيدات رائعات كن يعتبرنه أعز وألطف وأحب إنسان إلى نفوسهن. هؤلاء السيدات يمكن أن يصدمن في مشاعرهن لو أنهن عرفن بعض المناظر التي تقع عليها عيناه المفكرتان خلال ساعة أو ساعتين، أو الأشخاص الذين يقف بهيئة الهادئ بجوار أسرتهم أو تحت أسقف بيوتهم، ولكن الطبيب الكبير كان رجلاً رزيناً متزناً لا يترنم بمزاياه أو يستغل مزايا غيره، إن كثيراً من العجائب رآها وسمعها، وبين عدد لا يحصى من غرائب المتناقضات أنفق حياته. ولكن قدرته على تمالك أعصابه كانت كأنها نفحة من الطبيب الأعظم. ومن ثم كان يمضي، كالمطر، بين الأخيار والأشرار يبذل كل ما لديه من جهد حميد دون أن يقصره على السادة أو الصعاليك.

وكان الطبيب، باعتباره رجلاً واسع الخبرة بالنفس البشرية، أياً كان تواضعه في هذا، وباعتباره ملماً بفن الاستفادة من هذه الخبرة، رجلاً جذاباً لطيف المعشر. وحتى أكثر السيدات والسادة ظرفاً وأناقة، الذين لا يعرفون شيئاً من أسراره، والذين يمكن أن يذهلوا بأكثر مما تطيق عقولهم

المحدودة إذا هو تجرأ يوماً وطلب منهم أن يأتوا «ليروا ما يراه» قد اعترفوا بجاذبيته. إنه حيث يكون، يكون شيء من حقائق الحياة. وإن نصف ذرة من الحقيقة مثل أصغر جزء من إنتاج طبيعي نادر، يمكن أن يعطر كمية كبيرة من السائل المخفف.

وقد حدث من ثم أن كانت وليمة عشاء الطبيب الصغيرة مجالاً لتجمع عدد من المدعوين في أقل حالاتهم الاجتماعية. ذلك أن الضيوف كانوا يتساءلون -سواء أدركوا هذا أم لم يدركوه- قائلين لأنفسهم:

- ها هو ذا رجل على إدراك حقيقي بأنفسنا كما نحن، رجل نسمح له بالدخول علينا ونحن في حالاتنا الطبيعية، بلا تزييف أو تزويق، ويسمع ضلالات عقولنا، ويرى التعبيرات العارية لوجوهنا عندما نفقد سيطرتنا على هذا أو ذاك. إنه قد يحسن بنا أن نقترب معه إلى الحقيقة، لأن الرجل له اليد العليا علينا، وأشد قوة منا.

ولهذا كان الضيوف يتوافدون على مائدة الطبيب المستديرة وهم أقرب ما يكونون إلى حالاتهم الطبيعية.

وكانت خبرة قطب المحاماة بحشد المحلفين، وهي المسماة بالخبرة الإنسانية، حادة قوية كالسكين. ومع ذلك فإن الموسى ليس بالأداة الصالحة في جميع المناسبات. ومن ثم فإن رأس الطبيب العادية اللامعة، التي قد تكون أقل ذكاءً، أقدر بكثير على التكيف مع عدد كبير جداً من الأغراض والغايات. إن قطب المحاماة يعرف كل ما في الناس من سوقية وتفاهة، ولكن في مقدور الطبيب الكبير أن يقدم إليه مشاهد من صميم نفوسهم التي تنم عن الرقة والحنان، في جولة أسبوع واحد، أكثر مما يراه في قاعة وستمنستر والدورات البرلمانية والقضائية مجتمعة في سبعين عاماً. وكان قطب المحاماة، يشتبه دائماً في هذا، وربما كان يسره أن يشجعه في ذلك، لأنه إذا كان العالم حقاً محكمة كبيرة، فإن الإنسان يرى أن آخر يوم

للموسم القضائي لن يحل قريباً. ولهذا كان يحب ويحترم الطبيب الكبير بقدر ما يحبه أي شخص آخر.

وقد أدى تخلف السيد ميردل عن الحضور إلى وجود مقعد خالٍ على المائدة. ولكن، لو أنه كان حاضراً، لما حدث أي تغيير يذكر، ومن ثم لم يشعر أحد بتخلفه. وكان قطب المحاماة الذي اعتاد أن يلتقط كل ما يصل إليه من أخبار من كل نوع حول قاعة وستمنستر، كما يفعل الغراب لو أنه أمضى مثل هذه الفترة من حياته هناك، قد جمع أخيراً الكثير من أخبار السيد ميردل ليعرف من أين وإلى أين تهب رياحه. وكان عندئذ يتحدث مع السيد ميردل، بعد أن انزلق إليها بنظارته المزدوجة وانحناءته التي اعتاد أن يؤديها للمحلفين.

وقال قطب المحاماة:

- إن طائراً معيناً..

وبدا عليه أنه لا يقصد إلا «الغراب» من هذه الكلمة، ثم أردف قائلاً:

- كان يهمس بيننا، نحن المحامين في الأيام الأخيرة أن عدد النبلاء في هذه المملكة سوف يزداد واحداً.

فقالت السيدة ميردل:

- أحقاً!

فقال قطب المحاماة:

- أجل. ألم يكن الطائر يهمس بهذا في آذان أخرى غير آذاننا، آذان جميلة!

ثم أرسل نظرة لها دلالتها إلى أقرب أذن للسيدة ميردل إليه.

فسألته السيدة ميردل قائلة:

- هل تعني أذني؟!

فقال قطب المحاماة:

- عندما أقول الآذان الجميلة، فإنما أعنيك دائماً.

فردّت السيدة ميردل دون استياء:

- إنك دائماً لا تعني شيئاً.

فقال قطب المحاماة:

- أوه، هذا اتهام ظالم قاسٍ. ولكن، الطائر..

فقالت السيدة ميردل، وهي تعد باستخفاف دفاعها:

- إنني آخر إنسانة في الدنيا تتسمع الأنباء. من هو؟

فقال قطب المحاماة:

- إنك أبرع شاهدة يمكن أن تشهدها المحاكم. ولا يوجد محلف -إلا إذا كان فاقد البصر- يستطيع أن يقاوم سحرك إذا حدث ولم تحسني الشهادة ولكن من المؤكد أنك شاهدة ممتازة.

فقالت السيدة ميردل ضاحكةً:

- لماذا أيها الرجل العجيب؟

ولوح قطب المحاماة بنظارته المزدوجة ثلاث أو أربع مرات بينه وبين الصدر الأعظم على اعتبار أن هذه إجابة لطيفة، ثم سأل بكل ما لديه من لهجة مغرية رقيقة:

- ما هو اللقب الذي سأنادي به، بعد أسابيع قليلة، أو ربما بعد أيام قليلة، أكثر السيدات رقة وتهذيباً وجاذبية.

فردّت السيدة ميردل قائلة:

- ألم يقل لك طائرك ما هو؟ اسأله غداً ثم أخبرني عندما نلتقي في المرة التالية ماذا قال لك.

وأدى هذا إلى مجالات أخرى مماثلة من هذا الحديث اللطيف، ولكن قطب المحامي، رغم ذكائه الحاد، لم يستطع أن يظفر منها بطائل. أما الطبيب، من ناحية أخرى، فقد سأل عن هذا بصراحته وهدوئه المألوفين وهو يصحبها إلى المركبة ويساعدها على ارتداء معطفها:

- هل يمكن أن أسأل عن حقيقة ما سمعت عن السيد ميردل!

فردّت قائلة:

- يا عزيزي الطبيب، لقد وجهت إليّ نفس السؤال الذي كنت أوشك أن أوجهه إليك.

- توجهيه إليّ؟ لماذا إليّ أنا؟

- أقسم لك أني ظننت أن السيد ميردل يضع من الثقة الكبيرة فيك أكثر مما يضع فيّ.

- بالعكس، إنه لا يخبرني بشيء إطلاقاً، حتى من الوجهة الطبية. لا شك أنك سمعت ما يقال في هذا الشأن.

- طبعاً سمعت، ولكنك تعرف طبيعة السيد ميردل. إنك تعرف إلى أي حد هو متحفظ كتوم. أؤكد لك أنني لا أعرف أي أساس يمكن أن يكون لهذه الأقوال. إنني أحب، ولا شك، لو صحت هذه الأقوال. فلماذا أنكر هذا منك. وإنك أعرف بهذا مني.

فقال الطبيب:

- تماماً.

- ولكنني لا أعرف على وجه اليقين هل كل هذه الأقوال صحيحة، أم جانب منها، أم كلها كاذبة. وإنه لموقف مثير للأعصاب جداً، موقف شديد الحرج ولكنك تعرف السيد ميردل، فلا داعي للعجب.

ولم يكن الطبيب متعجباً وهو يساعدها على الصعود إلى المركبة ثم يتمنى لها ليلة سعيدة. ووقف برهة في باب الصالة الخارجي ينظر متفكراً إلى المركبة الفاخرة وهي تنطلق بعيداً. وسرعان ما انصرف المدعوون بعد صعوده إلى الطابق العلوي، وبقي في البيت منفرداً. ولما كان مشغوفاً جداً بقراءة كل أنواع الكتب الأدبية -ولم يحاول يوماً أن يعتذر عن هذا الضعف- فقد جلس في وضع مريح ليقرأ.

وكانت عقارب الساعة الموضوعة على مكتبه تشير إلى أنه لم يبقَ غير دقائق قليلة على انتصاف الليل، عندما انتبه إليها بسبب رنين جرس الباب الخارجي. ولما كان رجلاً عادي التقاليد، فقد أرسل خدمه إلى غرفهم للنوم. ومن ثم كان عليه أن يهبط بنفسه ليفتح الباب. ولما هبط، وجد رجلاً بلا قبعة أو سترة، وقد شمّر عن أكمام قميصه إلى كتفيه. وقد خُيِّل إليه برهة أن الرجل خارج من معركة، لا سيما حين رآه منفعلاً لاهث الأنفاس. ولكن بعد نظرة أخرى لاحظ أن الرجل نظيف جداً، ولا أثر للاضطراب في ملابسه، مما لا يتفق مع ظنه الأول.

- إنني آتٍ من الحمامات الدافئة يا سيدي، الواقعة في شارع قريب من هنا.

- وماذا جرى في الحمامات الدافئة؟

- أتسمح بالذهاب معي إليها فوراً يا سيدي؟ لقد وجدنا هذه موضوعة على المائدة.

ثم وضع في يد الطبيب قصاصة ورق. ونظر الطبيب إليها، وقرأ اسمه وعنوانه مكتوبين عليها بالقلم الرصاص، ولا شيء غير هذا. وبعد

أن أمعن النظر إلى الكتابة، وتطلع إلى الرجل، تناول قبعته من المشجب ووضع مفتاح البيت في جيبه، وانصرف مع الرجل مهرعاً.

ولما وصلا إلى الحمامات الدافئة، وجدا كل الذين فيه ينتظرونهما بلهفة، وكان بعضهم يجرون هنا وهناك في الممرات. وأسرع الطبيب يقول بصوت مرتفع للمدير:

- اطلب من الجميع أن يفسحوا لي الطريق إذا سمحت. وأرجو أن تمضي بي فوراً يا صديقي إلى المكان...

وكانت هذه العبارة الأخيرة موجهة إلى حامل الرسالة الذي أسرع به عبر عدد كبير من الغرف الصغيرة، وعند آخر غرفة راح يطل من بابها. وأطل الطبيب الذي كان في أعقابه من نفس الباب.

كان في ذلك الركن الأخير حوض حمام نزحت منه المياه بسرعة، وفي قاعة كان ثمة جسد ملقى، وكأنه في قبر أو في ناووس، وعليه غطاء وضع فوقه بسرعة، وكان الجسد لرجل ضخم الحجم، طفيلي الرأس، له ملامح غليظة وضعيفة سوقية. وكان ثمة فجوة في السقف قد فتحت لإطلاق البخار الذي كان يملأ الغرفة. ولكنه ظل مخيماً وقد تكثف جانب منه إلى قطرات مائية غزيرة على الجدران، وعلى وجه الجسد الملقى في الحمام. وكانت الغرفة لا تزال حارة، ورخام حوض الاستحمام لا يزال دافئاً. ولكن الوجه والجسد كانا لزجين عند اللمس. وكان اللون الأبيض الناصع في قاع الحوض معرقاً بلون أحمر رهيب. وعلى رف الحوض الجانبي، كان ثمة زجاجة لصبغة أفيون فارغة، ومبراة ذات مقبض قرني، ملونة، ولكن بغير مداد.

- قطع في الوريد، ووفاة سريعة، وقد مضى عليها نحو نصف ساعة على الأقل.

ورنّ صدى كلمات الطبيب في الممرات والغرف الصغيرة، وفي أنحاء البناية كلها. وهو ينتصب واقفاً بعد انحناءاته ليصل إلى قاع الحوض، وقبل أن يفرغ من غسل يديه في إناء ماؤه معرق. كما تعرق قاع الحوض، قبل أن يمتزج كله في لون واحد.

وأدار عينيه إلى الملابس الموضوعة على الأريكة، وإلى الساعة والنقود ومفكرة الجيب على المائدة ثم لفتت نظره ورقة صغيرة مطوية سببت انبعاجاً بسيطاً داخل المفكرة وقد ظهر جزء منها خارجها. وتطلع إليها، ولمسها، وجذبها قليلاً من بين الصفحات، ثم قال بهدوء وهو يفضها ويقرؤها:

- إنها موجهة لي.

ولم يكن بحاجة لأن يصدر أية تعليمات. فإن المسؤولين عن الحمام كانوا يعرفون ماذا ينبغي أن يفعلوا. ومن ثم سرعان ما أحضر إلى الحمام رجال السلطة المسؤولين، وسرعان ما وضع هؤلاء أيديهم على الجثة وعلى كل ما كان مع المتوفى، وكانوا يقومون بهذا كله في جد وهدوء وبساطة وكأنما كل منهم كان يملأ ساعته. وشعر الطبيب بالراحة حين خرج إلى هواء الليل -بل لقد ازداد إحساساً بالراحة، رغم اعتياده على هذا النوع من الأحداث- حين جلس على أقرب عتبة باب برهة وهو يشعر بالسقم والغثيان.

وكان قطب المحاماة يقيم في مكان قريب، فلما وصل إلى بيته، رأى ضوءاً في نافذة الغرفة التي يعرف أن صديقه يسهر فيها كثيراً إلى ساعة متأخرة مشغولاً بأعماله. ولما لم يكن ذلك الضوء موجوداً قط عندما لا يكون قطب المحاماة في الغرفة، فقد اطمأن الطبيب إلى أنه لم يأوِ بعد إلى فراشه. والواقع أن ذلك المحامي النشيط كان سيترافع في اليوم التالي في قضية مؤجلة للحكم، وكان يعرف أن الأدلة ضد موكله، ومن ثم راح يسهر في إعداد الفخاخ التي سيعيد بها السادة المحلفين.

وأدهشت طرقة الطبيب على الباب قطب المحاماة؛ ولكن بما أنه توقع فوراً أن شخصاً ما قد جاء ليخبره أن شخصاً ما آخر يسرقه أو على الأقل يحاول أن يسبقه إلى شيء ما، فقد أسرع بالهبوط في هدوء. وكان قبل ذلك قد غسل رأسه بماء بارد معطر ليزداد تنبهاً، وليجعل من هذا تمهيداً للماء الساخن الذي سيصبه على رؤوس المحلفين، وكان وهو يقرأ قد فتح ياقة قميصه إلى آخر مداها وذلك لكي يتمكن من إعداد أسباب خنق الشهود الخصوم. وكانت النتيجة أنه، حين هبط ليفتح الباب، بدا في حالة من الاضطراب والشعث. وقد ازداد اضطراباً وشعثاً حين رأى -دون الناس جميعاً- الطبيب الكبير، ولكنه سأله قائلاً:

- ماذا حدث؟

- لقد سألتني ذات مرة مم كان يشكو ميردل

- هذه إجابة غريبة. نعم، أعترف بهذا.

- وقد قلت لك إنني لم أعرف بعد!

- نعم. هذا ما قلته.

- لقد عرفت الآن.

فقال قطب المحاماة وهو يجفل متراجعاً ويضرب بيده صدر الآخر:

- يا إلهي. وأنا أيضاً. إني أرى هذا في وجهك.

وتوجَّها إلى أقرب غرفة حيث سلّم الطبيب للمحامي الرسالة ليقرأها. وقرأها بإمعان عدة مرات. ولم يكن فيها، من ناحية الكلمات، شيئاً كثيراً. ولكنها استلزمت الشيء الكثير من اهتمامه وتركيز ذهنه. ولم يستطع أخيراً أن يجد العبارات الكافية التي يعرب بها عن أسفه لأنه لم يستطع أن يصل بنفسه إلى هذا السر في الوقت المناسب. وقال إن أقل

خيط كان سيجعله سيد الموقف في هذه القضية. ويا للضجة التي كان يمكن أن تثيرها هذه القضية لو أنه غاص إلى أعماقها.

وانشغل الطبيب بنقل الخبر إلى قصر ميردل في شارع هاري ستريت ورأى قطب المحاماة أنه لن يستطيع العودة إلى مكتبه ليضع خطوط الشبكة التي سيغرر بها أذكى وأبرع مجموعة من المحلفين سوف يلتقي بهم بالمحكمة في اليوم التالي، والذين لا يمكن، كما قال لصديقه الطبيب، أن ينخدعوا بأي لون من السفسطة السطحية، أو أن تنفع معهم، لسوء الحظ، أية مناورة خادعة من مناورات المهنة، وكانت تلك هي الطريقة التي نوى أن يبدأ بها عمله معهم. ومن ثم قال إنه سيذهب معه أيضاً، وإنه سيتسكع ذهاباً وإياباً بالقرب من البيت ريثما يفرغ صديقه من مهمته في الداخل. وهكذا سارا معاً إلى هناك؛ وكان السير في ذاته سبباً لاستردادهما هدوئهما النفسي؛ وكانت أجنحة الفجر ترفرف على ظلام الليل عندما طرق الطبيب الكبير على الباب.

وكان أحد التشريفاتية، في ملابس ملونة زاهية كأنها أطياف قوس قزح في عين الرجل العادي، جالساً في انتظار عودة رب البيت، أو على الأصح، مستغرقاً في النوم بالمطبخ فوق شمعتين وصحيفة المساء، مبرهناً بحشد من الأدلة على استبعاد أية احتمالات لاندلاع النار في البيت قضاءً وقدراً. ولما أوقظ هذا الخادم، كان على الطبيب الكبير أن ينتظر إيقاظ رئيس السقاة. وأخيراً أقبل ذلك المخلوق السامي إلى قاعة المائدة في رداء قطني وحذاء خفيف، ولكن مع وجود ربطة العنق حول عنقه، وطاقم العمل كله على جسمه. وكان الصبح قد أسفر عندئذ، وكان الطبيب الكبير قد فتح المصاريع الخشبية لإحدى النوافذ في أثناء الانتظار عسى أن يرى ضوء النهار.

– يجب استدعاء وصيفة السيدة ميردل، لكي يطلب منها إيقاظ السيدة ميردل وإعدادها بقدر ما يمكنها من رفق لمقابلتي. فإن لدي أنباء رهيبة سأخبرها بها.

قال الطبيب هذا لكبير السقاة الذي استدعى -وهو يحمل شمعة في يده- أحد مرؤوسيه ليأخذها منه. ثم اقترب من النافذة في وقار وهو ينظر إلى أنباء الطبيب الكبير بنفس نظرته إلى ولائم الطعام التي كانت تقام في هذه القاعة.

- لقد مات السيد ميردل.

وقال رئيس السقاة:

- كنت أتمنى لو استطعت أن أخطره بالخروج من خدمته خلال شهر.

- لقد قتل السيد ميردل نفسه.

فقال رئيس السقاة:

- سيدي، إن هذا شيء مؤلم جداً لمشاعر رجل في مثل مركزي، وكأنما المقصود إثارة حفيظتي عليه، ومن ثم ينبغي أن أستقيل فوراً.

فسأله الطبيب بحرارة:

- إذا لم يصدمك هذا النبأ، ألم يدهشك على الأقل يا رجل؟

وأجاب رئيس السقاة في هدوء وثبات، بهذه الكلمات الخالدة:

- سيدي، لم يكن السيد ميردل سيداً مهذباً في يوم ما، ومن ثم فإن أي سلوك يصدر عنه لا يدهشني ما دام لا يتفق مع سلوك السيد المهذب. هل هناك شخص آخر تحب أن أرسله إليك، أو أية تعليمات أخرى يمكن أن أبلغها قبل أن أرحل، وذلك فيما يختص برغبتك، لما ينبغي أن تفعل؟

ولما فرغ الطبيب من مهمته مع السيدة ميردل بالطابق العلوي وعاد إلى قطب المحاماة في الشارع، لم يقل له عن مقابلته للسيدة ميردل أكثر من أنه لم يذكر لها كل الحقيقة، وأنها تلقت ما قاله لا بشجاعة وثبات. وكان قطب المحاماة قد استغل وجوده في الشارع في إنشاء أحكم فخ

بشري للإيقاع بكل المحلفين بضربة واحدة. وبعد أن استقر الأمر على هذا النحو في ذهنه، الذي شحذته الكارثة الأخيرة، عاد إلى البيت ببطء وهو يستعرضه من جميع الوجوه. وقبل أن يفترق عن الطبيب عند بابه، نظر كلاهما إلى السماء المشرقة بضوء الصباح، وإلى سحائب الدخان المنسابة من مداخن نيران اشتعلت في ساعة مبكرة؛ وكانت أنفاس وأصوات الذين خرجوا مبكرين ترتفع في هدوء وسلام. ثم التفتا إلى المدينة الضخمة، وقال أحدهما للآخر، لو أن مئات الآلاف من سكانها البؤساء هؤلاء الذين لا يزالون يغطون في النوم قد عرفوا ما عرفاه هما الاثنان، وأدركوا الخراب الذي يرفرف عليهم، فأية صرخة رهيبة حزينة جماعية يمكن أن تبلغ عنان السماء.

وانتشر نبأ وفاة الرجل العظيم بسرعة مذهلة. وقد مات في أول الأمر بكل أنواع الأمراض المعروفة، وبعدد كبير من الأمراض الجديدة جداً التي ابتكرت بسرعة البرق لمواجهة الرغبات التي اقتضتها المناسبة. لقد كان يخفي منذ الطفولة مرض الاستسقاء. لقد ورث كمية كبيرة من الماء في صدره من جده، لقد كانت تُجرى له عملية جراحية كل صباح منذ ثمانية عشر عاماً، لقد تعرض لانفجار الشرايين الهامة في جسمه كانفجار الصواريخ، لقد كان يعاني من مرض ما في رئتيه، لقد كان يعاني من داء في القلب، لقد كان يشكو من شيء ما في المخ، خمسمائة شخص جلسوا إلى موائد الإفطار وهم لا يعلمون بالحقيقة الكاملة، ومع ذلك آمنوا، قبل أن يفرغوا من طعامهم، أنهم كانوا يعرفون بطريقة خاصة، وشخصية، أن الطبيب الكبير قال للسيد ميردل:

– يجب أن تتوقع أنك ستمضي عن هذه الحياة مثل هباء ذبالة الشمعة.

وأنهم كانوا يعرفون أن السيد ميردل قال للطبيب الكبير:

- إن الإنسان لا يموت إلا مرة واحدة.

وعندما بلغت الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، كانت الشكوى من شيء ما في مخه هي النظرية الأثيرة دون التكهنات جميعها. وعند الظهيرة تحول هذا الشيء إلى يقين بالوفاة من الضغط.

وكان الضغط نظرية مُرْضية جداً عقلية الناس، وبدا أنها أثارت الرضا في نفس كل إنسان، بحيث كان من الممكن أن تصمد بقية اليوم لولا أن قطب المحاماة عرض حقيقة الحدث في المحكمة في الساعة التاسعة والنصف. وقد أدى هذا إلى بدء انتشار الخبر همساً بأن السيد ميردل قتل نفسه حتى عمَّ مدينة لندن كلها في الواحدة بعد منتصف الليل. ولكن الضغط على كل حال، بدلاً من أن تهمل نظريته، إذا هي، بالعكس، تغدو أحب النظريات أكثر مما كانت من قبل. وأصبح الضغط موضع التعليق والتحليل العام في كل شارع. لقد راح كل شخص حاول أن يجمع المال الكثير ولم يستطع، يقول: انظروا إلى ما حدث! إنك لا تكاد تكرس نفسك لجمع المال حتى تصاب بالضغط. وزاد الكسالى هذه الآراء تحسيناً بطريقة مماثلة. كانوا يقولون: انظروا، هذه هي نتيجة العمل، والعمل، ولا شيء غير العمل. إنكم تصرون على العمل، إنكم تسرفون فيه، ويأتي الضغط، وتنتهي أعماركم. كانت هذه النظرية قائمة في كل مكان، ولكنها كانت أقوى كثيراً بين الكتبة وصغار الشركاء الذين ليس ثمة أي خطر في إقبالهم على العمل بإسراف. لقد أعلن هؤلاء جميعاً، بخشوع، أنهم يرجون ألا ينسوا هذا الإنذار مدى الحياة، وأن سلوكهم يجب أن ينظم حتى يتجنبوا الضغط، وحتى يعيشوا من أجل راحة أصحابهم سنوات كثيرة.

ولكن الوقت الذي بدأت فيه الأسعار الجدية في البورصة، بدأ الضغط يتراجع أمام الهمسات المفزعة التي أخذت تلف وتدور شرقاً

وغرباً وشمالاً وجنوباً. لقد بدأت في أول الأمر خافتة، ولا تكاد تتجاوز الشك فيما إذا كانت ثروة السيد ميردل قد وجدت أقل مما كان يظن لها، وما إذا كان ثمة عقبات مؤقتة في «الحصول عليها». وما إذا كان ثمة احتمال في وقف التعامل مع البنك المدهش «قل لمدة شهر أو نحوه»، وعندما ازدادت الهمسات ارتفاعاً، وهذا ما حدث منذ بدئها، أصبحت أكثر خطراً. لقد نشأ من لا شيء، ونما بسرعة بطريقة غير طبيعية أو بوسائل لا يستطيع أحد أن يعرف كنها. وقد كان، رغم كل شيء، رجلاً وضيعاً جاهلاً. لقد كان رجلاً ذليل النظرة، وإن أحداً لا يذكر أنه استطاع تبادل النظرات معه. وأنه كان قد نال رعاية كل أنواع الناس بوسائل لا يعرفها أحد. وأنه لم يكن يمتلك أية أموال خاصة، وأن مغامراته المالية كانت جد طائشة، وأن نفقاته ضخمة جداً. واستمرت الشائعات على هذا النحو الرهيب مع مرور ساعات اليوم. لقد ترك رسالة في الحمامات موجهة إلى الطبيب الكبير، وإن الطبيب الكبير قد تسلّم الرسالة، وإن الرسالة ستقدم في جلسة التحقيق في اليوم التالي، وإنها ستنقض كالصاعقة على الجماهير المخدوعة. لسوف يحل الخراب بعدد كبير من الناس في كل مهنة أو صناعة عندما يشهر الإفلاس، وإن العجائز الذين عاشوا حياتهم في حالة راضية لن يجدوا مجالاً يندمون فيه على ثقتهم به إلا في الملاجئ. جماعات بعد جماعات من النساء والأطفال سيضيع مستقبلهم على يد هذا المجرم العتيد. إن كل مدعو إلى ولائمه الفاخرة لا بد كان شريكاً في عمليات نهب وسلب أعداد لا حصر لها من البيوت. إن كل عابد من عباد الثراء ساعد على وضعه في تلك المكانة الرفيعة كان الأفضل له لو أنه عبد الشيطان بلا قيد أو شرط. وهكذا ظلت الأقوال تقوى وتشتد، بما يضفي عليها من تأييد بعد تأييد، وبما يضاف إليها في الطبعات تلو الطبعات من صحف المساء، حتى أمست عند حلول الليل هديراً رهيباً، وحتى ليبدو في يقين حارس وحيد في الشرفة المحيطة بقبة كاتدرائية سانت بول أن

هواء الليل قد غدا مثقلاً بهمهمات اسم ميردل ممزوجة بكل نوع من أنواع الويل والدمار.

ذلك أنه قد عرف عند ذلك الحين أن الشيء الذي كان السيد ميردل يشكو منه لم يكن غير التزييف والسرقة. ذلك الرجل، الذي كان موضع التقديس من الجميع، والمدعو إلى حفلات الكبراء والعظماء، وبيضة الرخ في الاجتماعات النسائية الخطيرة، والحرب العوان على الفردية والاحتكارية، والمعلّي لشأن الكرامة والكبرياء، وراعي الرعاة، والمساوم العنيد مع الوزير من أجل سادة إدارة الشؤون العامة، والمتلقي لأنواع من التكريم خلال عشر أو خمس عشرة سنة أكثر مما تلقى كل المصلحين مجتمعين في إنكلترا وكل قادة الفن والعلم مع كل ما قدموه من أعمال لإثبات إمكانياتهم، خلال قرنين من الزمان على الأقل. هذا الرجل، الأعجوبة الباهرة، والكوكب الجديد الذي ينقاد له الحكماء بالهدايا حتى يتوقف عند جيفة في قاع أحد الحمامات ثم يختفي.. هذا الرجل كان أخطر مزيّف، وأخطر لص استطاع أن يفلت من حبل المشنقة..

* * *

قبض الريح

اندفع السيد بانكس بصوت امتزجت فيه الأنفاس المسرعة مع وقع الأقدام المسرعة، إلى مكتب حسابات آرثر كلينام. وكانت جلسة التحقيق قد انتهت، وعرف أمر الخطاب، وانهار البنك، واشتعلت وانهارت أيضاً المؤسسات الأخرى المتعلقة بالبنك الوهمي فأصبحت كالهباء. وهكذا نسفت سفينة القرصنة التي كانت موضع إعجاب الجميع، في وسط أسطول ضخم من جميع أنواع السفن، ومن مختلف أحجام الزوارق، ولم يبقَ في القاع إلا الحطام.. لم يبقَ إلا الجوانب المحترقة، ومخازن الذخيرة المتفجرة، والمدافع الضخمة التي انفجرت من تلقاء نفسها ممزقة الأصدقاء والجيران إرباً. مغرِقة الناس المتعلقين بالقوائم غير الصالحة للعوم فترسل بهم إلى القاع في كل لحظة، والسابحون الذين أهلكهم التعب فطفت أجسادهم على السطح.. وغير أسماك القرش.

وكان مكتب الحسابات بالمصنع، على غير عادته من الترتيب والتنسيق. فقد تناثرت على المكتب الخطابات غير المفتوحة، والأوراق غير المرتبة. وفي وسط هذه الأدلة من النشاط المكبوت والأمل الضائع جلس رب المكتب في مكانه المعتاد، متراخياً، وقد عقد ذراعيه فوق سطحه، وأراح رأسه عليهما.

اندفع السيد بانكس داخلاً، ورآه، وتسمر في مكانه، وفي اللحظة التالية كانت ذراعا السيد بانكس معقودتين على المكتب، ورأسه فوقهما، وبقي الاثنان في هذا الوضع فترةً ما، متراخيين، صامتين، وعرض الغرف الصغيرة يفصل بينهما.

وكان السيد بانكس أول من رفع رأسه ليقول:

- أنا الذي أغريتك على هذا، وإني لأعرف ذلك. قل ما تشاء، فإنك لن تستطيع أن تقول عني أكثر مما قلت عن نفسي. إنك لن تستطيع أن تقول أكثر مما أستحق.

فردّ كلينام قائلاً:

- أوه، بانكس، بانكس. لا تتحدث بشيء عما تستحق، وإلا فماذا أستحق أنا؟

فقال بانكس:

- حظاً أحسن.

فاستطرد كلينام يقول دون أن يعيره التفاتاً:

- أنا الذي دمرت شريكي! بانكس، بانكس، لقد دمرت دويس لقد دمرت هذا الرجل العجوز الأمين العصامي المثابر الذي شقّ بنفسه طريقه كله في الحياة، الرجل الذي صبر على كل ما عاناه من عنت ومحنة، ثم خرج من هذا كله محتفظاً بطبيعته الطيبة الكريمة، الرجل الذي أحببته كثيراً، وقررت أن أكون مخلصاً ونافعاً له. لقد دمرته، جلبت عليه الفضيحة والعار، دمرته، دمرته.

وكان العذاب الذي أثارته هذه الأفكار في ذهنه مرتسماً بوضوح على وجهه، ومثيراً لأحزان الناظر إليه، بحيث راح السيد بانكس يمزق شعر رأسه من فرط الأسى واليأس، وهو يهتف قائلاً:

- وبخني.. وبخني يا سيدي وإلا أضررت بنفسي. قل لي أيها الأحمق، أيها الوغد، قل لي أيها الحمار كيف أمكنك أن تفعل هذا، أيها الحيوان، ماذا كنت تعني بفعل هذا. أمسكني بعنف من مكان ما، اشتمني.

وكان السيد بانكس خلال هذا لا يكف عن تمزيق شعره الخشن بطريقة قاسية لا هوادة فيها.

وقال كلينام بلهجة تنم عن الإشفاق أكثر مما تنم عن الملام:

- لو أنك لم تخضع قط لذلك الهوس المهلك، لكان في ذلك خير كثير لك وخير كثير لي.

فصاح بانكس وهو يطحن أسنانه في ندم:

- هاجمني مرة أخرى يا سيدي.

فقال كلينام متأوهاً:

- لو أنك لم تقم قط بعملياتك الحسابية اللعينة لتصل إلى تلك النتائج بذلك الوضوح المقيت، لكان في ذلك خير كثير لك، وخير كثير لي.

فهتف بانكس وهو يخفف قبضته عن شعره:

- هاجمني ثانية يا سيدي! هاجمني المرة بعد الأخرى!

ولما رأى كلينام، على أية حال، أنه قد بدأ يهدأ على هذا النحو، فقد أخذ يقول له كل ما يريد، وأكثر مما يريد. وأخيراً ضرب يداً بيد وأضاف قائلاً:

- أيها القائد الأعمى لجماعة من العميان يا بانكس، أيها القائد الأعمى لجماعة من العميان! ولكن دويس، دويس، دويس، صديقي المظلوم.

ثم عاد وانكفأ برأسه على المكتب مرة أخرى.

وكان بانكس، أول من قطع حبل الصمت الذي خيّم عليهما مرة أخرى بعد أن عادا إلى وضعهما السابق، فقال:

- لم أذق النوم يا سيدي منذ أن بدأ الخبر في الانتشار، لقد انطلقت هنا وهناك عسى أن يتحقق الأمل في إنقاذ ما يمكن إنقاذه. ولكن بلا جدوى. ضاع كل شيء ضاع كل شيء.

فرد كلينام قائلاً:

- أنا أعرف هذا جيداً جداً.

وشغل بانكس فترة الصمت التالية بآهة توجّع كانت نابعة من أعماق القلب.

وقال آرثر:

- أمس فقط يا بانكس.. أمس فقط، الاثنين، كنت قد قررت نهائياً أن أبيع، وأن أضع حداً لهذا الأمر.

فردّ السيد بانكس قائلاً:

- لا أستطيع أن أقول هذا عن نفسي، وذلك رغم أنه من العجب الشديد أن عدداً كبيراً من الناس الذين سمعت عنهم كانوا ينوون أن يبيعوا أمس دون أي يوم آخر من الأيام الثلاثمائة والخمسة والستين لو لم تفتهم الفرصة.

وكانت أنفاسه الشبيهة بحفيف انطلاق البخار؛ والمضحكة عادة، أكثر تتابعاً من عدد كبير من التأوهات. هذا بينما كان من قمة رأسه إلى أخمص قدمه في تلك الحالة من القذارة والشعث والإهمال بحيث كان من الممكن أن يكون صورة حية لسوء الحظ الذي لا يكاد الإنسان أن يتبينه من خلال طبقة القذارة.

وقال متلعثماً بصوت متقطع:

- سيد كلينام.. هل فرغت من.. كل شيء؟

- كل شيء.

وأمسك السيد بانكس بشعره الخشن مرة أخرى وشدّه بكل عنف حتى انتزع عدة شعرات شائكة منه. وبعد أن تطلع إليها في مقت وحشي، وضعها في جيبه، بينما قال كلينام وهو يمسح بعض قطرات من الدموع التي كانت تنحدر في سكون على وجهه:

- يجب أن أتخذ إجراءاتي فوراً. يجب أن أعمل على إنقاذ ما يمكن إنقاذه. يجب أن أنصف سمعة شريكي. أما من ناحيتي فلا يجب أن أحتفظ لنفسي بشيء. يجب أن أتخلى للدائنين عن كل حقوق الإدارة التي أسأت استعمالها، كما يجب أن أعمل بكل ما في وسعي من طاقة عمل، طيلة حياتي. لأصلح خطأي، بل لأكفر عن جريمتي.

- هل من المستحيل يا سيدي أن تتمهل في الوقت الحاضر في تنفيذ هذا كله؟

- هذا مستحيل. لا يمكن التمهل في شيء الآن يا بانكس. فكلما أسرعت في التخلي عن الإدارة كان هذا أحسن. إن لدينا ارتباطات يجب الوفاء بها في هذا الأسبوع. وسوف يحل بنا الخراب خلال أيام معدودة إذا أنا حاولت تأجيل الوفاء ولو لمدة يوم واحد طالما أني أعرف -سراً- ما أعرفه. لقد أمضيت ليلة الأمس كلها في التفكير فيما ينبغي أن أفعل. ولم يبقَ إلا أن أفعل ما فكرت فيه.

فقال بانكس الذي كان وجهه مبللاً وكأنما تحول البخار المتصاعد من فمه أنفاساً بسرعة مزعجة إلى قطرات مائية:

- لا يجب أن تقوم بها كله بمفردك. يجب أن تستعين بأحد رجال القانون.

- ربما يحسن أن أفعل هذا.

- استعن براج.

- ليس هناك الكثير مما عليه أن يفعله. وفي مقدوره أن يقوم بهذه المهمة كأي شخص آخر.

- هل أستدعي إليك راج يا سيد كلينام؟

- إذا سمح لك وقتك، فسوف أكون شاكراً لك الفضل جداً.

وسرعان ما وضع السيد بانكس قبعته على رأسه، وانطلق بخارياً إلى منطقة بانتوفيل. وفي أثناء غيبته لم يرفع آرثر رأسه قط عن سطح المكتب، وإنما بقي في ذلك الوضع لا يريم.

وعاد السيد بانكس ومعه صديقه ومستشاره القانوني السيد راج. وكان ما عاناه السيد راج من عنت وإرهاق في الطريق بسبب اضطراب حالة السيد بانكس العصبية والذهنية، سبباً لأن يبدأ عمله الاستشاري القانوني بطلب خروج ذلك السيد من المكتب. ولم يسع السيد بانكس إلا أن يطيع هذا الطلب في ذلة، وخضوع.

وقال السيد راج:

- إن حالته تشبه حالة ابنتي، يا سيدي، عندما اتخذنا الإجراءات القانونية بشأن فسخ خطبتها على بوكنز، وكانت هي المدعية في تلك القضية. إنه يتخذ في قضيتنا هذه موقفاً ينم عن الاهتمام الشديد والانفعال العنيف. ولكن مثل هذه الانفعالات لا تفيد كثيراً في مهنتنا يا سيدي.

وفيما هو يخلع قفازيه ويضعهما في قبعته، لاحظ بنظرة جانبية أو نظرتين، أن عميله طرأ عليه تغيير كبير. ومن ثم قال:

- يؤسفني أن ألاحظ يا سيدي أنك تسمح لعواطفك بالتأثير على صحتك، وإني لهذا أرجوك أن تهدأ، أرجوك. حقاً إن هذه الخسائر جديرة بالأسى الشديد. ولكن ينبغي أن نواجه الأمر الواقع بشجاعة.

فتنهد كلينام قائلاً:

- لو كان المال الذي ضحيت به كله مالي، لما اهتممت كثيراً بالخسارة.

فقال السيد راج وهو يفكر يديه في هيئة المستبشر:

- أحقاً يا سيدي؟ إنك تدهشني. إن هذا سلوك فريد في نوعه. لقد دلتني تجاربي بوجه عام يا سيدي أن الناس لا يهمهم بصفة خاصة إلا أموالهم. لقد رأيت أناساً يضيعون مبالغ كبيرة من أموال أناس آخرين دون أن يبالوا إطلاقاً.. نعم، دون أن يبالوا حقاً.

وبهذه العبارات المهدئة، جلس السيد راج على مقعد أمام المكتب وشرع في أداء مهمته.

- والآن بعد إذنك يا سيد كلينام، هلم نبحث الأمر. هلم نستعرض الحالة. والسؤال الذي يواجهنا بسيط. سؤال عادي مباشر واضح معقول. ماذا يمكن أن نفعل لأنفسنا؟ ماذا يمكن أن نفعل لأنفسنا؟

فقال آرثر:

- ليس هذا هو السؤال الذي يعنيني يا سيد راج. لقد أخطأت منذ البداية. أما السؤال الواجب فهو: ماذا يمكن أن أفعل لشريكي، ما هي أحسن وسيلة لإصلاح ما أفسدته له.

فقال السيد راج في لهجة استدراجية.

- أتعلم يا سيدي أنني ما زلت أخشى أن تكون مستمراً في تغليب عواطفك على عقلك. إنني لا أحب عبارة «إصلاح ما فسد» يا سيدي إلا

إذا كانت وسيلة نافعة في يد مستشارك القانوني. فهل تأذن لي بالقول إني أرى من واجبي أن أحذرك من الانسياق وراء عواطفك في هذا الشأن؟

وأعد كلينام نفسه لينفذ ما عقد عليه عزمه، وليدهش ذلك السيد بالظهور، وهو في حالته هذه اليائسة، بمظهر الذي يصمم على تحقيق هدفه، ومن ثم قال:

- سيد راج؟ إنك تجعلني أشعر أنك لا تميل كثيراً لأن تتجاوب مع النهج الذي قررت اتخاذه في هذا الشأن. فإذا كان رفضك له يجعلك غير راغب في أداء هذه المهمة كما يستلزم الأمر، فإني آسف لهذا، ويجب أن أبحث عن العون من شخص آخر. وأحب أن أبين لك فوراً أن المناقشة معي في هذا الشأن لا تجدي.

فأجاب السيد راج وهو يهز كتفيه:

- حسناً يا سيدي. حسناً. ما دامت هذه المهمة يجب أن يؤديها شخص ما، فلأكن أنا هذا الشخص. هكذا كان موقفي في قضية ابنتي مع خطيبها بوكنز. وهذا هو مبدئي في كل القضايا.

وعندئذ شرع كلينام في إخبار السيد راج بما انعقد عليه العزم. فقال له إن شريكه رجل على جانب كبير جداً من البساطة والاستقامة؛ وإن كل ما ينوي أن يفعله، إنما هو مدفوع إليه، فوق كل شيء، بما يعرفه عن أخلاق شريكه، وبما يمكنه من احترام لمشاعره. وقد أوضح له أن شريكه في ذلك الحين غائب في مهمة ذات أهمية، وأن عليه هو، بصفة خاصة، أن يحمل أمام الناس عبء الخطأ الذي ارتكبه بتهور، وأن يجنب شريكه، أمام الناس جميعاً، كل اشتراك في مسؤولية هذا الخطأ وإلا تعرضت للخطر أسباب نجاح هذه المهمة لأقل شك يدور ظلماً حول شرف شريكه وأمانته في بلد آخر. وأخبر السيد راج أنه لكي ينقذ سمعة

شريكه إلى أقصى حد، فإن عليه، أي آرثر، أن يعلن للملأ، ودون أدنى تحفظ، أنه هو، آرثر كلينام، الشريك في هذه الشركة، قد تصرف من تلقاء نفسه بل وضد نصيحة شريكه وتحذيراته، وغامر بأموال الشركة في عمليات النصب التي عرف أمرها أخيراً. وأن هذا هو التكفير الوحيد الذي في وسعه أن يكفر به عن خطئه. وأن هذا التكفير هو أفضل ما يمكن أن يقدمه لشخص معين دون عدد كبير من الناس، وأنه -أي التكفير- أول ما ينبغي أن يقوم به لهذا السبب. وفي هذا النطاق، أبدى رغبته في إصدار بيان مطبوع يحمل هذه المعاني، وهذا البيان قد أعده فعلاً. وقال إنه بعد توزيع هذا البيان على جميع عملاء الشركة، سوف ينشره في صحيفة عامة. وبجانب هذه الإجراءات، التي جعلت أمارات القلق والاستياء ترتسم على وجه السيد راج وتبدو في كل حركاته، سوف يرسل خطاباً إلى جميع الدائنين يعفي فيه شريكه من المسؤولية بطريقة جادة، ويخبرهم فيه بتوقف العمل في الشركة حتى يتبين رغبتهم، وحتى يتم الاتصال بشريكه، واضعاً نفسه بكل خضوع تحت أمرهم. فإذا قرروا، تقديراً لبراءة شريكه، أن تتخذ الإجراءات لتنظيم الأمور بحيث يمكن استئناف العمل بوسائل مربحة، ثم التغلب على هذه الأزمة، فإن نصيبه في الأرباح، عندئذ، سوف يحول إلى شريكه باعتباره التعويض الوحيد الذي يمكن أن يقدمه إليه، وكترضية مالية لما جلبه عليه -بسبب سوء الحظ- من أحزان وخسائر. أما هو، فإنه على استعداد لأن يظل خادماً للشركة بكل إخلاص مقابل مرتب صغير يقيم أوده.

ورغم أن السيد راج كان يرى بوضوح أنه لا سبيل إلى مناقشة هذا القرار؛ فإن أمارات القلق على وجهه؛ واضطراب حركاته كانت في حاجة ملحة إلى عبارة احتجاج واحدة لتهدئتها. ومن ثم قال:

- إنني لا أعترض على شيء يا سيدي، لا أماري في أية نقطة معك. لسوف أنفذ رغباتك يا سيدي؛ ولكن مع احتفاظي بحقي في الاحتجاج.

وراح السيد راج عندئذ يعرض -في شيء من الإسهاب- أوجه احتجاجاته. وكان مؤداها أنه بسبب حالة الجنون التي تشيع في المدينة كلها، بل وفي أنحاء البلاد كلها، لما حدث أخيراً، فإن شعور السخط لا يزال على أشده ضد الضحايا المخدوعين: فالذين لم يخدعوا سوف يتعرضون للسخط والحنق من المخدوعين لأنهم لم يكونوا «أذكياء» مثلهم؛ والذين خدعوا سوف يلتمسون لأنفسهم الأعذار والمبررات التي يثقون في الوقت نفسه أنه ليس لغيرهم من المخدوعين الآخرين أن يلتمسوها لأنفسهم. هذا بخلاف الاحتمال الكبير في أن كل فرد مخدوع، سوف يقنع نفسه، وهو في أشد حالات السخط، أنه لولا الضحايا الآخرين الذين جعلوه يحذو حذوهم، لما وضع نفسه في هذا المأزق الحرج ومن ثم فإن بياناً كالذي ينوي كلينام أن يصدره في مثل هذا الوقت، سوف يعرضه بالتأكيد لعاصفة من العداء تجعل من المستحيل عليه أن يعتمد على فهم الدائنين لموقفه، أو اكتساب مودتهم له، وهكذا يجعل من نفسه هدفاً مفرداً لهجوم عنيف يقضي عليه تماماً من عدة جهات مختلفة.

وأجاب كلينام ببساطة عن هذا كله، قائلاً إنه على فرض صحة هذا الاحتجاج بأكمله، فإنه لا شيء يمكن أن يوهن من قوة إصراره على تطوعه لإعلان براءة شريكه أمام الملأ. ومن ثم طلب، للمرة الأخيرة، أن يبدأ السيد راج في العمل على مساعدته فوراً. وعندئذ أقبل السيد راج على العمل، ووضع آرثر بين يديه كل ما لديه من رصيد بسيط في البنك، مع أوراق ودفاتر العمل، غير محتفظ لنفسه إلا بملابسه وكتبه وبعض النقود البسيطة.

وظهر البيان، واحتدمت العاصفة ضده بعنف. وكان ثمة آلاف من الناس يفتشون بوحشية حولهم عن أي مخلوق حي ليهيلوا عليه أكوام اللوم والتعنيف، ومن ثم وضعت هذه القضية الواضحة، المعلنة على الملأ،

ذلك المخلوق الحي المطلوب، بإلحاح، على الذبح، فكان الذين لا علاقة لهم بالأمر يعربون عن سخطهم الشديد لشناعة ما فعله كلينام؛ ولم يكن منتظراً بطبيعة الحال أن ينظر الذين خسروا أموالهم إلى هذا الأمر ببساطة، وانهالت خطابات التوبيخ والتنديد من الدائنين ولم يسع السيد راج، الذي كان يجلس إلى المكتب كل يوم ويقرؤها، إلا أن يخبر موكله، خلال أسبوع، أنه يخشى أن يستصدر الدائنون حكماً قضائياً. وعندئذ قال له كلينام:

- ينبغي أن أتحمل كل نتائج ما فعلت. وسوف تجدني الأحكام القضائية في انتظارها هنا.

وفي اليوم التالي مباشرة، وفيما كان ينعطف إلى دكان السيد بلورنيش في حوش بليدنج هارت، وجد هذه السيدة واقفة في انتظاره بالباب، وقد أشارت إليه خفية أن يدخل معها إلى «الكوخ السعيد». وهناك وجد السيد راج الذي قال له:

- لقد رأيت أن أنتظرك هنا؛ فلو كنت في مكانك يا سيدي لما ذهبت إلى مكتب الحسابات هذا الصباح.

- لماذا يا سيد راج؟

- إن هناك بحسب علمي خمسة أحكام قضائية في انتظارك.

فقال كلينام:

- إن هذا شيء متوقع، فليأخذوني فوراً.

فقال السيد راج وهو يقف بينه وبين باب الخروج:

- نعم، ولكن، استمع لصوت العقل. استمع لصوت العقل. إنني لا أشك في أنهم سيأخذونك في أسرع وقت يا سيد كلينام، ولكن استمع لصوت العقل. فإنه ليحدث دائماً، وفي أحوال كثيرة في مثل هذه

الحالات، أن تتقدم مسألة بسيطة الدلالة على غيرها من المسائل الهامة، وتثير حولها ضجة كبيرة، وقد وجدت الآن واحدة من هذا النوع، مجرد أحكام قضائية أولية. ولدي من الأسباب ما يدل على أن الدائنين ربما يستصدرون أمراً بالقبض عليك بناءً عليها، وأنا لا أقبل أن يكون الأمر هكذا؟

فسأله كلينام قائلاً:

- لماذا لا؟

فقال السيد راج:

- يجب أن يكون الحكم صادراً من هيئة أعلى. فإن هذا سوف يتيح لك فرصة الإبقاء على المظاهر، وباعتباري مستشارك القانوني، فإني أفضل أن يكون الأمر القضائي صادراً من محكمة عليا إذا لم يكن لديك مانع في أن تسدي إليّ هذه الخدمة. إن الوضع عندئذ يكون أحسن حالاً.

فقال آرثر في إصرار:

- سيد راج، إن رغبتي الوحيدة هي أن أنتهي من هذا الأمر. ومن ثم سأمضي في طريقي وأواجه الأمر المقدَّر عليّ.

فصاح السيد راج قائلاً:

- كلمة عقل أخرى.. نعم، هذه هي كلمة العقل، وقد كانت الأخرى قائمة على المزاج ولكن هذا هو صوت العقل. إنك إذا أخذت بهذا الحكم الابتدائي، فسوف تذهب إلى سجن مارشاليزا، وأنت تعرف ما هو سجن مارشاليزا، ضيق جداً، ومزعج جداً. أما سجن «كنجز بنش»...

ولوح السيد راج بذراعه كأنما يعبر عن السعة والرحابة، ولكن كلينام قال له:

- إنني أفضل أن أُسجَن في مارشاليزا على أي سجن آخر.

فقال السيد راج:

- أحقاً ما تقول يا سيد كلينام؟ إذن فهذه أيضاً مسألة مزاج، ومن ثم يحسن بنا أن نمضي.

وشعر في أول الأمر ببعض الاستياء، ولكنه لم يلبث أن تغلب على هذا الشعور. وسارا معاً داخل الحوش حتى طرفه الآخر، وكان سكان الحوش قد أصبحوا أشد اهتماماً بآرثر، منذ تغير الأحوال، أكثر مما كانوا من قبل. وقد أخذوا عندئذ يرونه كفرد مخلص للحوش بسدد الدَّيْن من حريته. وقد خرج كثير منهم ليشيعوه بنظراتهم وليقول بعضهم لبعض في نفاق شديد: «حقاً لقد انهار تماماً بما حدث».

ووقفت السيدة بلورنيش ووالدها على قمة الدرجات في الطرف القريب من الحوش، وقد راحا يهزان رأسيهما في حزن شديد.

ولم يكن ثمة شخص مرئي في الانتظار عندما وصل آرثر والسيد راج إلى مكتب الحسابات، ولكن رجلاً كهلاً له هيئة اليهود، وكأنه محنط في خمر الروم، تبعهما عن قرب، أطل من وراء زجاج الباب قبل أن يفتح السيد راج أحد الخطابات الواردة في ذلك اليوم.

قال السيد راج وهو يرفع رأسه ويرى الرجل:

- أوه! كيف حالك؟ أدخل.. سيد كلينام؟ أعتقد أن هذا هو السيد الذي كنت أحدثك عنه الآن.

وشرح السيد الغرض من زيارته قائلاً إنها «مجرد مسألة بسيطة في شؤون العمل» ثم أبرز الحكم القضائي الواجب التنفيذ.

وقال السيد راج بأدب وهو يفرك يديه:

- هل أصحبك يا سيد كلينام؟

– لا، شكراً، أفضل أن أذهب بمفردي، وأرجو فقط أن تتكرم وترسل إليّ ملابسي.

وأجاب السيد راج في لهجة خفيفة متفائلة بأنه سوف يفعل هذا، ثم صافحه. وهبط آرثر مع حارسه إلى الباب، واستقلا أول مركبة مأجورة مرّت بهما، وانطلقا إلى بوابة السجن القديم، وهناك قال كلينام لنفسه:

– ما كان ليخطر ببالي قط، غفر الله لي، أني سأدخل من هذه البوابة في هذا الوضع.

وكان السيد شيفري قائماً على حراسة البوابة، وكان ابنه الشاب جون في كشك الحراسة، إما لأنه كان قد فرغ من نوبته فوراً وإما في انتظار أن يستلم نوبته بعد قليل. وقد دهش كلاهما عند رؤية السجين الجديد دهشةً لم يكن يتوقع أحد أن يحس بها حراس السجون. وصافحه السيد شيفري الوالد في هيئة تنم عن الخجل وهو يقول:

– لا أذكر يا سيدي أنني شعرت بالاستياء عند رؤيتك، كما أشعر الآن.

ولما كان شيفري الابن أبعد مسافة عنه، فإنه لم يصافحه، وإنما وقف يتطلع إليه في حالة واضحة من التردد حتى إن كلينام نفسه قد لاحظها رغم ما يثقل عينيه من أسى، وما يملأ قلبه من أحزان. ولم يلبث الشاب جون بعد ذلك أن اختفى داخل السجن.

ولما كان كلينام يدرك تماماً الإجراءات المتبعة التي تستلزم بقاءه في كشك الحراسة فترة من الوقت، فقد جلس على مقعد في الركن وتظاهر بالانشغال بقراءة الخطابات التي تناولها من جيبه. ولكنها لم تستغرق كل انتباهه ومن ثم لاحظ، في عرفان بالجميل، كيف حرص السيد شيفري الأب على إخلاء الكشك من المسجونين، وكيف كان يشير إلى بعضه،

بالمفاتيح، ألا يقتربوا. وكيف كان يلكز الآخرين بمرفقه ليبتعدوا، وكيف حاول أن يخفف من تعاسته بقدر ما يستطيع.

وفيما كان آرثر جالساً مطرق الرأس، متذكراً الماضي، مفكراً بحزن في الحاضر، غير مهتم بكليهما، إذا هو يشعر بلمسة على كتفه. وكان اللامس الشاب جون الذي قال:

- يمكنك أن تأتي الآن.

ونهض يتبعه. فلما وصلا إلى البوابة الداخلية، التفت الشاب جون إليه وقال له:

- إنك تريد غرفة، وقد أعددت لك واحدة.

- شكراً جزيلاً.

واستدار الشاب جون مرة أخرى، ومضى به إلى المدخل القديم، وصعد معه على السلّم القديم. ودخل به إلى الغرفة القديمة. وبسط كليتام يده، ونظر الشاب جون إليها، ونظر إلى وجهه، ثم أحس بغصة في حلقه وهو يقول:

- إنني لا أدري تماماً. نعم، لا أدري، ولكن خطر لي أنك ربما تفضل هذه الغرفة. وها قد أعددتها لك.

وأدت به دهشته لهذا السلوك المتناقض، بعد انصرافه -وكان قد انصرف فوراً إلى مشاعر أثارتها الغرفة الخالية في قلبه الجريح. وإلى حشد من الذكريات التي تتعلق بتلك المخلوقة الوحيدة الرقيقة التي كانت تقيم بها. وكان غيابها في ظروفه هذه المتغيرة، قد جعلتها وهو فيها، شديدة الوحشة، كما جعلته أحوج ما يكون إلى مثل هذا الوجه النابض بالحب والإخلاص، مما أدى به أخيراً إلى أن يستدير نحو الجدار ويبكي، ثم يقول وهو يشهق بالبكاء مخففاً عن ذات نفسه.

«أوه، يا صغيرتي دوريت».

تلميذ سجن مارشاليزا

كان اليوم مشمساً، وكان سجن مارشاليزا في وقدة الظهيرة ساكناً على غير المعتاد. وتهالك آرثر كلينام على مقعد وثير منعزل متداعٍ كأي نزيل بالسجن، واستسلم للأفكار.

وفي ذلك الإحساس غير العادي بالسكينة الذي أعقب الإجراءات المزعجة للقبض عليه وإحضاره إلى السجن؛ كان أول تغير في مشاعره أثارها وجوده بالسجن، وهي المشاعر التي كثيراً ما انحدرت بعدد كبير من الناس في مثل هذه الاستراحات الخطيرة، إلى مهاوي الذل والعار بوسائل كثيرة مختلفة... بهذه المشاعر الجديدة، استطاع أن يفكر في بعض المسالك من حياته، وكأنها قد انتقل منها تماماً إلى حالة أخرى من وجوده في الحياة. فإذا أخذنا في الاعتبار المكان الذي يقيم فيه الآن، والدوافع التي جاءت به إليه من قبل عندما كان حراً في البقاء خارجه، ورقّة الشخصية التي لا تكاد تنفصل ذكراها عن هذه الجدران والقضبان المحيطة به، ولا عن ذكرياته اللطيفة في حياته الأخيرة التي ما كان في مقدور قضبان أو جدران أن تقيدها.. باعتبار هذا كله لم يكن من الغريب أن يذكِّره كل شيء حوله بدوريت الصغيرة. ولكن الأمر كان بالنسبة إليه، لا لحقيقة الوضع في ذاته، وإنما لتذكره عندئذ لمدى تأثير تلك الصغيرة العزيزة في اتخاذه لأية قرارات حميدة.

ليس بيننا من يعرف بوضوح إلى أي شخص أو إلى أي شيء هو مدين في أمر كهذا حتى يتوقف في وضع معين في أثناء دوران عملية الحياة وقفة تضيء الحقيقة أمام إدراكه. هذه الوقفة قد تأتي مع المرض، وقد تأتي مع الحزن، وقد تأتي مع فقد إنسان عزيز، إنها واحدة من أكثر وقفات الحياة المفعمة بالنوازل. وقد حلّ هذا الموقف بكليننام في محنته بكل قوة وحنان. وقد قال لنفسه:

«عندما جمعت شتات نفسي في أول الأمر، ووضعت هدفاً معيناً أمام عيني المجهدتين، فمن كان أمامي، تكدح من أجل هدف طيب، دون تشجيع ودون أية ملاحظة من أحدهم، وضد عقبات مهولة قد يرتد أمامها جيش من الأبطال والبطلات المعترَف بهم. فتاة ضعيفة واحدة! وعندما حاولت أن أهزم حبي الخاطئ، وأن أكون كريماً مع الرجل الأحسن حظاً مني، رغم أنه ما كان ليعرف هذا أو يرد على صنيعي بكلمة طيبة، ففي من راقبت الصبر، وإنكار الذات، وكبت النفس، وصرح الكرم والسماحة، وأنبل العواطف السامية! في نفس الفتاة المسكينة! فإذا كنت أنا، بمميزات الرجل ووسائله وطاقاته، قد خامر قلبي أقل همسات من الشك في أنه إذا كان أبي قد أخطأ، فإن واجبي الأول هو أن أخفي خطأه وأن أصلحه، فمن هي صاحبة الجسم الشاب التي كان تروح وتجيء بقدميها الرقيقتين على الأرضية الرطبة شبه العارية وبيديها المشغولتين دائماً بالعمل المجهد بقالبها الرقيق غير المحصنتين ضد البرد القارس.. من هي هذه التي كانت ستقف أمامي لتشعرني بالخجل؟ إنها دوريت الصغيرة».

وهكذا كانت أفكاره دائماً وهو جالس على المقعد المتداعي. دائماً دوريت الصغيرة. حتى بدا له كأنه نال جزاءه لأنه ترك نفسه يهيم بعيداً عنها، وأن يدع أي شيء يفصل بينه وبينها وبين ذكريات كل فضائلها.

وفتح باب غرفته، وأطلّ منه رأس شيفري الكهل قليلاً جداً دون أن يستدير نحوه، وقال:

- إنني فرغت من نوبتي عند البوابة يا سيد كلينام، هل أستطيع أن أؤدي لك أية خدمة؟

- لا، شكراً جزيلاً.

فقال السيد شيفري:

- أرجو المعذرة لفتحي الباب، ولكنني لم أستطع أن أجعلك تسمع.

- هل طرقت عليه؟

- عدة مرات.

ولما تنبه كلينام لنفسه، لاحظ أن السجن قد نهض من سبات القيلولة وأن السجناء راحوا يتسكعون في ظلال الفناء، وأن الوقت قد أمسى أصيلاً، وأنه من ثم، قد استغرق في أفكاره عدة ساعات.

وقال السيد شيفري:

- لقد وصلت حاجاتك، وسوف يصعد بها ابني. كان ينبغي أن أرسلها إليك، لولا رغبته في أن يحملها إليك بنفسه. الواقع أنه كان يريد أن يحملها إليك بنفسه، ولهذا لم أستطع أن أرسلها إليك. سيد كلينام، هل أستطيع أن أقول كلمة لك؟

فقال آرثر:

- أرجوك أن تدخل.

ذلك لأن رأس السيد شيفري كان لم يزل مطلاً من الباب على مسافة يسيرة، ولم يكن يبين منها غير أذن واحدة بدلاً من عينيه، وكانت

تلك رقة مقبولة من السيد شيفري -أدب حقيقي- وذلك رغم أن مظهره كان مظهر سجان فعلاً، ولا أثر فيه للرقة والتهذيب.

وقال السيد شيفري دون أن يتحرك من مكانه:

- شكراً لك يا سيدي، لا داعي لدخولي. اسمع يا سيد كلينام، لا تبالِ كثيراً بابني -إذا تكرَّمت بذلك- حين تراه يبدو أحياناً على غير ما ينبغي. إن لابني قلباً، وهو في مكانه الطبيعي، وأنا وأمه نعرف مكان هذا القلب، وقد وجدناه في وضعه الصحيح.

وبهذا الحديث الغامض، أخذ السيد شيفري أذنه معه وأغلق الباب. ولعله لم يغب عشر دقائق حين أعقبه في الحضور ابنه قائلاً وهو يضع حقيبة الثياب التي يحملها برفق:

- هذه هي حقيبة ملابسك.

- هذا كرم جزيل منك، وإنني لشديد الخجل إذ تتجشم هذه المشقة.

وكان قد انصرف قبل أن يفرغ آرثر من عبارته، ولكنه لم يلبث أن عاد قائلاً:

- وهذا هو صندوقك الأسود.

ثم وضعه أيضاً برفق.

- إنني مقدِّر لك هذه الرعاية، وأرجو أن نتصافح الآن يا سيد جون.

ولكن الشاب جون تراجع قليلاً وقد أدار معصم يده اليمنى في وقب صنعه من الإبهام والإصبع الأوسط من يده اليسرى، ثم قال كما قال من قبل:

- إنني لا أدري إذا كنت أستطيع. لا. إنني لا أستطيع.

ثم راح يتأمل السجين في صرامة وقد طفر المرح إلى عينيه، ولكنه كان أقرب إلى الرثاء.

وقال كلينام:

– لماذا أنت غاضب مني، ومع ذلك فإنك تؤدي لي هذه الخدمات الطيبة. ولا شك أن ثمة سوء فهم بيننا. فإذا كان قد بدر مني شيء كان السبب فيه، فإني آسف.

فقال الشاب جون وهو يحرك معصمه إلى الأمام وإلى الخلف في الوقب الذي كان ضيقاً عليه:

– لا سوء فهم يا سيدي. لا سوء فهم يا سيدي في مشاعرنا يمكن أن تراه عيني وأنا أنظر إليك في الوقت الحاضر! ولو أني كنت مساوياً لك إلى حد ما في الوزن يا سيد كلينام، وأنا لست كذلك، ولو لم تكن تعاني محنة، وهذا ما تعانيه فعلاً، ولو لم يكن الأمر مخالفاً لكل قوانين سجن مارشاليزا، وهذه هي الحقيقة، لولا هذا كله لدفعت بي هذه المشاعر إلى الاشتباك معك في جولة ملاكمة في هذا المكان أكثر من أن تدفع بي إلى شيء آخر أستطيع تسميته.

ونظر آرثر إليه في شيء من العجب، وفي قليل من الغضب، ثم قال:

– حسناً، حسناً، لا شك أن في الأمر سوء فهم. سوء فهم.

ثم استدار وعاد وهو يتنهد إلى الجلوس على المقعد المتداعي مرة أخرى.

وتتبعه الشاب جون بنظراته، ثم صاح بعد برهة صمت قائلاً:

– أرجو المعذرة.

وقال كلينام وهو يلوح بيده دون أن يرفع رأسه المطرق:

- عفواً، عفواً. لا تقل أكثر مما قلت. فإني غير جدير بكل هذا.

وقال الشاب جون بصوت وادع وإيضاح لطيف:

- هذه الأثاثات يا سيدي، هي ملكي. لقد اعتدت أن أؤجر الغرفة غير مفروشة للنزلاء الذين يستأجرونها. وليس هذا بالشيء الكثير ولكنه تحت أمرك، مجاناً كما أعني. إنني لم أستطع أن أؤجرها لك بأية شروط أخرى. إنني أقدمها إليك بلا مقابل.

ورفع آرثر رأسه مرة أخرى، لشكره، وليقول له إنه لا يستطيع أن يقبل هذا الصنيع. وظل الشاب جون يدير معصم يده، ويستمر على حاله الأول من الرغبة في الخصام.

وقال آرثر:

- ماذا بيننا؟

فقال الشاب جون وقد عاد صوته فجأة إلى الحدة والارتفاع:

- إنني أرفض أن أذكره يا سيدي، لا شيء بيننا.

ونظر آرثر إليه مرة أخرى، عبثاً، ملتمساً إيضاحاً لسلوكه هذا. وبعد برهة أدار رأسه مرة أخرى، ثم لم يلبث الشاب جون، بعد ذلك، أن قال بألطف صوت:

- هذه المائدة المستديرة الصغيرة يا سيدي، القريبة من مرفقك، كانت -أنت تعرف، كانت لمن- فلا داعي لأن أذكر اسمه. لقد مات سيداً كريماً جداً. واشتريتها من شخص كان قد أعطاها له، وكان قد أقام هنا بعده، ولكن ذلك الشخص لم يكن بأية حال في مستواه. إن معظم الأشخاص يجدون من العسير أن يصلوا إلى مستواه.

وجذب آرثر المائدة الصغيرة نحوه قليلاً، وأراح ذراعه عليها، وأبقاها هكذا. أما الشاب جون فقد استطرد قائلاً:

- لعلك لا تعلم يا سيدي أنني زرته بلا استئذان في أثناء إقامته هنا في لندن. وقد رأى -بالإجمال- أن زيارتي له على هذا النحو كانت تطفلاً، وذلك رغم أنه تكرم وطلب مني الجلوس ليسأل عن أبي وعن باقي الأصدقاء القدامى، بل وعن أقل المعارف شأناً، وقد بدا لي متغيراً إلى حد كبير. وقلت هذا عندما عدت. ولم أنسَ أن أسأله ما إذا كانت الآنسة إيمي بخير...

- وهل كانت؟

فردّ الشاب جون بعد أن ابتلع ريقه بصعوبة قائلاً:

- كنت أظن أنك لا بد تعرف هذا دون أن توجِّه إليّ مثل هذا السؤال. وما دمت قد سألتني، فلن أستطيع، للأسف، أن أجيب. ولكن الحقيقة هي أنه اعتبر سؤالي هذا جراءةً مني. وقال لي: «وما شأنك أنت بهذا» وعندئذ أدركت أنني متطفل بزيارتي هذه، وهذا ما كنت أخشاه من قبل. وعلى كل حال لقد تحدث برفق بعد ذلك.. برفق شديد.

ومرت دقائق كثيرة وهما صامتان، ولكن الشاب جون قطع فترة الصمت بقوله: «لقد كان مترفعاً في حديثه وسلوكه معي».

ومرة أخرى كان الشاب جون هو الذي قطع حبال الصمت بسؤاله:

- إذا لم أكن مقحماً نفسي، فإلى متى تنوي البقاء يا سيدي بلا طعام أو شراب.

فقال كلينام:

- إنني لم أشعر بعد بالرغبة في أي شيء. ليست لي شهية الآن.

فقال الشاب جون ملحّاً:

- وهذا أدعى لأن تتناول بعض العشاء. فإذا كنت ستبقى جالساً هنا هكذا الساعات بعد الساعات دون أن تتناول شيئاً لأنك لا تشعر بشهية، فمن الواجب إذن أن تتناول شيئاً بلا شهية. إنني سأتناول الشاي في غرفتي، فإذا لم أكن جريئاً معك، فهل تسمح بتناول قدح معي؟ أم هل تأذن فآتي بالصينية إلى هنا خلال دقيقتين.

ولما شعر كليتام أن الشاب جون سيتعب نفسه بإحضار الشاب إذا هو رفض الذهاب معه. ولما شعر أيضاً بالرغبة في أن يبين للسيد شيفري أنه لم ينسَ رجاءه، وللشاب جون أنه قَبِل اعتذاره، نهض وأعرب عن رغبته في تناول قدح من الشاي في غرفة السيد جون. وأغلق الشاب جون باب الغرفة نيابةً عنه، ودسّ المفتاح في جيبه بذكاء واضح وتقدمه في الطريق إلى غرفة إقامته.

وكانت الغرفة في أعلى المسكن الأقرب للبوابة. وكانت نفس الغرفة التي أسرع إليها كليتام في نفس اليوم الذي غادرت فيه الأسرة التي هبط عليها الثراء، بناية السجن إلى الأبد، والتي رفع فيها من على الأرض جسم الفتاة المغشيّ عليها. وقد أدرك إلى أين هو يمضي بمجرد أن لمست أقدامهما أولى درجات السلم. وكانت الغرفة قد طرأ عليها الآن تغيير كبير، فاكتست بجدرانها بالورق الملون، وأعيد طلاؤها، وغدت من ناحية المفروشات أجمل كثيراً. ولكن كان في مقدوره أن يتذكرها كما كانت حين ألقى عليها أولى نظراته، وحين رفعها عن الأرض وحملها إلى المركبة.

ونظر الشاب جون إليه بحدة وقال وهو يقضم أظافره:

- أرى أنك تتذكر الغرفة يا سيد كليتام.

- إنني أتذكرها جيداً. لتباركها السماء.

وراح الشاب جون -وهو غافل عن الشاي- يستمر في قضم أطراف أظافره والتطلع إلى الزائر. ما دام الزائر مستمراً في التلفت في أنحاء

الغرفة. وأخيراً بدأ في إعداد الشاي، فوضع في الإبريق كمية الشاي من علبة معدنية، مضى به إلى المطبخ العام ليملأه بالماء الساخن.

وكانت الغرفة في ذاتها بليغة في نظر كلينام بسبب هذه الأحوال المتغيرة التي جاءت به إلى سجن مارشاليزا التعس. لقد راحت تتحدث في أسى عنها، وعن فقده لها. حتى لقد شعر أنه لن يستطيع مقاومة شعوره الذي استبدّ به عندئذ، ولو لم يكن وحيداً، لحاول أن يرضي ذلك الشعور. ومن ثم وضع يده برفق على الجدار الأصم، وكأنما هو يضع يده عليها، ونطق باسمها في صوت خافت. ووقف إلى النافذة يطل على أسوار السجن بشواكها العليا المقبضة، وأرسل بأنفاسه البركات خلال غمام الصيف نحو البلاد البعيدة التي تعيش فيها في ثراء ورخاء.

وطالت غيبة الشاب جون فترة من الوقت. فلما عاد أثبت أنه كان قد خرج من السجن لشراء زبدة طازجة في ورقة كرنب، مع شرائح رقيق من اللحم الناضج في ورقة كرنب أخرى. وسلة صغيرة من الجرجير وسلطة خضار. ولما رتب هذا كله على المائدة بطريقة مُرْضِية، جلس الاثنان يتناولان الشاي.

وحاول كلينام أن يتناول من الطعام ما ينبغي في مثل هذه الحالة. ولكن على غير جدوى. لقد شعر بالغثيان وهو يتناول اللحم، وبدا له أن الخبز قد تحول إلى رمل في فمه. ولم يستطع أن يرغم نفسه على شيء إلا على تناول قدح من الشاي.

وقال الشاب جون وهو يقدم إليه السلة:

- حاول أن تتناول شيئاً من هذه الخضار يا سيدي.

وتناول عوداً أو نحوه من الجرجير وحاول الأكل مرة أخرى، ولكن الخبز تحول إلى رمل أثقل مما كان، وشرائح اللحم -وكانت في ذاتها

لا بأس بها- بدت كأنها تطلق في كل أنحاء مارشاليزا عاصفة كريهة من روائح اللحم الفاسد.

وعاد الشاب جون يقول وهو يقدم السلة مرة أخرى:

- حاول مرة ثانية أن تتناول شيئاً يسيراً من هذه الخضار يا سيدي.

وكان الأمر يبدو كأنه تقديم لحم أخضر إلى قفص طائر سجين كئيب، ولكن كان الواضح أن جون أحضر هذه السلة الصغيرة كشيء منعش بين جدران وصخور السجن الحارة. ومن ثم قال كلينام وهو يبتسم:

- إنه كرم منك أن تفكر في إحضار هذه في مثل هذا الوقت. ولكنني اليوم لا أستطيع أن أتناول حتى شيئاً منها.

وكأنما كان فَقْد الشهية مرضاً معدياً، فإذا بالشاب جون يدفع عنه صينيته ثم يروح يطوي ورقة الكرنب على شرائح اللحم. وبعد أن طواها بضع طيات الواحدة فوق الأخرى حتى بدت صغيرة في كف يده، عاد وراح يبسطها بين يديه وهو يرمق كلينام بانتباه.

وأخيراً قال وهو يضغط على هذه اللفافة الخضراء بشيء من القوة:

- إنني أتساءل: إذا لم يكن الأمر يستحق أن ترعى نفسك من أجل نفسك، أفلا يستحق أن ترعاها من أجل شخص آخر؟

فردّ كلينام وهو يتنهد ويبتسم:

- حقاً! إنني لا أعرف من أجل من!

فقال جون بحرارة:

- سيد كلينام. إنني مندهش من سيد كريم يستطيع أن يكون مستقيماً كما تستطيع أنت، ينحدر إلى النطق بمثل هذا الرد. سيد كلينام؛ إنني مندهش من سيد كريم يستطيع أن يكون شفيقاً، ومع ذلك يعاملني

بمثل هذه الطريقة الخالية من كل شفقة. إنني مندهش لهذا يا سيدي. حقاً، وصدقاً، مندهش.

وبعد أن نهض واقفاً ليؤكد كلماته الختامية، عاد وجلس مرة أخرى وشرع يقفل اللفافة الخضراء على ساقه اليمنى دون أن يحول عينيه لحظة عن وجه كليناام وإنما راح يتأمله بنظرة ثابتة من التأنيب المنطوي على الاستنكار.

وقال جون:

– لقد تغلبت عليه يا سيدي هزمته بعد أن أيقنت أنني لا بد أن أهزمه، وبعد أن عقدت العزم على ألا أفكر في هذا الأمر بعد ذلك قط. وما كنت لأعيد التفكير فيه مرة أخرى، كما كنت أرجو، لو لم يؤت بك إلى هذا السجن، وفي ساعة نحس بالنسبة لي في هذا اليوم! وكان الشاب جون في حالات انفعالاته يقتبس عن أمه طريقتها العنيفة في تركيب العبارات، فعندما هبطت عليّ يا سيدي أول مرة وأنا في كشك الحراسة في هذا اليوم، وكأنك أقرب إلى شجرة يوباس مأسورة منك إلى رجل منهم، انفجرت في أعماق نفسي مرة أخرى ينابيع مختلطة من المشاعر، بحيث بدا أن كل شيء أمامها قد اكتسح في اللحظات الأولى، وراح يدور ويدور كأنه الدوامة. وخرجت من هذا الشعور، كافحت وخرجت منه. ولو لم يبقَ في حياتي غير كلمة واحدة أقولها، لما توانيت في الكفاح للخروج من هذه الزوبعة. وقد خرجت فعلاً. وقد قلت لنفسي، لو أني أسأت التصرف، فالاعتذار واجب، وقد قمت بهذا الاعتذار دون أن أحط من شأني.. والآن، وعندما أردت أن تبين أن ثمة فكرة تكاد تكون مقدسة، وهي تتقدم على كل ما عدا من الأفكار.. الآن، وبعد كل هذا، تراوغني عندما لمحت بكل رفق عنها، وتخجلني. نعم، لا تحاول يا سيدي، لا تحاول أن تنحدر إلى حد الإنكار بأنك لم تراوغني، وإنك لم تخجلني من نفسي.. لأنك فعلت هذا.

ولم يسع آرثر إلا أن يقول وهو يبدو في ذهول الإنسان الضائع:

- ما هذا؛ ماذا تعني يا جون؟

ولكن جون الذي كان في هذه الحالة العقلية التي تجعل بعض الناس يستحيل عليهم أن يجيبوا عن أي سؤال، استطرد يقول بلا روية:

- ليس لدي يا سيدي، لا، ليس لدي، ولم يكن لدي قط الجرأة على التفكير، وأنا واثق من هذا، في أنه لم يبقَ شيء إلا وقد ضاع. إنه لم يكن لدي، ولكن لا، لماذا أقول إنه لم يكن لدي، وقد كان لدي فعلاً الأمل في أنه من الممكن أن أنعم بتحقيق الأمل. وذلك قبل أن يدور بيننا الحديث الذي دار، بل وقبل أن تقوم تلك الحواجز التي لا سبيل إليها بيننا، ولكن هل هذا يمنع من أن تكون لي ذكرياتي؛ هل هذا يمنع من أن تكون لي أفكاري! هل هذا يمنع من أن يكون لي ما أقدسه. أو أن يكون لي أي شيء؟

فصاح آرثر قائلاً:

- ما هذا الذي تعنيه؟

فاستطرد جون وكأنه يخوض بحراً لجياً من الكلمات الوحشية:

- قد يكون من الخير يا سيدي أن يداس هذا كله بالأقدام إذا أمكن للإنسان أن يقرر أنه مخطئ فيما فعل. قد يكون من الخير أن يداس هذا كله بالأقدام؛ ولكنه موجود. وربما كان من الممكن أن يداس بالأقدام لو لم يكن موجوداً. ولكن هذا ما كان ليجعله أمراً كريماً.. ما كان ليجعله شيئاً سامياً.. ما كان ليبرر جعل إنسان يخجل من نفسه بعد أن كافح ليخرج كما تخرج الفراشة من الشرنقة. إن العالم قد يسخر من حارس سجن، ولكنه رجل.. رجل يحرس سجناً من الرجال لا سجناً من النساء..

ورغم ما كان في ذلك الحديث الغريب من خلط وإبهام، فقد كان مع ذلك لا يخلو من صدق ينبع من بساطة الشاب جون، ومن طبيعته العاطفية ومن الشعور بأنه جرح في منطقة حساسة. كل هذا كان واضحاً في وجهه الملتهب، وفي انفعالات صوته وحركاته، ولا شك أن آرثر كان قاسياً في إغفاله لهذا كله حين راح يعود بذاكرته إلى نقطة البدء في هذا الشيء المجهول الذي أدى إلى جرح مشاعره. وخلال هذا راح الشاب جون، بعد أن فتل اللفافة الخضراء بإحكام، يقطعها بعناية إلى ثلاثة أجزاء، ويضعها على طبق وكأنها لون خاص من أطايب الطعام.

وقال آرثر بعد أن ارتد بالمحادثة إلى بدء تناوله أعواد الجرجير عاد بها:

- يخيل لي أن ثمة احتمالاً في أنك تشير إلى الآنسة دوريت.

فردّ جون شيفري قائلاً:

- إنه مجرد احتمال يا سيدي.

- إنني لا أفهم هذا. وأرجو ألا يسوء حظي بحيث أجعلك تظن أنني أقصد تكديرك مرة أخرى، لأني لم أقصد أبداً أن أكدرك الآن حين قلت إنني لا أفهم هذا.

فقال الشاب جون:

- سيدي! هل يبلغ بك عدم الوفاء أن تنكر أنك على علم، وعلى علم منذ أمد بعيد بأن شعوري نحو الآنسة دوريت، إن لم يكن ادعاء الحب، فهو التقديس والفداء!

- لست يا جون على هذا النحو من عدم الوفاء لو كنت أعرف هذا! إنني لا أدري لماذا تتهمني بهذا. ألم تسمع من السيدة شيفري، والدتك، إنني ذهبت لزيارتها يوماً؟

فردّ جون باقتضاب:

- لا يا سيدي. لم أسمع قط عن شيء كهذا.

- ولكنني فعلت. فهل يمكن أن تتصور لماذا؟

فعاد جون يقول باقتضاب:

- لا يا سيدي. لا أستطيع أن أتصور لماذا.

- سوف أخبرك. لقد كنت معنياً بالعمل على إسعاد الآنسة دوريت، ولو كان في مقدوري أن أظن أنها كانت تبادلك العاطفة.

فاضطرم وجه جون شيفري المسكين بشدة وقال:

- لم يحدث قط أنها بادلتني العاطفة يا سيدي. إنني أحب أن أكون صادقاً أميناً بقدر ما تتيح لي أحوالي المتواضعة. وإني لأحتقر نفسي لو زعمت لحظة أنها بادلتني العاطفة أو جعلتني أشعر أنها تبادلني إياها أو أن هذا كان منتظراً عند التفكير السليم أو يمكن أن ينتظر يوماً. لقد كانت أرفع مني كثيراً في كل شيء وفي كل حالة. وكذلك الأمر مع.. أسرتها العريقة.

وكان شعوره المنطوي على الشهامة، نحو كل من ينتمي إليها، جعله شديد الاحترام، بحيث إنه على الرغم من ضآلة جسمه، وتخاذل ساقيه، وخفة شعره، وشاعرية مزاجه، طالب آرثر بمثل هذا الاحترام وهو جالس أمامه كما لو طالبه بذلك العملاق جالوت.

وقال آرثر في إعجاب رقيق:

- إنك تتحدث يا جون كرجل.

فقال جون وهو يمسح بيده عينيه:

- حسناً يا سيدي، وإني من ثم أرجو أن تكون كذلك.

وكان سريعاً في هذا الرد غير المنتظر، مما جعل آرثر بتأمله مرة أخرى بوجه كله العجب والدهشة.

وقال جون وهو يمد يده عبر صينية الشاي:

- إنني، على الأقل، أسحب هذه العبارة إن كانت عنيفة! ولكن، لماذا لم، لماذا لم؟ إنني عندما طلبت منك يا سيد كلينام أن تعني بنفسك من أجل شخصية ما، لماذا لم تكن صريحاً معي رغم كوني حارس سجن؟ لماذا أعددت لك الغرفة التي أعتقد أنك تفضلها على غيرها؟ لماذا حملت إليك متاعك؟ ألم يكن هذا المتاع ثقيلاً؟ إنني لا أقول هذا لسبب ما. بل إنني أبعد ما أكون عن المن! لماذا حاولت توطيد علاقتي بك منذ الصباح على هذا النحو؟ أفعلت هذا من أجل ما تتمتع به من مميزات؟ لا، إنها مميزات عظيمة لا أشك في ذلك، ولكن ليس من أجلها فعلت هذا، وإنما من أجل مميزات أخرى لها وزنها، ولهذا الوزن قيمة كبرى لدي. فلماذا لا نتحدث بصراحة.

فقال كلينام:

- دون شك يا جون. وإنك لشاب كريم، وإني لأحترم خصالك بحيث يبدو أنني لم أدرك كما كان ينبغي أن هذه الخدمات الحميدة التي قدمتها إلى اليوم إنما تعزى إلى الثقة بأني صديق الآنسة دوريت. إنني أعترف بهذا الخطأ وأرجو منك الصفح.

فكرر جون القول وقد نمت لهجته عن الاحتقار مرة أخرى:

- أوه، لماذا لا، لماذا لا نتحدث بصراحة.

فردّ آرثر قائلاً:

- إنني أعلن إليك أنني لا أفهمك. انظر إليّ. فكّر في المحنة التي أنا فيها. فهل يمكن أن أضيف، عن عمد، إلى تأنيبي لنفسي، الشعور بأني جاحد لك أو غادر بك؟ إنني لا أفهمك.

ومالت ملامح وجه جون المستاء إلى ملامح وجه تنم عن الشك. ثم تراجع إلى النافذة ذات القضبان، وأشار إلى آرثر لكي يتبعه، ثم وقف يتأمله مفكراً، وأخيراً قال:

- هل تعني يا سيد كلينام أنك لم تكن تعرف؟

- ماذا يا جون؟

فقال الشاب جون وهو يلتجئ بنظراته إلى شوائك جدران السجن:

- يا إلهي! إنه يقول ماذا؟

ونظر كلينام إلى الشوائك، ثم إلى جون، ثم إلى الشوائك، ثم إلى جون، هذا بينما عاد جون يقول وهو يتأمله في حيرة مكبوتة:

- إنه يقول ماذا! وأكثر من هذا يبدو أنه يعني ما يقول! أترى هذه النافذة هناك.

- طبعاً أرى هذه النافذة.



- أترى هذه الغرفة؟

- عجباً! طبعاً أرى هذه الغرفة.

- هذا الجدار المقابل، وهذا الفناء تحت؟ كلها تشهد به، من يوم إلى يوم؛ ومن ليلة إلى ليلة، ومن أسبوع إلى أسبوع، ومن شهر إلى شهر.. وكم من عديد المرات كنت أرى الآنسة دوريت عندما لم تكن تراني.

فقال كلينام:

- تشهد بماذا؟

- بحب الآنسة دوريت.

- حبها لمن؟

- لك أنت.

قالها جون وهو يلمس صدره بظاهر يده، ثم تراجع إلى مقعده، وجلس عليه بوجه شاحب، وأمسك بمسنديه وهو يهز رأسه لكلينام.

ولو كان كلينام قد تلقى على صدره ضربة عنيفة، بدلاً من هذه اللمسة الخفيفة، لما زلزلت كيانه أكثر مما فعلت هذه اللمسة. لقد وقف مذهولاً، وعيناه على جون، وشفته منفرجتان، وقد بدا أنه يحاول بين الحين والآخر أن ينطق بكلمة «أنا» دون أن ينطقها. وتراخت يداه على جانبيه، وبدا، في العموم كرجل أفاق من نومه، وذهل بشيء يفوق مداركه.

وأخيراً قال بصوت مسموع:

- أنا؟

فتأوه الشاب جون قائلاً:

- آه، نعم أنت.

وبذل ما في وسعه لكي يبتسم ويقول:

- إنك تتخيل هذا. إنك مخطئ تماماً.

فقال الشاب جون:

- أنا مخطئ يا سيدي؟ أنا مخطئ تماماً في هذا الموضوع. لا يا سيد كلينام. لا تقل لي هذا. ربما أكون مخطئاً في شيء آخر، إذا شئت، لأني لا أدعي أنني شخص قوي الملاحظة نافذ البصيرة، وإنما أعرف تماماً عيوبي، ولكن، هل أخطئ في موضوع آلم صدري أكثر مما تؤلمه مجموعة من السهام الوحشية المرسلة إليه! هل أخطئ في موضوع كاد أن يؤدي بي إلى القبر، كما تمنيت أحياناً لو حدث هذا، ولو أمكن أن يكون القبر متلائماً مع تجارة التبغ ومع مشاعر أبي وأمي. هل أخطئ في موضوع يجعلني، حتى

في هذه اللحظة الراهنة، أتناول منديلي وأمسح عيني كأية فتاة كبيرة، كما يقول الناس: رغم أنني لا أعرف على وجه اليقين لماذا يلوم الناس الفتاة الكبيرة، لأن كل رجل متكامل الجسم والعقل يحبهن كبيرات وصغيرات. لا تقل لي هذا.. لا تقل لي هذا.

وتناول الشاب جون، وهو في أعماق نفسه لا يزال محترماً وإن بدا في ظاهره غريب الأطوار، منديله بطريقة أصيلة لا تنم عن التظاهر أو الادعاء، وهي الطريقة التي تبدو دائماً في الإنسان المعروف بطيبة القلب حين يتناول منديله ليمسح دموعه. وبعد أن مسحها، وبعد أن أراح نفسه بشهقة بكاء أعاد المنديل إلى جيبه مرة أخرى.

وكان تأثير اللمسة لا يزال على صدر كلينام كضربة عنيفة بحيث لم يستطع أن يجمع من الكلمات ما يكفي لإنهاء الموضوع. وأخيراً راح يؤكد لجون، بعد أن أعاد هذا منديله إلى جيبه، أنه يحترم تماماً نزاهته ووفاءه لذكرى الآنسة دوريت. أما فيما يتعلق بتصوراته التي يعرب عنها الآن.. وهنا قاطعه جون قائلاً: «إنها ليست تصورات، وإنما حقائق» أما فيما يتعلق بهذه، فمن الممكن تبادل الحديث عنها في وقت آخر، ولن يكون ثمة مزيد من الحديث عنها الآن. ولأنه كان يشعر بالانقباض والتعب، فإنه سيمضي إلى غرفته، بعد إذن جون، ولا يخرج منها مرة أخرى في تلك الليلة. ولما وافقه جون، عاد متسللاً في ظلال أسوار السجن إلى غرفته.

وكان أثر الضربة لا يزال قوياً على مشاعره بحيث جلس بعد انصراف المرأة القذرة التي وجدها جالسة على السلم أمام باب الغرفة في انتظار إعداد الفراش له، والتي أفهمته، في أثناء إعداد الفراش، أنها نقلت تعليماتها بشأنه من السيد شيفري -الشاب لا العجوز- جلس على المقعد المتداعي وهو يضغط بيديه على رأسه كأنما أصيب بصدمة مهلة. أتحبه دوريت الصغيرة؟ إن هذا شيء يذهله أكثر مما أذهلته محنته.

إنه يفكر في عدم احتمال هذا. لقد اعتاد أن يسميها طفلته، وطفلته العزيزة، وأن يسر إليها بما في نفسه على اعتبار ما بينهما من اختلاف في السن، وأن يتحدث عن نفسه كرجل يمضي نحو الشيخوخة. ومع ذلك فلعلها لم تكن تظن على هذا النحو. لقد ذكره شيء بأنه لم يعتقد في نفسه أنه شاخ فعلاً، حتى رأى الورد الأحمر وهو يطفو بعيداً على سطح النهر.

وكان لديه رسالتاها إليه بين أوراق أخرى في صندوقه، فتناولهما وراح يقرؤهما. وخيل إليه أن فيهما شيئاً يشبه رنين صوتها العذب. وكان وقع هذا الرنين على أذنيه كطائفة من ألحان الحنان والحب التي ليست بعيدة عن هذا المعنى الجديد. إنه الآن يفكر في ذلك الشعور بالعزلة الرقيقة الذي نمت عنه إجابتها هل «لا، لا، لا» في هذه الغرفة، وفي تلك الليلة.. الليلة التي شهد فيها فجر حياتها السعيدة الجديدة، والتي دارت فيها عبارات أخرى بينهما، عبارات قدر عليه أن يتذكرها حين اندفعت الآن إلى ذهنه وهو ذليل.. سجين.

إنه يفكر في عدم احتمال هذا.

ولكن عدم الاحتمال هذا يميل بقوة، كلما فكر فيه، إلى الانزواء والأفول. ذلك أنه كان ثمة تساؤل عجيب يتردد في قلبه ويقوى تدريجياً ألم يكن في رفضه للشعور بأنها تحب شخصاً ما، وفي رغبته لمعرفة الحقيقة في هذا المجال، وفي إحساسه غير المتكامل بأن ثمة نبلاً وسمواً في موقفه إزاءها إذا هو ساعدها في حبها لأي شخص.. ألم يكن في هذا شيء مكبوت في صدره طالما أسكته كلما حاول الظهور، ألم يهمس في نفسه قط أنه لا ينبغي أن يفكر في شيء كهذا، أي في احتمال حبها له، وأنه لا ينبغي أن يستغل عرفانها بجميله وأن عليه أن يحتفظ بتجربته عن ذكرى حبه الفاشل كتحذير وتثريب، وأن عليه أن يعتبر مثل هذه الآمال الصبيانية كشيء مضى وانقضى، كما مضت وانقضت ابنة صديقه المتوفي، وأن عليه أن يقول دائماً لنفسه إن الزمن عفى عليه، وإن الأحزان قد ركبته والشيخوخة.

لقد قبلها عندما رفعها عن الأرض في اليوم الذي نسيته فيه الأسرة نسياناً مؤكداً له دلالته، تماماً كما لو أنها قبلها وهي حاضرة الوعي بلا أي فرق؟

لقد زحفت عليه الظلمة وهو مستغرق في هذه الأفكار. وكذلك زحفت الظلمة على السيد والسيدة بلورنيش وهما يطرقان على بابه. وكانا قد أحضرا معهما سلة مليئة بأفضل وأحسن ما في متجرهما هذا الذي كان البيع فيه أسرع من قبض الثمن. وكانت السيدة بلورنيش على شفا البكاء. واكتفى السيد بلورنيش بالغمغمة، بطريقته الفلسفية غير المفهومة.. بأن هناك، كما هو معلوم، أيام رخاء، وأيام شقاء. وأنه من العبث أن تسأل لماذا تمتاز هذه بالرخاء، ولماذا تثقل هذه بالشقاء. وإنما هذه موجودة وتلك، كما تعلم. لقد سمع شيئاً يقال إنه حقيقة، وهو أنه كما يدور العالم، وهو لا شك يدور، فإن كل سيد، أياً كان، لا بد أن يأتي عليه وقت يكون فيه واقفاً بالمقلوب وشعره يتطاير تحته فيما يمكن أن تسميه الفضاء الجوي. حسناً جداً، إذن -إن ما قاله السيد بلورنيش كان حسناً جداً إذن- ولا بد أن يعود هذا السيد فيقف مرة أخرى ورأسه إلى أعلى، وأن يعود شعره الناعم مرتباً مصقولاً كما كان، حسناً جداً إذن.

وقد سبق القول بأن السيدة بلورنيش، بما أنها غير فلسفية الاتجاه، فقد بكت. وقد حدث أكثر من هذا أن السيد بلورنيش كانت، لأنها غير فلسفية الاتجاه، ذكية لماحة. ولعل هذه الميزة قد نشأت من بساطة تفكيرها، أو من مكر جنسها، أو من سرعة المرأة في فهم الآراء، أو في عدم سرعة المرأة في فهم الآراء. ولكن الذي حدث أكثر من هذا، على نحو ما، أن ذكاء السيدة بلورنيش استعرض نفسه على حساب نفس الموضوع الذي كانت تدور حوله تأملات آرثر.

قالت السيدة بلورنيش:

- إن الطريقة التي كان أبي يتحدث بها عنك يا سيد كلينام، لا تكاد تصدقها لقد جعلته مسكيناً جداً. أما عن صوته، فقد جعلته هذه الكارثة يضيع تماماً، إنك تعرف إلى أي حد كان أبي عذب الصوت في الغناء ولكنه لم يستطع أن يترنم بنغمة واحدة للأطفال في أثناء تناول الشاي. هذا إذا كنت تثق فيما أقول.

وفيما كانت السيدة بلورنيش تتحدث، أخذت تهز رأسها، وتمسح دموعها، وتتلفت في جوانب الغرفة وقد عاودتها الذكريات.

واستطردت السيدة بلورنيش تقول:

- أما عن السيد بابتست. فإنني لا أستطيع أن أعرف أو أتصور ماذا سيفعل عندما يعود ويعرف ما حدث. لقد كان من المقرر أن يكون هنا قبل الآن كما لعلك تعرف عن يقين، لو لم يكن قد ذهب في مهمة خاصة بك. وإنه لأمر جدير بالإعجاب أن تعرف إصراره العنيف على أداء هذه المهمة، وتصميمه على ألا يعرف معنى الراحة حتى يفرغ منها.

واختتمت حديثها بعبارة إيطالية مكسرة تدل على الإعجاب.

وشعرت السيدة بلورنيش، بلا أي غرور، أنها نطقت بتلك العبارة التوسكانية ببراعة منقطعة النظير، ولم يستطع السيد بلورنيش أن يخفي نشوته لبراعتها كأستاذة في اللغات.

واستمرت المرأة الطيبة في حديثها قائلة:

- ولكن ما أريد أن أقوله يا سيد كلينام، هو أنه يوجد دائماً شيء يستحق شكر الإنسان عليه، كما أنا واثقة بأنك تعترف بهذا. وليس من العسير أن نعرف ما هو هذا الشيء ونحن نتحدث في هذه الغرفة. إنه شيء يستحق الشكر عليه وأعني به عدم وجود الآنسة دوريت لتعلم ما حدث.

وخُيِّل إلى آرثر أنها كانت تنظر إليه نظرات لها دلالتها الخاصة. وعادت السيدة بلورنيش تقول:

- إنه شيء يستحق شكرنا لأن الآنسة دوريت بعيدة جداً عنا الآن. وإننا لنرجو ألا يبلغها الخبر، فلو أنها كانت هنا يا سيدي لترى ما حدث. فليس من شك في أن منظرك...

وكررت السيدة بلورنيش العبارة الأخيرة قائلة:

- فليس من شك في أن منظرك، وأنت في هذه الحال من البؤس والشقاء، سيكون أكثر مما يحتمله قلبها العطوف. فليس هناك شيء يمكن أن أفكر فيه، يلمس شغاف قلبها كهذا!.

ولم يعد شك في أن السيدة بلورنيش كانت تنظر إليه عندئذ في شيء من التحدي المضطرب وهي في انفعالاتها الودية.

وعادت تقول:

- نعم، وإن هذا يبين مدى قوة ملاحظة أبي، رغم بلوغه هذه السن، وذلك عندما قال لي في الكوخ السعيد هذا القول الذي يعلم الله أني لم أنقص منه شيئاً ولم أزد «ماري، إنه لأمر باعث على الابتهاج الشديد أن الآنسة دوريت ليست هنا لترى ما حدث» هذه هي كلمات أبي. نعم، تلك كانت نفس كلمات أبي. «إنه لأمر باعث على الابتهاج الشديد أن الآنسة دوريت ليست هنا لترى ما حدث» وقد قلت لأبي عندئذ، قلت له: «أبي، إنك على صواب! وإن هذا..».

واختتمت السيدة بلورنيش حديثها في لهجة الشاهد الدقيق الذي يؤدي شهادته في المحكمة:

- ما دار بيني وبين أبي. ولم أقل لك شيئاً إلا ما دار بيني وبين أبي.

وانتهز السيد بلورنيش -الذي كان موجز الحديث بطبيعته-هذه الفرصة ليقترح عليها أن يُتْرَكَ السيد كلينام وشأنه عندئذ، فقال جاداً:

- لأنني، كما ترين، أعرف كيف يكون شعوره الآن يا فتاتي العجوز.

وبعد أن كرر هذه العبارة الثمينة مرات كثيرة، وكأنما بدا له أنها تنطوي على سر خطير، انصرف الاثنان المبجلان وذراع أحدهما في ذراع الآخر.

دوريت الصغيرة.. دوريت الصغيرة.. ساعات أخرى من التفكير فيها.. دائماً دوريت الصغيرة.

ولحسن الحظ؛ إذا كان الأمر حقاً هكذا، فقد انتهى، وخيراً أن انتهى. وعلى فرض أنها أحبته، وأنه كان يعرف هذا، وأنه ترك نفسه يحبها، فأي طريق كان سيقودها فيه.. إنه نفس الطريق الذي كان سيؤدي بها مرة أخرى إلى هذا المكان التعس! إنه ينبغي أن يشعر بالراحة وهو يفكر في أنها نجت منه إلى الأبد، وأنها تزوجت، أو على وشك أن تتزوج، ذلك أن ثمة شائعات غامضة عن مشروعات أبيها في هذا الشأن كانت قد بلغت حوش بليدنج هارت مع أنباء زواج أختها، وأن بوابة مارشاليزا قد أُغلِقت دون كل هذه الاحتمالات المربكة لأيام ذهبت إلى الأبد.

أيتها الصغيرة العزيزة دوريت.

إنه حين يعود بذاكرته إلى قصته البائسة، يجد أنها تمثل النهاية المتلاشية.

إن كل شيء من خطوطها البارزة كان يتجه إلى شخصيتها الجريئة. لقد قطع في سفره آلاف الأميال ليصل إليها. لقد تلاشت أمامها كل آماله المضطربة وشكوكه المؤلمة. لقد كانت هي مركز اهتمامه بالحياة، ثم غدت

نهاية كل شيء طيب لطيف فيها، وفيما بعد ذلك فلم يبقَ إلا الضياع، والجدب والسماء المكفهرة.

وكما سبق أن رقد أول مرة لينام في تلك الليلة بين هذه الجدران الكئيبة، نام هذه الليلة وهو نهب لمثل هذه الأفكار. وفي نفس الوقت كان الشاب جون نائماً في هدوء وسلام، بعد أن ألّف ونظم هذه الكلمات التذكارية على وسادته:

أيها الغريب
احترم قبر جون شيفري الابن
الذي مات بعد عمر طويل لا داعي لذكر سنواته
لقد التقى بغريمه في حالة مؤلمة
وشعر بالميل
لأن يدخل معه في جولة ملاكمة
ولكن من أجل تلك الإنسانة المحبوبة
هزم تلك المشاعر المنطوية على المرارة، وغدا شهماً.

* * *

رؤيا في سجن مارشاليزا

كان رأي المجتمع خارج أبواب سجن مارشاليزا يزداد عنفاً على كلينام مع مرور الوقت. وفي داخله لم يستطع أن يوطد علاقة الصداقة مع أحد من النزلاء. لقد كان أشد انقباضاً من أن يتصل بالقطيع الموجود في الفناء. وهو القطيع الذي يجتمع أفراده لينسوا متابعهم، وكان أشد ميلاً للعزلة وأبعد عن الشعور بالسعادة من أن ينضم إلى الحياة الاجتماعية البائسة في حانة السجن، وهكذا لزم غرفته، محروماً من ثقة زملائه. وقال بعضهم إنه متكبر؛ واعترض بعضهم قائلين إنه ساخط متحفظ، ونظر البعض الآخر إليه في احتقار باعتبار أنه إنسان ذليل النفس راح يذوي تحت وطأة ديونه. وبالإجمال، كان النزلاء جميعاً يتجنبونه بناءً على هذه الأحكام المختلفة، لا سيما الحكم الأخير، الذي كان ينطوي على نوع من الخيانة لتقاليدهم. وسرعان ما توطدت عزلته بحيث لم يعد يستطيع التمشي في الفناء جيئةً وذهاباً إلا حين يجتمع النزلاء في منتداهم للغناء والشرب والمرح، أي عندما لا يكون بالفناء إلا النساء والأطفال.

وبدأت آثار السجن تبدو عليه. وكان يعرف أنه يقضي وقته في الخمول والكسل. وبعد الذي عرفه عن تأثير السجن داخل هذه الجدران الأربعة الصغيرة لنفس هذه الغرفة التي يقيم فيها، جعله هذا الإدراك خائفاً من نفسه. ولانكماشه عن الناس، ولانكماشه عن نفسه، بدأ التغيير

الذي طرأ عليه يبدو واضحاً. ومن ثم كان في مقدور أي إنسان أن يرى ظلال السجن مظلمة عليه.

وفي ذات يوم بعد أن مضى عليه نحو عشرة أو اثني عشر أسبوعاً في السجن، وعندما حاول أن يقرأ، ولكنه لم يستطع حتى أن يحرر الشخوص الوهمية في الكتب من أغلال مارشاليزا، سمع خطوة شخص ما يتوقف عند الباب، ثم بدأ يطرق عليه. ونهض وفتحه وسمع صوتاً لطيفاً يفاجئه بالقول:

- كيف حالك يا سيد كلينام؟ أرجو ألا أكون متطفلاً في حضوري لزيارتك.

وكان الصوت لشاب الطروب فرديناند بارناكل. وكان يبدو لطيف المعشر جذاباً إلى حد كبير، وذلك رغم التناقض بين مرحه الشديد وتحرره الطليق وبين كآبة السجن.

وعاد يقول وهو يجلس على المقعد الذي قدّمه إليه كلينام:

- إنك مندهش لرؤيتي يا سيد كلينام؟

- يجب الاعتراف بأني مندهش جداً.

- أرجو ألا يكون اندهاشاً مصحوباً بالاستياء.

- لا، مطلقاً.

فقال الشاب الجذاب بارناكل:

- شكراً، وإني؛ بصراحة قد شعرت بأشد الأسف حين سمعت أنك مضطر للبقاء هنا إلى حين. وأنا أرجو -وهذا طبعاً بيني وبينك- ألا يكون لنا شأن في هذا الأمر.

- أتعني إدارتك؟

- إدارتنا للشؤون العامة.

- إنني لا أستطيع أن أحمِّل أي جزء من مسؤولية ما حدث على عاتق تلك الإدارة الرائعة.

فقال الشاب الطروب بارناكل:

- قسماً بحياتي إني جد سعيد إذ أسمع هذا. إنك بهذا القول قد هدأت بالي، وإلا لأحسست بتأنيب شديد من الضمير لو كان لإدارتنا شأن في محنتك هذه.

ومرة أخرى أكد له كلينام أنه يعفيها من كل مسؤولية. عندئذ قال فرديناند:

- حسناً جداً. إنني سعيد جداً إذ أسمع هذا. فقد كنت في ذات نفسي أخشى أن نكون قد ساعدنا بشيء في الإيقاع بك، لأن من سوء حظنا ولا شك أننا نفعل هذا الشيء بين حين وآخر، إننا لا نريد أن نفعل هذا، ولكن إذا كان الناس يأبون إلا أن يرتكبوا... فماذا في وسعنا أن نفعل؟

فردّ كلينام قائلاً باكتئاب:

- إنني دون أن أعرب عن موافقتي التي لا قيمة لها على ما تقول، أشكر لك جزيل الشكر اهتمامك بأمري.

فقال الشاب الخفيف بارناكل:

- لا، ولكن الحقيقة أن إدارتنا هي أشد الإدارات براءة. لسوف تقول إننا خادعون. ولن أقول إننا لسنا كذلك، ولكن هذا النوع من العمل مقصود، ولا بد أن يبقى، ألا ترى ذلك؟

فقال كلينام:

- لا.

- إذن فأنت لا تراه من وجهة النظر الحقيقية. ووجهة النظر هذه شيء أساسي. انظر إلى إدارتنا من وجهة نظرنا التي تقول إن كل ما نرجوه منكم أن تتركونا وشأننا، وعندئذ نصبح كأحسن إدارة يمكن أن توجد في أي مكان.

فسأله كلينام قائلاً:

- هل وجدت إدارتكم لكي تترك وشأنها؟

فردّ فرديناند قائلاً:

- أصبت كبد الحقيقة! إنها وجدت الهدف الأساسي الذي يقضي بأن كل شيء يجب أن يترك وشأنه. هذا هو ما نقصده، وهذا هو ما وجدت من أجله. ولا شك أن هناك مظهراً ما يجب أن تبدو فيه كأنها وجدت لشيء آخر، ولكن الأمر لا يعدو الشكل. عجباً! إننا بحق السماء مجرد شكليات! فكر في تيه الشكليات الذي خضته دون أن نقترب قط من النهاية.

فقال كلينام:

- إطلاقاً.

- انظر إلى الأمر من وجهة النظر الصحيحة وسوف تعرف حقيقتنا.. رسميات وشكليات. إن الأمر يبدو كمباراة محدودة في الكريكيت. إنك تجد حشداً من اللاعبين الدخلاء يضجون بالسخط على السلطات المسؤولة. أما نحن، فإننا نحافظ على الكرات دونهم.

فسأله كلينام عن مصير اللاعبين الساخطين! فأجاب الشاب المرح بارناكل بأنهم لا يلبثون أن يتعبوا، ثم ييأسوا، ثم يعرجوا، ثم تتكسر ظهورهم، ثم يهزموا، ويتسلموا، ثم يذهبوا للبحث عن مباراة أخرى.

واستطرد فرديناند قائلاً:

- وهذا يعود بي إلى تهنئة نفسي مرة أخرى لأن إدارتنا ليس لها شأن في تقاعدك هذا الموقوت. كان يمكن ببساطة أن يكون لها يد في ذلك، لأنها، بلا شك، من أسوأ الإدارات حظاً في بعض الأحيان من ناحية علاقتنا بالناس الذين لا يتركوننا وشأننا. سيد كلينام، إني أتحدث معك بلا أي تحفظ. وأنا أعرف أني قد أكون كذلك، بيني وبينك. وقد كنت كذلك أيضاً عندما رأيتك أول مرة ترتكب هذا الخطأ، وهو عدم تركنا وشأننا. لأني لاحظت أنك بلا خبرة وثائر، وأنك -وأرجو ألا تعترض على قولي- على شيء من البساطة.

- لا، لست أعترض إطلاقاً.

- وعلى شيء من البساطة، ولهذا أحسست بالرثاء من أجلك، وتجاوزت حدودي لألمح لك -ولم يكن ذلك بصفة رسمية، لأني كنت أتخلى عن الرسميات بقدر ما أستطيع- بما معناه أنني لو كنت مكانك، لما أزعجت نفسي. ومع ذلك قد أزعجتَ نفسك، ومضيت في إزعاجها منذ ذلك الحين. والآن، لا تعد إلى ذلك مرة أخرى.

فقال كلينام:

- ليس ثمة احتمال في أن تتاح لي الفرصة.

- أوه، لا تقل هذا! لسوف تترك هذا المكان. إن كل شخص فيه يتركه ذات يوم. وإن وسائل الخروج منه لا حصر لها. ولكن لا تعد إلينا. إن هذا الرجاء وهو الهدف الثاني من زيارتي هذه. أرجوك، لا تعد إلينا مرة أخرى. وأقسم بشرفي..

قالها فرديناند بلهجة تنم عن المودة والثقة، ثم أردف قائلاً:

- سوف أستاء جداً إذا لم تتعظ بما حدث سابقاً، لكي تبتعد عنا.

فقال كلينام:

- والاختراع!

فردّ فرديناند قائلاً:

- يا صديقي الطيب! إذا سمحت لي بأن أناديك هكذا، إنه لا يوجد أحد يريد أن يعرف شيئاً عن هذا الاختراع، ولا يوجد من يعيره أي اهتمام.

- تعني أنه لا أحد في الإدارة.

- ولا في خارجها. إن كل شخص على استعداد لأن يكره ويسخر من أي اختراع. إنك لا تدري كم من الناس يريدون أن يُتْرَكوا وشأنهم. إنك لا تدري إلى أي حد يريد عباقرة البلد -وأرجو أن تغفل عن اللهجة البرلمانية التي في هذه العبارة، كما أرجو ألا تسأم منها- أن يُتْرَكوا وشأنهم صدقني يا سيد كلينام..

واستطرد الشاب الطروب بارناكل في ألطف لهجة يقول:

- إن إدارتنا ليست مارداً شريراً ينبغي الهجوم عليه بكل قوة، وإنما هي طاحونة هواء تبين لك وهي تطحن كميات كبيرة من التفاهات من أين تهب رياح البلاد.

فقال كلينام:

- لو كان في مقدوري أن أصدق هذا.. لكان في ذلك أتعس الآمال لنا جميعاً.

فردّ فرديناند قائلاً:

- أوه! لا تقل هذا. إن الأمر على خير ما يرام. إنه لا بد لنا من الخداع. وإننا جميعاً نحب الخداع، ولا يمكن لنا أن نتقدم بلا خداع، وكل شيء يسير على أحسن حال إذا تركته وشأنه.

وبعد هذا الاعتراف المتفائل الذي أعرب به عن اعتقاده هذا باعتباره في طليعة الجيل الصاعد من آل بارناكل الذين تربطهم وشائج الرحم، والذين يعيشون في عالم متنوع من الألفاظ التي ينكرونها ولا يؤمنون بها إطلاقاً. بعد هذا، نهض لينصرف. ولم يكن ثمة ما هو ألطف من صراحته ومجاملته، أو ما هو أكثر مطابقة لآداب السلوك للظروف التي أدى فيها هذه الزيارة.

وقال عندما مد كلينام يده إليه في إحساس عميق بالشكر له على صراحته وبشاشته:

- هل من اللائق أن أسأل ما إذا كان المأسوف عليه السيد ميردل هو حقاً السبب في محنتك العابرة هذه؟

- أجل. وما أنا إلا واحد من ضحايا كثيرين.

فقال فرديناند بارناكل:

- لا بد أنه كان شخصاً بارعاً إلى أقصى حد!

ولما لم يكن آرثر في حالة تسمح له بالتسبيح بذكرى ذلك الرجل الراحل، فقد آثر الصمت. ومن ثم قال فرديناند:

- ولكنه بطبيعة الحال وغد نموذجي. ومع ذلك كان بارعاً جداً! إن الإنسان لا يسعه إلا الإعجاب به. ولا شك أنه كان أستاذاً في الخداع.. يجيد معرفة دخائل الناس، فيسيطر عليهم تماماً، ويفعل بهم الشيء الكثير.

وكان بطبيعته السهلة، يشعر حقاً بالإعجاب الشديد بالرجل.

وقال آرثر:

- إنني أرجو أن يكون هو وألاعيبه سبباً لأن يحذر الناس من الوقوع فيها مرة أخرى.

فردّ فرديناند ضاحكاً:

- يا عزيزي السيد كلينام؟ هل يخامرك مثل هذا الأمل الساذج حقاً؟ إن الرجل التالي الذي ستكون له مثل هذه المقدرة ومثل هذه البراعة في الخداع، سوف ينجح مثله. معذرة، فإنني أعتقد أنك لا تعرف قط كيف يجتمع النحل البشري على نقر أصغر علبة صفيح. وفي هذه الحقيقة تكمن البراعة الكاملة في السيطرة عليه. فإذا أمكن أن نجعلهم يعتقدون أن علبة الصفيح مصنوعة من المعادن الثمينة، فهنا تكمن كل القوة التي كانت لصاحبنا المأسوف عليه. ولا شك أن هنا وهناك..

قالها فرديناند بلهجة مؤدبة وهو يستطرد:

- حالات استثنائية حيث يخدع الناس فيها يبدو لهم أنه أحس كثيراً، ولا حاجة بي لأن أمضي بعيداً للبحث عن مثل هذه الحالات. ولكنها لا تلغي القاعدة، طاب يومك! وأرجو حين أراك في المرة التالية أن تكون هذه السحابة العابرة قد أخلت الطريق لضوء الشمس. لا تتحرك خطوة خارج الباب. فأنا أعرف طريقي تماماً. طاب يومك.

بهذه الكلمات، هبط السلّم أحسن وأخف آل بارناكل ظلاً، واجتاز البوابة وهو يترنم لنفسه؛ ثم اعتلى جواده في الفناء الخارجي، واندفع إلى موعد مع قريبه النبيل، الذي كان في حاجة إلى شيء من المران قبل أن يجيب على بعض الوصوليين الملاعين الذين كانوا ينوون سؤال الكبار المكرمين في شؤون سلطاتهم.

ولا بد أنه مرّ في طريقه إلى الخارج بالسيد راج، لأن ذلك السيد الأحمر الرأس لم يلبث بعد لحظة أو اثنتين أن تألق عند باب الغرفة كإله عجوز من آلهة الأساطير اليونانية. وقال لكلينام:

- كيف حالك اليوم يا سيد كلينام. أثمة شيء بسيط يمكن أن أؤديه لك اليوم يا سيدي؟

- لا، شكراً لك.

وكان ابتهاج السيد راج بالمسائل المعقدة المركبة، مثل ابتهاج ربة البيت بعملية التخزين والتخليل، أو الغسالة بعملية غسيل ضخمة، أو الزبال بوعاء قمامة متخم، أو أي صاحب مهنة أخرى حين تتعقد الأمور في طريق العمل.

وقال السيد راج مستبشراً:

- إنني ما زلت أتلفت بين الحين والآخر لأرى هل ثمة دائنين مطالبين بحبسك يتجمعون عند البوابة، فإذا بهم يتجمعون بكثرة يا سيدي، بكثرة لم يكن في مقدورنا إلا أن نتوقعها.

وكان يتحدث عن هذا الموضوع وكأنه شيء جدير بالتهنئة، ثم راح يفرك يديه بنشاط، ويحرك رأسه قليلاً وهو يستطرد قائلاً:

- بكثرة لم يسعنا إلا أن نتوقعها منطقياً. إنهم كالرذاذ المتساقط من دش الحمام. وأنا غالباً لا أحب أن أتطفل عليك عندما أكون في هذه الناحية، لأني أعرف أنك تفضل الوحدة، وأنك إذا أردت أن تراني، فسوف تترك لي كلمة مع حارس البوابة. ولكنني أحضر هنا في كل يوم تقريباً يا سيدي.

ثم سأله متلطفاً:

- هل هذا وقت مناسب يا سيدي لأقدم إليك ملاحظة ما؟

- إنه وقت مناسب كغيره من الأوقات الأخرى.

فقال السيد راج:

- هه! إن الرأي العام شديد السخط عليك يا سيدي.

- إنني لا أشك في هذا.

فقال السيد راج وهو يزداد تلطفاً:

- ألا يحسن بنا الآن، أخيراً وبعد كل شيء، أن نقوم بترضية بسيطة للرأي العام؛ إننا جميعاً نفعل هذا بطريقة أو بأخرى. والواقع أنه لا بد لنا أن نفعل هذا.

- إنني لا أستطيع أن أصحح وضعي مع الرأي العام يا سيد راج، ولستُ أتوقع في يوم ما أن أعود إلى ميدان العمل مرة أخرى.

- لا تقل هذا.. لا تقل هذا، إن نفقات انتقالك إلى سجن «كنجز بنش» لا تكاد تُذكَر، وإذا كان الاتجاه العام قوياً في وجوب انتقالك إلى السجن، فالواقع أن..

فقال آرثر:

- لقد ظننت أننا انتهينا من هذا الموضوع يا سيد راج، وهو أن تصميمي على البقاء في هذا السجن مسألة مزاج.

فقال السيد راج في استدراج وتلطف شديد يثير الإشفاق عليه:

- حسناً يا سيدي، حسناً؛ ولكن هل هذا مزاج لطيف؟ ذلك هو السؤال؟ وقد كدت أن أقول، هل هو شعور طيب؟ إن الأمر بالنسبة لك خطير. وإن الجميع يقولون إن بقاءك هنا، حيث يمكن أن يُسجَن أي رجل من أجل جنيه أو اثنين، لا يليق. إنه لا يليق. ولا أستطيع أن أقول لك يا سيدي عن عدد الجهات التي سمعت فيها هذا الرأي. في الليلة الماضية فقط سمعت تعليقات عن هذا الموضوع في صالون يتردد عليه ما يمكن أن أقول عنهم -بحكم ترددي عليه بين الحين والآخر- أحسن المشتغلين بالشؤون القضائية. سمعت هناك تعليقات في هذا الشأن آلمني أن أسمعها. لقد آلمتني من أجلك. ومرة أخرى، في هذا الصباح فقط في أثناء تناول طعام الإفطار، كانت ابنتي -ولعلك ستقول إنها سيدة؛

ولكنها على إدراك بمثل هذه الأمور، بل وعلى خبرة شخصية باعتبارها المدعية في قضية راج وبوكنز- أقول كانت ابنتي تعرب عن دهشتها البالغة. والآن، وبناءً على هذه الظروف، وعلى أساس أنه لا يستطيع أن يجعل نفسه فوق مستوى الرأي العام، ألا ترى أن القيام ببعض الترضية للرأي العام! هيا يا سيدي.. لسوف أهبط إلى أقل مستوى ممكن للمناقشة وأقول، ألا ترى أن القيام بهذا شيء لطيف!

ولما كانت أفكار آرثر قد تحولت مرة أخرى إلى دوريت الصغيرة فقد بقي السؤال بلا جواب.

وعاد السيد راج يقول آملاً أن تكون بلاغته قد أثارت بعض التردد في نفس كلينام.

- أما عن نفسي يا سيدي، فإن مبدئي ألا أقيم أي اعتبار لنفسي ما دامت رغبات موكلي في الميزان. ولكن، لعلي بطبيعتك المجاملة، ورغبتك العامة في خدمة غيرك، سوف أكرر القول إني أفضل وجودك في سجن كنجز بنش. لقد أثارت قضيتك ضجة. وهي قضية عظيمة جديرة باهتمام الدوائر القضائية. وإني لأشعر أني سأكون في موقف أحسن مع زملائي لو أنك ذهبت إلى سجن كنجز بنش. ولا تدع هذا كله يؤثر عليك يا سيدي، فأنا فقط أعرض عليك الحقائق.

وبلغ من اعتياد كلينام على الاستغراق في التفكير في الحزن المحصن، ومن تعوّده على الصمت في عزلته بين الجدران الكئيبة دائماً، أنه أفاق من نوع من الذهول قبل أن ينظر إلى السيد راج متذكراً آخر خيط من حديثه وقائلاً بسرعة:

- إنني مُصِر على موقفي، ولن أتزحزح عنه. فأرجوك أن تدع الأمر عند هذا الحد.

فقال السيد راج دون أن يخفي شعوره بالاستياء والضيق:

- أوه، بدون أدنى شك يا سيدي. لقد تجاوزتُ حدود الاتفاق الذي بيننا في تقديمي لهذا الاقتراح إليك. ولكنني في الواقع، حين سمعت هذه التعليقات في مجتمعات كثيرة، وفي كل مجتمع له قيمته، وهي أنه إذا كان الأمر خليقاً لرجل أجنبي، فإنه ليس خليقاً برجل إنكليزي الروح أن يبقى في سجن مارشاليزا، بينما تسمح له قوانين بلاده المتحررة بالانتقال إلى سجن كنجز بنش. لقد رأيت أن أخرج عن نطاق حدودي المهنية لأذكر لك هذا، وإني شخصياً، لا رأي لي في هذا الشأن.

فقال آرثر:

- حسناً جداً.

فقال السيد راج:

- إطلاقاً يا سيدي. ولو كان لي هذا الرأي. لما رغبت -منذ لحظات- في رؤية موكل لي كان يزوره في هذا المكان سيد من أسرة كبيرة يركب جواداً مسرجاً. ولكن ليس هذا شأني. ولو كان لي رأي، لاضطررت الآن إلى التحدث مع سيد آخر، سيد له مظهر عسكري، ينتظر الآن في كشك الحراسة، لأقول له إن موكلي لم يكن يقصد إطلاقاً أن يبقى هنا، وإنه على وشك الانتقال إلى سجن أرقى. ولكن منهجي، كرجل يلتزم حدود مهنته، واضح، فليس لي شأن برغباتك. هل يسرك أن ترى ذلك السيد يا سيدي؟

- ماذا قلت عن ذلك الذي ينتظر زيارتي؟

- لقد تجاوزت حدود مهنتي يا سيدي معه، ولكنه عندما علم أنني مستشارك القضائي، أبى أن يستجيب إلى مواهبي المحدودة في الحديث. ومن حسن الحظ..

وشاع التهكم في صوت السيد راج وهو يردف قائلاً:

- إنني لم أسرف في تجاوزي لحدودي وسأل السيد عن اسمه.

فقال كلينام وهو يتنهد في إعياء:

- أعتقد أنه لا مناص من رؤيته.

فقال السيد راج:

- إذن هل من دواعي سرورك يا سيدي أن تشرفني بتعليماتك لكي أذكر هذا للسيد وأنا في طريقي إلى الخارج؟ أهكذا؟ شكراً يا سيدي. أستأذن في الانصراف.

واستأذن في الانصراف وهو، بسبب ما حدث، أشد ما يكون حنقاً.

وقد أثار السيد ذو المظهر العسكري القليل جداً من فضول كلينام، وهو في هذه الحالة الذهنية، بحيث أخذ النسيان فعلاً يزحف على الحديث عن الزائر وكأنه جانب من غلالة مظلمة أوشكت عندئذ أن تخفيه تماماً، لولا أن أيقظه من هذه الحالة وقع أقدام ثقيلة على السلّم. وبدا أنها، أي الأقدام، تصعد السلّم، لا في سرعة أو هرج، وإنما في جلبة وخيلاء يُقصَد بهما الإهانة. وفيما هي تتوقف على المنبسط الواقع أمام باب غرفته، لم يستطع أن يتذكر علاقته بشخص لأقدامه هذا الوقع الغريب، وذلك رغم أنه خيل إليه أنها لشخص ما معين. ولم تترك له غير لحظة واحدة للتفكير، ثم إذا الباب يُفتح فوراً على مصراعيه، وفي عنف، وفي المدخل وقف بلاندواز المفقود الذي أثار الشيء الكثير من المتاعب والقلق.

قال:

- سلام يا صاحب السجن، يبدو أنك تريدني، فهأنذا.

وقبل أن يتمكن آرثر من الحديث معه في دهشة واستنكار، إذا كافالليتو يتبعه إلى داخل الغرفة، وإذا السيد بانكس يتبع كافالليتو؛ ولم

يكن ثمة واحد منهما قد تردد على هذه الغرفة منذ أن أقام هو فيها. واقترب السيد بانكس، وهو يتنفس بشدة من النافذة، ووضع قبعته على الأرض ونفش شعره إلى أعلى بكلتا يديه، وطوى ذراعيه، كرجل يقضي لحظة من الراحة في يوم عمل مرهق. وجلس السيد بابتست برفق على الأرض، دون أن تتحول نظراته عن صاحبه المخيف قديماً، وجعل ظهره إلى الباب، وأمسك كل كعب من قدميه بإحدى يديه، مستأنفاً ذلك الوضع -إلا أنه الآن وضع رقابة لا تغفل- الذي كان يجلس فيه أمام نفس الرجل في مكان أكثر قتامة بسجن آخر ذات صباح حار في مارسيليا.

وقال السيد بلاندواز الذي كان لانبير، والذي كان ريجود:

- قيل لي على لسان هذين المجنونين إنك تريدني يا صاحب السجن فهأنذا.

وبعد أن ألقى نظرة احتقار على السرير الذي كان يُرفَع في أثناء النهار، أخذ يستند إليه بظهره كمكان للاستراحة دون أن يرفع قبعته عن رأسه، ثم وقف متراخياً في تحدٍّ ويداه في جيبه.

وقال آرثر:

- أيها الوغد المشؤوم! لقد تعمدت أن تلقي ظلال الاتهام على بيت أمي. فلماذا فعلت هذا؟ ما الذي دفعك إلى هذا الصنيع الشيطاني.

وبعد أن قطب السيد ريجود جبينه له برهة، ضحك قائلاً:

- اسمعوا هذا السيد النبيل! لينصت العالم كله إلى هذا المخلوق من الفضيلة! ولكن حذار، حذار. إنه من المحتمل أن تكون حماستك هذه مؤذية. إن هذا محتمل بحق السماء.

وتدخل كافالليتو في الحديث قائلاً لآرثر:

- سيدي! لكي نبدأ الموضوع، اسمعني! لقد تلقيت تعليمات للبحث عنه. ريجود هذا، أليس كذلك؟

- هذه هي الحقيقة.

واستطرد كافالليتو يقول وهو يمط بعض كلمات الظرف -وكانت تلك بعض أخطائه الأساسية في اللغة الإنكليزية- بطريقة لا بد أن تثير القلق في نفس السيدة بلورنيش:

- لقد ذهبت، بناءً على هذا، إلى أبناء وطني أولاً. وسألتهم عن أخبار لندرة وعن الأجانب الوافدين عليها. ثم ذهبت إلى الفرنسيين، ثم إلى الألمان، وقد حدثوني جميعاً. وإن معظمنا يعرف بعضنا البعض وقد حدثوني جميعاً. ولكن! لم يستطع أحد أن يحدثني عنه.. عن ريجود، رغم سؤالي عنه خمس عشرة مرة.

وحرك كافالليتو يده اليسرى ثلاث مرات وقد بسط أصابعها الخمسة. وقد فعل هذا بسرعة لم يكن في وسع حاسة البصر أن تلاحق حركتها.

وعاد يقول:

- وسألت عنه في كل مكان يتردد عليه الأجانب، خمس عشرة مرة.

ثم كرر نفس الحركة السريعة قبل أن يردف قائلاً:

- إلا أنهم لم يعرفوا عنه شيئاً، ولكن..

وعند كلمة «لكن» هذه التي لها دلالتها الخاصة في اللغة الإيطالية، حرك إصبعه السبابة اليمنى إلى الوراء حركة خفيفة جداً، حذرة جداً.

وعاد يقول:

- ولكن! بعد أن عجزت مدة طويلة عن أن أعرف مكانه هنا في لندرة، أخبرني أحدهم عن رجل عسكري أبيض الشعر. هاي! لم يكن أبيض الشعر كهذا! كان يعيش متقاعداً، منعزلاً، في مكان ما، ولكن...!

وبعد أن صمت برهة عقب هذه الكلمة، استطرد يقول:

- ولكن كان يخرج أحياناً بعد الغداء المتأخر ليتمشى ويدخن. وإنه لمن الضروري كما يقولون في إيطاليا -وكما يعرفون هناك، أولئك المساكين- أن يتذرع الإنسان بالصبر. وسألت عن ذلك المكان المعين وقال أحدهم إنه هنا، وقال أحدهم إنه هناك؟ إه. حسناً، إنه لا هنا، ولا هناك. وانتظرت صابراً. وأخيراً وجدته، ثم راقبته. ثم اختبأت حتى خرج يتمشى ويدخن وكان رجلاً عسكرياً بشعر خطّه الشيب، ولكن!

وهنا صمت برهة طويلة، وهو يحرك ظاهر سبابة يده اليمنى من جانب إلى آخر قبل أن يردف قائلاً:

- كان أيضاً نفس هذا الرجل الذي ترونه الآن.

وقد لوحظ أنه، بسبب اعتياده السابق للخضوع لرجل كان يهتم كثيراً بتأكيد تفوقه عليه. راح يشير إلى ريجود بانحناءة مضطربة من رأسه بعد أن أعلن أمره على هذا النحو.

وفي النهاية صاح موجهاً الحديث إلى آرثر:

- إه، حسناً يا سيدي. لقد انتظرت الفرصة السانحة. وكتبت بضع كلمات للسيد بانكو..

وأحس السيد بانكس بجو من الانتعاش إزاء هذه التسمية الجديدة واستطرد كافالليتو قائلاً:

- لكي يأتي ويساعدني. وجعلته يرى ريجود في النافذة.. وأصبح السيد بانكو عيناً عليه في أثناء النهار. وكنت أنام غالباً في الليل بجوار

باب بيته. وأخيراً دخلنا، اليوم فقط، وهأنت الآن تراه بعد أن رفض أن يأتي في أثناء وجود المحامي الضليع معك.

هكذا كانت تسمية السيد بابتست المشرفة للسيد راج قبل أن يردف قائلاً:

– وقد انتظرنا معاً تحت، بينما كان السيد بانكو يرقب الطريق.

وبعد الانتهاء من ذلك السرد، أدار آرثر عينيه نحو الوجه الوقح الشرير. ولما تلاقت نظراتهما، هبط الأنف إلى الشارب، وارتفع الشارب إلى الأنف؛ وبعد أن استقر كل من الأنف والشارب في مكانه مرة أخرى أصدر السيد ريجود بأصابعه طرقعة عالية بعض مرات، وهو ينحني إلى الأمام ليجعل الطرقعة موجهة إلى آرثر، وكأنما هي قذائف حسية مرسلة إلى وجهه.

وقال ريجود:

– والآن أيها الفيلسوف. ماذا تريد مني؟

فردّ آثر قائلاً دون أن يخفي اشمئزازه:

– أريد أن أعرف كيف تجرؤ على إلقاء ظل الاشتباه في ارتكاب جريمة قتل على بيت أمي؟

فصاح ريجود قائلاً:

– أجرؤ، ها، ها! أنصتوا إليه؟ أجرؤ؟ أهذه جرأة، بحق السماء يا ولدي الصغير ما أنت إلا وقح.

فقال آرثر:

– أريد إزالة هذا الاشتباه. لسوف تؤخذ إلى هناك، وسوف تعرض على أنظار الناس علناً. وعداً هذا، أريد أن أعرف ماذا كنت تفعل

هناك عندما استبدت بي الرغبة للإلقاء بك إلى بئر السلّم، لا تتجهم لي يا رجل. لقد عرفت عنك الكثير بحيث أدركت أنك جبان جعجاع. وأنا لست بحاجة إلى إرضاء مشاعري بسبب تأثير هذا المكان التعس على نفسي لكي أواجهك بهذه الحقيقة الواضحة التي أنت تعرفها تماماً.

ومسح ريجود على شاربه وغمغم قائلاً وقد شحب وجهه بشدة:

- بحق السماء يا ولدي الصغير، ما أنت إلا شديد الضرر لسيدتي التي هي أمك المحترمة.

ثم بدا عليه التردد فيما ينبغي أن يفعل. ولكن سرعان ما زال هذا التردد، فجلس في اختيال وتحدٍّ وقال:

- أعطني زجاجة خمر. إنكم تستطيعون شراء الخمور هنا. أرسل واحداً من رجليك هذين المجنونين ليأتيني بزجاجة خمر، إنني لن أتحدث إليك بدون خمر. هيا تكلم: نعم أم لا؟

فقال آرثر باحتقار وهو يُخرِج من جيبه النقود:

- أحضر له ما يريد يا كافالليتو.

وأضاف ريجود قائلاً:

- أيها المهرب الحيوان، هاتها خمر بورت. إنني لن أشرب إلا خمر بورتو.. بورتو.

ولكن المهرب الحيوان أكد للجميع، على كل حال، بإصبعه الموضح، أنه يرفض في إصرار أن يترك نقطة حراسته للباب، وعندئذ عرض السيد بانكس خدماته. وسرعان ما عاد بزجاجة الخمر، التي كانت طبقاً لتقاليد السجن الناشئة عن ندرة الفتاحات بين النزلاء، كندرة أشياء كثيرة أخرى، قد فُتحت للاستعمال.

وقال ريجود:

- هات كأساً كبيرة أيها المجنون.

ووضع السيد بانكو «بانكس» قدح شراب أمامه وقد بدا على وجهه الصراع الداخلي عما إذا كان ينبغي إلقاء القدح على رأسه أم لا.

وصاح ريجود متفاخراً:

- ها ها. كنت وما زلت سيداً كريماً. سيداً كريماً منذ البداية، وسيداً كريماً حتى النهاية. يا للعنة! الواجب أن يقوم شخص ما على خدمة السيد الكريم، وقد اعتدت أن أجد من يقوم على خدمتي.

وكان يملأ القدح وهو يقول هذا، ثم شرب محتوياته حين فرغ من قوله، ثم أردف قائلاً وهو يلعق شفتيه:

- هاه! ليست هذه الخمر قديمة العهد بالسجن في مخازنها. وإني أرى من سمات وجهك، أيها السيد الشجاع، أن السجن سوف يهدئ من حرارة دمك بأسرع من تهدئته لحرارة هذه الخمر. لقد بدأت في النضج، وفقدت بذلك اللون وبعض الوزن فعلاً. إنني أحييك.

وجرع نصف قدح آخر من الخمر، وكان يرفعه عالياً، قبل الشرب وبعده ليستعرض يده الصغيرة البيضاء. ثم استطرد يقول:

- إلى العمل. إلى الحديث. لقد أثبت يا سيدي أنك في الحديث أكثر حرية مما أنت فيه من سجن.

- لقد استخدمت هذه الحرية لأقول لك ما تعرفه أنت عن نفسك. وأنت تعرف -كما نعرف جميعاً- أنك أسوأ من هذا كثيراً.

- أضف إلى هذا أنني دائماً سيد كريم. ولن يهمني شيء بعد ذلك. ففيما عدا هذا الاعتبار، فنحن جميعاً سواء. فمثلاً، إنك لا تستطيع مهما

حاولت أن تكون سيداً كريماً، وأنا لا أستطيع، مهما حاولت، أن أكون غير هذا. فما أعظم الفرق؛ هيا إلى عملنا! إن الألفاظ، يا سيدي، لا تؤثر قط في مجرى اللعب أو الحظ. أتعرف هذا؟ إنك تعرفه؛ إنني أيضاً ألعب الورق، ولم أرَ للألفاظ سيطرة عليه.

ولما كان قد غدا في مواجهة كافالليتو، وعلم أن قصته قد شاعت، أسقط كل سمة من سمات التنكر والادعاء عن وجهه، وواجه الأمر الواقع بوقاحة تنم عن حقيقته كوغد تعس. وقد استطرد يقول وهو يطرقع أصابعه:

- لا يا ولدي. إنني ألعب دوري إلى النهاية رغم الألفاظ؛ وسواء عشت أو مت فأنا المنتصر! أتريد أن تعرف لماذا قمت بهذه الخدعة الصغيرة التي أفسدتها أنت. فاعلم إذن أنه كان لدي، ولا يزال لدي أتفهمني، لا يزال لدي بضاعة لأبيعها لسيدتي التي هي والدتك المحترمة. وقد وصفت بضاعتي الثمينة وحُدِّد الثمن. وعند المساومة كانت والدتك الممتازة هادئة جداً أكثر مما ينبغي، وعنيدة جداً، وثابتة جداً كالتمثال، وبالإجمال أثارت والدتك الممتازة سخطي. ولكي أغير من وضعي، ولكي أسلي نفسي، نعم إنه على السيد الكريم أن يتسلى على حساب شخص آخر، خطرت ببالي هذه الفكرة الطيبة.. فكرة الاختفاء. وهي فكرة، كما ترى، كان يسر والدتك العظيمة وصاحبنا فلنتونش أن ينفذاها. آه، لا، لا.. لا تنظر إليّ من فوق لتحت هكذا. لسوف أكرر هذا الكلام كان يسرهما جداً ويسعدهما جداً بكل ما في وسع قلبيهما من إحساس بالنشوة. فما رأيك في قوة هذا التعبير!

ثم ألقى بقايا ما في قدحه على الأرض، بحيث كاد أن ينتثر بعض الرذاذ على كافالليتو. وبدا أن هذا لفت نظره إليه من جديد، فوضع القدح على المائدة وقال:

- إنني لن أملأه. ما هذا؟ إنني وُلِدت لأُخدَم. هيا إذن يا كافالليتو املأه.

وتطلع الرجل الضئيل إلى كليناm الذي كانت نظراته مشغولة بريجود، فلما لم يرَ ما يمنعه، نهض من مكانه، وصبّ من الزجاجة في القدح. وكان امتزاج خضوعه السابق، وهو يقوم بهذا العمل، مع إحساس ينم عن كل شيء من التندر، واحتكاك هذا الشعور مع نوع من الوحشية المكبوتة التي كان من الممكن أن تنطلق ناراً في لحظة -كما بدا لذهن السيد الكريم أصلاً الذي كان يرقبه بحذر- ثم تحول هذا كله بسهولة إلى طيبة طبيعية، واستخفاف، والنزوع الشديد للعودة إلى الجلوس على الأرض مرة أخرى، كل هذا كان يكوّن مزيجاً عجيباً من شخصيته.

واستطرد ريجود يقول بعد أن شرب:

- إن هذه الفكرة الطيبة أيها السيد الشجاع، كانت طيبة لأسباب كثيرة لقد أمتعتني، وأزعجت ماما العزيزة وصاحبنا فلنتونش، وأثارت في نفسك ألواناً من عذاب القلق، وهذا ما تعلمته من دروس آداب السلوك مع سيد كريم، وأوحت إلى شخصيات كثيرة لطيفة يهمها الأمر بأن صاحبنا الوفي جداً فلنتونش رجل يبعث على الخوف، وأنه بحق السماء لرجل يبعث على الخوف؛ وفيما عدا هذا، كان من المحتمل أن تعيد إلى سيدتي، التي هي والدتك، صوابها.. كان من المحتمل، تحت ضغط الاشتباه الذي أدركته بذكائك، أن تقتنع أخيراً وتعلن -بغموض- في الصحف أن العقبات القائمة في طريق صفقة ما سوف تذلك عند ظهور شخص يهمه أمرها من مخبأه. وربما حدث هذا، وربما لم يحدث. ولكنك جئت وأفسدت الأمر. والآن ماذا تريد أن تقول؟ وماذا تريد أن تفعل؟

ولم يشعر كليناm قط بقسوة السجن والقيد، كما شعر بذلك وهو يرى هذا الرجل أمامه، ثم يجد نفسه عاجزاً عن مرافقته إلى بيت أمه. لقد

أخذت كل الأخطار والمصاعب المجهولة التي كان يخشاها تتجمع وهو عاجز عن تحريك يد أو قدم.

- ولعلك يا صديقي، أيها الفيلسوف، ويا رجل الفضيلة، والأدب، أو كما تريد، لعلك...

وتوقف ريجود عن الشرب لينظر من فوق حافة القدح بابتسامته المزعجة ثم يردف قائلاً:

- لعلك تحسن التصرف لو أنك تركتني وشأني.

فقال كلينام:

- لا! يجب على الأقل أن يعرف الجميع أنك سليم وعلى قيد الحياة. إنك على الأقل لن تستطيع أن تهرب من هذين الشاهدين. وفي مقدورهما أن يقدماك إلى أية سلطات عامة أو أمام مئات من الناس.

فقال ريجود وهو يطرقع أصابعه في الهواء مرة أخرى في تحدي المنتصر:

- ولكنني لن أُقدَّم أمام شخص ما. فإلى الشيطان بشاهديك، وإلى الشيطان برأيك، وإلى الشيطان بنفسك. ماذا؟ هل عرفت ما أعرف لهذا؟ هل عرضت بضاعتي للبيع، لهذا؟ لا أيها المدين المسكين! لقد قطعت على مشروعي الصغير. فليكن هذا. فماذا بقي بعد ذلك؟ لا شيء بالنسبة لك، وكل شيء بالنسبة لي! تقدمني؟ أهذا ما تريد؟ لسوف أقدم نفسي، وبسرعة. أيها المهرب، هات ورقاً وقلماً ومداداً.

ونهض كافالليتو، كما فعل من قبل، ووضع هذه الأشياء أمامه بطريقته السابقة، وبعد برهة من التفكير الخبيث؛ كتب ريجود ثم قرأ ما يلي:

إلى السيدة كلينام.

«في انتظر الرد بسجن مارشاليزا وفي غرفة ابنك».

سيدتي العزيزة:

إنني في حالة يأس حين علمت اليوم بواسطة السجين المقيم هنا، الذي تكرم واستخدم الجواسيس للبحث عني حيث كنت أعيش لأسباب سياسية في عزلة، إنك شديدة الانزعاج على سلامتي.

اطمئني يا سيدتي العزيزة. إنني بخير، وفي أحسن حال من الصحة والقوة. وقد كنت أود بفارغ الصبر أن أطير إلى بيتك، لولا أني أرى، في هذه الظروف، أن من المحتمل أنك لم تستقري بعد على رأي محدد بشأن الاقتراح البسيط الذي تشرفت بعرضه عليك. وسوف أحدد مهلة أسبوع منذ اليوم لأقوم بزيارة أخيرة لك عندما تقبلين هذا الاقتراح بلا قيد أو شرط، أو ترفضينه متحملة كل النتائج المترتبة على ذلك.

إنني أكبت رغبتي في معانقتك عند الفراغ من هذه المهمة اللطيفة، وذلك لكي يتسع لك الوقت لتسوية تفاصيلها لمصالحنا المشتركة.

وفي الوقت نفسه، أعتقد أنه ليس كثيراً أن أقترح -بعد أن أفسد سجيننا وسيلة إقامتي- أن تكون نفقات إقامتي وطعامي في أي فندق على حسابك.

تقبلي يا سيدتي العزيزة تحيتي وتأكيدي بأني لا أحمل لك إلا أسمى وأعظم التقدير.

ريجود بلاندواز

ألف تحية للعزيز فلنتونش. وقبلة ليدي السيدة «ف».

وبعد أن فرغ من كتابة هذه الرسالة، طواها، وطوح بها إلى قدمي كلينام قائلا:

- هيا يا هذا، يا بطل التقديم، دع أحداً يقدم هذه إلى عنوانها، ثم يقدم لي الإجابة هنا.

فقال آرثر:

- كافالليتو، هل تأخذ رسالة هذا الشخص؟

ولكن إصبع كافالليتو البليغ أعرب مرة أخرى أنه لا يستطيع ترك مركزه بجوار الباب لمراقبة ريجود، وذلك بعد أن عثر عليه بشق النفس. وأن واجبات حراسته تحتم عليه الجلوس على الأرض، وظهره إلى الباب، ونظراته على ريجود، ويداه ممسكتان بكعبيه. ومرة أخرى تطوع السيد بانكو «بانكس» للقيام بهذه المهمة. ولما قبلت خدماته، وافق كافالليتو على فتح الباب بقدر ما يكفي فقط لخروجه بصعوبة، ثم بادر إلى إغلاقه فوراً.

وقال ريجود:

- إذا لمستني بإصبع، أو بكلمة نابية، أو شككت في امتيازي عليك وأنا جالس أشرب الخمر كما يحلو لي، فسوف أمضي وراء الرسالة. وألغي مهلة الأسبوع. لقد كنت تريدني، وهأنا أمامك! فما رأيك فيّ؟

فردّ كلينام قائلاً وهو يشعر في مرارة شديدة بعجزه:

- أنت تعلم أني حين بحثت عنك لم أكن سجيناً.

فقال ريجود، في تراخٍ، وهو يتناول من جيبه علبة تحتوي على أدوات لف السجائر، وراح يشغل يدي الرقيقتين في لفّ عدد منها للاستعمال:

- إلى الجحيم أنت وسجنك. فأنا لا أهتم بكما. أيها المهرب، أشعل سيجارتي.

ومرة أخرى نهض كافالليتو، وقدم إليه ما أراد. وكان ثمة شيء رهيب في تلك البراعة الصامتة التي كانت تنم عليها يداه الباردتان البيضاوان بأصابعهما التي كانت تلتوي بخفة، ويلتف الواحد منها على الآخر كالأفعى. ولم يتمالك كليندم من الارتعاد في ذات نفسه، وكأنما هو ينظر إلى جحر من جحور هذه الزواحف.

وصاح ريجود صيحة هادرة مثيرة وكأنما كافالليتو كان جواداً أو بغلاً إيطالياً:

– هيا أيها الخنزير! ما هذا؟ لقد كان السجن اللعين السابق مكاناً محترماً بالنسبة لهذا. كان ثمة مهابة في قضبان وأحجار ذلك السجن. كان سجناً للرجال. أما هذا، هاه، إنه مستشفى للحمقى.

ودخّن سيجارته، وكانت ابتسامته المقيتة راسخة على وجهه بحيث بدا كأنما كان يدخن بطرف أنفه المنحني كالمنقار، لا بفمه، مثل رسم خيالي في صورة مزعجة مسحورة. ولما أشعل السيجارة الثانية من الجزء الباقي المشتعل من السيجارة الأولى، قال لكليندم:

– يجب على الإنسان أن يقطع الوقت في أثناء غيبة الرجل المجنون، يجب على الإنسان أن يتحدث. لا يستطيع الإنسان أن يشرب الخمر طيلة اليوم، وإلا طالبت بزجاجة أخرى، إنها جميلة يا سيدي، إن كانت لا تتفق تماماً مع مزاجي، ولكنها بحق الرعد والبرق جميلة. إنني أهنئك على حسن ذوقك.

فقال كليندم:

– إنني لا أعرف، ولا أريد أن أعرف، عمن نتحدث.

– إنها ديللا بيللا جوانا كما يسمونها في إيطاليا يا سيدي، أعني السيدة جوان.. الحلوة.

- التي كنت تابعاً لزوجها، كما أظن؟

- سيدي؟ تابعاً له؟ إنك وقح! بل صديق.

- وهل تبيع كل أصدقائك؟

فتناول ريجود السيجارة من فمه، ورمقه في لحظة من الاندهاش، ولكنه وضعها بين شفتيه مرة أخرى وهو يجيب ببرود.

- إنني أبيع كل شيء له ثمن. كيف يعيش أصحابك المحامون، والسياسيون، والمتآمرون، ورجال البورصة؟ كيف تعيش أنت؟ كيف جئت إلى هنا؟ ألم تبع صديقاً لك؟ ويح نفسي، أعتقد أنك فعلت هذا.

وأشاح كلينام عنه بوجهه إلى النافذة، وجلس يتطلع إلى سور السجن. وقال ريجود مستطرداً:

- وعلى هذا الأساس يا سيدي، فإن المجتمع يبيع نفسه، ويبيعني، وأنا بدوري أبيع المجتمع. وأعتقد أنك تعرف سيدة أخرى، جميلة أيضاً. قوية الشكيمة. هيا نفكر. ماذا يسمونها؟ ويد!

ولم يتلقَّ إجابة ما. ولكنه استطاع أن يدرك بسهولة أنه أصاب الهدف، فاستمر يقول:

- نعم، سيدة جميلة، قوية الشكيمة، حدثتني في الطريق، وأنا لست متبلد الشعور. فاستجبت لها. هذه السيدة الجميلة، القوية الشكيمة، أكرمتني بقولها، بكل ثقة: «إنني لا أخلو من الفضل، ولا من المنغصات. وأنت تبد لي أكثر من مجرد شخص محترم عادي، ربما»، فقلت لها: «سيدتي، إنني سيد كريم منذ مولدي، وسيد كريم حتى يوم وفاتي، ولكنني لستُ محترماً أكثر من غيري. فأنا أحتقر هذا الضعف الذي ينطوي على الخيال المحلق» وعندئذ سرَّها هذا المديح، وقالت: «إن الفرق بينك وبين الباقين

هو أنك تقول هذا»، ذلك لأنها تعرف حقيقة المجتمع. وقد تقبلت مديحها بشهامة وأدب، فالشهامة وآداب السلوك جزء لا يتجزأ من طبيعتي.

ثم عرضت بعد ذلك اقتراحاً عليّ، مؤداه أنها رأتنا معاً كثيراً، وأنها كما بدا لها حسبتني، في ذلك الوقت، القطة الأليفة للبيت، أي صديق الأسرة. وأن فضولها ومنغصاتها أثارا في نفسها الرغبة في معرفة تحركاتها، والوقوف على طريقة حياتها، وإلى أي مدى تتمتع السيدة جوان الجميلة بالحب، وإلى أي مدى تتمتع بالتقديس، وما إلى هذا. ولم تكن غنية، ولكنها كانت تدفع لي بين الحين والآخر بعض التعويضات عما كنت أعانيه رضاء فضولها مثل هذه الخدمات. وقد ترفقت -لأن الترفق جزء من طبيعتي- في الموافقة على قبول هذه التعويضات. أوه، أجل. هكذا يسير العالم، وهذا هو التقليد.

ورغم أن كليناm كان مولياً ظهره إليه في أثناء حديثه، وقد ظل كذلك حتى نهاية الزيارة، فإنه بقي مركِّزاً عينيه البراقتين المتقاربتين عليه، مدركاً بوضوح من وضع رأس كلينام، وهو ينتقل بثرثرته الطائشة من عبارة إلى عبارة، إن كل ما قاله لم يكن غيباً عن ذهن كلينام.

وعاد يقول وهو يشعل سيجارة ثالثة بصوت خفيف كأنما يخشى أن يطفئنا أقل نفخة نفس:

- يا لجمال السيدة جوان.. جميلة ولكنها حقيرة. لأنه لم يكن جميلاً أن ترتكب تصرفات سرية بشأن رسائل غرام من عشاقها القدامى في غرفة نومها بالجبل، حتى لا يعرف زوجها عنها شيئاً، لم يكن هذا جميلاً. إن السيدة جوان مخطئة في هذا.

وصاح آرثر قائلاً:

- أرجو مخلصاً ألا تطول غيبة بانكس، لأن وجود هذا الرجل هنا يلوث جو الغرفة.

قال ريجود بنظرة ابتهاج وهو يطرقع بأصابعه:

- آه، ولكنه سوف يزدهر هنا، ويزدهر في كل مكان، لأنه كان هكذا دائماً، وسيبقى هكذا أبداً..

ثم تمدد على المقاعد الثلاثة الوحيدة في الغرفة. بخلاف مقعد كلينام، وراح يغني وهو يضرب بيده على صدره وكأنه الشخصية الباسلة التي تمثلها الأغنية:

من ذا الذي يسير على هذا الطريق في ساعة متأخرة
يا رفيق الماجولين
من ذا الذي يسير على هذا الطريق في ساعة متأخرة
دائماً طروباً.

ثم قال لكافالليتو:

- ردد المقطع الأخير أيها الخنزير. لقد رددته ذات مرة في سجن آخر. ردِّد، وإلا فبحق كل قديس مات مرجوماً بالحجارة، سوف أشعر أنك تحديتني وأهنتني، وعندئذ سوف يرى بعض الناس الذين لم يموتوا بعد، أنه كان أفضل لهم لو ماتوا مع هؤلاء القديسين مرجومين بالأحجار.

وعاد يترنم:

ومن بين جميع فرسان الملك، هو الزهرة في وسطهم
يا رفيق الماجولين
ومن بين جميع فرسان الملك، هو الزهرة في وسطهم
دائماً طروباً.

ولسبب اعتياده على الخضوع سابقاً من ناحية، ولشعوره بأنه إذا لم يفعل هذا فقد يسبب الضرر للمحسن إليه كلينام من ناحية أخرى،

ولإدراكه أنه من الخير له أن يفعل هذا، بدلاً من أن يفعل شيئاً آخر، من ناحية ثالثة، أخذ كافالليتو يردد مقطع الأغنية هذه المرة.

وضحك ريجود عالياً، وعاد إلى التدخين وهو يغمض عينيه.

وبعد أن مضى نحو ربع ساعة آخر سمع وقع أقدام السيد بانكس على السلّم، ولكن غيبته بدت لكلينام دهراً طويلاً. وكان وقع قدميه مصحوباً بوقع قدمي شخص آخر. ولما فتح كافالليتو الباب، أدخل السيد بانكس والسيد فلنتونش، وما كاد هذا الأخير يظهر، حتى اندفع ريجود إليه وراح يعانقه باهتياج.

وقال السيد فلنتونش بمجرد أن خلص نفسه بعد أن كافح في سبيل هذا بشيء من الجفاء:

– كيف حالك يا سيدي. لا، شكراً، لا أريد مزيداً من هذا.

وكان يشير بذلك إلى تهديد الآخر بمعانقته مرة ثانية، ثم استطرد يقول لكلينام:

– حسناً يا آرثر، هل تذكر ما قلته لك عن الكلاب النائمة والكلاب المفقودة، لقد صدق حديثي كما ترى.

وكان رابط الجأش، كشأنه دائماً، أما الجميع، وقد راح يومئ برأسه في هيئة الرجل الحكيم وهو يتلفت في جوانب الغرفة، وأخيراً:

– وهذا إذن سجن مارشاليزا الخاص بالمدينين؟ هاه، لقد جئت بخنازيرك إلى سوق مختلف جداً يا آرثر[1].

(1) يقصد أن «الرياح جاءت بما لا تشتهي السفن».

وإذا كان آرثر متمتعاً بالصبر، فلم يكن ريجود كذلك. ومن ثم أمسك صاحب فلنتونش في مداعبة عنيفة من قلابتي سترته وصاح به:

- إلى الجحيم بالسوق، وإلى الجحيم بالخنازير، وإلى الجحيم براعيها. والآن أريد أن أعرف الإجابة عن رسالتي.

فردّ السيد فلنتونش قائلاً:

- لو كان في الإمكان أن تترك سترتي لحظة يا سيدي، فسوف أسلِّم السيد آرثر أولاً رسالة صغيرة أحملها له.

وقد فعل هذا. وكانت مكتوبة بخط والدته المشوه على قصاصة من الورق، وكانت تحتوي فقط على هذه الكلمات:

«أرجو أن تكون اكتفيت بتدمير نفسك.. فلا تسعَ إلى تدمير غيرك. إن أرميا فلنتونش هو رسولي ومندوبي. أمك المحبة م.ك».

قرأ كلينام الرسالة مرتين، ثم مزقها إرباً. وفي الوقت نفسه تقدم ريجود وجلس على ظهر مقعد جاعلاً قدميه على قاعدته. وقال بعد أن راقب بإمعان الرسالة وتمزيقها:

- والآن أيها الجميل فلنتونش، هات الإجابة عن رسالتي.

فقال السيد فلنتونش، وكأنه ينتزع الكلمات من نفسه بصعوبة وعلى غير رضا.

- إن السيدة كلينام لم تكتب، يا سيد بلاندواز، لأن يديها عاجزتان ومن ثم رأت أنه من الأفضل أن ترسل الإجابة شفوياً عن طريقي. إنها ترسل إليك تحياتها، وتقول لك إنها بوجه عام لا تريد أن تصفك بالتعنت ولذلك فهي موافقة. ولكن دون المساس بالموعد الذي حددته بأسبوع.

وبعد أن استغرق السيد ريجود في نوبة من الضحك، هبط من عرشه قائلاً:

- حسناً! سوف أذهب وأبحث عن فندق.

ولكنه عندئذ التقى بنظرات كافاالليتو الذي لم يكن قد بارح مكان حراسته. ومن ثم أضاف قائلاً:

- هيا أيها الخنزير. لقد قبلتك تابعاً لي رغماً عني. والآن سوف أجعلك تابعاً رغماً عنك. سوف أقول لكم أيها الزواحف الصغيرة، لقد ولدت لكي أُخدَم، وأنا أطالب بخدمة هذا المهرب لي لمدة أسبوع من اليوم.

ورداً على نظرة استفسار من كافاالليتو إلى كلينام، أشار إليه هذا بالذهاب، ولكنه أضاف قائلاً:

- إلا إذا كنت خائفاً منه.

فأجاب كافاالليتو بحركة نفي مؤكدة من إصبعه:

- لا يا سيدي، إنني لست خائفاً منه ما دمت لم أعد مضطراً إلى القول بأنه كان زميلاً يوماً ما.

ولم يحفل ريجود بهذه الملاحظة حتى أشعل سيجارته الأخيرة، واستعد للانصراف. إذ قال عندئذ وهو يتلفت نحوهم جميعاً:

- خائفاً منه! هاه! يا صغاري، يا أطفالي، يا دماي الصغيرة، إنكم جميعاً خائفون منه. إنكم تعطونه زجاجة خمر هنا، وإنكم تعطونه لحماً وشراباً وسكناً هناك. إنكم لا تجرؤون على لمسه بإصبع أو بكلمة نعم. لا. إن من طبيعته أن ينتصر، هاه.

ومن بين جميع فرسان الملك، هو الزهرة في وسطهم، إنه دائماً طروب.

وبتطبيق هذه الفقرة على نفسه، انصرف من الغرفة متبوعاً عن كثب بكافاالليتو الذي لعله ألحّ في طلبه لخدمته لأنه كان يعلم جيداً أنه لن يكون من السهل عليه أن يتخلص منه. أما السيد فلنتونش، فبعد أن حكّ

ذقنه ونظر حوله في احتقار شديد لمسألة «السوق والخنازير» أومأ برأسه لآرثر، وتبع الجميع. وسار وراءهم أيضاً السيد بانكس الذي لم يزل نهباً للندم والحزن، وذلك بعد أن تلقى بانتباه شديد كلمة أو كلمتين من التعليمات السرية من آرثر، وقد رد هامساً بأنه سوف يتتبع هذا الموضوع إلى غايته، وأن يصمد له إلى النهاية. وهكذا ترك السجين مرة أخرى بمفرده وقد ازداد شعوراً بأنه غدا أكثر عرضة للاحتقار وأكثر عرضة للازدراء، وأجدر بالنبذ، وأعجز شأناً، وأشد بؤساً وانحداراً مما كان من قبل.

* * *

اعتذار في سجن مارشاليزا



إن الحيرة والقلق والندم من أسوأ الرفاق الذين يمكن أن يسجن معهم إنسان في مكان واحد. وكذلك لم يكن الاستغراق في الأفكار الحزينة طيلة النهار، والراحة القليلة جداً في أثناء الليل بالشيء الذي يجعل الرجل يقاوم الإحساس بالبؤس. فلا عجب أن شعر كلينام، في اليوم التالي، أن صحته تنهار، كما انهارت فعلاً معنوياته، وإن العبء الثقيل الذي ينوء هو تحته يوشك أن يقضي عليه.

وكان ينهض الليلة وراء الليلة من فراش تعاسته في الساعة الثانية عشرة أو الواحدة، ويجلس إلى النافذة متطلعاً إلى المصابيح السقيمة الضوء في الفناء، ناظراً إلى السماء التماساً لأولى أضواء الصباح الخافتة، ذلك قبل ساعات من احتمال ظهور أول خيط للفجر. فإذا جاء الليل، أحس حتى بعدم الرغبة في استبدال ملابسه.

وكان القلق الممض، والضيق المرير بالسجن، والاعتقاد بأنه سيحطم قلبه ويموت فيه، كان هذا كله يملأ نفسه بآلام لا سبيل إلى وصفها. وقد بلغت كراهيته وفزعه من المكان حداً جعله يشعر بالعناء حتى وهو يلتقط أنفاسه. وكان إحساسه بالاختناق يستبد به أحياناً بحيث كان يقف إلى النافذة ممسكاً بعنقه وهو يلهث. وفي الوقت نفسه كانت لهفته إلى هواء

آخر، وحنينه للانطلاق إلى ما وراء الأسوار الصماء يجعلانه يحس أنه لا بد أن يجن من فرط استبداد هذه الرغبة به.

لقد مرّ كثير غيره من السجناء بهذه التجربة قبله، وقد أنهك عنفها واستمرارها نفوسهم في تلك الحالات كما حدث له. وقد استغرقت عملية الإنهاك ليلتين ويوماً، وكانت في أول الأمر تأتي في نوبات عنيفة، ثم أخذت تخف تدريجياً وتتسع الفترة بين كل نوبة وأخرى، وبعدها شاع في نفسه شعور هادئ بالعزلة، وفي وسط الأسبوع وجد نفسه قد استقر في حالة من الاستسلام والخمول.

ولم يكن يخشى أن يزوره أحد، في أثناء غيبة بانكس وكافالليتو، إلا السيد والسيدة بلورنيش. وكان قلقه فيما يختص بهذين الاثنين المحترمين، يدور حول عدم رغبته في حضورهما إليه، لأنه وهو في هذه الحالة العصبية المزعجة، كان يفضل أن ينفرد بنفسه، وأن يعفى من رؤية أحد له وهو في هذه الحالة من الاستسلام والضعف. ومن ثم أرسل خطاباً قصيراً إلى السيدة بلورنيش يعرب لها فيه عن انشغاله بأموره الخاصة، وعن اضطراره للاستغراق في تصريفها بحيث سيبقى وقتاً ما في حالة لا يستطيع معها الاستمتاع برؤية وجهها اللطيف. أما الشاب جون الذي كان يقبل في كل يوم وفي ساعة معينة عندما يفرغ من نوبة حراسته، ليسأل إن كان في مقدوره أن يفعل شيئاً له، فقد كان كلينام يتظاهر أمامه دائماً بأنه مشغول بالكتابة، ثم يجيب بالنفي في صوت بشوش. ولم يحدث قط أن تكرر الحديث عن الموضوع الذي سبق أن تحدثا فيه ذات مرة فترة طويلة. ولكن هذا الموضوع لم يفقد سيطرته على ذهن كلينام رغم كل التطورات البائسة التي شملت حياته.

كان اليوم السادس من مهلة الأسبوع حاراً رطيباً غائماً. وكأنما، كما بدا له، أن ظواهر فقر السجن ورثاءته وقذارته قد انتشرت في الجو

الحار الرطب. وأخذ كلينام برأس موجع وقلب واهن يرقب انصرام ساعات الليل، مرهفاً السمع إلى خرير المطر المتساقط على أرضية الفناء؛ مفكراً في صوته الأرق حين كان يتساقط على أراضي الريف. وارتفعت في السماء حلقة غائمة من غمام أصغر في السماء معلنة قدوم الشمس، وقد راح يرقب الرقعة التي وضعتها على الجدار المواجه له، وكأنها قطعة من رثاثة السجن. وكان قد سمع بوابات السجن وهي تفتح، ووقع الأقدام ذات الأحذية الغليظة وهي تدخل في تعثر وتثاقل بعد أن انتظر أصحابها في الخارج طويلاً. ثم أعقب ذلك أصوات عمليات الكنس، وملء الأوعية من الطلمبة، وجلبة الحركة التي تعلن بدء يوم جديد في حياة السجن. وقد بلغ من سقمه وضعفه أنه اضطر إلى الاستراحة بضع مرات في أثناء اغتساله، إلى أن زحف أخيراً نحو مقعده عند النافذة المفتوحة، وهناك جلس نعسان بينما أخذت المرأة المكلفة بترتيب غرفته تقوم بعملها.

وخيل إليه، بسبب خفة رأسه من قلة النوم وقلة الطعام، لأن شهيته، بل وإحساسه بالتذوق، كانا قد تخليا عنه، أن أحس في أثناء الليل مرتين أو ثلاثاً كأنما هو يهيم في مكان ما فيه بقايا من رنين أنغام في هواء دافئ، ولكنه كان يعلم أنه ليس لهذا المكان وجود. إلا أنه وقد بدأ ينعس الآن من فرط التعب، إذا به يسمعها مرة أخرى، وخيل إليه أن الأصوات تحدِّثه، وأنه يجيب عليها، وأنه ينتبه بين الحين والآخر.

وخيل له وهو ينعس ويحلم، دون قدرة على تحديد الوقت، حيث يمكن أن تكون الدقيقة ساعة، والساعة دقيقة، أنه يشعر بوجوده في حديقة ما.. حديقة أزهار يحرك عطرها وينشره في الجو هواء رطيب دافئ. وكان الأمر يحتاج إلى جهد مؤلم لكي يرفع رأسه ويسأل عن هذا أو يستفهم عن أي شيء بحيث بدا له أن ذلك الشعور أصبح قديماً ولا قيمة له، وذلك عندما استدار برأسه إلى الخلف. وهنا رأى بجانب فنجان الشاي على المائدة باقة أزهار متفتحة. باقة من أعجب وأروع الأزهار البديعة.

لم يحدث قط أن رأى شيئاً على مثل هذا الجمال يبدو في نظره. وتناول الأزهار، واستنشق عطرها، ورفعها إلى رأسه الساخنة، وأعادها إلى المائدة وفتح يديه المحترقتين إليها، كما يفتح الرجل يديه الباردتين إلى النار البهيجة. ولم يتساءل عمن أرسلها إلا بعد أن نَعِم بها فترة من الوقت. ثم فتح الباب ليسأل المرأة التي لا بد أنها هي التي وضعتها على المائدة، كيف وصلت إلى يديها. ولكن المرأة كانت قد انصرفت. بل بدا أنها انصرفت منذ مدة طويلة، لأن الشاي الذي تركته له على المائدة كان بارداً. وحاول أن يشرب بعضاً منه، ولكن لم يستطع أن يحتمل رائحته. ومن ثم زحف عائداً إلى مقعده بجوار النافذة المفتوحة، ووضع الأزهار على المنضدة الصغيرة المستديرة التي كانت بالغرفة سابقاً.

وبعد أن زايله الأثر الخفيف الناشئ من الحركة في الغرفة، عاد إلى حالة الخمول السابقة. وكانت إحدى نغمات الليل تنتشر على أجنحة الهواء عندما بدا له أن باب غرفته ينفتح بلمسة خفيفة. وبعد برهة من السكون، لاح له أن ثمة شخصاً هادئ الهيئة واقفاً بالباب، مرتدياً معطفاً أسود. وبدا له أن ذلك الشخص ينضو عنه المعطف ويلقي به على الأرض، ثم خيل إليه أن الشخص ليس إلا صغيرته دوريت، في ملابسها القديمة البالية. ولاحَ له أنها ترتعد وأنها تشبك يديها، وأنها تبتسم، ثم تنفجر باكية.

وأنهض نفسه، وصاح. ثم إذا هو يرى في الوجه المحب، العطوف، الحزين، العزيز، وكأنما ينظر في مرآة، إلى أي حد قد تغير هو. وأقبلت نحوه. ووضعت يديها إلى صدره حتى تبقيه في مقعده، ركعت بركبتيها على الأرض عند قدميه، ورفعت شفتيها إليه لتقبّله ودموعها تنحدر عليه كما تتساقط قطرات المطر من السماء على الأزهار، وإذا هي، دوريت الصغيرة، بنفسها، تناديه باسمه قائلة:

- أوه، يا أعز صديق! يا عزيزي السيد كلينام، لا تدعني أراك تبكي إلا إذا كان بكاء البهجة برؤيتي. وأرجو أن يكون هذا. لقد عادت إليك طفلتك المسكينة.

لشد ما كان وفاؤها، وحنانها، وصمود نفسها أمام الثراء. ولشد ما أحس ببرد الرائحة القدسية وهو يسمع عذب صوتها، وهو يرى نور عينيها؛ وهو يحس بلمسة يديها:

وفيما هو يعانقها، قالت له:

- إنهم لم يخبروني قط أنك مريض.

ثم لفّت ذراعيها برفق حول عنقه، وجعلت رأسها على صدره، ووضعت يداً على رأسه، وأراحت خدها على تلك اليد، وأخذت تلاطفه في حنان، وفي براءة كما يعلم الله، وكما كانت تلاطف أباها في نفس الغرفة عندما لم تكن إلا طفلة أحوج ما تكون إلى رعاية الذين كانت ترعاهم.

ولما استطاع أن يتكلم، قال:

- أيمكن أن تكوني قد جئت إليّ حقاً؟ وفي هذا الثوب؟

- لقد رجوت أن تسر برؤيتي في هذا الثوب أكثر مما تفعل وأنا في أي ثوب آخر. لقد كنت أحتفظ به دائماً معي ليذكرني، وإن كنت في غير حاجة إلى من يذكرني، إنني كما ترى لست بمفردي. لقد جئت معي بصديقة سابقة.

ولما التفت رأى ماجي في قلنسوتها الكبيرة التي كانت هجرتها منذ أمد بعيد، والسلة في ذراعه كما كان شأنها فيما مضى، وكانت تضحك في نشوة وابتهاج.

- إنني لم آتِ إلى لندن إلا أمس مساءً فقط، مع أخي. وقد أرسلت إلى السيدة بلورنيش بمجرد وصولي عسى أن أسمع عنك شيئاً، ولكي أعرِّفك أني حضرت. ثم سمعت أنك هنا. هل حدث أن فكرت فيَّ أثناء الليل؟ إنني أكاد أعتقد أنك لا بد قد فكرت فيّ قليلاً. لشد ما كان قلقي عليك وأنا أفكر فيك، ولشد ما بدا الليل طويلاً حتى أسفر الصبح.

- كنت أفكر فيك يا..

ولم يدرِ كيف يناديها، ولاحظت هي ذلك فوراً، فقالت:

- إنك لم تتحدث معي باسمي الحقيقي بعد. وأنت تعرف ما هو اسمي الحقيقي بالنسبة لك.

- كنت أفكر فيك، يا صغيرتي دوريت، كل يوم، وكل ساعة، وكل لحظة منذ أن جئت إلى هنا.

- أحقاً؟ أحقاً؟

ورأى إشراقة البهجة على وجهها، ووهج النار التي أضاءتها في ذلك بإحساس من الخجل والعار من جانبه، وهو السجين المحطم، والمفلس المهين.

- كنت هنا قبل أن تفتح بوابات السجن، ولكنني خشيت أن آتي إليك فوراً، وإلا لأسأت إليك أكثر مما أريد أن أحسن، في أول الأمر. ذلك أن السجن كان مألوفاً جداً، ومع ذلك بدا لي غريباً عجيباً، كما أنه أعاد إليّ الكثير من الذكريات عن أبي، وعنك أيضاً، بحيث غلبتني الدموع على أمري في أول الأمر. ولكننا ذهبنا إلى السيد شيفري قبل أن نأتي إلى البوابة، وقد أعدّ لنا غرفة جون؛ وهي نفس غرفتي المسكينة السابقة كما تعلم، وهناك انتظرنا قليلاً. وقد أحضرت الأزهار إلى هذه الغرفة ولكنك لم تشعر بي.

وكانت تبدو على شيء من الأنوثة أكثر مما كانت قبل أن ترحل، كما كانت تبدو على وجهها بوضوح لمسة النضج لشمس إيطاليا. وفيما عدا هذا لم يتغير فيها شيء، لقد رأى عليها نفس اللهفة العميقة الوادعة التي لا تخلو أبداً من قوة العاطفة، باقية كما هي دائماً. وإذا كان لها معنى آخر جديد ينفذ إلى شغاف قلبه، فإن هذا المعنى ناشئ من إدراكه هو، لا منها هي.

وخلعت قبعتها القديمة، وعلقتها في نفس المكان السابق، ثم شرعت، في سكون، وبمساعدة ماجي، تجعل غرفته مرتبة ناضرة بقدر ما يمكن أن تكون، ناثرة فيها ماء عاطر الرائحة. فلما فعلت هذا، أفرغت السلة التي كانت مليئة بالعنب والفواكه الأخرى ووضعت محتوياتها بهدوء في مكانها المناسب. وبعد أن فرغت من هذا، همست لماجي طالبة منها أن ترسل شخصاً ما ليعيد ملء السلة، وسرعان ما تم هذا، وجاءت السلة مليئة بألوان أخرى من الطعام والشراب. منها شراب بارد ومثلجات وكمية لا بأس بها من الدجاج المحمر، مع الخمر، والماء، وبعد أن أعدت هذا كله، تناولت جعبة أشغال الإبرة القديمة لتصنع له ستارة للنافذة. وهكذا، في ذلك الجو الهادئ المخيم على الغرفة، الذي بدا كأنه يتلاشى في ضجيج السجن، وجد آرثر نفسه جالساً في سكينة على مقعده، ودوريت الصغيرة تعمل في أشغال الإبرة بجانبه.

إن رؤيته لهذا الرأس الوادع المنحني على العمل، وللأصابع البارعة وهي تعمل في شغلها القديم، رغم أنها لم تكن مستغرقة فيه تماماً، لأن عينيها الحانيتين كانتا ترتفعان إلى وجهه بين الحين والآخر. حتى إذا أغضتهما مرة أخرى، تألقت الدمع فيهما، وإن تمتعه بهذا العزاء وهذه المواساة واليقين بأن كل ما في هذه النفس الطيبة من إخلاص قد تحول إليه في محنته، لكي يسكب عليه هذا الفيض من الطيبة التي لا ينضب لها معين، كل هذا وذاك لم يجعل يد كلينام أو صوته يكف عن الارتعاد، أو يشد من عزيمته وهو في حالته هذه من الضعف. إلا أنه كان يبث في أعماق نفسه لوناً من المناعة التي كانت تزداد مع حبه. وإن الكلمات الآن لأعجز من أن تعبر عن مدى حبه الشديد لها.

وفيما هما جالسان جانباً إلى جنب، في ظل الجدار، كان الظل يقع عليه كأنه النور، وأبت أن تجعله يكثر من الكلام، من ثم بقي متراخياً في

مقعده، ناظراً إليها. وبين الحين والآخر كانت تنهض لتعطيه قدح شراب، أو لتصلح الوسادة التي يريح عليها رأسه، ثم تستأنف في هدوء الجلوس بجانبه، وتعيد انحناءة رأسها على عملها.

وتحرك الظل مع حركة الشمس، ولكنها لم تتحرك من جانبه قط إلا لتقوم على خدمته. ومالت الشمس إلى المغيب، ولكنها ظلت في مكانها، وكانت قد فرغت من عملها، ورفرفت يدها على ذراع مقعده منذ أن أصلحت له بعض شأنه آخر مرة، وظلت مترددة عليه. ووضع يده عليها، وأمسكت هي بها في ابتهال مرتجف وقالت:

- يا عزيزي السيد كلينام، يجب أن أقول لك شيئاً قبل أن أنصرف، لقد أرجأته الساعة بعد الأخرى. ولكن يجب أن أقوله الآن:

- وأنا أيضاً يا عزيزتي الصغيرة دوريت، لقد أرجأت ما كنت أريد أن أقول لك.

فحركت يدها في اضطراب نحو شفتيه، كأنها تمنعه من الحديث ثم أعادتها، مرتجفة، إلى مكانها الأول.

- إنني لن أعود إلى السفر خارج البلاد، سيسافر أخي، أما أنا، فلا. لقد كان دائماً شديد التعلق بي، وهو الآن شديد العرفان لي بالجميل، لأني بقيت بجانبه في أثناء مرضه، بحيث أصبح يقول إنني حرة في البقاء أينما أريد، وأن أفعل ما يحلو لي. إنه يريد فقط أن أكون سعيدة، هكذا يقول.

وكان ثمة نجم واحد متألق في السماء، وكانت تنظر إليه وهي تتحدث وكأنه هدف قلبها المنشود يسطع فوقها.

- إنك ستفهم، دون أن أخبرك، إذا سمحت لي بهذا القول، إن أخي جاء ليبحث عن وصية أبي، وليتولى أمر الممتلكات. وهو يقول إنه إذا كانت هناك وصية، فلا بد أنني سأغدو واسعة الثراء بمقتضاها وإلا، فسوف يجعلني هو كذلك.

وأراد كلينام أن يقول شيئاً، ولكنها وضعت يدها المرتجفة على شفتيه مرة أخرى، فصمت.

- إنني لا أجد المجال الذي أنفق فيه المال، لا أريد الثراء. إنه لن يكون ذا قيمة لي إلا من أجلك. إنني لا أستطيع أن أكون ثرية وأنت هنا. إنني عندئذ سأكون أسوأ جداً مما لو كنت فقيرة طالما أنت في هذه المحنة. هل تسمح لي أن أقرضك كل مالي؟ هل تسمح لي أن أهبك إياه؟ هل تسمح لي أن أبين لك أنني لم أنسَ قط، ولن أستطيع أبداً أن أنسى رعايتك لي عندما كان هذا السجن مثواي! يا عزيزي السيد كلينام، اجعلني، دون الناس جميعاً، أسعد إنسانة بقولك نعم! اجعلني أشعر بقدر ما أستطيع من السعادة عند انصرافي من هنا دون أن تقول شيئاً، ودعني آمل أنك ستفكر في هذا بعطف وأن ما ستفعله سيكون من أجلي لا من أجلك، من أجلي أنا لا من أجل أحد آخر. لسوف تتيح لي الشعور بأعظم بهجة يمكن أن أشعر بها في هذا العالم، بهجة إدراكي أنني ذات فائدة لك، وأنني دفعت القليل جداً مما أنا مدينة لك به من حب وعرفان بالجميل. إنني لا أستطيع أن أقول كل ما أريد قوله. فأنا لا يمكنني أن أزورك هنا، حيث عشت طويلاً، ولا يمكنني أن أفكر فيك وأنت هنا، حيث رأيت الشيء الكثير، ثم أظل هادئة ساكنة كما ينبغي. إن دموعي سوف تجد مجراها، ولن أستطيع أن أمنعها من الانحدار. ولكن أرجوك، أرجوك، أرجوك، لا تتخل عن صغيرتك دوريت وأنت في مصابك هذا. أرجوك، أرجوك، أرجوك: أبتهل إليك، أتوسل إليك بكل ما في قلبي من أحزان يا صديقي، يا عزيزي! خذ كل ما أمتلك، واجعل منه بركات تسبغها عليّ.

وكان النجم يسطع على وجهها حتى الآن، إلى أن طمرته في يده ويدها.

وغام النجم شيئاً عندما رفعها بذراعه الملتفة حولها وأجابها برفق قائلاً:

- لا يا حبيبتي الصغيرة دوريت، لا يا طفلتي، إنني لا يجب أن أقبل مثل هذه التضحية. إن الحرية والأمل سيكونان باهظين جداً إذا دُفِع فيهما مثل هذا الثمن، بحيث لن أستطيع احتمال ثقلهما، ولا أطيق الشعور بالندم للحصول عليهما هكذا. ولكنني أشهد الله على ما في قلبي من عرفان وحب وأنا أقول لك هذا.

- ومع ذلك فأنت ترفض أن تسمح لي بأن أكون مخلصة لك في محنتك.

- قولي ما تشائين يا عزيزتي الصغيرة دوريت، ومع ذلك سوف أحاول أن أكون صادقاً معك. لو أنني استطعت، في الأيام الخالية عندما كان هذا المكان مثواك، وعندما كان الثوب ثوبك، أن أفهم نفسي -وأنا أتحدث عن نفسي فقط- أفضل مما فعلت، ولو أني قرأت أسرار قلبي بوضوح أكثر، ولو أني، خلال تحفظي وعدم ثقتي في نفسي، رأيت الضوء الذي أراه ساطعاً الآن بعد أن راح بعيداً عني، وبعد أن أصبحت أعجز من اللحاق به بخطواتي الواهنة، لو أني عرفت عندئذ، وقلت لك إنني أحبك وأقدسك، لا باعتبارك الطفلة المسكينة التي تعودت أن أناديها هكذا، وإنما باعتبارك المرأة التي كان يمكن ليدها المخلصة أن ترتفع بي فوق نفسي، وأن تجعلني إنساناً أسعد كثيراً مما أنا فيه، وأفضل كثيراً مما أنا الآن؛ لو أني استفدت من الفرصة التي كانت سانحة لي.. وليتني فعلت، ولو أن شيئاً ما فرق بيننا، عندما كنت أواصل النجاح مالياً بعض الشيء، وعندما كنت أنت فقيرة، لأمكن أن أتقبل منحتك النبيلة، يا أعز فتاة، بعبارات أخرى غير هذه، وإن كنت سأظل شاعراً بالخجل وأنا ألمسها. أما الآن والحال هكذا، فلا ينبغي أن ألمسها أبداً.

وعادت تبتهل إليه، بكل حرارة وحنان، بيدها المتوسلة الصغيرة، أكثر مما كانت تستطيع أن تفعل بأية كلمات أخرى. ولكنه قال:

– حسبي ما أنا فيه من عار يا صغيرتي دوريت، لا يجب أن أنحدر إلى أسوأ من هذا، وأن أنحدر بك معي أنت العزيزة، الكريمة، الطيبة. ليبارك الله فيك، وليحسن لك الجزاء! لقد انتهى كل شيء.

ثم أخذها بين ذراعيه، وكأنما هي ابنته وأردف قائلاً:

– دائماً أكبر سناً، ودائماً أغلظ طبعاً، ودائماً أقل جدارة. بل يجب أن ننسى معاً ما كنت أنا عليه من قبل. وأن نرى فقط ما أنا عليه الآن. وإني لأضع قبلة الوداع هذه على خدك يا طفلتي، يا من كان يمكن أن تكون أقرب إليّ، وما كان ليمكن أن تكوني أحب إليّ مما أنت الآن. إنني لست الآن إلا رجلاً محطماً أبعد ما أكون منك، إلى الأبد مفترقاً عنك، طريقه في الحياة قد انتهى، بينما ما زلت أنت في أول الطريق. إنني لا أملك الجرأة لأطلب منك أن تنسيني وأنا في مذلتي هذه، ولكنني أسألك أن تذكريني فقط كما أنا.

وبدأ الجرس يصلصل منذراً الزائرين بالانصراف. وتناول معطفها من على الجدار، وألبسها إياه في حنان وهو يقول:

– كلمة أخرى يا صغيرتي دوريت. كلمة قاسية في نظري، ولكنها واجبة. لقد انتهت منذ أمد بعيد كل علاقة لك بهذا السجن. هل تفهمين؟

فقالت باكية بمرارة وهي ترفع يديها المتشابكتين في توسّل:

– أوه، لا تقل لي أبداً إنه لا ينبغي أن آتي إليك مرة أخرى. إنك بكل تأكيد لن تتخلى عني.

– لو استطعت أن أقولها، لقلتها. ولكنني لا أملك الجرأة على حرمان نفسي من هذا الوجه العزيز، والتخلي عن كل أمل في رؤيته مرة أخرى.

ولكن لا تأتي سريعاً، ولا تأتي كثيراً! إن هذا مكان ملوث الآن. وإن أدرانه قد علقت بي كما أعرف تماماً. أما أنت فمكانك في مجالات أفضل وأسطع. ليس عليك أن ترتدّي بأبصارك إلى هذا المكان يا عزيزتي الصغيرة دوريت، وإنما عليك أن تتطلعي بعيداً إلى مسارب في الحياة أشد اختلافاً وأسعد حظاً. ومرة أخرى ليباركك الله فيها، وليحسن لك الجزاء.

وهنا صاحت ماجي التي كانت معنوياتها قد هبطت إلى الحضيض:

- أوه، اذهبي به إلى المستشفى. أرجوك أن تذهبي به إلى المستشفى يا أماه. إنه لن يعود إلى حالته الأولى مرة أخرى إذا لم تذهبي به إلى المستشفى. وعندئذ يمكن للسيدة الصغيرة التي تعمل على مغزلها دائماً أن تذهب إلى الخزانة مع الأميرة وتقول: لماذا تحفظون هذا الديك هنا، وعندئذ يمكن أن يأخذوه، ويعطوه له. ويصبح كل إنسان سعيداً.

وجاء هذا الحديث في وقته، لأن الجرس كان قد توقف عن الصلصلة، ومرة أخرى ألبسها المعطف بحنان، وأخذ ذراعها في ذراعه، ولولا زيارتها له لما استطاع أن يتحرك من مكانه من فرط الضعف، وسار معها إلى نهاية السلم. وكانت هي آخر الزائرين عند الانصراف، فلم تلبث البوابة أن أُغلِقت، بعد خروجها، في صرير كان له أسوأ الوقع على أعصابها.

ومع الخفقات الجنائزية في قلبه، أحس كلينام بالضعف يراوده مرة أخرى. وهكذا كانت العودة إلى الغرفة جهداً شاقاً، حتى إذا دخل في جوِّها المظلم الموحش، كان إحساسه بالشقاء قد بلغ الذروة.

ولما أوشك الليل أن ينتصف، والسكون قد خيم على السجن منذ فترة طويلة، إذا بصرير حَذِر يُسمَع على السلم، وإذا بصوت حَذِر لمفتاح ينقر على الباب، وإذا هو الشاب جون الذي انفلت، خالعاً حذاءه، ودخل وأغلق الباب، وقال هامساً:

- إن هذا مخالف لجميع القوانين، ولكنني لا أبالي. لقد صممت أن أحضر، وأن آتي إليك.

- ماذا جرى؟

- لا شيء يا سيدي. كنت أنتظر في الفناء الخارجي عندما أقبلت الآنسة دوريت. وقد خطر ببالي أنك تحب أن يقوم أحد بحراستها حتى تعود إلى مكان إقامتها سالمة.

- شكراً لك، شكراً، هل صحبتها إلى مسكنها يا جون؟

- صحبتها إلى الفندق. نفس الفندق الذي ينزل فيه السيد دوريت، وقد سارت الآنسة دوريت المسافة كلها على قدميها، وتحدثت معي بعطف، وقد أدهشني هذا جداً. لماذا تراها -في رأيك- قطعت المسافة سيراً على قدميها بدلاً من أن تركب.

- إنني لا أعلم يا جون.

- لكي تتحدث عنك. قالت لي: «جون، لقد كنت دائماً شريفاً. فإذا وعدتني بأنك سوف تُعنى به دائماً، ولا تدعه في حاجة إلى المساعدة والرعاية عندما لا أكون معه، فسوف يهدأ بالي جداً» ووعدتها.. ولسوف أقف بجانبك إلى الأبد يا سيدي.

وبسط كلينام يده، وهو شديد التأثر، إلى ذلك الروح الأمين، ولكن جون قال وهو ينظر إليه دون أن يتقدم خطوة من مكانه عند الباب.

- قبل أن أصافحها، هل تخمن الرسالة التي حملتنيها الآنسة دوريت؟

فلما هز كلينام رأسه، قال بصوت واضح وإن كان مختلج النبرات:

- أخبره أن دوريت الصغيرة ترسل إليه حبها الأبدي. وهأنا قد بلَّغت الرسالة، فهل تراني إنساناً شريفاً.

- جداً.. جداً.

- هل ستخبر الآنسة دوريت أنني إنسان شريف يا سيدي؟

- سأفعل هذا بكل تأكيد.

فقال جون:

- ها هي ذي يدي يا سيدي. لسوف أقف بجانبك إلى الأبد.

وبعد أن تصافحا بحرارة، انصرف بنفس الصرير الحذر على السلّم، وسار متسللاً بلا حذاء على أرضية الفناء، بعد أن أغلق وراءه البوابة الداخلية سار إلى الخارجية حيث ترك حذاءه؛ ولو كان عليه أن يجتاز هذا الطريق على ما هو أقسى من شوك القتاد، لما كان ثمة أدنى احتمال في نكوص جون عن اجتيازه بنفس الوفاء ولنفس الهدف.

* * *

في الطريق إلى النهاية



لمست أضواء اليوم الأخير من الأسبوع المحدد قضبان بوابة سجن مارشاليزا. وبعد أن كانت هذه البوابة سوداء طول الليل، منذ أن أُغلِقت في انصفاق وراء دوريت الصغيرة، إذا بقضبانها تتحول مع وهج أشعة الشمس الأولى إلى شرائط من ذهب. وعلى شيء من الانحدار عبر المدينة، وفوق أسقفها المشوشة وخلال فجوات الزخارف المنقوشة على أبراج كنائسها، كانت هذه الأشعة المضيئة تنفذ، وكأنها قضبان سجن لهذا العالم السفلي.

وظل بيت السيدة كلينام القديم، داخل سياجه الحجري طوال اليوم في هدوء لا يعكر صفوه أحد من الزائرين. ولكن عندما بدأت الشمس تميل نحو المغيب، انعطف ثلاثة رجال من البوابة، واتجهوا نحو البيت المتداعي.

وكان ريجود الأول يسير بمفرده وهو يدخن. وكان السيد بابتست الثاني، يخب وراءه عن كثب، ولا يحوِّل عينيه عنه. وكان الثالث السيد بانكس، حاملاً قبعته تحت ذراعه تخفيفاً عن شعره المشعث، ولأن الجو كان حاراً جداً. وقد وصل الثلاثة معاً إلى عتبة باب المدخل.

وقال ريجود وهو يستدير إلى الآخرين:

- أيها المجنونان، لا تدخلا الآن.

فقال بانكس:

- إننا لا ننوي هذا.

وبعد أن أرسل إليه نظرة حادة رداً على إجابته، طرق على الباب بقوة. وكان قد سلّح نفسه بالشراب، ليقوم بدوره كما يجب ومن ثم أصبح ملهوفاً على البدء. ما كاد ينتهي من طرقته الطويلة الرنانة على الباب، حتى عاد واستعمل الطراقة مرة أخرى، وما كاد ينتهي من طرقته الثانية حتى فتح أرميا فلنتونش الباب، فهرع الثلاثة إلى الردهة الصخرية، ولكن ريجود أزاح السيد فلنتونش من طريقه وبدأ صعود السلم، ومن ورائه تابعاه، ومن ورائهما السيد فلنتونش، وهكذا دخل الجميع في شبه طابور إلى غرفة السيدة كلينام الساكنة، وكانت على حالتها الطبيعية فيما عدا إحدى نوافذها التي كانت مفتوحة على مصراعيها وقد جلست على قاعدتها القديمة الطراز السيدة آفري ترفو جورباً. وعلى المائدة كانت الأدوات المعتادة. وفي المدفأة كانت النار الخامدة المعتادة. وعلى السرير كان ثمة الغطاء المعتاد. وكانت سيدة هذا كله جالسة كالمعتاد على أريكتها السوداء الشبيهة بالتابوت متراخية على مسندها الأسود ذي الزوايا، والشبيه بنطع الجلاد.

إلا أنه كان ثمة جو غامض في الغرفة، ينم عن إعدادها إعداداً خاصاً لمناسبة ما ولكن هذا الإعداد لم يكن يبدو قط في ترتيب الغرفة، فقد كان كل شيء صغير أو كبير فيها في نفس موضعه الذي كان يشغله منذ سنوات بل إن الناظر بإمعان إلى وجه سيدة الغرفة ما كان ليشعر بأن ثمة إعداداً خاصاً فيها ما لم يكن على معرفة سابقة بملامح وجهها. فعلى الرغم من ثوبها الأسود كان هو كما هو في كل ثنية من ثنياته منذ القدم، وعلى الرغم من احتفاظها بنفس الوضع الجامد دائماً؛ إلا أن ثمة أمارات إضافية من الصرامة كانت على وجهها، وبادية في تقطيب جبينها، ومؤثرة في كل شيء حولها.

قالت، متسائلة، عند دخول بابتست وبانكس:

– من هذان؟ ماذا يريد هؤلاء الناس هنا؟

فقال ريجود:

– أتسألين يا سيدتي العزيزة عمن يكون هذين؟ ويحي! إنهما صديقان لابنك السجين وماذا يريدان هنا؟ أليس كذلك؟ ويحي يا سيدتي، إنني لا أعرف. يحسن أن تسأليهما بنفسك.

وقال بانكس:

– أنت تعرف أنك قلت لنا، عند الباب، ألا تدخل الآن.

فرد ريجود قائلاً:

– وأنت تعرف أنك قلت لي، عند الباب، إنكما لا تنويان أن تدخلا الآن وبالإجمال يا سيدتي، اسمحي لي أن أقدم لك اثنين من جواسيس ابنك السجين.. مجنونين ولكنهما جاسوسان. فإذا أردت أن يبقيا هنا في أثناء محادثتنا البسيطة، فليكن. إذ ليس هذا شأني.

فقالت السيدة كلينام:

– لماذا أريد أن يبقيا هنا؟ ماذا أفعل بهما؟

فقال ريجود وهو يلقي بنفسه على مقعد وثير، في عنف جعل الغرفة العتيقة تهتز:

– إذن هل تسمحين، يا أعز سيدة، فتطرديهما. إن هذا شأنك. إنهما ليسا جاسوسين لي.. ليسا من صعاليكي.

وقالت السيدة كلينام وهي تنظر إلى بانكس في تجهم وغضب:

– ها! أنت يا كاتب حسابات عند كاسبي! التفت لأعمالك وأعمال مخدومك اذهب وخذ معك هذا الرجل الآخر.

فقال السيد بانكس:

- شكراً يا سيدتي، يسرني ألا أعترض على انصرافنا نحن الاثنين لقد قمنا بكل ما عهد به إلينا السيد كلينام. لقد كان همه الدائم الذي ازداد تأثيره السيئ عليه عندما غدا سجيناً أن يطمئن على حضور هذا الشخص اللطيف إلى هنا.. إلى نفس المكان الذي اختفى عن الأنظار منه. وها هو ذا، قد أحضر.

ثم أردف اليد بانكس قائلاً:

- وإني لأقول إن العالم في رأيي لن يغيره شيء لو اختفى هذا الوجه القبيح منه إلى الأبد.

فقالت السيدة كلينام.

- لم يسألك أحد عن رأيك... انصرف.

فقال بانكس:

- يؤسفني أن أتركك مع رجل كهذا يا سيدتي. وكذلك يؤسفني أن السيد كلينام لا يستطيع أن يحضر. وإن هذه غلطتي. نعم.

فردت قائلة:

- تعني غلطته؟

فقال بانكس:

- لا، بل أعني غلطتي أنا يا سيدتي، لأنه شاء سوء حظي أن أقوده لاستغلال أمواله أسوأ استغلال، وكان السيد بانكس لا يزال متعلقاً بهذه الكلمة ويفضلها على كلمة المضاربة في البورصة.

ثم أردف قائلاً:

– وذلك رغم أنه كان في استطاعتي أن أثبت، بالأرقام، أن هذا الاستغلال كان ينبغي أن يكون طيباً، لقد أعدت النظر فيه، منذ فشله، كل يوم من أيام حياتي، وفي كل مرة كنت أنتهي باعتبار الحساب والأرقام إلى نتيجة طيبة.

ومرة أخرى عاد بانكس يقول وهو يرسل نظرة شوق إلى قبعته التي كان يحتفظ فيها بعملياته الحسابية:

– ولكن ليس هذا هو الوقت أو المكان المناسب للحديث عن الأرقام، وإن كانت الأرقام شيء لا يستهان به. ولكن كان ينبغي أن يكون السيد كليننام الآن صاحب مركبة خاصة وجوادين مطهمين، وأن أكون أنا مساوياً لمبلغ يتراوح بين ثلاثة آلاف، وخمسة آلاف جنيه.

ونصب السيد بانكس شعره إلى أعلى في ثقة عادية بحيث يمكن القول إنه كان يحتفظ بكمية منها في جيبه. وكانت هذه الأرقام المسلَّم بها، شغله الشاغل في كل لحظة من لحظات فراغه منذ أن ضيع ماله، ويبدو أنه قدر عليها أن تكون عزاءه حتى آخر يوم في حياته.

وقال:

– وعلى أية حال، يكفي هذا. آلترو، يا بني العجوز، لقد رأيت هذه الأرقام، وعرفت نتائجها الطيبة.

وأدنا السيد بابتست الذي لم تكن له أية خبرة حسابية في هذا الشأن، وكشف عن أسنانه الجميلة هو يبتسم. وكان السيد فلتونش بنظر إليه عندئذ، ثم قال له:

– أوه، إنه أنت أليس كذلك؟ لقد خطر لي أني أتذكرك، ولكنني لم أكن واثقاً حتى رأيت أسنانك. آه، نعم، بكل تأكيد.

ثم أردف قائلاً للسيدة كلينام:

- إنه هذا اللاجئ الطفيلي الذي جاء يطرق الباب في الليلة التي كان فيها آرثر هنا مع تلك الثرثارة فلورا. وقد انهال علي بعدد كبير من الأسئلة عن بلاندواز.

فاعترف السيد بابتست ببشاشة قائلاً:

- هذا صحيح. ثم انظر الآن يا سيدي! لقد عثرت عليه في النهاية!

ورد السيد فلنتونش قائلاً:

- وما كان لي أن أهتم لو أنك كسرت رقبتك في النهاية.

وقال السيد بانكس الذي كانت نظراته كثيراً ما تتسلل إلى قاعدة النافذة، وإلى الجورب الذي ترفوه آفري:

- والآن، لم يعد لي إلا كلمة واحدة أقولها قبل أن أنصرف. لو كان السيد كلينام هنا.. ولكنه لسوء الحظ ليس هنا. رغم أن له اليد العليا على هذا السيد اللطيف بحيث استطاع أن يعيده إلى هذا المكان رغم أنفه، لأنه مريض وفي السجن.. نعم، مريض وفي السجن، يا للمسكين لو أنه كان هنا.

ثم تقدم خطوة جانبية نحو قاعدة النافذة ووضع يده اليمنى على الجورب وأردف قائلاً:

- تعالي آفري. تحدثي عن أحلامك.

ورفع السيد بانكس سبابته اليمنى إلى ما بين أنفه والجورب في هيئة تحذير، ثم استدار ومرق من الغرفة ساحباً وراءه السيد بابتست وسمع الباب الخارجي وهو يغلق وراءهما، وسمع وقع أقدامهما وهما يسيران على أرضية الفناء المرصوفة وهما في طريقهما إلى الخارج، ومع ذلك لم ينطق أحد بكلمة. وتبادلت السيدة كلينام وآرميا نظرة، ثم راحا

ينظران، ويطيلان النظر إلى آفري التي كانت جالسة ترفو الجورب في كثير من المثابرة.

وأخيراً قال السيد فلتونش وهو يلتوي بجسمه درجة أو درجتين نحو قاعدة النافذة ويفرك كفي يديه في ذيل سترته كأنما يستعد لأن يفعل بهما شيئاً:

- هلم. أياً كان ما علينا أن نقوله فيما بيننا، فيحسن أن نبدأ في قوله دون مضيعة من الوقت.. ومن ثم استعدي يا آفري، يا امرأتي، إلى الانصراف.

وسرعان ما ألقت آفري بالجورب، ثم نهضت وأمسكت حافة النافذة بيدها اليمنى، وثبتت ركبتها اليمنى على قاعدتها، وراحت تطوح بيدها اليسرى أمامها كأنما تدفع عنها هاجين وهميين وهي تقول:

- لا، إنني لن أفعل، يا أرميا لا، لن أفعل، لا، لن أفعل لا.. لن أنصرف! لسوف أبقى هنا، لسوف أسمع كل ما لا أعرفه، وسوف أقول كل ما أعرفه. لسوف أفعل هذا أخيراً ولو مت في سبيله. نعم، نعم، نعم، نعم.

وتصلب جسم السيد فلتونش من فرط الدهشة والاستنكار، ثم بلل أصابع إحدى يديه بشفتيه، ورسم بها في رفق دائرة على كف يده الأخرى، وهو يلتوي بجسمه نحو آفري، مكشراً عن أسنانه، ومغمغماً في أنفاس لاهثة في أثناء تقدمه نحوها بكلمات لم يتضح منها، لفرط اختناقه بالغضب إلا هذه العبارة:

- ويا لها من جرعة ضخمة.

وصاحت آفري وهي لا تكف عن ضرب الهواء بيدها.

- ولا خطوة أخرى نحوي يا أرميا. حذار أن تقترب مني خطوة أخرى، وإلا نبهت الجيران. لسوف ألقي بنفسي من النافذة، لسوف

أصرخ كالمستغيث من النار أو القتل. لسوف أوقظ الموتى! قف حيث أنت وإلا أرسلت صرخات تكفي لإيقاظ الموتى.

وارتفع صوت السيدة كلينام في حزم قائلة:

- قف!

وكان أرميا قد توقف فعلاً. وأردفت السيدة كلينام قائلة:

- إننا في الطريق إلى النهاية يا فلنتونش. دعها لشأنها. وأنت يا آفري! أتنقلبين عليّ بعد كل هذه السنوات الكثيرة!

- نعم، إذا كان الانقلاب عليك يتيح لي أن أسمع ما لا أعرف، وأن أقول ما أعرف. لقد خرجت الآن عن تحفظي، ولن أستطيع الرجوع. وإني مصممة على ما أريد. ولسوف أنال ما أريد. نعم، نعم، نعم، نعم. إذا كان هذا انقلاباً عليك، فليكن. لسوف أنقلب عليكما أنتما الاثنان البارعان. لقد طلبت من آرثر عندما عاد من غيبته أول مرة أن يقف ضدكما. قلت له إنه ليس هناك أي سبب يمنعه من أن يفعل هذا، لأني كنت خائفة على حياتي معكما. إن كل شيء يحدث هنا، منذ ذلك الحين، وإني لن أقبل الاستسلام بعد اليوم لأرميا، ولن أقبل أن أخور أو أفزع، أو أن أشترك بعد الآن فيما لا أعرفه. إنني لن أفعل هذا، لا، لا، لا. لسوف أقف بجانب آرثر وهو معدم، وهو مريض، وهو سجين، وهو عاجز عن مواجهة الحياة. لسوف أفعل، نعم، نعم، نعم.

فقالت السيدة كلينام بصراحة:

- من أين لك أن تعرفي، يا كومة الارتباك، أنك وأنت تفعلين هذا تخدمين حتى آرثر؟

فقالت آفري:

- إنني لا أعرف أي شي على وجهه الصحيح. وإذا كنت قد نطقت بكلمة صدق في حياتك كلها، فهي في قولك إنني كومة ارتباك لأنكما، أنتما البارعان، قد بذلتما كل جهد لأكون كذلك: لقد فرضتما عليّ الزواج، برضائي أو رغماً عني، ومنذ ذلك الحين وأنتما تدفعان بي إلى حياة من الفزع والانغماس في الأحلام ليس لها مثيل، فماذا تنتظران مني أن أكون غير كومة من الارتباك: لقد أردتما هذا لي، فكنت كما أردتما، ولكنني لن أخضع بعد اليوم. لا، لا، لا

وكانت وهي تتحدث لا تزال تدفع بيدها كل المهاجمين الوهميين.

وبعد أن حملقت السيدة كليننام فيها بصمت، استدارت إلى ريجود.

- إنك ترى وتسمع هذه المخلوقة الحمقاء. فهل تعارض في بقاء مثل هذه القطعة المخرفة معنا هنا؟

فأجاب قائلاً:

- أنا يا سيدتي؟ أن أعارض؟ إن هذا أمر يخصكم.

فقالت في اكتئاب:

- إنني لا أعارض، وليس في وسعنا ما نعمله إلا القليل. فلنتونش، إننا نقترب من النهاية.

وأجاب السيد فلنتونش بتوجيه نظرة انتقام دموية إلى زوجته، ثم التوى ليقف منتصباً وكأنما وهو يفعل هذا يحاول أن يمنع نفسه من السقوط على الأرض، ثم عقد ذراعيه على صدريته، ثم وقف في الركن وذقنه بالقرب من أحد مرفقيه، يرقب ريجود في أغرب هيئة. ونهض ريجود، من ناحيته عن المقعد، وجلس على المائدة مدلياً ساقيه. وفي هذا الوضع المتراخي، واجه محيا السيدة كليننام الصارم بشاربه الذي ارتفع، وأنفه الذي هبط، ثم قال:

- سيدتي، إنني سيد كريم.

فقاطعته قائلة بصوتها الثابت:

- سمعت عنه باحتقار أنه كانت له علاقة بسجن فرنسي، وبجريمة قتل..

فقبل يده لها في شهامة مبالغ فيها:

- تماماً، تماماً! ومن سيدة أيضاً! يا للعجب! يا للغرابة! يبدو أنه كان لي شرف الظفر بنجاح ضخم. وأرجو أن يكون لي شرف الظفر بنجاح ضخم الآن. سيدتي، إنني سيد كريم -وهذا ما كنت أنوي قوله- إذا قال: «إنني سوف أفرغ تماماً من هذا الأمر أو ذاك في هذه الجلسة» فإنه يفرغ منه فعلاً. وإني أعلن إليك أننا قد وصلنا إلى آخر جلسة في موضوعنا البسيط. هل تتكرمين بمتابعتي وفهم حديثي؟

فقالت وهي تركز عينيها عليه بنظرة تجهم:

- أجل.

- وَعَدا هذا، فإني سيد لا يعرف مجرد عقد الصفقات التجارية العابرة، وإنما يدرك أن المال دائماً هو الوسيلة التي يحقق بها متع حياته. هل تتكرمين بمتابعتي وفهم حديثي؟

- أعتقد أنه لا داعي لهذا السؤال. نعم.

- وَعدَا هذا، فإني سيد أشد ما أكون لطفاً وظرفاً. ولكن إذا عبث أحد بي اشتعل غضبي. إن الطبائع السامية في مثل هذه الأحوال تشتعل غضباً، وأنا لي طبيعة سامية، فإذا أثير الأسد.. إذا اشتعل غضبي، فإني أحب أن يعتذر إليَّ مثل حبي للمال. إنك دائماً تتكرمين بمتابعتي وفهم حديثي؟

فقالت بصوت أكثر ارتفاعاً بعض الشيء عن قبل:

- أجل.

- لا تدعيني أزعجك، أرجو أن تتذرعي بالهدوء. لقد قلت إننا الآن قد وصلنا إلى الجلسة الأخيرة، فاسمحا لي أن أذكركما بالجلستين السابقتين:

- لا داعي لهذا.

فانفجر قائلاً:

- ويحي يا سيدتي: هذا ما يتراءى لي! وَعَدا هذا، فإنني بذلك أوضح الطريق. لقد كانت الجلسة الأولى محدودة جداً: تشرفت فيها بمعرفتك وبتقديم خطابي. وإني لفارس من فرسان اللباقة، وتحت أمرك يا سيدتي ولكن إتقاني لآداب السلوك أتاح لي الكثير من النجاح، كأستاذ في اللغات، بين مواطنيك الذين يعامل بعضهم البعض بجمود مثل جمود ياقاتهم المنشّاة، ولكنهم دائماً على استعداد لأن يلينوا مع أي سيد أجنبي يتقن آداب السلوك، ويحسن ملاحظة بعض الأشياء البسيطة..

ثم تلفت في جوانب الغرفة وهو يردف باسماً:

- عن هذا البيت الكريم، لكي أعرف على وجه اليقين، ولكي أتأكد تماماً، أنني أتعرف حقاً بالسيدة المطلوبة، وقد نجحت في هذا فعهدت بكلمة شرف لعزيزنا فلتونش أن أعود، وهكذا رحلت مترفقاً.

ولم يبد على وجهه أية أمارات تنم عن الاقتناع أو الشك، وإنما كان باقياً على حالة واحدة عندما يتحدث وعندما يتوقف عن الحديث، وكانت هذه الحالة في مجملها تنم عن الانتباه المتجهم، وعن تلك السمات القائمة التي سبق ذكرها والتي تدل على استعدادها لمواجهة هذا الموقف.

وعاد هو يقول:

- وأقول رحلت مترفقاً، لأنه كان من دواعي الترفق أن أنسحب دون إزعاج لسيدة. وإن الترفق، خَلقاً وخُلقاً، جزء من طبيعة ريجود بلاندواز. وكان أيضاً من حسن السياسة أن أتركك بشيء يشغل أفكارك حتى تشعرين ببعض اللهفة إلى لقائي في يوم غير محدد. وإن عبدك كله السياسة، نعم، كله السياسة بحق السماء! ولنعد إلى موضوعنا. وفي اليوم المحدد تشرفت مرة أخرى بزيارتك في هذا المنزل. وتبينت أن لدي شيئاً أريد أن أبيعه، فإذا لم يشتر، فإن ذلك سيؤدي إلى الإضرار بسيدة أكنّ لها كل تقدير. إنني أوضح الموقف بوجه عام. وإني أظن أنني أطالب بألف جنيه أرجو التصحيح إن كنت مخطئاً.

وأرغمها هذا على الحديث، فقالت توتر:

- إنك طالبت بمبلغ لا يقل عن ألف جنيه.

- وأنا الآن أطالب بألفين. تلك هي مساوئ التأخير. ولكن لنعد إلى موضوعنا. إننا لسنا متجاوبين، إننا مختلفون فيه. وأنا إنسان ملاعب، والملاعبة جزء من طبيعتي اللطيفة. وعلى هذا النحو من الملاعبة، أصبحت كرجل قُتِل وأُخفيت جثته. لأن الأمر قد يستحق أن تدفع سيدتي نصف هذا المبلغ لكي ترفع عن نفسها ظل الاشتباه الذي ألّفته عليها فكرتي الساخرة. ولكن الأحداث والجواسيس تدخلوا في ملاعبتي وأفسدوا ثمرة المشروع، كما أظن، فمن يدري، إنه أنت وفلتونش فقط، عندما تنضج الثمرة. وهكذا يا سيدتي تريني هنا للمرة الأخيرة! أتسمعين للمرة الأخيرة نهائياً.

وفيما هو يضرب كعبي حذاءيه المتدلين في طية المائدة، مواجهاً نظرتها المتجهمة المتحدية، بدأ يغير من لهجته إلى لهجة أعنف وأحدّ، فقال:

- هاه! انتظروا لحظة! لنتناول الأمر بالتدريج. ها هنا قائمة حساب الفندق، لكي تدفع حسب الاتفاق. وإني قد أتعرض بعد خمس

دقائق أخرى لبراثن القانون بسببها. وإني لن أدع الأمر يصل إلى هذا الحد، وإلا خدعتموني ادفعوا. قدموا المبلغ نقداً وعداً.

فقالت السيدة كلينام:

– خذها من يده، وادفع له المبلغ يا فلنتونش.

فطوّح ريجود بها في وجه السيد فلنتوش وهو يتقدم ليأخذها، ثم مد يد وهو يكرر القول بصوت مسموع:

– ادفعوا، قدموا المبلغ نقداً وعدّاً، نقوداً جيدة.

والتقط أرميا قائمة الحساب، ونظر بعين متوهجة بالغضب إلى مجموع المبلغ. ثم تناول كيساً من القماش التيل من جيبه، ووضع المبلغ في يد ريجود وراح يخشخش بالنقود ويزنها في يده، ثم يقذفها إلى أعلى قليلاً، ثم يلتقطها، ويعود يخشخش بها.

– إن صوتها في أذني الجريء ريجود بلاندواز كمذاق اللحم الطازج في فم النمر. والآن قولي يا سيدتي، كم تدفعين؟

ثم استدار نحوها فجأة، وقد رفع يده القابضة على النقود في هيئة تهديدية. كأنما يهم أن يضربها بها.

وقالت هي:

– أقول لك مرة أخرى، كما سبق أن قلت لك، إننا لسنا أغنياء كما تظن. وإن مطلبك عسير. وليست لدي في الوقت الحاضر الوسائل التي تجعلني أستجيب لمطلب كهذا لو حدث وكانت لي رغبة شديدة إلى ذلك.

فصاح ريجود قائلاً:

– إذا؟ أتسمعون هذه السيدة وهي تقول؛ إذا؟ أتريدين أن تقولي إنك لا ترغبين؟

- أقول ما يحضرني قوله، وليس ما يحضرك أنت قوله.

- قوليها إذن. بشأن الرغبة. أسرعي! تحدثي عن الرغبة وسوف أعرف ماذا أفعل.

وأجابت قائلة دون أن تبطئ أو تسرع:

- إنه ليبدو أنك استوليت على ورقة، أو أوراق ترى أن بي ميلاً شديداً إلى استردادها..

فراح ريجود يقرع كعبي حذائه في المائدة وهو يضحك ويخشخش بالنقود قائلاً:

- أعتقد هذا. وأنا أصدقك في هذه الناحية.

- إن هذه الورقة قد تساوي في نظري مبلغاً من المال، وأنا لا أستطيع أن أحدده.

فتساءل بوحشية:

- يا للشيطان! أليس بعد مهلة أسبوع للتفكير؟

- أجل، لأنني لا أستطيع أن أتجاوز حدود مواردنا الضئيلة. وأقولها لك مرة أخرى إننا فقراء، ولسنا أغنياء. ولن أستطيع أن أحدد أي ثمن لقوة لا أعرف مداها وأسوأ ما فيها. هذه هي المرة الثالثة لتلميحاتك وتهديداتك وعليك الآن أن تتحدث بصراحة، وإلا فيمكنك أن تذهب إلى حيث تريد، وأن تفعل ما تشاء. فإنه لأفضِّل أن أُمزِّق إرباً في أسنان فخ، من أن أكون فأرة تحت رحمة قط مثلك.

فنظر إليها في عنف وحِدّة بعينيه هاتين المتقاربتين، بحيث بدا أن كل نظرة مفزعة منبعثة من كل منهما، تقطع الأخرى، وتجعل قنطرة أنفه

المنحني تلوح ملتوية. وبعد أن أطال النظر، قال وهو يرسم على وجهه ابتسام شيطانية أخرى.

- إنك امرأة جريئة.

- إنني امرأة قوية العزم.

- كنت دائماً كذلك. ماذا؟ كانت هكذا دائماً، أليس كذلك يا صغيري فلتونش.

- لا تقل له شيئاً يا فلتونش. لقد جاء هو، هنا، ليقول كل ما يستطيع قوله، وإلا فليمضِ وليفعل كل ما في وسعه أن يفعله. وأنت تعرف أن هذا ما انعقد عليه عزمنا. دعه يتصرف كما يريد.

ولم تنكمش هي أمام ابتسامته الشيطانية أو تشيح بوجهها عنه حين وجّهها إليها، ولكنها بقيت على ثباتها في الوضع الذي عقدت عليه عزمها. وقال ريجود وهو يحرك أصابعه الناعمة في تحذير على ذراعها:

- لسوف يسرك إذن، يا سيدتي، أن أسرد جزءاً من قصة الأسرة في هذا المجتمع العائلي الصغير. إنني على إلمام بالطب. دعيني أقيس نبضك.

وقبلت أن تتحمل إمساكه لمعصم يدها، فلما فعل، قال:

- إنها قصة زواج عجيب، وقصة أم عجيبة، وقصة انتقام، وضغط.. نعم، نعم، نعم. إن النبض يدق بطريقة عجيبة. يبدو لي أن سرعته تتضاعف وأنا أقيسه. أهذه هي التغييرات العادية الناشئة من مرضك يا سيدتي؟

وسرت في اليد العاجزة روح المقاومة وهي تنتزعها منه، ولكن لم يكن ثمة شيء من ذلك على وجهها. أما وجهه، فقد ظلت الابتسامة عليه، وقد استطرد يقول:

- لقد عشت حياة كلها المغامرة، وأنا مغامر بطبيعتي. وقد عرفت كثيراً من المغامرين، وهم قوم لطاف جذابون! وإلى أحدهم أدين بما أعرف

وبما لديّ من أدلة، وأكرر القول يا سيدتي المحترمة، الأدلة على القصة الفاتنة لهذه الأسرة الصغيرة التي سأبدأ في سردها، لسوف تفتنين بها. ولكن، هاه، لقد نسيت: إن على الإنسان أن يضع اسماً للقصة، هل أسميها، قصة بيت؟ ولكن، هاه مرة أخرى، إن الدنيا مليئة بالبيوت، هل أسميها إذن، قصة هذا البيت؟

وكان وهو ينحني على الأريكة، معتمداً على قوائم مقعده، وعلى مرفقه الأيسر، يربت بيده على ذراعها لكي يجعل كلماته تنفذ إلى أعماقها. وكانت ساقاه إحداهما فوق الأخرى، ويده اليمنى ترتب أحياناً شعره، وأحياناً يمسح بها على شاربه، وأحياناً أخرى يضرب بها على أنفه، وفي كل الأحيان كان يبدو مهدداً، غليظاً، وقحاً، عربيداً، قاسياً، عنيفاً. وقد استطرد في سرد قصته متمهلاً:

– حسناً إذن، سوف أسميها قصة هذا البيت. لأبدأ. ولنفترض أنه كان يعيش هنا عم وابن أخيه. العم كان سيداً عجوزاً جاداً قوي الشكيمة، وابن الأخ وادعاً بطبعه، مكبوتاً، مضغوطاً عليه.

وكانت السيدة آفري في مكانها من قاعدة النافذة، شديدة الانتباه، تعض على الطرف المرقوع من مريلتها، وترتعد من قمة رأسها إلى قدمها. السيدة آفري هذه صاحت عندئذ قائلة:

– أرميا، إليك عني، لقد سمعت في أحلامي عن والد آرثر، وعن عمه، إنه يتحدث عنهما الآن. لقد كان هذا قبل أن آتي إلى هنا، ولكنني سمعت في أحلامي أن والد آرثر كان رجلاً فقيراً، متردداً، مفزعاً، لم يترك له أحد من حياته شيئاً إلا آلام يتمه عندما كان صغيراً، ولم يكن له حتى حق اختيار زوجته، ولكن عمه اختارها له. وها هي ذي جالسة! لقد سمعت هذا في أحلامي، وقد قلته أنت في وجهها.

ولوح السيد فلتونش بقبضته مهدداً لها، وحملقت السيدة كلينام في وجهها، وقبَّل ريجود يده لها قائلاً:

- تماماً يا عزيزتي السيدة فلتونش، إنك عبقرية في أحلامك.

فردت آفري قائلة:

- إنني لا أريد شيئاً من مدائحك. بل لا أريد أن يكون لي أي شأن بك. ولكن أرميا يقول إنها أحلام، وسوف أتحدث عنها على هذا الاعتبار.

وهنا وضعت طرف مريلتها في فمها مرة أخرى، كأنها توقف شخصاً آخر عن الحديث، ربما كان أرميا الذي كانت أسنانه تصطك بالتهديدات وكأنها تصطك من البرد الشديد.

وقال ريجود:

- إن سيدتنا المحبوبة فلتونش وقد اكتسبت فجأة هذه الإحساسات الروحانية المرهفة، على جانب مدهش من الصواب. نعم.. هكذا تمضي القصة. إن سيدي العم، يأمر ابن الأخ بالزواج، إن السيد العم يقول له ما مؤداه «يا ابن أخي، إني أقدم إليك سيدة ذات إرادة قوية مثلي. سيدة حازمة، سيدة صارمة، سيدة لها إرادة تستطيع بها أن تسحق الضعفاء. سيدة لا تعرف الرحمة، ولا الحب، ولا التردد، ولا العفو، ولا اللين، كالصخر. وإنها تشتعل النار». آه، أية مناعة! أي تفوق في القوى العقلية! حقاً إنها شخصية متكبرة مترفعة تلك التي وصفتها بكلمات العم المزعومة. ها، ها، ها، ويح نفسي، إنني أحب هذه السيدة الحلوة.

وتغيرت السمات على وجه السيدة كلينام، فزادت ظلال التجهم قتامة عليه، وتضاعف التقطيب بين حاجبيها، وعاد ريجود يقول وهو ينقر على ذراعها، وكأنها يده القاسية تنقر على معزف:

- سيدتي، سيدتي. إني ألاحظ أني قد أثرت اهتمامك. ألاحظ أني أيقظت عطفك. هيا نستمر في السرد.

ولكن كان عليه، على كل حال، أن يخفي بيده البيضاء، للحظة، الأنف المنحدر والشارب المرتفع، قبل أن يستمر في السرد. ويبدا أنه مستمتع بالأثر الذي تركه في نفس السيدة كلينام.

- وكان ابن الأخ، كما قالت السيدة فلنتونش اللطيفة، شاب مسكين يملك كل شي، ولكن حياة اليتم التي عاشها أفقدته كل إحساس بالقوة والشجاعة، هذا ابن الأخ يحني رأسه، ويجيب قائلاً: «عماه! إن عليك أن تأمر، فأفعل ما تشاء». ويفعل سيدي العم كل ما يشاء. ويتم الزواج السعيد؛ ويعود العروسان للإقامة في هذا البيت الكبير الجذاب. ويستقبل السيدة هنا، السيد فلنتونش، هاي، أيها المتآمر العجوز.

ولم يجيب أرميا، وعيناه على سيدته، بشيء. وتنقل ريجود بنظراته من وجه أحدهما إلى الآخر، ثم ضرب أنفه الدميم، ولعق بلسانه، ثم قال:

- وسرعان ما وقعت السيدة على اكتشاف فريد مثير. وقد دفعها الغضب الشديد، والغيرة الشديدة، والرغبة القوية في الانتقام، إلى تدبير -أترين يا سيدتي- خطة للعقاب أرغمت زوجها المنسحق على الخضوع لها، وإخضاع غريمتها لها أيضاً. فيا له من ذكاء خارق.

وصاحت آفري المهتاجة وهي ترفع طرف مريلتها من فمها:

- ابتعد يا أرميا. ولكن هذا أيضاً أحد أحلامي التي قلتها لها عندما تشاجرت معها ذات مساء عن الغسق في الشتاء -وها هي ذي جالسة وأنت تنظر إليها- تشاجرت معها قائلة إنه ما كان يجوز لها أن تجعل من آرثر -عند عودته إلى الوطن- يرتاب في أبيه فقط، وأنه كان لديها دائماً القوة والشجاعة، بحيث كان ينبغي أن تقف في وجه آرثر أكثر مما فعلت،

من أجل أبيه. وقد كان في نفس هذا الحلم عندما قلت إنها ليست.. ليست شيئاً معنياً لا أعرفه لأنها عندئذ انفجرت فيك طالبة منك الصمت. إنك تعرف الحلم كما أعرفه تماماً، وعندما هبطت إلى الطابق الأرضي، وأقبلت إلى المطبخ، والشمعة في يدك، ونزعت المريلة من فوق رأسي. عندما قلت لي إني كنت أحلم. عندما رفضت أن تصدق حديثي عن الأصوات.

وبعد هذا الانفجار، أعادت آفري طرف المريلة إلى فمها. مستمرة دائماً في الإمساك بحافة النافذة، واضعة دائماً ركبتها اليمنى على قاعدتها، مستعدة دائماً للاستغاثة أو الوثب إذا اقترب منها سيدها وحاكمها.

ولم تند كلمة واحدة عن مسامع ريجود. ومن ثم صاح قائلاً، وهو يرفع حاجبيه، ويعقد ذراعيه على صدره، ويتراخى جالساً في مقعده.

– ها، ها. إن السيدة فلتونش، بكل تأكيد ملهمة. فكيف نفسر إلهاماتها. أنت وأنا، والمتآمر العجوز؟ لقد قال إنك لست.. وانفجرت أنت وأوقفته. فما هذا الذي لم تكونيه؟ ما هذا الذي ليس أنت؟ تكلمي إذن، يا سيدتي.

وجلست السيدة كلينام، أمام هذا التهكم الوحشي، لاهثة الأنفاس، مرتجفة الفم. وكانت شفتاها مفتوحتين، مرتعدتين، وذلك رغم كل ما بذلته من جهد لكي تزمهما؟

– هيا إذن يا سيدتي، تحدثي! إن متآمرنا العجوز يقل إنك لم تكوني.. ثم أوقفته. كان يوشك أن يقول إنك لم تكوني.. ماذا؟ إنني أعرف فعلاً، ولكنني أريد بعض اليقين منك. والآن، ما الذي لم تكونيه؟

وحاولت مرة أخرى أن تتمالك نفسها، ولكنها انفجرت قائلة:

– لستُ والدة آرثر.

فقال ريجود:

- حسناً جداً؛ إنك مسؤولة.

وبوجه فَقَدَ كل جموده بسبب انفجار عواطفها، بل سورة ناشئة من اندلاع النار التي طالما كبتتها في أعماقها، صاحت السيدة كلينام قائلة:

- سوف أقول لك هذا بنفسي. لن أسمعه من شفتيك حتى لا تلوثه بأدران خبثك وشرّك. وما دام السر لا بد أن يظهر، فلا بد أن يظهر في الضوء الذي أعيش فيه. لا كلمة واحدة. اسمعني.

فتدخل السيد فلنتونش قائلاً:

- ما لم تكوني امرأة أكثر عناداً، وأشد صلابة مما أعرف عنك، فإنه يحسن أن تدعي السيد ريجود، أو السيد بلاندواز أو السيد يلبزباب يقولها بطريقته الخاصة. ماذا يهم ما دام يعرف كل شيء.

- ولكنه لا يعرف كل شيء.

فقال السيد فلنتونش ليثيرها:

- إنه يعرف كل ما يهمه معرفته فقط.

- إنه لا يعرفني.

فقال السيد فلنتونش:

- ولأي شيء تظنين أنه يهتم بك، أيتها المرأة المغرورة؟

- سأخبرك يا فلنتونش، سأقولك لك، إنني أخبرك بعد أن وصل الأمر إلى هذا الحد. وسأخبرك بلساني، وسوف أعرب بنفسي عن كل شيء. ماذا! ألم أعانِ شيئاً في هذه الغرفة؟ ألم أعانِ الحرمان، والعزلة، بحيث أستطيع في النهاية أن أتنازل وأقبل أن أتأمل نفسي في مثل هذه المرآة! ألا تستطيع أن تراه؟ ألا تستطيع أن تسمعه؟ لو أن زوجتك كانت مائة مرة جاحدة لجميل، كما هي الآن، ولو كنت أنا عاجزة ألف مرة عما أنا الآن

لإغرائها بالسكوت إذا أمكن إسكات هذا الرجل، فإني لن أتراجع عن أن أقول هذا كله بنفسي بدلاً من أن أحتمل عذاب سماعه منه.

ودفع ريجود مقعده إلى الوراء قليلاً، وبسط ساقيه إلى الأمام وجلس مواجهاً لها وقد عقد ذراعيه على صدره.

واستطردت هي موجِّهة الحديث إليه:

- إنك لا تعرف معنى تربية الإنسان تربية صارمة حازمة. ولكنني تربيت على هذا النحو. لم تكن أيام شبابي مليئة بألوان البهجة والسرور والخطيئة، وإنما كانت أياماً مليئة بالكبت، وبالعقاب، وبالخوف. وقد كانت مفاسد قلوبنا، وشرور سلوكنا، واللعنة التي حلّت علينا، والأهوال المحيطة بنا.. هذه كلها كانت موضوعات طفولتي. لقد صبوا شخصيتي في قالب معين؛ وملئوني بالاشمئزاز من الخاطئين. فلما طلب العجوز السيد جيلبرت كلينام يدي من أبي لابن أخيه اليتيم، أكد لي أبي أن تنشئة هذا الشاب كانت، مثلي، على جانب كبير من الشدة والتزمت. وأخبرني أنه -عدا ما نُشِئ عليه من استقامة بالغة- عاش في بيت مكفهر الجو، لا يعرف المرح والبهجة، لأن كل يوم من أيامه، كان يوم كدح وعناء متواصلين. وقال لي أبي إن الخاطب كان رجلاً متكاملاً. رجلاً قبل أن يعترف عمه برجولته بسنوات طويلة، وإنه منذ عهد الدراسة إلى هذه الساعة كان بيت عمه حصناً له من أدران الفساد والخطيئة. وعندما اكتشفت، بعد سنة من الزواج، أن زوجي كان في الوقت الذي تحدث فيه أبي إليّ عنه، قد ارتكب في حق الرب خطيئة كبرى، وأهان كرامتي بالحياة مع امرأة شريرة أخرى كزوجة له؛ عندما اكتشفت هذا، فهل كان عليّ أن أرتاب في أن الأقدار شاءت لي أن أقع على هذا الاكتشاف، وأنها عهدت إليّ بتوقيع العقاب المناسب على هذا المخلوق الأثيم؟ هل كان عليّ أن أتجاهل ولو لمدة لحظة -لا الخطأ الذي ارتُكِب في حقي- وإنما حقيقة

أمري؟ أي أتجاهل كل ما نشأتُ عليه من كراهية للخطيئة ومن وجوب الكفاح للقضاء عليها.

ثم وضعت يدها الملتهبة بالغضب على الساعة فوق المائدة، واستطردت قائلة:

- لا! «لا تنسى» الحروف الأولى لهذه العبارة في هذه الساعة الآن، وكانت فيها يومذاك. وقد شاءت المقادير أن أهتدي إلى الخطاب القديم الذي يشير إليها. ومنه عرفت معنى هذه العبارة، وسرّها، ولماذا وُضِعت في الساعة، ولماذا وُضِعت الساعة في درج سري. ولولا مشيئة المقادير لما تم هذا الاكتشاف. «لا تنسى» عبارة كانت تصل إلى سمعي كصوت هادر من سحاب غاضب! لا تنسى الخطيئة الكبرى، لا تنسى الاكتشاف الذي شاءته المقادير، لا تنسى العذاب الذي قُدِّر عليك. ولم أنسَ. فهل كانت الذكرى خطأ مني؟ مني أنا؟ ما أنا إلا خادمة، ومأمورة. فأية قوة كانت لي، بعد أن قُيِّدا بحبال خطيئتهما، وسُلِّما إليّ.

أكثر من أربعين سنة مرّت، منذ الوقت الذي تتذكر فيه هذه الأحداث، على رأس هذه المرأة الصارمة الشيباء. أكثر من أربعين سنة وهي في عذاب وحرب مع ذلك الهمس -أياً كان الاسم الذي أطلقه عليه كبرياؤها وغضبها الملتهب- الذي لم تتغير طبيعته إلى الأبد. لقد ذهبت هذه السنوات الأربعون أو أكثر، وجاءت الآن إلهة النقمة لتواجهها، ومع ذلك لم تخفف شيئاً من قسوتها.

واستطردت تقول في غمرة السخط والدفاع عن النفس:

- ولما أرغمته على أن يذكر لي اسمها، ومكان إقامتها، ولما واجهتها بالحقيقة سقطت عند قدمي وهي تخفي وجهها خجلاً، فهل كنت عندئذ أنتقم لكرامتي؟ هل كانت عبارات التأنيب التي انهلت بها عليها، هي

عباراتي؟ أولئك الذين شاءت لهم المقادير قديماً لأن يذهبوا إلى الملوك الأشرار ليتهموهم، ألم يكونا مأمورين بذلك، خادمين؟ فهل أنا، التي لا أصل إلى مستواهم الرفيع، ولست مقدسة مثلهم، أكون قد أخطأت في لعنتي على الآثمين! ولما راحت تعتذر إليّ بشبابها، وبحياته القاسية الجافة -هذه هي عبارتها التي عبرت بها عن تنشئته الدينية المستقيمة- ولما اعترفت لي بمراسم الزواج الملوث الذي تمت بينها وبينه سراً، وبأهوال الحرمان والعار التي أطبقت عليها عندما شاءت المقادير لي أن أكتشف أمرهما، وبالحب -نعم، لقد واجهتني بهذه الكلمة- الذي دفعها لأن تهجره وتتنازل عنه لي.. عندما اعترفت لي بكل هذا. فهل كنت أنا التي جعلت من عدوتي ألعوبة في يدي؟ هل كنت أنا التي نطقت بتلك العبارات الملتهبة بالغضب التي جعلتها ترتجف وتنكمش أمامي؟ لا، لم تكن قوتي تلك التي جعلتها ألعوبة في يدي لا ولم تكن تلك عباراتي الرنانة بالتكفير.

وكانت قد مرّت أعوام طوال دون أن يكون في مقدورها تحريك يدها بسهولة، بل وأصابعها أيضاً. ولكن كان الملاحظ أنها ضربت بجمع يدها، وبقوة شديدة، أكثر من مرة على المائدة، وأنها حين نطقت بهذه الكلمات الأخيرة، ورفعت كل ذراعها في الهواء وكأنما الأمر طبيعي بالنسبة لها.

واستطردت تقول:

- وأي تكفير عن الخطيئة انتزعته من قسوة قلبها، ومن سواد غوايتها؟ أنا، المنتقمة القاسية؟ إن الأمر قد يبدو كذلك في نظر شخص مثلك لا يعرف الاستقامة؛ وليست له رسالة إلا إذا كانت من قِبَل الشيطان، اضحك! ولكن حقيقتي ستعرف، كما أعرف نفسي. وكما يعرفني فلنتونش وإن كانت هذه الحقيقة ستعرف لك فقط ولهذه المرأة نصف البلهاء.

وقال ريجود:

- أضيفي لنفسك يا سيدتي، أن لي شكوكي البسيطة في أن سيدتي تريد على الأرجح أن تبرر الأمور أمام نفسها.

فقالت في حرارة بالغة وغضب شديد:

- هذا كذب. لا، ليس الأمر كما تقول.

فردّ ريجود قائلاً:

- أحقاً! هاه!

- إنني أسألك ما هو التكفير العملي الذي طالبتها به! لقد قلت لها: «إن لك طفلاً، وأنا ليس لي. وأنت تحبين هذا الطفل. أعطيه لي. لسوف يعتقد أنه ابني، وسوف يعتقد الجميع أنه كذلك. وحتى لا أعرِّضك للفضيحة فسوف أجعل أباه يقسم ألا يراك أو يتصل بك بعد ذلك أبداً. وأيضاً لكي تنقذيه من أن يجرده عمه من كل شيء، ولكي تنقذي طفلك من أن يعيش متسولاً، فسوف تقسمين ألا تري أحداً منهما أو تتصلي به بعد ذلك أبداً. فإذا فعلت هذا ولم يعد زوجي يتولى الإنفاق عليك، فسوف أتولى أنا الإنفاق عليك. ويمكنك أن تتركي لي - وأنت في مكانك المنعزل المجهول، إذا شئت، أن أحتمل الكذب لأجعل اسمك نقياً بعد أن تختفي عن الجميع، إلا عني». وكان هذا كل شيء، وكان عليها أن تضحي بعواطفها الآثمة الفاضحة، ولا أكثر من هذا. أي كانت عندئذ حرة في أن تحمل عبء خطيئتها سراً. وأن تحتمل تحطيم قلبها سراً، وعن طريق هذه العذابات، التي كانت بسيطة بالنسبة لها في رأيي، كان عليها أن تشتري خلاصها من عذاب أبدي إذا استطاعت، وإذا كنت أنا قد عاقبتها بهذا هنا، ألم أفتح لها باب المغفرة فيما بعد، وإذا كانت تعرف أنها محاطة بألوان من الانتقام الرهيبة، وبالنيران التي لا تنطفئ، فهل كان هذا كله من صنع يدي. وإذا كنت قد هددتها عندئذ، وبعد ذلك، بالأهوال التي أحدقت بها، فهل كنت أمسك بهذا الأهوال في يدي اليمنى.

وأدارت الساعة الموضوعة على المائدة، وفتحت غطاءها، ونظرت إلى الأحرف المنقوشة بداخلها بوجه لا يلين، وقالت:

- إنهما لم ينسيا. إنه مقدَّر على مثل هذه الخطايا ألا ينساها الخاطئون. وإذا كان وجود آرثر أمام أبيه يعتبر عذاباً يومياً لضميره، وإذا كانت غيبته عن أمه تعتبر عذاباً يومياً لقلبها كأم، فهذا هو العقاب الإلهي العادل. وعلى هذا النحو، هل كان الذنب ذنبي عندما دفع بها وخز ضميرها إلى الجنون، وعندما شاءت إرادة السماء أن تعيش هكذا سنوات كثيرة؟ لقد كرست نفسي لتبنّي الطفل الذي لولا هذا، لضاع وانتهى أمره ولأمنحه نعمة الأصل الطيب الشريف، ولأنشئه على الخوف والارتجاف، ولأحيطه بحياة تنفر كل النفور من الخطايا التي تثقل كاهله قبل أن يتأتي إلى هذا العالم الملعون. فهل كانت هذه قسوة؟ ألم أتحمل أنا أيضاً أعباء هذه الخطيئة الأولى التي لم يكن لي يد فيها! لقد عشت مع والد آرثر في هذا البيت متباعدين وكأن كلاً منا يعيش في الطرف الآخر من العالم كما عشنا بعد ذلك حين رحل إلى الصين. ومات، وأرسل ساعته إليّ وفيها الحروف الأولى لعبارة «لا تنسى». وأنا لا أنسى، وإن كان معنى هذه العبارة عندي، غير معناها عنده. لقد وجدت معناها أنه مقدَّر عليّ أن أفعل هذه الأشياء. هذا هو المعنى الذي فهمته من العبارة، منذ أو وضعت الساعة على مائدتي هذه. وإني لأفهم هذا المعنى، بنفس الوضوح، ولو كانت الساعة على مسافة آلاف الأميال مني.

وفيما هي تأخذ غلاف الساعة بتلك القدرة الجديدة على تحريك يدها، وهي القدرة التي لم يبد أنها شعرت بها بعد. وكأنما هي تركز نظراتها على ما بداخلها تتحدى تلك العبارة أن تثير انفعالاتها، إذا بريجود يصيح وهو يطرقع بأصابعه في ازدراء:

- هيا يا سيدتي، إن الوقت يمر بسرعة، هيا يا سيدة الرحمة، ولا شك في ذلك. إنك لا تستطيعين أن تقولي شيئاً أجهله! هيا إلى الحديث

عن المال المسروق، وإلا تحدثت أنا. ويح نفسي، لقد نلت كفايتي من الثرثرة في هذا الموضوع الآخر. هيا للحديث المباشر عن المال المسروق.

فقالت وقد أمسكت الآن رأسها بيديها:

- إنك، رغم حقارتك استطعت بسبب خطأ فظيع من فلنتونش، وبسبب عدم كفاءته باعتباره الشخص الوحيد الذي كان يساعدني في هذه الأمور كلها بعد أن جعلته موضع ثقتي، بسبب هذا كله. وبسبب تجميعك لبقايا ورقة محترقة، استطعت أن تظفر بهذا الملحق من الوصية. ولا أعلم أية وسيلة أخرى استطعت أن تمارس بها نفوذك علينا هنا.

فقاطعها ريجود قائلاً:

- ومع ذلك، فإنه من حسن حظي العجيب أن تكون هذه الوصية الإضافية موجودة في مكان مناسب أعرفه، وهي الوصية الإضافية للسيد جيلبرت كلينام، التي كتبتها سيدة، وشهدت عليها نفس السيدة مع صاحبنا المتآمر العجوز هذا. آه، ياه، أيها المتآمر العجوز، أيها اللعبة الصغيرة الملتوية! سيدتي، دعينا نتم عملنا، فإن الوقت يمر، إما أن تنتهي وإما أن أتحدث أنا.

فقالت بتصميم متزايد إن كان ذلك ممكناً:

- بل أنا! أنا، لأني لا أحتمل أن يكشفني أحد. أو أن أُكشَف أمام أحد، ووجهك المنفر أمامي. إنك ستظن، لاعتيادك على السجون الأجنبية وحياة العبودية، أن المال هو الدافع لي على ما فعلت، ولكنه ليس المال.

- ياه! ياه لسوف أسحب، لمدة لحظة، أدبي، وأقول هذا كذب، كذب كذب. أنت تعلمين أنك أخفيت الوصية واحتفظت بالمال.

فقالت وقد بدا عليها أنها تناضل لكي تنهض، بل وكأنها قد نهضت من فرط انفعالاتها، فعلاً على قدميها:

- ليس من أجل المال أيها التعس. إذا كان جيلبرت كلينام قد انحدر إلى درجة البلاهة والسفه في أيامه الأخيرة، وتأثر بوهم جعله يشفق على فتاة سمع عنها أن ابن أخيه أحبها يوماً. وأنه انتزعها منه وسحقها. وأنها بعد ذلك فقدت عقلها من فرط الحزن، وعاشت في عزلة عن جميع الذين يعرفونها إذا كان جيلبرت في هذه الحالة من الضعف أملى عليّ -أنا التي شقيت في حياتي بسبب خطيئتها، والتي قُدِّر عليّ أن أعرف سر هذه الخطيئة على يدها ومن شفتيها- ملحق وصية أراد بها أن يعوِّضها عن آلامها المزعومة التي عانتها بلا ذنب! إذا كان هذا قد حدث؛ أفلا يوجد فارق بين مقاومتي لهذا الظلم، وبين مجرد إخفاء مال.. وهو شيء يمكن لك ولأمثالك من أرباب السجون أن يسرقونه من أي إنسان!

- إن الوقت يمر بسرعة يا سيدتي. حذار؟

فردّت قائلة:

- لو كانت النار مشتعلة في هذا المنزل من الأرض إلى السقف، فسوف أبقى فيه لأبرر نفسي وتصرفاتي حتى لا يقال إنها تشبه تصرفات أمثالك من القتلة اللصوص.

وطرقع ريجود أصابعه في إثارة أمام وجهها، وقال:

- ألف جنيه في الوصية للشابة الجميلة التي حكمت عليها بالموت البطيء، وألف جنيه لأصغر ابنة للرجل الذي كان ولي أمرها، والذي قد تكون له هذه الابنة وهو في سن الخمسين، فإذا لم يكن له ابنة عندما يبلغ هذه السن، تحول مبلغ الألف جنيه إلى أصغر ابنة لأخيه، عندما تبلغ سن الرشد -حسبما قد يراه الموكل بتنفيذ الوصية النزيه؛ اعترافاً بجميله في حماية طفلة يتيمة شابة- ألفان من الجنيهات؛ ماذا ألن تأتي أبداً إلى ذكر المال.

فقالت مستطردة بعنف:

- ذلك الولي الأمر.

قاطعها قائلاً:

- الأسماء من فضلك! اذكري اسمه السيد فريدريك دوريت. كفى مراوغة.

- ذلك السيد فريدريك دوريت كان السبب الأول في كل ما حدث. فلو لم يكن عازفاً موسيقياً، ولو لم يحتفظ، في أيامه تلك من الشباب والرخاء، ببيت يتردد عليه المغنون والعازفون من الجنسين وما إليهم من أبناء الخطيئة الذين استداروا بظهورهم إلى النور، واتجهوا بوجوههم إلى الظلام؛ لبقيت في بيئتها الوضيعة؛ ولما ارتفعت منها لكي تهوى مرة أخرى. ولكن لا، لقد أدخل الشيطان في ذهن ذلك المدعو فريدريك دوريت، أنه رجل طاهر رفيع مرهف الذوق يحب القيام بالأعمال الخيرية، وأن ها هنا فتاة يتيمة موهوبة الصوت في الغناء، ثم أخذ على عاتقه تعليمها. ثم تعرَّف بها والد آرثر الذي كان في أعماق نفسه يذوب -وهو يعيش في ذلك الجو من الفضيلة والاستقامة- لهفةً إلى تلك الفخاخ اللعينة المسماة بالفنون. وهكذا ظفرت شابة يتيمة كانت تُدرَّب لتكون مغنية، وعن طريق فريدريك دوريت؛ بحب الشاب المُقدِم على زواجي، فأُخدَع وأُذَل! ولكن، لست أنا.

وأردفت قائلة بسرعة وقد ارتفعت الدماء إلى وجهها.

- ولكن من أنا؟ إن هناك من هو أعظم مني.

وكان أرميا فلنتونش عندئذ قد دبّ مقلوباً بالقرب منها حتى غدا جد قريب من مرفق ذراعها دون أن تشعر. وقد نظر إليها في استنكار واعتراض على كلماتها الأخيرة، وعدا هذا أخذ يحرك قدميه داخل الجرموق وكأنما ادعاءاتها تلك أشواك تدمي ساقيه. أما هي فاستطردت قائلة:

- وأخيراً، لأنني أقترب من نهاية هذا كله لن أتعرض للحديث عن ذلك فيما بعد، ولن تقول أنت أيضاً شيئاً بعد ذلك. وإن كل ما سيبقى هو أن نقرر ما إذا كانت هذه المعلومات ستحفظ فيما بيننا نحن الحاضرين هنا، أم لا؟ وأخيراً، عندما أخفيت تلك الوصية بعلم والد آرثر..

وهنا قال السيد فلنتونش:

- ولكن ليس بموافقته كما تعلمين!

فقالت وقد أجفلت حين رأت أرميا قريباً منها إلى هذا الحد، فتراجعت برأسها إلى الوراء، وتطلعت إليه في شك وليد:

- من قال بموافقته؟ لقد كنت أنت تتدخل كثيراً بيننا عندما كان يطالبني بإظهار الوصية، وعندما كنت أصر على الرفض.. فكيف لا أتوقع أن تناقضني إذا قلت بموافقته؟ أقول، عندما أخفيت هذه الورقة لم أحاول أن أقضي عليها، وإنما احتفظت بها لديّ، هنا في هذا المنزل، سنوات كثيرة. ذلك لأنه كان في مقدوري في أي وقت أن أدّعي أني عثرت عليها مصادفةً، عند الضرورة، واقتطاع المبلغ من بقية الثروة التي آلت إلى جيلبرت كلينام، والد آرثر. ولكن، عدا أن هذا الادعاء يستلزم شيئاً كثيراً من الكذب -وهذه مسؤولية ضخمة- فإني لم أجد أي مبرر، طوال محنة إقامتي في هذا البيت، لأن أُظهِرها. وكانت هذه الوصية مكافأة على خطيئة، ونتيجة خاطئة لوهم كبير. لقد فعلت ما شاءت لي السماء أن أفعل، وعانيت، بين هذه الجدران الأربعة، ما شاءت لي الأقدار أن أعاني. وعندما احترقت الوصية أمامي أخيراً. كما ظننت، كانت هي -أم آرثر الحقيقية- قد ماتت منذ سنوات كثيرة، وكان ولي أمرها فريدريك دوريت قد نال الجزاء الحق على سفاهته، فتحطم مالياً. ولم تكن له ابنة. ولكنني علمت أن لأخيه ويليام دوريت، ابنة صغرى، تدعى دوريت الصغيرة، وهي التي تستحق الألف الثانية بحكم الوصية، ولكن ما فعلته من أجلها كان أفضل كثيراً من المبلغ الذي ما كانت لتعرف كيف تستفيد به.

ثم أضافت قائلة وكأنما توجه الحديث إلى الساعة:

- لقد كانت هي، في ذاتها، بريئة، ولعلي لم أكن لأنسى أن أوصي لها بحقها في ذلك المال عند وفاتي.

وفيما هي جالسة ترنو إلى الساعة، قال ريجود:

- هل أذكرك بشيء يا سيدتي المحترمة؟ إن الوصية كانت في هذا البيت، في نفس الليلة التي عاد فيها من الخارج صديقنا السجين الآن آرثر. هل أذكِّرك بشيء آخر يا سيدتي؟ إن الفتاة المغنية، غريمتك، التي كانت كطائر لا ينبت له ريش قط؛ كانت سجينة تحت الحراسة بأمر منك، أو من الأقدار التي عهدت إليك برسالة عقابها. وكان السجان معروفاً جداً لصاحبنا هذا المتآمر فلنتونش. هل أستدرج هذا المتآمر العجوز ليقول لنا متى رأى ذلك الحارس آخر مرة؟

فصاحت آفري وهي ترفع طرف المريلة عن فمها:

- سوف أقول هذا لكم. لقد حلمت به، وكان ذلك أول أحلامي. أرميا إذا اقتربت مني خطوة واحدة، فسوف أصرخ حتى يُسمَع صوتي عند كاتدرائية سانت بول. إن الحارس الذي تحدث عنه هذا الرجل، هو شقيق أرميا التوأم. وقد كان هنا في بهيم الليل، في الليلة التي عاد فيها آرثر من غربته. وقد أعطى أرميا شقيقه التوأم، بيديه، هذه الوصية مع ما لا أدري ماذا أيضاً في صندوق حديدي أخذه التوأم وانصرف. آه النجدة، أغيثوني من القتل.. من أرميا.

وكان السيد فلنتونش قد اندفع نحوها ولكن ريجود أمسك به من ذراعيه في منتصف المسافة. وبعد لحظة من المقاومة، استسلم أرميا ووضع يديه في جيبيه.

وصاح ريجود وهو يثيره ويلكزه بمرفقيه ويدفعه إلى الوراء:

– ماذا؟ أتنقض على سيدة لها هذه الموهبة الفذة على الأحلام؟ ها، ها، ها، عجباً! إنها يمكن أن تكون كنزاً لك إذا استعرضت موهبتها هذه على الناس. إن كل ما حلمت به أصبح حقيقة. ها، ها، ها. إنك جد شبيه بأخيك التوأم يا صغيري فلنتونش. إنك تشبهه تماماً كما رأيته –عندما تحدثت بالإنكليزية نيابةً عنه للمدير– في ملهى «مناضد البلياردو الثلاث» في شارع صغير لمساكن عالية الأسقف بميناء أنتورب. ولكنه في الواقع كان سكيراً جريئاً على الشراب وكان مدخناً جريئاً أيضاً. آه، ولكنه كان يعيش في شقة أعزب مفروشة بالدور الخامس فوق متجر للفحم والوقود وآخر لتفصيل الملابس، وثالث لصنع المقاعد، ورابع لصنع الجفان، حيث عرفته هناك، وحيث كان، بسبب الشراب والتبغ، ينام اثنتي عشرة مرة في اليوم، ويفقد وعيه مرة، حتى فقد وعيه أكثر مما ينبغي، وصعد إلى السماء. ها، ها، ها! ماذا يهم كيف حصلت على هذه الأوراق في صندوقه الحديدي. ربما عهد بها إليّ لأسلمها إليك، ربما كانت مخبأة مما أثار فضولي للحصول عليها، وربما أخفيتها.. ها، ها، ها، ماذا يهم ما دمت أحتفظ بها سليمة. لا داعي للتدقيق هنا، ها، فلنتونش؛ لا داعي للتدقيق هنا، أليس كذلك يا سيدتي؟

وراح فلنتونش يتراجع أمامه وهو يرد على لكزات مرفقيه بمثلها في عنف، حتى عاد إلى ركنه حيث وقف ويداه في جيبيه، يلهث، ويرد على نظرات السيدة كلينام الصارمة بمثلها، مما جعل ريجود يضحك قائلاً:

– ها، ها، ها، ولكن ما هذا؟ إنه ليبدو أن كلاً منكما لا يعرف الآخر، اسمحي لي يا سيدتي التي تخفين الأوراق، أن أقدم إليك السيد فلنتونش الذي يتآمر!

ورفع السيد فلنتونش يده من جيبه، وأخذ يحك بها فكه، ثم تقدم وهو على هذا الوضع خطوة نحو السيدة كلينام مقابلاً نظارتها بمثلها، ثم قال لها:

- إنني الآن أعرف ماذا تعنين بحملقتك في وجهي هكذا، ولكن لا داعي لأن تتعبي نفسك، لأني لم أعد أهتم. لقد ظللت أقول لك أعواماً طويلة إنك واحدة من أشد النساء عناداً ومكابرة. هذه هي حقيقتك. إنك تسمين نفسك أنك آثمة، متواضعة، بينما أنت في الواقع أشد بنات جنسك عجرفة وتشامخاً، هذه هي حقيقتك. لطالما قلت لك المرة بعد الأخرى، عندما نشتبك في مشاجرة، إنك تريدين أن تجعلي كل شيء ينهار أمامك. ولكنني لم أكن لأنهار أمامك، وإنك تريدين أن تبتلعي كل إنسان حياً. ولكنني لم أكن لأدعك تبتلعينني حياً. لماذا لم تدمري الوصية عندما وضعت يدك عليها أول مرة؟ لقد نصحتك بأن تفعلي هذا، ولكن لا، إنك لا تقبلين النصيحة من أحد، أحقاً كان يجب أن تحتفظي بها؟ ربما لكي تظهريها في يوم ما، من يدري! وكأني بي لا أعرف حقيقتك! أعتقد أنني أرى كبرياءك يدفعك إلى إظهارها حين ترتابين في أن أحداً يظن أنك تخفينها. ولكن هكذا كنت تخدعين نفسك، تماماً كما تخدعين نفسك بالزعم بأنك لا تفعلين هذا كله لأنك امرأة عنيفة متشامخة متغطرسة، قوية البأس، ميّالة للانتقام، وإنما لأنك خادمة، مأمورة، عيّنتك السماء لأداء هذه المهمة. من أنت حتى تعيّنك السماء لمهمة كهذه؟ إن هذا قد يكون نابعاً من عقيدتك، ولكنه في نظري غش وخداع ولكي أقول لك الحقيقة كلها وأنا في هذا المجال.

وعقد السيد فلنتونش ذراعيه على صدره واستطرد قائلاً وقد أصبح صدره صورة حية للعناد الذي لا يلين:

- لقد ظللت تخدشينني، وتمعنين في خدشي طوال هذه السنين الأربعين بتلك الروح المتعالية حتى معي أنا.. أنا الذي أعرف عنك كل شيء، وكان الغرض من هذا أن تضعيني ببساطة في مكان أقل منك كثيراً. إنني أعجب بك كثيراً، فأنت امرأة صعبة المراس، موهوبة الذكاء، ولكن

أقوى النساء مراساً، وأشدهن ذكاء لا تستطيع أن تخدش رجلاً أربعين سنة دون أن تسبب له جرحاً دامياً لا يندمل. ولهذا فأنا لا أهتم بنظراتك هذه الآن، وإنما سأتحدث عن الوصية، وعليك أن تدركي معنى حديثي تماماً. لقد أخفيتها في مكان ما، واحتفظت بسر المكان لنفسك. وكنت في ذلك الحين امرأة عارمة النشاط، أي كان في مقدورك أن تستردیها عندما تريدين. ولكن.. انظري! لقد جاء الوقت الذي أصبحت فيه كما أنت الآن، وهكذا لم يعد في مقدورك أن تستردي الوصية من مخبئها إذا شئت. ومن ثم بقيت، في مكانها السري، سنوات كثيرة. وأخيراً وعندما أصبحنا نتوقع عودة آرثر في أي يوم، وعندما أصبح من المحتمل أن نجده أمامنا في أي يوم، وأنه ليس من المستحيل أن يجوس خلال البيت باحثاً منقباً عند هذا أشرت عليك خمسة آلاف مرة أنه إذا لم يكن في مقدورك الوصول إليها، فدعيني آتي بها، ونعمل على إحراقها. ولكن لا، لم يكن هناك من يعرف مخبأها إلا أنت. وهذه المعرفة قوة. وأياً كانت الأسماء المتواضعة التي تضفينها على نفسك، فأنت امرأة ذات شهية شيطانية إلى القوة! وجاء آرثر من غربته في مساء يوم أحد. ولم يمضِ عليه عشر دقائق في هذه الغرفة حتى تحدث عن ساعة أبيه. وأنت تعلمين تماماً أن عبارة «لا تنسى» في الوقت الذي أرسل فيه أبوه هذه الساعة إليك، لم تكن تعني، لا سيما بعد أن انتهى كل شيء، إلا معنى واحداً، وهو «لا تنسي» الوصية المخبوءة، وأعيدي الحق إلى أصحابه! وأفزعك موقف آرثر منك بعض الشيء، وقررت أن الوصية يجب أن تُحرَق رغم كل شيء. وهكذا قبل أن تشرف هذه البهلوانة الخبيثة..

وأشار إلى زوجته آفري قبل أن يستطرد قائلاً:

– على رقادك في الفراش، أخبرتني أخيراً أين وضعت الوصية بين دفاتر الحسابات القديمة في الكرار، وهو نفس المكان الذي دخله آرثر

للبحث والتنقيب في صبيحة اليوم التالي. ولكنك قررت ألا تحرقيها في مساء يوم أحد، لأنك امرأة متمسكة بالتقاليد، ومن ثم يجب أن ننتظر حتى ينتصف الليل، ثم تبدأ الدقائق الأولى من يوم الاثنين. وكان هذا كله يعني ابتلاعك لي حياً وإمعانك في خدشي بمثل هذا التحكم، ومن ثم شعرت بالضيق، وقررت أن أفتح الوصية، قبل الثانية عشرة لأني لم أكن متزمتاً مثلك وألقي عليها نظرة لأذكر نفسي بمظهرها، ثم أطوى ورقة أخرى من الورق الأصغر الكثير الموجود في الكرار، والذي يشبهها، وبعد ذلك، عندما بدأت اللحظات الأولى من يوم الاثنين، وعندما كان عليّ أن أمضي، على ضوء مصباحك، من مكانك وأنت راقدة على السرير، إلى هذه المدفأة، لأحرق الوصية، قمت، كالحاوي، بتغييرها، وأحرقت الورقة الأخرى، وكان أخي إفرايم حارس السيدة التي جنت -ولشد ما أتمنى لو عاش هو في قميص المجانين- قد تنقل في أعمال كثيرة بعد أن انتهى من المهمة الطويلة الأمد التي عهدت بها إليه، ولكنه لم ينجح في أي عمل، وماتت زوجته، وليس هذا بشيء خطير، فقد تموت زوجتي أيضاً، وليتها تفعل، واشتغل حارساً في مستشفى المجانين، ولكنه لم ينجح أيضاً، بل لقد أوقع نفسه في مأزق عندما أسرف في لسع أحد المجانين بالنار زاعماً أنه يحاول رد عقله إليه، ووقع في براثن الدين. وقرر أن يغادر البلاد بكل ما يستطيع أن يجمعه من نقود، وبعض القليل مني. وكان هنا في تلك اللحظات الأولى من صباح يوم الاثنين، منتظراً الساعة المناسبة للإبحار إلى أنتورب، وهناك -وأخشى أن تصدمي بقولي هذا، وتصبي عليه اللعنة- تعرّف بهذا السيد. وكان قد حضر إليّ من مسافة طويلة، وبدا لي أنه نعسان، ولكن تبين لي أخيراً أنه سكران. وأقول الآن إنه عندما كانت والدة آرثر في حراسته وحراسة زوجته، كتبت، وبلا انقطاع، خطابات كثيرة تعترف لك فيها بخطئها، وتطلب منك الصفح والغفران وكان أخي يسلمني، بين الحين والآخر، صفحات كثيرة من هذه الرسائل. وقد خطر لي أنه من

الأفضل أن أحتفظ بها لنفسي، بدلاً من أن أعطيها لك لكي تبتلعيها حية أيضاً. وهكذا احتفظت بها في صندوق حديدي، وكنت أعيد قراءتها كلما وجدت بي ميلاً إلى ذلك، ولما رأيت أنه من الضروري إبعاد الوصية عن المنزل بعد أن أصبح معرَّضاً لزيارات آرثر، وضعتها في نفس الصندوق وأغلقته بقفلين، وعهدت به إلى أخي ليأخذه معه ويحتفظ به حتى أكتب إليه بشأنه. وقد كتبت فعلاً بشأنه، ولكنني لم أتلقَّ رداً، ولم أدرِ ماذا ينبغي أن أفعل، حتى شرَّفنا هذا السيد بزيارته الأولى. وبطبيعة الحال بدأت أرتاب في الأمر عندئذ. ولست بحاجة لأن أعرف من هذا السيد كيف عرف كل شيء من أوراقي، وأوراقك، ومن ثرثرة أخي السكير المسرف في التدخين -لشد ما أتمنى لو أنه أخرس نفسه- والآن لم يبق لدي غير شيء واحد أقوله، أيتها المرأة العنيدة، وهذا الشيء هو: أنني لم أقرر بعد ما إذا كان يجوز أو لا يجوز أن أسبب لك أية متاعب بشأن هذه الوصية. إنني لم أقرر بعد، ولكن يكفيني أنني أعرف الآن أني تغلبت عليك، وأنه قد أصبحت لي اليد العليا فوقك. وفي هذه الظروف الحالية، ليس لدي المزيد من الأقوال والإيضاحات حتى غداً مساءً. ولهذا يحسن بك...

وتوقف فلنتونش برهة قبل أن يختتم محاضرته بالتواءة أخرى من جسمه.

- أن تركزي نظرتك على شخص آخر، لأنه لا فائدة من تركيزها عليّ.

وسحبت نظراتها عنه ببطء، ووضعت جبينها على يدها، أما اليد الأخرى فقد راحت تضغط بها، في قوة، على المائدة، وقد لوحظ عليها مرة أخرى هذا النشاط العجيب، وكأنها تهم بالنهوض واقفة. وأخيراً قالت لريجود:

- هذا الصندوق لا يمكن أن يساوي، في أي مكان آخر، ما يساويه هنا. وهذه المعلومات لا يمكن أن تكون ذات فائدة لك، إذا بيعت

لأي شخص آخر، كما تكون إذا بيعت لي. ولكنني في الوقت الحاضر لا أستطيع جمع المبلغ الذي تطالب به. إن حالتي المالية لم تنتعش، فماذا تأخذ الآن، وماذا تأخذ فيما بعد، وما هي الضمانات التي تؤكد لي تكتمك للسر.

فقال ريجود:

- يا ملاكي، لقد قلت ما سوف أظفر به. والوقت يمر بسرعة، وقبل أن آتي إلى هنا، وضعت نسخة لأهم هذه الأوراق في يد أخرى. فإذا ماطلت حتى يحين وقت إغلاق بوابة سجن مارشاليزا، فسوف يكون الأوان قد فات، وستكون هذه الأوراق بين يدي السجين آرثر ليقرأها.

ووضعت رأسها بين يديها مرة أخرى، وأرسلت آهة بصوت مرتفع، ثم إذا هي تنهض واقفة على قدميها. وظلت تترنح برهة، كأنما توشك أن تقع، ولكنها لم تلبث أن ثبتت في وقفتها، وقالت:

- ماذا تعني بقولك هذا. ماذا تعني بقولك هذا يا رجل؟

وأمام هيئتها التي تشبه الشبح، والتي بدت في هذا الوضع القاتم الذي لم تتعود عليه منذ مدة طويلة، مما جعلها تبدو متصلبة فيه.. وأمام هذا كله تراجع ريجود إلى الوراء وقد خفض صوته، وكانت هي في أنظار الثلاثة تبدو امرأة تنهض من جوف قبر.

وأجاب ريجود قائلاً:

- إنها الآنسة دوريت، إنها الابنة الصغرى لشقيق السيد فريدريك. وهي التي عرفتها خارج البلاد. إنها متعلقة القلب بالسجين. إن الآنسة دوريت، الابنة الصغرى لشقيق السيد فريدريك تقوم في هذه اللحظة على رعاية السجين الذي يعاني المرض. وبيدي هاتين سلمتها حزمة أوراق في السجن وأنا في طريقي إلى هنا، ومعها رسالة تعليمات مكتوب عليها «كل هذا من أجله»، إنها على استعداد لأن تفعل أي شيء من أجله. وقد

طلبت منها في الرسالة أن تحتفظ بلفافة الأوراق دون أن تنفض خاتمها في حالة ما إذا طلبتها منها قبل موعد إغلاق بوابة السجن مساءً. فإذا لم أطلبها أو أبعث في طلبها قبل أن تنتهي الأجراس من الصلصلة، فعليها أن تسلم اللفافة لآرثر. وتحتوي هذه اللفافة على نسخة ثانية من الأوراق حتّمت فيها عليه أن يسلمها إليها هي أيضاً. نعم، لأنني لا آمن على نفسي بينكم، بعد أن بلغنا هذه المرحلة، فكان عليّ أن أسبغ على سري حياة ثانية، فإذا لم يحقق لي هذا السر أمل الحصول على الثمن هنا، فهل تعلمين يا سيدتي الثمن الذي يمكن أن تدفعه دوريت الصغيرة لكي تكتم هذا السر عن الجميع! من أجله! مرة أخرى أقول إن الوقت يمر سريعاً، وإذا لم أستعد اللفافة قبل موعد إغلاق بوابة السجن هذه الليلة، فلن تستطيعي أن تشتريه، لأنني عندئذ أكون قد بعته للفتاة الصغيرة.

ومرة أخرى بذلت جهداً عنيفاً للحركة، ثم إذا هي تندفع نحو خزانة ملابس، فتفتح بابها بعنف، وتأخذ مطرفاً أو شيئاً من هذا القبيل، وتلف به رأسها. وعندئذ اندفعت آفري -التي كانت ترقبها في فزع- نحو منتصف الغرفة، وأمسكت بتلابيبها، وركعت أمامها قائلة في ضراعة:

- لا، لا، لا، ماذا ستفعلين؟ إلى أين ستذهبين؟ إنك امرأة رهيبة، ولكنني لا أحمل لك حقداً. وإني لأرى أنه لم يعد في مقدوري أن أفيد المسكين آرثر بشيء الآن. فلا حاجة بك لأن تخافي مني. لسوف أحتفظ بسرك لا تخرجي، لسوف تقعين ميتة في الطريق. عديني فقط أنه إذا كان الأمر يتعلق بهذه المسكينة التي تحتفظون بها هنا، سراً، فسوف تسمحين لي برعايتها وتمريضها. عديني بهذا فقط، ثم اطمئني إليّ تماماً.

وتسمرت السيدة كلينام في مكانها برهة بعد أن كانت مندفعة، ثم قالت في دهشة صارمة:

– نحتفظ بها هنا؟ لقد ماتت منذ عشرين سنة أو أكثر. اسألي فلنتونش، اسأليه. إنه يستطيع أن يخبرك أنها ماتت عندما رحل آرثر إلى الخارج.

فقالت آفري وهي ترتعد:

– إذن فهذا أسوأ. إذن فإن شبحها هو الذي يطوف بالمنزل. وإلا من غيرها هو الذي يصدر هذه الأصوات الخافتة، والذي يترك العلامات بإلقاء التراب في رفق في بعض الأماكن؟ من غيرها الذي يروح ويجيء ويرسم العلامات على الجدران في لمسات ملتوية في أثناء رقادنا جميعاً طوال الليل؟ من غيرها الذي يمسك بالباب أحياناً؟ ولكن لا تخرجي، لا تخرجي يا سيدتي، لسوف تموتين في الطريق.

وخلصت سيدتها طرف ثوبها من اليد المتشبثة به، وقالت لريجود:

– انتظرني حتى أعود.

ثم هرعت خارجة من الغرفة، ورأوها من النافذة، وهي تجري على غير هدى في الفناء، ثم إلى خارج البوابة.

ووقفوا جميعاً بضع لحظات بغير حراك. وكانت أفري أول من تحرك، فانطلقت، وهي تضرب كفاً بكف، لتلحق بسيدتها، ثم راح أرميا فلنتونش يتراجع ببطء نحو الباب وإحدى يديه في جيبه، والأخرى يحك بها فكه وأخيراً التوى بجسمه خارجاً بطريقته المتحفظة، دون أن يقول شيئاً. ولما ترك ريجود لنفسه، مضى إلى النافذة المفتوحة، وجلس عليها في الوضع الذي كان يجلس عليه بسجن مارسيليا، وجعل سجائره وعلبة ثقابه في متناول يده، وراح يدخن.

– أوف! إن الأمر هنا مثير للسأم، كما كان الشأن في السجن القديم، أدفأ، ولكن لا يقل كآبة. انتظر حتى تعود؟ نعم، بالتأكيد! ولكن

إلى أين ذهبت؟ ومتى ستعود؟ لا يهم! يا عزيزي اللطيف ريجود لا يغير بلاندواز، لسوف تظفر بالمال. لسوف تغتني. لسوف تعيش سيداً كريماً، وسوف تموت سيداً كريماً. إنك الفائز يا ولدي الصغير، ولكن الفوز هو من شيمتك دائماً. أوف!

وفي لحظة شعوره بالفوز، ارتفع شاربه إلى أعلى، وهبط أنفه إلى أسفل ثم راح في إحساس تام بالرضا يغمز بعينيه لعرق خشبي كبير في سقف الغرفة.

* * *

النهاية

غربت الشمس، وانتشرت العتمة في الشوارع في ساعة الغسق، هذا بينما كانت السيدة كلينام، التي طالت غيبتها عنها، تمضي مهرعة في طريقها. ولم تلفت أنظار الكثيرين في الأماكن المجاورة لبيتها القديم، لأنه لم يكن إلا عدد صغير من المارة يمكن أن يلاحظوها. ولكن عندما صعدت من ضفة النهر عن طريق الأزقة الملتوية المؤدية إلى جسر «لندن بريدج»، وسارت في الطريق العام، أمست محاطة بنظرات الدهشة من كل جانب.

وظلت ممعنة في سيرها، وكأنها نائمة تسير، غير حافلة بمجموع المارة وقد بدت عليها سمات العزيمة والاهتياج، سريعة الخوف، رغم الضعف والتردد، ملفتة للأنظار بملابسها السوداء، وغطاء رأسها الذي وضعته عليها كيفما يكون، وبطول قامتها النحيلة، وبشحوب وجهها غير العادي.

لقد لفتت جميع الأنظار إليها، بسبب شذوذ مظهرها عن بقية الجموع المارة، أكثر مما لو كانت مرفوعة على قاعدة تمثال. وأرهف السائرون على مهل انتباههم إليها ليلاحظوها، وخفف المشغولون المسرعون خطوهم وهم يمرون بها، ليلتفتوا برؤوسهم نحوها. وتهامس أفراد الجماعات الواقفين جانباً، بعضهم إلى بعض لينظروا إلى هذه المرأة الشبحية الشكل المقبلة نحوهم. وبدا أن انفلات جرمها وهي تمر بهم قد أثار زوبعة جذبت وراءها أكثر الناس كسلاً، وأشدهم فضولاً.

وأحست بالدوار من هذا الغزو الذي قامت به هذه الوجوه الحاشدة، المتدفقة، داخل زنزانة إعدامها، ومن إحساسها المرتبك بأنها تطير في الهواء، ثم من إحساسها الأشد ارتباكاً بأنها، مع هذا تشير على الأرض، ومن هذه التغييرات المفاجئة لأشياء لا تزال تذكرها بعض الشيء، ومن المفارقة بين أشكال الأشياء التي تصورتها بخيالها كثيراً عن الحياة التي اعتزلتها كل هذه المدة، وبين الحقيقة التي تدفقت عليها بقوة. وهكذا استمرت في طريقها وكأنها مشغولة بخواطرها، ذاهلة عن ملاحظة مظاهر الحياة المحيطة بها.

ولكن بعد أن عبرت الجسر وسارت إلى الأمام مسافة ما، تذكرت أنها لا بد أن تسأل عن الطريق، وهنا فقط وجدت، حين توقفت واستدارت لتبحث عن شخص مناسب تسأله، أنها محاطة بوجوه تحملق فيها بالعجب والدهشة.

وسألتهم قائلة وهي ترتعد:

- لماذا تحيطون بي؟

ولم يجب أحد من الذين هم أقرب إليها. ولكن واحداً من الحلقة الخارجية صاح قائلاً:

- لأنك مجنونة.

- إنني عاقلة كأي واحد منكم هنا. أريد فقط أن أعرف الطريق إلى سجن مارشاليزا.

وردّ الصوت المرتفع الآتي من الحلقة الخارجية قائلاً مرة أخرى:

- إن هذا وحده يبين أنك مجنونة، لأن السجن في الناحية الأخرى تماماً.

وهنا شق طريقه إليها شاب قصير الجسم، وادع، هادئ الهيئة وقال لها عندما انطلقت بعض الشفاه تصفّر وتسخر عقب هذه الإجابة:

- أتريدين الذهاب إلى سجن مارشاليزا؟ إنني ذاهب لأقوم بنوبتي للحراسة هناك. تعالي معي.

ووضعت يدها على ذراعه، ومضى بها في الطريق إلى السجن. ولما رأى الباقون أنهم سيحرمون من الفرجة عليها، احتشدوا وراءها وحولها، واقترحوا عليها الذهاب إلى مستشفى الأمراض العقلية. وبعد ضجة موقوتة في فناء السجن الخارجي، فتحت البوابة الداخلية. ثم أغلقت دونهم جميعاً. وبدا كشك الحراسة، بالنسبة للضجيج في الخارج مكاناً للأمن والسلام. وكان ثمة مصباح باهت الضوء قد بدا يصارع ظلام السجن.

وقال الحارس الذي فتح البوابة:

- عجباً يا جون؟ ما هذا؟

- لا شيء يا أبي. هذه السيدة فقط لم تكن تعرف الطريق إلى هنا، وقد تعرضت لشغب بعض الغلمان. من تريدين يا سيدتي.

- الآنسة دوريت. أهي هنا؟

فقال الشاب وقد ازداد اهتماماً:

- نعم، إنها هنا، هل يمكن أن أسالك عن اسمك؟

- السيدة كلينام.

فسألها الشاب:

- والدة السيد كلينام.

فزمت شفتيها وترددت لحظة قبل أن تقول:

– نعم. يحسن أن يقال لها إنني أمه.

فقال الشاب:

– ألا ترين؟ لقد مضت أسرة مدير السجن للإقامة في الريف في الوقت الحاضر. ومن ثم سمح المدير للآنسة دوريت أن تقيم في إحدى غرف منزله كيفما تشاء. ألا ترين أنه يحسن أن تذهبي إلى هناك ريثما أحضر الآنسة دوريت إليك؟

وأعربت عن موافقتها. وفتح الشاب باباً، وسار بها صاعداً درجات جانبية إلى مسكن علوي، ثم أدخلها إلى غرفة معتمة، وتركها. وكانت الغرفة تطل على فناء السجن الذي كانت الظلمة تزحف عليه، حيث كان النزلاء يروحون ويجيئون، أو يطلون من النوافذ متحدثين، بقدر ما يستطيعون من عزلة، مع الأصدقاء الذين كانوا في طريقهم للانصراف، وهكذا كانوا يضيعون، بقدر ما يستطيعون جانباً من ليلة صيف من ليالي سجنهم. وكان الهواء حاراً ثقيلاً، وجو المكان ضيقاً خانقاً. ومن الخارج كان يسمع فيض أصوات طليقة، كأنها ذكريات مؤلمة لأشياء يحن لها القلب، وتهفو لها النفس. وظلت واقفة إلى النافذة مدهوشة، تطل على هذا السجن وكأنه تجسم من سجنها الآخر المختلف، ثم إذا كلمة رقيقة، أو كلمتان من الدهشة تجعلانها تنتبه، وإذا دوريت الصغيرة تقف أمامها تقول:

– أهذا ممكن يا سيدة كلينام أن تستردي لفرط سعادتك صحتك كما لو...

وتوقفت دوريت الصغيرة عن الحديث فجأة لأنه لم يكن ثمة سعادة أو صحة على الوجه الذي استدار إليها.

– ليست هذه صحة مستردة، وليست هذه قوة، وأنا لا أدري ما هذا...

ثم لوحت بيدها في اهتياج كأنها تلقي بهذا الموضوع جانباً، وأردفت قائلة:

- لقد أُودِعت لديك لفافة أوراق لكي تسلميها إلى آرثر إذا لم يطالب بها أحد قبل أن تغلق بوابة السجن الليلة.

- أجل.

- إنني أطالب بها.

فتناولت دوريت الصغيرة اللفافة من صدرها ووضعتها في يدها التي ظلت ممتدة بعد أن تلقتها. ثم قالت:

- هل لديك أية فكرة عما تحتويه هذه الأوراق.

وأجابت دوريت الصغيرة:

- لا.

وكانت قد شعرت بالخوف من وجود السيدة كلينام بتلك القوة الجديدة على الحركة التي، كما قالت هي بنفسها، ليست قوة، والتي بدت كأنها شيء في هيئة النظر وهمي وكأنها صورة أو تمثال دبّت فيه الحياة.

وقالت السيدة كلينام:

- اقرئيها.

وأخذت دوريت الصغيرة اللفافة من اليد التي لا تزال ممتدة، ففضّت ختمها، وعندئذ أعطتها السيدة كلينام المظروف الداخلي المعنون باسمها، وأخذت هي المظروف الآخر. وكانت ظلال أسوار ومباني السجن التي تجعل الغرفة في ساعة الظهيرة معتمة، قد جعلتها وبوادر غسق المساء تزحف عليها أظلم من أن يمكن القراءة فيها، ومن ثم وقفت الصغيرة في النافذة حيث كانت بقايا من ضوء الغروب في سماء ذلك الوقت من

الصيف لا تزال تتلكأ، وراحت تقرأ. وبعد أن ندت عنها بضع كلمات عجب وفزع، استمرت في القراءة في سكون، حتى إذا فرغت، التفتت وراءها حيث رأت سيدتها السابقة تنحني الآن أمامها وتقول:

- أنت تعرفين الآن، ماذا فعلت.

فقالت دوريت الصغيرة في اضطراب:

- أظن هذا، بل أخشى القول إني أظن هذا، وذلك رغم أن تفكيري كان مرتبكاً، وكنت أشعر بالأسى والرثاء بحيث لم أستطع أن أفهم بعض ما قرأت.

- لسوف أرد إليك ما حجزته عنك، اغفر لي، هل يمكن أن تغفري لي؟

- نعم يمكنني، والله يعلم أني أغفر لك! لا تقبّلي ثوبي، ولا تركعي أمامي، إنك أكبر سناً من أن تركعي أمامي. إنني أغفر لك بمحض إرادتي، دون حاجة إلى هذا.

- إنه لا يزال لدي المزيد مما سأطلبه منك.

فقالت دوريت الصغيرة:

- لا تطلبي وأنت على هذا الوضع. إنه لأمر غير طبيعي أن أرى شعرك الأشيب في مستوى أقل مني. أرجوك أن تنهضي. دعيني أساعدك.

وبذلك أنهضتها، ثم وقفت وهي أقرب ما تكون إلى الانكماش منها، ومع ذلك راحت ترنو إليها بلهفة.

- إن الالتماس الكبير الذي أقدمه إليك -وهناك التماس آخر متفرع منه- إن التوسل الحار الذي أضعه أمام قلبك الرقيق العطوف، هو ألا تخبري آثر بهذه الحقائق إلا بعد وفاتي. فإذا رأيت. عندما يتاح لك

الوقت للتفكير، أن إطلاعه على هذه الحقائق سيكون ذا فائدة له وأنا ما زلت على قيد الحياة، إذن فأخبريه. ولكنك لن تري هذا، وعلى ذلك تعدينني بأن ترحميني حتى آخر يوم لي في هذه الدنيا؟

فردت دوريت الصغيرة قائلة:

- إنني جد آسفة، وإن ما قرأته قد أربك أفكاري بحيث لا أكاد أستطيع أن أقدم إليك إجابة متزنة. فإذا تأكد لدي أن مثل هذا الوعد لن يضر كلينام في شيء..

- أنا أعرف أنك شديدة التعلق به، وأنك تضعين مصلحته في المقام الأول. وإنه لمن الصواب أن نجعل لمصلحته هذا المقام الأول، وأنا أريد هذا. ولكن، بعد أن تقدري مصلحته ثم تجدي أنه لا يزال يمكنك أن ترحميني خلال الفترة الوجيزة الباقية لي من الحياة، فهل تعدينني؟

- نعم.

- ليباركك الله.

وكانت واقفة في الظلال بحيث لم تكن تبدو في نظر دوريت الصغيرة الواقفة في الضوء، أكثر من شكل محجوب بغلالة سوداء. ولكن الرنين في صوتها وهي تنطق بهذه العبارة الأخيرة، كان ينم على الحرارة والتأثر.. التأثر بعاطفة غريبة على عينيها الباردتين، كما كانت الحركة غريبة على أطرافها المتيبسة.

وعادت تقول بصوت أشد قوة:

- لعلك ستعجبين من أنني أستطيع أن أحتمل أن تعرفي أنت؛ يا من أسأت إليها.. الحقيقة، أكثر من احتمالي لأن يعرفها ابن المرأة التي أساءت إليّ! إنها لم ترتكب فقط خطيئة كبرى في حق الله، ولكنها أيضاً

أخطأت في حقي. إنها هي التي أوجدت تلك الحالة التي استمرت بيني وبين والد آرثر. إنها هي التي جعلتني أبدو كإلهة النقمة في نظر والد آرثر منذ أول يوم لزواجنا. لقد كنت سوط عذاب لهما معاً. ولكن السبب في هذا يرجع إليها. إنك تحبين آرثر، ويمكنني أن أرى حمرة الخجل على وجهك، وعسى أن يكون هذا الحب فجر عهد سعيد لكما معاً، وإنك ولا شك قد عرفت أنه -مثلك- يتمتع بالقلب الرحيم العطوف. فلماذا لا أكشف الحقيقة له؛ كما فعلت معك، ألم تفكري في هذا؟

فقالت دوريت الصغيرة:

- إن تفكيري الطبيعي عن آرثر؛ النابع من قلبي، هو أنه إنسان يمكن دائماً الاعتماد على ما يتمتع به من كرم عطف وطيبة قلب.

- إنني لا أشك في هذا. ولكن آرثر هو الإنسان الوحيد في هذه الدنيا، الذي أحب أن أخفي هذه الحقيقة عنه طالما أني على قيد الحياة. لقد ربيته وهو طفل، في الأيام التي بدأ فيها أولى ذكرياته عن الحياة؛ بيد من حديد أبغي تأديبه وتقويمه، نعم، كنت شديدة الصرامة معه، لعلمي أن خطايا الآباء تنحدر إلى الأبناء، وأن ثمة نقطة مظلمة لوّنت حياته منذ ولادته. كنت أجلس معه ومع أبيه وألاحظ ضعف أبيه في رغبته لإحاطته بالحنان. ولكنني كنت أرغمه على كبت هذه الرغبة، وذلك عسى أن يجد الفتى خلاصه من المتاعب والآلام. لقد رأيته، وهو يحمل وجه أمه، ينظر إليّ بعينيه الصغيرتين في خوف، ويحاول أن يثير حناني بوسائل أمه التي كانت تزيدني قسوة.

وتوقفت برهة عن فيض حديثها حين رأت ازدياد دوريت الصغيرة في الانكماش عنها ثم عادت بعد لحظات تستطرد قائلة بصوت أكثر اكتئاباً.

- كنت أفعل هذا لصالحه، لا إرضاء لشهوة انتقامي. فماذا كنت أنا، وما قيمة هذا إزاء لعنة السماء! لقد رأيت أن أجعل هذا الطفل ينمو.

لا على المنهج الديني الذي اخترته له -لأن خطيئة أمه كانت تنوء بثقلها عليه وتمنعه من هذا- وإنما على أن يكون مستقيماً منصفاً، وأن يكون مطيعاً لي. إنه لم يحبني قط يوماً -كما خامرني بعض الرجاء في أنه قد يحبني يوماً- وهكذا يبلغ بنا ضعف نفوسنا، وهكذا يبلغ بنا فساد عواطفنا عند الصراع بين رغبات النفس وبين ما يقتضيه واجب الأمانة التي بين أيدينا. إلا أنه كان دائماً يحترمني، ويرغم نفسه على طاعتي. وهو لا يزال حتى هذه الساعة، لقد فصل نفسه عني، وهو يحس بهذا الفراغ الذي يملأ قلبه؛ الذي لم يعرف له معنى قط، واختط لنفسه طريقاً خاصاً في الحياة، ولكنه فعل حتى هذا في ترفق، وفي تقدير واحترام. هذه هي علاقاته معي. أما علاقتك بي، فكانت من نوع أخف، ومدتها أقل. فعندما كنت تجلسين إلى أشغال إبرتك في غرفتي، كنت تشعرين بالخوف مني، إلا أنك في الوقت نفسه كنت تظنين أنني أسدي إليك جميلاً. ولكنك الآن عرفت الحقيقة، وعرفت أنني أسأت إليك. إن سوء فهمك وسوء تقديرك للأسباب والحوافز التي دفعتني إلى هذا كله سيكونان أخف عبئاً على نفسي من معرفة آرثر لهذه الحقيقة. إنني لا أستطيع، مهما يكن التعويض الدنيوي، أن أدعه بأي حال من الأحوال يلقي بي من المكانة التي كانت لي في نظره مدى الحياة، وأن يراني كمخلوقة يمكن أن يقذف بها من نطاق احترامه، وأن تظن أنه قد فطن إلى حقيقتي وكشف أمري. ليفعل هذا، إن كان لا بد له أن يفعله، عندما لا أكون على قيد الحياة. دعيني لا أشعر أبداً، وأنا على قيد الحياة، أنني أموت في نظره، وأنني انتهيت تماماً أمامه، مثل شخص يتلاشى في صاعقة برق؛ أو يغوص في باطن الأرض بفعل زلزال.

كان إحساسها بكبريائها عنيفاً، وكان شعورها بوخز هذا الكبرياء وبعواطفها السابقة مؤلماً إلى حد كبير، وذلك عندما راحت تعبر عن نفسها على هذا النحو ولم يقل هذا الإحساس عندما راحت تردف قائلة:

- بل إنني أرى الآن أنك تنكمشين عني، وكأني كنت قاسية معك.

ولم تستطع دوريت الصغيرة أن تنكر هذا ولكنها حاولت ألا تظهره، إلا أنها انكمشت في فزع من هذه العقلية التي ظلت ملتهبة بكل هذا العنف، وبقيت كل هذا المدى. لقد أبرزت طبيعتها لها في غير تلطف، وإنها على حقيقتها العارية.

وقالت السيدة كلينام:

- لقد فعلت ما قُدِّر علي أن أفعله. لقد نصّبت نفسي لمقاومة الشر، لا لمقاومة الخير، كنت أداة عنيفة ضد الخطيئة، ألم يحدث في كل الأوقات أن كلف الخاطئون أمثالي بهذا النوع من المقاومة والكفاح!

فرددت دوريت الصغيرة هذه العبارة قائلة:

- في كل الأوقات؟

- حتى لو كانت الإساءة التي وُجِّهت إليّ هي الدافع، وحتى لو كانت رغبتي في الانتقام هي الحافز، أليس من حقي أن أجد التبرير لما فعلت؟ ألم يكن هذا التبرير قائماً في العهود القديمة عندما كان الأبرياء يهلكون مع المذنبين بنسبة ألف إلى واحد؟ وعندما كان غضب الحاقدين على المستقيمين لا يخففه حتى الدم، ألم يجدوا مع ذلك من يبرر لهم هذا؟

فقالت دوريت الصغيرة:

- أوه، سيدة كلينام، سيدة كلينام إن عواطف الغضب، وأعمال الانتقام لا تخفف عني وعنك، ولا تهدينا سواء السبيل. لقد أمضيت حياتي في هذا السجن التعس، وكان تعليمي ناقصاً جداً. ولكن دعيني أبتهل إليك أن تذكري أياماً أفضل وأحدث عهداً. اقتدي فقط بمبرئ المرضى، وبمحيي الموتى وبصديق كل المحزونين والمنبوذين، بالسيد المسيح الصابر الذي ذرف دموع الرحمة على الخاطئين والعاجزين. إننا لا نستطيع إلا أن نكون على صواب عندما نضع كل شيء جانباً، ونفعل كل شيء في سبيل

ذكراه. إنني واثقة أنه لم يكن ثمة انتقام، ولا آلام عذاب في حياته. وإني متأكدة أنه لن يكون ثمة ارتباك في السير على هواه، وفي عدم المضي على أية خطى غير خطاه.

وكانت في ذلك الضوء الرقيق المنساب من النافذة، تنتقل بنظراتها من مسرح أيام محنتها الأولى إلى السماء المتألقة، ثم لا تبدو في تناقض شديد مع المرأة الأخرى ذات الثوب الأسود، أكثر مما بين حياتها هي وهذه المبادئ التي تلتزمها، وما بين حياة هذه المرأة ذات الثوب الأسود. وقد أحنت هذه الأخيرة رأسها مرة أخرى، ولم تنطق بكلمة. وبقيت هكذا حتى صلصل الجرس الأول منذراً الزوار بالانصراف.

وصاحت السيدة كلينام وهي تفيق من ذهولها:

– مهلاً! لقد قلت إن لي التماساً آخر. إنه التماس لا يحتمل التأخير. إن الرجل الذي أحضر إليك هذه الأوراق، والذي يحتفظ لديه بالأدلة، لا يزال ينتظر في بيتي طالباً الثمن. إنني أستطيع أن أخفي هذه الحقيقة عن آرثر فقط إذا دفعت الثمن لهذا الرجل. إنه يطالب بمبلغ كبير، أكبر مما أستطيع أن أجمع إلا بعد وقت طويل. وهو يرفض أن يتنازل عن أي شيء، لأنه يهدد بأنه إذا لم ينجح معي، فسوف يسعى إليك. فهل تأتين معي، وتبينين له أنك قد عرفت الحقيقة فعلاً؟ هل تأتين معي وتحاولين تسوية الأمر معه! هل تأتين وتساعدينني عليه؟ أناشدك باسم آرثر ألّا ترفضي رجائي وإن كنت لا أجرؤ أن أطلب شيئاً من أجل آرثر!

واستجابت دوريت الصغيرة بكل رضا. وبعد أن انسابت إلى داخل السجن بضع لحظات، عادت وقالت إنها على استعداد للذهاب. وخرجتا معاً عن طريق سلّم آخر، متجنبتين البوابة الداخلية، ووصلتا إلى الفناء الخارجي الذي كان عندئذ ساكناً خالياً، ثم بلغتا الشارع.

وكانت أمسية من أمسيات الصيف التي لا يشتد فيها ظلام الجو عن هذه العتمة التي تنتشر في فترة الغسق الطويلة. فكان من الممكن رؤية الشارع والجسر على مداهما، وكانت السماء ساجية صافية. وعلى أبواب المنازل كان الناس واقفين أو جالسين، يلاعبون أطفالهم ويستمتعون بالمساء. وكان ثمة أعداد من السائرين في الطرقات يتنسمون الهواء؛ وكانت متاعب اليوم قد خفت وتلاشت، فأمسى القليل من الناس هم الذين ينطلقون مهرعين مثلهما. وفيما هما تعبران الجسر، بدت لهما أبراج الكنائس واضحة، كأنها نفض عنها غلائل الغمام التي تلفها عادة وأمست قريبة منهما. أما الدخان المتصاعد إلى السماء، فقد زالت عنه هذه القتامة الغبراء وأمسى على شي من الصفاء والإشراق. وكانت ألوان الجمال النابعة من الغروب لم تتلاشَ بعد عن غلالات السحاب الرقيقة الطويلة التي كانت ترقد في أحضان الأفق في دعة وسلام. وفي سوط قبة السماء المتألقة المشرقة على الكون كله، كان ثمة ومضات كبيرة من الضوء تنطلق بين الأنجم المبكرة، وكأنها علامات من بركة ميثاق الأمل السلام والذي حوَّل تاج[1] الأشواك إلى أضواء مجد.

ولم تعد السيدة كليننام لافتة المنظر كما كانت من قبل، بسبب الظلام، وبسبب وجودها مع شخص آخر، ومن ثم مضت في سبيلها بجانب دوريت الصغيرة دون أن يتعرض أحد لها بسوء. وتركتا الطريق الرئيسي الكبير عند المنعطف الذي سبق أن دخلت إليه منه، ومضيتا تسيران في مجموعة الحارات والأزقة الساكنة الخالية الملتوية الهابطة إلى ضفة النهر. وما كادت أقدامهما تصل إلى البوابة حتى فوجئتا بصوت كأنه الرعد، جعل السيدة كليننام تقول صائحة:

(1) المقصود به التاج الشوكي الذي وُضع على رأس السيد المسيح وهو يُقاد إلى الصلب.

– ما هذا؟ هيا نسرع.

وكانتا في مدخل البوابة عندما أرسلت دوريت الصغيرة صيحة نافذة وأمسكت بذراع السيدة كلينام:

لقد كان البيت القديم أمامها، في لحظة خاطفة، وبلاندواز جالساً في النافذة يدخن، ثم إذا صوت مدوٍ كالرعد مرة أخرى. وإذا البيت يترنح، ثم يميل إلى الأمام وقد انشقت جدرانه في خمسين موضعاً، وإذا هو ينهار ويسقط. وتسمرت الاثنتان في مكانهما وأخفتا وجهيهما بأيديهما وقد صمّت آذانهما بالدوي، واختنقت أنفاسهما، وعميت عيونهما بالتراب وانجابت عاصفة الغبار التي كانت بينهما وبين السماء القاتمة لمدة لحظة استطاعتا خلالها أن تريا النجوم. وفيما هما تنظران إلى أعلى وتصيحان في طلب النجدة، إذا بمجموعة المداخن الكبيرة التي تركت منتصبة بمفردها كأنها برج في خضم إعصار عنيف، تترنح، وتنهار، وتتهاوى على كومة الأنقاض، كأنما كل شذرة ساقطة قد عقدت العزم على الإمعان في دفن المنسحق التعس بلاندواز تحت الأنقاض.

وكادت ملامحهما أن تنكر بعد أن اكتست بالأجزاء السوداء المنطلقة من الحطام، ولكنهما لم تباليا، وإنما اندفعتا خارجتين من البوابة إلى الشارع وهما تصيحان وتصرخان. وهناك سقطت السيدة كلينام على أرضية الشارع الصخرية، ومنذ تلك اللحظة لم تعد قادرة على مجرد تحريك إصبع واحد، أو حتى على الكلام. وقد ظلت نحو ثلاثة أعوام فوق مقعد متحرك، تنظر بانتباه إلى الذين حولها، ويبدو عليها أنها تفهم ما يقولون، ولكن الصمت القاسي الذي عاشت فيه تلك السنوات الكثيرة قبل ذلك، ازداد قسوة عليها، بحيث لم يعد في مقدورها إلا أن تحرك عينيها فقط، وإلا أن تعبر عن «لا» أو «نعم» بحركة خفيفة من رأسها. وهكذا عاشت، وماتت تمثالاً.

وكانت آفري تبحث عنهما في السجن، ثم لمحتهما من بعيد على الجسر، فأسرعت لتتلقى سيدتها العجوز بين ذراعيها وتعاون في حملها إلى بيت قريب، وأن تبقى على إخلاصها بجانبها. وقد عرفت عندئذ أسرار تلك الأصوات الخفية التي كانت تسمعها آفري، والتي كانت، كمعظم الناس؛ على صواب فيما ذكرت من حقائق، ولكنها على خطأ في الاستدلالات التي أقامتها عليها.

فعندما انجلت زوبعة الغبار، وعاد إلى ليلة الصيف صفاؤها مرة أخرى، أسرع عدد من الناس يتلمسون كل وسيلة للوصول إلى الأنقاض غير مبالين بما ينالهم من اختناق، وتكونت جماعات الحافرين ليريح بعضهم بعضاً، في أثناء قيامهم بالحفر بين الأنقاض، وانتشرت الأقوال بأنه كان في البيت ساعة انهياره مائة شخص، لا بل خمسون، لا بل اثنان، واستقرت الشائعات أخيراً على اثنين: الرجل الأجنبي، والسيد فلنتونش.

وظل الحافرون يعملون طوال الليل القصير على ضوء أنابيب مشتعلة تعمل بالغاز؛ وظلوا يحفرون عند شروق الشمس، ويمعنون في الحفر كلما ارتفعت في قبة السماء، ولا يتوقفان وهي تميل إلى الغروب، ثم يعاودون الحفر بعد غروبها طوال الليل في همة ونشاط، ويرفعون الأنقاض في العربات والمركبات والسلال، وهكذا استمر الحفر ليلاً ونهاراً بلا انقطاع وفي الليلة التالية من هذا العمل المتواصل عثروا على الكومة القذرة من النفايات التي كانت قبل ذلك تدعى بلاندواز أي قبل أن تنسحق رأسه إلى ذرات تشبه كثيراً ذرات الزجاج وذلك بسبب وقوع عرق الخشب الضخم الذي كان فوقه، والذي سقط عليه وسحقه.

إلا أنهم لم يصلوا إلى فلنتونش بعد، ومن ثم استمر الحفر بنشاط، مع رفع الأنقاض وحملها بعيداً، بلا انقطاع ليلاً ونهاراً. وكانت الأقوال قد انتشرت بأن البيت مشهور بما فيه من أقبية -وكان ذلك حقاً- وأن

فلتونش كان في تلك اللحظة التي سقط فيها البيت، في قبو من هذه الأقبية، أو أنه أسرع بالاحتماء فيه، وأنه لا يزال حياً تحت سقفه المقبو المتين. بل لقد قيل إنه سمع وهو يصيح في صوت أجوف مختنق ونبرات خافتة: «إنني هنا». وبلغ من أمر الشائعات في الجانب الآخر من المدينة أن قيل إن الحافرين استطاعوا الاتصال به عن طريق أنبوبة، وإنهم استطاعوا أن يقدموا إليه الحساء والشراب بهذه الوسيلة، وإنه قال بكل قوة تثير الإعجاب إنه بخير، يا أولادي، إلا من كسر في عظام العنق. ولكن عملية الحفر ورفع وحمل الأنقاض بعيداً استمرت بلا انقطاع، حتى رفعت جميع الأنقاض، وفتحت أبواب الأقبية الضوء، ومع ذلك لم يوجد أثر لفلتونش حياً أو ميتاً، سليماً أو مصاباً، رغم كل ما بُذِل للعثور عليه.

وبدأ الرأي عندئذ يستقر على أن فلتونش لم يكن بالبيت عند انهياره، وبدأت الأقوال تنتشر أنه كان عندئذ مشغولاً، في مكان آخر، بتحويل الودائع إلى كل ما يمكن أن تساويه من نقود في أسرع وقت، ثم إيداع هذا كله مع رصيده في البنك بحكم سلطته في محيط الشركة. وتذكرت آفري أن زوجها، البارع، قال إنه سوف يزيد من توضيح موقفه خلال أربع وعشرين ساعة، ومن ثم تأكد لها أن غيابه في هذه الفترة مع أخذه كل ما استطاع أن يضع يده عليه، هو التفسير الأخير الذي كان يعنيه، والذي وعد به. إلا أنها أخفت هذا الرأي في نفسها، شاكرة الله على خلاصها منه. ولما كان من المعقول أن يستقر الرأي على أن الرجل الذي لم يدفن تحت الأنقاض، لا يمكن أن يعثر أحد عليه تحتها، فقد نفض الحافرون أيديهم منه بعد أن انتهى عملهم، ولم يعودوا يحفرون للبحث عنه في باطن الأرض.

وقوبل هذا الموقف بالاستياء من عدد كبير من الناس الذين كانوا مصرين على الاعتقاد بأن فلتونش لا يزال راقداً في مكان ما بين إحدى

التكوينات الجغرافية لمدينة لندن. ولم يتزعزع اعتقادهم هذا حتى بعد أن تكررت الأقوال مع مرور الوقت بأن ثمة رجلاً عجوزاً يعقد ربطة عنقه تحت إحدى أذنيه، وقد عُرِف تماماً أنه إنكليزي الجنسية، شوهد مختلطاً مع الهولنديين على ضفاف قنوات مدينة لاهاي، ومتردداً على حانات أمستردام. منتحلاً اسم وهيئة مينهير ثون فلتنج.

* * *

في الطريق

واستمر آرثر راقداً في حالة شديدة من المرض بسجن مارشاليزا؛ وظل السيد راج لا يرى ثغرة في أفق القانون تتيح له الأمر في أن يتوسع فيها وينفذ منها، وبقي السيد بانكس يعاني أشد المعاناة من تأنيب النفس، إذ أنه لولا هذه الأرقام العصيبة للزم أن يكون آرثر بدلاً من ذوبانه في السجن، متنزهاً في مركبة خاصة يجرها جوادان، وأن يكون السيد بانكس، بدلاً من ضيق حياته في حدود مرتبه ككاتب حسابات، مالكاً لمبلغ يتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف جنيه تحت أمره وإذنه.. لولا هذه الأرقام العصيبة، لكان من المحتمل أن يلزم هذا الحاسب الشقي فراشه، ولأصبح أحداً من أولئك المغمورين الذين يولون وجوههم إلى الجدار من فرط اليأس، ثم يموتون كآخر ضحايا لعظمة المأسوف عليه السيد ميردل. إن السيد بانكس كان يعيش، بسبب هذه العمليات الحسابية التي لا جدال في صحتها، حياة كلها البؤس والقلق، حاملاً باستمرار أرقامه معه داخل قبعته، دون أن يكتفي بنفسه فقط بمراجعتها في كل مناسبة ممكنة، وإنما ملتمساً من كل مخلوق آدمي يستطيع أن يظفر به، أن يراجعها معه لكي يلاحظ إلى أي حد هو على صواب. وفي حوش «بليدنج هارت» لم يكن ثمة ساكن له بعض الشأن لم يعرض عليه السيد بانكس حججه وبراهينه، ولما كانت الأرقام من النوع «المعدي» فإنه لم يلبث أن انتشر في

تلك المنطقة نوع من الحصبة الحسابية التي جعلت رؤوس سكان الحوش جميعاً تدور.

وكان السيد بانكس كلما ازداد اضطرابه الذهني، ازداد ضيقاً بمخدومه البطريركي.. ففي اجتماعاتهما الأخيرة، كان صوت نخره يدل على إحساس بالتوتر العصبي الذي لم يكن يؤذن بأي خير للبطريرك. وكذلك كان السيد بانكس في مناسبات كثيرة يرسل نظرات أشد حدة إلى التكورات البطريركية أكثر مما ينبغي لشخص مثله، ليس رساماً، وليس صانع باروكات «شعر مستعار» يبحث عن نماذج حية.

إلا أنه كان، على أية حال، ينخر داخلاً أو خارجاً من مرسانه الخلفية الصغيرة حسبما يريده البطريرك أو لا يريده، وهكذا ظل العمل مستمراً في طريقه المعتاد. أي ظل حوش بليدنج هارت يحرث على يدي السيد بانكس، ويحصد على يدي السيد كاسبي، في المواسم المنتظمة، وكان السيد بانكس يحتمل كل هذه الأعمال من قذارة وعناء، كنصيب له، أما نصيب السيد كاسبي، فكان كل الثمر، وكل العطر، وكل ما في ضوء القمر من جمال. أما فيما يختص بالكلمات التي اعتاد أن ينطق بها هذا المحسن الباسم في أمسيات أيام السبت، عندما كان يجلس ويدير إبهاميه البدينين بعد أن يراجع الحسابات، فكانت عادة كما يلي:

«كل شيء على ما يرام للجميع، للجميع.. على ما يرام يا سيدي، للجميع».

وكانت غرفة إقامة السيد بانكس، ذات سقف حديدي يجعلها في الصيف كالأتون المستعر. وأياً كان الأمر، فقد حدث ذات مساء حار من أمسيات يوم السبت، أن غادر السيد بانكس غرفته بعد عمل شاق طويل، ومضى إلى مخدومه وهو في حالة شديد من التوتر العصبي.

وقال له البطريرك:

- سيد بانكس، إنك متوانٍ.. متوانٍ يا سيد.

فردّ عليه بانكس بإيجاز:

- ماذا تعني بهذا؟

وكان البطريرك يتخذ عادة هيئة الهدوء والاتزان، وكان إسرافه في هذا الوضع خاصة في ذلك المساء مثيراً للأعصاب. وبينما كان كل إنسان، في نطاق البشرية يشعر بالحرارة كان البطريرك في حالة برود تام. وبينما كان كل إنسان ظامئاً، كان البطريرك يرتوي. كان ثمة رائحة عاطرة لزهر الليمون تشيع حوله، وكان قد أعد شراباً من «الشيري» الذهبي كان يسطع في كوب كبير، وكأنما هو يشرب عصيراً من ضوء الشمس الغاربة. وكان هذا في ذاته شيئاً سيئاً، ولكن لم يكن أسوأ ما في الأمر. ذلك أن أسوأ ما في الأمر هو أنه كان بعينيه الزرقاوين الكبيرتين، وبرأسه المصقول وبشعره الطويل الأبيض، وبساقيه الشبيهتين بزجاجتين خضراوين، والممتدتين أمامه حيث تنتهيان بحذاء ليّن فوق حشية صغيرة.. كان بهذا كله يبدو في تلك الهيئة المشرقة من السماحة التي جعلته بعد هذا الشراب لإخوانه في البشرية، بينما هو نفسه لا يريد أكثر من لين التعاطف الإنساني.

وعاد السيد بانكس يقول وهو ينكش شعره إلى أعلى بيدي في حالة تحفز للشر:

- ماذا تعني بهذا؟

- أعني يا سيد بانكس أنه ينبغي أن تكون أشد صرامة مع الناس، أشد صرامة مع الناس، أشد صرامة مع الناس يا سيدي. إنك لا تعتصرهم، إنك لا تعتصرهم، إن تحصيلك للإيجارات لم يصل إلى المستوى المطلوبة،

يجب أن تعتصرهم يا سيدي، وإلا فإن علاقتنا لن تستمر على النحو المُرْضي الذي أحب أن تكون عليه، مع الجميع، مع الجميع.

فردّ عليه السيد بانكس قائلاً:

- ألست أعتصرهم؟ إذن فلأي شيء خُلِقت؟

- إنك لم تخلق لشيء آخر غير هذا يا سيد بانكس. إنك خلقت لتؤدي واجبك، ولكنك لا تؤدي واجبك. إنك مأجور للاعتصار، وعليك أن تعتصر لكي تنال الأجر.

ودهش البطريرك أشد الدهشة من نفسه لهذا التدرج في الحديث الشبيه بأسلوب الدكتور جونسون، وهذا ما لم يكن يتوقعه أو على الأقل يقصده، مما جعله يضحك عالياً، ثم يكرر القول في غبطة بالغة وهو يدير إبهاميه ويومئ برأسه لصورة صباه:

- إنك مأجور للاعتصار، وعليك أن تعتصر لكي تنال الأجر.

فقال بانكس:

- أوه، أثمة شيء آخر؟

- أجل يا سيدي، أجل يا سيدي؛ هناك شيء آخر.. إذا سمحت يا سيد بانكس عليك أن تعتصر الحوش مرة أخرى: أول شيء تفعله في صباح يوم الاثنين.

فقال السيد بانكس:

- أوه! أليس هذا موعداً قريباً جداً. لقد اعتصرته اليوم.

- هراء يا سيدي إنك لم تقترب من المعدل، لم تقترب من المعدل.

وقال بانكس وهو يرقبه عند تناوله بسماحة جرعة كبيرة من الشراب المُعَدّ:

- أوه! أثمة شيء آخر.

- أجل يا سيدي! أجل يا سيدي. هناك شيء آخر. إنني لست مسروراً البتة يا سيد بانكس، من ابنتي. لست مسروراً البتة. فعدا كثرة ذهابي للسؤال عن صحة السيدة كلينام، رغم أن السيدة كلينام الآن تمر بظروف لا تعتبر بأي حال باعثة على رضاء الجميع، فإنها تذهب أيضاً يا سيد بانكس -ما لم أكن مخدوعاً إلى حد كبير- للسؤال عن صحة السيد كلينام في السجن.. في السجن.

فقال بانكس:

- إنه الآن في محنة، ولعل هذا من دواعي العطف والشفقة.

- لا، لا يا مستر بانكس، لا شأن لها بهذا، لا شأن لها بهذا، لا أستطيع أن أسمح به. دعه يدفع ديونه ويخرج.. يخرج، يدفع ديونه ويخرج.

ورغم أن شعر السيد بانكس كان منتصباً كالأسلاك المتينة، فإنه لم يتردد في أن يدفعه مرة أخرى بقوة إلى أعلى، ثم يبتسم لمخدومه في هيئة رهيبة:

أما البطريرك فقد قال بتودد:

- أرجوك أن تخبر ابنتي يا سيد بانكس أنني لا أستطيع أن أسمح بذلك، لا أستطيع أن أسمح به.

فقال السيد بانكس:

- أوه؛! ألا تستطيع أن تقول لها هذا بنفسك؟

- لا يا سيدي لا، إنك مأجور لكي تخبرها بذلك..

ولم يستطع العجوز المتلعثم أن يقام إغراء ترديد هذه العبارة مرة أخرى، فقال:

- وإن عليك أن تخبرها به لكي ندفع لك الأجر، لكي ندفع لك الأجر.

فقال السيد بانكس:

- أوه! أثمة شيء آخر!

- أجل يا سيدي. إنه ليلوح يا سيد بانكس، أنك نفسك تتردد كثيراً، تتردد كثيراً، في ذلك الاتجاه. في ذلك الاتجاه وإني أنصحك يا سيد بانكس أن تطرد من ذهنك كلاً من خسائرك، وخسائر غيرك من الناس، وأن تهتم بعملك، أن تهتم بعملك.

واستجاب السيد بانكس لهذه النصيحة بلفظة مبتورة نطقها بسرعة مفاجئة وبإيجاز، وبصوت مرتفع «أوه!» ما جعل حتى البطريرك الرزين يسرع بتحريك عينيه الزرقاوين لينظر إليه. أما السيد بانكس، فقد عاد يقول بعد أن أكد اللفظة المبتورة بنفخة من أنفه:

- أثمة شيء آخر؟

فقال البطريرك وهو يفرغ من شرابه وينهش في ابتسام:

- ليس الآن يا سيدي، ليس الآن. إنني ذاهب إلى جولة صغيرة، جولة صغيرة. ولعلي أجدك هنا حين أعود. وإذا لم أجدك يا سيدي، فعليك بالواجب، الواجب. اعتصر، اعتصر، اعتصر يوم الاثنين، اعتصر يوم الاثنين!

ونظر السيد بانكس، بعد أن نكش شعره مرة أخرى، إلى البطريرك وهو يضع على رأسه قبعته العريضة الحافة، وقد بدا عليه -على بانكس- شيء من التردد الممزوج بإحساس من الألم النفسي. وكان أيضاً أشد حرارة مما كان من قبل، فراحت أنفاسه تتردد بقوة أكثر. ولكنه تحمل خروج

السيد كاسبي دون أن يقدم أية ملاحظة أخرى، ثم اختلس نظرة إليه من بين فرجات الستائر الصغيرة الخضراء المسدلة على النافذة، وقال لنفسه:

- هكذا ظننت. لقد عرفت إلى أين سنذهب. حسناً!

ثم انطلق عائداً، وهو ينخر، إلى غرفته، فرتبها بعناية، وتناول قبعته وتلفت في جوانب غرفته قائلاً «وداعاً». ثم انطلق نافخاً إلى حيث يريد. واتجه فوراً إلى الطرف الآخر من الحوش الذي يقع فيه متجر السيد بلورنيش فلما وصل إلى أعلى السلّم هناك، كان قد اشتد إحساسه بالحر أكثر من أي وقت آخر.

ووقف السيد بانكس مقاوماً دعوة السيدة بلورنيش له للدخول والجلوس في الكوخ السعيد مع أبيها وبعض الزبائن الذين كانوا، لغبطته، غير كثيرين في أمسيات السبت كما هو شأنهم في الليالي الأخرى حيث تعودوا تشجيع المتجر، بكل شهامة، لا بالمال، وإنما بالطلبات المجانية. توقف بانكس على رأس السلم، وظل في مكانه حتى شاهد البطريرك، الذي كان دائماً يدخل الحوش من الناحية الأخرى، يتقدم ببطء وسماحة. ويحيط به حواريوه. وعندئذ هبط السيد بانكس وانقضّ عليه بكل ما فيه من قوة بخارية.

ودهش البطريرك، وهو يتقدم بسماحته المعتادة، حين رأى السيد بانكس، ولكنه ظن أنه قرر القيام بعملية الاعتصار فوراً بدلاً من تأجيلها إلى يوم الاثنين. وتعجب سكان الحوش لهذا اللقاء، لأن أكبر سكان الحوش سناً لا يذكر أن هذين القطبين شوهدا مجتمعين يوماً في الحوش. ولكن الدهشة البالغة استبدت بهم عندما أراد السيد بانكس أن يقترب من هذا الرجل المبجل جداً، ويقف أمامه مباشرة، ويصنع من إبهامه الأيمن وسبابته ما يشبه الزناد. ثم يرفعهما إلى حافة القبعة العريضة، ثم إذا هو ببراعة ودقة فريدة يطيرها من فوق الرأس اللامع الشبيه بزلطة كبيرة.

ويعد أن تجرأ على هذا النحو مع البطريرك نفسه. زاد بانكس من دهشة الجميع، ومن لفت أنظار كل من في الحوش بقوله في صوت مسموع:

- الآن أيها المخادع المعسول، لقد قررت أن أكشف أمرك.

وسرعان ما أصبح السيد بانكس والبطريرك محط أنظار وأسماع الجميع. وفُتِحت النوافذ على مصاريعها، وازدحمت عتبات البيوت بالمتفرجين.

وقال السيد بانكس:

- ماذا تريد أن تبدو أمام الناس؟ ما هي لعبتك الأخلاقية المزعومة؟ ماذا تريد أن تكون؟ الإحسان؟ أليس كذلك؟ أنت رجل محسن؟

وهنا وجّه السيد بانكس -دون أن يقصد في الحقيقة ضرب البطريرك رغبةً في الضرب، وإنما لمجرد إرضاء نفسه، ولممارسة قوته عليه إلى أقصى حد- ضربة إلى الرأس المتضخم، الذي أحناه البطريرك ليتفاداها. وتكرر هذا الإجراء عدة مرات مما زاد من إعجاب المتفرجين. وكانت كل ضربة مصحوبة بهذه الكلمات من السيد بانكس:

- لقد فصلت نفسي من خدمتك، وذلك لكي أقول لك من أنت على حقيقتك. إنك واحد من عدد كبير من المدعين الذين هم أسوأ من أسوأ الذين يلتقي بهم الإنسان في الحياة. إنني أتحدث باعتباري ضحية لأمثالك ولأمثال السيد ميردل. إنك جلاد متنكر. إنك نائب عزرائيل، إنك دقاق للأعناق، مصاص للدماء، وسفاك بالطبيعة، إنك محسن مزعوم، ومحتال حقير.

وكان تكرار الضرب عند هذه المرحلة قد قوبل بعاصفة من الضحك.

- قل لهؤلاء الناس الطيبين من هو الرجل القاسي هنا، سيقولون لك، كما أعتقد، إنه بانكس.

وتأيد هذا بصيحات القائلين: «نعم، بالتأكيد».

- ولكنني أقول لكم أيها الناس الطيبون إنه كاسبي، هذا الكوم من الوداعة، هذه القطعة من الحب، هذه الزجاجة الخضراء الباسمة، إنه جلادكم. إذا أردتم أن تروا الرجل الذي يمكن أن يسلخكم أحياءً؟ فهذا هو، لا تبحثوا عنه في شخصي، أنا الذي أتقاضى ثلاثين شلناً في الأسبوع، ولكن ابحثوا عنه في كاسبي الذي لا أدري كم يبلغ دخله في العام.

وصاح عدد كبير من الناس:

- حسناً! استمعوا إلى السيد بانكس.

وصاح السيد بانكس، بعد أن وجَّه ضربة أخرى:

- أجل، استمعوا إلى السيد بانكس. نعم. أعتقد هذا، لقد حان الوقت أو كاد، لتستمعوا إلى السيد بانكس، لقد جاء السيد بانكس إلى الحوش الليلة لكي تستمعوا إليه. إن بانكس ليس إلا أداة، وهذا هو محركها.

وكان المستمعون يودون لو التفوا جميعاً، رجالاً ونساءً وأطفالاً، حول السيد بانكس، لولا أن كان في طريقهم البطريرك بشعره الأشيب الناعم الطويل، وقبعته العريضة الحافة.

وعاد بانكس يقول:

- هذا هو المحرك الذي يدفع بالآلة إلى الطحن. ولم يكن للآلة غير عمل واحد. هو الطحن، الطحن، ولا شيء غير الطحن. ها هو ذا الأمر، وهأنذا المأمور. عجباً أيها الناس الطيبون، إنه عندما جاء الليلة إلى الحوش، يسير ببطء كأنه شيء عظيم محسن كله الخير، وعندما أسرعتم

بشكاواكم مني إليه، لم تكونا تعلمون أي مالك خادع هو. ما رأيكم في حضوره الليلة إليكم، لكي أحمل أنا كل العبء في صباح يوم الاثنين! ما رأيكم في تأنيبه العنيف لي في هذه الليلة بالذات، لأني لم أعتصركم بما فيه الكفاية! ما رأيكم في أنني، في هذه اللحظة، لدي أمر خاص لكي أعتصر كل قطرة حياة فيكم يوم الاثنين؟

وكانت الإجابة غمغمة إجماعية مؤداها «يا للعار والشنار».

وقال بانكس ناخراً:

– الشنار! نعم، أظن هذا. إن الطبقة التي ينتمي كاسبي إليها، هي أكثر الطبقات عاراً وشناراً. إنهم يطلقون عُمّالهم، نظير أجر صغير، ليقوموا عنهم بالأعمال التي يخجلون ويخافون من القيام بها، ويزعمون أنهم لا يقبلون القيام بها، ولكنهم لا يكفون عن دفع غيرهم إليها، وإلا لما تركوهم يذوقون طعم الراحة. إنهم يخدعونكم حتى لا ينال عُمّالهم إلا اللوم والتأنيب، ولا ينالون هم إلا الفائدة. عجباً! إن أحقر محتال في هذه المدينة من النوع الذي لا يتردد في الاحتيال للحصول على شلن، لا يبلغ من الحقارة نصف ما يبلغ هذا الدّعيّ كاسبي.

وتعالت الصيحات: «هذا صحيح».. «يكفي ما لاقينا منه».

وعاد بانكس يقول:

– ثم انظروا ماذا تنالون من هؤلاء الناس بعد هذا؟ انظروا ماذا تنالون من المزيد من هؤلاء الناعمين ذوي الألسنة المعسولة الذين يسيرون بينكم في نعومة وابتسام بينما لا تكادون تعرفون شيئاً عن حقيقتهم ولا عما تمتلئ به نفوسهم من الخداع. إنني أريد أن ألفت أنظاركم إليّ برهة. إنني لست واحداً من الناس المحبوبين، وهذا ما أعرفه جيداً.

وانقسم المستمعون في هذه النقطة فريقين: وصاح أعضاء الفريق غير الراضين عنه قائلين:

- نعم، إنك لست محبوباً.

وقال أعضاء الفريق الأكثر أدباً:

- لا، بل أنت محبوب.

وقال السيد بانكس:

- إنني بوجه عام رجل جاف، مرهق، مأجور مسكين. هذا هو خادكم المطيع. وهذه هي صورته الكاملة رسمها بنفسه وقدمها إليكم فنان كبير الشبه بينها وبين الحقيقة! ولكن ماذا في وسع رجل أن يفعل مع رجل كهذا قُدِّر له أن يكون سيده؟ ماذا يمكن أن ينتظر منه؟ هل حدث أن وجد أحدكم لحم ضأن مسلوق وصلصلة قبار[1] ينموان داخل جوزة هند.

ولم يحدث قط لواحد من سكان حوش بليدنج هارت أن رأى شيئاً كهذا، وقد ظهر ذلك بوضوح من إسراعهم في الإجابة عن هذا السؤال.

وعاد السيد بانكس يقول:

- حسناً. وكذلك لن تجدوا أية صفات طيبة في أشخاص مثلي يعملون تحت إمرة أمثال هؤلاء المخدومين. لقد اشتغلت محصلاً منذ حداثتي، فكيف كانت حياتي؟ الكدح والطحن، وإدارة العجلة، وإدارة العجلة! إنني لم أكن راضياً عن نفسي، وبطبيعة الحال لم يكن من المحتمل أن أكتسب رضاء أحد. لو كان هذا الدعيّ يرى أنني لا أستحق الأجر الذي أتناوله، بعد خدمة عشر سنوات، لما تردد في تخفيضه. ولو أنه وجد من يقوم مقامي بمرتب يقل نصف شلن في الأسبوع، لما تردد في أن يحله

(1) كلمة مقربة عن (Coper) وتعني نوعاً من النبات.

محلي. إن المسألة في نظره عرض وطلب، بارك الله فيكم! إنها مبادئ ثابتة! إنها لافتة رائعة مهيبة. رأس هذا السيد كاسبي...

وراح بانكس يتأمل الرأس بأي شيء إلا الإعجاب، ثم استطرد يقول:

- ولكن الاسم الحقيقي لما وراء هذه اللافتة المهيبة هو «حانة التدليس»، وشعارها «أرغموا المحصلين على الخضوع لكم دائماً»، هل بينكم أيها السادة...

وتوقف بانكس برهة قبل أن يردف قائلاً وهو يتلفت حوله.

- من يعرف شيئاً عن قواعد اللغة؟

وأعرب سكان حوش بليدنج هارت أنهم لا يعرفون شيئاً من هذا. وهنا عاد بانكس إلى حديثه قائلاً:

- لا يهم. لقد أردت فقط أن أقول إن العبء الذي وضعه هذا السيد على كاهلي كان يحتم عليّ ألا أخرج عن نطاق هذه الصيغة من فعل الأمر «أرغموا المحصلين على الخضوع لكم دائماً». أرغموهم دائماً على الخضوع. على الخضوع لكم أرغموهم، دائماً أرغموهم على الخضوع لكم. ها هو ذا البطريرك الكريم السيد كاسبي، وهذه هي قاعدته الذهبية. إنه كما ترون يستفيد منها إلى حد لا يعقل؛ ولكنني لا أستفيد منها إطلاقاً. إنه عذب معسول الحديث كالشهد، بينما أنا سمج ثقيل كالماء الآسن في مستنقع. إنه يصنع المستنقع لي، فآسن أنا فيه، ولا أستطيع منه خلاصاً.. والآن..

قالها بانكس وهو ينقض مرة أخرى على مخدومه السابق، بعد أن كان قد تراجع عنه قليلاً ليعرضه على سكان الحوش، ثم أردف قائلاً:

- بما أني لم أتعود على الحديث أمام الملأ، وبعد تقدير كل الظروف، سوف أختتم حديثي برجائك لكي تشرح موقفك وتجد لك مخرجاً.

وبلغ من مفاجأة آخر البطاركة بهذا الهجوم، ومن حاجته الشديدة إلى فسحة من الوقت ليلتقط فكرة، وإلى فسحة أطول ليدير هذه الفكرة في ذهنه، أن عجز تماماً عن الإجابة. وفيما هو يفكر بهيئته البطريركية مرة أخرى، بنفس السرعة والبراعة، وبنفس الطريقة السابقة. وقد حدث في المرة السابقة أن تقدم واحد أو اثنان من سكان حوش بليدنج هارت، بدافع من الاحترام، لالتقاط القبعة وإعادتها إلى السيد كاسبي. أما في هذه المرة، فقد اضطر البطريرك للانحناء والتقاطها بنفسه بعد أن ترك بانكس كل هذا الأثر في نفوس المتجمعين.

وبسرعة البرق انقضّ السيد بانكس، الذي كان قد وضع يده اليمنى في جيبه، وأخرج مقصاً، وانحنى على ظهر البطريرك قبل أن ينهض، ثم جز خصلات شعره المقدس الذي كان مرسلاً على كتفيه. وفي نوبة من الاهتياج والسرعة، انثنى بانكس واختطف القبعة من يد البطريرك المذهول، وقصّ حافتها العريضة حتى جعلها كالوعاء ثم كبسها على الرأس البطريركي.

وإزاء النتيجة المفزعة لسلوكه المتهور، تراجع بانكس نفسه في ذعر. ذلك أنه رأى أمامه مخلوقاً ضخماً عاري القفا، جاحظ العينين، كبير الرأس يحملق فيه دون أية مهابة، ودون أي احترام، وكأنما خرج من باطن الأرض ليسأل ماذا جرى لكاسبي. وبعد أن حملق السيد بانكس بدوره إلى هذا الشبح المفزع، ألقى بالمقص من يده، واندفع يلتمس مكاناً يختبئ فيه، حيث يمكنه أن يلوذ من نتائج فعلته. ورأى السيد بانكس أن من دواعي الحكمة استخدم كل وسيلة ممكنة للهرب، وذلك على الرغم من أنه لم يطارد إلا برنين ضحكات سكان الحوش وهي تتماوج في الهواء المرة بعد الأخرى..

في الطريق أيضا!



إن التغييرات التي تحدث في غرفة مريض محموم، تكون بطيئة ومذبذبة، أما التغييرات في عالم محموم، فهي سريعة لا سبيل إلى نقضها.

وقد كان من نصيب دوريت الصغيرة أن تواجه هذين النوعين من التغيرات فجدران سجن مارشاليزا كانت، في أثناء فترة معينة من كل يوم، تطويها مرة أخرى في ظلالها، باعتبارها ابنة لها، وذلك خلال تفكيرها في كلينام، وعملها من أجله، ورعايتها له، ولا تتركه إلا لكي تمعن التفكير فيه، وفي حبها له. أما دورها في الحياة خارج بوابة السجن، فكان يلح عليها للقيام بالمطالب المفروضة عليها، وكانت هي تستجيب لإلحاحه بذلك الصبر الذي لا ينفد له معين. فقد كانت هناك فاني، المتشامخة، الملول، المتقلبة المزاج. التي كان القلق يأكل نفسها لشعورها بأن وضعها في المجتمع لم يعد كما ينبغي منذ تلك الليلة التي قتل فيها السيد ميردل نفسه بالمبراة ذات المقبض القرني التي كانت ملكاً لها. فكانت تصر على رغبتها في أن يخفف عنها أحد، ثم تصر على عدم رغبتها في أن يخفف عنا أحد، ثم تصر على أنها تعرضت لإساءة شديدة، ثم تعود وتصر على أنه لا يوجد من يجرؤ على أن يظن بها هذا. وكان هناك أخوها الشاب الضعيف، المتكبر السكران، الذي يرتعد دائماً من رأسه إلى قدميه، ويتحدث في تلعثم وبلا وضوح وكأنما سقط بعض المال الذي يفاخر به

دائماً، داخل فمه، ولم يستطع إخراجه، كما كان عاجزاً عن المضي في الحياة بمفرده، متولياً أمر أخته التي كان يحبها بأنانية -هكذا كانت دائماً طبيعة تيب المسكين السيئ الحظ- لأنه كان يعتمد عليها في تسديد خطاه. وهنا كانت السيدة ميردل بملابس حدادها الشفافة وقبعتها الفاخرة الواردة من أسواق باريس -لأن قبعتها السابقة كانت على الأرجح قد تمزقت في نوبة حزن- سيدة ميردل هذه، كانت تمضي في المجتمع كتفاً إلى كتف في منافسة مع فاني، ولعلها كانت تقاومها في كل ساعة من ساعات اليوم بصدرها الأعظم المهجور. وكان هناك أيضاً المسكين السيد سباركلر الذي لم يكن يدري كيف يوفِّق بينهما، وإنما كان يرى، في تواضع، أنه ليس هناك ما تعملانه أفضل من أن تتفقا على أنهما، كلتيهما، سيدتان رائعتان. وأنهما لا تعرفان شيئاً اسمه الكلام الفارغ، وبناءً على هذا الرأي الرقيق، كانتا تتفقان على الهجوم عليه في عنف شديد. وكانت هناك أيضاً حرم الجنرال التي عادت من الخارج، وراحت ترسل، مرة كل يومين، رسالة مليئة بالكلمات التي تبدأ بحرف «الباء» تطالب فيها بخطاب توصية جديد لتقدمه إلى هذا المنصب الشاغر أو الآخر. وعن هذه السيدة الممتازة يمكن القول، بصفة أخيرة، إنه لم يكن يوجد على سطح الأرض سيدة أعظم صلاحية منها لأي منصب في نظر عدد كبير من الناس -كما تدل على هذا خطابات التوصية الحارة- أو سيدة شاء لها سوء الحظ أن تحاط بكل هذا العدد من المعجبين المتحمسين الذين لم يحدث قط أن كانوا في حاجة إلى خدماتها.

وبعد الدوي الأول الذي أحدثه موت السيد ميردل، عجز كثير من الكبراء عن أن يقرروا ما إذا كان ينبغي مقاطعة السيدة ميردل أو تعزيتها. ولكنهم، على أية حال، رأوا أن الواجب يقتضي لتقوية موقفهم في المجتمع، أن يعتبروها ضحية خدعة قاسية، ومن ثم تكرموا وأفسحوا لها مكاناً بينهم، واستمروا في التعرّف بها. وقد أعقب هذا أن تقرر

وجوب مناصرتها والوقوف بجانبها من أجلها، ومن أجلها بالذات، على اعتبار أنها سيدة مجتمع ممتازة ومن أصل عريق، راحت ضحية لخداع همجي سوقي حقير -هكذا عُرِف أمر السيد ميردل من قمة رأسه إلى أخمس قدميه منذ اللحظة التي اكتشفت فيها حقيقته-. وقد ردت هي على هذا الولاء بأن جعلت الجميع يفهمون أنها أشد سخطاً على جناية زوجها من أي شخص آخر، وهكذا، بالإجمال، خرجت من المعترك امرأة حكيمة، وسارت في حياتها على خير حال.

وكان اللقب الذي ظفر به السيد سباركلر، لحسن الحظ، واحداً من هذه الأرفف التي يوضع عليها أحد السادة، ويعتبر في حالة تقاعد، ما لم يكن هناك أسباب تدعو لأن يرفع بإحدى آلات آل بارناكل الرافعة إلى مكان يكون أكثر ربحاً. وعلى هذا الأساس، التزم على هذا الموظف الوطني حدوده، فلم يحاول الخروج عن نطاقها. وأخذت كل من زوجته ووالدته في استغلال مكانته هذه في صراعها للأخرى، كأية غريمتين أبديتين، لتثبيت مكانتهما في المجتمع الراقي. وكانتا تقيمان في طابقين مختلفين بذلك المنزل الصغير في الحي الراقي. وهو المنزل الذي كانت تلتصق به روائح خيل المركبات وجاء اليوم السابق التصاق الموت بحياة الإنسان، ولم يكن في وسع دوريت الصغيرة؛ وهي ترى كل هذه الأمور تتطور أمامها، إلا أن تعجب، وإلا أن تشعر بالقلق كلما فكرت فيما سيكون عليه مصير أبناء فاني عندما يولدون، وعندما يعيشون في ركن خلفي من أركان ذلك البيت، عندما يحتاج هؤلاء الضحايا الصغار الذين لا يزالون في علم الغيب، إلى من يعنى بهم.

ولما كان آرثر في حالة شديدة من المرض بحيث لم يكن ممكناً التحدث معه عن موضوعات تثير القلق أو الانفعال، ولما كان شفاؤه يعتمد إلى حد كبير على مقدار الراحة والهدوء التي تلزم لصحته الواهنة،

فإن دوريت الصغيرة لم تجد من تعتمد عليه في تلك الفترة العصيبة إلا السيد ميجلز. ولكنه كان في الخارج. ومن ثم أرسلت إليه، عن طريق ابنته، بعد رؤيتها مباشرة لآرثر في سجن مارشاليزا، ثم بعد ذلك استمرت في مراسلته، مفضية إليه بما يؤودها في المسائل التي تثير قلقها أكثر من غيرها، إلا في مسألة معينة. وقد كانت تفضل بشأن هذه المسألة أن يبقى السيد ميجلز في الخارج على وجوده في لندن. رغم ما يثيره هذا من الراحة في قلب سجن مارشاليزا.

لقد أفضت إليه -دون أن تذكر على وجه التحديد طبيعة المستندات التي وقعت بين يدي ريجود- بالخطوط العريضة للقصة، كما أخبرته بالمصير الذي انتهى إليه. وهنا برزت مرة أخرى طبيعة السيد ميجلز الحذرة التي اعتاد عليها منذ عمله كصراف في البنك، وجعلته يضع أهمية كبرى على وجوب استرداد المستندات الأصلية. ومن ثم رد على دوريت الصغيرة يؤيدها بقوة في مخاوفها الخاصة بهذا الموضوع، مضيفاً إلى هذا أنه لن يعود إلى إنكلترا قبل أن «يبذل بعض المحاولات للوصول إليها».

وخلال هذه الفترة كان السيد هنري جوان قد استقر رأيه على أنه من الخير له ألا يتعرف بآل زوجته. ولكنه تكرم ولم يفرض هذا الرأي على زوجته، وإنما ذكر للسيد ميجلز أنه يرى، شخصياً، أن العلاقة بينهما لا تتحسن كما يبدو، وأنه يعتقد بكل ذوق، ودون أية فضائح أو شيء من هذا القبيل، أن من الخير لو اتفقا معاً على أنهما من أحسن الأصدقاء، ولكن يحسن مع هذا أن يبتعد كل منهما الآخر. وقد أجاب السيد ميجلز المسكين، الذي كان يشعر فعلاً أنه لم يزد من سعادة ابنته بوجوده دائماً معها:

- حسناً يا هنري! إنك زوج ابنتي بيت. وقد اتخذت مكاني في حياتها بحكم الطبيعة. فإذا أردت هذا، فليكن.

وقد اشتمل هذا الترتيب على فائدة عرضية ربما لم تكن في بال السيد هنري جوان، وهي أنه أصبح في مقدور الوالدين أن يشعرا بالمزيد من الحرية في رؤيتهما لابنتهما بعد أن اقتصرت علاقتهما عليها فقط، وعلى ابنها الصغير. وكانت نتيجة هذا الشعور المتزايد بالرضا، المزيد من الإعانات المالية التي لم يكن الزوج مضطراً لأن يسأل عن مصدرها.

وكان طبيعياً للسيد ميجلز مع هذه الظروف، أن يرحب بالقيام بأية مهمة في حماسة شديدة. وكان قد علم من ابنته مختلف المدن التي تردد عليها ريجود ومختلف الفنادق التي عاش فيها فترة ما قبل مصرعه. وكانت المهمة التي قرر القيام بها، هي زيارة كل هذه الأماكن، بكل حذر وسرعة، فإذا وجد أنه ترك في مكان ما قائمة حساب لم تُدفَع مع صندوق أو لفافة لم تُفتَح، دفع قائمة الحساب، وعاد بالصندوق أو اللفافة.

وانطلق السيد ميجلز دون أن يصحبه أحد غير زوجته، لأداء هذه المهمة المقدسة التي عرّضته لعدد من المغامرات، إذ لم تكن أقل مشاكله أنه لم يفهم قط ما كان يقال، وأنه كان يقوم بمهمته بين أناس لم يكونوا يفهمون البتة ما يقول لهم. ومع ذلك، وبيقين لا يتزعزع بأن اللغة الإنكليزية على نحو ما هي أم اللغات في العالم كله، وأن الناس فقط أغبى من أن يفهموها، ظل السيد ميجلز يخطب في أصحاب الفنادق بكل ما في وسعه من بلاغة، ويشتبك معهم في مناقشات عالية الصوت شديدة التعقيد، رافضاً بكل حماسة أية إجابات يتلقاها بلغة المتحدث إليه الوطنية، على اعتبار أن هذه اللغة «كلام فارغ». وفي بعض الأحيان كان المترجمون يستدعون، ولكن السيد ميجلز كان يتحدث إليهم بأسلوب مليء بالعبارات الاصطلاحية الرنانة التي كانت تُفحِم المترجمين فوراً وتسكتهم وتزيد الأمر سوءاً. ولكننا إذا وازنا الأمر، فلن نستطيع أن نجزم ما إذا كان قد فَقَدَ الشيء الكثير أم لم يفقد شيئاً. فعلى الرغم من أنه

لم يعثر على شيء مما أراد، فقد عثر على كثير من الديون، واتصل بكثير من الدائنين المختلفين لصاحب ذلك الاسم، الذي كان الكلمة الوحيدة المفهومة، والذي كثيراً ما عرّضه في كل مكان تقريباً لحملة من الاتهامات المهينة. بل لقد استدعى رجال الشرطة فيما لا يقل عن أربع مناسبات ليسمعوا اتهام السيد ميجلز بأنه محتال، وأفاق، ولص، وكان يحتل هذه الأقوال كلها بتلك اللغات المختلفة في سعة صدر؛ لأنه لم يكن يفهم منها شيئاً، ثم إذا هو يقاد -بكل وسيلة غير لائقة- إلى السفن التجارية أو القطارات العامة للتخلص منه، كل هذا وهو لا يكف عن الحديث، كأي بريطاني بليغ بشوش، مع السيدة زوجته.

ولكن السيد ميجلز كان بلغته الخاصة، وبتفكيره الخاص، رجلاً ذكياً، واعياً شديد الجلد. فعندما «لف لفته» -على حد قوله- إلى باريس في أثناء رحلته هذه المقدسة، دون أن يصل إلى شيء، لم يفقد الأمل. وكان يقول لزوجته في معرض الجدل:

- كلما اقترينا في ملاحقته في إنكلترا، ازددت، على الأرجح، اقتراباً من الأوراق سواء وجدناها أم لم نجدها. لأنه لا بد أن ندرك، منطقياً، أنه قد أودعها في مكان لتكون بعيدة عن متناول الموجودين في إنكلترا. ولكنها لا بد أن تكون في الوقت نفسه قريبة منه.

وفي باريس وجد السيد ميجلز رسالة من دوريت الصغيرة في انتظاره. وقد ذكرت له فيها أنها استطاعت أن تتحدث برهة مع السيد كلينام عن ذلك الرجل الذي لم يعد له وجود، وأنها حين قالت للسيد كلينام إن صديقه السيد ميجلز الذي هو الآن في الطريق لزيارته قد اهتم للتأكد -بقدر ما يستطيع- من شيء يخص هذا الرجل، طلب منها أن تخبر السيد ميجلز أن ذلك الرجل كان يعرف الآنسة ويد التي كانت تقيم في شارع كذا في ميناء كاليه.

وهمهم السيد ميجلز حين فرغ من قراءة الرسالة.

وبقدر ما يمكن من السرعة بعد ذلك، في تلك الأيام المليئة بالنشاط، كان السيد ميجلز يرن الجرس المشروخ في البوابة المشروخة التي لم تلبث أن فتحت بصوتها المتحشرج، والتي وقفت فيها تلك المرأة القروية تقول:

- آه، سيدي، من؟

وغمغم السيد ميجلز، رداً عليها، قائلاً لنفسه إن سكان كاليه لا يخلون من بعض العقل، وإنهم يفهمون على أية حال شيئاً مما تريد منهم أو يريدون منك، ثم قال بصوت مسموع:

- الآنسة ويد يا عزيزتي.

وعندئذ اصطحبته إلى الآنسة ويد التي قال لها وهو يتنحنح:

- مرّ وقت طويل منذ التقينا آخر مرة يا آنسة ويد، وأرجو أن تكوني على خير حال.

ودون أن ترجو له أو لأي شخص آخر أن يكون على خير حال، سألته الآنسة ويد عن الغرض من تشريفه لها بالزيارة مرة أخرى. وكان السيد ميجلز في ذات الوقت قد تلفت في كل أنحاء الغرفة دون أن يرى شيئاً له شكل صندوق.

وقال السيد ميجلز بصوت لطيف حاول بقدر الإمكان ألا يجعله مثيراً:

- الواقع يا آنسة ويد أريد أن أعرف هل يمكن أن يكون في مقدورك أن تلقي بعض الضوء على مسألة بسيطة يكتنفها الظلام في الوقت الحاضر، أرجو أن يكون ما فات من منازعات بيننا قد مات. ولم

يعد هناك ما يدعو إلى إثارتها. هل تذكرين ابنتي؟ إن الزمن يتغير! لقد أصبحت أماً!

ولم يكن في مقدور السيد ميجلز، بحسن نواياه، أن يبدأ حديثه بأسوأ من هذا. وتوقف لكي يسمع منها أي تعليق ينم عن الاهتمام، ولكنه توقف على غير جدوى.

وقالت هي بعد برهة من الصمت البارد:

– ليس هذا هو الموضوع الذي تريد أن تتحدث عنه.

فردّ السيد ميجلز قائلاً:

– لا، لا. لقد ظننت أن طيبة قلبك ربما..

فقاطعته قائلة بابتسامة:

– ظننت أنك عرفت أنه لا يمكنك الاعتماد على طيبة قلبي.

فقال السيد ميجلز:

– لا تقولي هذا؟ إنك تظلمين نفسك، ولندخل في الموضوع على كل حال.

قال هذا بعد أن أدرك أنه لم يجن شيئاً من محاولة البدء فيه بطريق غير مباشر. ثم أردف قائلاً:

– لقد سمعت من صديقي كلينام الذي لا شك ستأسفين حين تعلمين أنه كان ولا يزال مريضاً جداً.

وتوقف مرة أخرى، ومرة أخرى ظلت صامتة. فاستطرد يقول:

– إن لديك بعض المعلومات عن شخص يدعى بلاندواز، قُتل أخيراً في لندن بسبب حادث فظيع. آه، أرجو ألا تسيئي الظن بي..

قال السيد ميجلز ذلك بسرعة ليمنعها من مقاطعته في غضب حين رأى أنها أوشكت أن تفعل:

- أنا أعلم أن معرفتك به بسيطة. إنني أدرك هذا تمام الإدراك. كانت معرفة بسيطة. أعرف هذا. ولكن الموضوع هو..

وعاد صوت السيد ميجلز إلى رقّته هنا وهو يردف قائلاً:

- هل ترك وهو في طريقه إلى إنكلترا آخر مرة صندوق أوراق، أو حزمة أوراق، أو أوراقاً من أي نوع، أية أوراق كانت.. لديك؟ ملتمساً منك أن تسمحي له بتركها هنا لمدة قصيرة حتى يحتاج إليها؟

فقالت مكررة:

- ولكن الموضوع هو! موضوع من تعني!

فقال السيد ميجلز:

- موضوعي أنا. وليس موضوعي أنا فقط، بل وموضوع كلينام أيضاً، وموضوع أناس آخرين. وأنا الآن متأكد..

وأردف السيد ميجلز الذي كان قلبه مفعماً دائماً بحب ابنته بيت، قائلاً:

- إنك لا يمكن أن تحملي أي شعور غير حميد نحو ابنتي. هذا مستحيل، حسناً! والموضوع يخصها أيضاً؛ باعتباره موضوعاً يهم أحد أصدقائها المخلصين. ها هو ذا الموضوع كما ذكرت لك بصراحة، وإني لأسأل، هل فعل؟

فردّت قائلة:

- أقسم أنني أصبحت، كما يلوح، هدفاً لأسئلة أي شخص يريد أن يعرف أي شيء عن ذلك الرجل الذي استأجرته في حياتي مرة واحدة لمهمة ما ونقدته الأجر ثم صرفته.

قال السيد ميجلز مهدئاً لها:

- لا، لا، أرجوك، لا تستائي. لأن سؤالي هو أوضح وأبسط سؤال في العالم، ويمكن أن يوجه إلى أي إنسان. إن المستندات التي أشرت إليها، لا تخصه، وقد وقعت بين يديه بطريقة خاطئة، وإنها قد تثير في وقت ما المتاعب لشخص بريء إذا بقيت في مخبئها، ولهذا فإن البحث عنها يجري لمصلحة الذين تخصهم هذه الأوراق. لقد مر بكاليه وهو في طريقه إلى لندن، وإن هناك أسباباً كانت تدعوه لأن يمتنع عن أخذها معه يومذاك، ولكنها في الوقت نفسه كانت تقضي منه أن يجعل الأوراق في متناول يده إذا أرادها، وهذه الأسباب نفسها تجعله لا يأمن على تركها مع أشخاص من طرازه. فهل تركها هنا؟ إنني أعلن أنني لو كنت أعرف كيف أتجنب إثارة استيائك، لبذلت كل ما في وسعي من جهد في هذا السبيل. إنني أوجه هذا السؤال بصفتي الشخصية، ولكن ليس في الموضوع علاقة شخصية. إنني قد أوجهه لأي إنسان، بل لقد وجهته إلى أشخاص كثرين فعلاً. هل تركها هنا، هل ترك أي شيء هنا؟

- لا.

- إذن فأنت لسوء الحظ يا آنسة ويد لا تعرفين عنها شيئاً؟

- إنني لا أعرف عنها شيئاً، وقد أجبت الآن عن أسئلتك التي لا مبرر لها. إنه لم يتركها هنا. ولا أعرف عنها شيئاً.

فقال السيد ميجلز ناهضاً:

- حسناً! إنني آسف، وقد انتهى الأمر. وأرجو ألا أكون قد أسأت إليك في شي. هل تاتيكورام بخير يا آنسة ويد؟

- هارييت بخير؟ أجل، إنها بخير.

فقال السيد ميجلز مصححاً نفسه:

- لقد أخطأت هنا مرة أخرى. يبدو أني لا أستطيع تمالك لساني هنا. ولعلي لو فكرت في الأمر ملياً. فربما لم أكن لأطلق هذا الاسم الرنان عليها قط. ولكن عندما يريد الإنسان أن يكون لطيفاً حسن النية مع الصغار، فإنه لا يفكر كثيراً. إن صديقتها السابقة حمّلتني كلمة طيبة لها. فهل ترين أنه من الممكن أن أبلغها إليها يا آنسة ويد.

ولم تجب عن هذا الشيء. وهكذا خرج السيد ميجلز بوجهه الطيب من الغرفة الكئيبة، حيث كان فيها مشرقاً كالشمس، ومضى إلى الفندق حيث ترك زوجته، وحيث قدم لها هذا التقرير:

- انهزمت أيتها الأم، لا فائدة.

ثم حمل هذا التقرير معه بعد ذلك في سفينة البريد التي أبحرت في نفس الليلة، إلى لندن، ومنها إلى سجن مارشاليزا.

وكان الشاب جون الأمين حارساً على البوابة عندما أقبل السيد والسيدة ميجلز إليها عند هبوط الظلام. وقد قال لهما، عندئذ، إن الآنسة دوريت لم تحضر بعد، ولكنها كانت موجودة في الصباح، ولا بد من حضورها في المساء. وكان السيد كلينام قد بدأ يسترد صحته ببطء. وكانت ماجي والسيدة بلورنيش والسيد بابتست يتناوبون العناية به، ومن المؤكد أن الآنسة دوريت سوف تعود في المساء قبل أن يؤذن الجرس بانصراف الزوار. وهناك في الطابق العلوي الغرفة التي أعارها لها مدير السجن، والتي يمكنهما أن ينتظراها فيها إذا شاءا. وقَبِل السيد ميجلز هذا العرض حتى لا يزعج آرثر برؤيته وزوجته دون تمهيد. وهكذا تُرِكا في الغرفة المغلقة يطلان من نافذتها ذات القضبان على فناء السجن.

وقد بلغ من تأثير جو السجن الخانق على السيدة ميجلز أن بدأت في البكاء. أما تأثيره على السيد ميجلز فقد جعله يلهث التماساً للهواء.

وكان يروح ويجيء في الغرفة لاهثاً، جاعلاً نفسه أسوأ حالاً بمحاولاته المضنية للترويح عن وجهه بمنديل، عندما استدار نحو الباب المفتوح وقال:

- آه! يا للسماء! هذه ليست الآنسة دوريت أيتها الأم، عجباً! انظري! إنها تاتيكورام؟

ولم يكن ثمة أحد غيرها. وبين ذراعي تاتيكورام كان ثمة صندوق تبلغ مساحته قدمين مربعتين. وكان نفس الصندوق الذي رأته السيدة آفري في أول أحلامها، وهو يخرج من البيت في بهيم الليل تحت ذراع توأم أرميا. ووضعت تاتيكورام الصندوق على الأرض عند قدمي السيد ميجلز، وركعت على ركبتيها بجانبه، وراحت تضرب عليه بيديها وهي تقول في شيء من الابتهاج مع شيء من اليأس. وفي ضحك ممزوج بالبكاء:

- أسألك الصفح يا سيدي العزيز. ردني إليكم. يا سيدتي العزيزة، ها هو ذا الصندوق.

وهتف السيد ميجلز قائلاً:

- تاتي؟

وقالت تاتيكورام:

- ها هو ذا ما كنت تريد. لقد وضعتني في الغرفة المجاورة حتى لا أراك. وسمعتك تسألها عنه، وسمعتها وهي تقول إنها لا تعرف عنه شيئاً. وقد كنت موجودة عندما تركه معها. وقد أخذته ليلاً وجئت به. وها هو ذا:

وصاح السيد ميجلز لاهث الأنفاس:

- عجباً! يا طفلتي. كيف جئت إلى هنا؟

- جئت في السفينة معك. وكنت جالسة أخفي وجهي في الجانب الآخر. ولما استقللت مركبة عند الميناء، استقللتُ أخرى، وتبعتك إلى هنا. إنها ما كانت لتعطيه لك قط بعدما قلته لها عن الرغبة في الحصول عليه. إنها كانت تفضِّل أن تلقي به في البحر أو تحرقه. ولكن ها هو ذا.

وكان وجه الفتاة مشرقاً ينم عن السعادة وهي تقول: «ها هو ذا» ثم استطردت قائلة:

- ويجب أن أنصفها فأقول إنها لم تكن تريد قط أن يتركه معها، ولكنه تركه. وقد عرفت تماماً بعد الذي قلته لها، وبعد إنكارها له، أنها لن تعطيه لك البتة. ولكن ها هو ذا، يا سيدي العزيز، ويا سيدتي العزيزة، أعيداني إليكما. وأعيدا إليّ اسمي العزيز السابق ليكن هذا الصندوق شفيعي. ها هو ذا.

ولم يحدث أن كان الوالدان ميجلز أجدر باسميهما منهما عندما أخذا الفتاة اللقيطة العنيدة في رعايتهما مرة أخرى.

وصاحت تاتيكورام بعد ذلك وهي تبكي أكثر مما فعلت من قبل:

- أوه! لشد ما كنت بائسة، إنني شقية دائماً. ولا أندم أبداً. لقد امتلأت بالخوف منها منذ رأيتها أول مرة. كنت أعرف أنها ستسيطر عليّ عن طريق فهمها التام لما في نفسي من شر. إن هذا الشر كان نوعاً من الجنون الذي راودني، وكانت هي تعرف كيف تثيره كلما أرادت. وقد اعتدت أن أنكر، عندما وصلت إلى هذه الحالة، أن الناس جميعاً ضدي بسبب ظروف مولدي؛ وأنهم كلما ازدادوا شفقة بي، ازددت إدراكاً لما فيهم من أخطاء. لقد كنت أعتقد أنهم يتباهون عليّ، وأنهم يريدون أن أحسدهم بينما أنا أعرف -بل وعندما كنت أعرف حينئذ لو كان ذلك ممكناً- أنهم لم يكونوا يفكرون في شيء من هذا. وقد هربت من سيدتي

الصغيرة الجميلة عندما لم تكن سعيدة كما ينبغي أن تكون! ولا شك أنها تظن الآن أنني مخلوقة قاسية تعسة! ولكنكما سوف تحدثانها عني بكلام طيب، وتسألانها أن تغفر لي كما فعلتما معي.

وأردفت تاتيكورام في لهجة توسل:

- لأنني لم أعد شريرة كما كنت. إنني ما زلت شريرة طبعاً، ولكنني لست كما كنت من قبل. لقد كنت أرى الآنسة ويد أمامي دائماً وكأنما هي صورة أخرى مني بعد أن نضجت، محولة كل شيء في اتجاه الخطأ، ومغيِّرة كل خير إلى شر. لقد كانت أمامي كل هذا الوقت، لا تشعر بالبهجة إلا في جعلي شقية، مرتابة، معذبة مثلها. ولا يعني هذا أننا كانت في حاجة إلى جهد شديد لكي تفعل هذا..

وصاحت تاتيكورام مردفة وهي في آخر مرحلة من أحزانها المتفجرة:

- لأنني كنت شريرة بقدر ما يمكن أن يكون الشر. وإنما أعني أن أقول فقط، بعد كل ما عانيته، أني آمل ألا أكون على مثل هذا الشر مرة ثانية، وأني سوف أتحسن تدريجياً وببطء شديد. لسوف أبذل كل جهدي. لن أتوقف عند الرقم خمسة وعشرين يا سيدي. لسوف أعد إلى الرقم ألفين وخمسمائة، بل خمسة وعشرين ألفاً.

وفتح الباب مرة أخرى، وهدأت تاتيكورام، وإذا دوريت الصغيرة تدخل، وإذا السيد ميجلز، بكل بهجة وفخر، يقدم إليها الصندوق، وإذا وجهها الرقيق يشرق بالبهجة والسعادة وعرفان الجميل؛ لقد أيقنت أن السر الآن في أمان! إنها تستطيع أن تكتم الجزء الذي تعرفه منه، عن آرثر. وإنه لا ينبغي أن يعرف قط شيئاً مما ضاع منها. وإنما ينبغي فقط، مع مرور الوقت، أن يعرف ما يهمه هو. ولكن ما يخصها هي، فلا يجب قط أن يعرف عنه شيئاً. لقد انتهى هذا كله، وأصبح في عالم النسيان، وموضع الصفح والغفران.

وقال السيد ميجلز:

- والآن يا عزيزتي الآنسة دوريت إنني رجل أعمال -أو كنت هكذا من قبل على الأقل- ولسوف أتخذ فوراً إجراءاتي في هذا الشأن. ألا يحسن أن أرى آرثر الليلة؟

- أعتقد أنه لا يحسن الليلة. لسوف أذهب إلى غرفته وأطمئن على حالته. ولكنني أرى أنه لا يحسن زيارته الليلة.

فقال السيد ميجلز:

- إنني متفق معك في الرأي جداً يا عزيزتي، ولهذا لم أقترب منه إلا بقدر ما بين غرفته وهذه الغرفة الكئيبة. ثم إنه من المحتمل ألا أراه لمدة قصيرة فيما بعد، وسأشرح لك الأمر عندما تعودين.

وانصرفت عن الغرفة. ورآها السيد ميجلز -وهو يطل من بين قضبان النافذة- تمر من البوابة الواقعة تحت الغرفة، وتمضي إلى فناء السجن. ثم قال لتاتيكورام:

- تاتيكورام. تعالي إليَّ لحظة، يا فتاتي الطيبة.

وذهبت إلى النافذة. وهنا قال لها:

- أترين تلك السيدة الصغيرة التي كانت هنا الآن! هذه السيدة ذات الجسم الصغير الرقيق الهادئ التي تمضي هناك. تاتي؟ انظري. إن الناس يفسحون لها الطريق لتمر.. إنهم الرجال، إنهم كما ترين الرجال المساكين البؤساء.. إنهم يرفعون قبعاتهم إليها في احترام وها هي الآن تختفي في المدخل؛ أترينها يا تاتيكورام!

- أجل يا سيدي.

- لقد سمعت يا تاتي، إنها كانت تسمى فيما مضى ابنة هذا السجن. لقد وُلدت هنا، وعاشت هنا سنوات كثيرة، في هذا المكان الذي لا أكاد أستطيع التنفس فيه. مكان فاسد لا يصلح قط لأن يولد فيه إنسان ونمو، يا تاتيكورام.

- أجل يا سيدي، حقاً.

- لو أنها كانت تفكر دائماً في نفسها، وتؤكد لنفسها أن كل شخص يزور هذا المكان يعيرها به، ويحتقرها من أجله، لعاشت حياة كلها القلق، ولربما كان وجودها لا خير فيه. ومع ذلك فقد سمعت يا تاتيكورام أن حياتها الصغيرة كانت مليئة بالرضا بالواقع، وبالخير، وبالعمل الطيب، هل أخبرك عن رأيي في عينيها، وفيما تنظران إليه دائماً حتى اكتسبت تلك الأمارات الحميدة؟

- أجل يا سيدي، إذا سمحت.

- إنه الواجب يا تاتيكورام. ابدئي به في وقت مبكر وأديه على خير وجه وليس هناك ما هو أولى من أداء الواجب، في كل زمان ومكان، أمام الله، وأمام أنفسنا.

وبقينا عند النافذة، وانضمّت إليهما السيدة ميجلز حيث راحت ترثي لحالة السجناء حتى شوهدت دوريت الصغيرة وهي عائدة. وسرعان ما دخلت الغرفة ونصحت بتأجيل زيارة آرثر -الذي تركته هادئاً مستريحاً- الليلة.

وقال السيد ميجلز في استبشار:

- حسناً. لم أكن أشك في أن هذا هو الأفضل. لسوف أعهد إليك أيتها المرضة الحسناء بتحياتي إليه، وأنا أعرف أنك خير من يؤتمن عليها، وذلك لأنني سوف أسافر غداً صباحاً..

وسألته دوريت الصغيرة في دهشة إلى أين سيسافر؟

فقال:

- يا عزيزتي، إنني لا أستطيع أن أحيا بلا تنفس، وقد ضيع هذا السجن أنفاسي ولن أستطيع أن أستردها إلا إذا خرج آرثر من هنا.

- وما شأن هذا بسفرك غداً صباحاً؟

فقال السيد ميجلز:

- سوف تفهمين. لسوف نبيت نحن الثلاثة الليلة في أحد فنادق المدينة. وفي الصباح سوف تمضي السيدة ميجلز وتاتيكورام إلى بيتنا في توتيكنهام حيث لا تزال السيدة تيكيت جالسة في الانتظار مع كتاب صديقها الدكتور بوكان بنافذة غرفة الاستقبال. لا شك أنها ستظن، حين تراهما، أنهما شبحان. أما أنا فسوف أسافر إلى الخارج مرة أخرى لمقابلة دويس، إذ يجب أن نأتي به إلى هنا. وأقول لك يا حبيبتي إنه لا جدوى من الكتابة والتفكير والتدبير، والنظر في هذا الأمر أو ذاك في أوقات مختلفة وأماكن متباينة، وإنما يجب أن يكون دويس هنا. لسوف أكرس نفسي، منذ صباح الغد، للمجيء بدويس إلى هنا. ولن يكون ثمة مشقة في ذهابي للبحث عنه. إنني رحالة خبير، وكل اللغات والعادات الأجنبية سواء في نظري. فأنا لا أفهم شيئاً منها قط، ولهذا فلن أعاني أي ضيق. ولا بد لي أن أمضي فوراً، فهذا ما يحتمله المنطق والعقل، لأني لا أستطيع أن أعيش دون أن أتنفس بحرية، ولن أستطيع التنفس بحرية إلا إذا خرج آرثر من سجن مارشاليزا. وإني لأختنق في الوقت الحاضر، ولم يكن لدي من الأنفاس ما أقول بها كل هذا، وما أحمل بها هذا الصندوق إلى أسفل من أجلك.

وبلغوا الشارع عندما بدأت الأجراس ترن آذنة بالانصراف وكان السيد ميجلز يحمل الصندوق. وقد أدهشه أن رأى دوريت الصغيرة بلا

مركبة في انتظارها. ومن ثم استدعى مركبة لها، فلما استقلتها، وضع الصندوق بجانبها. ولفرط سعادتها وعرفانها بالجميل، قبّلت يده.

وقال السيد ميجلز:

- إنني لا أحب هذا يا عزيزتي، إنه مما يتعارض مع شعوري عما ينبغي أن يكون عليه الصواب، أن تقدمي إليّ فروض الولاء والشكر على باب سجن مارشاليزا.

فانحنت إلى الأمام وقبّلت زوجته. وهنا قال السيد ميجلز وقد اكتأب فجأة:

- إنك تذكرينني بتلك الأيام. ولكنها شديدة الحب له، وتخفي عيوبه وتعتقد أن أحداً لا يرها.. ولكنه في الحقيقة ينتمي إلى أسرة طيبة، وله اتصالات طيبة في جميع الأوساط.

وكان ذلك هو عزاؤه الوحيد عن فقد ابنته. فإذا كان يحاول جاهداً أن يعيش على هذا العزاء، فهل ثمة من يلوم؟

* * *

الضياع



في يوم لطيف من أيام الخريف، جلس سجين مارشاليزا -ضعيفاً ولكنه متهالكاً صحته- ينصت إلى صوت كان يقرأ له. في يوم لطيف من أيام الخريف، عندما كانت الحقول الذهبية قد حُصِدت وحُرِثت مرة أخرى، وعندما كانت فاكهة الصيف قد نضجت، وحال لونها. وعندما فرغ المزارعون المجدون من التقاط حشيشة الدينار من حقولها الخضراء، وعندما اصفرّ لون التفاح في بساتينه المثقلة بالثمار، وثمار التوت البري في الأرض الجبلية قد تحولت إلى اللون القرمزي بين أوراق الشجر المصفرّة. وفي الغابات، كانت بوادر الشتاء القاسي قد ظهرت فعلاً، وبانت دلائلها بين فرجات الأغصان، حيث كانت تبدو واضحة محددة، خالية من نوّار الصيف الوسنان، وحيث كانت تستقر عليها استقرار النوّار على شجر البرقوق. وكذلك لم يكن المحيط يبدو من شاطئه، ساجياً وسنان في حرارة الجو، وإنما كانت تتألق عليه آلاف العيون اليقظى، وتبدو في أنحاء مظاهر النشوة والانتعاش، ابتداءً من الرمل الرطيب فعلى الشاطئ إلى الأشرعة الصغيرة في الأفق وهي تنساب بعيداً كأوراق خريف تهاوت من الشجر لتطفو على غير هدى.

أما السجن، الأجدب الذي لا يتغير، والذي كان يرنو في حماقة وحملقة إلى جميع الفصول بوجهه الكالح المرهق، فلم تكن عليه لمسات من

هذا الجمال. وأياً كان الزهر والنوار، فقد كانت جدرانه وقضبانه تحمل دائماً ميت الحصاد. ومع ذلك فقد كان كليمان ينصت إلى الصوت وهو يقرأ له. ويسمع فيه كل ما تنفعل به الطبيعة الرائعة، وكل ما تردده لبني الإنسان من أغنيات منعشة. ولم يكن ثمة حجر أم، كحجرها، طالما جلس عليه تداعبه أحلام الصبا وأمانيه، وتراوده الخيالات اللعوب، وتزدهر في أعماق أفكاره الأولى تباشير الحنان والتواضع. كما طالما احتمى في أشجارها الضخمة من أعاصير الحياة منذ أن بدأت بذور الحياة تشتد وتقوى في أعماقه. وفي نبرات هذا الصوت الذي يقرأ، كان ثمة ذكريات عن إحساسات قديمة بهذا كله، وكان ثمة أصداء لكل همسات من الحب والرحمة انسابت إلى حياته.

ولما توقف الصوت، وضع يده على عينيه مغمغماً بأن الضوء شديد عليهما.

وضعت دوريت الصغيرة الكتاب جانباً، ثم نهضت بهدوء لتظلل النافذة. وكانت ماجي جالسة في ركنها القديم تعمل في أشغال إبرتها، ولما تلطف الضوء، قربت دوريت الصغيرة مقعدها إلى جانبه قائلة:

- لسوف ينتهي هذا كله الآن في أسرع وقت يا سيد كليمان. إن رسائل السيد دويس ليست مليئة فقط بالصداقة والتشجيع، وإنما هي في نظر السيد راج زاخرة أيضاً بألوان المساعدة له، وإن كل إنسان الآن -بعد أن خفت موجة الغضب- قد أصبح مقدراً لظروفك، محسناً الحديث عنك، مما يبشر بأن كل شيء سوف ينتهي قريباً على خير حال.

- أيتها الفتاة الصغيرة، أيتها القلب الحبيب، أيتها الملاك الكريم.

- إنك تسرف كثيراً في امتداحي. ومع ذلك فما أعظم بهجتي وأنا أسمعك تتحدث هكذا بحرارة، وأن أراك..

ورفعت دوريت الصغيرة عينيها إليه وأردفت قائلة:

- تعني ما تقول بكل عواطفك، بحيث لا أستطيع أن أطلب منك أن تكف.

ورفع يدها إلى شفتيه وقال:

- هل جئت إلى هنا كثيراً، كثيراً جداً، دون أن أراك يا صغيرتي.

- أجل كنت هنا في بعض الأحيان، دون أن أدخل الغرفة.

- في أحيان كثيرة؟

فقالت الصغيرة في دعة:

- نعم.

- كل يوم.

وترددت دوريت الصغيرة قبل أن تقول:

- أظن أنني كنت آتي إلى هنا مرتين في اليوم على الأقل.

وكان من الممكن أن يترك اليد الرقيقة بعد أن قبّلها بمرارة مرة أخرى، ولكنه لاحظ أنها تتراخى في سحبها بكل رفق، وكأنها تريد أن تبقى هكذا في مكانها، ومن ثم أخذها بين يديه ووضعها على صدره قائلاً:

- يا صغيرتي العزيزة دوريت، ليس سجني فقط الذي سينتهي قريباً، بل لا بد أن يوضع لتضحياتك هذه كلها حد. يجب أن نتعلم كيف نفترق مرة أخرى، وكيف يمضي كل منا في طريق أبعد ما يكون عن طريق الآخر. إنك لم تنسي ما قلناه معاً يوم عدت.

- أوه، لا. إنني لم أنسَ ولكن لقد حدث شيء.. إنك تشعر اليوم بالقوة، أليس كذلك؟

- نعم، تماماً.

واقتربت اليد التي يمسكها قليلاً نحو وجهه وهي تقول:

- هل لديك من القوة ما يكفي لكي تعلم مقدار الثروة الهائل التي حصلت عليها.

- لسوف يسرني جداً أن أعرف. وليس هناك ثروة يمكن أن تكون كبيرة أو عظيمة على دوريت الصغيرة.

- لقد كنت أنتظر في شوق بالغ لأخبرك. لشد ما كنت أهفو، وأهفو إلى إخبارك. والآن هل أنت واثق بأنك لا تقبل أن تأخذها كلها.

- مستحيل.

- وهل أنت واثق تماماً بأنك لا تقبل نصفها.

- مستحيل يا صغيرتي دوريت!

وفيما كانت تنظر إليه في صمت، لاحظ على وجهها العطوف شيئاً لم يستطع أن يفهمه تماماً، شيئاً يمكن أن يجعلها تنفجر باكية بعد لحظة، ومع ذلك يضفي على وجهها أمارات السعادة والزهو.

- لسوف تشعر بالأسف حين أخبرك بما حدث لفاني. لقد فقدت المسكينة كل أموالها، إلا إيراد زوجها. كل ما أعطاه أبي لها عند زواجها ضاع كما ضاع مالك.. وكان ذلك على اليد نفسها. وقد ضاع كله.

كانت مفاجأة آرثر أشد من دهشته عند سماعه لهذا الخبر.. وأخيراً قال:

- كنت أرجو ألا يكون الأمر على هذا النحو من السوء. إلا أنني كنت أتوقع أن تحدث لها خسائر مالية ضخمة بسبب ما كان لزوجها من علاقة وطيدة مع المحتال.

- نعم. لقد ضاع كل مالها. وإني لشديدة الأسف لفاني.. شديدة الأسف جداً، جداً، جداً للمسكينة فاني. وكذلك لأخي المسكين أيضاً.

- أكانت أمواله بين نفس الأيدي؟

- نعم. وقد ضاعت كلها. فكم تظن مبلغ ثروتي الكبيرة.

ونظر آرثر إليها متسائلاً وقد خامره خوف جديد. أما هي فقد سحبت يدها ووضعت خدها مكانها، وقالت:

- لم يعد لي شيء في هذا العالم. لقد أصبحت فقيرة تماماً كما كنت هنا.

فعندما جاء أبي إلى إنكلترا، وضع كل ما كان يملكه بين يدي السيد ميردل، وقد ضاع كل شيء. والآن يا عزيزي هل أنت واثق من أنك لا تريد أن تشاركني ثرائي؟

وفيما كانت مستكنة بين ذراعيه، ملتصقة بقلبه، ودموعه الحانية تتساقط على خدها. لفّت هي يدها الأخرى حول عنقه، وأمسكت باليد الثانية، وقالت:

- لا فراق أبداً يا عزيزي آرثر، لا فراق بيننا بعد ذلك إلا في نهاية العمر. إنني لم أكن قط ثرية من قبل، لم أكن قط عزيزة النفس من قبل، لم أكن قط سعيدة من قبل، وإنما الآن ثرية بك، عزيزة النفس في استجابتي لك، سعيدة بوجودي معك حتى بين جدران السجن، كما سأبقى سعيدة في عودتي إليه معك إذا كانت هذه مشيئة الله، لكي أرعاك وأخدمك بكل حب وإخلاص. إنني لك في كل مكان، وإني أحبك أشد الحب! بل إني أفضل أن أقضي حياتي هنا معك، وأخرج كل يوم لأكسب رزقنا على أن تكون لدي أكبر ثروة عرفها إنسان، أو أن أكون أعظم سيدة على سطح الأرض. آه، لو أن أبي فقط يعرف إلى أي حد يخفق قلبي بالسعادة أخيراً، في هذه الغرفة التي شَقِي فيها كل هذه الأعوام...

كانت ماجي بطبيعة الحال تحملق إلى ما يجري أمامها منذ اللحظة الأولى وكانت بطبيعة الحال قد أدمت عينيها من البكاء قبل ذلك بمدة طويلة. أما الآن فقد فاضت بهجتها بحيث أخذت -بعد أن احتضنت أمها الصغيرة بكل قوتها- تهبط على السلم كأنها ترقص متعثرة على نغمات مزمار قرني، لتبحث عن هذا أو ذاك وتفضي إليه بسعادتها. فبمن تلتقي ماجي إلا بفلورا أو عمة السيد «ف» وهما تقبلان على السجن مصادفة؟ ومن غيرهما، بالتالي، تجد دوريت الصغيرة في انتظارها عندما غادرت غرفة آرثر بعد ذلك بساعتين أو ثلاث؟

كانت عينا فلورا حمراوين بعض الشيء، وروحها المعنوية هابطة. أما عمة السيد «ف» فكانت متصلبة الهيئة كأنها مصبوبة في قالب منحنٍ من الجص بوساطة آلة ضغط قوية. وكانت قبعتها مائلة خلف رأسها بشكل مزعج، وكان نقابها الشبكي حول رأسها متجمداً كأنما تحجر على رأس «غرغونة»[1]. وبمثل هذه المظاهر المهيبة، كانت عمة السيد «ف» أمام الجميع على الدرجات الخارجية لمسكن مدير السجن، كما كانت خلال الساعتين أو الثلاث المذكورة هدفاً رائعاً للشبان من نزلاء السجن، الذين كانت تذود هجمات فكاهاتهم بطرف مظلتها بين الحين والآخر.

وقالت فلورا:

- إنني جد واثقة، يا آنسة دوريت، أن اقتراحي للذهاب إلى أي مكان على واحدة ارتفعت إلى العلى بالثروة وأصبحت موضع الرعاية والتكريم من أحسن طبقات المجتمع لا بد أن يبدو تدخلاً وتطفلاً حتى لو لم يكن محل الفطائر غير بعيد من مجالنا هذا وحتى لو كانت غرفته الخلفية مناسبة لأي شخص متحضر ولكن من أجل -لا أستطيع أن

(1) المرأة القبيحة جداً بحيث تبدو كالغولة في الأساطير.

أتغلب على هذه العادة غير اللائقة الآن وأعني دويس وكلينام سابقاً- أريد أن أبدي إذا أمكن ملاحظة صغيرة وأريد أن أقدم إذا أمكن تفسيراً بسيطاً ولعلك تأذنين بهذا لطيبة قلبك في أثناء تظاهرنا نحن الثلاثة بتناول ثلاث فطائر باللحم في المكان المتواضع الذي يمكن أن نتحدث فيه.

واستطاعت دوريت الصغيرة أن تصدق في استنتاجها لما يحمله هذا الحديث الغامض من معنى، فقالت إنها تضع نفسها تحت أمر فلورا. ومن ثم تقدمت فلورا في الطريق إلى محل الفطائر المذكور عبر الشارع. وكانت عمة السيد «ف» تسير في الخلف ببطء، وتعرض نفسها للسقوط تحت عجلات المركبات بإلحاح جدير بهدف أسمى.

وبعد أن وضعت «فطائر اللحم الثلاث الصغيرة» -التي ستكون ستاراً للحديث- على المائدة أمامهن، في ثلاثة أطباق صغيرة من المعدن، وكل فطيرة مزينة في سطحها بفجوة سكب فيها النادل كمية من الصلصة الساخنة، من إناء كالإبريق وكأنه يطعم ثلاثة حملان، بعد هذا تناولت فلورا منديلها وبدأت الحديث قائلة:

- إذا كانت خيالات الحلم السعيد يمكن أن تتصور أن آرثر -معذرة لا أستطيع التخلص من هذه العادة- قد استرد حريته حتى لو كانت ذلك بعيداً بعد هذه الفطيرة من أن تكون غير مورقة وقليلة اللحم كما هي الآن مثلها في ذلك مثل فطيرة جوزة الطيب المهروسة عندما تقدم بطريقة غير مرضية، هذه الخيالات والأحلام قد طارت إلى الأبد وانتهى كل شيء ولكن لإدراكي أن العلاقات الرقيقة لها اعتبارها فإني أرجو أن أعلن أنني أتمنى الخير من صميم قلبي للاثنين معاً ولا أجد أي عيب فيهما بأي حال من الأحوال وإنه لأمر مؤلم أن أعرف أنني قبل أن تجعلني يد الزمن أقل كثيراً من ناحية الرشاقة مما كنت من قبل وأكثر قابلية للاحمرار بشكل مزعج عند أقل مجهود لا سيما بعد الأكل وهذا ما وصلت إليه من

بدانة وترهل دون أن يكون لأبوي دخل في هذا ولكن ربما من كثرة التفكير المتوالي ولا سيما بعد أن عرفت عن طريق السيد «ف» مفتاح السر الخفي ولكنني مع هذا لا أستطيع أن أكون غير كريمة مع كليهما وأتمنى لهما من صميم قلبي الخير.

وتناولت دوريت الصغيرة يدا، وشكرت لها كل شفقتها السابقة.

وردت فلورا قائلة وهي تقبلها بإخلاص:

- لا تسميها شفقة لأنك كنت دائماً أعز وألطف إنسانة صغيرة عرفتها في حياتها إن جاز لي أن أقول هذا وحتى من وجهة إدخال المال كنت أعجوبة فعلاً وإن كان لا بد أن أضيف إلى هذا أنك كنت أبرع كثيراً مني في هذا المجال وإن كان ذلك لا يعني أنني لا أحب أن يكون لدي الكثير منه وإن كان الكثير من يتعب الإنسان أكثر مما يريحه ويحرمه من البهجة التي يهفو إليها ولكنني أهذي كالعادة والواقع أنني أرجو أن أعرب قبل أن ينزل الستار على الفصل الأخير عن أمل واحد وهو أن يعلم آرثر عن طريقك من أجل أيامنا الماضية ووفائنا الماضي إنني لم أتخل عنه في محنته ودائماً آتي وأذهب باستمرار لأسأل إذا كان في مقدوري أن أفعل شيئاً له وإنني كنت أجلس في محل الفطائر حيث يأتيني النادل كل مرة بشيء ساخن من الفندق المجاور مع شراب منعش وهكذا كنت أجلس الساعات اللطيفة بعد الساعات في صحبته عبر الطريق دون أن يعرف شيئاً من هذا.

وطفرت الدموع الحقيقية من عيني فلورا الآن، وقد جعلتها تبدو في شكل أحسن مما كانت.

واستطردت فلورا تقول:

- وأهم من كل شيء أرجوك بكل إخلاص يا أعز إنسانة عرفتها إن كنت ما زلت تغفرين لي جرأتي في الحديث معك، رغم أني أعيش في

مستوى اجتماعي أقل كثيراً من مستواك، أرجوك أن تجعلي آرثر يفهم أنني بعد كل هذا لا أدري ما إذا كان لغواً كله ما حدث بيننا، وإن كان لغواً بهيجاً في تلك الأيام قبل أن يأتي السيد «ف» ويحطم ذلك الجو السحري، وما إذا كان من الممكن إعادته من جديد رغم تغير الظروف التي اجتمعت لتمنع هذا وليس أقل هذه الظروف ما حدث في البيت وإنني لست على استعداد لأقول إن كان هذا الأمر مرضياً لآرثر وإنه فكر فيه بطريقة طبيعية فإنني لن أكون معارضة إطلاقاً لا سيما وأن ظروفي في البيت لم تعد لطيفة كما كانت لأن مزاج أبي ولا شك من أسوأ الأمزجة المعروفة بين الرجال، ولم يتحسن مزاجه طبعاً منذ الذي جرى له على يدي ذلك الرجل حتى أصبح شيئاً لم أرَ له مثيلاً في حياتي ولكن الغيرة ليست من طبيعتي، ولا سوء النية رغم كل ما في من عيوب.

ورغم أن دوريت الصغيرة لم تفهم شيئاً كثيراً من هذا التيه اللغوي إلا أنها أدركت بالاستنتاج أن فلورا تريد أن تعود العلاقة بينها وبين آرثر، وقد أعربت لها، بلطف، عن استعدادها لتبليغ رغبتها إليه.

وقالت فلورا في ابتهاج شديد:

– وبهذه المناسبة أقول لك يا عزيزتي إن المحراب قد انهدم وإن الصاري الضخم قد انهار وإن الهرم أصبح الآن مقلوباً وواقفاً على ما لا أدري ماذا ولكن لا بسبب الدوار، ولا بسبب الضعف وإنما بسبب الحماقة ولم يعد هناك الآن ما يدعو لأن عيش في عزلة وأتأمل بقايا السعادة الضائعة ولكن اسمحي أن أتجرأ مرة أخرى وأدفع ثمن الفطائر التي اتخذنا منها ستاراً متواضعاً لحديثنا هذا وداعاً.

وكانت عمة السيد «ف» قد أكلت فطيرتها في اهتمام بالغ، ثم راحت تدير في ذهنها أفكاراً عما نالها من إهانات عندما جلست أول مرة

في ذلك الوضع العام فوق درجات مسكن حاكم السجن. وقد انتهزت هذه الفرصة لتوجه الحديث التالي إلى أرملة ابن أخيها الراحل:

- إيتيني به وسوف أخنقه.

وعبثاً حاولت فلورا أن تهدئ ثائرة تلك السيدة الممتازة بأن تبين لها أنهما في الطريق إلى البيت لتناول طعام العشاء. ولكن عمة السيد «ف» أصرت قائلة:

- إيتيني به لأخنقه.

وبعد أن كررت هذا الطلب بضع مرات وهي تحملق في وجه دوريت الصغيرة بروح التحدي، عقدت ذراعيها على صدرها وجلست في ركنها من محل الفطائر، رافضة بإصرار أن تتزحزح من مكانها حتى «يأتي إليها» وتجري عليه عملية الاختناق التي تحدد مصيره.

وفي هذه الحالة أسرت فلورا إلى دوريت الصغيرة أنها لم ترَ قط عمة السيد «ف» على هذا النحو من الحيوية والنشاط وقوة الإرادة منذ أسابيع، وأنها من ثم قد تضطر للبقاء «ساعات كاملة» حتى تستطيع أن تهدئ ثائرة السيدة العنيدة، وأنها تستطيع أن تفعل هذا على انفراد. وهكذا افترقتا على مودة وبألطف المشاعر من الجانبين.

وظلت عمة السيد «ف» صامدة كقلعة منيعة، ومن ثم شعرت فلورا بحاجتها إلى ما ينعشها، فأرسلت من يأتي إليها ببعض الشراب من الفندق المجاور. وبهذا الشراب ومع صحيفة المساء، ومع بعض الحلوى من محل الفطائر، أمضت فلورا بقية اليوم في حالة معنوية طيبة، وذلك رغم شعورها بالارتباك الناشئ من إشاعة انتشرت بين الأطفال السذج في الحي، مؤداها أن السيدة العجوز قد باعت نفسها لمحل الفطائر لكي تصنع الفطائر منها، وأنها جالسة في غرفة الجلوس بالمحل، رافضة تنفيذ

العقد. وقد اجتذب هذا عدداً كبيراً من الصغار من كلا الجنسين وهذا بدوره أثار عند هبوط ظلال المساء، ارتباكاً كثيراً في سير العمل بالمحل بحيث أمسى صاحبه شديد الإلحاح في وجوب انصراف عمة السيدة «ف». وبناءً على هذا استدعيت مركبة إلى الباب، وتعاون صاحب المحل مع فلورا على إغراء تلك السيدة الممتازة للصعود إلى المركبة، ولكنها لم تنسَ بعد أن فعلت هذا أن تطل برأسها من نافذة المركبة وتطالب «بإحضاره إليها» لتتخذ معه ذلك الإجراء السابق ذكره. ولما لوحظ في ذلك الوقت أنها توجه نظراتها الغاضبة نحو سجن مارشاليزا، انعقد الرأي على أن هذه السيدة الممتازة العنيدة تعني «بذلك الشخص المجهول الذي تطالب به» آرثر كلينام. ولكن هذا الرأي كان على كل حال قائماً على أساس من التخمين والاستنتاج، أما ذلك الشخص الذي ينبغي إحضاره إرضاءً لعمة السيد «ف» ولكنه لم يحضر قط، فلن يعرف أحداً أبداً من هو على وجه اليقين.

وتوالت أيام الخريف، ولم تعد دوريت الصغيرة تذهب إلى سجن مارشاليزا دون أن ترى آرثر. لا، لا، لا.

وفيما كان آرثر ذات صباح يرهف السمع في انتظار وقع الأقدام الخفيفة التي كانت تصل إلى قلبه وهي تصعد السلم في كل صباح، حاملة معها ذلك الإشراق المقدس للحب الجديد فتضيء به الغرفة التي شهدت من قبل حباً سابقاً مخلصاً بين الأب وابنته، فيما كان يتسمع هكذا ذات صباح، إذا به يسمعها آتية ولكن مع شخص ما.

وسمع صوتها المبتهج خارج الباب وهي تقول:

– عزيزي آرثر، إن معي شخصاً هنا، هل أدخله معي؟

وكان قد ظن من وقع الأقدام أن معها شخصين، ولكنه قال:

- أجل.

ودخلت مع السيد ميجلز الذي بدا ملوح الوجه بالشمس سعيد الأمارات، فاتحاً ذراعيه ليضم آرثر إليه كأي والد ملوح الوجه بالشمس سعيد الأمارات.

وقال السيد ميجلز بعد لحظة أو نحوها:

- إنني الآن على خير حال. الآن قد انتهى كل شيء. اعترف فوراً يا عزيزي آرثر أنك كنت تتوقع زيارتي لك من قبل.

فقال آرثر:

- نعم، ولكن إيمي أخبرتني...

وهمست إيمي قائلة:

- دوريت الصغيرة، هذا اسمها الذي ليس لها غيره.

- ولكن صغيرتي دوريت أخبرتني -دون أن توضح لي شيئاً- أن عليّ ألا أنتظرك حتى أراك.

فقال السيد ميجلز وهو يعود ويصافحه بحرارة:

- وهأنت ذا تراني يا ولدي.. وسوف يوضح لك كل شيء، ويقدم لك كل تفسير. والحقيقة هي أنني كنت هنا.. جئت رأساً إليك في من فرنسا وإلا لمنعني الخجل من أن أنظر إليك هذا اليوم. ولكنك لم تكن في حالة تسمح بزيارة أحد لك، وكان عليّ أن أعود إلى السفر للبحث عن دويس.

وتنهد آرثر قائلاً:

- دويس المسكين.

فقال السيد ميجلز:

- لا تنعته بصفات لا يستحقها. إنه ليس مسكيناً، إنه ناجح في عمله إلى حد كبير. إن دويس شخصية رائعة حيث هو الآن وأؤكد لك أنه يقوم بعمله في نشاط موفور، ونجح في اختراعه نجاحاً كبيراً. نعم. لقد وقع خيراً واقفاً على ساقية إن الرجل الذي يريد أن يعمل بين قوم لا يريدون أن يعمل شيئاً، فهو واقع على رأسه. أما الذي يريد أن يعمل بين قوم يرحبون بما يعمل، فهو واقع على ساقيه. لن يكون هناك ما يدعو إلى قلقك بعد اليوم بشأن إدارة الشؤون العامة. ودعني أقل لك إن دويس قد نجح دون حاجة إليها.

فصاح آرثر قائلاً:

- يا للعبء الذي رفعته عن عاتقي.. يا للسعادة التي ملأت بها قلبي.

فردّ السيد ميجلز قائلاً:

- السعادة؟ لا تتحدث عن السعادة حتى ترى دويس. أؤكد لك أنه هناك يقوم بالعمل، ويوجه العُمّال ويدير الأعمال بطريقة تجعل شعرك يقف على رأسك وأنت ترقبه، إنه الآن ليس عدواً للمجتمع، بارك الله فيك. وإنما أصبح صدره الآن مليئاً بالأوسمة والنياشين والمداليات والنجوم وكل ما لا أدري أيضاً من ألوان التكريم وكأنه ولد نبيلاً. ولكننا لن نتحدث عن هذا هنا.

- لماذا لا؟

فقال السيد ميجلز وهو يهز رأسه في هيئة جادة جداً.

- أوه، لا! يجب أن يتكتّم هذه الأشياء في حرص شديد عندما يأتي إلى هنا، إن هذا كله لن يفيده هنا، إن بريطانيا في هذا الشأن هي نفسها بريطانيا في عقر دارها.. إنها نفسها لا تسبغ ألوان هذا التكريم على

أبنائها، ولا تسمح لهم أن يظهروا داخلها بهذا التكريم الذي أسبغته عليهم الدول الأخرى. لا، لا..

وهز السيد ميجلز رأسه مؤكداً:

- لا، إن هذا لا يجدي هنا.

فصاح آرثر:

- لو أنك أعدت إلى ضعف ما فقدت، لما جعلتني أسعد حالاً مما أنا الآن بعد سماع هذه الأنباء.

فأيده السيد ميجلز قائلاً:

- طبعاً، طبعاً! إنني أعلم هذا طبعاً يا صديقي العزيز. وهذا ما جعلني أبدأ الحديث بهذه الأنباء. والآن، لنعد إلى الوراء، إلى كيفية عثوري على دويس. لقد عثرت عليه. التقيت به بين أولئك الرجال الملثمين السمر الوجوه في بعض المناطق الصحراوية، الذين يسمون أنفسهم عرباً وغير ذلك من مختلف الأجناس التي لا أعرفها وكان ماضياً في طريقه نحوي مباشرة، وكنت ماضياً في طريقي نحوه مباشرة. وهكذا عدنا معاً.

فهتف آرثر قائلاً:

- هل دويس في إنكلترا؟

فقال السيد ميجلز باسطاً ذراعيه:

- ويحي! إنني أسوأ إنسان في الوجود يصلح للقيام بهذا النوع من العمل. إنني لا أدري ماذا كنت أفعل لو أني خدمت في السلك الدبلوماسي يوماً. حسناً! إن خلاصة الأمر يا آرثر هي أننا معاً كنا في إنكلترا خلال الأسبوعين المنصرمين. وإذا مضيت في سؤالك عن أين يكون دويس في الوقت الحاضر. لأجبتك ببساطة قائلاً، ها هو ذا! والآن أستطيع أن أتنفس براحة في النهاية!

واندفع دويس من وراء الباب، وأخذ آرثر بين ذراعيه، ثم سرد بقية ما حدث بنفسه، فقال:

- إن لموضوعي ثلاث نواحٍ فقط يا عزيزي كلينام..

وراح يشكل هذه النواحي بضع مرات بإبهامه اللدن على كف يده، ثم يستطرد قائلاً:

- وسرعان ما فرغنا منها. أولاً، لا أريد أن أسمع منك كلمة واحدة أرى عن الماضي. لقد كان ثمة خطأ في تقديراتك. وأنا أعرف ما هو، وقد أثر عليّ الموضوع كله وكان الفشل هو النتيجة. وسوف تستفيد من هذا الفشل، وتتجنبه فيما بعد. وقد فعلت مثل هذا بنفسي في أثناء عملي كثيراً. وإن كل فشل يعلم الإنسان شيئاً، إذا أراد أن يتعلم، وإنك إنسان عاقل ذكي تعرف كيف تتعلم من فشلك. وهذا يكفي بالنسبة للناحية الأولى من الموضوع، أما الثانية، فإني شديد الأسف لأنك قسوت على نفسك كل هذه القسوة، وانهلت عليها بكل هذا التأنيب.

لقد مضيت في طريق العودة إلى الوطن، ليلاً ونهاراً، لأصلح الأمر بمعاونة صديقنا هذا بعد أن التقينا معاً كما ذكر لك. وثالثاً: تم الاتفاق بيننا، نحن الاثنين، أنه بعد الذي عانيته، وبعد آلامك النفسية، وبعد مرضك البدني أن أحسن مفاجأة لك هي أن نقوم بإجراءاتنا في هدوء وبدون علمك، ثم نأتي ونخبرك بأن كل شيء قد صلح، وأن كل شيء أصبح على خير حال، وأن المصنع أصبح في أشد الحاجة إلى خدماتك، وأن ثمة مستقبلاً جديداً مجيداً قد انفتح أمامنا معاً كشريكين. هذه هي الناحية الثالثة. ولكنك تعلم أننا دائماً نعمل حساباً للطوارئ. ولهذا احتفظت بشيء للنهاية. إنني يا عزيزي كلينام أضع كل ثقتي فيك. إن في مقدورك أن تكون نافعاً لي كما كان في مقدوري أن أكون نافعاً لك. إن مكانك القديم في انتظارك، وهو أحوج ما يكون إليك. وليس هناك ما يرغمك على البقاء ولو لمدة نصف ساعة أخرى.

وخيم السكون الذي لم ينقطع إلا بعد فترة وقف فيها آرثر إلى النافذة وظهره إليهم، وإلا بعد أن ذهبت إليه زوجته الصغيرة، باعتبار ما سيكون، ووقفت بجانبه.

لقد قال دانييل دويس عندئذ:

- لقد أبديت ملاحظة منذ فترة وجيزة أعتقد أنها جانبت الصواب بعض الشيء. قلت إنه ليس ثمة ما يرغمك على البقاء هنا يا كلينام نصف ساعة أخرى. فهل أكون مخطئاً لو اعتقدت أنه من الأفضل لو أنك بقيت هنا حتى الصباح الغد؟ أتعرف، دون أن تقدح زناد فكرك كثيراً، أين تحب أن تذهب بعد أن تنصرف عن هذه الأسوار، وعن هذه الغرفة؟

فردّ آرثر قائلاً:

- إنك تعرف أن هذا الأمر كان أملاً منشوداً لنا نحن الاثنين.

فقال دويس:

- حسناً جداً. إذا شرفتني هذه السيدة الصغيرة واعتبرتني والداً لها لمدة أربع وعشرين ساعة وركبت معي الآن نحو فناء كنيسة سانت بول، فيمكنني القول إنني أعرف ماذا نريد هناك.

وسرعان ما خرجت دوريت الصغيرة معه بعد ذلك، وتلكأ السيد ميجلز وراءهما ليقول شيئاً لصديقه:

- أعتقد يا آرثر أنك لن تريدني وزوجتي غداً صباحاً، وأن نبتعد عن هذا الموضوع، إنه قد يجعل زوجتي تفكر في ابنتنا بيت، إنها سيدة رقيقة القلب، ومن الخير لها أن تبقى في كوخنا، وأن أذهب لأبقى بجانبها.

وافترق بهذا عن صديقه إلى حين. وانتهى اليوم، وانتهت الليلة، وأسفر الصبح، وأقبلت دوريت الصغيرة بملابسها البسيطة كالمعتاد، إلى

السجن مع شروق الشمس، دون أن يكون معها أحد غير ماجي. وكانت الغرفة الكئيبة، مشرقة بالسعادة في ذلك الصباح، وإلا فأية غرفة أخرى في العالم يمكن أن تزخر بمثل هذه الفرحة الغامرة؟

وقال آرثر:

- يا حبيبتي؟ لماذا تضرم ماجي النار في المدفأة، إننا سنخرج فوراً.

- لقد طلبت منها هذا لأن خاطراً عجيباً قد طرأ عليّ. إنني أريد أن تحرق شيئاً من أجلي.

- ماذا؟

- هذه الورقة المطوية. لو أنك وضعتها في النار بيدك، فسوف ترضي هذا الخاطر الذي طرأ عليّ.

- ما هذه الخرافات يا حبيبتي الصغيرة دوريت؟ أهي تميمة؟

فقالت وهي تضحك بعينين متألقتين وتتطاول على أطراف قدميها لكي تقبله:

- إنها أي شيء تحبه أحسن من غيره يا حبيبي لو أنك فقط أرضيتني عندما تضرم النار.

وهكذا وقفا أمام النار ينتظران، وذراع كلينام حول خصرها، والنار تسطع كما سبق أن سطعت كثيراً بنفس الغرفة في عيني دوريت الصغيرة. وقال آرثر:

- هل اشتعلت بما يكفي الآن؟

فقالت دوريت الصغيرة:

- نعم، اشتعلت بما يكفي الآن.

فسألها آرثر وهو يمسك بالورقة فوق النار:

- هل تحتاج التميمة إلى أي كلام يقال؟

فأجابت دوريت الصغيرة:

- يمكنك أن تقول، إذا لم يكن لديك مانع، «أحبك».

وقالها كلينام، واحترقت الورقة.

ومرّا بكل هدوء عبر الفناء، لأنه لم يكن ثمة أحد فيه، رغم أن كثيراً من العيون كانت تختلس إليهما النظر من النوافذ. ولم يلتقيا إلا بشخص واحد، معروف لهما منذ زمن في «كشك» الحراسة. وبعد أن بادراه، هما الاثنان بالتحية، وتحدثا إليه حديثاً طيباً، عادت دوريت الصغيرة واستدارت إليه للمرة الأخيرة باسطة يدها نحوه قائلة:

- وداعاً أيها الكريم جون. أرجو لك يا عزيزي حياة كلها السعادة.

ثم صعدا معاً درجات كنيسة سانت جورج المجاورة، ومضيا إلى المحراب حيث كان دانييل دويس في انتظارهما بهيئة أبوية. وهناك كان صديق دوريت الصغيرة القديم الذي أعطاها سجل الموتى لتجعله وسادة تحت رأسها. وكان مفعماً بالإعجاب لعودتها، أخيراً، إلى الكنيسة لكي تتزوج.

وتم زواجهما، وكان ضوء الشمس يسطع عليهما من خلال الصورة المرسومة على زجاج النافذة للمخلص يسوع. وقصدا إلى الغرفة التي سبق أن نامت فيها دوريت الصغيرة بعد حفلتها، لكي يوقّعا على عقد تسجيل الزواج. وهناك كان السيد بانكس الذي قدر له أن يكون كبير الكتبة في شركة دويس - كلينام، ثم شريكاً بعد ذلك، جاء ليشاهد عملية التوقيع في السجل بعد أن دفن أوراق الضغائن من أجل صديق وكان بكل شهامة قد جعل فلورا تعتمد على ذراعه، وماجي على ذراعه

الأخرى، ومن ورائهم كان جون شيفري ووالده وغيرهما من الحراس الذين أسرعوا لمشاهدة هذه اللحظة، تاركين مارشاليزا الأب من أجل ابنته السعيدة، ولم يكن وجه فلورا ينم عن أي ضيق، رغم حديثها الأخير مع دوريت الصغيرة، بل كانت، على العكس، مرتدية ملابسها بكل أناقة، مستمتعة كل الاستمتاع بمشاهدة مراسم الزواج، وإن كان ذلك في شيء من الاهتياج والاضطراب.

وأمسك صديق دوريت الصغيرة القديم بالمحبرة في أثناء توقيعها باسمها، وتريث الكاتب برهة في رفع الوشاح الكهنوتي عن عانقه وأخذ جميع الحاضرين يتفرجون في اهتمام خاص، عندما راح صديق دوريت الصغيرة القديم يقول:

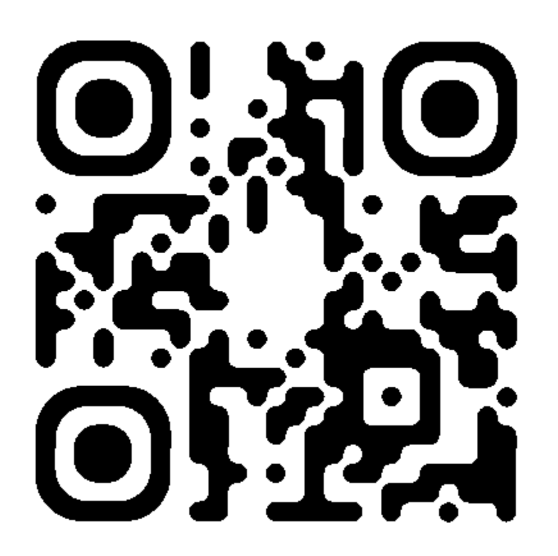
- لأن هذه السيدة الصغيرة، كما ترون، إحدى عجائبنا، وقد جاءت الآن لتوقع في المجلد الثالث من سجلاتنا. إن مولدها سجل فيما أسميه المجلد الأول، وقد نامت على أرضية هذه الغرفة نفسها. ورأسها الجميل فوق ما أسميه المجلد الثاني، وها هي ذي الآن تكتب اسمها الصغير -كعروس- فيما أسميه المجلد الثالث.

وأفسح الجميع الطريق بعد أن تمت مراسم التوقيع، وسارت دوريت الصغيرة مع زوجها، بمفردهما، إلى خارج الكنيسة. وتوقفا برهة على درجات المدخل، يتأملان الشارع وقد سرت فيه بوادر النشاط تحت أشعة الشمس الساطعة في صباح ذلك اليوم من أيام الخريف، ثم انصرفا...

انصرفا إلى حياة من الوداعة والنفع والسعادة. انصرفا ليحوطا بالحنان الأموي -بعد حين- أولادهما وأولاد فاني المهملين ويتيحا لتلك السيدة الفرصة للانغماس في المجتمع الراقي، دائماً، وإلى الأبد. انصرفا ليحوطا بالرعاية والحنان والحب، لمدة سنوات قليلة، الشاب تيب، الذي لم يشعر قط بالاستياء لما اغتصبه منها مقابل ما كان سيعطيه لها من أموال

ضخمة، لو أنه بقي على ثرائه، والذي أغلق عينيه، في رضا، عن سجن مارشاليزا وكل ما فيه من ثمار عفنة. انصرفا في هدوء إلى الشوارع الصاخبة، تحوطهما البركة والاتحاد، وفيما هما يسيران في الضوء وفي الظل، كان الصاخبون، والجادون، والمتغطرسون، والمتبجحون، والمغرورون يتصادمون ويتشاحنون ويثيرون عجيجهم المعتاد.

* * *



فهرس


MOHAMED KHATAB


مكتبة
t.me/soramnqraa

روايات L I T T L E   D O R R I T

telegram @soramnqraa



دوريت الصغيرة

◄ تشارلز ديكنز

شخصيّة «**دوريت الصغيرة**» مستوحاة بواسطة «**ماري آن كوبر**» (ني ميتون)، الّتي كان يزورها **ديكنز** في بعض الأحيان هي وعائلتها.

هي رواية متسلسلة تمّ نشرها بين 1855و1857، وتناقش جوانب القصور لدى الحكومة والمجتمع في تلك الفترة. تركّز غضب **ديكنز**، في هذه الرواية، على المؤسّسات المسؤولة عن سجن المدينين المتعثّرين الّذين لا يستطيعون العمل ليتمكنوا من سداد ديونهم، وكان سجن «**مارشاليزا**» هو المسؤول عن هذه الحالات، وهو السجن الّذي سجن فيه والد ديكنز نفسه؛ وينصبّ معظم النقد، في هذه الرواية بالتحديد، على شبكة الأمان الاجتماعيّ: الصناعة والعلاج وسلامة العمّال وبيروقراطيّة وزارة الخزانة البريطانيّة والتفريق بين الناس استنادًا إلى انعدام التواصل بين الطبقات.

ISBN 978-6589-09-858-4
9 786589 098584

الأهلية
الأردنّ، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2020
الغلاف: ® ☎ 95297109 7 00962